

الخليل والحرم الإبراهيمي عصر الحروب الصليبية

١٠٩٩-١١٨٧ م / ٤٩٢-٥٨٢ هـ

الطبعة الأولى

على أحمد السيد



الخليل والحرم الإبراهيمي فقه عصر القروب الصليبية

(١٠٩٩-١١٨٧ م / ٤٩٢-٥٨٣ هـ)

الدكتور

على أحمد محمد السيد

إشراف الأستاذ الدكتور

محمود سعيد عمران

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت : ٢٧٥٢٧٩٤ - ٢٧٥٢٩٨٤

الخليل والحرم الإبراهيمي في عصر الحروب الصليبية/ على أحمد
محمد السيد؛ إشراف محمود سعيد عمران. - القاهرة : دار الفكر
العربي، ١٩٩٨.

٤٤٩ ص: إيض؛ ٢٤ سم.

بيلوجرافية: ص ٤٠٠ - ٤٤٩.

يشتمل على ثبت بأسماء الحكام ورجال الدين الصليبيين.

يشتمل على قائمة بأهم المختصرات الوارد ذكرها في الكتاب.

تدمك: ٤ - ١١٠١ - ١٠ - ٩٧٧.

١ - فلسطين - تاريخ - العصر الإسلامي. ٢ - الحروب الصليبية في

مصر والشام. ٣ - الخليل - تاريخ. ١ - محمود سعيد عمران، مشرف.

ب - العنوان.

تصميم وإخراج فني

محيي الدين فتحى الشلودى

٩٨ / ٤٠١٩	رقم الإيداع
977 - 10 - 1101 - 4	I. S. B. N الترقيم الدولى

مورس للطباعة والنشر (عمدات / هشام القرينى وشركاه)

١ ش الملق - خلف رقم ١٨١ تر بورسعيد - السجدة زينب ت : ٢٩٥٧١١٤

فهرس الموضوعات

الصفحة

الموضوع

٩	تقديم
١١	المقدمة
١٣	- أهمية الموضوع وأسباب اختياره
١٤	- منهج البحث وتبويه العام
١٧	دراسة نقدية لأهم مصادر البحث ومراجعته :
١٩	أولاً : المصادر الأجنبية
٣٠	أ - المصادر التاريخية
٣٢	ب - الوثائق
٣٦	ج - كتب الرحلات
٤٠	ثانياً : المصادر العربية
٤١	أ - المصادر التاريخية
٤٩	ب - الرحالة والجغرافيون
٥٣	ثالثاً : المراجع الحديثة
٥٧	الفصل الاول : بلاد الخليل حتى غزو الصليبيين لبلاد الشام
٥٩	- مسمى الخليل وحدود الإقليم الطبيعية
٦٢	- جغرافية الخليل : الموقع - طبوغرافية المنطقة ودلالاتها - المناخ
٦٩	- التعرف على المدن والقرى فى منطقة الخليل
٧٩	- التركيب السكانى فى بلاد الخليل وأهميته
٨٣	- ارتباط تاريخ الخليل بشخص النبيين إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم

- ٨٧ - الأوضاع السياسية في بلاد الشام حتى الغزو الصليبي
- الفصل الثاني : تأسيس إقطاعية الخليل وحكامها الصليبيون
- ٩٩ (١٠٩٩ - ١١٨٧ م / ٤٩٢ - ٥٨٣ هـ)
- ١٠١ - الغزو الصليبي لمنطقة الخليل والظروف المحيطة
- إقطاع الخليل وقلعتها إلى جرار دى أفنس (١٠٩٩ - ١٠٠٠ م / ٤٩٣ هـ)
- ١١٠
- ١١١ - علاقة جلدمار كارينل بالملك بلدوين الأول والتوسع حول الخليل
- الخليل وحكامها الصليبيون (١١٠٢ - ١١١٥ م / ٤٩٥ - ٥٠٩ هـ)
- جودفرى سيد برج داود - هيودى سانت أبراهام الأول - روجردى
- ١٢٠ حيفا جوتيه المحمدى
- بلدوين دى سانت أبراهام (١١١٥ - ١١٣٦ م / ٥٠٩ - ٥٣١ هـ)
- ١٣٢ وتبلور النظم الداخلية
- تقييم سياسة تشييت الممتلكات فى إقطاعية الخليل حتى نهاية عهد
- حاكمها هيودى سانت أبراهام الثانى (١١٣٦ - ١١٤٩ م / ٥٣١ - ٥٤٤ هـ)
- ١٣٥
- ١٤٤ - ارتباط الوضع الإقطاعى بشرقى الأردن
- بروز آل همفري على رأس الحكم فى الخليل وتتبع فترات حكم
- ١٤٩ أفرادها
- ١٥٠ - اتحاد الخليل إقطاعياً مع شرقى الأردن وفترة حكم رينودى شاتيو
- ١٦٧ - نهاية الحكم الصليبي فى الخليل
- ١٦٩ - حدود إقطاعية الخليل الصليبية
- ١٧٣ الفصل الثالث : الدور العسكرى لإقطاعية الخليل الصليبية ضد المسلمين
- ١٧٥ - قدرة الخليل الصليبية فى المجال العسكرى

- دور حكام الخليل العسكرى فى حملات الرملة الثلاث : ١١٠١ ،
١٨٧ ١١٠٢ ، ١١٠٥ م / ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٨ هـ
- موقف الصليبيين فى إقطاعية الخليل من البدو ورد الفعل ١٨٨
- هجوم فاطمى دمشقى مشترك ضد الخليل ١١٠٧ م / ٥٠١ هـ :
١٩١ أسبابه ، أحداثه ، نتائجه ، دلالة
- بروز الخليل قاعدة دفاعية هجومية فى جنوب مملكة بيت المقدس ١٩٣
- الموقف العسكرى فى الخليل بعد تشييد القلاع فى الغرب ٢٠٠
- معارك عام ١١٣٩ م / ٥٣٣ هـ. فوق أرض الخليل ونتائجها ٢٠٤
- الموقف العسكرى بين إقطاعية الخليل الصليبية ومصر ، الفعل ورد
الفعل
- التغيرات السياسية حول الخليل وأثرها العسكرى على الإقطاعية
١١٦٤ - ١١٧٧ م / ٥٥٩ - ٥٧٣ هـ
- دور الخليل فى معركة تل الصافية ١١٧٧ م / ٥٧٣ هـ
- معارك رينو دى شاتيو ضد صلاح الدين حتى حطين
٢٢٧ ١١٨٧ م / ٥٨٣ هـ
- القضاء على إقطاعية الخليل الصليبية : تاريخه - الآثار المترتبة عليه ٢٤١
- الصراع الإسلامى الصليبي وأثره على الخليل فى المراحل الأخيرة ٢٥٥
- الفصل الرابع : الحرم الإبراهيمى والمزارات فى بلاد الخليل أثناء الوجود
٢٥٩ الصليبي بها
- ارتباط أصحاب الديانات السماوية الثلاث عقائديا بالخليل ٢٦١
- الكتابات الصليبية الأولى عن الحرم الإبراهيمى ٢٦٥
- قصة اكتشاف رفات الأنبياء (عليهم السلام) ١١١٩ م / ٥١٣ هـ ٢٦٧
- الكتابات الصليبية واليهودية عن الحرم ٢٧٠
- الكتابات الإسلامية ٢٧٢

٢٧٦	- تعليق عام :
٢٧٦	أ - الكتابات تحت الفحص والتحليل المقارن
	ب - تصور شامل للحرم من واقع الكتابات المذكورة والمؤلفات
٢٧٩	الاثريّة
٢٨٢	ج - مدى تأثير إقطاعية الخليل وحرمة بالاكشافات
٢٨٥	د - قضية دفن آدم ويوسف (عليهما السلام) في الخليل
٢٨٦	هـ - ظاهرة ضيافة الخليل
٢٨٩	- المزارات والأضرحة الأخرى في بلاد الخليل :
٢٩٢	أ - المزارات الواقعة في الشمال
٢٩٨	ب - المزارات في الشرق
٣٠١	ج - المزارات في الغرب
٣٠٣	- الظروف المحيطة بحركة الزيارة داخل بلاد الخليل
٣٠٦	- زيارة الخليل بعد الفتح الإسلامي
٣١٠	- آثار الصليبيين الفكرية على حركة الزيارة لمقدسات الخليل
٣١٥	الفصل الخامس : أهم المظاهر الحضارية في بلاد الخليل تحت الحكم الصليبي
٣١٧	- التوزيع والتركيب السكاني في إقطاعية الخليل
٣٢٤	- أوضاع البدو إبان العصر الصليبي
٣٢٧	- الحياة الاجتماعية
٣٢٩	- الحياة الثقافية
٣٣٢	- نظام ملكية الأرض :
٣٣٣	أ - الإقطاع الصليبي
٣٣٣	ب - الأوقاف الإسلامية
٣٣٤	- الحياة الاقتصادية :
٣٣٤	أ - الزراعة وأهم المحاصيل والأشجار المثمرة

٣٤١	ب - الغابات والرعى
٣٤٤	ج - الصناعة
٣٤٧	د - استخراج الاملاح والقطران وغيره
٣٥١	هـ - التجارة وطرقها الدولية والمحلية
٣٦٠	و - الموارد المالية
	- المظاهر العمرانية :
	أ - العمران الصليبي في مدينة الخليل : المدني - الكنسى -
٣٦٤	العسكرى
٣٧٥	ب - العمران فى بيت جبرين : المدني - الكنسى - العسكرى
٣٧٨	ج - العمران فى الريف الخليلى
٣٨٥	الخاتمة
٣٩٣	قائمة بأسماء حكام الخليل ورؤساء الكنيسة والأساقفة بها وسنى ولايتهم
٣٩٥	قائمة المصادر والمراجع
٤٥١	الخرائط والأشكال

تقديم

سعدت كثيرا عندما طُلب منى وضع تقديم لهذا الكتاب، إذ إن مؤلفه د. على أحمد محمد السيد مدرس تاريخ العصور الوسطى بآداب دمنهور بجامعة الإسكندرية، تتلمذ على أثناء دراسته بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية، فلاحظت تميزه بالنشاط والإخلاص وحب العلم والتفانى فى تحصيله، وتأكد لى ذلك حين توليت الإشراف عليه فى رسالته للماجستير وكان موضوعها يدور حول الدور السياسى لإمارة الخليل تحت حكم اللاتين فى الصراع الإسلامى الصليبى، ثم توليت الإشراف أيضا على رسالته للدكتوراه موضوع هذا الكتاب: الخليل فى عصر الحروب الصليبية (١٠٩٩ - ١١٨٧م/٤٩٢ - ٥٨٣ هـ). فأحرزها بمرتبة الشرف الأولى فى تاريخ العصور الوسطى الأمر الذى يجعله من المتخصصين فى مجال تاريخ الحروب الصليبية، وبخاصة فوق أرض فلسطين.

والكتاب الذى أنشرف بوضع تقديمه بين يدى القارئ العربى يعتبر دراسة متدققة ومثانية تضاف إلى المكتبة التاريخية العربية بعامة ومكتبة تاريخ الحروب الصليبية بخاصة؛ إذ تناولت جانبا مهما وفترة عصيبة فى تاريخ فلسطين العربية خلال القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى، حيث مدينة الخليل والبلاد التى تحيط بها وتعد فى زمامها، وهذه البلاد كانت ولا تزال محط اهتمام معتنقى الأديان السماوية الثلاثة، وأعتقد أنها سوف تستحوذ على ذات الاهتمام ما بقيت الأديان. ومن ثم تناول الكتاب دراسة الصراع الناتج عن الغزو الصليبى القائم على محاولة تغيير الواقع السياسى والثقافى والاجتماعى لهذه البقاع التى باركها الله تعالى فى نظر الجميع؛ ففيها عاش الأنبياء عليهم السلام، وفيها بشروا بالوحدانية وهداية البشرية إلى الدين الخنيف.

وبحق، فهذا الكتاب القيم يعد أول دراسة علمية موضوعية متكاملة تشمل جوانب الحكم والسياسة والحرب، بل وأوضاع الحرم الإبراهيمى والمزارات الدينية الأخرى فى بلاد خليل الله إبراهيم - عليه السلام -، وكثير من المظاهر الحضارية المتعلقة بها فى عصر الحروب الصليبية. وقد نجح مؤلفه فى أن يلم بدقة واضحة بأطرافه المختلفة معتمدا على الكثير من الوثائق والمصادر الأصلية والمراجع؛ لكى يخرج بهذه الدراسة المستوفاة.

وقد استهل المؤلف كتابه بدراسة نقدية لمصادر البحث ومراجعته، تؤكد على مدى عمق إفادته منها، ومما أظهرته؛ أن الدراسة ككل ارتكزت على العديد من الوثائق التاريخية الهامة التي لا تزال بلغتها اللاتينية، كما أنها اعتمدت على المصادر المعاصرة الغربية منها والإسلامية على حد سواء، فضلا عن أنها تناولت نقد الأعمال الحديثة التي أفادت منها. وقد اتبع المؤلف منهاجا يقوم على تناول كل مصدر ومرجع على حدة عارضا النقاط الرئيسية التي تمت الإفادة بها من هذه المنابع، ملقيا الضوء على المعلومات التي أفاضت فيها أو التي انفردت بذكرها، وكذلك التي وردت باختصار في أحدها بينما كانت قد وردت باسترسال في آخر. كما حرص على تبيان المعلومات التي أغفلتها بعض مصادره مفندا ما قد وقع ببعضها من خلط أو زلل. وكان في اتباعه لهذا المنهج دليلا على أنه غاص في أعماق هذه الأصول والمراجع، فاستخرج منها مادة تاريخية علمية مدققة قامت على النقد والتحليل، بحيث أثبت قدرته العالية على الفهم والوصول إلى الحقائق.

وعلى مدى فصول خمسة قدم المؤلف دراسته، وسار فيها في اتجاهين يغلب على الأول الصفة السياسية والعسكرية، بينما غلب على الآخر دراسة المكانة الدينية لبقاع بلاد الخليل، وعلى رأسها الحرم الإبراهيمي. إضافة إلى تناول أبرز المظاهر الحضارية مثل : المجتمع والاقتصاد والعمران، وأتبع هذه الفصول بخاتمة سجل فيها أهم النتائج التي توصل إليها والقضايا التي ناقشتها بغرض وضع صورة تقترب من الكمال لبلاد الخليل وحرمها الإبراهيمي في عصر الحروب الصليبية.

وأخيرا، فإن كتاب الخليل والحرم الإبراهيمي في عصر الحروب الصليبية يعد دراسة جادة ومدققة بحيث تشكل إضافة إلى المكتبة العربية في مجال تاريخ الحروب الصليبية، بل وفي مجالات أخرى تخص تاريخ البقاع المقدسة في المنطقة، وكذلك تاريخها الاجتماعي والاقتصادي والعمراني. وما من شك في أن هذا النوع من الدراسات تزداد أهميته في وقت تملؤه التيارات المختلفة التي تشكل أرض الخليل الغالية مسرحا لأحداثها.

الإسكندرية في ٦ أكتوبر ١٩٩٧م

د. محمود سعيد عمران



- أهمية الموضوع وأسباب اختياره
- منهج البحث وتبويبه العام

تعد الحركة الصليبية إحدى الظواهر الرئيسية المميزة لتاريخ العصور الوسطى . وقد استمدت أهميتها من عدة جوانب ، من أهمها أنها استغرقت قرنين من الزمان في بلاد الشام وأن الجانبين الإسلامي والصليبي ، قد تأثرا بها في كافة نواحي الحياة من اجتماعية واقتصادية وسياسية . وعلى ذلك فإن أهمية دراسة هذه الحركة لا تقتصر على الناحية العسكرية فحسب ، بل هي بالأحرى دراسة للعلاقات بين الشرق والغرب في شتى جوانبها ، وإن كان الطابع العسكري قد تغلب عليها منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى / أواخر القرن الخامس الهجرى .

وقد حظيت الحركة الصليبية باهتمام المؤرخين الحديثين فظهرت الأبحاث والدراسات التى تناولتها فى الشرق أو الغرب على حد سواء ، وعلى الرغم من ذلك فلا يزال المجال فسيحاً أمام الباحثين ليقدموا أعمالاً إضافية حولها ، إذ إن جوانب كثيرة من الحركة لم تحظ بالدراسة العميقة المتأنية التى تتناول وجهتى النظر فى الصراع دون تحيز . ومن المعروف أن الصليبيين نجحوا فى تكوين ثلاث إمارات هى على الترتيب الرها وأنطاكية وطرابلس ، إضافة إلى مملكة بيت المقدس الصليبية .

ومن الثابت أنه عندما استولى الصليبيون على الأراضى المقدسة قاموا بنقل النظام الإقطاعى الأوروبى إلى بلاد الشام وقسمت المملكة إلى أربع بارونيات كبرى واثنتى عشرة إقطاعية صغرى ، كانت الخليل إحداها ، وكان المصطلح الصليبي الذى أطلق عليها هو «إقطاعية سانت إبراهيم» Seignorie de St. Abraham أما المسلمون فقد أطلقوا على المدينة والقرى المجاورة التابعة لها اسم بلاد الخليل . وحاول الصليبيون خلال الفترة التى وضعوا أيديهم فيها على الخليل أن يميزوا عصرهم بإقامة عدد من المؤسسات الخاصة ، كما أحدثوا تغييراً فى الجغرافية السياسية للمنطقة ، بل حاولوا صيغ المقدسات ما أمكن بمذهبهم الدينى ، ونشطوا فى جميع المجالات ، الأمر الذى كان جديراً بالدراسة للتعرف على أبعاد هذا الغزو الذى امتد قرابة القرن من الزمن فى منطقة ضمت رابع مقدسات المسلمين .

ومن الأسباب الهامة التى دفعت الباحث إلى اختيار بلاد الخليل كى تكون محوراً لهذه الدراسة ، خلو مكتبة تاريخ العصور الوسطى من عمل علمى متكامل ومتخصص فى هذا الموضوع ، اللهم من بعض الدراسات غير المستفيضة التى اقتصرت على جزئية

معينة فى تاريخ الخليل^(١) . ولذا رأى الباحث أن يبرز الجوانب السياسية والعسكرية والحضارية المختلفة لإقطاعية الخليل الصليبية فجعل عنوان بحثه « الخليل فى عصر الحروب الصليبية من عام ١١٠٩ - ١١٨٧ م / ٤٩٢ - ٥٨٣ هـ » . ولقطة «الخليل» فى العنوان لها دلالتها؛ إذ كانت تطلق على مدينة الخليل والقرى والبقاع المجاورة لها التى وقعت فى يد الصليبيين، الذين أطلقوا عليها اسم إقطاعية «سانت أبراهام»، وهذا يعنى أنه حينما تنسلخ قطعة من الأرض أو تستقل فى شكل إقطاعية صليبية أصغر خلال هذا العصر فإنها تخرج عن حدود موضوع الدراسة .

أما المنهج الذى اتبعه الباحث فى بحثه فيقوم على دراسة تاريخ إقطاعية الخليل فى العصر الصليبي من خلال محورين أساسيين ؛ أولهما : يدور حول أوضاعها الداخلية، ودورها العسكرى ضد المسلمين . أما المحور الثانى فيهتم بالأوضاع الحضارية بشقيها الروحانى والمادى حيث النواحي الدينية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية وغيرها . وعلى الرغم من أن تاريخ المنطقة ينحصر فى هذين المحورين إلا أنه كان لابد من أن يسبقها فصل يلقى الأضواء على أحوال وتاريخ بلاد الخليل قبيل الغزو الصليبي، ويبرز أهمية موقعها وطبوغرافيتها لما لهما من تأثير واضح على دور الإقطاعية فيما بعد فى شتى المجالات . وبذلك يمكن أن نصف المنهج التاريخى المتبع بأنه قام على أساس الدراسة الرأسية الشاملة لكل أقسام البحث المختلفة .

وقد تم تقسيم البحث إلى خمسة فصول بحيث سبقها مقدمة مطولة اشتملت على دراسة نقدية لأهم مصادر البحث ومراجعته . وتناول الفصل الأول أحوال « بلاد الخليل حتى غزو الصليبيين لبلاد الشام » ، إذ عرف الباحث مسمى الخليل وحدود الإقليم الطبيعية وتطرق إلى جغرافية الخليل : الموقع والطبوغرافية والمناخ ، ثم تعرض لموارد المياه فى المنطقة والمدن وأهم القرى، كذلك أوضح عناصر السكان وأهمية ذلك . وأبرز ارتباط تاريخ الخليل بشخص النبيين إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم . ثم تناول الأوضاع السياسية فى بلاد الشام مبرزاً أحوال الخليل حتى الغزو الصليبي .

أما الفصل الثانى وعنوانه « تأسيس إقطاعية الخليل وحكامها الصليبيون من عام ١٠٩٩ - ١١٨٧ م / ٤٩٢ - ٥٨٣ هـ » . فيتضمن دراسة الغزو الصليبي لمنطقة الخليل والظروف المحيطة به، وكذلك تأسيس إقطاعية الخليل بتعيين أول مقطع لها «جراردى أفسن» (١٠٩٩ - ١١٠٠ م / ٤٩٣ هـ) . وتناول علاقة « جلدمار كاربنل » بالملك «بلدوين الأول» والتوسع حول الخليل ، كما تم استعراض حكام الخليل الصليبيين (١١٠٢ - ١١١٥ م / ٤٩٥ - ٥٠٩ هـ) وهم : «جودفراى سيد برج

(١) راجع ما ورد عن الدراسات الحديثة فى نقد المصادر ، ص ٤٢ - ٤٤ .

داود»، و «يهودى سانت إبراهيم»، و «روجر دى حيفا»، و «جوتيه المحمدى». كذلك تم إبراز تبلور الحكم الصليبي فى الخليل على عهد حاكمها «بلدوين دى سانت إبراهيم». (١١١٥ - ١١٣٦ م. / ٥٠٩ - ٥٣١ هـ). وإضافة لذلك قدم الباحث تقييماً لسياسة تشييت الممتلكات فى إقطاعية الخليل حتى نهاية عهد حاكمها «يهودى سانت أبراهام الثانى» (١١٣٦ - ١١٤٩ م / ٥٣١ - ٥٤٤ هـ)، كذلك وضع الباحث ارتباط الخليل إقطاعياً بشرقى الأردن وبروز آل «همفرى» على رأس الحكم فى الخليل متتبعاً فترات حكم أفرادها. كذلك تم التعرض لفترة حكم «رينو دى شاتيو» فى الخليل، وانتهاء السلطة الصليبية فى الإقطاعية. وفى ختام الفصل تم توضيح الملامح الأساسية لحدود إقطاعية الخليل خلال تاريخها الصليبي.

وفى الفصل الثالث وعنوانه «الدور العسكرى لإقطاعية الخليل الصليبية ضد المسلمين». وفيه تناول الباحث قدرة الخليل الصليبية فى المجال العسكرى، ثم تعرض لدور حكام الخليل فى حملات الرملة الثلاث: ١١٠١، ١١٠٢، ١١٠٥ م / ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٨ هـ. ثم تم إبراز موقف الصليبيين من البدو فى إقطاعية الخليل، ودلالته. بالإضافة إلى ذلك تناول الباحث الجوانب المحيطة بالهجوم الفاطمى الدمشقى المشترك ضد الخليل (١١٠٧ م / ٥٠١ هـ) وإلى أى حد تمكنت المدينة من القيام بدور دفاعى هجومى فى جنوب مملكة بيت المقدس!! وأتبع الباحث ذلك بتوضيح للموقف العسكرى فى الخليل بعد تشييد القلاع فى الغرب، واستعرض تفاصيل أحداث المعارك عام ١١٣٩ م. / ٥٣٣ هـ. فوق أرض الخليل ونتائجها، ثم انتقل إلى تحليل الموقف العسكرى بين إقطاعية الخليل الصليبية ومصر، وتتبع التغيرات السياسية والعسكرية حول الخليل فى الفترة الواقعة من ١١٦٤ - ١١٧٧ م / ٥٥٩ - ٥٧٣ هـ، كما تم تقصى دور الخليل فى معركة تل الصافية ١١٧٧ م / ٥٧٣ هـ والبحث عن دور الخليل فى معارك رينو دى شاتيو ضد صلاح الدين حتى موقعة حطين ١١٨٧ م / ٥٨٣ هـ. ثم تحدث الباحث عن الظروف التى أحاطت بسقوط إقطاعية الخليل الصليبية: تاريخه والآثار المترتبة عليه، وأتبع ذلك بتقديم نبذة عن الصراع الإسلامى الصليبي وأثره على الخليل فى المراحل الأخيرة.

وفيما يختص بالفصل الرابع فهو عنوان «الحرم الإبراهيمى والمزارات فى بلاد الخليل أثناء الوجود الصليبي بها». واستهلّه الباحث بتسليط الضوء على مدى ارتباط أصحاب الديانات السماوية الثلاث عقائدياً بالخليل، ثم استعرض الكتابات المعاصرة المختلفة عن الحرم الإبراهيمى حيث الكتابات الصليبية الأولى وما يتعلق بقصة اكتشاف رفات الأنبياء عليهم السلام، وكذلك الكتابات اليهودية والإسلامية. وأعقب الباحث هذا العرض بتعليق عام، حرص خلاله على فحص وتحليل ما تم إيراده من كتابات، وتناول التعليق أيضاً تصوراً شاملاً لمبنى الحرم، ومدى تأثير إقطاعية الخليل بالاكتشافات،

وكذلك قضية دفن آدم ويوسف عليهما السلام فى الخليل ، وظاهرة ضيافة الخليل . ثم تعرض الباحث للمزارات والأضرحة الأخرى فى بلاد الخليل واضعاً تقسيماً جغرافياً لها حيث مزارات الشمال والشرق والغرب . ثم تناول الظروف المحيطة بحركة الزيارة داخل بلاد الخليل خلال الوجود الصليبي وأيضاً بعد الفتح الإسلامى مع مقارنة بينهما . واختتم الفصل بتتبع آثار الصليبيين الفكرية على حركة الزيارة لمقدسات الخليل .

أما آخر فصول البحث وهو الفصل الخامس فقد جعله الباحث تحت عنوان « أهم المظاهر الحضارية فى بلاد الخليل تحت الحكم الصليبي » . وفيه تناول الباحث التوزيع والتركيب السكانى فى مجتمع الخليل ، وأوضاع البدو إبان العصر الصليبي . ثم تعرض للحياة الاجتماعية والثقافية ونظام ملكية الأرض فى الإقطاعية . كذلك أولى الباحث مزيداً من الاهتمام للحياة الاقتصادية فى بلاد الخليل ، إذ تناول عناصرها المختلفة ؛ الزراعية وأهم المحاصيل والأشجار، والرعى، والصناعات ، والأملاح والمعادن، والتجارة وطرقها الدولية والمحلية المخترقة أرض الخليل . ثم اختتم هذا المجال بالإشارة إلى الموارد المالية العلمانية والدينية . وكان من اللازم التعرض إلى المظاهر العمرانية : المدنية ، والدينية ، والعسكرية فى بلاد الخليل، المدن منها والقرى . واختتم الباحث الفصل بالإشارة إلى مشاريع المياه داخل الإقطاعية .

وأخيراً وضع الباحث خاتمة لبحثه ، تعرض فيها لأهم القضايا والنقاط التى تم تحليلها ، وأهم النتائج التى تم التوصل إليها ، مع الإشارة إلى القضايا والنقاط المحورية التى تناولها الباحث بالمناقشة على مدى فصول الدراسة، وذلك بغرض الوصول إلى الخطوط العامة لتاريخ بلاد الخليل السياسى والحضارى فى عصر الحروب الصليبية خلال القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى . وأتبع الباحث الخاتمة بقائمتين تضمنان أسماء الحكام ورؤساء الكنيسة والأساقفة الصليبيين فى الخليل وسنى ولايتهم ، ثم قدم ثبناً بأسماء المصادر والمراجع التى تم للباحث الرجوع إليها . وتم تذييل البحث بعدد من الخرائط والأشكال لتوضيح بعض جوانب البحث .

وفى النهاية لايسعنى إلا أن أقدم شكرى وتقديرى وعرفانى بالجميل لكل من قدم لى العون والمساعدة والتشجيع ، وأخص بالذكر أستاذى الكريم الفاضل الأستاذ الدكتور/ محمود سعيد عمران عميد كلية الآداب جامعة بيروت العربية (سابقاً) وأستاذ تاريخ العصور الوسطى بقسم التاريخ، الذى تلمذت على يديه سنوات طوالاً أحاطنى خلالها برعايته ، وأفاض على بعلمه الوفير وتجاربه وخصص لى من وقته وجهده الكثير، وأخذ يبدى حتى انتهت من إعداد هذا البحث، فجزاه الله عنى وعن العلم خيراً عميماً .

والله ولم التوفيق..

دراسة تحليلية

للمصادر البحث ومراجعهم

أولاً، المصادر الأجنبية :

أ- المصادر التاريخية :

- ألبرت ديكس : « تاريخ بيت المقدس » .
- وليم الصوري : كتاب « تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحر » .
- راهب الخليل المجهول : « قطع من نص اكتشاف الآباء المقدسين (إبراهيم ، إسحاق ، يعقوب) .
- كتاب « قوانين بيت المقدس » .
- فوشيه دي شارتر « أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس » .
- كتاب « إرنول وبرنارد وكيل الخزانة » .

ب- الوثائق اللاتينية :

- الوثائق العامة لطائفة إسماعيلية القديس يوحنا في بيت المقدس ما بين عامي ١١٠٠ - ١٣١٠ م .
- المراسلات الدبلوماسية للجماعة الرهبانية المحاربة ببيت المقدس المعروفة بجماعة مالطة .

- عقود دير السيدة مريم في وادي جوزفات .

- وثائق هيئة فرسان النيتون .

- وثائق نشر روهريشت .

ج- كتب الرحالة الأوروبيين :

- سايلوف - دانيال الروسي - فيتلس - فتاحية الراتسبونى - يوحنا أف فيرزبرج

ثانياً، المصادر العربية :

أ- الكتب التاريخية :

- ابن القلانسي : كتاب « تاريخ دمشق » .

- ابن الأثير : كتاب « الكامل فى التاريخ » .
- العماد الأصفهاني : كتاب « الفتح القسى فى الفتح القدسى » ، وكتاب « البرق الشامى » .
- أسامة بن منقذ : كتاب « الاعتبار » .
- أبو شامة : كتاب « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » .
- العليمى : كتاب « الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل » .
- طائفة من كتب المقريزى .

ب- الرحالة والجغرافيون المسلمون :

- الهروى : كتاب « الإشارات لمعرفة الزيارات » .
- ياقوت الحموى : كتاب « معجم البلدان » .
- ناصر خسرو : كتاب « سفر نامه » .
- العمرى : كتاب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » .

ثالثاً : المراجع :

- مقالة جوستاف باير « مناطق الحكم الصليبي فى القدس والخليل » .
- مقالة هانز إبرهارد ماير « الحكم الصليبي فى الخليل خلال القرن الثانى عشر » .
- مراجع أخرى .

يتضمن موضوع البحث دراسة شقين يتعلقان بمنطقة الخليل يتناول الأول دراسة طرف من تاريخ اللاتين السياسى الذين استولوا على المنطقة ، وعلاقة الصراع بينهم وبين قوتى مصر ودمشق الإسلاميتين ، والشق الثانى يتناول جوانب حضارية عديدة بين دينية وسكانية واقتصادية وغيرها ، وذلك فى فترة زمنية محددة من تاريخ الحركة الصليبية تمتد من عام ١٠٩٩ حتى ١١٨٧ م. / ٤٩٢ - ٥٨٣ هـ . . وعليه يتحتم الرجوع إلى المصادر الأجنبية والإسلامية على قدم المساواة سعياً وراء الحقيقة التاريخية . وهذا بدوره دفع الباحث إلى عقد الموازنات والمقارنات التاريخية وتحليل ماورد فى المصادر المختلفة والوثائق وكتب الرحلات وذلك لضبط الأحداث ، وسد الثغرات ، والرد على كافة التساؤلات التى فرضت نفسها على موضوع الدراسة .

تعد المادة التاريخية التى قدمتها المصادر الأجنبية أهم المقومات التى اعتمد عليها البحث وتتميز المعلومات الواردة بالمصادر المختلفة بالضخالة إذ جاءت المادة التاريخية عن الخليل فى معظم الأحيان فى إشارات عابرة متناثرة أو بين السطور ، ومن ثم فقد يقتصر ذكر الحدث على قلة من المؤرخين حتى يصل عددهم إلى مؤرخ واحد ، وفى أحيان أخرى كان يغفلها الجميع مما يشكل صعوبة بالغة فى الوقوف على الحقيقة التاريخية الكاملة . ولعل أهم المصادر الأجنبية التى رجعت إليها هى المصادر اللاتينية والمترجمة عنها . ومما يجدر ذكره أن الباحث سوف يتناول بالنقد أهم مارجع إليه من مصادر أجنبية أو إسلامية وفقاً لترتيب أهميتها بالنسبة للبحث ، أما إذا تصادف وتقاربت أهمية مصدرين ، فسوف يراعى الباحث الترتيب التاريخى لكل منها .

يأتى على رأس المصادر الأجنبية كتاب «تاريخ بيت المقدس Historia Hierosolymitano» لمؤلفه ألبرت ديكس Albert d'Aix^(١) وقد اعتمدت على الكتاب بلغته الأصلية ، ثم أطلعت على ترجمة له باللغة الإنجليزية هما باكورة عمل لم ير النور بعد . وقد أطلعتنى عليه القائمة على نشره الباحثة « سوزان إدنجتون » S.B.Edington^(٢) . وترجع أهمية الكتاب إلى احتوائه على مادة تاريخية غنية عن الحملة الصليبية الأولى ، وقيام مملكة بيت المقدس ، وغزوات الصليبيين وحروبهم وأحوال الشام حتى عام ١١٢٠ م. / ٥١٤ هـ . . وتجدر الإشارة إلى أن ألبرت ديكس لم يأت إلى الشرق ، كما أن كل تاريخه يعتمد على ما سمعه من اشترك فى الحملة

(١) ينتمى ألبرت ديكس « مؤلف كتاب تاريخ بيت المقدس لمدينة أक्स الألمانية وليست البيروفسية على عكس ماكان يعتقد الكتاب القدامى » . وكان ألبرت كاهناً وأميناً لكنيسة أक्स ولم يعرف اسمه بالكامل ، كما أن المصادر لم نشر إلى تاريخ ولادته أو وفاته . انظر : جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى ، الطبعة الأولى ، إسكندرية ١٩٦٣ م ، ص ١١ . وكتاب ألبرت ديكس منشور فى مجموعة الحروب الصليبية ،

R : H. C. : H.OCC., Tom. Iv; pp. 265 - 713.

(٢) أبلغتنى المترجمة بأنها عازمة على نشر عملها فى ١٩٩٥ م . وذلك فى جزئين .

الصليبية الأولى ، فضلاً عما استفاد من المصادر المعروفة ، وبعض المراسلات . كما يبدو أنه قد أخذ عن بعض المصادر التي لم تصل إلينا . وقد تناول بعض العلماء الحديثين كتاب ألبرت بالتقد والتحليل واختلفوا فيما بينهم حول قيمته التاريخية . فمنهم من يهمله ولا يعده مصدر ثقة ، ومنهم من ينصح بالاعتماد على ما أورده المؤرخ ولكن فى شيء من الحرص والتمحيص^(١) . وبالفعل استجاب الباحث لهذه النصيحة . وتمكن من أن يظفر بزخم من المعلومات من هذا المصدر .

يتألف كتاب تاريخ بيت المقدس لمؤلفه ألبرت من اثني عشر فصلاً يهمنها منها الفصول الستة الأخيرة ، لما احتوت عليه من مادة تاريخية على قدر كبير من الأهمية بالنسبة للتاريخ الصليبي الإقطاعي في الخليل ، وصراع الإقطاعية مع المسلمين ، بل إن المادة تطرقت أيضاً إلى بعض الجوانب الحضرية ، ولكن يؤخذ على المؤرخ أنه لم يتحرر الدقة فى بعض الحوادث ، كما جاءت رواياته مضطربة بصفة عامة ؛ حيث كان يتقل من حدث إلى آخر دون أن يتم روايته ، أذكر من ذلك ما أورده عن الملابس الخاصة باستحواذ جلدمار كاربنل Geldemar Carpenel ثاني حكام الخليل عليها . ومن ناحية أخرى تعد كتابات ألبرت ديكس نموذجاً متكرراً لكتابات المؤرخين الصليبيين بصفة عامة من حيث تغلب استخدام الأسماء المصطبغة بالدين للإشارة إلى بقاع الخليل المختلفة . ومن أمثلة ذلك إشارته إلى مدينة الخليل بأنها « الأرض التي بنى النبي إبراهيم فيها بيته ، وأقام بها منذ أقدم العصور ، وهي التي تدعى أرض القديس أبراهام ، مدينة سادوم وعمورا القريبة من الجبال »^(٢) غير أن أهمية مصدر ألبرت ديكس تبدو جلية من خلال انفراد بذكر كثير من الأحداث الهامة التي تخص الخليل كما أنه تعرض بشكل مستفيض لأحداث أخرى غير واضحة فى المصادر الأخرى .

ومن المعلومات التي انفرد بها ألبرت ديكس ولم ترد عند غيره من المؤرخين المعاصرين ذكره لأسماء بعض الإقطاعيين والفرسان الذين تولوا الحكم فى الخليل فضلاً عن تأكيد قيامهم بهذا الأمر ، حتى يمكن القول بأنه لا يمكن تتبع مسلسل حكام الخليل إلا بالرجوع إلى هذا المصدر ، فهو الذى حدد أول من منحت الخليل له كإقطاع وهو جرار دى أفنس Gerardus de Avennis^(٣) .

وكذلك مكنتنا ألبرت ديكس من معرفة المزيد عن حكام الخليل الأوائل الآخرين مثل جلدماركاربنل وجودفرى سيد برج داوود Goodfrey وهيردى سانت أبراهام الأول

(1) Cahen, C., La Syrie du Nord a l'Epoque de Croisades et la Principaute Franque d'Antioce, Paris 1940. pp. 12 - 13 notes.

راجع أيضاً : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ١١ - ١٢ .

(2) Albert d'Aix, op. cit., p. 523.

(3) Ibid, Loc. Cit.

وجوته المحمدى Golterius Mohmet . كما انفرد المؤرخ بإبراز دور الرجال الثلاثة المذكورين أخيراً فى أحداث معركة الرملة الثالثة عام ١١٠٥م/ ٤٩٨ هـ ويذكر تفاصيل الخطة الحربية التى اتبعت أثناء المعركة فى مواجهة المسلمين، ثم أشار المؤرخ منفرداً إلى أن روجردى حيفا Rogrius de Haifa تولى الإشراف على الخليل^(١)، كما انفرد بالتعرض إلى بعض حلقات الصراع الفاطمى الصليبي فى المرحلة التى تلت معارك الرملة الثلاث . كذلك تحدث عن الطريق الداخلى الواصل بين مصر وبيت المقدس مروراً بالخليل منفرداً ، وكان جزء من هذا الطريق يشكل قاسماً مشتركاً مع الطريق الواصل إلى دمشق . وقد فطن المؤرخ منفرداً كذلك إلى انقسام القبائل العربية على نفسها بين خاضعين للفرنج وحلفاء لكل من مصر ودمشق .

وقد حظيت بعض الأحداث باهتمام ألبرت ديكس فأسهب فى سردها ومنها تلك الظروف التى دفعت جلدماركاربنل إلى الاستحواذ على الخليل بعد أن طرده تانكرد Tancred من حيفا .

كذلك أفاض المؤرخ فى الحديث عن استخدام أراضى الخليل كقاعدة للانطلاق إلى المناطق المجاورة فى اتجاهى شرقى الأردن وعسقلان ، ومن ذلك ماوقع خلال حملة بلدوين الأول Baldwin I ١١٠٧م / ٥٠١ هـ . حينما توجه إلى شرقى البحر الميت مجتازاً تلال الخليل وبريتها . وتناول أثناء ذلك العرض موقف الأهالى السريان فى الخليل المؤيد للملك . وكذلك أورد قصة تيودور Thewdor الراهب السريانى الذى عمد إلى استخدام الحيلة ضد المسلمين بغرض إلقاء الرعب فى قلوبهم تسهلاً لمهمة جيش بلدوين الأول . ثم أعقب ألبرت روايته بالإفاضة فى رسم صورة للواقع السياسى والاجتماعى للبدو الذين يسكنون كلاً من بلاد الخليل وشرقى الأردن موضحاً ما آل إليه من انقسام سياسى . وما أعطى لهذا التصور بعداً وعمقاً أنه ظل يميز الوضع السياسى فى المناطق الواقعة جنوبى إقطاعية الخليل الصليبية وما جاورها من بلاد حتى سقوطها فى يد المسلمين فى عام ١١٨٧م. / ٥٨٣ هـ. ثم أسهب المؤرخ فى الحديث عن تعرض الملك بلدوين الأول لقافلة مصرية فى طريقها إلى دمشق انطلاقاً من الخليل، وما أتبع ذلك من تنظيم حملة فاطمية دمشقية مشتركة فى محاولة لتدمير قلعة الخليل، فى عام ١١٠٧م / ٥٠١ هـ وكذلك الظروف التى اكتنفت الحملة والتحركات العسكرية وما آلت إليه من نتائج . كذلك أفاض المؤرخ فى تتبع خطوات حملتى الملك بلدوين الأول على شرقى الأردن عامى ١١١٥م. / ٥٠٩ هـ. - ١١١٦م. / ٥١٠ هـ. وكان قد خرج بهما انطلاقاً من الخليل^(٢) وتعرض المؤرخ بإسهاب إلى التحركات التى شهدتها ريف إقطاعية الخليل فى هذه المرحلة .

(1) Ibid, pp. 593 , 621, 639.

(2) Albert d'Aix , op. cit., pp. 702 - 703 , 707 - 709.

أما عن الأحداث التى أوجزها ألبرت ديكس وتتعلق بالخليل ، فنذكر منها مايتعلق بالغزو الصليبي للمنطقة . حيث اكتفى بذكر تحرك الفرنج من القدس إلى بيت لحم ثم إلى الخليل والريف المجاور دون التعرض لأسماء البلاد والقرى التى تمكنوا من ضمها، كما أوجز المؤرخ التعرض لعملية تشييد قلعة الخليل مما اضطر الباحث إلى الاستعانة بكتب الآثار حتى يستوضح ويستنبط تفاصيل هذا العمل . أما عن الأمور التى أغفلها ألبرت ديكس فى مؤلفه فأذكر منها إغفاله ذكر أحداث هجوم الجيش الفاطمى على المناطق الواقعة جنوبى مملكة بيت المقدس المكشوفة إبان الهجوم الإسلامى على شمالها عام ١١١٣ م / ٥٠٧ هـ . ، وذلك على الرغم من الاهتمام الواضح للمؤرخ بالصراع القائم بين الفاطميين والمملكة هناك . كذلك لم يتعرض المؤرخ إلى الدور العسكرى الذى لعبته إقطاعية الخليل فى استيلاء الصليبيين على الموانئ الساحلية الفاطمية التى تتابع سقوطها خلال فترة تدوين كتابه . وذلك فيما عدا ما يخص عملية إسقاط ميناء أرسوف .

ومن المصادر الأجنبية التى اعتمدت عليها الدراسة كثيراً كتاب « تاريخ الأعمال التى تمت وراء البحر » Historia Rerum in Partibus Trans Mar in is Gestarum المؤلفه وليم الصورى Walliam of Tyre (١) ، وقد رجع الباحث إلى الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب وهى بعنوان : A History of Deeds done Beyaed The Sea (٢) .

(١) ولد وليم الصورى فى بيت المقدس سنة ١١٣٠ م / ٥٢٤ هـ ، وهو ينتمى لأسرة فرنسية شاركت فى الحملة الصليبية الأولى. وقد عاش وليم الصورى فترة شبابه فى الشرق الإسلامى ، وأتقن اللغة العربية واليونانية واللاتينية والفرنسية ، وتنقل وهو فى مقتبل العمر بين مدن : باريس ، وشارتر ، وأورليان لتلقى العلم . ثم توجه إلى إيطاليا وعاد إلى الأراضى المقدسة بعد عشرين عاماً . وعمل وليم الصورى فى خدمة الملك عمورى الأول Emerlic I ، ١١٦٢ - ١١٧٤ م / ٥٥٧ - ٥٧٠ هـ . وعمل مريباً لابنه بلدوين الرابع (المجذوم) فى الوقت الذى أخذ فيه يترقى فى المناصب حتى أصبح مستشاراً للمملكة الصليبية ورئيساً لأساقفة صور عام ١١٧٤ م / ٥٧٠ هـ . كما تم تكليفه بمهام رسمية وسفارات مهمة . وفى عام ١١٨٠ م / ٥٧٦ هـ . حدثت تغيرات سياسية أطاحت بآماله فى اعتلاء منصب بطريرك بيت المقدس . ومات وليم الصورى فى أغلب الظن فى عام ١١٨٤ م / ٥٨٠ هـ .
Ernoula Chronique d'Ernoula et de Bernard Le Tresorier, ed. Maslatrie, Paris 1871; Smail, R. C., The Crusaders in : Syria and the Hoey Land, Lodnon, 1973, p. 187; Edbury, P. W., William of Tyre, A Historian of the Crusades and the Kingdom of Jerusalem (1130 - 1184) in Pulletin of the Fuculty of Arts in Alexandria University 1988, pp. 43 - 52.

راجع أيضاً : عمر كمال توفيق : المؤرخ وليم الصورى ، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، عدد ٢١ ، سنة ١٩٧٠ ، مطبعة جامعة الإسكندرية ، ١٩٦٩ ، ص ١٨ - ٢٠ .

(2) Translated by Emily Atwater Bapcock and Krey, A.C., New York, 1943.

ويعد كتاب وليم الصوري من أكثر المصادر اللاتينية دقة وشمولاً ، وقد وضعه بتكليف من عموري الأول ملك بيت المقدس ليكون سجلاً لأعمال هذا الملك . وتكمن أهمية المصدر في أنه يتناول فترة طويلة من تاريخ الصليبيين امتدت حتى ١١٨٤ م/ ٥٨٠ هـ . وقد اعتمد وليم في كتابه على مؤلفات بعض المؤرخين الصليبيين الذين عاصروا أحداث الحملة الصليبية الأولى ، مثل : فوشيه دي شارتر وألبرت ديكس ، كما اعتمد على روايات شهود العيان والوثائق الملكية ، والرسائل المتبادلة بين اللاتين في الشرق الأدنى والغرب الأوربي . ويعد ما كتبه وليم بداية من أحداث ١١٦٧ م/ ٥٦٣ هـ . أكثر أجزاء مؤلفه قيمة تاريخية وأصالة ، فقد كان شاهداً للعيان لما جرى في هذه الفترة وكان محل ثقة البلاط الصليبي ، ومستشاراً للمملكة ، وصاحب النفوذ الكبير فيها الأمر الذي جعله مشاركاً في القرارات السياسية الصليبية^(١) ، ولذلك تضافرت كل هذه الأسباب لتعطي ثقلًا خاصاً لهذا المؤلف .

ونظراً لكون كتاب وليم الصوري هو المصدر الرئيسي بل والوحيد لمعظم الوقائع التي شهادتها مملكة بيت المقدس طيلة ستة عقود (أواخر العقد الثالث حتى أوائل التاسع من عمر المملكة الصليبية) نجده قد سبق باقى المصادر الأجنبية في تدوين الكثير من الأحداث ، وخاصة تلك التي وقعت داخل البيت الصليبي ، وبالتالي كان معظمها بمنأى عن مسامع المؤرخين المسلمين المعاصرين . فلم يقوموا بتسجيلها ومن هذه النقاط انفراده بذكر الأوضاع الإقطاعية التي تمخضت عن بروز أسرة دى ميلى فى شرقي الأردن كما انفرد المؤرخ بإلقاء الضوء على أفراد أسرة همفري سادة إقطاعية تبين كلاً على حدة ، وبهذا وذاك تيسر فهم السياق التاريخي لتتابع حكام الخليل . كما انفرد المؤرخ بالإشارة إلى خروج همفري الثانى عام ١١٧٢ م. / ٥٦٧ هـ . للدفاع عن ممتلكات ابنه المتوفى فى الخليل وشرقي الأردن خلال هجوم نور الدين محمود وصلاح الدين المشترك .

وأمدنا وليم الصوري بمعلومات غزيرة ذات أهمية خاصة لموضوع الدراسة حيث أكد ما ورد من أحداث بخصوص معارك الرملة الثلاث ، وأسهب فى ذكر رواية البدوى الذى حرص على رد الجميل إلى الملك بلدوين الأول أثناء حصار الفاطميين له فى أحداث معركة الرملة الثانية ١١٠٢ م/ ٥٩٦ هـ . بأن أطلعه على خطة جيش مصر وشروعهم فى مهاجمته . فبادر الملك بمغادرة الموقع ، وهذه الرواية ألفت ضوءاً على طبيعة البدو فى معاملة الفرنج . كذلك أمدنا وليم الصوري بمادة مستفيضة عن تشييد

(1) Roehricht, R. Geschichte des Konigrichs Jerusalem, Innsburck 1898, p. 491 , N. 5.

سيد الباز العربى : مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٢م ، ص ١٠١ - ١٠٣ ، ١١٠ - ١١٣ ، ١٤٥ - ١٥٦ .

قلاع بيت جبرين وتل الصافية وغيرهما فغطى جانباً مهماً من النشاط العسكرى للصليبيين على أرض الخليل . ومن الأحداث التى تعرض لها المؤرخ بإسهاب هجوم الأتراك الدماشقة المشترك مع بدو شرقى الأردن على الخليل فى عام ١١٣٩م / ٥٣٤ هـ ، وفيها تناول باستفاضة وقائع المعارك الضارية التى شهدتها أرض الإقطاعية الصليبية حتى وصفها المؤرخ بأنها بمثابة مذبحه بين صفوف الفرنج ، ومن الأمور الداخلية التى أفاض المؤرخ فى الحديث عنها قيام أسقفية الخليل والظروف المحيطة به فى عام ١١٦٨م / ٥٦٣ هـ . وكذلك الأوضاع الكنسية داخل مملكة بيت المقدس الصليبية بشكل عام . كما أسهب المؤرخ فى عرض أحداث معركة تل الصافية ١١٦٧م / ٥٧٣ هـ . ومراجعة ماورد عنها فى المصادر الإسلامية تبين أن المؤرخ كان دقيقاً فيما يصف حتى إن كتاباته تدل على أنه كان شاهد عيان .

والجدير بالذكر أن كتابات وليم الصورى تميزت أحياناً بالإيجاز ، ومن ذلك إشارته إلى استحواذ طائفة فرسان الإسبتارية على بلدة بيت جبرين وقلعتها علاوة على إشارته الموجزة إلى استحواذ كنيسة القيامة فى بيت المقدس على بلدة تقوع الخليلية . بيد أن البحث أفاد من مثل هذه النقاط فى ما أوردته الوثائق ، ومن ناحية أخرى اكتفى المؤرخ بذكر عبارة مختصرة تشير إلى مدى قدسية مدينة الخليل لدى الصليبيين ، فى حين استحوذ هذا الأمر على اهتمام مؤرخين صليبيين آخرين .

أما عن الأحداث التى أغفل وليم الصورى ذكرها رغم أهميتها فيتمثل أبرزها فى عدم إشارته ألبتة إلى اكتشاف رهبان الخليل لمغارة دفن الأنبياء : إبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام) . كذلك أسقط المؤرخ ترتيب همفرى الأول من مسلسل الأسرة الحاكمة فى تبين رغم أنه مؤسسها ، الأمر الذى أدى إلى حدوث خلل لدى المؤرخ فى تصنيف أفرادها ، حيث ذكر همفرى الثانى بالأول وهكذا ، فضلاً عن التزامه الصمت حيال استحواذ الأسرة على حكم الخليل . وإضافة إلى ذلك أغفل وليم الصورى الإشارة إلى أوجه النشاط الاقتصادى المختلفة فى بلاد الخليل والنشاط التجارى البحرى فى البحر الميت . ورغم الاهتمام الواضح من قبل وليم الصورى بسرد الأحداث التى مرت بمملكة بيت المقدس والصليبيين خلال العقود الثلاثة الأخيرة من حياته إلا أنه أغفل التعرض إلى معارك مصر ضد الخليل وأطرافها فى الفترة ما بين عامى (١١٥٧ - ١١٥٩م / ٥٥٢ - ٥٥٤ هـ) . كما التزم المؤرخ الصمت أمام إنجازات رينودى شاتيو Renaud de Chaitllon الداخلية ، وفيما حكم من بلاد بما فيها إقطاعية الخليل على الرغم من معاصرته لمعظم سنوات حكم رينو ، كما أنه انتقده بشدة خلال معالجته لخطر محاصرة صلاح الدين لقلعة الكرك عام (١١٨٣م / ٥٧٩ هـ) . ويقدم لنا أحد الباحثين الحديثين تبريراً لذلك وهو أن رينودى شاتيو كان وراء تعيين البطريك هرقل

Herucle فى عام ١١٨٠م. / ٥٧٦ هـ . بدلاً من وليم الصورى فى كرسى بطرياركية بيت المقدس^(١). وعليه يمكن القول : إن الخلاف بين الرجلين كان وراء إغفال متعمد من قبل المؤرخ للأحداث داخل الخليل وإنجازات رينو فيها ، ورغم موقف وليم الصورى المضاد تجاه رينو إلا أنه ذكر استبداده بالسلطة على الخليل واستثائه بها فى وجود الوريث الحقيقى لها وهو همفرى الرابع Hemfree IV وربما كان صغر سن همفرى وراء إجازة وليم لاستحواذ رينو على الحكم كوصى عليه حتى بلغ همفرى أشده فى عام ١١٨٣م / ٥٧٩ هـ .

وعما يؤخذ على وليم الصورى أنه فى كثير من المواضع التى كان يريد فيها ذكر الخليل لم يتلفظ باسمها وإنما اكتفى بالإشارة إليها ، ففى أحداث معركة تل الصافية عبر عن سكان الخليل بأنهم « الأهالى الذين يقطنون فوق الجبال » ، ثم أشار إلى إقطاعية الخليل بعبارة « بلاد جبال يهوذا »^(٢). أما أبرز أخطاء المؤرخ التاريخية فتتمثل فى اضطراب تناوله لحلقات الصراع بين رينودى شاتيو وصلاح الدين الأيوبي وخلطه بين المعارك نظراً لتشابهها . ولكن بمضاهاة مادته التاريخية بما ورد بالمصادر الأخرى وخاصة الإسلامية منها أمكن ضبط الأحداث والإفادة منها فى تتبع الدور العسكرى للخليل فى ظل حكم وسيادة كل من رينو وهمفرى الرابع لها .

ويلى ذلك من حيث الأهمية مصدر صليبي معاصر آخر ساهم فى تشكيل بعض أركان البحث وهو ذلك التقرير المدون تحت اسم « قطع من نص اكتشاف الآباء القديسين (إبراهيم ، إسحاق ويعقوب) ». وقد اعتمد الباحث على النص اللاتينى لهذه المدونة تحت عنوان : "Tractatus de inventione Sanctorum Patriarchum (Abraham, Ysaac et Jacob) Canonici Hebronensis" ولم ينشر هذا النص كاملاً إلا فى عام ١٨٩٥م . ضمن مجموعة المؤرخين الغربيين للحروب الصليبية ، ولعل عنوانه يشير إلى مضمونه وهو يمثل أهمية خاصة بالنسبة للبحث ، فالراهب دُون تقريره فى عام ١١٣٦م / ٥٣١ هـ^(٣)، أى أثناء الوجود الصليبي بالخليل .

(1) Hamilton, B., The Elephant of Christ, Reynald of Chatillon, in Monastic Reform, Catharism and the Crusades 900 - 1300 Varior, repr. London, 1979, p. 104.

(2) William of Tyer, op. cit., Vol. II, p. 532.

(٣) راجع النص اللاتينى والمقدمة الخاصة به فى :

R.H.C. H, OCC., Tam V, Paris 1895, pp. 61 - 63 , 302 - 316 .

ونظراً لأهمية النص فقد حرص أكثر من باحث بالتعليق عليه من جوانب مختلفة ، فتناول بول ريان عرض مقتطفات منه وضبط التواريخ والتحقق من بعض المعلومات ومناقشة البعض ، أما تشارلز كوهلر فقد عنى بدراسة النص من الناحية الأدبية وأشاد بالأسلوب المستخدم ، أما جوته فقد حاول سد بعض الشغرات فى مقالة ريان المشار إليها ، وعنى بتحقيق =

تراجع أهمية تقرير راهب الخليل إلى وجوده في قلب الأحداث وبين الرجال الذين حركوها، كما قام بتدوينه في نفس الجليل الذي عاصر عملية الاكتشاف فجاء سرده لقصة اكتشاف رفات الأنبياء (عليهم السلام) واضحاً متكاملأً متناولاً فيه جميع الجوانب والزوايا. وجدير بالذكر أن التقرير أثبت ما ذكر على لسان اثنين من رهبان الخليل وكانا من الذين قاموا بعملية اكتشاف رفات الأنبياء، ولذا جاء الوصف دقيقاً إلى حد كبير حتى أنه كاد يطابق ما عرضته الدراسات المتأنية الحديثة عن المقابر. وفي الحقيقة فإن التقرير تم سرده بشكل لا نستشف من خلاله أى عنصر من عناصر سوء النوايا أو عدم مصداقية الرواة مما أعطاه ثقلأً خاصاً رغم مرور سبعة عشر عاماً بين حدث الاكتشاف وتدوينه.

وبطبيعة الحال لا بد من التأكيد على الأهمية التاريخية والأثرية البالغة لهذا التقرير، ليس لإلقاء الضوء على حدث اكتشاف المقبرة فحسب، بل لأنه أمدنا أيضاً بمعلومات محددة عن أوضاع مدينة الخليل تحت الحكم الصليبي؛ فمن الناحية السياسية تعرض راهب الخليل منفرداً لشخص بلدوين دى سانت أبراهام Balduini de Sancto Ebrahim سابع حكام الخليل ومدى متابعته لأعمال التنقيب أمدلاً في العثور على كنز، وربما يحمل ذلك في طياته سخرية من الرجال العلمانيين الذين لا يهمهم سوى المادة، فجاءت المعلومات في هذا الصدد مكتملة لما ورد في الوثائق عن فترة حكم بلدوين المذكور للخليل. أما عن الناحية الاجتماعية فقد قدم التقرير معلومات مهمة انفرد بها وذلك عن المناسبات الدينية والأعياد التي وضع أسسها المسيحيون الشرقيون ثم تأثر بها الصليبيون حتى أصبحت تمثل بالنسبة لهم أهمية كبرى، فتوحدت كلمة المسيحيين حول قبر أبى الأنبياء إبراهيم وأبنائه (عليهم السلام).

وقد أمد راهب الخليل الدراسة بمعلومات أفاض فيها بالحديث عن تاريخ الحرم الإبراهيمي منذ نشأته، وتعرض إلى أسطورة اصطفت بالديانة المسيحية واقتربت بيد

= بعض الأفكار وربطها بالأحداث المحيطة، غير أن أهم الدراسات الحديثة حول النص وردت في كتاب «حبرون، الحرم الخليلي وأضرحة الآباء» لمجموعة المؤلفين الفرنسيين تناولوا النص بالمناقشة ووضحوا كثيراً من جوانبه في دراسة متأنية. والمرجع الأخير سوف نعرض له فيما يخص المراجع الحديثة بهذه الدراسة النقدية، أما عن المراجع السابقة راجع:

Riant, P., *Invention de la Sepulture des Patriarches (Abraham, Issac et Jacob)* a Hebron le 25 Juin 1119, en : A.O.L., Tome II, A, Paris 1884, pp. 411 - 421.

- Kohler, C., *L'Invention des Patriarches Abraham, Isaac et Jacob*, en R.O.L., Tome IV, Paris 1896, pp. 477 - 502.

- Guthe, M. H., *Die Untersuchung des Patriar Chengrabes in Hebron*, im Jahre 1119, in : Z.D.P., V., Bd. XVII, 1894, pp. 238 - 250.

الاعتراف بالمسيحية كديانة رسمية في الإمبراطورية البيزنطية تلتخص في وجود محاولة لنقل رفات الأنبياء (عليهم السلام) إلى القسطنطينية ، غير أن المحاولة باءت بالفشل . وتعد هذه الرواية المسهبة مهمة لإلقاء الأضواء على الجذور التاريخية لاهتمام المسيحيين ببنى الحرم الإبراهيمي عصر الحروب الصليبية ؛ ثم تعرض الراهب إلى قصة استيلاء الصليبيين على الحرم ، ولم يتوان في عرض محاولات السلب والنهب التي استهدفت أثاث الحرم وتجهيزاته ، ثم ارتقاء الصليبيين به مرة أخرى . والملاحظ أن هذا التقرير استهدف أساساً الحديث عن الكشوف التي تمت داخل الحرم عصر الحروب الصليبية عام ١١١٩م / ٥١٣ هـ . ومن ثم استفاض راهب الخليل كثيراً في تتبع عملية الاكتشاف خطوة بخطوة، الأمر الذي كشف النقاب عن دقائق وصف الحرم الإبراهيمي من الداخل خلال فترة الدراسة ، بل إن هناك كثيراً من الأمور التي استشفت من بين سطور التقرير مثل إتقان الصليبيين لأسلوب الدعاية من أجل تكريس الحركة الصليبية ودعمها ، وكذلك إضافة المزيد من القدسية على الخليل والأراضي المقدسة . هذا، وقد أغفل راهب الخليل الكشف عن الدوافع التي حدثت به لكتابة هذا التقرير ولم يُعلمنا بأى إيضاحات عن الجهة التي ينوى رفع تقريره إليها . ومع الأهمية البالغة للتقرير إلا أن وصف الراهب للمغارة جاء ساذجاً أحياناً حيث اعتقد أن سقف المقبرة كان كتلة صخرية صماء، في حين أنها في الواقع كانت جزءاً من المبنى .

ومن المصادر الصليبية الهامة التي اعتمد عليها موضوع البحث في جوانب عديدة كتاب «قوانين بيت المقدس» Assises de Jerusalem الذي نشر في جزئين في مجموعة قوانين بيت المقدس . ثم أعيد نشرها في مجلدين أيضاً في عام ١٩٨٣م (١) بنفس الصفحات وعنى ناشرها بتذييل كل من المجلدين بكشافات تيسيراً للاطلاع عليها . وقد دَوَّنت هذه القوانين في القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري ووضعها مجموعة من القانونيين الصليبيين الذين عاشوا في الشرق الإسلامي . وأمدنا هؤلاء القانونيون بمعلومات هامة أثرت البحث كثيراً ، فعلى سبيل المثال أمدنا جان ديبلين Jean Deblin في الجزء الأول من قوانين بيت المقدس بكثير من النقاط الهامة التي دعمت بعض جوانب الدراسة ، حيث حدد عدد الفرسان الذين كان على سيد الخليل تقديمهم في الخدمة العسكرية للملك الصليبي ، علاوة على تحديده لعدد الجنود الذين كانت كنيسة سانت أبراهام تقدمهم للخدمة العسكرية (٢) أيضاً، مما أبرز أهمية إقطاعية الخليل العسكرية ومدى ما كان لها من ثقل في الصراع ضد المسلمين .

(1) Lois, Le Assises de Jerusalem, II Vols. Paris 1841 - 1843 , Reububuleshed at daimon 1983.

(2) Jean d'Belin, Le livre de Jean d'Ibelin, in : ASS. de Jeru. Demand 1983. Tome I, pp. 420, 426 - 427.

ومن ناحية أخرى أمدتنا جان ديبلين منفرداً بمعلومات تتميز بالدقة عن محكمة البرجوازية داخل إقطاعية الخليل . وأشار إلى وجود محاكم أخرى خارجها تابعة لها ، الأمر الذى كشف عن الوضع الإدارى القائم فى الإقطاعية بدقة . كذلك أشار المؤرخ إلى المحاكم التى أقيمت فى تل الصافية وفى بيت جبرين ، فكانت دليلاً على انسلاخها إقطاعياً عن الخليل^(١) . كذلك أمدنا كتاب أنساب ماوراء البحار Les Libnages d'autre mer الواقع فى الجزء الثانى من مجموعة قوانين بيت المقدس بمعلومات مهمة تبرهن على نزعة التسلط لدى رينودى شاتيو ومدى انتهاكه للقواعد العامة داخل المملكة الصليبية ، وذلك حينما وضع يده على بيت لحم فى عام ١١٨٦ م . / ٥٨٢ هـ . مستغلاً حالة الفوضى التى عمت البلاد . ولكن يؤخذ على هذا المصدر أنه أسند خطأً إلى فيليب دى مبللى ملكيته لإقطاعية الخليل^(٢) ، الأمر الذى أدى إلى قيام بعض المؤرخين الحديثين بكتابة غير صحيحة لتاريخ الخليل الإقطاعى ، حيث أسندوا الإقطاعية إلى أسرة دى مبللى . وبطبيعة الحال تصدت الدراسة لهذه القضية وعالجتها ووضحت الملابس المحيطة بها .

ومن المصادر اللاتينية التى لا غنى عن الرجوع إليها كتاب « أعمال الفرنجة الحاجين لبيت المقدس » للمؤرخ الصليبي « فوشيه دى شارتر »^(٣) Fulcher of Chartres . وقد اعتمدت على الترجمة الإنجليزية للكتاب وهى بعنوان : A History of Expedition to Jerusalem . وتكمن أهمية هذا الكتاب فى أن مؤلفه « فوشيه » عاصر أحداث الحملة الصليبية الأولى واستيطان اللاتين فى الشام ، وكان شاهد عيان لمعظم الأحداث التى دونها فى كتابه ، علاوة على أنه استقى بعض المعلومات الأخرى من شهود العيان ، وكذلك من الخطابات المرسلة من بيت المقدس إلى الغرب الأوروبى^(٤) . وعلى هذا يعد كتابه من المصادر الدقيقة والهامة لدراسة العقود الزمنية

(١) راجع ما ورد عن ذلك فى الفصل الثانى من الدراسة ص ١١١ - ١١٦

(2) Les Lignages d'outre - mer , in Ass. de Jeru. Tome II, Daimond 1983, pp. 452 ,

462.

(٣) ولد فوشيه بمدينة شارتر بفرنسا فى الفترة الواقعة بين سنتي ١٠٥٨ - ١٠٥٩ م / ٤٥٠ - ٤٥١ هـ .

واشترك فى الحملة الصليبية الأولى فى شهر أكتوبر سنة ١٠٩٦ م / ذو القعدة ٤٨٩ هـ ، وكان مرافقاً للملك بلدوين دى بوايون وأقام معه فى الرها حيث كان يحكمها نحو عامين ، ثم انتقل معه إلى بيت المقدس وبقي ملازماً له حتى وفاته فى عام ١١١٨ م / ٥١١ هـ . ثم إن فوشيه مكث فى بيت المقدس حتى عام ١١٢٧ م / ٥٢١ هـ . راجع :

Fulcher of Chartres A History of the Expedition to Jerusalem, trans. by Frances Rita Ryan, ed. with an introduction by Harlod's Fink, Konuville U.S.A. 1969.

(٤) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٨ .

الثلاثة الأولى من عمر الكيان اللاتينى فى الشرق الأدنى ، وهو يتألف من ثلاثة أقسام كل قسم منها كتاب قائم بذاته ، وقد أفدت مما جاءت به جميعاً على مدى الفصول الثلاث الأولى من البحث بصفة خاصة. والمادة التاريخية التى قدمها « فوشيه » غزيرة حيث غطت جوانب كبيرة من تاريخ الصليبيين فى الشرق وبخاصة فى مملكة بيت المقدس اللاتينية . وما ضمته من إقطاعيات مثل الخليل .

والجددير بالذكر أن « فوشيه » لم يوجد فى بيت المقدس منذ الفترة الأولى واستيلاء الصليبيين عليها . ومن ثم افتقدنا تدوينه لأحداث تأسيس إقطاعية الخليل ، وكما هو واضح فقد كانت أول زيارة يقوم بها فوشيه للخليل فى نوفمبر ١١٠٠م / ذى الحجة ٤٩٣ هـ . حينما كان فى صحبة الملك بلدوين الأول عندما كان يتأهب للزحف فى حملة حربية على إقليم شرقى الأردن . وعلاوة على وصف « فوشيه » لجداول الخليل وبرايرها وأهلها القاطنين فى الجهات الجنوبية ، قدم وصفاً مستفيضاً لا يخلو من المعلومات التى لا تعقل غير أنها أعطتنا انطباعاً واضحاً عن منطقة البحر الميت الموحشة فى شرقى الخليل . ومن ثم تبرز أهمية المؤرخ فى أنه سجل بنفسه كثيراً من الأحداث التى واكبها .

تجلى أهمية مصدر « فوشيه » فى أنه ذكر أحداثاً لا يمكننا القول بأنه انفرد بها ، إذ نقل عنه مؤرخون صليبيون جاءوا بعده زمنياً ، إلا أنه يرجع الفضل إليه نظراً لأسبقيته فى تسجيلها ، ومنها ما يتعلق بنهوض أهالى الخليل لإنقاذ الملك بلدوين الأول بعد الانتكاسة التى تعرض لها فى الجولة الأولى من معركة الرملة الثانية عام ١١٠٢م . / ٤٩٥ هـ . ووصفه للأوضاع الداخلية الصعبة التى عاشتها المملكة فى هذه الآونة . كما أنه تتبع تطورات الأحداث يوماً بعد يوم مشيراً إلى أعداد القوات المشتركة فى القتال ، كما أوضح النتائج التى انتهت إليها المعركة ، وبين الأسباب التى قلبت الأوضاع لصالح الصليبيين^(١) . وفى موضع آخر انفرد المؤرخ بالإشارة إلى الغارة الفاطمية على الخليل وجنوب بيت المقدس عام ١١١٣ م . / ٥٠٧ هـ .

أما عن الأحداث التى أسهب فوشيه فى عرضها فهى عديدة أذكر منها : تتبعه لتحركات الملك بلدوين الأول بداية من الرها وانتهاء بالخليل ، واستعداده لإتمام أول الإنجازات الحربية بتأمين الإقطاعية واستطلاع الأوضاع فى إقليم شرقى الأردن ، كما أفاض المؤرخ فى تتبع حلقات تلك الحملة التى امتدت لما يزيد عن الخمسة أسابيع ، وخلال ذلك أوضح « فوشيه » كيف بدأ الملك بلدوين حملته بتوطيد الوجود الصليبي فى غربى إقطاعية الخليل واستخدامه أشكالاً من الإرهاب الصليبي تجاه سكان جنوب الإقطاعية من العرب . ثم تعرض المؤرخ بالتفصيل إلى بعض جوانب معارك الرملة الثلاث .

(١) راجع الفصل الثالث ، ص ١٦٢ - ١٦٥ .

ورغم أن فوشيه قد عاصر كثيراً من الأحداث التي وقعت في الأراضي المقدسة ، إلا أن حديثه جاء موجزاً عنها ، ومن تلك الأحداث اكتشافه بالإشارة إلى إقدام الملك بلدوين الأول على طلب النجدة من الفرنج المقيمين في بيت المقدس والخليل لمعاونته في التصدي للفاطميّين خلال معركة الرملة الثانية ١١٠٢م / ٤٩٥ هـ . ولم يشر إلى التفاصيل التي تبعت تلك الخطوة ومدى مساهمة الخليل في الأحداث التالية .

وقد أغفل فوشيه كثيراً من الأحداث المهمة ، ومنها عدم الإشارة من قريب أو من بعيد إلى غزو جودفري دي بوايون لبلاد الخليل ، كما لم يتعرض المؤرخ بالإشارة إلى الرجال الذين تولوا حكم الخليل بوصفهم حكاماً لها ، فحينما أشار إلى شخص جلدمار كاربنل أغفل تسجيل استحوازه على الخليل ، ويمكن أن نلمس لفوشيه العذر في بدء الأمر إذ إنه كان بعيداً عن مملكة بيت المقدس ، لكنه حينما قدم إليها لم يهتم بالإشارة إلى دقائق الأمور التي تحدث في الخليل ولا إلى حكامها لأنه كان المؤرخ الخاص لبلدوين الأول ، لذا لم يكن متحمساً لتدوين أمجاد غيره من الحكام . كذلك أغفل المؤرخ تسجيل جانب مهم من الصراع الفاطمي الصليبي عند جبهة عسقلان - الخليل ، والذي يشير الغرابة أن المؤرخ لم يسجل شيئاً عن الأحداث التي سبقت وصاحبت الهجوم الفاطمي الدمشقي على الخليل ولا عن الهجوم ذاته في عام ١١٠٧م / ٥٠١ هـ . رغم مشاركة الملك بلدوين الأول خلالها في الدفاع عن الخليل ، وقد يرجع ذلك إلى أنه كان قد توقف عن الكتابة لبضع سنوات في هذه الآونة ، غير أنه لم يعن بتدوين هذه الأحداث حينما استأنف الكتابة . وفضلاً عن ذلك كله فقد كان إغفال فوشيه لحدث اكتشاف رفات الأنبياء (عليهم السلام) في الخليل عام ١١١٩م / ٥١٣ هـ . أمراً يشوبه الغرابة ، وذلك لجسامة الحدث ووجود المؤرخ في بيت المقدس ليس ببعيد عن الموقع .

ولعل أهم المصادر التاريخية الأجنبية التي أفادت في دراسة الحقبة الأخيرة من تاريخ الخليل في ظل الوجود الصليبي ، وتعد تذييلاً لتاريخ وليم الصوري كتاب «حولية أرنول وبرنارد وكييل الخزانة» (١) Chronique de Ernau et de Barnard le Tresorier الذي كتب باللغة الفرنسية القديمة . وكان الهدف من وضعه هو تتبع الكيفية التي فقد بها الصليبيون مملكة بيت المقدس في عام ١١٨٧م / ٥٨٣ هـ . ثم إعادة تأسيس الكيان اللاتيني في الأراضي المقدسة . وقد اتبع المؤلف طريقة السرد الحولي

(١) برنارد هو وكيل خزانة القديس بطرس في دير كوربي Corbie بفرنسا كما يخبرنا في آخر سطور الكتاب ، ووضع الكتاب استناداً إلى مخطوط مفقود وضعه شخص يدعى إرنول بعنوان «حروب صلاح الدين» التي تحمل جزءاً كبيراً من الكتاب ، ويتوقف الكتاب عند عام ١٢٢١م / ٦٢٧ هـ . انظر:

للأحداث وهى الطريقة التى كان يتبعها معظم المؤرخين المعاصرين . ويبدأ الكتاب بسرد تاريخ مملكة بيت المقدس حتى سقوطها بشكل غير منظم ، وبعد ذلك يسرد الكتاب تاريخ الأربعين عاماً التالية بتركيز شديد على الحملات الصليبية . كما يشمل الكتاب استطرادات عن بيزنطة وحياة أفراد غرب أوروبا الذين كان لهم تأثير على دول الشرق وملوك فرنسا وإنجلترا وخاصة أباطرة غرب أوروبا^(١) . ويؤخذ على الكتاب الإيجاز الشديد الذى يشوب رواياته وانتقاله من الحديث عن موقعة إلى الحديث عن أخرى دون ذكر التفاصيل الهامة لكليهما مما أدخل بالوحدة الموضوعية . ومع ذلك فهو من المصادر المهمة نظراً لأن مؤلفه كان معاصراً وشاهداً للبيان لكثير من الأحداث .

أما فيما يخص موضوع البحث فلن كتاب إرنول - برنارد ساعد على التأكد من بعض المعلومات التى وردت فى المصادر الأخرى ، وخاصة فيما يتعلق بنشاط رينودى شاتيو العسكرى ، وكذلك فهو يصف الوضع الذى عاشته المملكة بما فيها بلاد الخليل خلال هجوم صلاح الدين عليها ١١٧٧م / ٥٧٣ هـ . وحالة الرعب والتخبط التى سادت المملكة فى عقدها الأخير، الأمر الذى كان له تأثيره على إقطاعية الخليل . ولعل أهم ما قدمه لنا المصدر فى هذا الصدد ما يتعلق بالأوضاع الداخلية فى الإقطاعية حين تعرض لمشروع نقل أعداد من الفلاحين الأرمن إلى ريف المملكة الصليبية بدلاً من أهلها العرب . وقد مكن ذلك الباحث من أن يستشف بشكل تقديرى عدد العرب القاطنين فى بلاد الخليل والتأكيد على أنهم شكلوا الأغلبية العديدة فى الإقطاعية . ثم أفاض المصدر فى سرد تفاصيل الكوارث العسكرية التى ألمت بالصليبيين قبيل وخلال معركة حطين ودور رينودى شاتيو وهمفرى الرابع سيدا الخليل فيها، بيد أنه لم يتعرض بشكل أو بآخر إلى المصير الذى آلت إليه إقطاعية الخليل الصليبية .

ثم تنتقل بهذه الدراسة النقدية إلى التعرف على الدور الذى قامت به الوثائق من أجل بناء موضوع البحث على أسس قوية ، ففى الواقع نجد أن الوثائق هى مصدر المعلومات التالى بالنسبة للباحث، حين تصمت المصادر المعاصرة عن ذكر التفاصيل التى تساعد على الوقوف على حقيقة الأمور وطبيعة التركيب السياسى والاقتصادى والاجتماعى للصليبيين فى إقطاعية الخليل . وتتميز مجموعات الوثائق المختلفة بأنها ضمت أعداداً ضخمة من عقود الهبات والمبايعات والإمتيازات وقرارات المجالس العامة ومراسيم البابوات والحكام، والجدير بالذكر أن الصليبيين أولوا الوثائق أهمية كبرى فحرصوا على جمعها ووضعها فى سجلات مطولة حتى بعد فقدهم لهذه الأراضى، ومن الثابت فى هذا الصدد أنه حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى حينما اقتصرت سيطرتهم على مجرد مدينة عكا داخل الأسوار ، كان الفرنج لا يزالون يدونون المنح ليؤكدوا ملكية شخص ما لأشياء فى الإقطاعيات الصليبية كالخليل وما

(1) Cahen, c., op. cit., p. 20.

وراء الأردن ، علماً بأن هاتين الإقطاعيتين كانتا قد سقطتا بأيدي المسلمين منذ قرن أو يزيد . أما في العصر الحديث فقد دأب الباحثون على جمع وتصنيف الوثائق ونشرها في مجموعات مختلفة ، وبطبيعة الحال يتعرض الباحث لأهم هذه المجموعات ذات العلاقة بموضوع الدراسة .

ولعل أهم الوثائق المنشورة ما احتوته مجموعة « الموائيق العامة لجماعة إسبتارية القديس يوحنا في بيت المقدس » التي نشرها المؤرخ ديلا فيل لي رو في أربعة مجلدات ضخمة (١) ، وهذا الكم الهائل من الوثائق يدل على أن فرسان الإسبتارية أولوا عملية الاحتفاظ بها عناية فائقة منذ القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري حتى الوقت الحاضر ، حيث اصطحبوها معهم خلال انتقالاتهم من الشام إلى قبرص ثم إلى رودس ومالطة . والذي يهم موضوع البحث الجزء الأول من المجموعة إضافة إلى قليل من وثائق الجزء الثاني . ويتضح من بين ثنايا الدراسة أن هذه الوثائق أفادت الباحث في تتبع كثير من القضايا التي تتعلق برسم الخريطة الإقطاعية للخليل وما طرأ عليها من تغيرات بفضل المنح والهبات التي حصلت عليها جماعة الإسبتارية في الإقطاعية .

ومن واقع ماورد في مجموعة الموائيق العامة لإسبتارية بيت المقدس تم التعرف على بعض الجوانب الخاصة بكنيسة الخليل التي حملت اسمه سانت أبراهام مثل اتباعها للنظم الرهبانية الأوغسطينية بداية من عام ١١١٢ م / ٥٠٦ هـ . وكذلك التعرف على اسم أول رئيس لها (٢)، وإضافة إلى هذه المعلومات حددت لنا الوثائق موقف بلدين دى سانت أبراهام كحاكم لإقطاعية الخليل وكشفت لنا عن أسماء بعض رؤساء كنيسة سانت أبراهام في هذه المرحلة . ومن ناحية أخرى أوردت بعض هذه الوثائق أسماء قادة صليبيين حكموا الخليل مثل هيودي سانت أبراهام الثاني ، وقد أوضحت وثيقة تعد من أهم هذه الوثائق قائمة بالبلاد والقرى التي منحها هذا الحاكم لطائفة الإسبتارية في عام ١١٣٦ م / ٥٣٠ هـ . وكان من أهمها بلدة بيت جبرين وقلعتها، وقد أحدثت تلك المنحة هزة عنيفة في كيان إقطاعية الخليل الصليبية لكبر المساحة الممنوحة . وفي وثيقة أخرى تم التعرف على حدوث انسلاخ آخر لجزء من إقطاعية الخليل تتمثل في قرية عين جدى . كذلك ألقت مجموعة الوثائق الضوء على الوضع الإقطاعي الذي أحاط بالخليل فترة مابعد همفري الثالث ، فإحجامها عن ذكر حمل «ميلون دى بلانسي»

(1) Delaville le Roulx , J., Cartulaire General de L'order des Hospitaliers de S. Jean de Jerusalem 1100 - 1310, ed., 4 vols. Paris 1894 - 1906.

(2) Delaville Le Roulx, C. G. O. H., vol. I, Doc. No. 25, 28, 120 , pp. 26, 28, 98.

Millon de Plancy زوج ستيفانى دى ميلى لقب سيد الخيل يشير إلى بقاء الإقطاعية فى يد أسرة همفرى . ثم ذكرت الوثائق استحواذ رينو دى شاتيو على لقب « سيد الكرك والشوبك والخليل » بزواجه من ستيفانى فى عام ١١٧٧م / ٥٧٣ هـ (١) ومن ناحية أخرى تم تحديد بعض ملامح سياسته مع همفرى الرابع الرامية إلى ربطه بالبيت الملكى حتى يتيح رينو لنفسه فرصة أوسع فى ممتلكات همفرى فى الخليل وغيرها .

وفى ختام الحديث عن مجموعة الموائيق العامة لجماعة الإسمتارية لابد من الإشارة إلى أنها لم تتعرض لذكر جميع الطوائف المسيحية ذات العلاقة مع إقطاعية الخليل الصليبية، والتي حازت وضعًا خاصًا داخلها ، كما لم تشر إلى كثير من أوجه الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية مثل: الزراعة وأنواع الصناعات، وكذلك الأعياد والمناسبات الدينية للصليبي الخليل .

وتلى مجموعة موائيق الإسمتارية فى الأهمية مجموعة أخرى ، دأب على نشرها المؤرخ الإيطالى سبستيان باولى Paoli Sabastiano تحت اسم « المراسلات الدبلوماسية للجماعة الرهبانية المحاربة فى بيت المقدس » والتي تعرف اليوم بجماعة مالطة (٢)، وذلك فى جزئين عامى ١٧٣٣ - ١٧٣٧م . وقد ركز باولى أثناء جمعه للوثائق من أرشيف مالطة فى هذه المجموعة على إبراز أعمال مقدمى الإسمتارية وجهودهم الدبلوماسية أو اتصالاتهم بغيرهم من القادة والزعماء الصليبيين . واستعان الناشر بموظفى أرشيف مالطة لإتمام عمله فى جمع هذه المجموعة (٣) وجاء تصنيف الناشر لمجموعة الوثائق فى قسمين: الأول يحتوى العقود الدبلوماسية الموثقة بين مقدمى الجماعة والملوك والأمراء العلمانيين، بينما خصص الثانى للمراسيم البابوية الصادرة بشأن أمور تخص الإسمتارية . وهذا التصنيف فى وثائق الجماعة سهل من مهمة الباحث فحرص على مراجعة ماورد بالجزء الأول من المجموعة بما يفيد موضوع البحث، إذ إن بعض وثائقه انصبت على علاقة الإسمتارية بإقطاعية الخليل الصليبية . والجدير بالذكر أن باولى بهذا العمل سبق ديلافيل لى رو بأكثر من قرن ونصف . ومع ذلك امتازت مجموعته بأنها أوردت وثائق لم تحتوها مجموعة ديلافيل لى رو والتي اهتمت بتحقيق الوثائق زمنياً وترتيبها .

ومن أهم الوثائق التى نشرها باولى تلك الوثيقة التى اشتملت على تأكيد منحة جلدماركاربنل من ممتلكاته فى الخليل لطائفة الإسمتارية ، وكانت قد وثقت عام

(1) Ibid, vol. I, Doc. No. 116, pp. 97 - 98 , Doc. No. 215 , pp. 317 - 318 , Doc. No. 521 , p. 355.

(2) Paoli , S. , ed. : Codice Diplomatico Del Sacro Militare Ordine Geroslimitan Oggi Di Malto, 2 vols, Lucca 1733 - 1737.

(3) Delaville Le Roulx , J., (ed) Inventaire de Pièces de Terre Sainte de Lordre de Hopital, in. R. O. L. Tom II , B. Paris 1895, p. 41.

١١١٠م / ٥٠٤هـ . وساعدت الوثيقة الباحث فى كشف حقيقة العلاقة التى تربط حاكم الخليل بملك بيت المقدس ، وأكدت أنها بنيت على أساس قيام إقطاعية صليبية فى الخليل . ومن الوثائق التى ساعدت فى التعرف على تسلسل حكام الخليل ، تلك التى أشارت إلى بلدوين دى سانت إبراهيم لأول مرة كشاهد على العقود فى عام ١١١٥ م / ٥٠٩ هـ . أما وثيقة عام ١١٨٠م / ٥٧٦هـ . فقد تناولت المنح المقدمة من رينو دى شاتيو لرجال الدين فى قرى الخليل بغرض فض الخلافات بين الكنائس ، وبالتالي كشفت عن حقائق مهمة حول الواقع الإقطاعى فى الخليل . وبالرغم من المادة الطيبة التى أمدتنا بها هذه المجموعة فى مجال الحكم الصليبي فى الخليل إلا أنها كانت فقيرة بالمعلومات التى مست الجوانب الحضارية ، ولعل أهم ما أفاد البحث منه فى ذلك الجانب ماتضمنته إحدى الوثائق عن حصول طائفة الإسميتارية على تسهيلات فى الملاحة (١) البحرية عبر البحر الميت مروراً بالخليل ووصولاً إلى شرقى الأردن .

وتأتى وثائق سجل كنيسة القيامة فى المرحلة التالية من ناحية الأهمية بالنسبة لموضوع البحث . وتجدر الإشارة إلى أن السجل لقى اهتماماً من قبل عدد من الباحثين بنشر وثائقه ، إلا أن البحث اعتمد على آخر نشر له للباحثة جنتيف برسك بواتيه فى عام ١٩٨٤م (٢) التى أبدت دقة واضحة وتنظيماً شديداً فى إتمام تحقيق الوثائق . وترجع أهمية وثائق كنيسة القيامة بالنسبة للبحث إلى أنها ألقت بعض الأضواء على الوضع داخل كنيسة سانت إبراهيم والدير القائم بها من خلال علاقة رهبانها برجال الدين فى كنيسة القيامة . كما زودت البحث بمعلومات عن التسهيلات التى قدمها الملك بلدوين الثانى عام ١١٢٠م / ٥١٤هـ . للحجاج المسيحيين فى مملكة بيت المقدس ، مما ترك الأثر الإيجابى على حركة الزيارة إلى الخليل . كذلك أعطت لنا وثائق كنيسة القيامة صورة واضحة عن حجم المنح والإقطاعات التى حصلت عليها كنيسة القيامة فى حدود إقطاعية الخليل الصليبية طوال القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى ، بل وحينما أصبحت تلك المنح إسمية فيما بعد ، وعلى سبيل المثال حصلت الكنيسة على قرية تقوع عام ١١٣٨م / ٥٣٣هـ . فأقامت بها ديراً عمل رهبانه بالزراعة . وعلاوة على ذلك أشارت الوثائق إلى أسماء بعض رجال الدين فى كنيسة سانت إبراهيم ومنهم رينيه دى بروس Renir de Birus الذى ورد اسمه كشاهد على أحد العقود وبصفته رئيس أسقفية الخليل فى عام ١١٧٠-١١٧١م . / ٥٦٥-٥٦٦هـ . ومن ناحية أخرى مكن

(1) Paoli, S. Cod. Dipl. Tome I, Doc. No. 2 , pp. 2 - 3 , Doc. No. 17 , pp. 18 - 19 , Doc. No. 33 , p. 32, Doc. No. 62 , pp. 62 - 63.

(2) Bresc - Bautier , J. ed., Le Cartulaire du chapitre du Saint-Sepulcre de Jerusalem, en D.R.H. Cr. 15, Paris. 1984.

سجل كنيسة القيامة الباحث من أن يحدد ترتيب بعض حكام الخليل من خلال ما أكدوه من منح عقارية داخل الإقطاعية للكنيسة^(١) ، حيث تم التأكد من تولى همفري دى تورون الثانى حكم الخليل بعد هيو دى سانت أبراهام الثانى، وبالرغم من أن وثائق كنيسة القيامة قدمت معلومات سدت فجوات فى جوانب الحكم والإدارة إلا أن المعلومات الخاصة بالجوانب الحضارية كانت قليلة.

ومن الوثائق الهامة التى اعتمدت عليها وأثرت البحث بمعلومات قيمة « عقود وامتيازات الأرض المقدسة الخاصة بدير السيدة مريم فى وادى جوزفات » Chartes de Terre - Sainter Prament de L'Abbay de Notre - dome - de Josphat التى عمل على نشرها هنرى ديلابورت^(٢) Delabor de ولا بد من الإشارة إلى أن دير القديسة مريم فى وادى جوزفات (وادى جهنم أو وادى السيدة مريم) يعد من أكبر الأديرة فى الأراضي المقدسة ، وإنه حصل على كثير من المنح والإقطاعات داخل المملكة الصليبية، وكانت الخليل إحدى الإقطاعات التى اقتطع من أراضيها أجزاء لتمنح للدير، حيث قام فيليب دى ميلى بمنح نصف قرية بيت أومر الواقعة فى شمال إقطاعية الخليل للدير فى عام ١١٥٢م. / ٥٤٧ هـ . وتسببت تلك المنحة فى إيقاع بعض الباحثين الحديثين فى لبس حيث جعلتهم يعتقدون فى تولى فيليب حكم الخليل . أما حينما أشارت وثيقة أخرى فى عام ١١٨٠م. / ٥٧٦ هـ. إلى قيام رينو دى شاتيو بمنح نصف القرية الآخر لنفس الدير، فقد كشفت عن بعض الحقائق التى ستوضح خلال البحث . كذلك ألقت وثائق دير وادى جوزفات الضوء على مدى ماوصلت إليه إقطاعية الخليل من نضوج دستورى على عهد رينو دى شاتيو لما أبداه من قدرة على منح الممتلكات^(٣) . وعلاوة على ذلك أشارت الوثائق إلى بعض الجوانب السياسية مثل المصير الذى آل إليه بعض القادة الصليبيين فى المعارك مثل قتل رينو دى شاتيو وأسر همفري الرابع .

والى جانب الوثائق والعقود السابقة أفاد الباحث من سجل وثائق هيئة فرسان التيوتون Tabulae Ordinis Theutonici Jerusalem التى قام بنشرها باللغة اللاتينية إرنست شترلكة Ernest Strehlke ، وقد رجع الباحث إلى الطبعة الأخيرة التى نشرها هانز إبراهيم ماير Hans Ebrhard Mayer ، وفى عام ١٩٧٥م. وهى تحمل نفس صفحات الطبعة القديمة مع مقدمة عن حياة شترلكة . ورغم أن سجل وثائق التيوتون اهتم أساساً بالاحتفاظ بعقود الطائفة إلا أن بعض وثائقه ألقت الضوء على جوانب من تاريخ الخليل الصليبي، وكانت لهذه الوثائق أهمية خاصة نظراً لدقتها وأصالتها ، فلم

(1) Ibid, Doc. No. 29, 76 - 77, 110 .

(2) Delaborde, H. F., ed., Chartes de Terre - Sainte Provemant de L'Abbaye de Notre - Dame de Josphat, E. Paris 1880.

(3) Ibid, pp. 41 , 45 , 64 , 80 - 81.

يشر العقد الخاص بمبادلة الأراضي عام ١١٦١م. / ٥٥٦ هـ . إلى امتلاك فيليب دى ميلى الخليل (١) ، فقدمت أحد الدلائل على أنه لم يحكمها ، وبالتالي أمكن ضبط تسلسل الرجال الذين تولوا حكم الإقطاعية بشكل صحيح . كما أمدتنا هذه الوثائق بمعلومات مهمة فيما يتعلق بزراعة قصب السكر بالقرب من البحر الميت ، كما زودتنا بمعلومات عن طبيعة العلاقة بين أسقف الخليل الاسمى فى القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى بطائفة التوتون (٢) ، الامر الذى كشف عن حقيقة حجم الممتلكات التى حازتها الأسقفية فى القرن السابق ، وأخيراً فبالرغم من قلة الوثائق التى تضمنت معلومات عن الخليل إلا أن ما ورد فيها سد فجوات أساسية فى تاريخها عصر الحروب الصليبية .

وفى ختام الحديث عن أهم الوثائق والسجلات التى أفادت موضوع الدراسة بشكل مباشر أو غير مباشر لابد من الإشارة إلى إفادة البحث فى كثير من جوانبه مما ورد فى كتاب « سجل ملوك بيت المقدس » Regesta Regni Hierosolymitani الذى وضعه رينالد روهريشت (٣) فى مجلدين ، يتصف حجم الأول منهما بالضخامة . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يعتبر من المؤلفات الحديثة إلا أن مادته تتصف بالأصالة حيث تم استخلاص ونقل محتواه من مصادر أصلية أشارت إلى المنح والإقطاعات التى حصلت عليها الكنائس والأديرة . وتسهيلاً للاطلاع صنف روهريشت مؤلفه بتجميع وثائق كل عام فى مجموعة واحدة وحرص على ضبط تاريخها مشيراً إلى المصادر والوثائق التى اقتبس منها المعلومات . ثم ذيل كلا من المجلدين بمجموعة من الكشافات تسر على الباحث عمله . ومن ثم تكمن أهمية هذا السجل فى أنه أكد المعلومات التى تم تحصيلها من خلال الوثائق الأخرى كما أن مادته ألقت بعض الأضواء على جوانب من موضوع البحث وخاصة فيما يتعلق بتتبع ترتيب حكام الخليل وما يخص كنيتها .

أما عن كتب الرحالة الأوربيين ، فلها أهمية بالغة أيضاً فى دراسة تاريخ الخليل الصليبي وخاصة الشق الحضارى منها ، لأنها تعطى وصفاً دقيقاً للبقاع والظواهر ، مما يدعم أركان البحث . ورغم أن هذه الكتب يعدها البعض من العوامل المساعدة لدراسة التاريخ ، إلا أنها تعتبر أساسية بالنسبة لموضوع الدراسة ؛ فقد استأثرت الأماكن المقدسة داخل إقطاعية الخليل باهتمام الكثير من الرحالة الصليبيين ، ويشهد على ذلك عشرات من الرحلات المدونة لهم وهى عادة ماتشمل زيارة الحرم الإبراهيمي (كنيسة سانت أبراهام) وغيره من البقاع . وحينما يقدم أحدهم على تدوين رحلته فكان يلجأ إلى ذكر الخليل حتى إذا ما كانت خارج إطار الرحلة ، إما سماعاً عن الآخرين أو نقلاً عنهم . وقد رجع الباحث إلى عدة مجموعات اشتمل كل منها على عدد من رحلات الأوربيين فى الأراضي المقدسة فضلاً عن بعض الرحلات التى تم نشرها فى مجلدات

(1) Mayer, H. E., ed. : Tabulae Ordinis Theutonicici Jerusalem 1975, Doc. No. 3 , pp. 3 - 5 .

(2) Ibid., Docs. No. 8 , p. 9 , No. 101 - 105, pp. 101 - 103.

(3) Rehricht, R., ed., Regesta Regni Hiero Solimitani, vol. II, Innsbruck 1893.

مستقلة خارج هذه المجموعات . وتأتى مجموعة الحجاج إلى فلسطين^(١) Palestine Pilgrims text Society فى الصدارة لما تضمنته من مادة جغرافية وتاريخية قيمة ، وتليها مجموعة « الرحالة اليهود » Jewish Travellers ، فمجموعة « الرحلات الصليبية إلى بيت المقدس » Itinera Hierosolomitana Crucesignatorum .

تمثل رحلة سايولف إلى الأراضى المقدسة فى عام ١١٠٢ - ١١٠٣م/ ٤٩٥-٤٩٦ هـ^(٢) أهمية خاصة بين رحلات مجموعة الحجاج إلى فلسطين؛ نظراً لأنها تمت خلال السنوات الأولى من تاريخ الاستقرار الصليبي ، وتكمن أهميتها بصفة خاصة بالنسبة لموضوع البحث بأن صاحبها انفرد بالإشارة إلى خراب وتدمير مدينة الخليل إبان الغزو . وكما أفاض سايولف شأنه شأن باقى الرحالة الصليبيين فى وصف الكنيسة التى أقيمت داخل الحرم الإبراهيمي والتجهيزات والأثاث فيها . وكذلك إفاضة فى وصف البحر الميت وبعض المعلومات الخاصة بوجود نبات البلسم وغيره بالقرب منه . وبلغ اهتمام الزوار بالأماكن المقدسة الحد الذى يمكن معه القول بأنه قدم دليلاً يضم أهم هذه الأماكن تيسيراً للرحالة الذين يأتون إلى الأراضى المقدسة من بعده ، كما عرض وصفاً مسهباً عن الوضع العسكرى القائم عند أطراف إقطاعية الخليل حيث ذكر جانباً من المقاومة التى أبداه الأهل إلى العرب ضد الوجود الصليبي ، وأفاض فى التعرض لأشكال هذه المقاومة ، وقد أوضحت هذه التفاصيل الرؤية لدى الباحث عن مدى عدم استقرار إقطاعية الخليل فى بدء عهدها . وكان سايولف أميناً حين تحدث عن شجرة عمرى وذكر أنه لم يرها بنفسه ، وإنما ذكر له بعض الأهالى أوصافها ، وبصفة عامة غلب على وصف الرحالة عاطفة دينية جياشة ربما كانت السبب وراء ما دونه من خطأ تاريخى حينما نسب ما كان للحرم الإبراهيمي من أبهة وعظمة فى الأثاث إلى العصر البيزنطى فى حين كان المسلمون هم أصحاب الفضل فى ذلك .

ويعتبر كتاب رحلة «حج الراهب دانيال الروسى فى الأراضى المقدسة» Pilgrimage of the Russian abbot Daniel in the Holy land^(٣) من المصادر ذات

(١) أعاد بعض الباحثين الحديثين نشر رحلات هذه المجموعة ، وقد خصصوا الجزء الثانى من عملهم « الحج إلى بيت المقدس » للرحلات بين عامى ١٠٩٩ - ١١٨٥ م. / ٤٩٢ - ٥٨١ هـ . ، كما ضم أكثر من دليل للأماكن داخل المملكة وصفاً لزيارة بعض الرحالة المعاصرين لم تحتوها المجموعة السابقة . راجع : Wilkinson, J., Hill, J., Ryan, W. F., Jerusalem Pilgrimage 1099 - 1185, London, 1988.

(2) Saewulf, Pilgrimage to Jerusalem and The Holy Land, Trans. by W. R. Brawnlow, in : P.P.T. S., vol. IV, London, 1889, pp. 1 - 55.

من خلال الرحلة أمكن للباحثين معرفة أنه من إنجلترا ، وأن سايولف مجرد لقب أطلق عليه ، أما كونه من رجال الكنيسة أو من العلمانيين ، فهذه ناحية ليس من اليسير التأكد منها . انظر :

Ibid, pp. VI - VII.

(3) Trans by C. W. Willson, in P.P.T.S., vol. IV , London, 1888.

كان دانيال يعمل أسقفًا بإحدى المدن الروسية وتوفى فى التاسع من سبتمبر ١١٢٢م/ الخامس من رجب ٥١٦ هـ، ولاهية رحلته فقد ترجمت إلى العديد من اللغات .

الأهمية الكبرى بالنسبة لموضوع البحث حيث زوده ببعض الجوانب السياسية والحضارية خلال بداية الاستيطان الصليبي في الأراضي المقدسة ، إذ كان تاريخ القيام بهذه الرحلة قد تحدد بالفترة الواقعة بين عامي ١١٠٦ - ١١٠٧م / ٥٠٠ - ٥٠١ هـ . وتكمن أهمية الرحلة كذلك في أنها شملت منطقة الخليل وفيها تعرض صاحبها إلى مسألة الأمن في الإقطاعية، وتحدث عن استمرار المقاومة الإسلامية عند أطرافها ، حتى أنه لم يتمكن من مواصلة رحلته إلى البحر الميت ، كما أنه عاد وسط مجموعة مسلحة إلى بيت المقدس، وقد كشف هذا الأمر عن جانب من الواقع العسكري والسياسي لكل من الصليبيين أصحاب السيادة والأهالي من المسلمين الخاضعين . وأمدنا الرحالة بوصف جيد لبعض معالم بلاد الخليل ، كما زدونا بمعلومات عديدة أفادت الباحث في الجوانب الحضارية ؛ ومن ذلك عرضه لمجموعة المزروعات التي كانت تشتهر بها الأراضي المقدسة وخاصة زراعة الأشجار المثمرة والخضراوات والحبوب، كما ذكر أن كلاً من الخليل ونابلس اشتهرتا بزراعة القمح ، كذلك أشار إلى شهرة الخليل بزراعة الخضراوات ووصفها بأنها كانت الأكبر حجماً من جميع الخضراوات التي تزرع في الأراضي المقدسة . كما أخبرنا الرحالة بأن ريف الخليل كان ينتج عسل النحل وعديدا من الأعشاب المفيدة . وتعرض دانيال أيضاً بإسهاب إلى الموارد المائية في بلاد الخليل من ينابيع وجداول، كما مسح أجزاء من شرقى الإقطاعية ، وحدد أسماء ومواقع الأديرة والكنائس البيزنطية القديمة بها بوصفه راهبا أرثوذكسيا ، ثم زدونا بمعلومات عن بعض الصناعات التي كانت سائدة في الأراضي المقدسة أثناء زيارته لها . وكذلك تعرض لبعض الفئات السكانية في منطقة الخليل مشيراً إلى عنصر السريان وانتشار سكناتهم في عدد من القرى . ورغم أن المادة التي أتى بها دانيال وفيرة إلا أنها كانت مختصرة في كثير من الأحيان، كما أنه أغفل الإشارة إلى دور المسلمين في تسيير الحياة الاقتصادية زراعية ورعوية وصناعية ، تاركاً ذلك لمن جاء من بعده .

ويأتي كتاب «وصف بيت المقدس والأراضي المقدسة» Dericription of Jerusalem and the Holy land من حيث الأهمية في المرحلة التالية وقد اشتهر خطأ بأن كاتبه هو «فيتلس»^(١) Fetllus الذي كان أحد شمامسة أنطاكية، وقام باختصار الرحلة الأصلية حوالى عام ١٢٠٠م / ٥٩٧ هـ . وكانت الوقائع التاريخية التي انتهى عندها الكتاب الأصلى تقف عند حكم الملك بلدوين الثانى أى حوالى عام ١١٣٠م / ٥٢٤ هـ . وقام فيتلس بإضافة الوقائع الخاصة بالملك فولك وبلدوين الثالث من مصادر لايمكن التعرف عليها . وقد أفاض الرحالة فى وصف جغرافية البحر الميت ، فتعرض إلى

(1) Description of Jerusalem and The Holy Land, in : P. P. T. S., vol. V, London, 1896.

جوانبه الاقتصادية المختلفة حيث أشار إلى المناطق التى زرعت بالكروم، وحدد الجهات التى تضم الأحراش والنباتات المختلفة، وتعرض إلى الأملاح التى تستخرج من البحر، ونجح فى تصنيفها وتحديد أهمية بعضها وكيفية استخراجها، كما أشار إلى استخراج مادة القطران والشبّة وأوضح أهميتها الاقتصادية^(١)، ثم أشار فيتلس إلى مساحة منطقة عين جدى داخل إقطاعية الخليل. وهذه الأمور ساهمت فى تمكين الباحث من وضع تصور محدد عن اقتصاديات إقطاعية الخليل، كما ألفت الأضواء على مدى ما فقدته الإقطاعية من أراض حينما اقتطعت عين جدى^(٢). وكان الرحالة أكثر موضوعية عن غيره حينما أقر بجفاف شجرة البلوط فى ممرا التى شهدت قصة ضيف إبراهيم (عليه السلام) وذلك قبل قدوم الصليبيين إلى الشرق بزمان طويل. والجدير بالذكر أن الرحلة لم تتناول أجزاء ذات أهمية بارزة بين بقاع الخليل مثل: بيت جبرين والقرى الواقعة شمالى الإقطاعية، وهذا يشير إلى أنه أغفل التعرض لها بالرغم من أن هذه المناطق هى المنافذ الطبيعية للوصول إلى مدينة الخليل والبحر الميت.

ومن أهم الرحلات اليهودية بل والأوربية التى تمت فى القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين تلك الرحلة التى قام بها الربى اليهودى فتاحية الراتسبونى Petachia of Ratisbon المنشورة ضمن مجموعة «الرحالة اليهود»^(٣) ويمكن تحديد تاريخ الرحلة بالفترة الواقعة بين عامى (١١٧٤ - ١١٨٧م / ٥٧٠ - ٥٨٣هـ) وبذلك فقد تمت الرحلة إبان الوجود الصليبي فى بلاد الخليل، ومن هنا برزت أهميتها لموضوع البحث. والجدير بالذكر أن فتاحية لم يدون تفاصيل رحلته بنفسه وإنما تولى صديقه ورفيق رحلته يهوذا Yahoda هذا الأمر عنه.

جاءت رحلة الربى اليهودى فتاحية على نفس الوتيرة التى اعتدنا رؤيتها فى عصر الحروب الصليبية الأولى التى تتميز بالوصفية غير المتعمقة فبعد سرده للبقاع التى زارها انتقل وكتبه يهوذا إلى الحديث عن زيارة الخليل فأفاض فى وصف الحرم

(١) راجع ما ورد فى الفصل الخامس من الدراسة عن اقتصاديات الخليل، ص ٣٣٤.

(٢) انظر الفصل الثانى من الدراسة، ص ١٢٥ - ١٢٧.

(3) Petachia of Ratisbon, The Itinerary of Rabbi Petachia 1174 - 1187 A. D, in Jewish Travellers, pp. 64 - 90.

نشأ فتاحية فى أسرة ذات ثقافة دينية عالية، فكل من أبيه وأخويه حملوا لقب الربى، ويبدو أن ذلك أثر فى تكوينه الثقافى منذ نعومة أظفاره. وعاش فتاحية فى مدينة براغ (شرقى أوروبا) ثم بدأ فى الترحال إلى بلاد اليونان والشرق حتى شملت رحلاته بلاد العراق والشام والأراضى المقدسة بها. وطبع كتابه عدة مرات بلغات مختلفة، لمعرفة المزيد راجع: د. محمد مؤنس عوض: الرحالة الأوربيون فى مملكة بيت المقدس الصليبية، ١٠٩٩ - ١١٨٧م، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٢م.، ص ٢٠١ - ٢١٢.

الإبراهيمي، وبالف في تحديد حجم أحجار المبنى، غير أن أهم ما أمدتنا به رحلة فتاحية هي تلك المعلومات المتعلقة بتجربته الشخصية في الهبوط إلى سفارة دفن الأنبياء أسفل الحرم الإبراهيمي، والأحداث الجانبية التي وقعت له والتي أظهرت بعض الجوانب الهامة التي تخدم طبيعة العلاقة الصليبية بالزائرين من غير المسيحيين . علاوة على ماتقدم فقد أشار إلى زيارة بقاع أخرى مثل البحر الميت وأكد على عدم وجود التمثال الملحق لامرأة لوط (عليه السلام) نافياً بذلك مشاهدات غيره من الحجاج الصليبيين، وبذلك أثبت حيدته وتعقله للأمور، فمن الصعب القول ببقاء التمثال على مر عشرات القرون عند شاطئ البحر الميت على حاله .

ويلى ذلك الرحلة المسماة « وصف الأراضى المقدسة » Description of the Holy land لصاحبها الرحالة يوحنا الذى كان يعمل كاهناً فى مدينة فيزربرج ، وجاء لزيارة الأراضى المقدسة فيما بين ١١٦٠ - ١١٧٠ م. / ٥٥٦ - ٥٦٦ هـ. (١) . وترجع أهمية هذه الرحلة إلى أن صاحبها قام بزيارة الخليل ، ويؤكد ذلك الدقة التى غلبت على وصفه لبقاعها المختلفة . ومن النقاط التى زودنا بها يوحنا ما يتعلق بالمسميات القديمة والمعاصرة التى عرفت بها بقاع الخليل ووصفه لأهم المعالم هناك مثل الحرم الإبراهيمي والمغارة التى يتضمنها ، ووادي الدموع وشجرة عمري ، وكذلك كل من حقل دمشق والبحر الميت ومايمثلانه من أهمية اقتصادية فى المنطقة . ولعل أهم ماتعرض له الرحالة فى هذا الصدد ما يتعلق بالصناعات القائمة على الموارد الطبيعية فى المنطقة ، حيث انفرد بالتحدث عن ازدهار إنتاج زيت البلسم فى عيين جدى وقيامها بتصديره إلى مدن شامية أخرى . وهذه الإشارة مهمة للتدليل على أن الفرنج زاولوا التجارة مع البلاد الإسلامية المجاورة وذلك ضماناً لبقائهم فى الشرق . ومن ناحية أخرى تعرض الرحالة لنشاط الفرنج الملاحى فى البحر الميت .

والى جانب المصادر الأجنبية التى اعتمد البحث عليها هناك العديد من المصادر العربية المطبوعة منها والمخطوطة ، المعاصرة للأحداث والمتأخرة عنها زمنياً، وكانت أهميتها تضاهى المصادر الأجنبية ، لما أوردته من الروايات التى أغفلها المؤرخون الصليبيون المعاصرون ، ولهذا لا غنى للباحث فى تاريخ الحروب الصليبية عن الرجوع للمصادر العربية والإسلامية؛ لأنها تعبر عن وجهة النظر الإسلامية من ناحية وتسد بعض الفجوات فى الروايات الأجنبية من ناحية أخرى، لكن هناك ملاحظات هامة وعامة على المصادر العربية. أولها: أن معظم المؤرخين المسلمين اتبعوا فى كتاباتهم طريقة السرد الحولى ، أى سرد الأخبار والأحداث التاريخية سنة بسنة، وثانيها: أن معظم المصادر العربية تحتوى على أجزاء تكاد تكون صورة طبق الأصل لأجزاء فى مصادر أخرى ، تمشياً مع عادة المؤرخين المسلمين فى النقل عن سابقهم بشكل حرفى فى بعض

(1) Johan of Wurzburg, Description of The Holy Land, 1160 - 1170 A. D., Trans. by Wilson. C.W., in : P.P.T.S., vol. V, London, 1890.

الأحيان. ولهذا يتضح من خلال الدراسة وعلى مدى فصول الرسالة أن عددًا كبيراً من المؤرخين اشتركوا في ذكر حادثة معينة دون أن تكون هناك اختلافات جوهرية فيما ذكره . وعلى الرغم من ذلك فقد أفاد الباحث من هذه المصادر خلال الدراسة، إذ زودته بمعلومات وروايات هامة عن الخليل ومظاهر الحضارة بها خلال فترة الصراع الإسلامي الصليبي، على الرغم من أنها أغفلت أحياناً ذكر بعض الأحداث الهامة. وبصفة عامة تمثلت نقاط القوة في المصادر العربية فيما يتعلق بأوجه الصراع الإسلامي الصليبي ودور الخليل فيه. كذلك إلقاؤها الضوء على النشاط الديني للمسلمين، وبعض المظاهر الحضارية في الإقطاعية. وكان توضيح ذلك يتطلب دائماً تدخل الباحث لاستشفاف الحقائق - إكمالاً لما ورد بالمصادر الأجنبية - أما نقاط القصور فتمثلت في عدم وضوح ملامح الدور الصليبي للخليل وحكامها وعدم استحواذ الخليل على اهتمام المؤرخين العرب إلا بعد استردادها من أيدي الصليبيين.

يعد كتاب «تاريخ دمشق» لصاحبه ابن القلانسي الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري أهم الكتب العربية التي عالجت تاريخ بلاد الشام بصفة عامة ودمشق بصفة خاصة؛ حيث تناول المؤرخ في كتاباته تلك الفترة الحرجة التي شهدت نزوح وسيطرة السلاجقة على البلاد، وكذلك الغزو الصليبي للساحل والاستيلاء على بعض المدن، كما تتبع خطوات إقامة الوحدة الإسلامية ضد الصليبيين وسجل كثيراً من الحروب التي وقعت ضدهم حتى وفاته في عام ١١٦٠م / ٥٥٥ هـ (١). والجدير بالذكر أن المؤرخ اتبع المنهج الحولي حيث سجل الأحداث سنة تلو الأخرى. ويعيب هذا المنهج في الكتابة التاريخية أنه يمزق سياق الحادثة الطويلة التي تمتد في عدد من السنين، وبالرغم من ذلك فقد تميزت كتابات ابن القلانسي بأنها تفصيلية دقيقة، كما أنها تعد مصدراً لكثير من المصادر الإسلامية؛ وذلك لأن كثيراً من المؤرخين المتأخرين عنه نسبياً قد نقلوا عنه.

وفيما يختص بموضوع الدراسة لم يشر ابن القلانسي إلى الخليل مباشرة إلا مرة واحدة باسم قبر الخليل عليه السلام، وذلك حينما سجل بإيجاز خبر ظهور أجساد الأنبياء «إبراهيم، إسحق، يعقوب» (عليهم السلام) في ٥١٣ هـ / ١١١٩م. وكان يقصد من ذلك تسجيل الحدث الذي أشارت إليه المصادر الصليبية بأنه اكتشاف لوفات الأنبياء، والجدير بالذكر أن المؤلف أرجع الواقعة إلى أمور قدرية. ويعد تسجيل تلك الحادثة سبقاً

(١) ابن القلانسي هو أبو يعلى حمزة بن راشد التيمي الدمشقي ولد سنة ١٠٧٩م / ٤٧٢ هـ. اهتم بدراسة العلوم الدينية والآداب، وأمضى معظم حياته في ديوان الإنشاء بمدينة دمشق وأصبح رئيساً للديوان، وكان دقيقاً وموضوعياً في كل ما تطرق إليه من كتابات، ولعل منصبه جعله أكثر قرباً من الأحداث ومكنه من الاطلاع على المراسيم والوثائق. انظر: مؤرخ شامي مجهول: البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، نشر كلود كاهين، مجلة الدراسات الشرقية، ج ٧ - ٨، باريس ١٩٣٧ - ١٩٣٨، ص ١٣٠؛ ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت (ب - ت)، ج ٤، ص ١٧٤، راجع أيضاً: السيد الباز العرني: مؤرخو الحروب الصليبية، ص ٩١ - ٩٢.

يحسب للمؤرخ حيث أصبح على بينة بما يحدث داخل الكيان الصليبي في الخليل رغم بعده النسبي عنها في حين جهل به أو أغفله معظم المؤرخين الصليبيين أنفسهم .

وإذا ما انتقلنا إلى الأحداث التي تناولها ابن القلانسي بإسهاب وتخص موضوع البحث فهي قليلة، نذكر منها حديثه عن أحداث معارك الرملة الثلاث وخاصة الأخيرة حيث أشار إلى قيام تحالف فاطمي دمشقي فيها وذلك في عام ١١٠٥م / ٤٩٨ هـ^(١). ثم تعرض المؤرخ بالتفصيل لنشاط مصر العسكرية ضد الصليبيين في عامي ١١١٩م / ٥١٣ هـ، ١١٢٣م / ٥١٧ هـ. كما أفاض المؤرخ فيما أورده عن حادثة لجوء هيولى بوازيه Hugu le Pousser سيد يافا الصليبي إلى الفاطميين في عام ١١٣٢م / ٥٢٦ هـ . وشروعهم في استرداد يافا لولا تدخل فولك ملك بيت المقدس واتخاذ الإجراءات اللازمة من أجل وضع القيود على نبلاء المملكة، كذلك أفاض المؤرخ في حديثه عن حصار الدماشقة لمدينة بانياس وبداخلها همفري الثاني الذي كان سيداً للخليل، وذلك في عام ١١٥٧م / ٥٥٢ هـ . وجاءت رواية ابن القلانسي مكتملة لما ورد في الرواية الصليبية.

ومن الأحداث التي أوجزها ابن القلانسي في تاريخه ما يتعلق بحملة بلدوين الأول عام ١١٠٧م / ٥٠١ هـ . على إقليم شرقي الأردن ، حيث اكتفى المؤرخ بالإشارة إلى قدوم الفرنج، وتخريبهم لقلعة وادي موسى التي شيدها المسلمون . كذلك أوجز المؤرخ الحديث عن الغارات التي شنّها الوزير الفاطمي طلائع بن رزيك على الخليل وغيرها من بلاد الفرنج فيما بين عامي ١١٥٧-١١٥٩م / ٥٥٢-٥٥٤ هـ. واكتفى بعرض الاتصالات بين دمشق ومصر التي سبقت تلك الأعمال الحربية، وكذلك الإشارة إلى النشاط الحربي البحري الفاطمي ضد الصليبيين في تلك الفترة.

على الرغم من معاصرة ابن القلانسي لكثير من الأحداث، وبالرغم من قربه المكاني أيضاً منها إلا أنه أغفل ذكر الكثير منها . ولعل من أبرز ما أغفل الإشارة إليه استيلاء الفرنج على بلاد الخليل ، وكذلك موقف دقاق صاحب دمشق من حملة بلدوين الأول على إقليم شرقي الاردن خروجا من الخليل عام ١١٠٠م / ٤٩٣ هـ. كما أغفل المؤرخ ذكر أحداث حملة الملك ذاته على نفس الإقليم في ١١١٥م / ٥٠٩ هـ. والأحداث المحيطة بها والتي ارتبطت بالخليل . كما أعرض عن ذكر أي شيء بخصوص غارة المسلمين الأتراك الدماشقة والعرب عام ١١٣٩م / ٥٣٣ هـ. على إقطاعية الخليل رغم تفوق المسلمين فيها وخروجهم من منطقة شرقي الأردن التي كان لدمشق نفوذ فيها . هذا علاوة على إغفاله لمعظم جوانب أحوال القبائل العربية القاطنة في أقاليم التحوم بين المسلمين والصليبيين ودورهم في الصراع القائم بينهما .

(١) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٢٤٠ .

ومن المصادر التي اعتمد البحث عليها كثيراً كتاب «الكامل في التاريخ» وكتاب «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل» لصاحبهما ابن الأثير المتوفى عام ١٢٣٣م/ ٦٣٠هـ^(١)، ونخص بالذكر كتاب «الكامل في التاريخ» فهو من أضخم الكتب التاريخية وأكثرها تنظيماً في المكتبة الإسلامية وأهمها. إذ إن ابن الأثير اعتمد في كتاباته على الكثير من المصادر الإسلامية المتخصصة والكتابات المدونة في البلاد المختلفة. ويذكر المؤرخ عن نفسه أنه كان يستقصي آراء الرفقاء من حوله عما يكتب^(٢). وما يتميز به المؤرخ في كتاباته أنه كان كثيراً ما يجمع بين عناصر الحادثة الواحدة التي تقع في عدد من السنين ويصل بين أجزائها ليكتبها في سنة واحدة وفي مكان واحد، وهو بذلك لم يلتزم دائماً بأسلوب الكتابة الحولية. كما أنه دون أحداثاً هامة لم يكن ابن القلانسي المعاصر لها قد ذكرها.

وقد أمد ابن الأثير الباحث بمادة تاريخية وفيرة ساعدت على دراسة بعض الجوانب حيث مكنته من تحديد تاريخ انتهاء فترة حكم همفري الثالث للخليل، إذ كان للمؤرخ السابق في ذكره ضمن أحداث عام ٥٦٥ هـ/ ١١٧٠م. وكان ذلك هو آخر ذكر له في المصادر باختلاف أنواعها. وهناك معلومات أخرى قدمها ابن الأثير ساعدت على تتبع الدور العسكري لإقطاعية الخليل في الصراع الإسلامي الصليبي حيث تعرض لأحداث معارك الرملة الثلاث. حيث أوضح بعض الجوانب التي لم تتضح عند المؤرخين السابقين عليه. كذلك انفرد المؤرخ بالإشارة إلى واقعة مهاجمة بلدوين الأول لقافلة دمشق في طريقها إلى مصر عام ١١١٣م/ ٥٠٧هـ. وذلك بالقرب من الخليل. وكذلك أشار إلى تهديدات الفرنج للطرق التجارية في المرحلة التالية. وروايات المؤرخ تعد دقيقة في معظمها، ومن أدلة ذلك أنه اتفق في بعضها مع مذكرته المصادر الأجنبية، ومن ذلك أن المؤرخ قدر عدد جيش صلاح الدين في معركة تل الصافية ١١٧٧م/ ٥٧٣هـ. بأربعة وعشرين ألفاً من الجند في حين ذكرته المصادر الأجنبية

(١) هو عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، ولد بالجزيرة في اليوم الرابع من جمادى الأولى عام ٥٥٥ هـ/ الثاني عشر من مايو ١١٦٠م، وانتقل إلى الموصل مع والده، وكان إماماً في حفظ الحديث وحافظاً للتواريخ الشفوية والمتأخرة، كما كان خبيراً بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ودقائقهم، وصف عدة تصانيف منها كتاب «الكامل في التاريخ» ابتداءً من أول الزمان حتى (٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠ - ١٢٣١م). وكان ابن الأثير متواضعاً كريماً. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨م. - ١٩٧٢م، ج ٣، ص ٣٤٨ - ٣٤٩؛ راجع أيضاً: مقدمة كتاب «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل»، تحقيق عبد القادر طليمات، القاهرة ١٩٦٣م. وقد رجع الباحث إلى كتاب «الكامل في التاريخ»، طبعة بيروت ١٩٧٩م.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ٣٥٨ - ٣٥٩.

بسته وعشرين ألفاً . والجدير بالذكر أن المؤرخ تناول أحداث هذه المعركة باستفاضة حيث شرح الوضع الذي آل إليه جيش صلاح الدين بعد الهزيمة وأتى بنص خطاب صلاح الدين الذي يصف فيه الهزيمة لوزيره القاضي الفاضل .

ومن الأحداث التي تناولها ابن الأثير باستفاضة وكانت لها أهميتها بالنسبة لموضوع البحث تعرضه لأحوال مصر الداخلية وما آلت إليه من ضعف، وأتبع ذلك بأن عرض حلقات الصراع بين دمشق ومملكة بيت المقدس الصليبية بغرض الاستيلاء على مصر^(١). ثم أفاض المؤرخ في استعراض الظروف التي أحاطت بقيام الدولة الأيوبية على أنقاض الفاطمية والدويلات الشامية، ثم تعرض ابن الأثير لجولات القتال بين صلاح الدين والصليبيين ، وذكر أحداث هجوم صلاح الدين على غزة وما يليها من أراضي الفرنج حتى الخليل في العام التالي . وكذلك هجومه على شرقي الأردن في عام ١١٧٢م/ ٥٦٧هـ . كما أفاض في ذكر محاولتي رينودى شاتيو البرية والبحرية لغزو الأراضي الحجازية في ١١٨١ - ١١٨٣م . / ٥٦٧ - ٥٦٩هـ . والهجوم الإسلامي الكبير على الكرك الذي أتبع ذلك، وفيه تعرض لتفاصيل إقامة الحصار الذي لم يتوقف إلا بقدوم دعم للصليبيين من باقى أرجاء مملكة بيت المقدس . ثم قدم ابن الأثير وصفاً كاملاً لأحداث معركة حطين مشيراً إلى سقوط الخليل في يد صلاح الدين^(٢).

والجدير بالذكر أن ابن الأثير أغفل ذكر معظم الأحداث والمعارك التي ميزت صراع الدولة الفاطمية مع الصليبيين في أخريات عهدها، وهذا يظهر مدى تحامله على الدولة الفاطمية، ربما تأكيداً منه على تخاذلها أمام الصليبيين . كذلك يؤخذ عليه اضطرابه في رواية الأحداث والخلط فيما بينها، وعلى سبيل المثال تناوله هجوم صلاح الدين على الكرك عام ١١٨٣م/ ٥٧٩هـ. ثلاث مرات في مواضع متفرقة .

أما المؤرخ العماد الأصفهاني^(٣) المتوفى عام ١٢٠٠م/ ٥٩٧هـ فهو الكاتب الحربي لصلاح الدين، حيث أفرد لتاريخ هذا القائد وإنجازاته مصنفين كاملين من بين مصنفات

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٩٨ - ٣٠١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧ ، ٣٣٥ ، ٣٤٠ ، التاريخ الباهر ، ص ١٣٦ - ١٣٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١١ ، ص ٣٥٢ - ٣٥٣ ، ٣٦٥ ، ٣٩٢ ، ٤٧٠ ، ٤٩٠ - ٤٩١ ، ٥٠٢ - ٥٠٧ .

(٣) عماد الدين محمد بن محمد بن حامد القرشي الأصفهاني، ولد بأصفهان في ١١٢٥م/ ٥١٩هـ، قدم إلى بغداد وهو شاب ودرس واشتغل بصناعة الكتابة وبرع فيها، وبدأ نجمه في الصعود حيث تولى النظارة في البصرة وواسط، ثم توجه إلى دمشق وتولى ديوان إنشاء نور الدين محمود ١١٧٢م/ ٥٦٨هـ. وبعد وفاة نور الدين اتصل بصلاح الدين في ١١٧٤م/ ٥٧٠هـ . فاستكتبه وقربه إليه وصار من خاصته. وبعد وفاة صلاح الدين ١١٩٣م/ ٥٨٩هـ . اعتزل العماد الحياة العامة وبقي في دمشق حتى وفاته. راجع: الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ١ ، تحقيق هـ . ريتز ، الطبعة الثانية ، فيسيادن ، ١٩٢٦م، ص ١٣٢ ومابعدها؛ العليمي: الأسس الجليل بتاريخ القدس والخليل*، بيروت ١٩٧٣م، ج ١، ص ٣٥٣ .

سنة قام بوضعها وهما: «الفتح القسى فى الفتح القدسى» الذى سجل فيه أحداث استرداد فلسطين ومواجهة جحافل الحملة الصليبية الثالثة، و «البرق الشامى» الذى تناول بعض الأحداث بمزيد من التفصيل. وكلا العملين يعد جمعاً متزامناً لمجموعة من الذكريات الشخصية وسيرة صلاح الدين، إذ يزخران بكثير من أقواله ووثائقه التى حررها العماد وصديقه الفاضل (١). وترجع أهمية هذين المصدرين إلى كون صاحبهما من رجال الإدارة فى عهد صلاح الدين، وأحد كتابه المقربين، والقائمين على الأمور بديوان إنشائه والمطلعين على مراسلاته ووثائقه، فلا غرو أن ينقل عنه خلفاؤه من المؤرخين المسلمين الذين أرخوا لعهد صلاح الدين.

وبالنسبة لموضوع البحث فقد أفاد الباحث من الروايات التى ساقها العماد ونقلها عنه اللاحقون ومنها مايتعلق بأحداث هجوم رينو دى شاتيو البحرى على الحجاز، ومن رواياته أيضاً مايتعلق بأحداث القتال الذى وقع بين فرق من جيش صلاح الدين وفرسان الخليل وشرقى الأردن مجتمعين فوق أراضى إمارة الخليل عام ١١٨٣م. / ٥٧٩هـ. وكذلك رواياته عن أحوال الصليبيين خلال أحداث هجوم صلاح الدين على الكرك فى ذات العام (٢). وكذلك تلك الرواية الهامة عن استعادة المسلمين لمدينة الخليل وقلعتها عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ. عقب موقعة حطين وفيها أشار المؤرخ إلى تاريخ سقوط المدينة (٣)، مما كشف عن دورها الإستراتيجى فى المعارك الخاصة بفتح كل من عسقلان وبيت المقدس.

بالإضافة إلى ما سبق فقد أمدنا العماد بمعلومات عن أحداث صليبية وقعت داخل المعسكر الفرنجى، واللافت للنظر أنها كانت دقيقة إلى حد بعيد ومنها إشارته إلى زواج رينو دى شاتيو من ستيفانى دى ميلوى التى كانت أم همفرى الرابع ذاكراً أنها كانت سيدة الكرك، علاوة على ذكره لتفاصيل حادثة وفاة همفرى الثانى متأثراً بجراحه أثناء معركة ضد المسلمين فى ١١٧٩م / ٥٧٤هـ (٤). كذلك ما يتعلق بإقالة ملك بيت المقدس بلدوين الرابع للوصى على العرش جى لوزجنان Guy Lusignan، وبعض الملابس التى اكتشفت هذا الحدث. وفى هذا الصدد تنبه العماد إلى واقعة تتويج بلدوين الخامس ملكاً وتولية ريموند الثالث أمير طرابلس وصياً عليه (٥).

-
- (١) العماد الأصفهاني: الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق: محمد محمود صبح، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ٢٣ - ٣٣.
- (٢) العماد الأصفهاني: البرق الشامى، ج ٥، تحقيق: فالح صالح حسين، الطبعة الأولى، الأردن، ١٩٨٧م، ص ٦٩ - ٧٤، ١٤٩ - ١٥١، ١٥٣ - ١٥٥.
- (٣) العماد الأصفهاني: الفتح القسى، ص ٥٤ - ١١٤.
- (٤) العماد الأصفهاني: البرق الشامى، ج ٣، تحقيق: مصطفى العبادى، الطبعة الأولى، عمان، الأردن، ١٩٨٧م، ص ١٥٩، ١٧٨، ج ٥، ص ١٤٨ - ١٤٩.
- (٥) العماد الأصفهاني: الفتح القسى، ص ٦٨.

وفى بعض المواضع اختصر العماد رواياته، ومن ذلك أنه لم يشر إلى الطريقة التى استلم بها المسلمون الخليل وباقي أرجاء الإقطاعية، كما لم يشر إلى الإجراءات التى اتخذها صلاح الدين فى الحرم الإبراهيمى بعد الفتح. ومن ناحية أخرى أغفل المؤرخ ذكر وقوع الهزيمة بين صفوف جيش صلاح الدين خلال هجومه على أطراف الخليل فى ١١٧٧م/ ٥٧٣ هـ. خلال معركة تل الصافية، وصورها على أنها غزوة ناجحة وأسماها «نوبة الرملة» وتفسير ذلك أنه اكتفى بالتعرض إلى الشق الأول منها^(١) الذى يتسم بتفوق المسلمين، على الرغم من كونه شاهد عيان للأحداث!! كما لم يتعرض إلى الإجراءات التى اتخذها رينودى شاتيو من أجل إعداد أسطوله البحرى وتسييره فى مياه البحر الأحمر، كذلك أغفل المؤرخ ذكر الأسلوب التسامح الذى اتبعه المسلمون مع الزوار المسيحيين للمقدسات فى بلاد الخليل، ويؤخذ على أسلوب العماد فى كتاباته الميل إلى الإطئاب والسجع واستخدام المحسنات البديعية بشكل متكلف أحياناً.

ومن المصادر العربية الهامة التى أفدت منها كتاب «الاعتبار» لمؤلفه أسامة بن منقذ المتوفى (١١٨٨م/ ٥٨٤ هـ)^(٢). وتكمن أهمية كتاب الاعتبار فى أن واضعه كان معاصراً للأحداث التى أرخ لها. فضلاً عن أن كل ماتعرض له كان خلاصة تجاربه ومشاهداته فى البلاد التى زارها. كما أنه انفرد بذكر الأحداث التى أمدنا بها الخاصة بموضوع البحث، وقد دعمت علاقته الوطيدة بالبيت الحاكم فى كل من القاهرة ودمشق كتاباته بحيث ظهر كسياسى بارز. ومن النقاط التى انفرد بها أسامة تتبعه للموقف العسكرى على جبهة الخليل - عسقلان خلال العقد الرابع من عصر الحروب الصليبية. وإخباره لنا بالمناوشات والصدامات بين الطرفين، الأمر الذى فسر حرص الصليبيين على إقامة القلاع عند حدود ممتلكاتهم الجنوبية لدرء الخطر الفاطمى. كذلك انفرد المؤرخ بالإشارة إلى أنه قام شخصياً بمخاطبة صلاح الدين الأيوبي وعاتبه على عدم مواصلة الهجوم على الفرنج وعدم استرداد الخليل.

وفضلاً عن النقاط التى انفرد أسامة بن منقذ بذكرها فقد أسهب فى عرض جانب مهم من الصراع الصليبي الإسلامى وأثره على بلاد الخليل، حيث استعرض مجموعة

(١) العماد الأصفهاني: البرق الشامى، ج ٣، ص ٥٣ - ٥٥.

(٢) هو مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن على الشيزرى، ولد فى الرابع من يوليو ١٠٩٥م السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٤٨٨ هـ. وهو من كبار رجال بنى منقذ أصحاب قلعة شيزر، أقام حيناً فى دمشق وأحياناً فى القاهرة وحصن كيفا، وكان من الرجال المشهورين والشعراء المبرزين، وكان له علاقات شخصية مع بعض قادة الصليبيين فى أوقات السلم، وعندما استولى صلاح الدين على دمشق استدعاه وهو شيخ قد جاوز الثمانين من عمره، وغمره بإحسانه. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٩٥، ١٩٦، ١٩٩. راجع أيضاً: مقدمة كتاب «الاعتبار»، تحقيق فيليب حتى، الولايات المتحدة الأمريكية، برستون ١٩٣٠ ص ١. ك.

الغارات التي شنّها وزير مصر الفاطمي « طلائع بن رزيق » وشملت إحداها تخریب الخلیل وكل الجهات الواقعة جنوب مدينة بیت المقدس ، وقد امتدت الغارات لفترة عامين ١١٥٧ - ١١٥٩م / ٥٥٢ - ٥٥٤هـ . ومن ناحية أخرى أفاد موضوع البحث من كتاب الاعتبار في التعرف على طبيعة بناء السجن الصليبي في بيت جبرين فأنقل جانباً من الدراسة الحضارية ، وألقى الأضواء على الابنية المدنية المقامة في أرجاء الخلیل المختلفة .

اعتمد الباحث أيضاً على كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية»^(١) للمؤرخ أبي شامة (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧م) . وهذا المصدر يعد مهماً لدراسة أحوال الشرق الإسلامي خلال فترة الصراع الإسلامي الصليبي . حيث اعتمد المؤرخ في تدوينه على عدد من المصادر العربية المفقودة مثل كتاب يحيى بن أبي طيئ الغساني الشيعي^(٢) إضافة إلى عدد آخر من المصادر المعروفة السابقة عليه . وقد تناول أبو شامة في مصدره الحديث عن جهاد عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود ، كما تعرض إلى نشاط صلاح الدين وجهوده الحربية ضد الصليبيين ، وتحدث عن معركة حطين وسقوط الخلیل في يد المسلمين . ويذكر المؤرخ أنه قام في عام ١٢٢٦م / ٦٢٤هـ بزيارة كل من الخلیل وبيت المقدس وما بتلك الديار من آثار^(٣) .

هناك عدة أحداث تناولها أبو شامة بإسهاب واضح حيث أفاض في الحديث عن دور البدو ضد الفرنج أو في صالحهم في مواضع متفرقة من كتابه . كذلك أسهب في عرض المراسلات التي سبقت غارات طلائع بن رزيق بين مصر ودمشق ، وتناول أبو شامة كذلك أحداث هجوم صلاح الدين على شرقى الأردن عام ١١٧٣م / ٥٦٨هـ بالتفصيل فجاءت معلوماته مكملّة وموضحة لما أتت به المصادر الصليبية في هذه الوقائع^(٤) . كما أفاض في عرض أحداث معركة تل الصافية حيث تناول معظم زواياها واستعرض التفاصيل الخاصة بتحركات القادة المسلمين . كذلك تعرض المؤرخ بالتفصيل لنشاط سيد الخلیل رينو دي شاتيو ضد المسلمين ، وخاصة خلال هجومه البحري على بلاد الحجاز . ثم تعرض بالتفصيل أيضاً إلى الخطط التي اتبعها صلاح الدين خلال

(١) وُضع الكتاب في جزئين في مجلد واحد ، طبعة بيروت (ب - ت) أما المؤلف فهو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن إبراهيم المقدسي الشافعي . ولد بدمشق في التاسع من يناير ١٢٠٣ م / الثالث والعشرين من ربيع الآخر ٥٩٩ هـ . وعرف المؤرخ باسم أبي شامة لوجود شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر ، تعلم الفقه والحديث ببيت المقدس ، وقد صنف عدة كتب ، وكان متواضعاً بعيداً عن التكلف ، ثقة في النقل . انظر : أبو شامة : الذيل على الروضتين ، تحقيق السيد عزت العطار الحسيني ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧م . ص ٣٧ ، ١٤٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، القاهرة ١٣٥١ هـ ، ج ١٣ ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٢) السيد البار العريني : مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص ١٥١ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

معاركه ضد فرسان همفري الرابع ورينو دى شاتيو فوق أرض الخليل، وذكر فيها الخسائر التى ألّت بالصليبيين. ثم تتبع المؤرخ خطوات صلاح الدين خلال معاركه مع الصليبيين حتى حطين، وأشار إلى تاريخ استرداد الخليل وتعرض إلى السلوك الكريم الذى اتبعه القائد مع الصليبيين^(١). ولكن نجمده تطرق بإيجاز إلى وقائع كانت لها أهميتها، ومنها غارات طلائع بن رزيق على الخليل وغيرها من بلاد الفرنج، وهو بذلك ينضم إلى ابن القلانسي وابن الأثير.

وعلاوة على هذه المجموعة من المصادر العامة. هناك مصدر متخصص وضعه المؤرخ «أبو اليمن العليمي»^(٢) المتوفى فى (١٥٢٢م / ٩٢٨هـ)، يحمل اسم «الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل» الذى أعيد طبعه بنفس صفحاته بالطبعة الأولى، ورغم تأخر المؤرخ نسبياً عن المؤرخين السابقين، إلا أن الكتاب يعد بحق موسوعة لتاريخ مدينتي القدس والخليل الإسلاميتين. حيث تناول المؤرخ ماورد عنهما فى المصادر المعاصرة، وربما جمع أيضاً من مصادر أخرى مجهولة بالنسبة للباحث، وكما أشار العليمي فى خاتمة كتابه فإنه تناول فيه مآثر حكام المسلمين وولائهم، «وكل من له بالمسجد الأقصى ومسجد الخليل فعل خير وآثار حسنة، ذكرت تاريخ ولايته، والخليفة الذى كان فى زمنه وتاريخ وفاته ومافعل فى أيامه من خير فيهما أو فى الأرض المقدسة مما حولهما»^(٣).

قسم المؤرخ العليمي كتابه إلى جزئين، اهتم فى الجزء الأول بإبراز الأهمية الدينية لكل من بيت المقدس والخليل حتى الفتح الإسلامى، ثم تعرض فى آخره إلى الأحداث التى دارت فى فلسطين حتى استعادة صلاح الدين الأيوبي للأراضى المقدسة، ثم تناول فى الجزء الثانى أحوال المدينتين باختصار حتى العصر المملوكى، وأعقب ذلك بعرض قوائم طويلة للمؤسسات المختلفة، ولجوانب عديدة من المظاهر الحضارية، بيد أن المصدر لم يشر إلا فى شذرات قليلة إلى أحوال الخليل إبان العصر الصليبي، ومع ذلك قدم معلومات طيبة مكنت الباحث من أن يستشف بعض الحقائق التى تمتد بجذورها إلى هذا العصر، وأفادتنا هذه المادة أيضاً فى تبيان الأبعاد الحضارية فى الخليل بعد إجلاء الصليبيين عنها.

(١) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٣ - ٢٧٤، ج ٢، ص ٣٥ - ٣٧، ٥٠، ٧٠ - ٩٦.

(٢) هو: عبد الرحمن العليمي الحنبلي أبو اليمن مجير الدين، من سلالة العليميين وهى إحدى القبائل العربية الضاربة منذ القدم فى بلاد الخليل، عاش الفترة ١٤٥٦ - ١٥٢٢ م / ٨٦٠ - ٩٢٨ هـ، ولد وتوفى فى القدس وقبره يقع بين كنيسة الجثمانية وكنيسة السيدة مريم فى وادى سلوان. وكان قد شغل وظيفة قاضى قضاء بيت المقدس، له مولفات عديدة. انظر: الغزى: الكواكب السائرة فى أعيان المائة

العاشرة، بيروت ١٩٤٩م، ج ٢، ص ٨٨.

(٣) العليمي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٣٢.

وأخيراً ونحن بصدد المؤرخين العرب لا يفوتنى الإشارة إلى كتب المؤرخ الشهير المقرئى^(١) الذى توفى فى ١٤٤٢ م / ٨٤٥ هـ. وأهمها: «اتعاظ الخنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء» و «السلوك لمعرفة دول الملوك» و «ضوء السارى فى معرفة خبر تميم الدارى» و «البيان والإعراب عما نزل بأرض مصر من الأعراب» و «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، وفيها ذكر المؤرخ كثيراً من الحقائق التى أفادت موضوع البحث على امتداده. وتتميز مؤلفاته بأنها ضمت معلومات نُقلت عن عدة أصول اندثر بعضها، كما كتبت بأسلوب واضح وبسيط. ويعد أول المصادر المذكورة أهم ما كُتب عن عصر الدولة الفاطمية حيث واكب جزء كبير منه فترة الوجود الصليبي فى الخليل. ولذا كان من الطبيعى أن يتضمن إشارات للصراع الإسلامى الصليبي، ومن أهم حلقات هذا الصراع أشار المصدر إلى غزو الفرنج للخليل، كما تعرض إلى غزو الفاطميين للإقطاعية فى ١١٥٨م / ٥٥٣ هـ. أما المصدر الثانى فيعد موسوعة لتاريخ الأيوبيين والمماليك، وقد أمد البحث بمعلومات حول استرداد المسلمين لمدينة الخليل، وقدم جماعات منهم للزيارة أو الإقامة فيها. كذلك أفاد الباحث من المصدر الثالث فى فهم البعد الدينى الذى أضفى على الخليل مزيداً من القدسية بوصفها أبكر الإقطاعات الإسلامية حينما منحها الرسول محمد ﷺ للصحابى تميم الدارى. وانفرد فيه المقرئى بالإشارة إلى أن الإقطاع عاد إلى أصحابه بعد القضاء على الوجود الفرنجى فى الخليل. أما الكتاب الرابع فقد تضمن بعض التفاصيل المهمة عن القبائل العربية التى امتدت سكنها فى مصر حتى بلاد الخليل، مما ساهم فى التأكد من حقيقة العناصر السكانية التى قطنت الخليل. أما آخر مصادر المقرئى فقد تعرض بصفة عامة لكثير من المظاهر الحضارية وبعض الجوانب التاريخية، وبالنسبة لموضوع البحث قام بإلقاء الضوء على حالة الطريق التجارى بين مصر ودمشق فى ظل الوجود الفرنجى فى الخليل وإقليم شرقى الأردن.

والى جانب المصادر التاريخية العربية اعتمدت أيضاً على ماكتبه الرحالة والجغرافيون العرب فى محاولة لاستكمال كافة جوانب البحث، وفى الحقيقة أخذت كثيراً من كتبهم إذ إنها عاجلت بعض جوانب البحث وخاصة فيما يتعلق بدراسة النواحي الحضارية، ولعل أهم المصادر التى عاصرت الوجود الصليبي فى بلاد الخليل كتاب

(١) هو تقي الدين أحمد بن على المقرئى، ولد بالقاهرة عام ١٣٦٤م / ٧٦٦ هـ، سليل أسرة شيعية فاطمية، ولا خلاف فى تبوئه صدارة المؤرخين المصريين فى النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى/ النصف الأول من القرن التاسع الهجرى، ويكفى دليلاً على هذا أن تلاميذه مثلوا فطاحل المؤرخين فى مصر خلال العصر المملوكى. وقد تناولت كتابات المقرئى أوجها عديدة من تاريخ مصر والشام فى عهود مختلفة. وأحياناً مايقوم بتحليل الأحداث والتعليق عليها. وقد توفى المقرئى بالقاهرة عام ٨٤٢م / ٨٤٥ هـ، راجع مقدمة كتاب: المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٦م، ج ١، ص ب - د.

«الإشارات لمعرفة الزيارات» لمؤلفه على الهروى^(١) المتوفى عام (١٢١٧م / ٦١٤ هـ) وتستمد كتابات الهروى قوتها من خلال تدوينه للأحداث التى واكبها فكان شاهد عيان لها، حيث قام بزيارة بيت المقدس عام (١١٧٣م / ٥٦٩ هـ). أى قبل أن يستردها المسلمون من الصليبيين، كما أنه قام بزيارة الخليل أثناء رحلته وتحديث إلى المقيمين فيها من الفرنج، وتخص عن ذلك تقديمه لوصف دقيق للحرم الإبراهيمى ومكوناته الداخلية. والثابت أن الهروى بدأ رحلته للأراضى المقدسة من أريحا إلى طبرية ثم إلى بيت المقدس مروراً بنابلس. وبعد وصف عام للمدينة المقدسة خرج منها فى طريقه إلى الخليل وفى الطريق مر ببلدة بيت لحم وقرى: حلحول، وراقا الخليل، وكفر بريك، وقدم وصفاً مختصراً لما تحويه من بقاع مقدسة ومعالم تخص المسلمين، ومن ثم اكتسبت رحلة الهروى أهمية خاصة إذ تناولت ما لم تعهد قراءته فى كتب الرحالة الصليبيين.

أما فيما يختص بمدينة الخليل فقد أخبرنا الهروى بأن الزيارة إلى الحرم الإبراهيمى لم تنقطع فى ظل الوجود الصليبي، كما أورد بعض الروايات السالفة عن محاولات قام بها مسلمون للدخول إلى مغارة الأنبياء (عليهم السلام). وأبدى الرحالة اهتماماً كبيراً بتتبع دقائق حادثة اكتشاف الصليبيين لرفات الأنبياء (عليهم السلام)، رغم مرور مليزيد عن نصف قرن على هذا الحدث، حيث حرص على مقابلة شهود العيان من كبار السن من الفرنج المعاصرين، وفسر الهروى الحادثة بأنها جاءت نتيجة لوقوع انخساف فى موضع المغارة، وكان دقيقاً فى تحديد تاريخ ذلك حيث حدد بعام (٥١٣ هـ / ١١١٩م) ووفق الهروى فى نقل معلومات انفرد بها عما ورد بسائر المصادر العربية والأجنبية حيث أشار إلى اهتمام الملك بلدوين الثانى بالاكتشاف وإقدامه على اتخاذ إجراءات لحماية المغارة ومابها من رفات. ثم اختتم الرحالة الهروى زيارته لبلاد الخليل بالتوجه إلى بيت جبرين. وعلى الرغم من المادة الرائعة التى قدمها الهروى إلا أنها كانت مقتضبة فيما يخص قرى الخليل، أما المدينة فقد حظى الحرم الإبراهيمى بها باهتمامه، وماعدا ذلك فقد أغفل من قبل الرحالة، وهو ما كنا فى حاجة إليه لمعرفة أحوال بلاد الخليل تحت الحكم الصليبي من وجهة نظر إسلامية.

ومن المعاجم الجغرافية التى اعتمد عليها البحث فى كل فصوله كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموى^(٢)، وهو بمثابة موسوعة جغرافية قائمة بذاتها، والذى أكسبه أهمية خاصة أنه دون بعد فترة وجيزة من انتهاء الوجود الصليبي فى بلاد الخليل، وفى

(١) هو على بن أبى بكر بن على الهروى، ولد بالموصل وأصل أسرته من هراة، بإقليم خراسان. راجع: الصفدى: المصدر السابق، ج ١، ص ٨١.

(٢) ولد ياقوت بن عبد الله الحموى الملقب شهاب الدين فى الفترة الواقعة بين سنتى (١١٧٨ - ١١٧٩م / ٥٧٤ - ٥٧٥ هـ) فى بلاد الروم. وكان قد أسر وهو صغير ثم اشتراه أحد تجار بغداد وعلمه لكى يعتمد عليه فى تجارته. وتنقل ياقوت بين العديد من الأمصار المختلفة. واعتمد فى كتابه على الكثير من الكتب الجغرافية والتاريخية، وكان أميناً فى نقله عن الجغرافيين والمؤرخين، وتوفى فى سنة (١٢٢٨م / ٦٢٦ هـ) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦، ص ١٢٧ - ١٢٩.

وقت كان ما يزال وجودهم قائماً في بلاد الشام. إذ توفي صاحبه في عام (١٢٢٨م/ ٦٢٦ هـ). وفيه تحدث عن البلدان والأقاليم والمدن والجبال والأنهار إلخ. وكتاب «معجم البلدان» مرتب على حسب الحروف الأبجدية ولا غنى عنه للباحث في تاريخ منطقة الشرق الأدنى الإسلامي. ومن الجوانب الهامة في هذا المؤلف تحقيقه لبعض أسماء بلاد الخليل والأماكن الأخرى التي وردت في البحث، كما انفرد بذكر العديد منها. وعلى سبيل المثال حدثنا ياقوت عن أحواض العروب الواقعة في شمال الخليل وكانت تتحكم فيما يصل بيت المقدس من مياه. وإلى جانب الأهمية الجغرافية لكتاب «معجم البلدان» فقد تضمن شذرات على جانب كبير من الأهمية أفادت البحث في حصر الأماكن المقدسة والتعرف على بعض الجوانب الاقتصادية والعمرانية في بلاد الخليل، وفيما يتعلق بالأماكن المقدسة فقد تجلت الثقافة الدينية الإسلامية الواسعة وكذلك المسيحية التي شكلت خلفية الحديث عن بعض البقاع، ومنها ما يتعلق بتاريخ الخليل قديماً. أما من الناحية الاقتصادية فقد أكد الرحالة على أهمية إنتاج بلاد الخليل للكروم وخاصة في بلدة بيت عينون وإنتاج عسل النحل في تقوع. ومن الناحية العمرانية فضرِب مثلاً بإشارة ياقوت إلى وجود سوق وحصن في الخليل وإلى شكل مبنى الحرم الإبراهيمي في عهده. ومع المادة الوفيرة التي قدمها ياقوت فيبدو أن المنهج الذي اتبعه في كتابه المعجم قد أدى إلى تناوله بعض الأفكار باختصار واضح، كما أغفل الكثير منها، ومن ذلك إغفاله لموقف الفرنج من زيارة المسلمين للأماكن المقدسة في الخليل وكذلك إغفاله لموقف المسلمين من الزوار الفرنج.

وإضافة إلى مصادر الرحالة المعاصرين للحركة الصليبية في بلاد الشام هناك مجموعة من المصادر التي لا غنى عن الرجوع إليها لرحالة مسلمين سبقوا الغزو الصليبي أو جاءوا من بعده، ولعل أهم كتب الرحالة السابقين كتاب «سفر نامه» لصاحبه الرحالة الفارسي ناصر خسرو علوي^(١) الذي قام بزيارة فلسطين في عام (١٠٤٧م/ ٤٣٩ هـ) وخلف لنا وصفاً لرحلته يدل على أنه كان يدون مشاهداته أولاً بأول. وعلى الرغم من أن الرحلة تمت قبيل الغزو الصليبي لمنطقة الشرق الأدنى إلا أنها غنية بالمعلومات التي تلقى ضوءاً على الكثير من الأحوال الاقتصادية والاجتماعية، فمست بذلك نواحي هامة شكلت جذوراً للعديد من الظواهر الاقتصادية والاجتماعية في مرحلة الدراسة، فحينما قام الصليبيون بنهب الحرم الإبراهيمي، كانت لدينا المعلومات التي قدمها لنا ناصر خسرو التي ألقت الضوء على ما كان بالحرم من أثاث وتجهيزات، فعدت مادة لتفهم هذا

(١) ولد في بلدة من أعمال بلخ بإقليم خراسان في عام (١٠٠٣م/ ٣٩٤ هـ)، سافر إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج وقام برحلات طويلة في الشرق الأدنى، وكان يعني بالاتصالات بالشعوب التي يمر بها ويستفهم مظاهر الحضارة التي يشاهدها، وتوفي عام (١٠٦١م/ ٤٥٣ هـ). أنظر ما ورد بمقدمة: ناصر خسرو: سفر نامه، ترجمة يحيى الخشاب، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ١٥ - ٣٩.

الحدث. كذلك أفاض الرحالة فى وصف دقائق مبنى الحرم الإبراهيمى من الداخل وعرض جانباً للإضافات التى تمت خلال العصر الإسلامى مما ساعد على توضيح وتمييز مقام به الصليبيون من نشاط معمارى فى المبنى. كذلك أشار الرحالة إلى النظم التى اتبعها المسلمون للاحتفاظ بمياه الأمطار^(١)، فكانت دعامة لفهم الأساليب التى اقتبسها الصليبيون عنهم. وحينما كشف لنا الرحالة عن أوجه الأنشطة الاقتصادية المختلفة بالقرب من البحر الميت وعند شواطئه أكد الرحالة الأوربيون أن الصليبيين اعتمدوا على خبرة سكان الخليل من العرب فى الاستمرار والنهوض بهذه الأنشطة. ثم أسهب الرحالة فى عرض المحاصيل الزراعية والأشجار التى اشتهرت بلاد الخليل بإنتاجها، وما ترتب على بعضها من صناعات، وقد ظل السكان يحافظون على هذه المنتجات حتى بعد الغزو الصليبي لبلادهم. ومن الملامح الاجتماعية والدينية التى تطرق إليها ناصر خسرو وظلت ماثلة إبان العصر الصليبي ظاهرة الضيافة بالحرم الإبراهيمى وما كان يقدم فيها من أطعمة لزوار الخليل^(٢)، وما صاحب هذه الظاهرة من احتفالات دينية شارك فيها المسلمون من البلاد المجاورة فغدت الخليل مركزاً مقدساً ثانياً بعد بيت المقدس.

أما عن فترة ما بعد الحروب الصليبية فى الشام فىأتى فى الصادرة كتاب «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» وهو أشهر ما كتبه الرحالة شهاب الدين بن فضل الله العمرى الذى قام بزيارة الخليل فى عام (١٣٤٥ م / ٧٤٥ هـ). ويعرض الباحث فى هذا الموضوع إلى جزءين منشورين له، الأول تحت اسم «دولة المماليك الأولى» والآخر باسم «قبائل العرب فى القرنين السابع والثامن الهجريين»^(٣) وقد أمدت كتابات العمرى البحث بمعلومات هامة خدمت شتى فصوله نظراً لتنوعها بين سياسية وحضارية، كما أنها أحياناً ما ترجع إلى فترة الوجود الفرنجى فى بلاد الشام. ولعل أهم ماتعرض إليه الجزء الأول، إصرار الأهمية الدينية لبلاد الخليل ومدى فضلها فى الإسلام، ووضع حدودا واضحة للأراضى المقدسة فى فلسطين بحيث ضمت بلاد الخليل، كما تطرق الرحالة منفرداً إلى تطور الوضع فى ضيافة الخليل قبل وأثناء السيادة الصليبية على المدينة بل وبعدها، وأكد على أن الفرنج لم يقطعوا العمل بهذه العادة، وتتمثل أهم نقاط هذا الجزء أيضاً فى التفاصيل التى سردها الرحالة عن جوانب زيارته للخليل وحرمها، حيث

(١) ناصر خسرو : سفر نامه ، ترجمة د. يحيى الخشاب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٤٣ م ، ص ١٦ - ١٨ ، ٣٣ - ٣٦ .

(٢) راجع ما ورد بالفصل الرابع من الدراسة ، ص ٢٨٦ .

(٣) تحقيق : دورويتا كرافلوسكى ، بيروت (١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م) ولد الرحالة العمرى فى عام (١٣٠١ م / ٧٠١ هـ)، وغطى برحلاته العديد من البلاد الإسلامية فترة دولة المماليك البحرية، ونهج فى كتاباته الأساليب القديمة بل إنه جدد وأضاف إليها . ونقل عنه مشاهير المؤرخين التالين مثل القلقشنندى والمقرئى . ولذا يعد كتابه من أهم مصادر العصر، حيث مس كثيراً من النواحي الجغرافية والسياسية والاجتماعية، وتوفى فى عام (١٣٤٩ م / ٧٤٩ هـ) . راجع : مقدمة كتاب العمرى : «مسالك الأبصار»، ج ١ ، ص ٩ - ٦١ .

أسهب في وصف قنوات وأحواض المياه التي عمل كل من الفرنج والمسلمين على تطويرها ، كما أفاض في وصف زيارته للحرم وأجزائه ودخوله إلى المغارة أسفل كما وصف تجهيزاته. وهذا مكن الباحث من تتبع بعض الأمور داخل المبنى من قبل، أي أثناء الوجود الصليبي بالخليل.

أما الجزء التالي من كتاب العمرى فقد روّد البحث بمادة كان في أمس الحاجة إليها وذلك فيما يختص بالتعرف على القبائل العربية التي سكنت الخليل. وما أضاف على هذه المعلومات مزيداً من الأهمية أن الرحالة وضع يده على الدور الذي قامت به بعض هذه القبائل خلال الصراع الإسلامي الصليبي، وهذا الأمر دفع الباحث إلى التنقيب عن هذا الدور وتتبعه. ولكن رغم مايزخر به كتاب العمرى بجزءه من مادة علمية وما يشكله من أهمية قصوى إلا أنه يعيبه عدم تحرى الوحدة الموضوعية في كثير من الأحيان، كما أنه لم يهتم دائماً بتحديد تاريخ الأحداث.

وفي أعقاب ما تم عرضه من دراسة نقدية لأهم المصادر الأجنبية والعربية المستخدمة في البحث تجدر الإشارة إلى أن الهدف منها هو إلقاء الضوء على أهمية بعض مصادر الحركة الصليبية من وجهة النظر الأجنبية والعربية، وتقييم المعلومات التي أوردها المؤرخون عن موضوع الدراسة إيجاباً وسلباً، والإشارة إلى من انفرد منهم بذكر بعض الأحداث المتعلقة بالبحث، دون أن ترد عند غيره من المؤرخين المعاصرين للحركة الصليبية والمتأخرين عنها زمنياً. وكذلك استهدفت الدراسة تقديم نماذج لأهم النقاط التي تناولتها المصادر بإسهاب أو باختصار، وأهم ما أغفلته من أحداثٍ وما قد يشوبها من سليات.

وفضلاً عما تقدم من نقد للمصادر فهناك بعض الدراسات الحديثة تخص الخليل، وأهم مايلفت النظر فيها أنها تدور حول محورين أساسيين: أولهما تطور الحكم الصليبي في الخليل، وثانيهما حول الحرم الإبراهيمي ومغارة دفن الأنبياء (عليهم السلام) الواقعة أسفل. وفيما يختص بالدراسات حول المحور الأول فقد ظهرت دراستان جديرتان بالذكر وظهرت الدراسة الأولى في عام ١٩٤٢م لمؤلفها جوستاف باير^(١)، والثانية بقلم هانز إبراهيم ماير، وصدرت في عام ١٩٨٥م^(٢)، وكلتاهما تتبعان المدرسة التاريخية الألمانية القائمة على النقد والتحليل الدقيقين للحدث، ورغم أن الدراسة الأولى قد وقعت فيما يزيد عن الأربعين صفحة تحت مسمى «مناطق الحكم الصليبي في القدس والخليل» إلا أن ما يخص الخليل منها لا يتعدى بضعة صفحات، فبالإضافة إلى تناولها

(1) Beyer G., Die Krwuzfahrergebiete von Jerusalem und St. Abraham (Hebron), in : Z.d.P.V. LXV 1942, pp. 165 - 211.

(2) Mayer, H. E., Die Herr Schatsbildung in Hebron, z. d. P. V. , Ci., 1985, pp. 64 - 81.

الحدود الإقطاعية الصليبية فى بيت المقدس تناولت أيضاً إقطاعيات صليبية عديدة أخرى فى جنوب فلسطين. وتكمن أهمية هذه الدراسة فى أنها أول دراسة تخصصت بعض الشئ، فى التاريخ الصليبي للخليل، كذلك يسرت السبيل أمام الباحث للتعرف على بعض الوثائق الهامة فسعت جاهدًا للوصول إلى مواطنها والرجوع إليها ، وبصفة عامة جاءت هذه الدراسة غير مستوفاة حتى أنها لم تخدم المسمى الذى وضعت تحته إلا بنسبة غير كبيرة. وعلى كل تناولت الدراسة قرى وتوابع إقطاعية الخليل الصليبية، وكذلك الإقطاعات التى حصلت عليها معظم القوى الدينية والدنيوية فيها ووضعت حدودًا لها.

أما عن الدراسة التى قدمها هانز إبراهيم ماير والتى وقعت فى حوالى ست عشرة صفحة فقد انصبت بالفعل على دراسة تاريخ الحكم الصليبي فى الخليل دون غيرها. وما من شك فى أنها دراسة جادة قوية فى بعض جوانبها. وللهولة الأولى يلاحظ أن هذه المقالة جاءت لترد على ما ورد فى مقالة الباحث ماير السابقة حيث تضمنت بعض الآراء والمناقشات التفصيلية الجدلية على مدى معظم صفحاتها فى محاولة لإظهار أخطاء وقع فيها الباحث باير. ومع ذلك فقد أفدت من هذه الدراسة التى كُتبت كما هو واضح على عجل ، ولعل أهم ما أفادنى به ماير هو طرف الخيط الذى يسر لى تتبع تسلسل حكام الخليل، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ساهم ماير فى إلقاء الأضواء على شبكة العلاقات بين حكام كل من شرقى الأردن والخليل، غير أن هذا الباحث لم يهتم بإبراز أركان الحكم الصليبي مكتملة واكتفى بالإشارة إلى جانب منها فى عهد رينو دى شاتيو، فى حين أن أسس هذه الإقطاعية قد وضعت منذ العام الأول للغزو الصليبي للبلاد، وهذا من الجوانب التى سوف توضحها الدراسة.

أما فيما يتعلق بالدراسات الحديثة حول المحور الثانى المتعلق بالحرم الإبراهيمي فهى متعددة تنطرق فى هذا الموضع إلى أهمها ألا وهو كتاب «حبرون: الحرم الخليلي، أضرحه الآباء» تأليف: ل. هـ. فنسانت وآخرين⁽¹⁾. ويتألف الكتاب من جزئين متوسطي الحجم، يضم الأول مادة تاريخية عن الحرم الإبراهيمي منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين، أما الآخر فيتضمن اليومًا كاملاً من الأشكال والرسوم التفصيلية الدقيقة لأجزاء المغارة والحرم، وقد خصص واضعو الكتاب حوالى ست عشرة صفحة لدراسة تاريخ الحرم الإبراهيمي خلال فترة الحروب الصليبية⁽²⁾. انصبت على تحليل بعض ما جاء فى تقرير اكتشاف رفات الأنبياء لراهب الخليل. وقد أفاد البحث من قيام المؤلفين بمضاهاة ما جاء به التقرير بما هو فى الواقع. ومن التعليقات الخاصة بالجانب المعمارى

(1) Vincent, L. H., and Mackay, E. J. H. with Abel F. M., Hebron : Le Haran El - Khalil, Sepulture des Patriarches, 2 vols. , Text and Albom of Plates, Paris, 1923.

(2) Ibid, vol . I , pp. 168 - 184 .

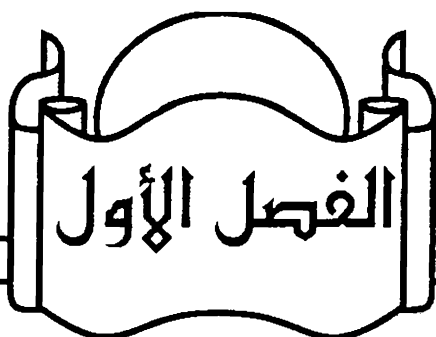
عن مبنى الحرم . وعلى الرغم من الدراسة التاريخية المتقنة التى اتصف بها الكتاب فى كثير من أجزائه إلا أنه يؤخذ عليه ارتكازه على تقرير راهب الخليل دون باقى المصادر الأخرى فى معالجته لفترة الحروب الصليبية . كما أنه اهتم بشكل أساسى بشئون المغارة دون باقى أجزاء مبنى الحرم الأخرى .

وفى إطار الدراسات الحديثة حول الحرم الإبراهيمى ، فبصفة عامة هناك للأسف قصور لدى الباحثين العرب فى هذا الصدد اللهم ذلك البحث لمؤلفه د. أحمد رمضان أحمد^(١) الذى وضعه فى حوالى ثلاث عشرة صفحة انصبت على تعريف موجز لمدينة الخليل والنصوص التاريخية التى تؤكد على إقطاع بعض قرى الإقليم للصحابى تميم الدارى (رضى الله عنه) . وكذلك التطور التاريخى لمبنى الحرم الإبراهيمى فى العصر الإسلامى وبعض الأوقاف عليه . وقد استندت هذه الدراسة على بعض المراجع غير المتخصصة ، وكذلك بعض المصادر العربية المتأخرة ، كما أنها لم تتعرض ألبتة للجوانب السياسية والحضارية فى الخليل وتوابعها عصر الحروب الصليبية .

وإلى جانب هذه الأبحاث السابقة استفاد الباحث من العديد من المراجع الأجنبية والعربية التى تناولت مادة أثرية والحروب الصليبية بصفة عامة أمثال مؤلفات: إنلارت شارلز ورينيه جروسيه وستيفن رانسيمان ويوشع براور وهانز إبرهارد ماير وجونثان رايلى سمث وعمنويل راى ، وكذلك د. سعيد عاشور و د. محمود سعيد عمران والأستاذ مصطفى الدباغ .

(١) أحمد رمضان أحمد : الخليل ، بحث مستخرج من أعمال ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد الأول ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٨٢م ، ص ٦١ - ٧٤ .

بلاد الخليل حتى غزو الصليبيين
لببلاد الشام



- مسمى الخليل وحدود الإقليم الطبيعية .
- جغرافية الخليل :
- الموقع - طبوغرافية المنطقة ودلائلها - المناخ .
- موارد المياه .
- التعرف على المدن والقرى في منطقة الخليل .
- التركيب السكاني في بلاد الخليل وأهميته .
- ارتباط تاريخ الخليل بشخص النبيين إبراهيم ومحمد (صلى الله عليهما وسلم) .
- الأوضاع السياسية في بلاد الشام حتى الغزو الصليبي .

الخليل مدينة عربية تعد من أقدم مدن العالم ، فالثابت تاريخياً أنها عربية كنعانية النشأة^(١)، وقد أشارت الأسفار الستة الأولى من العهد القديم إليها ، وأوضح هذه الإشارات تفيد بأنها قد أقيمت قبل تانيس (صوعن) المصرية التي تأسست عام ٢٥٠٠ ق م بسبع سنوات، وهذا يتفق تاريخياً مع وجود الكنعانيين فى فلسطين أى قبل انتقال العبرانيين إليها. وقد عرفت الخليل منذ القدم بأسماء مختلفة إذ دُعيت فى الأصل «قرية أربع»^(٢) أى (المدينة الرباعية). وكلمة أربع لها دلالتها، فقد تشير إلى عدد الأنبياء الذين دفنوا بها وهم : آدم، إبراهيم، إسحاق و يعقوب (عليهم السلام)^(٣) وربما يرتبط ذلك المسمى أيضاً بالقرى الأربع التى تألفت منها مدينة الخليل^(٤) وهى: حبرون - ماثروم - بيت عيون - وبيت إبراهيم^(٥). ومن المسميات القديمة لمدينة الخليل وادى

(١) الكنعانيون والعمالة شعب واحد وهم يتمون إلى جدهم عمليق الذى نزل بالقرب من مكة ونزع بعض نسله إلى جنوب فلسطين حيث بلاد الخليل ، وعرف العمالة بقوة وضخامة أبدانهم . راجع : الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ج ١ ، ص ٢٠٦ ؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر القاهرة، ١٢٩١ هـ / ١٨٦٧ م ، ج ٢ ، ١٨ ، ٤٨ . ونزل هؤلاء العرب ديار الخليل عام ٣٠٠٠ ق م تقريباً، ولهم تسب معظم مدن وقرى المنطقة، لمعرفة المزيد، راجع: مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين (فى ديار الخليل)، بيروت ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ٣٩ - ٤٠ ، ٢٩٨ .

(٢) العهد القديم: سفر التكوين: ٢٣ ، ٢٢ ، يشوع : ٢٠ : ٣ ، ٢٢ : الأعداد: ١٣ : ٢٣ .

(٣) بطرس عبد الملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس : (ب . ت) مادة حبرون . ومن الرحالة الأوربيين الذين حققوا مسمى أربع وقرنوه بالأنبياء الأربعة فى تحقيقهم للأسماء . راجع:

Philip de Poseres, in Itinera hierosolimitana Crucesignatorum, 1085 - 1291 A. D., Jerusalem 1978, vol. II, p. 240; John of Warzburg, Description of the Holy land by John of Wurzburg, 1160 - 1170 A. D., trans. by C. W. Wilson, in : P.P.T.S., vol. V, London 1890. P. 58; Felix Fabri, The Book of Wandrings, in P.P.T.S., vol. X, Trans. by Aubrey Stewart, London 1897, pp. 105, 107, 110.

(4) Guerin Victor, Description Geographique, Historique et archeologique de la Palastine, Juclee, Amesterdam 1969, Tome 1, Part 2, p. 214; Smith, G. A., The Historical Geography of The Holy land, 20th ed., London, p. 21.

(٥) الجدير بالذكر أن المصادر العربية لم تذكر المسميات الأربعة مجتمعة منذ البداية، إذ اكتفى ابن سعد بالإشارة إلى حبرى وبيت عيون، راجع: ابن سعد: الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ، (ب - ت) ، ج ٢ ، ص ٧٥ ، ج ٧ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ ؛ البكرى الأندلسى: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع ، القاهرة ١٩٤٥ م ، ج ٢ ، ص ٤٢١ . ثم أضاف البلاذرى إليهما: بلدة مسجد إبراهيم، راجع: فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٥٦ م، ص ١٢٩ ، راجع أيضاً: القلقشندى فى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، القاهرة ، ١٩١٣ م ، ج ١ ، ص ٣٣٥ . أما قرية مرطوم فقد أضيفت إلى القرى الثلاث الأخرى متأخراً. انظر: ناصر خسرو: سفر نامه، القاهرة، ١٩٤٣ م ، ص ٥٣ . القلقشندى : صبح الأعشى، ج ١٣ ، ص ١٢٠ .

البركة ووادي البكاء حيث يزعم أن آدم (عليه السلام) وحواء كانا يبكيان قتل قابيل هابيل في الوادي^(١).

أما أكثر المسميات شيوعاً على مر العصور فهو حبرون^(٢)، والواضح أن هذا المسمى قد أخذ عن لفظة حبير Habeer عند العبرانيين التي تعنى الصديق الحميم أو الخليل نعتاً منهم للنبي إبراهيم (عليه السلام)^(٣)، ومشتقاتها هي: Hebron - Cebbron - Cefbron - Cebrun - وقد استخدم هذا الاسم المؤرخون القدماء ومؤرخو العصور الوسطى، وبشكل أوضح الأوروبيون منهم^(٤)، فقد أشاروا أحياناً إلى هذا المسمى حين التعرض للأحداث الخاصة بالمدينة في العصور القديمة بالتحديد وذلك برسوم متعددة منها: بيت حبرون، حبرى، بيت حبرى، حفرون وعفرون^(٥)، غير أن المسمى الأكثر شيوعاً بين معظم المؤرخين والرحالة العرب والمسلمين هو بلد سيدنا الخليل أو بلاد الخليل عليه السلام^(٦). والملاحظ أن المسمى قد طرأ عليه تغيير طفيف، إذ تجرد من لفظة التكريم (عليه السلام) حيث أصبح يرمز إلى اسم المكان لا أكثر، فاستقر المسمى أخيراً

(١) ورد هذان السميان في عديد من المصادر الأجنبية على سبيل المثال راجع :

Anonymus, Itinera Hierosolimitana Crucesignatorum, Jerusalem 1978, vol. I, p. 333 ; John of Wurzburg, Description of the Holy land, p. 58.

(٢) حبرون: اسم رجل ذكر في جداول الأنساب لسبط يهوذا، وهو أيضاً اسم عبري معناه عصبة، صبة، رباط، اتحاد، راجع: بطرس عبد الملك، قاموس الكتاب المقدس، مادة حبرون.

(3) Vigourox, F., Hebron, en : Dictionnaire de la Bible, Tome III, Paris 1903, Col. 535, Encyclopede d'Islande, Paris, 1990, vol. IV, Art. Al - Khalil.

(4) Josephus, Jewish Antiquities, ed. by H. St. J. the Ceray, Harvard University 1967, vol. IV, p. 142, Monument Germania Historica, Hannover, Germany, 1988, pp. PASEM.

(٥) المقدسى : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٩م ، ص ١٧٢ ؛ البكري الأندلسي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٤١٩ ، ٣٨٧ ؛ الحريري : الأعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاحين على بلاد المسلمين، القاهرة ١٩٨٥م ، ص ٤٢ ؛ أبو الفدا : تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠م ، ص ٢٤١ ؛ الأنصاري الدمشقي : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، بطرس بروج ١٨٦٥م ، ص ٢٠١ .

(٦) ابن الفقيه : كتاب البلدان ، ليدن ١٣٠٢ هـ ، ص ١٠١ ؛ ناصر خسرو : المصدر السابق، ص ٣٢ - ٣٦ ؛ العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، (دولة الممالك الأولى)، ص ٢١١ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج ١، ص ٣٠٥، ج ٤، ص ٨١، ١٠٢ ؛ المقرئ : ضوء الساري في معرفة خبر تيم الدار ، تحقيق سيد عاشور، القاهرة، ١٩٧٦م. صفحات مشفرة؛ العلمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢ ج في مجلد ، بيروت ١٩٧٣م، صفحات متفرقة؛ عبد الغنى النابلسي: الحضرة الانيسية في الرحلة القدسية ، القاهرة ١٩٠٢م، ص ٥٤ - ٥٦ .

على اسم مدينة الخليل . وتفسير ذلك أن المسلمين أطلقوا على المدينة كلها نفس مسمى الحرم الكائن بها (مسجد إبراهيم الخليل) مثلما أطلقوا اسم بيت المقدس على مجمل المدينة ، فطفئ اسم المسجد على البلد ، وقد عرف المسجد بمسميات عدة: مشهد الخليل^(١) ، تربة الخليل^(٢) ، أو الخليل مجردة . وهكذا ارتبط المسمى العربى الخليل بالمسمى العبرانى «حبرون» حيث إنهما يتفقان فى المعنى اللغوى فكلاهما يشير إلى خليل الله إبراهيم (عليه السلام) .

وفى عصر الحروب الصليبية استخدم المعاصرون من الأوربيين مسمى القديس إبراهيم Saint Abraham مع الاحتفاظ باستخدام مسمى حبرون^(٣) ويسجل أحد الرحالة اليهود المعاصرين للوجود الصليبي فى الخليل أنه سمع الفرنج يطلقون على المدينة مسمى حبرون Debron^(٤) ، والملاحظ بصفة عامة أن الرحالة اليهود أثروا استخدام اللفظة العبرانية الأصل حبرون فى إشارتهم إلى المدينة . كما ذكرها كل من راهب الخليل ووليم الصورى باسم أرض الأنبياء Terra patriarcharum^(٥) . وينظرة شاملة إلى ما ورد فى المصادر يتبين أن مسمى سانت أبراهام هو المسمى اللاتينى الغالب خلال فترة الحروب الصليبية وهذا ما تثبته الوثائق الرسمية طيلة هذه الفترة^(٦) ، ومع ذلك فالباحث يفضل استخدام المسمى العربى الإسلامى الذى أطلق على المدينة وهو الخليل ، وكان المؤرخون المسلمون المعاصرون قد ألفوه .

(١) الإصطخرى : المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسينى ، ليدن ، ١٩٣٧م ، ص ٥٧ ؛ ابن حوقل : صورة الأرض ، بيروت ، (ب . ت) ص ١١٧ ؛ ناصر خسرو : المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(٢) البلوى : تاج الفرق فى تحلية علماء أهل المشرق ، المخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٢٦٤ ج ، ورقة ١٦٢ التدمرى : مثير الغرام ، ص ١٩٢ .

in : J. P. G. S. vol. XVIII, Paris, 1937.

(٣) عادة ما استخدم المؤرخون الرحالة الصليبيون مسمى سانت أبراهام وحبرون معاً للإشارة إلى مدينة الخليل ومن أوائل الذين استخدموا هذين المسمين معاً :

Baudre de Doll, Historia de Perginatione Hierosolomitana in : R. H. C. H. OCC, Tome IV, Paris 1879, pp. 65 , 111. ; Daniel The Russian , The Pilgrimage of Daniel The Russian, in : The Holy land, Trans. by C.W. Wilson, in : P.P.T.S., vol. IV, London, 1888, pp. 46 - 49.

(٤) بنيامين النطلى : رحلة بنيامين ، ترجمة عزرا حداد ، الطبعة الاولى ، بغداد ١٩٤٥م ، ص ١٠٥ .

(5) Canonici Hebronensis, Op. Cit., pp. 304 , 307, 309; William of Tyre, Op. Cit., vol. I, p. 340, vol II, p. 364.

(٦) استعانت الدراسة وخاصة الفصل الثانى منها بالعديد من تلك الوثائق ، راجع على سبيل المثال صفحات : ١٠٥ - ١٠٦ ، ١١٠ - ١١١ ، ١٢٠ .

أما عن حدود إقليم الخليل قبيل الحروب الصليبية فقد كانت غير واضحة، ولم نجد إلا تلك الحدود التقديرية التي ترجع إلى قرون خلت حيث مملكة يهوذا^(١)، ولذا لا يمكن الاعتماد عليها تمهيداً لدراسة موضوع الخليل في العصر الصليبي نظراً للفارق الزمني الكبير. ومع ذلك يمكن تمييز ملامح الخليل الإدارية قبيل فترة الدراسة في أنه حينما أقدم المسلمون على تقسيم بلاد الشام إلى تقسيمات إدارية وظهر جند فلسطين، خضعت الأراضي الممتدة من جنوبي القدس شمالاً إلى بيت جبرين جنوباً حتى البحر الميت شرقاً تارة إلى كورة بيت جبرين وأخرى إلى القدس^(٢)، والملاحظ أن هذه المساحة من الأرض تشكل غالبية إقليم الخليل كتقسيم جغرافي، ومن ثم لا يمكن تخيل حدوده الإدارية إلا في ضوء التبعية لكل من بيت جبرين وبيت المقدس، وعليه فمن الواضح أن الإقليم ظل على هذا الوضع حتى جاء الصليبيون فحددوا ملامحه الإدارية في ضوء الظواهر الجغرافية.

وقبل أن نتقل إلى التعرف على أهم الظواهر الجغرافية في إقليم الخليل فبداية ينبغي الإشارة إلى أنه على الرغم من قلة المعلومات الدقيقة حول مساحة إقليم الخليل وحدوده إلا أنه يمكن القول بأن هذه الأمور لم تكن ثابتة على مر العصور، ومع ذلك فمساحة الإقليم تعد كبيرة قياساً بمساحة أرض فلسطين المحدودة أصلاً. كما يتضح أيضاً أن الجزء الجنوبي من هضبة جنوبي فلسطين يعد العمود الفقري للإقليم. والجدير بالذكر أن الهضبة قد أطلق عليها شيوخاً أرض يهوذا الجبلية إلا أن الإقليم قد عمره العرب القيسيون^(٣)، وما يزال البدو في جنوب فلسطين في وقتنا الحالي يطلقون على الفلاحين

(١) أشارت المصادر التي تعرضت لحدود منطقة الخليل القديمة إلى أنها امتدت من رامة الخليل Erbentis الواقعة بين القدس والخليل، حتى رأس خليج العقبة جنوباً، راجع:

Jesephus, Jewish war Tr. by H. St., J. Thaceray, London, 1928, Vol. III, 29, 7.

راجع أيضاً: العليمي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٢٤.

(٢) ابن الفقيه: المصدر السابق، ص ١٠٣؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٧٤.

(٣) القيسيون ينتمون إلى قبيلة بني قيس العربية، وقد اشتهروا في تاريخ العرب بخصومتهم للعرب اليمانيين. وسكن القيسيون بلاد الخليل منذ أقدم العصور حتى عصر الحروب الصليبية وما بعدها راجع: عبد الغنى النابلسي: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، إعداد أحمد عبد المجيد هريدي، القاهرة، ١٩٨٦م. ص ١٧٦ - ١٧٧. ولذا توارى اسم هضبة يهوذا وعرفت بين الأهالي وبعض المؤرخين بجبل القيسين. راجع:

Volney, M., Volney's Travel, London, 1787, Vol II, pp. 324 - 325. Karmon Yahuda, changes in the Urban Geography of Hebron During The 19th Century, ed. in: Studies on Palestine during The Ottoman Period. ed. by Moshe Maoz, Jerusalem, 1975, pp. 79,82.

العرب فى الخليل وما جاورها من قرى اسم (قيسون) ويقصدون بذلك الإشارة إليهم على أنهم من أهل الخليل^(١)، ولذا يمكن تعريف هذه المنطقة الجبلية بجبل قيس أو هضبة القيسيين أو هضبة جنوبي فلسطين ، وسوف يستخدم الباحث هذه المسميات للإشارة لتلك الرقعة من الأرض العربية .

وإذا حاولنا التعرف على الحدود الطبيعية لبلاد الخليل فإن الحدود الشرقية تتمثل فى ساحل البحر الميت الغربى حيث برية الخليل بامتداد تسعة وعشرين كيلو مترا^(٢) . أما الحدود الطبيعية الجنوبية الشرقية فيأتى سهل صفر أو زغر كامتداد لمنخفض البحر الميت، وهو سهل فسيح خصيب وافر كثير القرى . والسهل يمتد حتى يقترب من رأس خليج العقبة فيما يعرف بوادى عربة^(٣)، وقد أطلق المسلمون عليه أحيانا مسمى غور الصافي^(٤)، بينما عرف الصليبيون المنطقة بواحة سيجور Sigor أو بالميرا Palmira ووصفها دانيال الروسى بشدة الحر، وأعرب عن تخوفه من الاستمرار فى زيارتها خشية الأوبئة والأمراض^(٥) . أما السريان وهم أهالى المنطقة فذكروها باسم زوارا Zoara أو بالا Bala، ثم اختلطت المسميات لدى البعض فأطلقوا عليها باليزورا Balisora^(٦) .

(1) Volney M., Op. Cit., vol. II, pp. 324 - 326 , Cf. als., Encyclopedie d'Islam, vol. II, art Al-Khalil.

(2) karmon, Y., Changes in the Urban Geography of Hebron during the 19th Century, in : Studies on Palestine during the Ottoman Period, ed. Maoz Moshe, Jerusalem, 1975, p. 70.

(٣) ياقوت الحموى : المشترك صقعا والمفترق وضعا ، القاهرة ، (ب - ت .) ، ص ٣٢٦ ؛ يوسف درويش غوانمة : التاريخ السياسى لشرقى الأردن فى العصر المملوكى الأول ، الطبعة الثانية ، عمان ، ١٩٨٢م . ص ٣٤ - ٣٥ . وقد قسم بعض الجغرافيين العرب غور الأردن الممتد من شمال فلسطين حتى جنوبها إلى ثلاثة أقسام : أعلى ، أوسط ، أسفل ، والأخير عرف بنور صفر ؛ راجع : الأنصارى الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ٢٠١ ، يبلغ عرض وادى عربة ما بين عشرة وثلاثة عشر كيلومترا وطوله حوالى مائة وتسعين كيلومترا ، قسارى المناخ ، وكان الوادى يحصل على مائه اللازم للزراعة من وادى موسى والجداول المجاورة ، وفى العصور الوسطى كان الماء يأتى من الينابيع المجاورة . ولمعرفة المزيد عن خصائص وادى عربة الجغرافية ، راجع :

Raikes, T., The Character of The Wadi Arba, in : S. H. A. J. , Vol. II, Amman 1985, pp. 95 - 102.

(٤) المقدسى : المصدر السابق ، ص ٥٤ ، الأنصارى الدمشقى : المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(5) Daniel The Russian, Op. Cit., p. 47.

(6) Fetellus, Description of Jerusalem and the Holy land, in : P. P. T. S., Vol. I, p. 11 , London, 1895.

أما تخوم بلاد الخليل الجنوبية ، فهي عبارة عن برارى ، وهى الظاهرة الغالبة على سطح المنطقة ، إذ إنها تتخلل بلاد الخليل ذاتها وتكتنفها . و سطح تلك البرارى مرتفع وينحدر جهة الجنوب عند بئر سبع وعراض Arad حيث يصل الارتفاع ما بين خمسمائة وثلاثمائة متر^(١) . وقد أدرك الجغرافيون المسلمون حقيقة تغلب هذا النوع من السطح على بلاد الخليل الجنوبية حيث ذكر ياقوت الحموى «نقب عاذب موضع بينه وبين بيت المقدس مسيرة يوم للفارس من جهة البرية بينها وبين التيه» . كما ذكر الأنصارى الدمشقى أن: عرض [أو عراض] هى مدينة كبيرة على سيف البرية ، والمعروف أن التيه هو الاسم الذى أطلقه الجغرافيون المسلمون على شبه جزيرة سيناء^(٢) . وهكذا تعد البرارى الجنوبية فى إقليم الخليل امتداداً للصحراء الممتدة حتى مصر . وكان لذلك دون شك أثره فى توفير حماية طبيعية لبلاد الخليل من تلك الناحية ، إلا أن الغزو الصليبي لفلسطين أدى إلى تغيير واضح فى إستراتيجيات المنطقة فأضحت الصحراء غير كافية لتوفير الحماية الكاملة لبلاد الخليل ، وهذا ما سيتضح لنا خلال الدراسة .

وإذا ما اتجهنا إلى الحدود الغربية الطبيعية للتعرف عليها ، فنلاحظ أنها تتمثل فى تلال شيفيلا Chefela القليلة الارتفاع ، وهى تمثل حافة هضبة جنوب فلسطين فى انحدارها نحو الغرب حيث سهول البحر المتوسط التى تتفاوت اتساعاتها بين أربعة عشر كيلو متراً والخمسين كيلومتراً تقريباً^(٣) . وأخيراً تأتى الحدود الطبيعية الشمالية لإقليم الخليل ، فعلى الرغم من الامتداد الطبيعى لهضبة جنوب فلسطين نحو الشمال إلا أنها تنحدر قليلاً فتصل إلى حوالى ثمانمائة متر عند تلال القدس وبيت لحم^(٤) ، وإلى الجنوب من بيت لحم يشق وادى أرتاس Urtas الذى عرفه الصليبيون باسم إيتام Itham طريقه نحو البحر الميت ماراً ببلدة سعير ليكون حدّاً فاصلاً مميزاً للحدود الطبيعية للمنطقة مع أراضى القدس^(٥) وبيت لحم .

وبعد التعرف على الحدود الطبيعية لإقليم الخليل ، نتعرض بشئ من التفصيل لمعالم السطح الرئيسية به ؛ فكما سيتضح فى دراستنا هذه تأتى ظاهرة السطح لتشكّل أهمية بارزة وتأثيراً واضحاً على الأحداث التاريخية فترة الحروب الصليبية ، وينقل لنا

(1) Karmon, Y., Op. Cit., p. 70.

(٢) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٩٨ ؛ الأنصارى الدمشقى : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ ، ٢١٣ ؛ راجع أيضاً : إبراهيم زكى خورشيد : دائرة المعارف الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٦ م . ج ١٠ ، مادة التيه .

(3) Smith, G. A., Op. Cit., p. 114.

(4) Karmon, Y., Op. Cit., p. 70.

(5) Daniel The Russian, Op. Cit., p. 48.

العليمى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٤ .

فضل الله العدري - أحد الرحالة الذين زاروا بلاد الخليل - تصوره للمنطقة ومدىتها فائلاً، وهي منطوية بين جبال لا هي في صحراء ولا هي في وادٍ^(١)، ويفهم من ذلك أن سطح المنطقة قد تميز بالتنوع بين صحارى وأودية، وبالفعل فهذا يطابق واقع السطح في المنطقة، فأول ما يلفت الانتباه أن هضبة القيسيين تمثل السمة الغالبة على السطح حيث كثرت بها الكهوف الطبيعية والصناعية ولا سيما جهة الجنوب الغربى حول بيت جبرين. ويبلغ ارتفاع الهضبة ما بين ثمانمائة وخمسين متراً وتسعمائة متر، وهي مستوية بشكل عام يتخللها بعض القمم الجبلية والأودية المتقاطعة. وتبلغ أطوال الهضبة حوالى اثني عشر كيلو متراً عرضاً وعشرين كيلومتراً طولاً، وتعرف هذه المنطقة جغرافياً باسم جبال الخليل، وهي تحتل حوالى نصف مساحة هضبة القيسيين، وتشكل جبال الخليل أعلى قمم فلسطين حيث تصل عند شمالها إلى ألف وعشرين متراً تقريباً، وبفعل عوامل التعرية نحتت الهضبة من كل اتجاه عدا جزءها الشمالى فقد كان أقل نحتاً^(٢)، وبذلك يمكن أن نتخيل جغرافية السطح لبلاد الخليل على النحو التالى: فهي هضبة معقدة السطح، تلية وعرة تنحدر تدريجياً فى اتجاهات ثلاثة: الشرق والجنوب والغرب، فى حين احتفظت بارتفاعها النسبى جهة الشمال.

وتمثل بركة الخليل الظاهرة التضاريسية الرئيسية التالية فى المنطقة، فهي تمتد من المنحدرات الحادة لهضبة القيسيين غرباً إلى أن تنتهى شرقاً بسفوح شديدة الانحدار نحو البحر الميت^(٣) بمسافة خمسة وعشرين كيلو متراً فى المتوسط. ولشدة الانحدارات فالجداول التى تخترقها تحدث أعداد عديدة عملت على تعقيد السطح، ولذا فهي مقفرة بشكل عام، وتكاد القرى تنعدم فيها لقلة الأراضى الزراعية، بينما تصلح أرض البرية للرعى لانتشار الأعشاب فيها. ولكثرة الكهوف والمغارات داخلها وجد الرهبان فى العصر البيزنطى طريقهم إليها، فأنشأوا بها كثيراً من الملاجئ والأديرة. ويعد تل مسادة Massada أهم التلال بها، فهو يرتفع أربعمائة وأربعة وثلاثين متراً عن مستوى المنطقة المحيطة به، كما يواجهه شبه جزيرة اللسان على الساحل الشرقى للبحر الميت الذى يسمى أيضاً بعدة مسميات أكثره شيوعاً؛ بحيرة لوط^(٤). أو البحيرة المنتنة أو البحيرة المقلوبة أو بحيرة سدوم^(٥) ويبلغ طول البحر ستة وسبعين كيلو متراً ومتوسط

(١) العدري: مسالك الأبحار، ص ٢١١.

(2) Karmon, Y., Changes, p. 70, Israel, A Regional Geography, London, 1971, p. 329.

(3) يوسف الدبس: تاريخ سورية، بيسروت، ١٩٨٣م، ج ١، ص ١٠، ج ٢، ص ١٦، راجع أيضاً:

Karmon, Y., Changes, p. 70.

(4) Daniel The Russian, Op. Cit., p. 48. Cf. Also:

محمد كرد على: خطط الشام، دمشق، ١٩٢٥ - ١٩٢٨م، ج ٤، ص ١٨٤ - ١٨٦؛ مصطفى الدباغ: المرجع السابق، ج ٥، ص ٣١٨.

(5) المقدسى: المصدر السابق، ص ١٧٤؛ الإدريسي: نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجر والمداين والأقاليم، لندن ١٨٩١م، ص ١٢٤؛ الأنصارى: الدمشقى: المصادر السابق، ص ٢٢١؛ العدري: الدولة المملوكية الأولى، ص ١٧٤.

عرضه نحو اثني عشر كيلو متر، وهو ينخفض عن سطح البحر بنحو ثلاثمائة وأربعة وتسعين متراً ونسبة ملوحة مياهه الراكدة عالية غير مألوفة^(١).

وترتب على ذلك عدة حقائق هامة: أن تعقيد السطح أوجد نوعاً من الأهمية الحربية والقدرة على المناورة للجيش المحاربة فوقها، ومن ناحية أخرى بدت مدينة الخليل معزولة، بمعنى أن الأرض المحيطة بها كانت خالية من مظاهر المدنية بحيث أصبحت تمثل النقطة المشعة لمجمل المنطقة، وحقيقة ثالثة تتمثل في أن المدينة بدت وكأنها قلعة طبيعية تهيمن على المنطقة الواقعة من البحر شرقاً ومن الصحراء جنوباً إلى بيت لحم والقدس شمالاً.

أما عن ظاهرة المناخ، فيسود منطقة الخليل نفس مناخ المناطق الجبلية في الشرق الأدنى، فالمناخ شبه رطب، وفيه ترتفع الحرارة في الصيف نهراً تتعدى أحياناً الثلاثين درجة مئوية، أما درجة الحرارة في الشتاء فهي باردة بشكل عام مع حدوث الصقيع في بعض الأوقات، ويخف سقوط الأمطار من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق بشكل ملحوظ، فمعدل سقوط الأمطار سنوياً في الجزء الشمالي وجبال الخليل يتجاوز السبعمئة مم، ومع ذلك فلا يصل منها إلى الخليل إلا ما يقارب خمسمائة مم. ولمسافة تصل إلى خمسة كيلو مترات جنوب المدينة فكمية الأمطار تقل عن أربعمئة مم، وهذه المساحة معدة دائماً لزراعة الحبوب. أما المنحدرات الجنوبية فتحصل على ثلاثمائة مم فقط من مياه الأمطار، وذلك يجعل إنتاج الحبوب متذبذباً. وقد شكلت تلك المنحدرات منطقة انتقالية إلى الصحراء^(٢). وكذلك كان أمر الجهات الشرقية من الإقليم حيث تتدرج كمية الأمطار في الإنخفاض حتى تصل قرب البحر الميت إلى ما بين مائة مم، وخمسين مم سنوياً^(٣)، مما نتج عنه تكون براري الخليل الرعوية.

وإذا ما كنا بصدد التعرض للظواهر الجغرافية والمناخ فلا بد أن نشير إلى موارد المياه في منطقة الخليل، فهي بوجه عام قليلة نسبياً رغم تعدد مصادرها، فقد كان بالمنطقة ثلاثة مصادر للمياه لعل أهمها مياه الأمطار التي تعتبر المورد الأساسي الذي يعتمد عليه سكان المنطقة بل وفي كل فلسطين، وفي ذلك يقول المقدسي: «ومياه

(1) Fetellus, Op. Cit., p. 11 ; Theodrich, Description of the Holy land, 1172 A. D. , Trans. by Aubrey Stewart in : P. P. T. S., Vol. V, London, 1897, P. 54 ; Ernoul, Op. Cit., pp. 54 , 71 , 73.

راجع أيضاً: إبراهيم زكي خورشيد : دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٦ ، مادة بحر لوط .

(2) Karmon, Y., Israel, A Regional Geography, London, 1971, p. 325. Changes, p. 71 Cf. also, Mayer, H. E., The Crusades, London, 1978, pp. 63 - 64.

(٣) مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ١٢٢ .

فلسطين من الأمطار والطل، وأشجارها وزروعها أعزاء^(١). ويلي المطر مياه الينابيع والجداول التي أقدم الأهلالي منذ القدم على خزن حاجاتهم منها فى صهاريج بين الصخور أو أحواض على هيئة بحيرات بنيت جوانبها من الأحجار، وعرفوها فى بلاد الخليل باسم «البركة»^(٢). وتوصل الأهلالي إلى طريقتين لإتمام ذلك؛ إما بشق مجرى مائى ضيق يأخذ شكل القناة يصل بين التبع المائى المتدفق والأحوض. وفى هذا الصدد أشار كل من الرحالتين المقدسى وناصر خسرو إلى قناة تنقل المياه من عين خارج الخليل إلى حوض الطواشى داخل المدينة^(٣)، وإما بإقامة سد فى مواجهة جدول مائى يقوم بخزن المياه خلفه على هيئة حوض^(٤). ولعل أهم أحواض منطقة الخليل مايعرف بماء الكرمل Karmel - Karmel^(٥). وكان للأحوض أهمية إستراتيجية قصوى فى العصر الصليبي؛ وذلك لوقوعه على طريق القوافل جنوبى الخليل، علاوة على ما قام به من دور خلال فترة الصراع الإسلامى الصليبي.

وهناك أهمية إستراتيجية أخرى لأحواض وينابيع بلاد الخليل؛ ففضلاً عن أهميتها بالنسبة للسكان المحليين، نجد أنها تمتد لتشمل مدينة بيت المقدس ذاتها حيث ماؤها «قليل ليس بالكثير»^(٦) «فليس بها ماء جار سوى عيون لا ينتفع المزروع بها»^(٧). وعليه اعتمدت المدينة على ماء بلاد الخليل الذى يأتى إليها من على بعد اثنين وعشرين كيلو متراً جهة الجنوب وأربعة عشر كيلو متراً شمال شرقى الخليل عن طريق قناة، وذلك من

(١) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ١٧٤؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٥٨. راجع أيضاً: الأنصارى الدمشقى: نخبة الدهر، ص ٢٠٠، أعزاء: تعنى الزرع الذى لايسقيه إلا ماء المطر ومفرده عذى بكسر العين وسكون الذال.

انظر: سعيد عبد الله جبريل اليشاوى: نابلس والأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية فى عصر الحروب الصليبية ٤٩٢ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٩ - ١٢٩١ م، الطبعة الأولى، عمان، ١٩٩١م، ص ٣٧.

(٢) ناصر خسرو: المصدر السابق، ص ٣؛ ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٨٧، ج ٣، ص ٣١٢.

(٣) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ١٧٢؛ ناصر خسرو: المصدر السابق، ص ١٧، راجع أيضاً: العمرى: المصدر السابق، ص ٢١١؛ العلمى: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٧٢.

(4) Guerin, V., Op. Cit., Tom, I, Part II, p. 204, Benvenisti M., The Crusaders in The Holy Land, Jerusalem, 1976, pp. 203, 267.

(5) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, p. 387.

ياقوت الحموى: المشترك صقلاً والمفرق وضعاً، ص ٥٤، ٣٧٢، ٣٧٣؛ عبد الغنى النابلسى: الحقيقة والمجاز، ص ١٢٠. تبلغ مساحة حوض الكرمل حوالى أربعمئة متر مربع تنحدر إليه مياه عينين قريبتين. راجع: مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين، ج ٥، ق ٢، ص ٢٢٨.

(٦) العمرى: المصدر السابق، ص ٢٠٩.

(٧) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٥٨.

أحواض ثلاثة تعرف باسم أحواض عروب (1). ويبلغ طول أحدها ما يزيد عن ثلاثة وسبعين متراً وعرضه ما يزيد عن ثمانية وأربعين متراً وعمقه بضعة أمتار (2)، وتقوم أحواض العروب بهذه المهام منذ العصر البيزنطي (3). ويذكر ياقوت الحموي العروب: «اسم قريتين ناحية القدس فيهما عينان عظيمتان وبركتان وبساتين نزهة» (4) وفي حقيقة الأمر يمكن تحديد العين الثلاث التي تمتد الأحواض بالماء بأنها فريديس، وعد المزراعة، الفوار (5). والثابت أن القناة ظلت تقوم بمهمتها في توصيل المياه فترة العصور الوسطى، بل تم تطويرها بتغطيتها بالمباني حفاظاً على نقاء مائها، كما تم وضع حراسة مستمرة عليها (6) وقد عرفت القناة في تلك الفترة باسم نهر تقوع (7). ونظراً للأهمية الإستراتيجية لمياه العروب فكانت تمثل إحدى وسائل الضغط العسكري للاستيلاء على المدينة المقدسة.

أما المصدر الثالث للمياه بالنسبة لأراضى الخليل فتتمثل في المياه الجارية حيث مجموعة الجداول المنحدرة تجاه البحرين الميت والمتوسط، وهي جميعاً شتوية حيث تتكون من تجمع مياه الأمطار وذوبان الجليد الذي يتراكم في هذا الفصل (8). والجداول التي تشق طريقها نحو البحر الميت تخترق بركة الخليل، فأهمها من الشمال إلى الجنوب جدول أرتاس وجدول غار الذي يبدأ من شمال هضبة القيسيين منتهياً في البحر جنوب قرية عين جدي، ويليه جدول خبيرا ويحمل مياه الأمطار في منطقة بنى نعم فجداول

(1) ماء عرب = كثير من الماء الصافي ويثر عرب = كثرة المياه. وعرب النهر، ونحوه = كثر ماؤه.

(2) العمرى: المصدر السابق، ص ٢١٠؛ المقرئى: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٤م، ج ١، ق ٢، ص ٥١٠؛ مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين، ج ٥، ق ٢، ص ١٩٢.

(3) Syrie - Palestine - Iraq - Trans Jordanie, Les Guides Bleus, Paris, 1932., pp. 610 - 611.

(4) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣١٢.

(5) مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين، ج ٥، ق ٢، ص ١٩١ - ١٩٢.

(6) العمرى: نفسه، وقد أشار العمرى أيضاً إلى أن القناة قد تم مدها في عام ١٣١٠م / ٧١٠هـ. ويذكر أحد الرحالة الأوروبيين اللاحقين زمنياً أنه قد رأى هذه القناة وأبدى إعجابه الشديد ببنائها الفخم، وأشار إلى أنها قد أقيمت على نظام Aque duct وهو نظام ابتدعه الرومان لتوصيل المياه من مكان إلى آخر في قناة فوق الأرض. راجع:

Anselme Adorno, itineraire d'Anselme Adornoen Terre - Saint A. D. 1470 - 1471 Trans. Heers J. et Groer J., Paris, 1978, p. 251.

(7) عبد الغنى التابلسي: الحضرة الأنيسية، ص ٧٠.

(8) Volney, M., : Volney's Travels, pp. 309 - 310.

مَهْرَسَ، فجدول أبى مرادف ، وتجرى فيه المياه القادمة من منطقة يُطّة، ثم جدول المنبطقة وتتجمع فيه المياه الساقطة على جبل العريمة الواقع فى الشرق من هضبة القيسيين ، ثم جدولا الهفاف والمِر الذى يزيد طوله عن ثمانية كيلومترات ، وأخيراً جدول أم البدون ورافده جدول مَرِيح . والجدير بالذكر أن المصادر كانت تشير إلى بعض هذه الجداول بمسمياتها القديمة مثل سدوم Sodom وعموره Jamora وإيتام^(١) ، وذلك خلال عرضها للأحداث الحربية مما يشير إلى أهميتها الاستراتيجية .

وهناك الجداول الداخلية وهى شتوية أيضاً ؛ فجميعها تصب فى أودية ثلاثة تصب بدورها فى البحر المتوسط ، وهذه الجداول هى : نهر صقير والحسى^(٢) وغزة . أما الجداول الداخلية فيمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام وفقاً للجدول التى تصب فيها : فالجداول التى تصب فى نهر صقير هى : السنط (البطم) وينحدر من فوق المرتفعات شمالي الخليل بمسافة أربعة عشر كيلومتراً فى اتجاه الغرب ماراً بقرى عديدة منها بيت زكريا ثم تل الصافى متتهياً فى نهر صقير ، ويصب فيه أيضاً الجدول المسمى بواى الخليل الذى عرف أيضاً بمسميات أخرى منها الإفرنج ، وأشكول ، والتفاح^(٣) ، ويمر بقرى ترقميا وتفوح ودورا وإدنا حتى يصل إلى بيت جبرين وبيت زيتا . ويحمل وادى الخليل فى جريانه أسماء القرى التى يمر بها . أما الجداول التى تنتهى إلى جدول الحسى فمنها جدول سويلم الذى يمر بقرى أهمها الظاهرية ، وتل الحسى ، وأخيراً فالجداول التى تصب فى جدول غزة فأهمها : واد يعرف أيضاً باسم وادى الخليل ويمر بالظاهرية وبئر السبع^(٤) . وتبدو أهمية مجموعة الجداول والأودية الداخلية بالدرجة الأولى فى مجال الإنتاج الزراعى .

وبعد تلك الدراسة الجغرافية لإقليم الخليل عامة نتقل إلى التعرف على أجزائه المختلفة من مدن وقرى ومعالم حضارية ؛ فتأتى مدينة الخليل فى الصدارة بين مدن الإقليم وهى تقع على بعد ثلاثة وثلاثين كيلو متراً إلى الجنوب من بيت المقدس^(٥)

(1) Albert d'aix, Op. Cit., p. 538, Daniel The Russian, Op. Cit., pp. 44 - 45.

راجع أيضاً : مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ٢٤ - ٢٦ .
(٢) ينتسب الجدول إلى تل الحسى الذى يقع على بعد ١٨ كيلومتر جنوب غربى بيت جبرين وعلى بعد ٢٦ كيلومتراً شمال شرقى غزة ... انظر : مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ١٦ - ٢٨ .

(3) Guerin, V., Op. Cit., part III, p. 216 .

(4) Daniel The Russian , Op. Cit., pp. 42 , 47 - 48 , Burchard of Mount Sion, A Description of the Holy Land, trans. by Aubrey Stewart, in : P. P. T. S., Vol. XII, London, 1896, pp. 35-36.

راجع أيضاً : مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ٢٦ - ٢٨ .
(٥) حدد ابن الفقيه الهمداني عام ٩٠٣ م. / ٢٩٠ هـ. المسافة بين الخليل والقدس بخمسة عشر ميلاً، ولما كان الميل العربى آنذاك يعادل ٢١٨٨ متراً . فتكون المسافة حوالى ٣٣ كيلومتراً وبمراجعة العديد من الأطالس والكتب الحديثة، فقد أوردت المسافة بين المدينتين بما يتراوح بين ٣٢ ، ٣٧ كيلومتراً . راجع : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٠١ .

وعلى مبعدة خمسة وعشرين كيلومتراً من مدينة بيت لحم من ناحية الجنوب أيضاً وتقع على مسافة قصيرة يسرت لها الاتصال بمدن عسقلان والرملة ويافا وأرسوف . والخليل تعتبر من أعلى مدن فلسطين، ولا توجد إلا قلة ضئيلة من مدن الشرق الأدنى يمثل هذا الارتفاع ، فالأجزاء الشرقية من المدينة تقع قرب قمة جبل نصره الذى يبلغ ارتفاعه حوالى تسعمائة وخمسة وعشرين متراً^(١) . ومع أواخر القرن السابع الميلادى / الأول الهجرى زار الرحالة المسيحي أركولف المدينة وأشار إلى بساطة مبانيها^(٢)، وفى أوائل القرن العاشر الميلادى / أواخر الثالث الهجرى اكتفى ابن الفقيه الهمداني بأن ذكرها «باسم مسجد إبراهيم» (عليه السلام). وفى النصف الثانى من نفس القرن الميلادى / الرابع الهجرى ذكرها ابن حوقل واصفاً إياها « بأنها مدينة صغيرة كالقرية بها مسجد إبراهيم (عليه السلام) »^(٣) ، وهكذا يصبح من الثابت أن العرب كانوا قد ساهموا مساهمة واضحة فى تشييد المدينة قبل غزو الصليبيين لها . أما الأجزاء المتبقية فقد أقيمت على أنقاض المدينة القديمة التى تقع فى غربى وادى الخليل^(٤) .

لعل الدراسة السابقة لجغرافية إقليم الخليل ومدينته من حيث السطح والمناخ وموارد المياه والموقع قد كشفت بوضوح وجود أهمية خاصة للمنطقة ؛ فقد ترتب على موقع المدينة وارتفاعها الشاهق أن سيطرت على مساحة شاسعة من الأراضى المحيطة وأضحت تشرف على الطرق الطبيعية المتقاطعة المؤدية إلى النقب والساحل الجنوبي والجنوب الشرقى للبحر الميت وطريق الشام الرئيسى القديم المؤدى إلى مصر^(٥)، علاوة

(١) المقدسى : المصدر السابق ، ص ١٧٢ ، راجع أيضاً :

Encyclopedie d'Islam, Vol. IV, Art. Al - Khalil.

(2) Arculfus, The Pilgrimage of Arculfus, 670 A. d. Translated from the Original Latin by Mecpherron. J. R. in : P. P. T., Vol. III, London, 1893, p. 15.

(٣) ابن الفقيه : المصدر السابق ، ص ١٠١ ؛ ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

(٤) العليمى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ ، راجع أيضاً :

Guerin, V., Op. Cit., Part III, p. 216 , Cf. Als., Vigouraux. f. Hebron, Cols. 553 - 554.

(5) Encyclopedia d'Islam, Vol. IV, Art Al - Khalil.

ويمكن تفسير مسمى النقب بأن ملوك مصر نقبوا أى مهدوا فيها طريقاً للحج المصرى . راجع : نعم شقير : تاريخ سيناء ، القاهرة ، ١٩١٤م . ، ص ٦٨ ؛ والنقب أيضاً تعنى النجب ، بالعبرية تعنى الجنوب أو الأرض الحارة، وهذه المنطقة تشغل نصف فلسطين الجنوبي تقريباً حسب الاصطلاح السياسى الحديث ، وتبدو فى الخرائط على هيئة مثلث قاعدته تمتد فى الشمال من البحر الميت إلى البحر المتوسط متاخمة لبلاد الخليل ، ويتبع ضلعاها الآخران خطى الحدود الفلسطينية الأردنية من الشرق والفلسطينية المصرية من الغرب . ويكاد يلتقى هذان الضلعان عند خليج العقبة . راجع فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، بيروت ١٩٥٨م . ، ج ١ ، ص ٤ ؛ أحمد رمضان أحمد : تاريخ سيناء فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٦م . ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

على إشرافها على القوافل القديمة التي كانت تجتاز النقب قادمة من البحر الأحمر وخليج العقبة متجهة إلى موانئ البحر المتوسط خدمة لتجارة الشرق الأقصى . وهناك أحد الآراء التي تؤكد على أن طرق جنوبي فلسطين قد انتعشت بشكل ملحوظ بداية من القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري مع انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ^(١) . والباحث يميل إلى هذا الرأي ويؤكد عليه بدليل تنامي عمران الخليل تدريجياً بشكل ملحوظ حتى أصبحت علامة بارزة في طريق الرحالة الجغرافيين المسلمين ، فأقبلوا على زيارتها والحديث عنها نظراً لمساهمتها في النشاط التجاري آنذاك .

وبعد الدراسة الجغرافية للخليل كإقليم ومدينة وأهميتها الإستراتيجية نتناول الآن أهم المعالم الحضارية الأخرى من مدن وقرى ، فتأتى مدينة **بيت جبرين** ^(٢) فى المرتبة التالية بعد الخليل من حيث الأهمية فى منطقة جبال القيسيين وإلى الشمال الغربى من المدينة بارتفاع مائتين وسبعة وثمانين متراً . أما المسافة بينها وبين الخليل فهى حوالى ستة وعشرين كيلومتراً ، والمسافة بينها وبين بيت المقدس ثمانية وخمسون كيلومتراً ، كما تقع شمال شرقى غزة بمسافة خمسة وثلاثين كيلومتراً ، وهى بذلك تقع فى منتصف الطريق الغربى الواصل بينها وبين جنوب البحر الميت شرقاً ، وكذلك عند مفترق الطرق التى يصعد أحدها إلى مدينة الخليل ، بينما يمر آخر شمال صحراء النقب . وتحتل البلدة أهميتها أيضاً من وقوعها وسط المرتفعات الصخرية والصحارى الممتدة مع احتفاظها بآبار للمياه ^(٣) وهى قديمة شأنها شأن معظم المدن الفلسطينية الأخرى ، فقد عرفها العبرانيون باسم «بيت جبرين» ومعناها موطن الجبارة ^(٤) ، فى حين ذكرها المؤرخ القديم يوسفوس Josephus باسم بيل جود Bell Jud ^(٥) ، كما عرفت المدينة فى العصر الرومانى باسم بيتو كابرى Beto Gabri وكذلك البرثروبولس Eleutheropolis ^(٦) ،

(١) أحمد رمضان أحمد : نفس المرجع ، ص ١٣٩ ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٢) قد يمكن القبول بتفسير ورود كلمة بيت فى مسميات مدن وقرى إقليم الخليل وكل مكان أوله بيت ، بأنه سمي بذلك لكونه مسكناً لنبى من أنبياء بنى إسرائيل فيقال بيت فلان نسبة لسكانه .

راجع : العليمى : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤١٥ .

(3) Rey, E. G., Les Colonies Franques de Syrie aux XII me et XIII me Siecles Paris, 1883, P. 384; Grousset, R. Histoire des Croisades et du Royaume France de Jerusalem, Paris, 1948, Vol. II, p. 157.

(٤) فيليب حتى : تاريخ سوريا ، ج ١ ، ص ٢٩ .

(5) Josephus, Jewish War, Vol. IV, p. 8.

(6) Guérin . V., Op. Cit., Tom, I, Part II, pp. 310 - 312 , 333.

راجع أيضاً : إبراهيم زكى خورشيد وآخرون : دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٨ ، مادة بيت جبرين .

أما المصادر الإسلامية فقد ذكرت المدينة باسم بيت جبرين أو بيت جبريل^(١) ، وعلى ذلك نلاحظ أن العرب والمسلمين نسبوا المدينة إلى الملاك جبريل (عليه السلام) وليس الجبابرة^(٢) . وعرفها الصليبيون باسم بشجيريم Bethgehrim أو جبلين Gibelin^(٣) .

وقد حظيت بيت جبرين بمكانة رفيعة بين المسلمين حتى وصفها المسلمون الأوائل أنها إحدى مدن الجنة الأربع^(٤) . ويبدو أن ذلك كان له أثاره على البلدة إذ سرعان ما انتعشت بعد الفتح الإسلامي لها، حيث وصفها الجغرافي المسلم اليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) بالمدينة ، وذكر أن سكانها من بني جذام . ثم جاء المقدسي بعده بقرن تقريباً فوصف إياها بأنها حيرة القصبة وخزانة الكورة وبلد الرخاء ذات ضياع جليلية^(٥) . فضلاً عن أن المدينة كانت تشكل في أواخر القرن الثالث الهجري/ أوائل العاشر الميلادي تقسيماً إدارياً محدداً يعرف «بكورة بيت جبرين»^(٦) ، وأصبحت تمثل مركزاً للمنطقة المحيطة بها، وساعد على ذلك وقوعها في ملتقى الطرق بين مدن بيت المقدس وغزة والخليل بحيث شكلت نقطة المرور الأساسية للانتقال بين هذه المدن^(٧) . ويفضل كون بيت جبرين مركزاً للكورة فقد كان من الطبيعي أن تضم بلداناً عديدة من بلاد الخليل فضلاً عن مدينة الخليل ذاتها^(٨) ، وهذا يفسر الأحداث التي سوف تعرض في هذا

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥١٩ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٧٧ ، استخدم على الهروي نفس المسمى « بيت جبرين » غير أنه أورد التسمية القديمة حيث قال عنها : « بيت جبرين هي بيت الجبارين على الطريق بين القدس وعسقلان » راجع : الإشارات ، ص ٣٢ .

(2) Guerin . V., Op. Cit., Part . II, p. 331.

(3) Bresc, Bautier J., Le Cartulaire du Chapitre du Saint - Sepulcre de Jerusalem , Paris, 1984, pp. Doc. No. 27, 30, pp. 76 - 77, 112.

(٤) وقد ورد هذا الوصف على لسان كعب الاحبار أحد صحابة الرسول محمد (ﷺ) حينما قال : «أربع مدائن من مدائن الجنة هي حمص ودمشق وبيت جبرين وظفار اليمن » . راجع : ابن الفقيه : المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

(٥) اليعقوبي : البلدان ، طبع على هامش الأعلام النفيسة لابن رسته ، لندن ، ١٨٩١ م . ، ص ٢٨٧ ؛ المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٤ . راجع أيضاً : أبو الفدا : تقويم البلدان ، ص ١٣٢ .

(٦) ابن الفقيه : المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

(7) Smith, G. A., Historical Geography of the Holy Land , pp. 232 , 233 ; Benvenisti, M., Op. Cit., p. 185.

(8) Beyer G., Die Kreuzfahrergebiete Von Jerusalem und St. Abraham (Hebron) , in : Z. D. P. V., LXV (1942) , pp. 200, 202 .

راجع أيضاً : مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ٢٩٨ - ٣٠٥ .

الفصل من الدراسة بصدد الفتح الإسلامى للخليل، إذ لم تشر المصادر المتاحة البتة إلى فتح الخليل فى حين أولت بيت جبرين اهتماماً ملحوظاً عند تعرضها لموضوع فتح فلسطين وظلت بيت جبرين تحتفظ بمكانتها الرفيعة فى المنطقة حتى أثناء الحكم الصليبي لها رغم تنامي جارتها الخليل المنافسة لها.

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى بلدة **بير سبع** Beersheba, Ber Sabée التى تردد اسمها كثيراً فى كتابات الأوربيين المعاصرين فترة العصور الوسطى ظناً منهم بأنها هى ذاتها مدينة بيت جبرين^(١)، فى حين تفيد الدراسات الحديثة بأنها بلدة مختلفة لكنها قريبة من الموضع^(٢) وقد أشار فوشيه دى شارتر إلى موقع بير سبع بأنها عند حافة هضبة يهوذا^(٣) (هضبة القيسيين) الغربية، ومهما يكن من أمر فقد أولى الحجاج الصليبيون بير سبع اهتماماً واضحاً فلا يكاد يخلو مؤلف من مؤلفاتهم من ذكر لها^(٤)، كما ذكرها بعض المؤرخين المسلمين بنفس الاسم، ومما أشار إليه المعاصرون قصة المسمى للبلدة حيث ذكروا أنها عرفت بهذا الاسم لأن إبراهيم (عليه السلام) قد حفر سبعاً من الآبار حولها^(٥).

وبصدد التعرض للمراكز الحضرية فى بلاد الخليل وبعد الإشارة إلى ما بها من مدن، يلزم أن نشير أيضاً إلى أهم القرى، ومنها ما يتصف بالحيوية فى مجال الاقتصاد أو الدين أو الحرب أو فى أكثر من مجال. علماً بأن كلا منها يضم عدداً من الحرب،

(1) Fulcher of Chartres, Op. Cit., p. 262 ; Fetellus, Op. Cit., p. 10 ; William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, p. 82 ; Smith, G. A., Historical Geography of the Holy Land, p. 240.

(2) Guerin, V., Op. Cit., Part II, pp. 334 - 340 , Grousset R., Op. Cit., Vol. II, p. 152.

بيت جبرين هو اسم لقرية شديدة القرب من بير سبع حالياً. راجع : إبراهيم زكى خورشيد : دائرة المعارف الإسلامية، ج ٨، مادة بيت حبرون.

(3) Fulcher of Chartres, Loc. Cit.

(٤) راجع على سبيل المثال :

Burchard of Mount Sion, A Description of the Holy land, trans. by Aubrey Stewart, in P. P. T. S. , Vol. XII, London, 1896, p. 22 ; Anselme Adorno, Iteneraire d'Anselme Adorno en Terre - Sainte 1470 - 1471 A.D., Paris 1978, pp. 247 , 249 - 250.

(٥) ورد عدد من القصص حول مسمى بير السبع وفضل المدينة فى المصادر الإسلامية . على سبيل المثال راجع : الهروى : الإشارات ، ص ٣٢ ؛ التدمرى : مشير الغرام ، ص ١٨٢ ؛ عارف العارف : تاريخ بير السبع وقبائلها ، بيت المقدس ١٩٣٤ م.

C.f. also, Guerin V., Judée , Tome I, Part 2, pp. 276 , 284.

ولعل الخبرة تعنى المزرعة التى ذكرها الصليبيون باسم Curtile^(١). ومن أجل التعريف بهذه البقاع فسيتم توزيعها على أربعة قطاعات جغرافية رئيسية : شرقية وجنوبية وغربية وشمالية .

وفيما يختص بقرى بلاد الخليل الواقعة فى الجهة الشرقية تأتي عين جدي Ain Gadi وهى تطل على البحر الميت فى شاطئه الغربى عند أوسع نقطة فيه حيث يبلغ عرضه عندها سبعة عشر كيلومتراً تقريباً^(٢). ثم هناك قرية كفر بريك Kefer Barik ثمانية كيلومترات شرقى الخليل وهى تميل بعض الشيء ناحية الجنوب ، معروفة الآن بقرية بنى نعيم نسبة لأحد أفخاذ إحدى القبائل العربية، ويعتقد أن اسم كفر بريك الذى أطلقه الرحالة المسلمون على القرية مأخوذ من اسم الوادى المسمى بوادى البركات^(٣). وقد ذكر هذه القرية الرحالة الهروى بقوله «كفر بريك قرية بها قبر لوط عليه السلام»^(٤). وتمتد مراعى القرية شرقاً حتى البحر الميت حيث تكسوها الأعشاب فى الشتاء والربيع، ولذا اضطر الرعاة إلى الترحال إلى أماكن مغايرة فى المواسم الأخرى. ومن أهم ملحقاتها خربة زيف التى يرتفع تلها الواقع إلى الغرب منها ثمانمائة وثمانين متراً عن سطح البحر ، وكان المقدسى قد أشار إليها فى كتابه مما يشير إلى أنها كانت ذات شأن فى القرن العاشر الميلادى / الرابع الهجرى^(٥). وهكذا فأراضى كفر بريك تنحدر بشكل عام من الشمال إلى الجنوب حتى تصل إلى صحراء النقب.

أما البقاع الجنوبية فتتمثل فى قرية يطة التى عرفها الصليبيون بالاسم اللاتينى لها وهو جوتا Jota، وهى تقع على هضبة صخرية ارتفاعها حوالى ثمانمائة وعشرين متراً، وبالقرب من جبل يحمل نفس الاسم يعد من أعلى قمم الخليل . والقرية تقع على بعد حوالى أربعة عشر كيلومتراً إلى الجنوب من الخليل، قيل إنها البلدة التى سكنها النبى زكريا وفيها ولد ابنه يحيى (عليهما السلام)، كما زارتها السيدة مريم العذراء برفقة ابنها المسيح (عليه السلام)، وتنتشر فى أراضيها المراعى. ومن أهم توابعها الكرمل (اثنى عشر كيلومتر جنوب الخليل)^(٦)، ذكرها ياقوت الحموى « قرية فى آخر حدود الخليل »

(1) Benvenisti M., Op. Cit., p. 235 .

(٢) مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٣) ياقوت الحموى : المشترك صقماً والمفترق وضعاً ، ص ٢٨٦ .

(٤) الهروى : الإشارات فى معرفة الزيارات ، ص ٢٩ .

(٥) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٧٣ ، راجع أيضاً : مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ .

(6) Johannes Phocas, The Pilgrimage of Johannes Phocas to the Holy Land, 1185 A. D., London, 1896, P. 30, Cf. also, Guérin, V., Judée, Part II, pp. 234 - 237.

مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ .

وأضاف فى كتاب آخر «قرية فى آخر نواحي الخليل بفلسطين من جهة البر»^(١). وتستمد القرية مياهها من الحوض المعروف باسمها إلى الجنوب منها وتبع يطة قرية اشتهرت أيضاً فترة الحروب الصليبية هى السَّمُوع Semoa تقع على بعد أربعة عشر كيلومتراً جنوب الخليل وعلى ارتفاع سبعمائة وأربعة وثلاثين متراً، وتعد آخر أعمال الخليل جهة الجنوب وما تزال آثار الحصن الفرنجى ماثلة بها^(٢)، وإلى الجنوب الشرقى من السموع يوجد خربة القريتين المرتفعة ستمائة وعشرة أمتار، أما فى الغرب فتقع خربة سوسيا Sosia^(٣)، ومما يجدر ذكره أن كل هذه البقاع قد ساهمت بشكل أو بآخر فى الأحداث التاريخية موضوع الدراسة وبذلك نلاحظ أن يطة وقراها قد جمعت عدة مزايا منها ما يتعلق باقترانها بسير الأنبياء (عليهم السلام) ومنها ما يرتبط بالنواحي الاقتصادية والحربية.

وفى الجهة الغربية من منطقة الخليل تقع قرية دورا Adora العريقة على بعد ثمانية كيلو مترات جنوب غربى مدينة الخليل، وترتفع نحو تسعمائة متر فوق سطح البحر، وهى من كبريات القرى فى بلاد الخليل؛ إذ تضم عدداً كبيراً من الحرب^(٤)؛ ولذلك تكمن أهميتها فى مجال الإنتاج الزراعى. وعلى بعد ثلاثة وعشرين كيلومتراً من الخليل فى نفس الاتجاه تقع قرية الظاهرية بارتفاع ستمائة وخمسين متراً، والقرب منها وادى كبير ومرعى واسع يقال له وادى إبراهيم، يعتقد أن إبراهيم (عليه السلام) كان يرعى مواشيه فيه، وظلت هذه الحرفة قائمة فى المكان على مر العصور. والظاهرية تشكل جزءاً من الحافة الجنوبية لهضبة بلاد الخليل^(٥)، ولوقوع تل عراض على طريق بيت جبرين - الخليل^(٦)، فتعد من أهم توابع الظاهرية.

وإلى الغرب أيضاً من مدينة الخليل توجد عدة قرى هامة تنحدر أراضيها نحو الغرب منها : إدنا وتضم عدة خرب أهمها صالح، طيبة، قرية عجور، وأهم خربها

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٩٥ ؛ المشترك صقفاً والمفترق وضعاً ، ص ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

(2) Abel, F. M. Geographie de la Palestine, Etudes Bibliques, Paris, 1938, Vol. II, p. 91.

(٣) مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ٢٣١ - ٢٣٥ .

(4) Guérin, V., Judée, Part , II, pp. 215 - 217 .

فليب حتى : المرجع السابق ، ص ٣١٠ .

(٥) عمر الصالح البرغوثى و خليل طوطح : تاريخ فلسطين ، القدس ١٩٢٣ ، ص ١٩ .

(٦) الأنصارى الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ٢٠١ ، راجع أيضاً : مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ٢٤٦ .

الشويكة ذكرها ياقوت الحموي بأنها من أرض الرملة ^(١) وقرية الدوايمة ، ذكرها الفرنج برسم Beth - Awahim ومن أهم ملحقاتهم خربة زيتة ، وتحظى القرى الغربية تلك بقدر وافر من الأمطار ^(٢) . وتلى إدنا وتوابعا جهة الغرب نحو الشمال قليلاً قرية قل الصافية التي عرفها الصليبيون باسم Planch Gard ^(٣) ، ويقول عنها ياقوت الحموي «إنها جبل من أعلى فلسطين قرب بيت جبرين» وهكذا فالقرية تقع على المنحدرات الغربية للخليل بارتفاع ثلاثمائة متر تقريباً من مستوى البحر ، ومن أهم خربها خربة دير البطم Boteme التي تقع إلى الجنوب الشرقي من القرية ^(٤) .

أما عن أهم القرى في جهة الشمال الغربي من منطقة الخليل فهي بيت أولي وتضم عدداً من الخرب ، تردد في عصر الحروب الصليبية اسم إحداها وهي خربة بيت ناصب Bieth - Nasib الواقعة إلى الجنوب الغربي من القرية . وفي نفس الاتجاه أى جهة (الشمال الغربي من الخليل) تقع قرية ترقوميا Tarkomia على بعد اثني عشرة كيلومتراً من الخليل وهي تجاور قرية جرمدة Jarmabra التي بها كثير من الآثار ^(٥) . كما يجدر بالذكر قرية بيت زكريا Bieth-Zacharia الواقعة في نفس الاتجاه بحوالى ثمانية عشر كيلو متراً من الخليل وبارتفاع مائتين وتسعين متراً من البحر ، كما تقع على الطريق التجارى المؤدى إلى القدس ^(٦) . ونظراً لحمل القرية اسم النبي زكريا (عليه السلام) فقد اعتقد البعض خطأ أنها تضم المغارة المدفون بها ^(٧) . وفي حقيقة الأمر لا يوجد أى ارتباط بين قرية بيت زكريا هذه والنبي المذكور (عليه السلام) إذ كانت حياته ووفاته في قرية يطة المذكورة سلفاً .

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٤٣ .

(2) Guerin, V., Judée , Tome I, Part III , pp. 110 - 112 , 114 - 115 , C.f. also, Syrie, Palestine, Iraq, Trans Jordanie, pp. 614 - 616.

(3) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, p. 81.

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٢ ، راجع أيضاً :

Roehrich, R., Studien , Zun mittelalterliden Geographie und Topographie Syriens, Berlin 1887, p. 278.

(5) Paoli, S., Codice Diplomatico del Sacro Militare Otdine Gerosolimitano, Oggi di Malto, Lucca 1733 - 37 , Tome I, Doc. No. 17, pp. 62 - 63 ; Mayer, H. E., (ed.), Tabulae Ordinis Theutonicis, Berlin, 1869, rep. by Mayer, H. E., 1975, pp. 11 - 12 ; Delaville le Roulx, C.G.O.H. (1100 - 1310), Paris, 1894 , Vol. I, No. 515 , pp. 395 - 396.

(6) Guerin, V., Op. Cit., Tome I, Part 1 , p. 150 .

(7) Johannes Phocas, Op. Cit., p. 30.

أما إلى الشمال من الخليل بمسافة خمسة كيلومترات على الطريق إلى القدس فتقع قرية **حلحول** Halhol التي بها قبر النبي يونس وأبيه متى (عليهما السلام)^(١). وتقع حلحول بالقرب من أعلى قمم بلاد الخليل بل وكل فلسطين حيث يصل ارتفاعها إلى ألف وعشرين متراً فوق سطح البحر، ومنها يمكن رؤية البحر الميت «خمس وعشرين كيلومتراً منها» والبحر المتوسط (ستون كيلومتراً من القرية)^(٢)، ويخرج من حلحول طريق يتفرع من الطريق الرئيسي الذي يربط الخليل بالقدس^(٣)، وهكذا لم تتوقف أهمية القرية على الجانب الديني بل كان لها نشاطها التجاري لما تمتعت به من موقع إستراتيجي، ومن أهم خربها : خربة برج الصور الواقعة على طريق الخليل - القدس شمال غرب القرية. عرفها الصليبيون باسمها الروماني Peth - Sura^(٤). وذكرها ياقوت الحموي باسم **بيت صور**^(٥). وفي جهة الشمال أيضاً تأتي قرية **بيت أومر** عند أطراف بلاد الخليل على مسافة أحد عشر كيلومتراً عن المدينة بينها وبين بيت لحم، وترتفع سبعمائة وسبعة وعشرين متراً فوق سطح البحر. ووردت في وثائق الصليبيين تحت مسمى Betomar - Bieth Omar^(٦). وتعد قرية بيت فجار التي عرفت باسم بيت فسا Bieth-Fassa أقرب القرى لها. وعلى مقربة من بيت أومر يوجد بيت الشعار Beith-Schaar إلى الشمال الشرقي؛ وهي تقع عند الكيلو الرابع عشر على طريق الخليل - القدس^(٧)، وكذلك تقع على نفس الطريق خربة القط التي ذكرها ياقوت الحموي بأنها بلدة على طريق الرملة - بيت المقدس؛ وهي تقع على بعد أربعة عشر كيلومتراً على نفس الطريق جهة الخليل، كما ترتفع تسعمائة وستين متراً فوق سطح البحر^(٨).

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ ؛ عبد الغنى النابلسي : الحقيقة والمجاز ، ص ١٢٤ .

(٢) تعرف القمة باسم صيرة البلاء إلى الجنوب مباشرة من حلحول وتقع بجوارها أيضاً عدد من القمم الأخرى لا تقل عنها كثيراً في الارتفاع. راجع: مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ٢٠ ، ١٦٩ - ١٧٢ .

(3) Syrie, Palestine, Iraq et Trans Jordanie, p. 617.

(4) Delaville le Roulx, C. G. O. H., Vol. I, Doc. No. 116, Cf. also ; Conder, C. R., Survey of Western Palastine, Memoirs, London, 1884, Vol. II, p. 412.

(٥) ياقوت الحموي : المشترك صفحاً والمفروق وضعاً ، ص ٢٨٦ .

(6) Roehricht, R., Regesta Regni Hierosolimitani, Insbruck 1893, Vol. I, Doc. No. 291.

راجع أيضاً :

مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(7) Mayer H. E., B. K. S., M. G. H., 26, Stuttgart , 1977, p. 62.

(٨) ياقوت الحموي : معجم البلدان : ج ٣ ، ص ١١٠ .

ومن أهم القرى الشمالية فى بلاد الخليل وتردد الإشارة إليها خلال الدراسة بيت عيون، وتضم القرية أطلال كنيسة بيزنطية تحمل اسم يوحنا المعمدان Gohen Papatire ، كما يوجد بها بقايا حصن صغير مستطيل الشكل تتمثل بقاياها فى حوائط سميكة مبنية من أحجار ضخمة. والاطلال تشير إلى أن القرية فى الماضى كانت تتكون من شقين يرتفع أحدهما عن الآخر^(١). وهذه الآثار تبرهن على أهمية القرية سلفاً ، ولاهالى القرية نشاط اقتصادى مميز على مر العصور. وكثيراً ما ذكرت بيت عيون فى المصادر مقرونة بقرية دورا^(٢) سألقة الذكر .

وأخيراً ففى جهة الشمال الشرقى من الخليل تقع قرية سعيير أو سعيير Seir على مبعدة أربعة كيلومترات شمال شرق حلحول، وثمانية كيلومترات من الخليل، وتمتد فى واد عرف باسمها وحتى سفوح الجبال شاهقة الارتفاع المجاورة. وبالقرية جامع قديم يضم ضريح عيص أخى يعقوب (عليه السلام)، وهى تمثل الحد الفاصل بين أرض الخليل وأرض بيت المقدس^(٣). وقد اكتسبت القرية أهمية خاصة لإحتلالها هذا الموقع المتوسط بين القدس والخليل على مر العصور . وبالإضافة إلى احتواء القرية على مساحات من الأراضى الزراعية ، فالأراضى الرعوية أكثر امتداداً^(٤). وأخيراً ففى جهة الشمال الشرقى تأتى قرية تقوع التى ذكرها ياقوت الحموى فى معجمه بأنه «يضرِب بجودة غسلها المثل»^(٥) ، ولم يقتصر نشاط أهلها على ذلك، بل امتد نشاطهم إلى مجالات اقتصادية أخرى نذكرها فى موضعها . وقد ورد اسم القرية فى المصادر والوثائق الصليبية برسم Tecue - Tekoa - Tequa على أنها إحدى قرى هضبة القيسيين الرئيسية^(٦). وهى تقع على بعد سبعة كيلومترات إلى الجنوب من بيت لحم، وثمانية

(1) Guerien V., Judée, Tome I, p. 150 .

ولمعرفة المزيد عن تاريخ القرية قديماً ومسمياتها المختلفة ، راجع : فيليب حتى : تاريخ سوريا ، ج ١ ، ص ١٢٩ ، ٣١٠ .

(٢) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٠٢ .

(٣) الأنصارى الدمشقى : المصدر السابق ، ص ٢١٢ ؛ راجع أيضاً : عبد الغنى النابلسى : الحقيقة والمجاز ، ص ١٢٤ .

(4) Abel (F.M.) Geographie de la Palestine, Vol. II, p. 32 .

(٥) ياقوت الحموى : معجم البلدان : ج ٢ ، ص ٣٧ .

(6) Fulcher of Chartres, Op. Cit., p. 262 , Bresc - Bautier, le Cart. de chap. Doc. No. 11 , pp. 52 - 54 , Doc. No. 16, pp. 63 - 88, Doc. No. 34 , pp. 98 - 101 .

كيلومترات إلى الشمال الشرقي من الخليل، كما تقع على حافة هضبة القيسيين بارتفاع ثمانمائة وخمسة وعشرين متراً بحيث تطل على برية الخليل، وبها بئر ماء صغيرة^(١)

وبعد هذا العرض لأهم بقاع بلاد الخليل تبرز أمامنا حقائق هامة أذكر منها : أن المنطقة قد حظيت بحماية طبيعية واضحة حيث ساعدت طبوغرافية المكان على توفير هذه الحماية ، فلم تشر المصادر والمراجع التي بين أيدينا إلى وجود تحصينات مهمة قبيل فترة هذه الدراسة رغم أن بعض هذه القرى واقع على طريق التجارة المار بالإقليم ، وهذا بدوره يشير إلى أن حماية القوافل التي تسلك طرق الخليل كانت متروكة لأهالي المنطقة بالاتفاق مع الحكام ولا تعتمد على قوى نظامية تتمركز في نقاط معينة هنا وهناك . وذلك الأمر لابد أن يطرأ عليه تغيير واضح باختلاف الظروف السياسية والعسكرية حين تأتي جيوش الصليبيين، وهذا ما ستناوله الدراسة بالمناقشة والتوضيح بين طبيعتها . كذلك فهناك حقيقة مفادها أن مدينة الخليل شكلت مركز الإقليم جغرافياً لوقوعها في وسط مجموعة القرى والبقاع المختلفة المكونة للإقليم ، كما أهلها موقعها كى تطل على ما حولها من مناطق مما يسر لها القيام بدور ريادي في الإقليم .

أما عن التركيب السكاني للمجتمع في منطقة الخليل فقد تميز بالتنوع بين حضر وبدو ، ومسلمين وغير مسلمين من عرب وأتراك . فقد ارتبطت أرض فلسطين منذ العصر القديم بنزوح عدد من قبائل العرب القحطانيين^(٢) إلى جنوبها في أواخر القرن الثاني الميلادي . ومن أقدم القبائل العربية تلك قبيلتنا لحَم وجذام اللتان نزلتا المنطقة قبل الغزو الفارسي لها في عام ٦١٤ م . وقد وجه الفرس عدة ضربات لعرب المنطقة حتى شتتوا شمل معظمهم إلى بقاع عربية أخرى ، غير أن المنطقة شهدت نزوح مزيد من القبائل العربية مثل : الدعجيون (ويقال لهم الدعاجنة) وهم من بنى جذام ، وكانوا يسكنون منطقة شرقى الأردن وماحولها . وقبيلة العطويون من بنى صخر الذين امتدت سكناهم في مناطق شرقى الأردن أيضاً . وكذلك بنو جرم وهم من بنى طيٍّ فقد سكنوا المنطقة من غزة حتى شرقى الأردن^(٣) . ويوضح العمرى أن قبيلة جرم تنقسم إلى أفخاذ

(1) Abel (F. M.) Geographie de la Palestine , Vol. II, p. 91 , Cf. also ; Mayer H. E., B. K. S., pp. 378 - 380.

(٢) اتفق علماء النسب على أن العرب من ولد يعرب بن قحطان، وأن العرب قسمان : القسم الأول : العرب العاربة ، وهم العرب العرباء وأرادوا المبالغة في العربية وكانوا في الزمن الغابر ينتشرون في شتى أرجاء الأرض ، القسم الثاني : العرب المستعربة ، وهم بنو إسماعيل بن إبراهيم الخليل (عليه السلام) . واتفقوا مع ذلك على أن العرب ترجع بأسرها إلى قحطان وعدنان، فيقال لسائر قحطان «اليمنيين» ، ويقال لسائر بنى عدنان «المضرية والنزارية» وهى قيس . فإذا العرب : قيس ويمن . انظر المقرئى : ضوء السارى ، ص ٢٨ - ٣٠ .

(٣) الفلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٥ هـ . / ١٩٨٤ م .، ص ١١٧ ، ١٢٩ ، ١٣٨ ، ١٤١ ؛ المقرئى : ضوء السارى ، ص ٢٨ - ٣٥

متعددة منهم جرم قضاة ، وجرم بجيلة ، وجرم عاملة ، وجرم طيئ . ويحدد موطن بنى طيئ بدقة قائلاً : «هى بلاد غزة والداروم مما يلى الساحل إلى الجبل ، وبلد الخليل (عليه السلام)، ويشير العمرى أيضاً إلى تحول هؤلاء العرب إلى حضر فيقول: «وبالشام من صليبة العرب أقوام شتى فى البلاد قد خرجوا بها عن حكم العرب، وصاروا بها أهل حاضرة ساكنة ، وعمار ديار قاطنة»، كما هو الحال بالنسبة لمدينة غزة وبلد الخليل (عليه السلام)^(١). وفى الفترة السابقة على قدوم الحملة الصليبية الأولى سكن جنوب فلسطين وشمالها وشمال سيناء بنو سنيس، وهم ينتسبون إلى سنيس بن معاوية الطائى، وكثرت واشتدت وطأنهم على الولاة الفاطميين ولذا حرصوا على تشتيتهم فأغروا بعض بطونهم بالانتقال إلى إقليم البحيرة بمصر» عام ١٠٥٠ م / ٤٤٢ هـ^(٢). وقد ظهر فى المنطقة أيضاً عرب القيسييين واليمنيين ، غير أنه يبدو أن نشاطهم لم يكن واضحاً إذ لم يرد عنهم فى المصادر غير الشذرات^(٣) حتى فترة زمنية تالية لفترة موضوع الدراسة .

وهكذا يتضح أن سكان منطقة الخليل كانوا يتألفون بشكل أساسى من قبيلة بنى طيئ العربية . وكان لابد أن تتفاوت عشائر تلك القبيلة بين البداوة والحضر تبعاً للمنطقة التى يستوطنونها، وهذا يرجع بالطبع إلى تأثير العوامل الجغرافية ، فمن عمل بالزراعة منهم استقر فى أرضه لخدمتها ، ومن عمل فى حرفة الرعى حيث البرارى وعند سفوح التلال سعياً وراء الكلا فكان عليه أن يرحل من مكان إلى آخر نظراً لطبيعة الحرفة، وبالتالي لايمكن تحديد موطنه بدقة . ولذا كان من الطبيعى أن تتداخل القبائل وتختلط وتتدافع، بل وتنشب الحروب بينها نزاعاً على الأرض ، وخاصة أن نزوح قبيلة من مكان إلى آخر لايعنى اختفاء أفضاذاها تماماً منها . وما من شك فى أن وجود الخليل وسط هذا المحيط من العرب البدو يجعل من الضرورى التعرف عليهم وتبع دورهم فى الأحداث .

ويحاول الباحث مستعيناً بما ورد فى المصادر توزيع القبائل العربية فى بقاع بلاد الخليل وماحولها؛ فمن أهم القبائل العربية التى جاورت الخليل وكان لها شهرتها فى فترة الحروب الصليبية قبيلة ثعلبة وهم ينتسبون إلى ثعلبة بن سلمان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيئ . وتنقسم ثعلبة إلى بطنى ؛ دورما وزريق ، وكلتاهما تتكون من عدة

(١) العمرى : قبائل العرب فى القرنين السابع والثامن الهجريين ، ص ١٠٦ - ١٠٨ ، ١٥٤ .

(٢) المقرئى : البيان والإعراب ، ص ٤ .

(٣) الأنصارى الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ص ٢١٢ .

أفخاذ^(١). ولهذه القبيلة أهمية خاصة فى دراسة تاريخ الحروب الصليبية؛ نظراً للدور الذى قامت به سواء ضد أعدائهم الدخلاء أو لصالحهم بغية أهداف خاصة بهم ، وقد نوه العمرى إلى هذا الدور حينما ذكر قائلاً : «وكانوا يداً مع الإفرنج على المسلمين». وقد امتدت المنطقة التى استحوذوا عليها من مصر حتى الخروبة^(٢) الواقعة بين العريش ورفح، وفى ذلك الموقع سيطروا على زمام كثير من الأمور خلال الأحداث بين مسلمى مصر والشام، والصليبيين.

أما فيما يختص بتوزيع القبائل العربية فى بلاد الخليل ذاتها فنجد أن الضواحك وهم أحد أفخاذ بنى جهينة من بنى طيئ قد سكنوا برية الخليل وامتدت سكناهم إلى بيت جبرين، وقد اقترنت أسماء بعض البقاع بهم مثل وادى جهينة القريب من بئر سبع. أما كفر بريك فقد سكنها فخذ النعيمات من بنى طيئ أيضاً حتى عرفت القرية باسم بنى نعيم^(٣). هذا، ويعود الكعابنة المقيمون فى قرى جنوب الخليل والنقب بأصلهم إلى بنى صخر فى شرقى الأردن^(٤). وقد جاورهم فى المنطقة بنو جاسم^(٥). وتمتد أفخاذ من قبيلة بنى طيئ فى سكنهاها إلى شرقى الأردن، ومنهم: بنو كنانة وبنو حابور، وبنو خالد، وبصفة عامة فهم مولعون بالحرب. وقد أقام إلى الشمال منهم بنو مر، وبنو أبى، ثم بنو عوف، وبنو ربيعة^(٦). وهذا يفسر إلى أى حد ربطت صلة الدم بين عرب بلاد الخليل وجيرانها.

وخلال العقود القليلة السابقة على قدوم الصليبيين إلى الشام برز فى فلسطين قبائل تركمانية كان السلاجقة قد أخرجوهم من حول بحر قزوين وساقوهم إلى الشام

(١) القلقشندي: نهاية الأرب، ص ١٩٥ ، ٢٥١ ، ٢٧١، المقرئى: البيان والإعراب، ص ٣ - ٤
نسب قبيلة ثعلبة ينتهى إلى العرب القحطانيين ومنهم أفخاذ دورما وسماهم القلقشندي: سلامة
والأحمر وعمر وقيصر وأوسى وشبل والحنايلة والمراونة والحياتيون، أما أولاد زريق فقد سماهم:
الطلحيون والصبحيون والعليميون. وانظر أيضاً مذكره القلقشندي عن الطلحيين وآل حجاج
وآل عمران وبنى حضاة. راجع: نهاية الأرب، ص ٩٩ ، ١٠٨ ، ١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٩٥.

(٢) العمرى: قبائل العرب، ص ١٠٧. راجع أيضاً: المقرئى: البيان والإعراب، ص ٣.

(3) Roehricht, R., Studien Zur mittelaterichen Geographie, pp. 234 - 278.

راجع أيضاً: مصطفى الدباغ: القبائل العربية فى فلسطين وشمالها، ص ٥٩ ، ٨٦.

(٤) ابن الفقيه: صفة جزيرة العرب، ليدن، ١٨٨٤م، ص ٧١.

(٥) القلقشندي: المصدر السابق، ص ١٨٩ ، ١٩٦.

(6) Prawer J., The Latin Kingdom of Jerusalem, pp. 49 - 50.

فانتشروا فيها حتى سيطروا على القدس عام ١٠٧٧م / ٤٦٩ هـ . وكثير من أراضي فلسطين تحت قيادة أرتق بن أكسب التركمانى^(١) ، وهكذا غدا الأتراك السلاجقة بعد أن أصبح لهم الغلبة والترکمان يشكلون الطبقة الراقية . أما سائر الأمراء الصغار فى البلاد فكانوا من العرب ، مما أتاح الفرصة لظهور العديد من الإمارات الصغيرة التى استقل بها أمراؤها سواء من السلاجقة أو من العرب ، والتى انسلخت عن الحكم السلجوقى أو الفاطمى هناك مثل : بنى منقذ فى شيزر عام ١٠٨٠م / ٤٧٤ هـ وبنى عمار فى طرابلس عام ١٠٨٥م / ٤٧٨ هـ ، والأرائقة فى بيت المقدس وفلسطين حتى تم طردهم من هناك على أيدي الفاطميين ، إضافة إلى عدد آخر من الإمارات^(٢) .

وبصفة عامة فمن الناحية الطائفية كان من المعروف أن سكان جنوبى الشام يشكلون الأغلبية السنية فى البلاد ، أما فى الشمال فقد كانوا متعادلين عدداً تقريباً مع الشيعة مما يشير إلى قوة الطائفة الشيعية هناك^(٣) . وهكذا فمن المفترض أن المجتمع الإسلامى فى بلاد الخليل كان خليطاً من أهل الطائفتين السابقتين .

أما عن غير المسلمين فى المنطقة فقد كانوا بالدرجة الأولى من المسيحيين ، ولكن لم نعثر فى المصادر على ما يعطى صورة واضحة ودقيقة عن أعدادهم قبيل العصر الصليبي . غير أنه مع بداية هذا العصر ذكر المؤرخ الصليبي فوشيه دى شارتر وجود أعداد من المسيحيين الشرقيين من الأهالى المعروفين بالسريان Syrian ، وذكر مواطنهم فى المنطقة الجنوبية من بلاد الخليل حيث حافة جبال يهوذا المواجهة لعسقلان ، وهذا الموقع يتطابق مع موقع بيت جبرين والقرى المجاورة ، وكذلك كانت قرية صفر مركزاً أساسياً لسكانهم^(٤) . كما نوه الرحالة دانيال الروسى إلى قرية كبيرة بالقرب من البحر الميت دون أن يحدد اسمها ، نصف سكانها من المسيحيين السريان والنصف الآخر من المسلمين^(٥) ، ويعتقد أن هذه القرية هى قرية كفر بريك التى تنطبق عليها مواصفات الموقع الذى وصفه الرحالة . ويؤكد هذا الاعتقاد ما أورده فوشيه فى هذا الصدد إضافة

(١) عارف العارف : تاريخ القدس ، القاهرة ، ١٩٥١م . ، ص ٦٦ .

(٢) مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، نشر زرتشتين ، ليدن ١٩١٩م ، ص ٢٣٦ . راجع أيضاً : إحدى الدراسات المتخصصة فى : محمد الشيخ : الإمارات العربية فى بلاد الشام فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلادى ، الطبعة الأولى ، إسكندرية ١٩٨٠م . ، ص ٢٢٥ - ٣٧٦ . راجع أيضاً :

Cahen, c., La Syrie du Nord, p. 180.

(٣) ابن القلائسى : المصدر السابق ، ص ٨٨ ، ١٢١ ، ١٨٩ ، راجع أيضاً :

Gibb, H. , The Caliphate and The Arab States, in Setton K . L. , Vol. I , p.

89.

(4) Fulcher of Charters , Op. Cit., p. 144 .

(5) Daniel The Russian , Op. Cit., p. 49.

إلى ما أشار إليه الرحالة فيتلس من أن كثيراً من السريان يعيشون في صغر والجهات المجاورة لها^(١). أما اليهود فلم نعثر في المصادر خلال الفترة السابقة لقدم الصليبيين مباشرة على ما يفيد وجودهم في بلاد الخليل، إلا أن هناك إشارات تفيد وجود أعداد قليلة للغاية منهم في المدينة إبان الحكم الصليبي. إذ تشير إحدى الوثائق اليهودية المنشورة إلى وجود شخص يدعى يوسف بن سعدية في الخليل وكان له شقيق يدعى إبراهيم كان يسكن القدس^(٢). ولما كان الرحالة اليهودي فتاحية الراتسبونى قد زار القدس فيما بين عامى ١١٧٤ - ١١٨٧ م / ٥٧٠ - ٥٨٣ هـ وقابل إبراهيم هذا وأشار إليه في كتاباته^(٣)، فيصبح من الواضح أن يوسف بن سعدية كان يسكن الخليل وربما معه أسرته إبان الوجود الصليبي في المدينة، أما بيت جبرين فكانت تضم قليلاً من اليهود في نفس الفترة^(٤). ونستخلص من المعلومات السابقة أن المجتمع الخليلي كان يعد من المجتمعات غير المتجانسة إلى حد ما، وكان عنصر البدو وهو الغالب، وهذا يعنى أيضاً أن الحرفة السائدة في المنطقة وهى الرعى أولاً والزراعة ثانياً هما اللتان أضفتا على هذا المجتمع صبغته المميزة.

هكذا تم التعرف على بلاد الخليل من حيث المسمى وجغرافية المنطقة وبقاعها المختلفة والتركيب السكانى بها مما يعد تقديماً وافياً لدراسة تاريخية ترتكن بشكل أساسى على ما يتم عرضه، ولكن قبل الخوض في الدراسة التاريخية يجب الإشارة في هذا الموضوع لأمر يعتبر من الحيوية بمكان، إذ يشكل محورياً أساسياً في دراسة التاريخ السياسى والحضارى لبلاد الخليل، ألا وهو مدى ارتباط تاريخ المدينة بشخص إبراهيم (عليه السلام). فالمعروف أن عصر الحروب الصليبية بل والعصور الوسطى عامة قد أطلق عليها عصور الإيمان حيث لعب الدين دوراً أساسياً في تحريك الأحداث، وفيما يتعلق بالخليل نجد نصاً يعكس ذلك الفكر بوضوح شديد حيث يذكر النص عن المدينة «ولولا مكان الخليل (عليه السلام) بها لم تذكر فيما يذكر وإنما عادت عليها بركات ذلك المثوى الكريم، فباهت الاقطار بفضلها، وتأهلت الأمصار بأهلها»^(٥).

(1) Fetellus, Op. Cit., pp. 11 - 12 .

(٢) قام أحد الباحثين اليهود بنشر عدد من الوثائق التى تغلب عليها الطابع الاجتماعى والاقتصادى فى حياة اليهود اليومية ومعاملاتهم مع المسلمين باللغة العبرية فى كتاب من جزئين ، وذلك إبان فترة حكم الفاطميين . راجع هذه الوثيقة فى :

Mann J. , The Jewish in Egypt and in palestine under the Fatimid, first Publication, London, 1922, Vol. II, pp. 223 - 224 .

(3) Petachia of Ratisbon ; The Itinerary of Rabbi Petachia, 1174 - 1187 A. D., in : Jewish Travellers, ed., Adler, E. N. London, 1930, p. 88.

(٤) بنيامين التطيلي : الرحلة ، ص ١٠٦ .

(٥) العمري : الدولة المملوكية الاولى ، ص ٢١١ .

ولعل من المناسب تقديم نبذة عن مدى ارتباط قدسية بلاد الخليل بشخص النبی إبراهيم (عليه السلام) مما جعلها تقترن باسمه، فهذه البلاد تحمل أعطر الذكريات لدى معظم البشر فقد سكن (عليه السلام) وكل من إسحاق ويعقوب (عليهما السلام) الخليل، وفيها اشترى (عليه السلام) مغارة المكفيلة Makphila وهو اسم سام يعنى (مزدوج) - وتقع فى حقل بالخليل - لتكون مقبرة لأسرته. وبالفعل تم دفنه (عليه السلام) وسارة وإسحاق ورفقة ويعقوب ولائقة فيها^(١)، وهذه المغارة تعد جزءاً أساسياً من مبنى الحرم الإبراهيمى وهى تقع أسفله. وهناك بقاع أخرى داخل منطقة الخليل تؤكد ارتباطها بشخص النبی إبراهيم (عليه السلام) أيضاً مثل بلدة «قط»^(٢) فى الشمال التى أقام بها لفترة.

والحرم الشريف يعد أهم المعالم العمرانية فى الخليل حيث وصف بالقوة والضخامة والبهاء، كما شهد تطورات مهمة على مر العصور، وهو يشبه فى بنائه الحرم الشريف فى بيت المقدس^(٣). وتخلص إحدى الدراسات الحديثة إلى التأكيد على أن بناء الحرم يرجع إلى عهد الحاكم الرومانى هيرودس الكبير Le Grand Herodes (٣٧ - ٤ ق م)^(٤). وفى عهد الإمبراطور الرومانى جىستيان Justenian (٥٢٧ - ٥٦٥ م) أعد مبنى الحرم كى يصبح كنيسة^(٥)، وحينما غزا الفرس فلسطين عام ٦١٤ م قاموا

(١) العهد القديم: سفر التكوين، ٩:٢٥، ١٩:٢٣، ٤٩، ٣١، ٣١:٥٠، وهناك اتفاق بين المؤرخين المعاصرين على أن الأنبياء دفنوا فى مغارة الخليل وهم يؤصلون الاعتقاد فى ذلك حتى عصر الحروب الصليبية راجع منهم :

Anonymus, Itinera Hierosolomitana Crucesignatorum, Jerusalem 1978, Vol. I, pp. 333 - 334 , Anonymus, Jerusalem pilgramage 1099 - 1185, ed. Wilkinson, J., and others , London, 1988, p.89.

ومن المصادر الإسلامية راجع المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ١٧٢؛ الهروى: المصدر السابق، ص ٢٩ - ٣١.

(٢) الطبرى: المصدر السابق، ج ١، ص ٣١١؛ ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٧٣؛ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١، ص ١٠٤.

(٣) المقدسى: المصدر السابق، ص ١٧٢؛ ناصر خسرو: المصدر السابق، ص ٣٣.

Saewulf, Op. Cit., p. 24; Felix Fabri, Op. Cit, pp. 108 - 110.

عن الشكل العام وموقع الحرم الإبراهيمى. انظر: شكل رقم (١).

(4) Chen, D. , Measuring the cave of Abraham in Hebron in : Liber anvus studii Biblici Franciscani, Vol. XV, 1987, p. 297.

أكدت المقاييس والإثباتات العلمية التى قام بها هذا الباحث أن ما اعتقده المؤرخون القدماء والحديثون صحيح فيما يخص أن مبنى الحرم قد تم بناؤه فى عهد هيرودوس، ودليله فى ذلك أساليب العمارة فيه، وعن نسبوا المبنى إلى العصر الهيرودوسى:

Canonici Hebronensis, Tractatus de invention Sanctorum Patriarcharum (Abraham, Ysaace at Jacob) en R.H.C.H.OCC., Tome V, Paris, 1869, p. 309, Benvinisti, M., Op. Cit., p. 161.

(5) Arculfus, The Pilgrimage of Arculfus, p. 15, Cf. also., Vigouroux, F, Hebron, Col. 559.

بتخريبها ، وبقيت كذلك حتى الفتح الإسلامي ^(١) ، ويبدو أن الخراب كان واسع النطاق حتى أن المصادر ظلت فترة من الزمن لا تشير إلى الحرم .

وفى مرحلة تالية اقترن تاريخ الخليل بشخص الرسول محمد ﷺ فقد تمكن المسلمون من فتحها إثر الانتصار على الروم فى معركة أجنادين يوليو ٦٣٦م/ جمادى الأولى ١٣هـ ^(٢) . وأجنادين إحدى بقاع بلاد الخليل إذ تقع فيما بين بلدتي الرملة والخليل وبالتحديد عند قرية عجور غربى المدينة ^(٣) . ومن أهم مايمكن تسجيله فى هذا الموقف أن اليهود أبدوا تعاونًا مع المسلمين حين الفتح ^(٤) . وبصفة عامة شغلت المصادر المختلفة عن التعرض لأحداث سقوط الخليل بما يجرى من وقائع بالنسبة لكبريات القرى والمدن الفلسطينية مثل بيت المقدس . وما لبثت أن حظيت الخليل بمكانة وشرف عظيمين رفعا كثيراً من شأن تاريخها السياسى والحضارى . إذ كان الرسول محمد ﷺ قد أيقن بضم هذه الديار إلى الدولة الإسلامية حتى أنه أقطعها قبل وفاته إلى أحد الصحابة وهو "تميم بن أوس الدارى" ^(٥) قبل أن تفتح ، على أن يظل هذا الإقطاع فى أسرته وأعقاب

(1) Aubert, R., Dictionnaire d'Historia et de Geographie ecclsiatique Tome VI, Paris 1990, p. 715.

انظر أيضاً : بطرس عبد الملك وآخرون ، قاموس الكتاب المقدس ، مادة مكيفة .
(٢) تعددت الروايات حول معركة أجنادين ، ولمعرفة المزيد راجع : البلاذرى : فتوح البلدان ، بيروت ١٩٥٧م ، ج ٢ ، ص ١٥٧ - ١٧٦ ؛ الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ص ١٥٦ - ١٦١ ؛ ابن عساکر : تاريخ دمشق الكبير ، بيروت ، ١٣٩٩هـ . / ١٩٧٩م . ، ج ١ ، ص ١٤٤ ؛ والجدير بالذكر أن عمرو بن العاص قد فتح بعد المعركة مدن غزة وبسطة ونابلس والدوينى وعمواس وبيت جبرين . انظر البلاذرى : فتوح البلدان ، ج ٢ ، ص ١٨٨ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ ، ٤٩٩ ، ٥٦١ .

(٣) البكرى : معجم ما استعجم ، ج ١ ، ص ١١٢ ؛ مصطفى الدباغ : المرجع السابق ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ٢٧٦ ، ويحدد لنا أحد الباحثين المتخصصين موقع أجنادين بأنه يطابق موقع بيت جبرين ذاتها ، لمعرفة المزيد راجع :

Dussaud; R., Topographie, bistorique de lasyrie, Antique et Medievale, Paris, 1927, p. 402.

(٤) الطبرى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٩ - ١٦٠ ، راجع أيضاً :
Canonici hebronensis, Op. Cit., p. 305; Aubert, R., dictionnecire, D'hisloire de geographie , Col. 716.

(٥) ينتسب الصحابى الجليل تميم إلى قبيلة التميميين العربية الذين سكنوا الخليل قبيل الإسلام وكان يعمل تاجراً للزيوت ، قدم فى صحبة من الدارين إلى مكة بعد إسلامهم . ومن آثاره (رضى الله عنه) صنعه منبر مسجد الرسول ﷺ . كما أهداه فرساً استخدم فى الغزوات ، وكان تميم أحد الذين جمعوا القرآن الكريم على عهد النبى ﷺ ، كما كان يقوم مقام النبى ﷺ فى إمامة المسلمين فى الصلاة ، كما كان يصحبه وغزا معه ولم يزل معه فى المدينة حتى انتقل تميم إلى الشام أثناء خلافة عثمان بن عفان ، وكان يكنى بأبى رقة . وكان الصحابى الجليل قد توجه إلى الرسول ﷺ قائلاً : "إن لى جيرة من الروم بفلسطين لهم قرية يقال لها حبرى وأخرى يقال لها بيت عينون ، فإن فتح عليك الله فهما لى . قال هما لك وكتب كتاباً بذلك" . راجع ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ٢٣٤ ، ٢٤٩ ، ٢٦٧ ، ٤٩٠ ، ج ٢ ، ص ٣٥٥ ، ج ٥ ، ص ٢٦ ، ج ٧ ، ص ٤٠٨ ؛ راجع أيضاً : المقرئى : ضوء السارى فى معرفة خبر تميم الدارى ، ص ٣٥ - ٣٧ ، ٥٣ - ٧٠ ؛ الفلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ١١٨ - ١٢٢ .

من بعده أباد الأبدین «فمن آذاهم فيه آذاه الله». وقد تعددت الروايات حول هذا الأمر إلا أنها اتفقت جميعاً على حقيقة منح الرسول (ﷺ) بلاد الخليل إلى الدارين كإقطاع^(١). وحينما نصح الفتح الإسلامي في أن يشمل أراضي الخليل جدد الخليفة أبو بكر الصديق عهد رسول الله (ﷺ) للدارين وكتب لهم عهداً جديداً بنفس المعنى، وأوكل لقائده في الشام أبي عبيدة بن الجراح تنفيذه^(٢). وقد خصص المؤرخ المقرئ كتاباً كاملاً تحت اسم «ضوء السارى في معرفة خبر تميم الدارى» تناول فيه بالتفصيل الجوانب المختلفة حول إقطاع تميم الدارى في دراسة دقيقة قائمة على الفحص والتحليل مستنداً إلى كثير من الأحاديث الشريفة والروايات الموثوق بها عاملاً فيها عقله، وقد خلص فيه إلى إثبات صحة هذا الإقطاع.

والباحث ينأى عن المناقشات التى دارت حول وثيقة تميم الدارى من قبل المؤرخين المعاصرين والمتأخرين عنهم والمحدثين، فهى ليست من صميم دراسته غير أنه ما من شك أن لهذا الأمر أهميته القصوى بالنسبة لتاريخ الخليل وأثره فيها بتمييزها بهذا الوضع الفريد، وهو تكوين إقطاع إسلامى مبكر منذ فجر الدولة الإسلامية، وهذا يجعل الباحث يسعى إلى محاولة إزاحة الغموض عن هذا الوضع بالاستعانة بما ورد بالمصادر، ويلخص دوافعه في رغبة الرسول (ﷺ) في أن يسير تميم الدارى ومن يأتى خلفه سيرة إبراهيم (عليه السلام)^(٣)، وهى إكرام الضيوف بإطعامهم في بلدة الخليل، وهذا لا يتأتى إلا بتحديد المسؤولية على قوم بعينهم حتى يتمكنوا من توفير الأموال اللازمة من دخل الإقطاع، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى حتى يتمكنوا من خدمة الحرم الإبراهيمى وزواره، وإدارة شؤنه.

ومهما يكن من أمر فمند ذلك الوقت أخذت منطقة الخليل تسهم في الأحداث التى وقعت في الدولة الإسلامية وفي تسطير تاريخها العريق طيلة القرون الهجرية الأولى، إذ نلاحظ أن مبنى الحرم الإبراهيمى قد تحول إلى مسجد جامع بعد اعتناق الأهالى الإسلام، وكانت تقام به صلوات الجمعة. ومالبثت المدينة أن دانت بالتبعية

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٧٦ ، وقد رأى عدد من الرحالة المسلمين بأنفسهم عهد رسول الله (ﷺ) ، مكتوباً ومحفوظاً في بيت الدارين ، ومنهم راجع : الصفدى . التذكرة ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٢١ تاريخ ، ج ٢٨ ، ورقة ٢٧ - ٢٨ ؛ العمرى : المصدر السابق ، ص ١٧٢ ؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢١٢ ، وقد كتب القلقشندى فصلاً طويلاً عن إقطاع تميم الدارى . راجعه في صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ١١٨ - ١٢١ .

(٢) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ١٢٠ ؛ المقرئ : المصدر السابق ، ص ٧١ - ٧٢ .

(٣) الصفدى : التذكرة ، مخطوط ، ج ٢٨ ، ورقة ٢٧ - ٢٨ . وهناك بحث متخصص يدور حول إقطاع تميم الدارى . انظر :

Krenkow, F., The Grante of Land by Mohammad to Tamim ad-Dari, in : Isalmica, London, 1925, vol. I, pp. 529 - 532 .

للأمويين حتى فبراير ٧٥٠ م/ جمادى الآخرة ١٣٢ هـ. وفي ظلهم تم تشييد سقف الحرم ومشاهد الأنبياء وزوجاتهم حماية للمقابر الحقيقية من عبث العابثين^(١). كما حرص الأمويون على إبقاء إقطاع تميم الدارى فى بلاد الخليل، إذ يُذكر أن الخليفة سليمان بن عبد الملك بن مروان كان يتجنب التعرض لممتلكات الدارين قائلًا: «أخاف أن تصيبنى دعوة رسول الله (ﷺ)»^(٢).

وفى العام المذكور خضعت منطقة الخليل للعباسيين، وتحت لوائهم دانت بالتبعية لكل من الطولونيين فى عام ٨٧٧ م / ٢٦٤ هـ، والأخشيديين فى عام ٩٢٥ م / ٣٢٣ هـ. ثم انتهى الأمر بأن قُطعت الخطبة فى مساجد جنوب الشام عن الخلفاء العباسيين وأقيمت للخلفاء الفاطميين فى مصر عام ٩٦٩ م./ ٣٥٨ هـ.^(٣) وقد نجح الفاطميون فى مد نفوذهم على فلسطين بسرعة؛ نظرا لأن الدعوة الشيعية كانت قد سبقت زحف جيوشهم نحو بلاد الشام. وفى أواخر العام التالى تمكن القائد الفاطمى جعفر بن فلاح الكتامى من فرض سيطرته على مجمل أرض فلسطين دون مقاومة تذكر، وذلك بعد الانتصارات التى حققها فى موقعتى الرملة وطبرية^(٤). وهذا يعنى أن الخليل قد أعلنت تبعيةها للدولة الفاطمية، وكان أبرز الأحداث الداخلية بالنسبة للخليل فى ظل حكمهم هى تلك التطورات العمرانية التى حدثت فى الحرم الإبراهيمى بأن توسع المسلمون فى نشاط الحرم فبنوا دوراً للزوار حول المبنى، فتداخلت النظم العمرانية فى بنائه^(٥). ثم تعرض المبنى لزلازل قوية عام ١٠١٦ م/ ٤٢٥ هـ مما أدى إلى تخريب بعض مكوناته^(٦).

(١) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ١٧٢ - ١٧٣.

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان، ج ٢، ص ١٧٦؛ البكرى: معجم ما استعجم، ج ٢، ص ٤٢٠. تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة الأموية لمدة تقل عن العامين والنصف عام (٧١٧ - ٧١٩ م / ٩٩ - ١٠١ هـ) واستخلف بعده عمر بن عبد العزيز وكان له نشاط عسكري واضح ضد الدولة البيزنطية، عرف بحبه للعلم والسيرة الطيبة. راجع: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٢٠ - ٤٢٧.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب فى تاريخ حلب، تحقيق سامى الدهان، دمشق ١٩٦٨م، ج ١، ص ٧٧، ١٠٠؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٣٨، ٥٤٢، ج ٨، ص ٣٦٦ - ٣٦٤؛ أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، القاهرة، ١٩٠٦م، ج ٢، ص ٤٨، ٨٢ - ٨٣.

(٤) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٥٩١؛ أبو الفدا: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٠٩. راجع أيضاً: محمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة، القاهرة، ١٣٧٦ هـ./ ١٩٥٧م.، ص ١٨ - ١٩؛ عمر كمال توفيق: مقدمات العدوان الصليبي على بلاد الشام، الإسكندرية ١٩٦٦م.، ص ٦٤؛ السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى، الإسكندرية ١٩٦٧م، ص ٤٧.

(٥) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ١٧٢.

(٦) ناصر خسرو: سفرنامه، ص ٣٣؛ الهروى: الإشارات، ص ٣٠، راجع أيضاً: عارف العارف: تاريخ القدس، ص ٦٣.

ظل الحرم الإبراهيمي يشع بنوره طيلة العصر الإسلامي السابق على قدوم الصليبيين . ويزعم الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي بأن الحرم كان معبداً لليهود إبان الحكم الفاطمي^(١). وهذا أمر مغلوط لا يمكن التبول به، فليس من المعقول أن يترك المسلمون رابع مقدساتهم الدينية لتكون معبداً لليهود في وقت كانت سيطرة المسلمين كاملة على المنطقة ، بيد أن من الواضح في ضوء ما ذكره بنيامين أنه ربما سمح المسلمون بوازع من تسامحهم الديني لليهود أن يقيموا شعائرهم الدينية في مكان ما من تلك التوسعات الكثيرة التي أضافوها في محيط الحرم الخارجي .

ومن أهم الملامح السياسية التي ميزت بلاد الخليل طيلة حوالى قرن من الزمان قبل الغزو الصليبي ما قامت به القبائل العربية (العربان) من دور في تحريك الأحداث في جنوبى الشام ؛ فمن الثابت أن القبائل العربية في بلاد الشام عامة تنزع بطبيعتها إلى الاستقلال؛ ولهذا كانت تنتهز الفرص المواتية للخروج على السلطة المركزية أيًا كانت . وحينما نجح الفاطميون في مد سلطانهم على جنوب فلسطين حيث الخليل على يد جعفر بن فلاح الكتامي، لم تجد القبائل العربية حرجاً من الاستعانة بأعداء الفاطميين والحصول على تأييدهم مما كان له أعمق الأثر فى زعزعة النفوذ الفاطمي في بلاد الشام من ناحية، وآثاره السلبية على الحياة الاقتصادية والعمرانية بسبب عدم الاستقرار من ناحية أخرى . وحتى حينما نجحت الحكومة المركزية فى الإمساك بزمام الأمور، ففوق الخليل بالقرب من الصحراء وضعها فى كثير من الأحيان عرضة لخطر البدو الداهم، وقد كانت الطرق المؤدية إلى الجنوب عبر المدينة مهددة بالهجوم، وقليلًا ما يستطيع المسافرون المرور منها فى سلام^(٢).

برز النشاط السياسى والعسكرى للبدو فى عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٩٩٨ - ١٠٢١م / ٣٨٩ - ٤٠٢ هـ) حيث ظهروا كقوة عسكرية يحسب حسابها^(٣). ويهمنا فى هذا الموضع قبائل بنى طيئ الذين أدوا دوراً سياسياً غير ثابت، إذ تأرجح

(١) بنيامين التطيلي: المصدر السابق، ص ١٠٦.

(٢) الواضح أن البدو الرحل فى الجهات القريبة من الخليل على مر العصور شكلوا تهديداً بالنسبة لها . عن ذلك راجع : المسبحى : أخبار مصر فى سنتين (٤١٤ - ٤١٥ هـ)، القاهرة ١٩٨٠م، ص ١٩٥ - ١٩٦، راجع أيضاً : Sharon, M., The Political Role of The Bedouins, in : Studies on Palestine during the otman period, ed. Maoz Moshe, Jerusalem, 1975, p. 67.

(3) Gibb, E., The Caliphate and The Arab States, p. 89, Cf. Also.

صلاح الدين محمد عبد القادر نوار: تاريخ الشام السياسى خلال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، رسالة دكتوراه لم تطبع بعد ، الإسكندرية ١٩٨٩م، ص ١٤٢ .

ولاؤهم بين الفاطميين وغيرهم من القوى المسيطرة على الشام الجنوبية، ولم يثبتوا على مبدأ الولاء أو العداء للفاطميين أو غيرهم من العناصر الحاكمة، ولذلك غدت المناطق الجنوبية من بلاد الشام مركزاً للانقلابات والثورات التي كانت تستخدم تحت زعامة شيوخ آل الجراح على الحاكم الفاطمي، حيث استفحل أمر القائد «المفرج بن دغفل بن الجراح الطائي» وجدد الثورة في الرملة على الخليفة الحاكم عام ١٠٠٨ م / ٣٩٨ هـ الأمر الذي كلف الفاطميين الكثير لإخمادها^(١). ولم يمض سوى أربعة أعوام حتى تمرد بنو الجراح من جديد على السلطة الفاطمية تحت قيادة حسان بن المفرج بن الجراح الذي بادر بالتحرك فهاجم جنوب الشام واستولى على معظمه حتى الفرما، واستمرت هذه الحركة لبنى الجراح مدة حوالى سنتين ونصف حتى يوليو ١٠١٣ م / محرم ٤٠٤ هـ وكانوا قد تمكنوا في تلك الفترة من إيقاع الهزيمة الثقيلة بالجيش الفاطمي^(٢). واستخدم الخليفة الحاكم وسائل عدة للقضاء على تلك الثورة؛ الحيلة تارة والأموال تارة، والقوة تارة أخرى حتى تمكن من القضاء عليها^(٣).

وفي عام ١٠٢٤ م / ٤١٤ هـ. تزعم حسان بن مفرج بن الجراح حلفاً للقبائل العربية في بلاد الشام، حرص من خلاله على أن يكون للطائيين السيطرة على المنطقة من الرملة حتى تخوم مصر^(٤)، فاستولى الطائيون على الرملة في ٦ أكتوبر ١٠٢٤ م / ٢٩ رجب ٤١٥ هـ، ثم بيت المقدس ومايليهما من الأراضي جنوباً^(٥). وعلى هذا اشتملت المنطقة المستقلة عن النفوذ الفاطمي على بلاد الخليل، ثم استولوا على بلدة أيلة^(٦) (العقبة حالياً) فتمكن الطائيون من التحكم في طرق تجارة القوافل بين الفاطميين

(١) بعد ثلاث ثورات لبنى طيئ أرسل الخليفة الفاطمي الحاكم حملة ضخمة بقيادة حبش بن محمد ابن الصمصامة فسار إلى الرملة واستولى عليها وأخضع ثوارها، وطارد المفرج بن الجراح حتى جبل طيئ ولمعرفة المزيد راجع ابن القلانسي: تاريخ دمشق، بيروت ١٩٨٣ م / ١٤٠٣ هـ، ص ٤٥، ٨٣ - ٨٤، راجع أيضاً: جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام، ص ٤٤.

(٢) يحيى الأنطاكي: تاريخ يحيى الأنطاكي، تحقيق لويس شيخو، بيروت ١٩٠٩ م، ص ٢٠٠ - ٢٠١، ٢٠٧؛ ظافر الأزدى: تاريخ الدول المنقطعة، مخطوط بدار الكتب المصرية، لوحة ٥٨ (ب)، ٥٩ (ب).

(٣) يحيى الأنطاكي: تاريخه، ص ٢٠١، ٢٠٧؛ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوط بدار الكتب، ج ١٩، ق ٥، لوحة ٦٥٤؛ المقرئ: اتعاظ الخفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، نشر جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٤٨ م، ج ٢، ص ٩٨، ١٠٥. راجع أيضاً: جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي، ص ٤٧.

(٤) يحيى الأنطاكي: تاريخه، ص ٢٤٤ - ٢٤٥؛ ابن التديم: زبدة الحلب، ج ١، ص ٢٦١؛ المقرئ: اتعاظ الخفاء، ج ٢، ص ١٤٧؛ راجع أيضاً: عارف العارف: تاريخ القدس، ص ٦٤ - ٦٥.

(٥) عن سقوط الرملة في يد الجراحين، راجع المسبكي: المصدر السابق، ص ١٦٦ - ١٦٨.

(٦) ذكرت أيلة في العهد القديم: خروج: ١٥: ٧، كثر تجارهم مهم على رأس خليج العقبة وبعد الفتح العربي للمدينة خضعت لإداريا لجند فلسطين. راجع: ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٥٧، وهي آخر الحجاز وأول الشام. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٥١.

من ناحية، وبين بلاد الشام والإمبراطورية البيزنطية من ناحية أخرى، فتعرضوا لها بالتهب والسلب، وقد شملت اعتداءاتهم طريق الحج مما ترتب عليه توقف حركة الحج الإسلامى لموسم عام ٤١٥ هـ / ١٠٢٥م للمغاربة والمصريين إلى الأراضى الحجازية من هذا الطريق، وقد ظلت الأوضاع على ماهى عليه من ثورة البدو وخروج الأجزاء الداخلية من فلسطين عن السيادة الفاطمية لعدة عقود برغم محاولات القضاء عليها^(١).

وحاول الفاطميون توطيد نفوذهم فى فلسطين وباقي الشام مرة أخرى ، فتمكن واليها أمير الجيوش بدر الجمالى الأرمنى^(٢) من توجيه ضربات متوالية لقبائل فلسطين من القيسيين والطائنين وغيرهم، ونجح فى إخماد الثورات وقهر حركة البدو عام ١٠٦٦م / ٤٥٨ هـ . ورغم الجهود الجبارة للوالى إلا أن البدو نشطوا من جديد وعصفوا بالنفوذ الفاطمى سنة ١٠٦٩ - ١٠٧٠م / ٤٦٢ هـ ولم يتبق بأيدى الفاطميين إلا عكا وصيدا وعسقلان^(٣).

وبينما أخذ النفوذ الفاطمى يتقلص على أيدى القبائل العربية فى فلسطين وباقي الشام، بدأت قوة أخرى فى الظهور كى تهدد نفوذهم بل وتقضى عليه ما أمكنها ذلك ، فبداية من أواسط القرن الحادى عشر الميلادى / أواسط القرن الخامس الهجرى أخذت قوة الأتراك السلاجقة فى الظهور فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى تحت قيادة طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجق (١٠٣٧ - ١٠٦٣م / ٤٢٨ - ٤٥٦ هـ) بأن زحفوا شرقاً «فأجفل الملوك من خوف إقدامهم وتنحوا من طريق ضرامهم، فما جاءوا إلى بلدة إلا ملكوا مالكمها» ودخلوا بلاد العراق ضمن مداخلوا من ديار وفرضوا حمايتهم على الخلافة العباسية فى بغداد ، ولم يتبق للخليفة العباسى سوى السلطة الشكلية فى

(١) السبى: أخبار مصر، ص ١٨٩، ١٩٥ - ١٩٦، ٢٠٤؛ راجع أيضاً: صلاح الدين محمد نوار: تاريخ الشام السياسى، ص ٢١١.

(٢) كان بدر الجمالى مملوكاً أرمينياً لأحد أمراء الشام ، وأخذ يترقى فى المناصب ثم ولى إمارة دمشق من قبل الخليفة الفاطمى المستنصر سنة ١٠٦٤م / ٤٥٦ هـ، ثم تقلد نيابة عكا سنة ١٠٦٨م / ٤٦٠ هـ، ثم وزارة مصر سنة ١٠٧٤م / ٥٦٦ هـ. راجع: ابن القلانسى: تاريخ دمشق، ص ٩٣، ١٥٤؛ وقد ذكره سبط بن الجوزى برسم « بدر بن عبد الله الأرمنى » راجع مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، مخطوط فى مكتبة بلدية إسكندرية رقم ٣٨٧٨ ب، ج ١٢، لوحة ١٩؛ كما ذكره الذهبى برسم « بدر الجمالى المستنصرى » نسبة إلى الخليفة الفاطمى المستنصر بالله. انظر: دول الإسلام، تحقيق فهم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، القاهرة ١٩٧٤م، ج ١، ص ٢٥١، راجع أيضاً: محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ١٠٧، ٣.

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر، ص ١٦؛ ابن القلانسى: تاريخ دمشق، ص ٩٣؛ الذهبى: تاريخ الإسلام، مخطوط، دار الكتب المصرية، ج ٣، لوحة ٣٨٣، ٣٨٦؛ راجع أيضاً: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الحرية الإسلامية فى مصر والشام، بيروت، ١٩٧٢م، ص ١٠٤.

البلاد^(١). ثم تدعم موقف السلاجقة عندما انتصروا فى عهد ألب أرسلان ثانى سلاطينهم فى موقعة (ملاذكرد) مانزكرت عام ١٠٧١ م / ٤٦٣ هـ على البيزنطيين وفيها حصدت زهرة فرسان البيزنطيين وأسر الإمبراطور رومانوس ديوجنيس Romanos Dewgones^(٢).

وقد ترتب على تزايد قوة السلاجقة وانتصاراتهم ما شجعهم على معاودة المحاولة فى فرض سلطانهم على بلاد الشام وفلسطين. فتمكن أنسى بن أوق السلجوقى أحد قادة ألب أرسلان - عرفه العرب باسم الأقيس - من التقدم متجهاً إلى فلسطين ففتح مدينة الرملة ثم حاصر مدينة بيت المقدس واستولى عليها فى يوليو ١٠٧١ م / شوال ٤٦٣ هـ، وقد شملت فتوحاته الأراضى المجاورة للمدينتين، إضافة إلى عدد من المدن الأخرى^(٣). وفى هذا الموضع نجد من المهم أن نشير إلى حقيقة روح التسامح الدينى التى تعامل بها السلاجقة مع النصارى المحليين بل والحجاج الزوار من أوروبا حيث ذكر المؤرخ القبطى ابن المفرج السكندرى مايفيد أن السلاجقة حينما استولوا على القدس « راعوا النصارى المقيمين فيها واستخدموا على عمالة البلد رجلاً نصرانياً يعقوبياً... وهو معونة لكل من يصل إلى القدس من النصارى من مصر وغيرها من الآفاق^(٤) ». وعلى الرغم من أن المصادر العربية لم تشر صراحة إلى قيام أنسى باجتياح الخليل وبيت جبرين إلا أنها

(١) البندارى الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، ١٩٨٠ م ، ص ٩ - ١٢ ؛ ابن العميد : تاريخ ابن العميد ، ليدن سنة ١٩٢٥ م ، ص ٢٦٧ .

(٢) عن هذه الموقعة راجع : البندارى الأصفهاني : المصدر السابق ، ص ٤٠ - ٤٤ ؛ ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ١٦٧ ؛ ابن الجوزي : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، الطبعة الأولى ، حيدر آباد ، ١٣٥٨ - ١٣٥٩ هـ ، ج ٩ ، ص ٢٦٠ ، ٢٦٢ .

Michel le Syrien, chronique de Michel le Syrien, ed. en Francais Par J. B. Chabot, Paris, 1905, Vol. III, pp. 169 - 170 , Cf. Also.; Oman, C. W., History of the Art of the War in the Middel Ages, New York, 1953, pp. 54 - 55, Ostrsgorsky, G., History of the Byzantine States, Tran. From the Original by John Hussey, Oxford, 1956, pp. 303 - 305 .

(٣) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ١٦٧ - ١٦٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٦٨ ؛ الذهبي : دول الإسلام ، ج ١ ، ص ٢٧٣ ؛ التويرى الكندى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، القاهرة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ج ٢٦ ، ص ٣١٦ ؛ انظر أيضاً : محمد كرد على : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٢٣٦ .

(٤) ابن مفرج الإسكندراني : سير البيعة المقدسة ، مخطوط دار الكتب المصرية تحت رقم ٤٦٣٤ ج ، ج ٣ ، مجلد ٢ ، ورقة ٢٢٩ .

أشارت إلى ذلك بشكل غير مباشر، إذ تذكر استيلاءه على مدن فلسطين عدا مدينة عسقلان^(١). وقد ترتب على تلك الفتوحات السلجوقية أن أصبحت دولتهم ممتدة بحيث اقترنت بتخومها من الدولة الفاطمية في مصر، فكان ذلك إيذاناً ببدء حلقة جديدة من الصراع بين القوتين.

وبعد استيلاء أئمز على فلسطين توجه إلى دمشق الفاطمية وحاصرها مدة تقارب خمس سنوات حتى إستسلمت له في ٣٠ يوليو ١٠٧٦م/ ٢٥ ذى القعدة ٤٦٨ هـ^(٢). وكان سقوط دمشق بمثابة ضربة قوية للنفوذ الفاطمي في بلاد الشام حيث أصبح السلاجقة هم المتحكمون في سياسة الشام وبخاصة في الجنوب، وبدأ ما يسمى بالعصر السلجوقي في تلك الجهات، وقد استمر هذا الوضع قائماً حتى مجيء الصليبيين^(٣). وعمل أئمز بعد ذلك على انتزاع بقية مدن الساحل الشامي. ولم يكن لدى الفاطميين ما يمكنهم من إيقاف الزحف السلجوقي. ومالبت أن انقطعت الدعوة الشيعية الفاطمية عن بلاد الشام بأكمله، ولم يتبق بأيديهم من مدن الساحل سوى تلك المدن القليلة الممتدة من عكا إلى عسقلان، وقد خرجت الأخيرة عن طاعة الفاطميين فيما بعد^(٤).

ومن الملاحظ أن غزو السلاجقة لجنوب فلسطين ودمشق قد هيا أمامهم الفرصة لتوجيه حملة ضد الخلافة الفاطمية في عقر دارها، وذلك في أواخر عام ١٠٧٦م/ ٤٦٩ هـ. بغرض القضاء عليها^(٥)، ورغم عدم استعداد قادة مصر لصد هذا الخطر إلا أن وزيرها بدر الجمالي أنزل هزيمة ثقيلة بجيش أئمز في يناير ١٠٧٧م/ رجب ٤٦٩ هـ^(٦). وقد شجعت هذه الهزيمة معظم مدن الشام الداخلية والساحلية على الخروج على طاعة أئمز وإعادة الخطبة للخليفة الفاطمي، ففي أثناء عودة أئمز مدحوراً في نفر قليل إلى الشام، ثار عليه السكان في مدينتي غزة والرملة وقتلوا الكثير من أنصاره داخل المدينتين، بل إنهم ألحقوا الهزيمة بأئمز نفسه واضطروه إلى الانسحاب متجهاً إلى دمشق^(٧). كما أعلنت بيت المقدس الثورة أيضاً على القائد السلجوقي فطرد

(١) الفارقي: تاريخ الفارقي، تحقيق بدوي عبد اللطيف، القاهرة ١٩٥٩م.، ص ١٩٢؛ ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٦٨؛ المقرئ: اتعاظ الخفاء، ج ٢، ص ٣١٧ - ٣١٨.

(٢) ابن القلائسي: تاريخ دمشق، ص ١٦٦، ١٧٤؛ ابن ميسر: أخبار مصر، ص ٢٤؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، بيروت، ١٨٩١م.، ص ١٩٢؛ العظمي: تاريخ العظمي، نشر كلود كاهين في:

Journal Asiatique, Vol. VII, Paris, 1938, p. 361.

(٣) صلاح محمد عبد القادر نوار: تاريخ الشام السياسي، ص ٤٢٩ - ٤٣١.

(٤) ابن مفرج: سير البيعة، ج ٣، مجلد ٢، ص ٢١٩؛ ابن ميسر: أخبار مصر، ص ٢٥.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ١٠٣ - ١٠٤؛ المقرئ: اتعاظ الخفاء، ج ٢، ص ٣١٧.

(٦) ابن القلائسي: تاريخ دمشق، ص ١٧٩ - ١٨٠؛ العظمي: تاريخه، ص ٣٦١ - ٣٦٢.

(٧) ابن القلائسي: تاريخ دمشق، ص ١٨١ - ١٨٢.

أهلها أنصار أئسز واستحلوا ممتلكاتهم^(١) . ومن ثم فإن هذه الثورات تدل على عدم ثبات النفوذ السلجوقي على الأقل في المنطقة الممتدة من بيت المقدس حتى الساحل عند الرملة وما يليها من أراضى جنوباً حيث بلاد الخليل . وفي المقابل نجد ذلك شاهداً على قوة الطائفة الشيعية في تلك البلاد ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أكدت هذه الأحداث على نزوع أهالي هذه المناطق التي يشكل العرب البدو غالبيتهم إلى الاستقلال عن أى قوة تفرض سلطانها عليهم حينما تتاح لهم الفرصة لذلك .

غير أن الأوضاع في الخليل وباقي فلسطين مالبثت أن تبدلت من جديد ؛ إذ تشير المصادر إلى أن أئسز تمكن من غزو بيت المقدس وردها للسلطة السلجوقية في ١٣ مايو ١٠٧٧م / ١٥ شوال ٤٦٩ هـ بعد أن أوقع بأهلها مذابح مروعة^(٢) ، كما استكمل غزوه للمدن التي كانت قد خرجت عن سلطته من قبل مثل الرملة وغزة وتمكن من استعادتهما^(٣) . وبذلك عادت القوتان السلجوقية والفاطمية فى مواجهة كل منهما الأخرى مرة أخرى ، ولم يمر سوى بضعة أشهر حتى حاول بدر الجمالى ضم دمشق من جديد، ولكن محاولته باءت بالفشل^(٤) .

وفي مطلع صيف عام ١٠٧٧م / ٤٧٠ هـ أقطع السلطان السلجوقي ملكشاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢م / ٤٦٤ - ٤٩٥ هـ) أخاه تاج الدولة تتش بلاد الشام فتوجه إلى دمشق وتخلص من أئسز وأمسك بزمام الأمور وأخذ يسعى إلى تكوين إمارة قوية شملت غالبية بلاد الشام والعراق^(٥)، وكان من الطبيعى أن تتصل حلقات الصراع مع الفاطميين في ظل وجود شخصية قوية كهذه، إذ يشير المؤرخ ابن ميسر إلى أن تتش قد قام بمطاردة الفاطميين الذين لم يتمكنوا إلا من الاستيلاء على أجزاء من أعمال فلسطين خلال حملتهم السابقة لضم الشام^(٦)، ولم يذعن بدر الجمالى - شخصية مصر القوية - لهذا الأمر فأخذ يتحسين الفرصة . وفي يونيو سنة ١٠٨٦م / ربيع الأول ٤٧٩ هـ توجه

(١) مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين الممالك ، ص ٢٢٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ١٠٤ ؛ الحموى : التاريخ المظفرى ، مخطوط بمحاضرة الإسكندرية ، ١٢٩٢ ب ، ورقة ١٧٧ ؛ مؤرخ مجهول : المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

Cf. also., Prower J., The Latin Kingdom of Jerusalem, p. 57.

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ١٠٤ .

(٤) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ١٨٣ .

(٥) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٨٤ ؛ العظمى : تاريخه ، ص ٣٦٢ ؛ راجع ترجمة تاج الدولة تتش في : ابن عساكر : التاريخ الكبير المعروف بتاريخ مدينة دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٣٢ م ، ج ٣ ، ص ٣٤٠ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٢٩٥ ؛ ابن رسول : نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون ، مخطوط بمكتبة الجامعة ، لوحة ٤٣ ب ؛ المقرئى : اتعاظ الخفا ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ .

(٦) ابن ميسر : المصدر السابق ، ص ٢٦ .

بحملة لاسترداد الشام، غير أنه فشل مرة أخرى في تحقيق هدفه فعاد بجيشه إلى مصر^(١). وفي تلك الأونة أقطع تنش أحد قادته، وهو ظهير الدين أرتق بن أكسب التركمانى مدينة بيت المقدس وجعله أميراً عليها^(٢).

ولكن ماذا عن الوضع السياسى والإدارى لمنطقة الخليل فى ظل السيادة السلجوقية الارتقية على بيت المقدس؟. فى الحقيقة لم تكشف المصادر عن ذلك، إذ كانت الخليل حتى آخر إشارة إلى وضعها الإدارى خاضعة لبيت المقدس^(٣)، كما أنها ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بها سياسياً ودينياً بوصفهما جارتين جمعتهما ظروف عديدة، علاوة على أن أمن القدس يعتمد بشكل واضح على مدى السيطرة على منطقة الخليل، ولذا فالأرجح أن منطقة الخليل قد دانت بالسيادة للأمير أرتق بن أكسب وإلى القدس السلجوقى، وبذلك تكون قد شاركت بيت المقدس فيما وقع بها من أحداث. ولما نجح الفاطميون فى حملتهم عام ١٠٨٩م/ ٤٨٢ هـ فى فرض سيادتهم من جديد على مدن السواحل الشامية من عسقلان جنوباً حتى طرابلس شمالاً بفضل أسطولهم القوى^(٤)، برزت بلاد الخليل مرة أخرى كم منطقة تخوم بين القوتين الفاطمية والسلجوقية. والجدير بالذكر أن الحملة الأخيرة تلك تعد رابع حملات بدر الجمالى ضد سلاجقة الشام.

ظل الموقف السياسى على هذا النحو فى بلاد الشام، وكانت أهم التطورات بعد ذلك أن تعرضت الإمارة السلجوقية هناك للضعف والتمزق حيث قتل تاج الدولة تنش أثناء صراعه على السلطة السلجوقية فى فارس، بينما اقتسم بلاد الشام بعد مصرعه ابنه اللذان تصارعا فيما بينهما للفوز بها حيث انقسمت إلى قسمين: إمارة حلب وأعمالها فى الشام يحكمها فخر الملوك رضوان (١٠٩٥-١١١٣م/ ٤٨٨-٥٠٧ هـ) وأتابكه^(٥) جناح الدولة بن ملاعب، وإمارة دمشق فى الجنوب، ويحكمها شمس الملوك دقاق (١٠٩٥-١١٠٤م/ ٤٨٨-٤٩٧ هـ) وأتابكه ظهير الدين طغتكين^(٦). وتشير المصادر إلى استمرار تبعية إمارة بيت المقدس لسلطة دقاق العليا فى دمشق، إذ انضم إليها للأمير

(١) العظمى: تاريخه، ص ٣٦٥؛ المقرئى: قطع تاريخية، مخطوط بمكتبة محافظة الإسكندرية، ورقة ٣٤٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ١٤٧؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ١، ص ١٩١، ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٢، ص ٩٦، ٩٨.

(٣) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ١٧٣.

(٤) العظمى: تاريخه، ص ٣٩٢؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، ١٩٢٩-١٩٤٣م، ج ٥، ص ١٢٨.

(٥) أتابك: لفظة تركية من مقطعين تعنى مقدم الجيش، وهذه الوظيفة تعد أعلى المناصب فى الدويلات التركية بعد السلطان أو الأمير. راجع

Grousset, R., Histoire des Croisades, Vol. I, p. 201.

(٦) ابن القلائسى: تاريخ دمشق، ص ٢١٤-٢١٥؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية فى الموصل، نشر عبد القادر طليمات، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ١٥؛ النويرى: نهاية الأرب، ج ٢٧، ص ٧٢.

دمشق في حروبه ضد أخيه رضوان صاحب حلب^(١). والواضح أن كلا الأخوين لم تكن لديهما القدرة السياسية أو العسكرية التي كانت لأبيهما والتي تمكنهما من مواجهة الأوضاع القلقة التي عاشتها بلاد الشام إبان فترة حكميهما. وما سبق عرضه فقد أصبح من الثابت أن الخليل شهدت شأنها شأن باقي بقاع فلسطين بل ومدن الساحل الشامي ذلك الصراع المتجدد بين القوتين الإسلاميتين التقليديتين: السلاجقة والفاطميين، من أجل السيطرة عليها.

وبينما كانت منطقة الشرق الأدنى الإسلامي بوجه عام، وبلاد الشام بوجه خاص تضطرم بتلك الأحداث والصراعات بين القوى الإسلامية العديدة كانت جيوش الحملة الصليبية الأولى التي بشر بها البابا أوربان الثاني Urban II (١٠٨٨ - ١٠٩٩ م / ٤٨١ - ٤٩٢ هـ) في خطبته الشهيرة بمدينة كليرمونت Cler Mont^(٢) تخترق آسيا الصغرى وتنزل هزائم متتالية بجيوش سلاجقة الروم في موقعتي نيقية^(٣) وضروليوم^(٤) (أسكى شهر) وهي الانتصارات التي فتحت الطريق أمامهم إلى شمال الشام متجهين إلى أنطاكية مفتاح سوريا الشمالية^(٥).

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢١٦؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٢، ص ١٢٤ - ١٢٥. راجع أيضاً محمد الشيخ: الجهاد المقدس، إسكندرية ١٩٧٤م، ص ٣٤، وقد بلغ الصراع بين الأخوين ذروته في معركة قنسرين في ٢٣ مارس ١٠٩٧ م / ٥ ربيع الآخر ٤٩٠ هـ، راجع ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢٣٣، ٢٤٦؛ الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ١٩.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن دور البابا أوربان الثاني في التبشير بالحركة الصليبية وطبيعة تلك الحركة وأسبابها وأهدافها. راجع:

- Fulcher of Chartres, Op. Cit., pp. 60 - 67, Robert le Moir, Historia Iherosolimitona, R. H.C.H., Occ., Vol. III, pp. 720, 729; Baudré de Doll, Historia de Peregrinatione Hierosolomitana, R.H.C.H., Occ., Vol. IV, pp. 70 - 74, Cf. also; Duggan, A., The Story of the Crusades (1095 - 1291), London, 1963, pp. 20 - 21, Praver, J., The Latin Kingdom, pp. 1 - 9, 482 - 488.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن تلك الموقعة. راجع: ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٢٤؛ العظمي: تاريخه، ص ٣٧٢؛ الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ٢؛ أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ٥، ص ١٤٩؛ وأيضاً جوزيف نسيم: العرب والروم واللأتين، طبعة أولى، إسكندرية، ١٩٦٣م، ص ١٢٩، وكذلك:

Michaud, J. F., History of the Crusades, London, 1852, Vol. I, pp. 100 - 102, Vol. III, p.364; Rice, P.S., Byzantian, London, 1969, p. 96; Mayer, H. E., The Crusades, Oxford, 1972, p. 50.

(٤) للاستزادة عن موقعة ضروليوم وأهم الآراء التي دارت حولها. راجع:

Riant, P. Inventaire, in , A.O.L., Paris 1881, Tome I, pp. 114 - 115, Cf. also., Oman, A., Art of War, Vol. p. 272, Roehricht, R., Geschichte des ersten Kreuzzuges, Innsbruck, 1901, pp. 26 - 29.

(5) Fulcher of chartres, Op. Cit., p.p. 92 - 93, Cf. also., Michaud, J. F., Op. Cit., Vol. I, pp. 126 - 128.

وبينما نالت هزائم السلاجقة الأتراك في شمال الشام أمام الصليبيين عزم الأفضل شاهنشاه الورير الفاطمي على استعادة السيادة الفاطمية على منطقى الوسط والجنوب، فخرج بنفسه لغزو إقليم فلسطين ومدنه المختلفة: القدس والخليل وغيرهما في يوليو ١٠٩٨م/ شعبان ٤٩١هـ. وكان بالقدس «الأميران سكمان وأيلغازي وجماعة من أقاربهما ورجالهما وجمع كثير من التركمان»، وعلى الرغم من محاولة الأفضل تسلم المدينة بالأمان إلا أن ابنى أرتق رفضا تسليمها، وأمام هذا الرفض اضطر إلى قتالهما، فحاصر المدينة وضيق عليهما الخناق لما يقرب من أربعين يوماً، وضرب أسوارها القوية بالمجانيق، وأخيراً سقطت بيت المقدس مرة أخرى في أيدي الفاطميين^(١). وهناك روايتان مختلفتان عن كيفية سقوطها، إذ تذكر معظم المصادر المعاصرة أنها سقطت نتيجة لطول الحصار وقوة ضربات المجانيق الفاطمية التي أدت إلى تهدم جانب من أحد أسوار المدينة المقدسة، فاضطر من بها إلى تسليمها للأفضل في ٢٧ أغسطس ١٠٩٨م/ ٢٥ رمضان ٤٩١هـ^(٢)، في حين ذكرت رواية أخرى متأخرة نسبياً أن الأفضل تسلم المدينة المقدسة نتيجة خيانة بعض أهلها الذين تواطؤوا معه على فتح أبوابها بعد أن أمنهم، وقاموا بالفعل بفتح أبوابها فدخلها، مما اضطر سكمان وأيلغازي إلى الاستسلام له^(٣).

والذى يجب تحريه في هذا الموضوع هو ماذا عن الغزو الفاطمي لبقية مدن فلسطين وبخاصة الخليل؟ فكعادة المصادر بالنسبة للمدينة والمنطقة المجاورة لها فهي ضئيلة بالمعلومات بل معدومة بخصوص هذا الأمر. ولكن يفهم من النهج الذى اتخذه الأفضل - كما رأينا - أثناء عملية ضم بيت المقدس أنه لم يستخدم العنف إلا مضطراً، ويشهد على ذلك طول مدة الحصار (أربعين يوماً) أو أنه ربما استخدم الحيلة بما اعتبرتها بعض المصادر خيانة داخل المدينة لتسليمها إليه تفادياً للقتال، وإذا ما سلمنا بذلك فيعد طبيعياً أن تكون الخليل قد سقطت بسهولة في يد الأفضل بدون قتال، وخاصة أنها لم تكن محمية إلا طبيعياً، وهذا لا يكفي للصدود وقتاً طويلاً، وإذا كان قد حدث غير ذلك من حصار أو قتال لذكرته المصادر ولو عرضاً. كما أن هذا يعنى أن المدينة قد بقيت على حالها دون أن تُمس من الناحيتين السكانية والعمرانية إبان الحكم الفاطمي حتى الغزو الصليبي.

(١) ابن الفلاس: تاريخ دمشق، ص ٢٢ - ٢٢١؛ العظمى: تاريخه، ص ٣٧٣؛ الأزدي: أخبار الدول المنقطعة، مخطوط دار الكتب المصرية، لوحة ١٧٤؛ الفريزي: اتعاظ الخفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخفاء، تحقيق محمد حلمي أحمد، القاهرة، ١٩٧٣م، ج ٣، ص ٢٢.

(٢) ابن الفلاس: تاريخ دمشق، ص ٢٢١؛ العظمى: تاريخه، ص ٣٧٣؛ مؤرخ شامي مجهول: السنين الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، نشر كلود كاهين في B.E.O. باريس، ١٩٣٤م، ج ٧، ٨، ص ١١٥؛ الأزدي: أخبار الدول المنقطعة، مخطوط، لوحة ٧٤.

William of Tyre, Op. Cit., Vol. I, p. 333.

(٣) أبو النحاس: انجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٥٩.

وكيفما كان الأمر، فبعد دخول الأفضل القدس واستسلام ابنى أرتق له أكرم وفادتهما وخلع عليهما وأخلى سبيلهما، وسمح لهما بالانسحاب ورجلها إلى دمشق^(١). ثم قام الأفضل بإصلاح أسوار المدينة واستناب عليها قبل مغادرتها رجلاً يُعرف بافتخار الدولة^(٢). ومن المعتقد أنه لم يفت الأفضل تحصين المدن الفلسطينية الأخرى استعداداً لمواجهة الخطر الصليبي القادم من جهة الشمال. حيث كانت طلائعهم قد وصلت أمام أسوار أنطاكية وضربوا الحصار حولها تمهيداً لإسقاطها وذلك في الثاني من أكتوبر ١٠٩٨م/ الثاني من ذى القعدة ٤٩١هـ^(٣).

وبنظرة شاملة على الواقع السياسى فى الشام ثبت أنه مع حلول عام ١٠٩٩م/ ٤٩٢هـ تفتتت البلاد إلى وحدات سياسية تقاسمتها القوى الشيعية ممثلة فى الخلافة الفاطمية التى سيطرت على فلسطين وجنوبى الشام ومدن الساحل، والقوى السنية ممثلة فى سلاجقة الشام الذين كانوا يسيطرون حتى وقت قريب على وسط الشام وشماله، وقامت بينهم الحروب الأهلية^(٤). ويضاف إلى ذلك القوى العربية التى أقامت لنفسها إمارات مستقلة من الناحية الفعلية مثل إمارة بنى عمار فى طرابلس وبنى منقذ فى شيزر وغيرها^(٥). وتأرجحت هذه القوى فى ولائها بين الفاطميين الشيعة والسلاجقة السنة^(٦). ولاشك أن انقسام الشام على هذا النحو فى الوقت الذى شق فيه الصليبيون طريقهم إلى الشرق الإسلامى كان من العوامل الرئيسة التى ساعدت الصليبيين فى تحقيق أطماعهم وانتزاع الشام بأكمله من أيدي السلاجقة والفاطميين وإسقاط مدن الساحل الواحدة تلو الأخرى، وقد أكدت هذه الحقيقة المصادر الإسلامية والصليبية معاً.

(١) ابن القلائسى : تاريخ دمشق ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٨ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٩١ . والجدير بالذكر أنه بعد وصول ابنى أرتق دمشق توجهوا للحاق ببنى عمومتهم فى إقليم ديار بكر حيث كونا هناك دولة صغيرة كثيراً ما سمعنا عنها فى تاريخ الجهاد المقدس ضد الصليبيين . كما قامت بدور خطير فى تاريخ العلاقات بين دول المنطقة . للمزيد راجع : عماد الدين خليل : صفحات مجهولة من تاريخ الغزو التترى فى ديار بكر (دور الأراقة) ، مجلة المؤرخ العربى ، بغداد ١٩٧٩م ، عدد ١١ ، ص ١٥٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٨ .

(3) Fulcher of Chartres, Op. Cit., pp. 99 - 100.

ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٣١ ، وللتعرف على أحداث حصار أنطاكية . انظر : حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون (١١٧١ - ١٢٦٨م) . / ٥٦٧ - ٦٦٦هـ . الطبعة الأولى ، الإسكندرية ، ١٩٨٩م . ص ١١٤ - ١٢٢ .

(4) Cahen, C., La Syrie du Nord , p. 180 ; Boase, Kingdoms and Strong Holds of the Crusades, London, 1971, p. 18; Fink, H., The Foundation of the Latin States, in Setton, K.L., Vol. I, p.370.

(٥) مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المالك ، ص ٢٣٦ .

(٦) صلاح الدين محمد عبد القادر نوار : تاريخ الشام السياسى ، ص ٥٥٤ .

تأسيس إقطاعية الخليل

وحكامها الصليبيون

(١٠٩٩ - ١١٨٧ م / ٤٩٢ - ٥٨٣ هـ)



الفصل الثاني

■ الغزو الصليبي لمنطقة الخليل والظروف المحيطة به.

■ إقطاع الخليل وقلعتها إلى جراردى أفنس (١٠٩٩ - ١١٠٠ م / ٤٩٣ هـ).

■ علاقة جلدمار كارينل بالملك بلدوين الأول والتوسع حول الخليل.

■ الخليل وحكامها الصليبيون ١١٠٢ - ١١١٥ م / ٤٩٥ - ٥٠٩ هـ. وجود فرى

■ سيد برج داود. هيودى سانت أبراهام الأول. روجردى صيفا.

■ جوتيه الحمدي.

■ بلدوين دى سانت أبراهام (١١١٥ - ١١٣٦ م / ٥٠٩ - ٥٣١ هـ). وتبلور

■ النظم الداخلية.

■ تقييم سياسة تشتيت الممتلكات فى إقطاعية الخليل فى عهد

■ حاكمها هيودى سانت أبراهام الثانى (١١٣٦ - ١١٤٩ م / ٥٣١ هـ).

■ (٥٤٤ هـ).

■ ارتباط الوضع الإقطاعى بشرقى الأردن.

■ بروز آل همفرى على رأس الحكم فى الخليل وتتبع فترات حكم

■ أفرادها.

■ اتحاد الخليل إقطاعيا مع شرقى الأردن وفترة حكم رينودى شاتيو.

■ نهاية الحكم الصليبي فى الخليل.

■ حدود إقطاعية الخليل الصليبية.

قدمت في الفصل السابق تعريفاً لبلاد الخليل ولجوانبها المختلفة؛ المسمى، جغرافية المكان، وتعريفاً بأهم المدن والقرى والبقاع فيها، وأتبع ذلك بدراسة مختصرة للتركيب السكاني في المنطقة، ثم تعرضت لارتباطها بالنبيين إبراهيم ومحمد (صلى الله عليهما وسلم)، وكان من اللازم أن يشمل الفصل تمهيداً تاريخياً مع التركيز بعض الشيء على الأحداث السابقة للغزو الصليبي لبلاد الشام، حيث أشرت إلى اضمحلال الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية في القاهرة وتنازعهما وانقسام السلاجقة على أنفسهم وقيام الحروب بينهما كما أشرت إلى سقوط بيت المقدس أخيراً في يد الوزير الأفضل شاهنشاه وعودة بلاد الخليل إلى حوزة الفاطميين متتهزين فرصة زحف الصليبيين على الممتلكات السلجوقية في شمالي الشام.

كان الهدف الظاهري من غزو الصليبيين لبلاد الشام هو الاستيلاء على مدينة بيت المقدس ومن ثم كان عليهم أن يمروا بالعديد من البلاد والأصقاع خلال زحفهم براً قادمين من الشمال، فبذلوا من الأرواح والجهد والمال الكثير لبلوغ هذه الغاية، وكانت أولى ثمار حملتهم الاستيلاء على مدينة أنطاكية، وقد ظهر في المرحلة التالية جودفري دي بوايون Goodfrey de Bouillon دوق اللورين السفلى بوصفه أبرز القادة الصليبيين الذين واصلوا زحفهم فانتهى بهم الأمر إلى الاستيلاء على سواحل بلاد الشام^(١) حيث مروا بظهير مدن طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وحيفا وعكا وقيسارية، وبالقرب منها احتفل الصليبيون بعيد العنصرة في التاسع والعشرين من مايو ١٠٩٩م/ السادس من رجب ٤٩٢هـ^(٢) ثم واصل الجيش الصليبي تحت قيادة جودفري زحفه جنوباً حتى أرسوف، ومنها توغل نحو الداخل فوصل في الثالث من يونيو / الحادي عشر من رجب من العام نفسه إلى الرملة ثم إلى مدينة اللد المجاورة، وتمكنوا من الاستيلاء على المدينتين^(٣). وبلاستيلاء على الرملة أصبح الطريق أمام الصليبيين مفتوحاً إلى بيت المقدس^(٤).

وصل الجيش الصليبي خارج أسوار بيت المقدس في السادس من يونيو ١٠٩٩م / الرابع عشر من رجب ٤٩٢هـ . تحت قيادة جودفري الذي قام بتقسيم قواته وأحكم

(1) Raimond d'Agiles, *Historia Francorum qui Ceperunt Jerusalem*, ed. in R. H. C. H., Occ. Tome III, Paris 1866, p. 273

انظر أيضاً : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٥

(2) Raimond d'Agiles, *Op. Cit.*, P. 297, Fulcher of Chartres, *Op. Cit.*, PP. 98 - 100 . 111 , 115 , 119.

انظر أيضاً : المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشي ، القاهرة ١٩٥٨م ، ص ٦٩ - ٧٠ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥ - ٣٨٣ .

(٣) المؤرخ المجهول : المصدر السابق ، ص ١٠٤ - ١٠٥ ؛ راجع أيضاً :

Raimond d'Agiles, *Op. Cit.*, P.P. 291 - 292

(٤) السلامي : مختصر التواريخ ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٠٥١ ، ١٤٣٥ تاريخ ، ورقة

الحصار حول المدينة ونظم الهجوم عليها وأصدر أوامره إلى القائد الصليبي تانكرد Tancred^(١) (توفي عام ١١١٢م/ ٥٠٦ هـ) بالتوجه إلى بيت لحم التي تمكن من دخولها وسط ترحاب أهلها، وكان أغلبهم من المسيحيين^(٢).

وبعد عدة محاولات مستميتة من الصليبيين سقطت مدينة بيت المقدس في أيديهم في الخامس عشر من يوليو ١٠٩٩ م/ الثالث والعشرين من شعبان ٤٩٢ هـ. بعد حصار يقارب الأربعين يوماً رغم استبسال الحامية الفاطمية وإلى المدينة اقتنار الدولة^(٣) ولقيت المدينة مصيراً مظلماً إذ ارتكب الصليبيون وأعدائهم الجنوبيون داخلها مذبحة مروعة لم يسلم منها إلا هالي . وقد أفاضت المصادر المعاصرة في وصفها^(٤) ولم يكن القادة المسلمون على مستوى المسئولية في مواجهة الخطر الصليبي الداهم على بلاد الشام وبيت المقدس ، ونلمس ذلك في رد فعل الخليفة العباسي «المستظهر» عندما اكتفى «بندب الفقهاء والعلماء للخروج للبلاد ليحرضوا الملوك وسائر الخلق على الجهاد فساروا في سائر البلاد فلم يفد ذلك منهم»^(٥) ، ولم يستجب لدعوة الجهاد أى من القادة المسلمين في ذلك الوقت إذ اختلف السلاطين . . فتمكن الفرنج من البلاد^(٦).

كان أول ما عُنِيَ به الصليبيون بعد الاستيلاء على بيت المقدس هو تنظيم الأمور الخاصة بحكم البلاد التي بأيديهم، فاجتمع قادتهم بعد أسبوع واحد في القدس وكان من أهم القرارات التي توصلوا إليها انتخاب الدوق جودفري حاميا للضريح المقدس^(٧). وكذلك تم الاتفاق على السعى إلى ضم المزيد من ريف الأراضي المقدسة والعمل على حمايته^(٨) تدعيماً للموقف العسكري والاقتصادي، ولتحقيق هذه الخطة كان على قادة الصليبيين توجيه غزوهم في اتجاهين رئيسيين: الأول جهة

(1) Raimond d'Agiles, Op. Cit., P. 292, Fulcher of Chartres, P. 115, William of Tyre, Op. Cit., Vol I, P.P. 336 - 342.

(2) Raimond d'Agiles, Op. Cit., P. 292, Albert d'Aix Op. Cit , 463, Fulcher of Chartres, Op. Cit., P.P. 115 - 116, William of Tyre, Op. Cit., Vol. I, P.P. 336 - 337.

(٣) ابن القلائس : تاريخ دمشق ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ١٧٨ .

(٤) لعل أهم من وُصِفَ وحشية الصليبيين بعد الاستيلاء على القدس ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١. ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٥) ابن الجوزي : ملخص تاريخ الإسلام ، ورقة ٤٨٦ .

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج١٠ ، ص ٢٨٤ .

(7) Raimond d'Agiles, Op. Cit. , P.P. 301 - 302, William of Tyre , Op. Cit., Vol. I, P. 391.

8) Raimond d'Agiles , Op. Cit., P. 302.

الشمال حيث إقليم الخليل، والثاني جهة الجنوب حيث هضبة جنوب فلسطين بما تضمه من بلاد الخليل.

ويرى المؤرخ الصليبي ريموند داجيل عن سيده ريموند الصنجيلي Raimond de San-Giel (وهو من كبار القادة الصليبيين) الذي شارك في الأحداث أنه تمكن من الاستيلاء على برج داود^(١) من المسلمين. وحاول جودفري إقناعه بالتخلي له عن البرج غير أن ريموند أصر على الاحتفاظ به وسلمه إلى أحد رجال الدين لحفظه معلناً بذلك أنه لن يرحل إلى بلاده إلا بحلول عيد الفصح، بيد أن جودفري قام بالاستيلاء على برج داود الأمر الذي أزعج ريموند كثيراً، إذ كان هذا البرج يعد بالنسبة له مفتاح إقليم يهوذا. وأدى هذا الخلاف إلى أن فكر ريموند في العودة مبكراً إلى أوروبا إلا أن حاجة الكيان الصليبي لخدماته العسكرية جعلته يتراجع عن هذا الأمر^(٢)، ويفهم من هذه الرواية أن ريموند الصنجيلي كان يطمح إلى أن يضم هضبة القيسيين التي تضم بلاد الخليل، ومع ذلك لا يمكن إدراك أبعاد مخطط هذا القائد بدقة فهل كان يفكر فعلاً في البقاء في الأراضي المقدسة حاكماً لمنطقة الخليل وما جاورها؟، وفي الواقع سوف نسوق لنا الصفحات الآتية الإجابة عن هذا السؤال.

وكما رأينا فقد ظهر اتجاه صليبي يرمى إلى ضم الريف الفلسطيني، بل بدأ التخطيط بالفعل للانقضاض على الأراضي العربية من حول بيت المقدس، ولاشك في أن إقليم بلاد الخليل كانت تحيطه من الظروف ويمتلك من الإمكانيات ما أغرى الصليبيين بوضعه على رأس قائمة المناطق المطلوب غزوها، فمن الناحية العسكرية يعد من المناطق الداخلية التي ليست بحاجة إلى معونة أسطول بحري للهجوم عليه، إذ إن أى استثمار حربي يهدف إلى ضم الإقليم لم يفرض على الصليبيين منح امتيازات قيمة لأصحاب الأساطيل مثل مدن جنوة وبيزة والبندقية ولذا فقد اعتمدوا على أنفسهم، ولكون إقليم الخليل إقليماً داخلياً فهو خارج أيضاً عن حماية الأسطول الفاطمي، بالإضافة إلى ذلك فلا يوجد في البلاد الخليلية الاستحكامات اللازمة لدفع أى هجوم

(1)Ibid, P.P. 302 - 303.

تقع قلعة برج داود جهة السور الغربي لبيت المقدس وتحكم في الطريق المنحدر إليها مخترقاً الهضاب إلى يافا بحكم موقعها في منتصف الطريق، وقد بنيت القلعة من أحجار شديدة الصلابة، نصف المبنى العلوي من قوالب حجرية ضخمة مربعة الشكل ختمت كل منها بمادة الرصاص المصهور، والقلعة تسع ما بين خمسة عشر وعشرين رجلاً للدفاع عنها، قامت بمهمة الدفاع عن بيت المقدس. انظر.

Fulcher of Chartres, Op. Cit., P.P. 91 - 95, Petachia of Ratesbon, Op. Cit., P, 88. Cf., als., Runciman, S., Op. Cit., Vol. I, P. 279.

(2) Raimond d'Agiles, : Op. Cit., P. P. 303 - 304.

مؤثر. والخلاصة أن غزو إقليم الخليل يعتمد على الإمكانيات المحلية للصليبيين في الأراضي المقدسة، الأمر الذي جعله من أوائل المناطق التي فكروا في ضمها.

ومن ناحية أخرى فقد تعددت جوانب الأهمية بالنسبة لإقليم الخليل بين اقتصادية وإستراتيجية وغيرها. وحيث أقر مدونو المصادر الصليبية أنفسهم بما احتواه الإقليم من ثروات باكورة الاستيلاء عليه حينما أثنى كل من الرحالة سايولف ودانيال الروسى على غنى الخليل وما حولها بالثمار والأشجار المتنوعة، وما كان يستخرج من البحر الميت من ثروات بحرية هامة^(١)، كما كان الإقليم يضم ثروات حيوانية وغطاءات نباتية لها أهميتها الخاصة^(٢)، وفضلا عن ذلك أشرفت الخليل على طرق التجارة المارة بأراضيها^(٣) والتي استخدمت أيضا في المجال العسكرى. كذلك لا يمكن إغفال كونها مركزا مقدسا بالنسبة للمسيحيين من الطراز الاول، وهكذا تضافرت عناصر عدة لتبرز أهمية منطقة الخليل ليس من الناحية الاقتصادية والسياسية والإستراتيجية فحسب، بل من الناحية الدينية والروحية أيضا مما يشكل عمقا إستراتيجيا للكيان الصليبي الوليد الذي اعتمد فى هذه المرحلة على توسيع رقعة الأراضي المغزوة. وسوف نعرض لهذه الأمور بالتفصيل فى مواضع آتية.

يبدو أن الحاكم الصليبي جودفرى أدرك تلك الحقائق كلها وضرورة الإسراع بإخضاع المزيد من الأراضي العربية حول القدس خاصة بعد أن ظهرت أمامه مشكلة برج داود ووجود قادة صليبيين آخرين ظهوروا بمظهر المنافس له مثل ريموند الصنجيلي، فقرر أن يترك القدس سريعاً ويزحف نحو الجنوب، وحتى يتم مشروعه الجديد كان عليه أن ينزع برج داود أولاً، وتمكن جودفرى من إتمام هذه الخطوة بسهولة كما رأينا. ثم توجه على رأس فرسانه ورجاله إلى بيت لحم، وبعد أن نظم صفوفه وأتم الاستعدادات اجتاز الشعب التى تتخلل الهضاب والتلال بسرعة اتجه الجنوب وأخذت قرى الخليل تنهوى فى يده الواحدة تلو الأخرى. ولما كانت حلحول وبيت زكريا وبيت صور على الطريق المسلوك فمن الطبيعى أن تكون أولى القرى التى سقطت فى المنطقة. ولم تلبث القوات الصليبية أن هاجمت مدينة الخليل وتمكنت من إسقاطها بعد هجوم قصير وطرد المسلمين منها^(٤).

(1) Saewulf, Op. Cit., P. 24; Daniel the Russian, Op. Cit., P.P. 42, 44, 47.

(2) Raimond d'Agiles, Op. Cit., P.P. 304, 305; Peter le Deacon, in: Itinera Hierosolimitana Crucesignatorum, 1137, A. D., Vol. III, Jerusalem 1984, P. 185.

(3) Beyer, G., Z. D. P. V. LXV 1942, P. 170.

(4) Albert d' Aix, Op. Cit., P.P. 523, 524; Beyer, G., Op. Cit., P. 167.

لم تهتم المصادر الإسلامية ولا الصليبية بالتعرض بشكل مباشر للأحداث المحيطة بإسقاط مدينة الخليل، ورغم تأخر المؤرخ المسلم ابن ميسر نسبياً عن معاصرة تلك الأحداث إلا أنه أول من أشار إلى واقعة هدم الصليبيين للمشاهد وقبر الخليل عليه السلام، وذلك بعد استيلاء الفرنج على بيت المقدس^(١)، ويشير الرحالة سارولف إلى أن أهل الخليل قد هجروا مدينتهم قبل الهجوم عليها بعد أن خربوها^(٢)، وفي الواقع فأماناً افتراضين: أولهما: أن تخريب المدينة لم يكن بمبادرة من أهلها وإنما حدث ذلك من جراء المعارك التي صاحبت الاستيلاء على المدينة، وإذا تعرفنا على وضع الدفاعات في الخليل وقت الهجوم عليها لتأكدنا من هذه الحقيقة فلم نعتمد في دفاعها على التحصينات والأسوار بل قامت على الحماية الطبيعية لوقوعها بين التلال، هذا من ناحية، أما جوانب المدينة المطلة على الوادي فكانت تعتمد في حمايتها على التصاق المنازل بشكل متصل بحيث تظل واجهاتها على الداخل^(٣) وأصبحت الفتحات التي تفصل بين مجموعات المنازل بمثابة المنافذ الوحيدة للمدينة ويمكن السيطرة عليها. غير أن خبرة الصليبيين الكبيرة التي كونوها على مدى سنوات خلّت من القتال مكنتهم - كما هو واضح - من التغلب على أي دفاعات من النوع البسيط كما هو الحال بالنسبة لدفاعات الخليل. أما الافتراض الثاني: فهو تصديق لما أشار إليه المصدر الصليبي بأن تخريب المدينة كان على يد الأهالي، إلا أن هذا الافتراض مستبعد إذ كان الخطر داهماً على السكان فما كان عليهم إلا الإسراع بالفرار ولم يكن لديهم وقت لتخريب المدينة بالشكل الذي صورته سارولف، وخاصة أن هذا الرحالة الصليبي كان قد اتهم أهالي مدن فلسطينية أخرى كالناصرية وبيت لحم الاتهام نفسه مما يشير إلى مبالغته في هذا الصدد. وهكذا فإشارة ابن ميسر تأتي لتدعيم الافتراض الأول، وذلك حينما نوه إلى الطبيعة العدوانية المخربة للغزو الفرنجي، وعليه فالباحث يميل إلى الأخذ بهذا الافتراض نظراً لواقعيته. ولا يعني سقوط الخليل في وقت قصير أن قوات جودفري لم تلق مقاومة أثناء الغزو، ويشهد على ذلك استخدامه للعنف. أما وقد تم الضم في وقت قصير فهذا يجعل من المعتقد أن القائد الصليبي قد نجح في انتهاز فرصة تردد صدى انتصاراته بالاستيلاء على بيت المقدس وبيت لحم، وكذلك المذابح والإرهاب بين السكان والفوضى الشاملة التي ترتبت على ذلك مما سهل للصليبيين إتمام المهمة.

(١) ابن ميسر: أخبار مصر، ج ٢، ص ٨، راجع أيضاً: المقرئ: اتعاط الحنفا، ج ٣، ص ٢٥.

(2) Saewulf, Op. Cit., p. 24

(٣) الإدريسي: المصدر السابق، ص ١٨٧؛ العمري: المصدر السابق، ص ٢١١.

Karmon Yahuda, Op. Cit., P. 75; Encyclopedie d'Islam, Art. Al-Khalil.

ومن الطبيعي أن يستهدف الصليبيون الحرم الإبراهيمي بمجرد غزو مدينة الخليل لما كان عليه من عظمة في البناء وفخامة في الأثاث ، وما كان يضم من مصابيح وسجاجيد وستائر جلبيت من كل صوب بأعلى الأثمان ^(١) حيث قام بيير دى نوربون Pierre de Narbone وهو أحد الفرسان الفرنج المتسبين إلى مدينة نوربون (جنوب شرق فرنسا) بالاعتداء على الحرم والاستيلاء على كل النفائس المتكدسة داخله والتي كان الحرم قد حازها من خلال الهبات وصدقات المسلمين . وقد بلغت عملية سلب محتويات المبنى الحد الذى دعا رجال الدين المسيحى بأن يأسفوا عليه ، ورأوا أن ذلك قد يتسبب فى توقف الطقوس فى مكان أصبح مجرداً من كل أثاث ^(٢) . إذ سرعان ماتتبه الغزاة إلى أهمية المكان فقاموا بتحويل الجامع الإبراهيمي الكبير إلى كنيسة أطلقوا عليها كنيسة سانت أبراهام واتخذوا منها مركزاً دينياً لكل المناطق المجاورة ^(٣) . وهكذا تم إضفاء الصبغة اللاتينية على الحرم والخليل بالقوة والقهر ، تلك السمة التى ميزت العصر الجديد الذى أعلن الصليبيون بدءه فى هذه الديار الآمنة .

وما لبث أن تعرض الكيان الصليبي الوليد فى بيت المقدس للخطر ، فبمجرد أن استفاقت الدولة الفاطمية من صدمة سقوط بيت المقدس والخليل وغيرها من البلاد حتى أزمع قادتها على توجيه جيش ضخم إلى فلسطين ، وأرسل جودفرى دى بوايون فى الرابع من أغسطس ١٠٩٩م / الثالث عشر من رمضان ٤٩٢هـ . إلى رجاله من القادة ليستنجد بهم فى مواجهة الحشود الفاطمية التى أخذت فى التجمع عند عسقلان ^(٤) . وكان الفاطميون يستهدفون من وراء تلك الحملة طرد الفرنج من بيت المقدس ^(٥) والبلاد التى وقعت فى أيديهم ، إلا أنها فشلت تماماً فى تحقيق أهدافها بعد ثمانية أيام حين نشبت المعركة التى عرفت بمعركة عسقلان . وقد ترتب عليها أن تمكن الصليبيون من تثبيت أقدامهم فى الأراضى المقدسة ^(٦) بما فيها الخليل . ونظراً لاعتداء الصليبيين خلال

(١) ناصر خسرو : سفر نامه ، ص ٣٣ - ٣٤ . راجع أيضا :

Canonici Hebronensis, Tractatus de Inventionem, P.P. 308 - 309

(2) I bid., P. 309.

(3) Albert d'Aix. Op. Cit., P. 524.

(4) Raimand d'Agiles, Op. Cit., P. 305.

ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٩

(5) Duggan, A., Op. Cit., P. 80

(6) Stevenson, W. , Op. Cit., P. 40 Grousset, R., L'Empire du Levant, Paris 1946, P. 197/

(7) Ramond d'Agiles, Op. Cit., P.P. 304 - 306, Fulcher of Chartes, Op. Cit., P. 125, Albert d'Aix, Op. Cit., PP. 495 - 496.

المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص ١٢٠ - ١٢٣ ، ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٢٢٣ ، ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٩ .

المعارك التي وقعت على أهالي الخليل من البدو^(٧)، فقد أدركوا أهمية التصدي لهم إذ إنهم لم يكونوا يدركون أبعاد هذا الخطر وحجمه من قبل، ومن ناحية أخرى جاءت أحداث المعركة سريعة متلاحقة فلم تسمح لجودفري بالتغلغل في أراضي الخليل الأخرى بحيث اقتصر غزوه على الجهات العربية منها علاوة على مدينة الخليل، ذاتها ومن ثم قام بتأجيل استكمال إخضاع المنطقة كلها للفرنج إلى مرحلة تالية.

وقد أدى الخلاف الذي نشب سلفا بين جودفري وريموند الصنجيل إلى إعاقه الصليبيين عن استكمال انتصاراتهم بالقرب من عسقلان^(١) غير أنه ما لبث أن تعرض ريموند لضغوط ومعارضة قوية من القادة الصليبيين بل من جنوده أيضا، مما جعل من الصعب أن يستمر في محاولة الاحتفاظ بأجزاء من الأراضي المقدسة حيث إقليم يهوذا، فقرر الرحيل للعمل في مكان آخر^(٢). في حين رحل بقية القادة الصليبيين إلى الغرب الأوربي ولم يتبق منهم في الأراضي المقدسة سوى جودفري وتانكرد، ولم يكن لديهما سوى بضع مئات من الفرسان بالإضافة إلى بضعة آلاف من الجنود مما اضطرهما إلى الاكتفاء بوضع حاميات فقط في المدن التي تم الاستيلاء عليها بما فيها الخليل^(٣)، في حين ظلت الأراضي المحيطة بها في أيدي أصحابها العرب^(٤). وهكذا تولد موقف صعب أمام الصليبيين، ومع ذلك ظل المجال مفتوحا للقائدين كي يحققوا طموحاتهما العريضة، إذ تمكن تانكرد من أن ينطلق على رأس ثمانين فارسا نحو إقليم الخليل وأن يسقط طبرية المدينة الرئيسية به، بينما تمكن جودفري من ضم الخليل وبعض الأراضي الأخرى^(٥) والواضح أنه لم يخط تلك الخطوة إلا بعد أن اطمأن إلى أن الأراضي التي يقوم بغزوها سوف تكون خالصة له بغير منازع بعد فراغ الساحة من منافسه ريموند.

وبعد أن سقطت مدينة الخليل في يد الصليبيين لم يمكنهم أن يحتفظوا بها وهي غير محصنة، فلم يكن الوقت كافيا أمام جودفري خلال الأسابيع القليلة التي سبقت معركة عسقلان كي يشرع في تحصين مدينة الخليل حيث لم يتهيأ له ذلك إلا بعد الانتصار، وكذلك بعد أن حسم الأمور لصالحه في السيطرة على جنوب فلسطين حيث

(1) Grousset, R., Histoire des Croisades, Vol. I, P. 180.

(2) Raymond d'Agiles, Op. Cit., P. 302

(3) Albert d'Aix, Op. Cit., P. 503.

تناول أحد الباحثين الحديثين بالتفصيل موقف الصليبيين العسكري موضحا إستراتيجية الفكر الصليبي في هذا الجانب وفي تلك الظروف الصعبة . راجع :

Riley Smith, J., The First Crusade and the Idea of Crousading, London 1986, PP. 41 - 42.

(4) Grousset, R., Op. Cit., Vol. I, P. 181.

(5) Albert d'Aix, Op. Cit., PP. 517, 518, 523, Baudré de Doll, Op. Cit., P. 111.

الخليل . وكان على القائد العمل جدياً على تثبيت أقدامه فى هذه المنطقة البالغة الأهمية ، وخاصة فى ذلك الوقت الحساس فى تاريخ الصليبيين ، إذ كان الاستيلاء على مدينة الخليل يعد خطوة مهمة نحو تحقيق قسط وافر من الأمن لمدينة بيت المقدس من جهة الجنوب حيث الفاطميون ؛ لأن موقع الخليل أعطى فرصة أفضل للقوات الصليبية كى تكون أكثر قرباً من المدن الفاطمية وكان أهمها عسقلان ، ولعل وجود الصليبيين فى مثل هذا الموقع المتقدم فى جنوبى دولتهم هو ما جعلهم يراقبون عن كثب تحركات الفاطميين .

ويذكر المؤرخ الصليبي بودريه دى دول أن جودفرى اتجه على رأس رجاله من الجند بل وأهالى بيت المقدس من الفرنج إلى الجنوب والشرق وانتشروا فى الأراضى كلها حتى الخليل ونهر الأردن وقاموا بتحصين المدينة ^(١) ، ومن الطبيعى أن يكون أول ما فكر فيه جودفرى هو تشييد قلعة الخليل . وقد كانت للقلاع أهميتها الكبرى فى عالم العصور الوسطى كأحد الملامح الجوهرية للنظام الإقطاعى ، فإلى جانب الأهمية الحربية للقلعة كانت تتخذ مقراً لإدارة النبيل فى إقطاعيته لاحتياجه إلى مركز آمن يدير منه إقطاعه ، ومن ثم أصبحت مقراً للعمل والإدارة ^(٢) . ولذا قرر جودفرى تشييد القلعة وأشرف على بنائها بنفسه واختار موقعها خارج المدينة بقليل وفوق التل الذى يتحكم فيها بحيث تشرف على التلال المجاورة على الحرم الإبراهيمى ، وكان بناء القلعة قد اتخذ الطراز المألوف لدى الصليبيين فى بناء القلاع المعروف باسم القلاع الصغرى Castrom ، وواصل جودفرى العمل فى البناء حتى أصبحت القلعة فى عام ١١٠٠م / ٤٩٣هـ توصف بأنها عظمة المناعة والثروة ^(٣) . ويبدو أن القائد الصليبي قد انكب على بناء القلعة ليضعه أشهر ، ومنذ ذلك الوقت احتلت قلعة الخليل مكانة مرموقة ، ودلت على أهميتها الإستراتيجية حتى حرص المسلمون فيما بعد الحروب الصليبية فى الشرق على إعادة تشييدها ، وفيها يقول بيبرس المنصورى إنها «مقل يأوى إليه المسلمون وموئل يلجأ إليه المضطرون فهى حرم ذلك الحرم وتجديدها من أعظم الكرم» ^(٤) . وهكذا وضع جودفرى حجر الأساس تمهيداً لقيام إقطاعية صليبية بتأسيس رمز من أهم رموز النظام الإقطاعى الأوروبى .

(1) Baudre de Doll, Op. Cit., P. 111

(2) Fedden, R., and Thomson, J., Grusader Castles, London 1957, PP. 10 - 19.

(3) Albert d'Aix, Op. Cit., PP. 523 - 524, Cf. Als., Baudre de Doll, Loc. Cit.

(٤) بيبرس المنصورى : التحفة المملوكية فى الدولة التركية ، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان ، الطبعة

الأولى ، القاهرة ، ١٩٨٧م ، ص ٢٢٥ . ويذكر بيبرس تاريخ إعادة بناء قلعة الخليل حتى وقت زيارات

فولناى . م . لها فى أعوام ١٧٨٣ - ١٧٨٥ م . انظر

استمرت مدينة الخليل والقرى الواقعة إلى الشمال منها ملكاً لجودفرى دى بوايون جزءاً مكملًا لأراضى بيت المقدس ، وظل الوضع كذلك لبضعة أشهر . ومن الطبيعى أن يحدث ذلك خلال الفترة الأولى من الوجود الصليبي فى البلاد ، إذ كان الموقف لا يزال عصيباً بسبب تربص المسلمين بهم على المستويين المحلى والإقليمى ، ولكن على ما يبدو أحس القائد أنه من أجل البقاء^(١) وسط هذه الاخطار أن يتخذ بعض الإجراءات ومنها محاولة جذب المقاتلين الصليبيين وربطهم بالأراضى خشية العودة إلى أوروبا^(٢) . ومن تلك الشخصيات التى حازت أرضاً فى الخليل حيث قرية بيت فجار رالف دى فانبانى Raulf de Fanpenelles. Raulf de Fanpenay^(٣) وفى خطوة أخرى حاول جودفرى فرض السيطرة الفعلية على الأهالى بجباية الضرائب منهم والإشراف على النواحي العمرانية والحربية والشئون الاقتصادية وغيرها .

ومن الترتيبات التى سعى جودفرى إلى إنجازها حماية للخليل وباقى دولته الترحيب بعقد اتفاقيات مع مشايخ العرب وزعمائهم فى الجهات الداخلية الذين رأوا من جانبهم ضرورة إبرام اتفاقيات ودية مع حكومة بيت المقدس الصليبية ليضمنوا سلامة قوافلهم وتجارتهم^(٤) وبذلك احتكر الصليبيون منذ عهدهم الأول التجارة مع الداخل^(٥) ومن الملاحظ أن تلك الاتفاقيات جميعها التى عقدها المسلمون فى فلسطين مع جودفرى سنة ١١٠٠م / ٤٩٣هـ كان لها جانبها التجارى فضلاً عن الجانب السياسى مما جعل البضائع المختلفة تتدفق على الدولة الصليبية ، وبذلك توافر لها قسط من

(١) كان لدى جودفرى مشاريع طموحة وخطوات يجب تحقيقها من أجل البقاء على الوجود الصليبي فى الأراضى المقدسة ، ومن أهمها محاولة تأمين الطريق بين القدس والبحر المتوسط بالاستيلاء على ميناء إضافي فضلاً عن ميناء يافا ، فقام بحصار ميناء أرسوف فى ديسمبر ١١٠٠م / صفر ٤٩٣هـ . راجع :

Albert d'Aix, Op. Cit., PP. 516 - 517; Cf., Als, Grousset, R., Op. Cit., Vol. I, P. 183.

(2) Riley - Smith, J., The Motives of the Earliest Crusaders and the Settlement of Latim Palestine, in : E. H.R XCVIII 1983, P. 724, The First Crusade and the Idea of Crusading, Philadelphia and London 1986, P. 72.

(3) Raoul de Caien, Gesta Toncridi in Expeditione Hierosolymitana, ed. R. H. C. H. Occ., tome III, Paris 1866, P. 262, Baudré de Doll, Historia de pergrinatione Hierosolunitana, P. 65 Albert d'Aix, Op. Cit, PP. 429, 430.

عند تحديد موقع بيت فاسا بأنه قرية بيت فجار راجع

Cf. als., Mayer, H. E., Bistuemmer, Kloester and Atifte im Koevigreich Jerusalem, Schriften, der M. G. H., 26, Stuttgart 1977, P. 75, 77.

(4) Albert d'Aix, Op. Cit., PP. 515 - 516, 532; Grousset, R., Op. Cit., Vol I , P.P. . 186 - 187

(5) Runciman, S., Op. Cit. , Vol I, P. 310

الاستقرار والثبات^(١). ويعلق أحد المؤرخين الحديثين على ذلك بالإشارة إلى أن البدو الذين يعملون بالزراعة قد استسلموا للنظم الإقطاعية الصليبية بسهولة؛ نظراً لأنهم اعتادوا على الخضوع باستمرار للأغراب^(٢). وفي الحقيقة لا ينطبق هذا الرأي مع الواقع إذ إن تاريخ القبائل العربية قبيل الغزو الصليبي يدل على أنهم رفضوا سيادة الغير، ولعل الموقف العسكري الحرج الذي أصبح عليه المسلمون دفع هؤلاء إلى اتخاذ تلك الخطوة خاصة بعد سقوط المزيد من الأراضي والموانئ الساحلية في أيدي الفرنج.

وفي خضم التحركات العسكرية التي شهدتها المنطقة أخذت الفرص سوح أمام الشخصيات المغمورة من فرسان الصليبيين للظهور على الساحة؛ انتظاراً للظفر بمستقبل أفضل. ففي أحداث حصار أرسوف (أواخر أكتوبر الى منتصف ديسمبر ١٠٩٩ م / منتصف ذي الحجة ٤٩٢ هـ . إلى نهاية المحرم ٤٩٣ هـ)^(٣) برزت شخصية أحد الفرسان ويدعى **جرار دى أفنس** Gerardus de Avennis عندما قدم نفسه رهينة لمسلمي أرسوف بوصف ذلك جزءاً من الصلح الذي انتهى إليه أمر الحصار مما أثار انتباه جودفرى إلى شخصه، وراقه ما قدمه من بذل وفداثة. ولما رد صاحب أرسوف - المسلم - جرار سالماً معافى وقد خلع عليه أفضل الثياب رாகباً أفضل الجياد ، استقبله جودفرى استقبال الأبطال ورحب به وقربه منه « وسر به سروراً عظيماً » لبسالته، وعلى الفور أمر بمنحه قطعة ضخمة من الأراضي يقدر ثمنها بثلاثمائة مارك ذهبي^(٤) كما منحه القلعة الجديدة التي كانت قد شيدت في الخليل^(٥) Castelum de St Abraham. وإذا ما قورنت إقطاعية سانت أبراهام الصليبية بمثيلاتها داخل دولة بيت المقدس لغدت من الإقطاعيات الكبيرة^(٦).

(1) Albert d'Aix., Op. Cit., P. 516.

راجع أيضاً : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٦٢ .

(2) Stevenson, W., The Crusaderes in the East, P. 37.

(3) Albert d'Aix, Op. Cit., PP. 507 - 511 , Hagenmeyer, H., Chrpnologie de La premiere Croisade 1094 - 1100 , in R. O. L., 1900 - 1901, PP. 323 - 325, Stevenson, W., The Ccrusaders in the East, P. 39.

(٤) كان هناك نوعان من المارك ، المارك الذهبي والمارك الفضي ، وكل مارك ذهبي تتراوح قيمته من ٨ إلى ١٠ ماركات فضية، وكل مارك فضي يساوى حوالى ٢,٣ جرام، أى أن المارك الذهبي على أقل تقدير يساوى ١٨ر٤ جرام وعلى أقصى تقدير ٢٣ جراماً من الفضة. انظر محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، الإسكندرية ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ص ١٢٧ ، هـ

(5) Albert d'Aix, Op. Cit., PP. 499, 516.

يتنسب جرار إلى حصن أفنس في مقاطعة هانوليت Hainoult الأوربية. راجع سعيد البشاوى : الممتلكات الصليبية ، ص ٧٠ ، هـ ٣ . وكان حصار الصليبيين قد انتهى بالفشل نتيجة عدم وجود أسطول لمحاصرتها في حين كانت إمدادات الفاطميين تصل إليها. انظر

(6) Fink, Harold's, The Foundation of the Latin States, Ibid, P. 513 , P. 385.

ولاشك في أن جراراً قد أنفاد كثيراً من أحداث أرسوف حيث أصبح على علم بجغرافية جنوب فلسطين بصفة عامة كما يبدو أن جودفري قد أدرك صعوبة الموقف العسكري لدولته خاصة في الخليل وما حولها ، ولذا حرص على تسليم الخليل لمن أبدى بسالة فائقة في الحرب . ويمكن تحديد تاريخ حصول جيرار على المنحة الإقطاعية بنهاية عام ١٠٩٩م / أوائل ٤٩٣هـ . وهكذا تم وضع نواة إقطاعية صليبية تضم مدينة الخليل وما جاورها من أراض تتابع في حكمها عدد من الفرسان والبارونات ، غير أن أركان الإقطاعية لم تتكامل بالشكل المتعارف عليه في معظم الإقطاعات الصليبية الأخرى داخل المملكة إلا بعد بضعة عقود من الزمن .

لا يوجد في المصادر ما يشفي غليل الباحث للتعرف على نشاط جرار دى أفنس الداخلى بالخليل طوال فترة حكمه ، غير أن مقتله على يد المسلمين في أحداث إسقاط أرسوف ٢٦ إبريل ١١٠٠م / ١٣ جمادى الآخر ٤٩٣هـ (١) . وضعت حداً لنشاط هذا الحاكم . وهكذا اقتصرت فترة حكم جرار على الخليل على بضعة أشهر فقط (٢) لم يتمكن بالطبع خلالها من ترك ما يميزه في هذه المدة القصيرة .

أما الشخصية الثانية التي أمسكت بزمام الحكم في الخليل فهو الفارس الصليبي **جلدمار كارينل Guldmar Carbnil** وهو من الفرسان الذين ذاع صيتهم أثناء الزحف الصليبي على بيت المقدس والاستيلاء عليها (٣) ، كما كان من الفرسان المقربين لجودفري (٤) ، ولذا فقد وعد جلدمار بمنحه ميناء حيفا الساحلى حينما يتم الاستيلاء عليه من الفاطميين ، ولما تمكن الصليبيون بقيادة أمير الجليل تانكرد من السيطرة على المدينة في العشرين من أغسطس ١١٠٠م / الثاني والعشرين من شوال ٤٩٣هـ (٥) . أمسك بزمام الأمر ولم يمكن جلدمار من تحقيق آماله في الاستحواذ على حيفا وطرده

(1) Albert d'Aix, Op. Cit., P. 516 , Cf. Als., Roehricht, R., Geschichte des Ersten Kreuzzuges, Innsbruck 1901 , P. 230.

(2) Beyer, G., Z. D. P. V., LXV. P. 167.

(3) Albert d'Aix, Op. Cit., P. 523, 537.

كان جلدمار يحمل لقب كونت عندما جاء مع جحافل الصليبيين في رفقة جودفري دى بوايون وذاع صيته كأحد القادة حتى أنه كان يقود إحدى الفرق العسكرية في ذلك الوقت تقدر بثلاثين فارساً وخمسين من المشاة ودخل في معركة أساسية ضد المسلمين بالقرب من الرملة تمكن بعدها من تذليل الصعاب أمام إمدادات صليبية دعمت موقف الجيش المحاصر للقدس . راجع :

Raimond d'Agiles, Op. Cit., PP. 291 - 292 , William of Tyre, Op. Cit., Vol. I , PP. 356 - 357

(4) Grousset, R., Histoire des Croisades, Vol., I, P. 201

(5) Boudré de Doll, Op. Cit., P.111 , Cf. Als., Hagenmeyer, H. Chronologie du Royaume de Jerusalem, in R. O. L., Vol. VIII, Paris 1900 - 1901 .PP. 354 - 356.

راجع أيضاً : المناقشة حول تاريخ إسقاط حيفا في : على أحمد السيد : إمارة الجليل تحت حكم اللاتين ودورها السياسى فى الصراع الصليبي الإسلامى فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى (١٠٩٩ - ١١٥٤م / ٤٩٢ - ٥٤٩هـ ..) (رسالة ماجستير لم تطبع بعد) الإسكندرية ١٩٨٨ ، ص ١٩٢ - ١٩٣ .

هو وأتباعه منها، وحيث لم يسع جلدमार إلا أن يجمع قواته ويتوجه بها إلى مدينة الخليل وسيطر على قلعتها، بعد هجوم قصير تمكن فيه من إجبار المسلمين على أن يلوذوا بالفرار^(١). ويفهم من ذلك أن قلعة الخليل وبالتالي المدينة قد تم استردادها من قبل المسلمين بعد أن نما إلى علمهم - كما هو واضح - وفاة حاكمها جرار ، بالإضافة إلى مرض جودفرى ووفاته فى الثامن عشر من يوليو / التاسع من رمضان من نفس العام . وحيث رأى جلدमार أن يقوم بعمل يعرض به ماتحطم من آماله فى الاستحواذ على حيفا فأسرع وانقض على قلعة الخليل خشية أن يخرج صفر الـدين مستغلاً الفوضى التى عمت الأراضى المقدسة فى تلك الفترة، وكذلك كى يظهر كبطل أمام بلدوين دى بوايون Bedouien de Bouillon الذى دعاه رجال جودفرى للقدوم من إمارة الرها لإدارة شئون بيت المقدس^(٢).

وصل بلدوين إلى ظهير حيفا فى الثلاثين من أكتوبر ١١٠٠م/ الرابع والعشرين من ذى الحجة ٤٩٣هـ فى وقت كانت الخليل وباقى الأراضى التى تمكن الصليبيون من وضع يدهم عليها تعاني من الاضطرابات الداخلية بسبب الخلافات فيما بين القادة الفرنج، وكذلك من تهديد المسلمين بالداخل والخارج، وتمثلت الاضطرابات الداخلية فى ظهور فريقين كلاهما يخالف الآخر فى تحديد مصير الحكم الصليبي فى الأراضى المقدسة، انضم جلدमार إلى فريق رجال جودفرى الذين نادوا بقدوم بلدوين دى بوايون الوريث الشرعى للحكم^(٣)، فى حين تزعم الفريق الآخر دايمبرت دى بيزا Diambert de Piza بطريك بيت المقدس (ديسمبر ١٠٩٩/ ١١٠١م - صفر ٤٩٣/ ٤٩٥هـ)^(٤)، وتانكرد الأمير ذو النفوذ القوى اعتماداً على ممتلكاته الشاسعة فى الجليل اللذان دعوا بوهيموند (Boheemond) أمير أنطاكية وخال تانكرد للقدوم لحكم بيت المقدس، غير

(1) Albert d'Aix, Op. Cit., PP. 523 - 524

(٢) عن وفاة جودفرى و قدوم بلدوين من الرها. راجع :

Albert d'Aix. Op. Cit., PP. 513 - 522, Cf Als., Hagenmeyer, Op. Cit, PP. 344 - 348.

(3) Fulcher of Charter, Op. Cit., P. 142, Matthieu d'Edesse, Extraits de la Chronique, en, R. H. C. Arm., Vol. I , Paris 1869, P. 231.

(٤) دايمبرت دى بيزا : كان رئيساً لأساقفة بيزا، وكان من طلائع الصليبيين الذين جاءوا إلى الشرق، وقد اختير بطريكاً على بيت المقدس فى ديسمبر ١٠٩٩م/ صفر ٤٩٣هـ. وقد أشار أحد المؤرخين الحديثين إلى أن دايمبرت أوف بيزا كان من المؤيدين المخلصين للبابا أربان الثانى .

Cf. Richard. J., The Latin kingdom of Jerusalem, trans. From the original by Jenat Shin-ly , Amesterdam 1979. Vol I, P. 99.

ولمعرفة المزيد عن دور دايمبرت السياسى فى الأحداث الصليبية الداخلية فى تلك الفترة. راجع :

Fink Harold's, Op. Cit., PP. 380 - 386.

أن أسره على يد المسلمين أحبط محاولة هذا الفريق . والواضح أن قدوم بلدوين وحده هو الذى قضى على بواذر الانقسامات وما صاحبها من اضطراب حيث كان تانكرد لايزال يسعى إلى الاستيلاء على يافا وربما جهات أخرى من البلاد، ولكنه اضطر إلى الانسحاب إلى مواقعه فى حيفا، بينما دخل بلدوين يافا وانطلق منها نحو بيت المقدس ولكنه أثر أن يتوجه أولاً إلى الخليل، وبالقرب منها دخل فى معركة سريعة مع المسلمين وأسر منهم خمسة وأربعين رجلاً قام بترحيلهم إلى برج داود، كما استحوذ على كميات كبيرة من الأسلاب والغنائم، ثم توجه أخيراً إلى القدس واستقر بها بضعة أيام^(١).

هكذا تم تأمين الخليل بشكل مؤقت فى هذه المرحلة العصبية فبالرغم من استيلاء جلدمار كارنيل ورجاله على قلعتها إلا أنه كان فى مسيس الحاجة إلى تلك الخطوة من قبل بلدوين تدعيماً للوجود الصليبي ؛ بالإضافة إلى اتفاق المصالح فيما بينهما حيال تانكرد وأطماعه، فقد نجح جلدمار فى السيطرة على الموقف فى الخليل وردها إلى المعسكر الصليبي، كذلك كان جلدمار أحد أبرز رجال جودفري وظل على ولائه لوريثه بلدوين، تجلّى ذلك فى انضمامه إلى الفريق الذى رشحه لحكم الأراضى المقدسة، وعلى ذلك يبدو أن بلدوين قد كلف جلدمار بحماية الخليل وقلعتها وإن كان قد أرجأ تعيينه رسمياً حتى يتسلم مقاليد الحكم فى بيت المقدس بصفة رسمية.

يبدو أن التهديد الذى سببه المسلمون للخليل وبقية الأراضى المقدسة نبه بلدوين إلى ضرورة اتخاذ خطوة سريعة على سبيل توفير قسط أكبر من الأمن بالاستيلاء على المناطق المجاورة، وتنفيذاً لقرارات مجلس القادة الصليبيين بشأن التوسع فى ريف فلسطين، تولى بلدوين قيادة جيش يضم مائة وخمسين فارساً إضافة إلى خمسمائة من الرجال^(٢) وتوجه به أولاً إلى الجهات الغربية من بلاد الخليل حيث بيت جبرين وتل الصافية وبعد أن إطمأن لغزوه فى تلك الجهات توجه بحملته جهة الشرق وقد أقدم على تدمير القرى التى مر بها مما أجبر أهلها من العرب إلى هجرها إلى كهوف الجبال بسبب الإرهاب الصليبي^(٣)، ويفسر فوشيه دى شارتر لنا أحد أسباب قيام بلدوين الأول بهذه الحملة بالإشارة إلى استمرار مقاومة المسلمين للدخلاء الجدد من الفرنج، كما يكشف

(1) Albert d'Aix, Op. Cit., PP. 531 - 532.

(2) Albert d'Aix, Op. Cit., P. 541.

وقد أوردت المصادر الإسلامية رواية مقتضبة عن أحداث تلك الحملة، وفيها ذكرت عدد جيش بلدوين بخمسمائة فارس وراجل ؛ راجع: ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج١، ص ٣٢٤.

(٣) يصف المؤرخ الصليبي فوشيه أشكال الإرهاب فيذكر أنه عندما سم الدعر بالمسلمين واعتصموا بكهوف الجبال قام الصليبيون بإشعال النيران عند مداخلها، وسرعان ما خرجوا منها بسبب الدخان والنيران واحداً تلو الآخر، وعندئذ أعملوا فيهم السيف وقطعوا رؤوسهم كما تم نهب مالدبيهم من حنطة وماشية . راجع :

Fulcher of Chartres, Op. Cit., PP. 143 - 144.

عن دور السريان فى أنهم أعطوا الجيش الصليبي المعلومات اللازمة عن المسلمين لمعرفةهم بالبلاد وأهلها مما سهل المهمة على الجيش الصليبي^(١)، فتبعوا العرب فى مخابثهم وقتلوا منهم قرابة مائة رجل . وبناء على هذه المعلومات تقرر مواصلة الزحف نحو منطقة البحر الميت وما وراءه حيث بلاد العرب^(٢) . ولعل المؤرخين يقصدون بذكرهم بلاد العرب الإشارة إلى المناطق الواقعة شرقى البحر الميت حيث مواءب والشراء ومعان والصحارى المجاورة^(٣) .

ويذكر البرت ديكس أنه فى الطريق إلى البحر الميت انطلق الجيش الصليبي تحت قيادة بلدوين دى بوايون إلى مدينة الخليل وقلعتها . ومكث هناك بعض الوقت بغرض الراحة ثم توجه نحو الجداول الصغيرة المتحددة نحو البحر الميت والتي كانت تفيض بالمياه فى ذلك الوقت من السنة، إذ كان فصل الشتاء، من أجل البحث عن الطعام والعليقة، والواضح من وصف المؤرخ أن تلك الجهة هى بركة الخليل التى تفتقر بطبيعة الحال إلى الحشائش فى فصل الشتاء، ولذا لم يجد الجيش الصليبي ما يلزمه من مؤن فى تلك الجهات، وفى ذلك الوقت أخبرهم بعض الأهالى بأنهم إذا تقدموا قليلاً نحو قرية النخيل - التى هى صغر - فسوف يجدون ما يلزمهم من مؤن بكميات ضخمة^(٤) .

وهذا الجانب من حملة بلدوين يكشف بوضوح عن بعض الحقائق ، فمن ناحية برزت جالية من الصليبيين تسكن فى الخليل كانت قد جعلت من المدينة قاعدة مهياة لانطلاق الجيش الصليبي منها فى منطقة جنوب فلسطين ، ومن ناحية أخرى نجد أن العناصر كلها قد تضافرت ضد أهالى بلاد الخليل ، فمن الداخل انضم جيرانهم فى الوطن من السريان إلى الصليبيين، وبرهنوا على ذلك بما قدموه من عون ونصح فى جميع تحركاتهم الحربية ، وكان ذلك بمثابة إعلان صريح بالتبعية والولاء لهم ، ومن الناحية الخارجية فالهزائم أخذت تلاحق قادة المسلمين سواء فى مصر أو فى الشام فوقع سكان بلاد الخليل فريسة لأعدائهم .

(١) ادعى فوشيه أن الذين تعاونوا مع الجيش وكانوا أدلاء له ضد العرب كانوا مسلمين دخلوا المسيحية حديثاً ، ويتفق أحد المؤرخين الحديثين معه فى ذلك ، وهذا لا يتفق مع السياق التاريخي كما لا يتفق مع المنطق ، وذلك لما أشار إليه فوشيه نفسه عن وجود علاقة طيبة بين الفرنج والسريان وذكر أنهم إخوان فى الدين فى حين انصبت روايته على عداوة الفرنج للعرب . راجع :

I bid, Loc. cit., Grousset, R., Histoire des Croisades, Vol., I, P. 215.

(2) Albert d'Aix, Op. Cit., P. 547. Fulcher of Chartres, P. 143

(3) William of Tyre, Op. Cit., Vol.I . P. 339 - 340

ويتفق هذا التحديد مع تعريف بعض الجغرافيين المسلمين . راجع : البكرى معجم ما استعجم ، ج ١ ، ص ٢٧٥ .

(4) Albert d'Aix, Op. Cit., P. 547.

كان الوصول إلى جهات شرقي البحر الميت يعنى عدم الاكتفاء بالسيطرة على مدينة الخليل فحسب ، بل كان من الضروري للصليبيين أن يخضعوا كل المناطق المحيطة بها جنوباً حتى الصحراء وشرقاً حتى البحر ووادى عربية ، وهذا ما تم بالفعل إذ يستكمل المؤرخ فوشيه روايته فيذكر أن الجيش الصليبي اجتاز الجبال الواقعة جنوبى مدينة الخليل فبرية الخليل وصولاً إلى شاطئ البحر الميت ^(١)، من ناحية الغرب حيث تقع عين جدى، وفيها حصل الصليبيون على ما يلزمهم من مؤن وعليقة ^(٢). ويواصل فوشيه روايته ذاكرةً أن الصليبيين اتجهوا إلى جنوبى البحر الميت بعد ذلك حيث قرية صغر ، غير أن الأهالى كانوا قد هجروها، ومن هناك تحرك الجيش الصليبي بعد قليل من الراحة نحو هضبة موءاب وتخللوا شعابها وصعدوا تلالها ولم يجدوا بها شيئاً ينهب. إذ كان أهالى القرى قد لجأوا إلى الكهوف بمناخهم وماشيتهم للاحتماء بها ، ولما لم يجد الفرنج ما يطمعون فيه توجهوا إلى وادى موسى الغنى بثرواته الزراعية والرعية وخلال ثلاثة أيام تم نهب المنطقة ^(٣). وقد أغفلت المصادر الصليبية رد الفعل الإسلامى للتصدي لهذه الحملة ولكن ابن الأثير ذكر أنه حينما بلغ دقاق بن تاج الدولة تش، صاحب دمشق هذه الأخبار « نهض فى عسكره وقاتل الفرنج وانتصر عليهم » ^(٤). وهكذا يتضح أن صاحب دمشق قد نجح فى إجهاض حملة بلدوين فى شرقي الأردن وجعلها تقتصر على السلب والنهب، وبدأت رحلة عودة الفرنج عبر مدينتى الخليل وبيت لحم إلى القدس التى وصلوها فى الثانى والعشرين من ديسمبر ١١٠٠م/ السابع عشر من صفر ٤٩٤هـ. قبل عيد الميلاد بثلاثة أيام . سالकिन الطريق نفسه الذى قدموا عبره فى حماية قلعة الخليل ^(٥). وبصفة عامة لم تواجه تلك الحملة بعقبات تذكر حتى وصفها أحد المؤرخين الحديثين بأنها كانت نزهة حربية ^(٦). وفى القدس تم تتويج بلدوين ملكاً على بيت المقدس فى موكب مهيب فى الخامس والعشرين من ديسمبر ١١٠٠م/ الحادى والعشرين من صفر ٤٩٤هـ ^(٧)، واستمرت فترة حكمه حتى عام ١١١٨م/ ٥١١هـ.

وتعد رواية فوشيه ذات أهمية بالغة بالنسبة للتاريخ المبكر لإقطاعية الخليل، وبداية فالمؤرخ شاهد عيان للأحداث حتى أنه استخدم ضمير المتكلم. فى روايته، وقد كشفت

(1) Fulcher of Charter, Op. Cit., PP.144 - 145; Cf. Also. Albert d'Aix Op. Cit., P. 535.

(2)Albert d'Aix. Loc. Cit.

(3) Fulcher of Charter, Op. Cit., PP. 144 - 145; Cf Als. Albert d'Aix, Op. Cit., PP. 533 - 536.

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١ ص ٣٢٤

(5)Albert d'Aix, Op. Cit. P. 548; Fulcher of Chartres, Op. Cit., P. 145.

(6) Grousset , R., Op. Cit., Vol. I , P. 215.

(7) Fucheher of Chartres, Op. Cit., P. 146; William of Tyre. Op. Cit., Vol. I, P. 400 ; Cf. Als., stvenson, W. ,Op. Cit., PP. 43 - 44.

عن العديد من الجوانب اللازمة لفهم الوضع العسكرى والإقطاعى الذى كانت عليه الخليل فى بداية عهد الصليبي، وعلى الرغم من أن المؤرخ لم يشر لاشتراك الفارس جلدمار حاكم قلعة الخليل آنذاك فى هذه الحملة التوسعية فى جنوبى فلسطين، إلا أن الشواهد جميعها تشير إلى حتمية اشتراكه فيها، فالحملة كما هو واضح استهدفت التوسع فى الأراضى المجاورة لمدينة الخليل، وكان ضمها للمعسكر الصليبي يعد خطوة لضم أجزاء منها لمن يقوم بالفعل بالسيطرة على القلعة، كما يرى أحد المؤرخين الحديثين أن الخليل كانت بمثابة قاعدة العمليات العسكرية فى هذه الحملة^(١). وأخيرا فالشخصية العلمانية الأولى فى فلسطين قبل أن يأتى بلدوين دى بوايون كانت هى تانكرد عدو جلدمار الذى طرده من حيفا، فكان قدوم بلدوين بشير خير جلدمار حيث أدرك أن بإمكانه أن يسترد حقوقه فى ظل وجوده. كما أن الوضع العسكرى كان يحتم على كل صليبي فى الأراضى المقدسة قادر على حمل السلاح أن ينضم للمعركة، فما بال أقرب هؤلاء الفرسان من ساحتها وهو يطل من قلعة الخليل على الأحداث من حوله، وعلى هذا فما من شك أن جلدمار قد برهن على إخلاصه ووده لبلدوين فانضم إليه بكامل فرسانه انتظارا للمكافأة.

أما عن نتائج الحملة ذاتها فمن الجلى أنها كانت خلال شطرها الأول بمثابة حملة للتوسع نهايتها عند قرية صغر بغرض ضم مجمل الريف الخليلي للمعسكر الصليبي، أما فيما وراء صغر فكانت تحركات الصليبيين يغلب عليها السعى إلى نهب الخيرات وإرهاب المسلمين فيما وراء البحر الميت. ويتأكد لنا هذا من سياق رواية فوشيه ذاتها حيث أشار إلى أن هدف بلدوين كان القضاء على مقاومة المسلمين ومهاجمتهم للصليبيين فى المناطق المحيطة بالخليل، أما حينما أشار إلى غزو ما وراء صغر والبحر الميت فقد انصبت عباراته على كيف سعى الصليبيون إلى الاستيلاء على الخيرات واستكشاف الأراضى فحسب.

ويذكر المؤرخ الصليبي راؤول دى كاين ضمن استعراضه لمآثر بلدوين الأول أنه كان قد استولى على قلعة الخليل والمواقع الأخرى المتاخمة لبית المقدس، ونظم أمر جباية الضرائب منها، ونظر فيها بنفسه^(٢)، وبالرغم من أن المؤرخ لم يوفق فى التعرف على من الذى أخضع قلعة الخليل وذكر أنه بلدوين فى حين أنه جودفرى ثم جلدمار؛ إلا أنه أكد على أن بلدوين هو الذى أخضع المناطق الأخرى من إقليم الخليل التى لم يفلح أخوه فى ضمها من قبل.

وإذا ما واصلنا الحديث عن حاكم الخليل جلدمار فتؤكد بعض الآراء على أن الخليل كانت تدار من خلال قلعتها الملكية (Rouial Castelle) عن طريق رؤساء

(1) Grousset, R., Op. Cit., Vol. I, P. 215.

(2) Raoul de caein, Op. Cit., P. 109.

حاميتها، وكان جلدمار كاربنل واحداً منهم، ويستندون في ذلك إلى أن الدمار لحق ببلدة الخليل حتى اقتصرت أهميتها على قلعتها فقط^(١). وبالرغم من وجهة هذا الرأي إلا أن الوثائق تقدم لنا بعض الحقائق المهمة التي تلقى الضوء على هذه القضية إذ تشير إحداها إلى أن جلدمار وهب جرار Gerare مقدم طائفة الإسترارية^(٢) ضيعتين في موقعين مختلفين: الأولى في الخليل، والأخرى في أريحا Jherico^(٣) وكانت أريحا من أوائل البلاد التي سقطت في يد الصليبيين وظلت تشكل جزءاً من ممتلكات بيت المقدس، وتقع الإقطاعية إلى الشمال من إقطاعية الخليل في غور الأردن الأوسط^(٤).

وتنطوي إحدى هذه الوثائق على دلائل عديدة؛ فمن ناحية تثبت أن الملك بلديون الأول قام بدوره بمنح الخليل إقطاعاً لفصله جلدمار، ولم يكتف الملك بذلك بل كما هو ثابت أقطعه أراضى أخرى خارج الخليل حيث أريحا، وهذا يؤكد على أن جلدمار كاربنل قد اكتسب رسمياً صفة حاكم الخليل، وعلى الأرجح أن يكون ذلك قد تم عقب مشاركة للملك في حملته التوسعية جنوب شرقى ممتلكاته. ومن ناحية أخرى تثبت الوثيقة حقيقة أن سيد الخليل كانت لديه حرية التصرف فيما يحوز من أراض

(1)Beyer, G., Z. D. P. V., LX V. P. 170, Mayer, H. E., Z. D. P. V., CI, P. 66.

(٢) أنشأ جماعة من الأمالفيين (في جنوب إيطاليا) اشتهروا بالتقوى والصلاح، داراً في بيت المقدس لينزل بها الحجاج المسيحيون الفقراء، وذلك في ١٠٧٠م/ ٤٦٢هـ. وكان معظم القائمين على هذه الدار من الرهبان وخضعوا لمقدم استمد سلطته من الهيئات البندكتية بفلسطين، وكان جرار مقدماً على الدار حين استولى الصليبيون على بيت المقدس. وفي ظل السيادة الفرنجية تحررت طائفة الإسترارية من الولاء للبندكتيين وتمتعوا بالاستقلال حيث أصبحوا تابعين للبابا مباشرة، وأخذت الطائفة تحصل تباعاً على هبات كثيرة من الحكام والنبلاء والإقطاعيين في المملكة. وبالتدريج ازدادت أهميتها وتحولت إلى هيئة تضم فرساناً مقاتلين حتى أصبحت دولة داخل دولة. راجع:

William of Tyre, Op. Cit., Vol II., PP. 242 - 245, Grousset, R., Op. Cit., Vol. I, PP., 541 - 542, Runciman, S., Op. Cit., Vol II, PP. 156 - 157; Beyer, G., Akko und/ Galilee, in Z.D.P.V., LXVII 1944 - 1945, P. 226.

(٣) تعرف الباحث على مضمون الوثيقة من خلال إقرارها وتثبيتها من قبل الملك بلديون الأول عام ١١١٠م/ ٥٠٠هـ. غير أن هناك من يذكر الثامن والعشرين من سبتمبر ١١٠٩م/ مستهل ربيع الأول ٥٠٣هـ كتاريخ لتحرير تلك الوثيقة. هذا، وقد أكد الملك بلديون الثالث (١١٤٣ - ١١٦٢م/ ٥١٨ - ٥٥٧هـ) ذات النحة في عام ١١٥٤م/ ٥٤٩هـ. راجع

Paoli, S. Cod. Dipl., Tom. I, Doc. No. 2, P. 2, Roehiricht, R., Regesta, Doc. No. 57. 243

(٤) تقع أريحا في منخفض نهر الأردن المعروف بالغور الواقع إلى الشمال من البحر الميت، وتتميز بدرجة الحرارة الشديدة وإنتاجها للمحاصيل الحارة مثل الموز وقصب السكر «وهي معدن النيل والنخيل» راجع المقدسى: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٧٥. انظر أيضاً

Beyer, G. Z.D.P.V., LXV, P. 179.

بحيث أصبحت لديه سلطة المنح ، وفى ذلك مايدعم طبيعة الكيان الإقطاعى الصليبي الذى قامت عليه إقطاعية الخليل بصفتها جزءا من مملكة بيت المقدس اللاتينية، ومن ثم فالباحث لايجد مجالا لاعتبار أن السلطة فى الخليل اقتصرت على كون قلعتها مركزاً عسكرياً ملكياً إذ غدا فى سلطة حكامها الإمساك بزمَام أمور تفوق سلطة حامى القلعة، ويتراءى للباحث هذا الوضع بوضوح فى امتلاكه أراضى داخل الخليل وخارجها مما يجعل من جلدمار رئيساً للقلعة ومقطعاً من مقطعى الملك الصليبي فى وقت واحد، وما من شك فى أن الدمار الذى لحق ببلدة الخليل قد قلل من مكانتها فى حين لفت دور قلعتها القوية والجديدة أنظار الجميع إليها، فتغلبت الناحية العسكرية فيها، وخاصة أن هذه الفترة كانت تغص بالحروب. وأخيراً فالوثيقة تثبت أن طائفة الإسمتارية كانت قد وضعت أساساً راسخاً لها فى إقطاعية الخليل منذ بداية عهدها ، الأمر الذى سيجعل من الإقطاعية مجالاً خصباً كى تتمكن الطائفة من تحقيق طموحاتها وتوسعاتها على حساب أراضى الخليل.

والواضح أن حكم الخليل لم يكن هو منتهى أمانى جلدمار فاتفتت رغبته بذلك مع رغبة الملك ، إذ تهيأت الفرصة أمام بلدوين كى يحرك الأمور داخل مملكته بالشكل الذى يرضيه بالدرجة الأولى، وهو توجيه ضربة لخصمه تانكرد ، إذ رأينا جلدمار الذى نال وضعاً مرموقاً فى الخليل وقد نهض ليطالب بحقه القديم فى حيفا على العكس مما كان متوقفاً نظراً لكونها مجرد إقطاعية صغيرة مقارنة بالخليل . وفى أول انعقاد لمجلس محكمة الملك Court le Roi (١) تقدم جلدمار بمظلمته عارضاً أحقيته فى حيفا ، وعرض على الحضور كيف استولى تانكرد عليها بالقوة رغم أن القائد جودفرى كان قد منحها إياه. وبعد سلسلة من الاجتماعات والمفاوضات بين الملك وتانكرد حدث فجأة ما أغرى الأخير بترك كل ما بيده بما فيها حيفا للملك كى يصبح حاكماً لأنطاكية (٢)، حيثذ قام الملك بتسليم حيفا والأراضى التى تقع فى زمامها إلى جلدمار كاربنل (٣) وبذلك تمكن بلدوين الأول من تضيق الخناق على تانكرد مستخدماً جلدمار أداة فى ذلك. وعلى أية حال لم يمض سوى شهر واحد تقريباً على ترك جلدمار لإقطاعيته فى الخليل

(١) تعرف هذه المحكمة أيضاً باسم المحكمة العليا High Court وكانت تنعقد برئاسة الملك نفسه أو من ينوب عنه من النبلاء وكانت تختص بالتشريع والسياسة العليا للمحكمة والمنازعات والمخالفات بين النبلاء بعضهم وبعض. راجع :

Archer, T. H. and kingsford , C. L. The crusades. The Story of Latin Kingdom of Jerusalem, London 1919, P. 125 Cf. Als. Grousset, R., l'enpise du levant., P. 203..

(٢) كان قد وصل إلى حيفا وفد من نبلاء أنطاكية طالبين من تانكرد الانتقال لحكم الإمارة فى مكان خاله بوهيموند Bohemond بصفته الوريث الشرعى لممتلكات خاله الأسير. راجع Albert d'Aix, Op. :Cit., PP. 531-537

(3) Ibid., PP. 537 - 538.

رسمياً حتى قضى نجه في معركة الرملة الأولى في سبتمبر ١١٠١م/ ذو القعدة ٤٩٤هـ^(١) ضد الفاطميين ، وهكذا استمر جلدमार كاربنتل في حكم الخليل مايقرب من العام .

وقبل أن نستأنف تسلسل الذين تولوا حكم الخليل فلا بد من وقفة لتتعرف على **استكمال عملية إخضاع بلاد الخليل**، وفي البداية لابد من التعرف على موقف الأهلالي العرب من الصليبيين حكامهم الجدد. فمن الثابت أن المقاومة الإسلامية ورفض الواقع الجديد قد استحدث طيلة العقد الأول من الوجود الصليبي تقريبا في بلاد الخليل، إذ يقدم كل من الرحالتين الصليبيين؛ سايولف الذي زار الخليل في الفترة الواقعة بين عامي (١١٠٢ - ١١٠٣م / ٤٩٥ - ٤٩٦هـ) ودانيال الروسي الذي زارها أيضا بين عامي (١١٠٦ - ١١٠٧ م / ٤٩٩ - ٥٠٠ هـ) روايات هامة تصف مشاهدتهما والتجربة الشخصية لرحلتهم في المنطقة، وتخلص هذه الروايات إلى أن المسلمين كانوا يشكلون خطراً داهماً على الصليبيين خاصة على الطريق الواصل بين القدس والخليل، كذلك في منطقة بيرة الخليل وجنوب المدينة ، حتى أن دانيال الروسي نصح بعدم المخاطرة والتوجه إلى جنوبي البحر الميت لزيارة قرية صغر . وأضاف نفس الرحالة الصليبي ذاكراً أنه قد سار في رفقة رهط من الصليبيين المجهزين بالسلاح في رحلته من الخليل إلى القدس شاكرًا الله على اجتياز الطريق بسلام دون اعتداء^(٢).

وما من شك أن هذه الإشارات لها مغزاها الخاص، إذ ينبغي ألا نتصور مقاومة المسلمين تلك بمعزل عن حركة الجهاد ضد الصليبيين، كما تكمن أهمية ما أورده الرحالتان من معلومات في أنها توضح حدود الأراضي التي خضعت عملياً للصليبيين من بلاد الخليل، وتميزها عن المناطق التي تمثل فيها الوجود الصليبي بمجرد مد للنفوذ، وهذا يعني أنه بحلول عام ١١٠٧م/ ٥٠٠هـ تقريباً كان الصليبيون قد نجحوا في فرض سيطرتهم حول الخليل حتى شواطئ البحر الميت الغربية رغم التهديدات المحدودة من قبل المسلمين التي أجبرت الصليبيين على التحرك في جماعات مسلحة بين بقاعها. وإذا كان جودفرى دي بوايون قد أخضع شيوخ القبائل في الجهات الداخلية بإبرام عدد من الاتفاقات معهم، فلا يعني ذلك رضاهم بالواقع الجديد، كما لا يعني إخضاع جميع العشائر. وعليه يمكن القول بأن سلطة الخليل الصليبية قد تدعمت أخيراً بإخضاع مناطقهم في صغر ووادي عربة والجهات الجنوبية عامة من إقليم الخليل والنقب الشمالي .

(1) Bartolf de Nangis, Gesta francorum Iherusalem Expugnantium, R. H. C. Occ. Vol.

III, Paris 1866, Vol. III. P. 534 - 535, Albert d'Aix, Op. Cit., P. 549.

(2) Saewulf, Op. Cit., PP. 11 - 12 Daniel the Russian, Op. Cit., PP. 44 , 49

وإذا ما انتقلنا للتعرف على الحاكم الذى خلف جلدمار فى حكم الخليل فمن الأرجح أن يكون هو **جودفرى^(١)**، الذى ذكر فى إحدى الوثائق برسم جودفريدوس Godfredus. ويرجع تاريخ الوثيقة إلى فترة الحكم اللاتينية المبكرة للأراضي المقدسة، وتم تدوين الوثيقة وتأكيدهما فى ٢١ أغسطس ١٢٢٧م / ٦ رمضان ٦٢٤هـ. وقد ذكرت جودفرى مقروناً بشخص يدعى هيودى سانت أبراهام وهما يحملان لقب سيد حبرون Domenu de Hebron وذلك عندما قاما بمنح قريتين لكنيسة بيت لحم، وجاءت هذه الوثيقة لتؤكد هذه المنحة^(٢). ويعد جودفرى المذكور من أبرز أنصاف الملك بلدوين الأول إذ كان يرأس حامية برج داود فى بيت لحم حتى وقع أسيراً فى أيدي المسلمين، وتختلف المصادر فى تحديد تاريخ الأسر، فمنها ما يحدده بعام ١١٠٣م / ٤٩٧هـ^(٣)، ومنها ما يحدده فى تاريخ لاحق على ذلك، حيث يروى البورت ديكس فى موضعين مختلفين أن جودفرى شارك فى أعمال حربية ضد المسلمين وذلك فى أغسطس ١١٠٥م / ذى الحجة ٤٩٨هـ، أكتوبر ١١٠٦م / صفر ٥٠٠هـ^(٤) فإن هذا يعنى أن جودفرى كان قد حاز من الممتلكات الملكية منطقتين برج داود والخليل.

هذا عن جودفرى، ولكن ماذا عن هيودى سانت أبراهام؟ فوفقاً لما جاء فى المصادر فسجد هيودى ريبك Hugo de Rebecque وهو ينتسب إلى إقليم تيروان Throuanne الفرنسى^(٥). وكان أول ظهور له فى الوثائق أثناء أحداث إسقاط مدينة أنطاكية باسمه هيو Hugo مجرداً عام ١٠٩٨م / ٤٩١هـ^(٦). ولكن اسمه ذكر فى وثيقة حررت عام ١١٠٤م / ٤٩٧ - ٤٩٨هـ. مقروناً بلقب سانت إبراهام Hugo de إبراهام

(1) Mayer, H.E. Z. D. P. V., CI, 1985, P. 66.

(2) Riant, P., Etudes swr ' Histoire de L'Eglise de Bethlahem, Vol. I, Genoa 1889, Doc. No. 9, PP. 146 - 147, Roehricht, R., Regesta, Vol. I, Doc. No. 983.

تؤكد عدة شواهد وردت فى نص الوثيقة على أنها كتبت أثناء وجود الحكم الصليبي فى المناطق التى فقدتها الصليبيون قبل حطين - أى قبل تاريخ تدوين الوثيقة - ويذكر أحد المؤرخين الحديثين الذين تناولوا الوثيقة بالدراسة أنها ترجع بأصلها إلى طيلة الفترة الواقعة من بداية حكم بلدوين الأول حتى نهاية الوجود الصليبي فى الخليل. راجع : المناقشة التى دارت حول الوثيقة فى

Beyer, G., Z. D. P. V. LXV, PP. 169 - 200

(3) Martin, Abbe, Les Premiers Princes crises et les Syriens Jacobites de Jerusalem, J. A., XII 1888, Frenchtrans, P. 57

ويضيف نفس المؤرخ أن جودفرى ظل فى أسر المسلمين لمدة طويلة حتى أطلق سراحه عام ١١٣٧م / ٥٣١هـ، كان من الصعب أنذاك رد ما فقدته من ممتلكات ولكنه مالبت أن توفى بعد عام واحد تقريباً

(4) Albert d'Aix, Op. Cit., PP. 621 , 637, 648.

(5) Moeller, Ch., les Flamansh du Ternois au Royaume Latin de Jerusalem, Melanges paul Frederieq Bruessel 1904 P. 192.

(6) Roehricht, R., Regest. Doc. No. 10.

"StAbraham" على أنه أحد الشهود^(١). كما ورد ذكر هيو في المصادر عندما اشترك في أحداث معركة الرملة الثالثة ١١٠٥م/٤٩٨هـ. متسبباً إلى سانت أبراهام أيضاً، وذلك حين استنجد به الملك بلدوين الأول الذى كان مقيماً في يافا للانضمام إليه لمواجهة الجيش الفاطمى في عسقلان^(٢). وهكذا فالمصادر الصليبية دأبت على أن تذكر هيو حاملاً لقب سانت أبراهام. ولتمييزه عن حاكم آخر للخليل يحمل نفس الاسم واللقب - الذى ستعرض له الدراسة فى مرحلة لاحقة - فيجب ذكره على أنه هيو سانت أبراهام الأول. وقد أشارت وثيقة عام ١٢٢٧م/٦٢٤هـ - التى تم الإشارة إليها سلفاً - إلى هيو عندما أكدت المنحة التى قدمها مشتركاً مع جود فرى سيد برج داود وهى عبارة عن قريتين تم منحهما لكنيسة بيت لحم ، وفيها ذكر بـ هيو متسبباً إلى حبرون^(٣).

بهذا العرض المقتضب لكلتا الشخصيتين (جودفرى وهيو) اللذين ارتبط اسمهما بالسيادة على الخليل، يتعين علينا تتبع حدود فترة حكم كليهما للإقطاعية. وفى هذا الصدد يمثل أمامنا رأى لعدد من المؤرخين الحديثين يذكرون أن هيو تولى السلطة فى عام ١١٠٣م/٤٩٦هـ. وانتهت فترة حكمه فى عام ١١٠٥م/٤٩٩هـ^(٤). ويختلف أحدهم فى تحديد تاريخ بدء تسلّم السلطة ويحدده بعام ١١٠٤م/٤٩٧هـ. فى حين يتفق مع أقرانه فى تحديد تاريخ نهاية الفترة^(٥). وينبغى الإشارة هنا إلى أن هؤلاء المؤرخين وضعوا آراءهم هذه قائمة على الاستنتاج والتخمين، وكان من الأفضل بالنسبة لهم أن يضعوا نصب أعينهم تزامن حدث أسر جودفرى وبداية ظهور هيو فى الوثائق حاملاً لقب سانت أبراهام.

ومن ناحية أخرى أغفل هؤلاء الباحثون رواية ألبرت ديكس الأخيرة والتى كان قد أشار فيها إلى أن جودفرى ظل حراً طليقاً حتى عام ١١٠٦م/٥٠٠هـ. ويرى الباحث أنه إذا ما صحت تلك الرواية فإن سيادة كل من جودفرى وهيو قد تداخلتا على الخليل، غير أنه من الممكن أن نضع تفسيراً لهذا بأن الأخير تولى الإشراف على الخليل أثناء غياب جودفرى فى الأسر. وذلك بعد أن قام هيو بضم أراضى الخليل لنفسه بعد موافقة من الملك بلدوين الأول، على أساس أن يقوم الملك بتعويض جودفرى عن ممتلكاته حينما يطلق سراحه، وهذا بدوره يعطى ثقلأ إضافياً لمن يتولى السلطة فى إقطاعية الخليل.

(1) Roehricht, R., Regest Doc. No. 43.

(2) Albert d'Aix, Op. Cit., P. 621.

(3) Riant, P., Etudes L'Histoire de l'Eglise de Bethluhm, Vol. I, Doc. No. 9, PP. 140 - 145., Roehricht, R., Regesta, Doc. No. 983.

(4) Rey, E. G., Les Familles d'Outre - Mer, P. 402, Richard, J., the latin kingdom of Jerusalem, P. 76, Benvenisti, M., Op. Cit., P. 19, Tibble, Steven, Monarchy and Lordships in the Latin kingdom of Jerusalem, oxford 1989, P. 50

(5) Mayer, H. E., B. K.S. PP. 76 - 78.

أما الشخصية التالية التي تولت الإشراف على الخليل وحماية قلعتها فهو روجر صاحب حيفا Rorgius de Caife، والجدير بالذكر أن ألبرت ديكس هو الذى انفرد بتقديم المعلومات عنه؛ إذ يشير إلى أن روجر كان فى ذات الوقت سيداً على إقطاعية حيفا الصليبية منذ إقطاعها له بعد مقتل جلدمار كارنبل فى ١١٠١م/٤٩٤هـ، وأنه ظل يشرف على الإقطاعيتين حتى وفاته فى عام ١١٠٧م/٥٠١هـ. ويفهم مما ذكره المؤرخ الصليبي أنه تولى فقط الإشراف على قلعة الخليل دون الإمساك بالسلطة بها بصفته باروناً، ويتبين ذلك من إشارته إلى أن الشخصية التى تلت - وهو جوتييه - تولى رئاسة حامية قلعة سانت أبراهام بعد عهد روجر^(١)، ومن ثم جاءت الإشارة هنا قاصرة على فترة إشرافه المحددة دون وصفه برئيس للحامية أو سيداً على القلعة أو المدينة. وقد أورد كتاب الأسرات فيما وراء البحار اسم روجردى حيفا فى قائمة سادة الخليل واقعاً فى الترتيب فيما بين هيودى سانت أبراهام الأول وجوتييه^(٢) الذى سوف نتعرض إليه تواتراً. وما يجدر ذكره أن وجود شخص بعينه على رأس إقطاعيتين فى وقت واحد قد يعنى قيام اتحاد فيما بينهما، بل قد يترتب عليه أيضاً تشابك فى الممتلكات والعلاقات الأسرية فى الأجيال اللاحقة، غير أن كل هذا لم نجد له واقعاً فى المصادر المتاحة لدى الباحث، مما يؤكد أن إشارة ألبرت ديكس كان لها مغزاها فى أن تكون فترة إشراف روجر على قلعة الخليل مجرد تكليف ألقى عليه من قبل الملك بلدوين الأول الذى استوثق فيه، وركن إلى نشاطه وقوته، وتوخى فيه الشجاعة والقوة. أما نوعية هذا التكليف فتحدد فى قيام روجر برئاسة فرسان الخليل الذين يشكلون حامية القلعة، وهذا يفهم أيضاً من إشارة المؤرخ ذاته.

أما الشخصية التالية فهو الفارس المعروف باسم **جوتييه المحمدي** الذى ورد اسمه فى المصادر بأشكال عدة ومنها Goulterius Baffumeth^(٣) / Glterius Mahomet^(٤) أو Cognonine Mamoch^(٥) - Goulterius Basumeth^(٦) وكان أول ذكر له فى وثيقة عام ١١٠٤م/٤٩٧هـ كأحد الشهود^(٧) والملاحظ أن هذه الوثيقة لم

(1) Ablert El d'Aix, Op. Cit. PP. 593, 639.

(2) Rey, E.G. Les familles d'Outre Mer, PP. 262 - 263, 423.

(3) De la ville le Roulx, C G. O. Hvol. I. No., 20 , 225.

(4) Roehricht, R., Regesta Doc. No. 43 - 57.

(5) Guibert de Nogen, Historia quae dicitur, Gesta Dei per Francos P. 262.

ويبدى المؤرخ الصليبي المذكور بعض الاستغراب من مسمى ماخوموس Machomus ويعتقد أنه حصل على اسم كوجنوميني Cognomine من الأب الذى قام بتعميده.

(6) Mayer, H. E., ed. Tabulae ordinis theutonicici, Doc. No. 7, P. 8, Rohricht, R., Regesta, Doc. No. 293.

(7) Roehricht, R., Regesta, Doc. No. 43.

لم تذكره بأى لقب، فى حين أن ذات الوثيقة كانت قد لقت هيو سانت أبراهام. وكان ألبرت ديكس قد أشار أثناء حديثه عن الأحداث التى سبقت معركة الرملة الثالثة ١١٠٥م/ ٤٩٨هـ إلى شخصية جندى عمل فى خدمة الملك^(١). وقد أكد القس جيبرت دى نوجان - وهو أحد المؤرخين الصليبيين المعاصرين - على قيام هذا القائد بدور حربي مهم فى أحداث المعركة، ويوضح المؤرخ من ناحيته أن جوتييه كان قد أسر أثناء صباه وتم تعميده وارتقى فى الخدمة الملكية حتى أنه فى عام ١١١٢م/ ٥٠٦هـ. ترك له الملك بلدوين الأول المسئولية عن أحوال بيت المقدس أثناء غيابه لقيادة حملة داخل الصحراء. ويبرر جيبرت تلك المكانة الرفيعة التى احتلها جوتييه بأنه كان قد تمكن من إحباط محاولة إسلامية للاستيلاء على بيت المقدس بفضل إتقانه للغة العربية^(٢).

وفى موضع آخر يذكر ألبرت ديكس أنه حينما تحالف الفاطميون مع الدماشقة (فى زمن تال لأحداث معركة الرملة الثالثة ١١٠٥م/ ٥٩٨هـ)، وكانوا يستهدفون الإغارة على مدينة الخليل وتدمير قلعتها، كان يتولى حراستها فى ذلك الوقت رجل يدعى جوتييه ولقبه المسمى، وكان قد أخذها منحة من الملك بعد نهاية رئاسة روجردى حيفا وذلك بوفاة^(٣). ويحدد بعض المؤرخين الحديثين تلك الأحداث بتاريخ يونيه ١١٠٧م/ ذو القعدة ٥٠١هـ^(٤) وعلى هذا يكون جوتييه قد تولى قيادة حامية قلعة الخليل فى هذا العام أو قبل ذلك بقليل. ومن الجدير بالذكر فى هذا الموضع أن كتاب الأسرات فيما وراء البحر يقدم تاريخ ١١١١م/ ٥٠٥هـ. على أنه بداية تولى جوتييه للحكم فى الخليل^(٥)، وعندما أشار بعض المؤرخين الحديثين إلى الشخصية^(٦) قاموا بنقل ذلك التاريخ المخالف للواقع عن كتاب الأسرات، وللباحث ما يقوله بخصوص الإشارات المتكررة المبينة على المصادر الغربية بشأن نجاح الصليبيين فى جعل صبي مسلم يتحول إلى صليبي محتك أنه من المستبعد ذلك إذ ليس لدينا أمثلة دالة على أن شباب المسلمين قد تحولوا من الإسلام جزئيا أو ارتدوا عنه كلية فى تلك الفترة.

(1) Albert d'Aix, Op. Cit., PP. 646, 683.

(2) Guibert de Nogen, Op. Cit., P. 262.

(3) Albert d'Aix, Op. Cit., P. 647.

(4) Grousset R., Histoire des Croisades, Vol. I, P. 251, Cf. Als., Edgington, S. B., ed., Albert of Aachen., Historila Iherosolimitana (has not been printed yet)

(5) Rry, E. G., Les Familles de Outre - mer, P. 423.

(6) Conder, C. R., the latin Kingdom P. 83. Richard, J., the latin kingdom P. 88

أما عن الأمور الداخلية فى عهد جوتيه المحمدى فتتمثل فى بروزه كواحد من أكبر أعوان الملك بلدوين حتى أنه كان يرافقه فى تحركاته، ويبرهن على ذلك ورود اسمه كشاهد على عدد من الوثائق والعقود التى كان يبرمها الملك، ومنها تلك المنحة التى قدمها الملك لدير «القديسة مريم» فى وادى جوزفات ١١٠٨م/ ٥٠٢ هـ، كما ذكر فى وثيقة أخرى كشاهد على المنحة التى قدمها روجر أسقف الرملة للدير سالف الذكر سنة ١١١٥م/ ٥٠٩ هـ^(١). وفيما يختص بإقطاعية الخليل الصليبية ذاتها على عهد جوتيه فقد قام الملك بلدوين فى عام ١١١٠م/ ٣٠٤ هـ بمنح قطعة أرض صغيرة فى الخليل إلى طائفة الإسبتارية^(٢). وما يذكر عن جوتيه أيضاً أن إحدى الوثائق المدونة فى وقت لاحق من العام نفسه أشارت إلى منحه الإسبتارية قلعة تدعى سوسيا Sussia^(٣) الواقعة جنوب الخليل. والمعتقد أن القلعة كانت ضمن ممتلكات جوتيه فى الإقطاعية وليست من ممتلكات الملك بلدوين الأول، مما يعطى انطباعاً بأن جوتيه حصل على أراضى إضافية خارج مدينة الخليل كإقطاع.

وإضافة إلى مجموعة العقود التى شملت المنح والتأكيدات فى عهد جوتيه المحمدى نجد المصادر والوثائق قد أبرزت أمراً آخر له أهميته، وهو ما يتعلق بالتطورات التى بدأت تحدث فى كنيسة سانت أبراهام حيث انتعشت من جديد وعاد لها الرخاء الذى فقدته مبنى الحرم مع بداية الغزو الصليبي، وذلك بفضل المنح والهبات التى أسبغها الأغنياء على الكنيسة^(٤)، هذا، وقد اتبعت الكنيسة النظم الرهبانية الأوغسطينية (Augustinian Canons). أو قوانين أوستين الكنسية^(٥)، وتم تسجيل ذلك فى

- (1) Kohler, Ch., Chartes de l'abbaye de Notre - Dame de la Vallee de Josophat en Terre- saint, in R. O. - L, Tome X, Paris 1899 Registers 175, 188, PP. 112 - 113, 117 , 118, Roehricht, R., Regista No. 52, 80
- (2) Paoli S., Cod., Tome I, Doc. No. 2, PP. 2- 3.
- (3) Roehrichr R., Regesta . Doc. No. 41, 74 , 134.
- (4) Canonici Hebronensis, Tractatus de Inventionem P. 308
- (5) Vincent, Mackay, Abel, P. 164 , Hamilton B., The Latin church in the crusader states, London 1980, PP. 67 - 68

من المعتقد أن هذه القواعد تنسب إلى القديس أوغسطين دى هيبو Augustine de Hippo الذى أحدث الثورة الفكرية فى المجتمع المسيحى الأوروبى طوال فترة العصور الوسطى. من أهم مؤلفاته كتاب مدينة الله Dcivilaté وكتاب اعترافاتي، أما عن القواعد المنظمة للحياة الديرية فقد أخذت تشيع بداية من أواخر القرنين الحادى عشر الميلادى فى أوروبا وكانت تقوم على أساس النزوع إلى الافراد كل داخل صومته، وإن كانوا يعيشون داخل أسوار دير واحد وهدفهم السكون والتأمل فى ذات الله العليا، انظر: جوزيف نسيم يوسف: معالم العصور الوسطى والنظم والحضارة، القاهرة ١٩٩٠م، ٢، ص ٢٨ - ٣١؛ هاريتان باركلييف ل. م الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى ترجمة جوزيف نسيم يوسف، القاهرة ١٩٧٠م. ص ٥٧ - ٥٨.

الوثائق لأول مرة فى عام ١١١٢م / ٥٠٦هـ^(١). وفضلاً عن ذلك ورد ذكر منصب رئيس رهبان سانت أبراهام ومنصب رئيس كنيسة سانت أبراهام، وكان عدد الرهبان يبلغ العشرة. ويفهم من ذلك وجود دير إضافة لكنيسة أخرى تحمل كلاًهما اسم سانت أبراهام، مما يوضح أن الحرم الإبراهيمى قد ضم ديراً وكنيسة يخصصانه. وقد ظلت الوثائق تذكر جوتييه المسمى حتى عام ١١١٥م / ٥٠٩هـ^(٢) ويرى أحد الباحثين الحديثين أن سلطة جوتييه فى الخليل اقتصر على كونه رئيساً لحامية قلعة المدينة^(٣) غير أن الباحث يرى أن فى ذلك تقليداً واضحاً من سلطة الحاكم؛ نظراً لأنه كان يحوز بعض الأراضى حول الخليل وكانت له حرية التصرف فيها مما يوحى أن سلطته تخطت مجرد كونه رئيساً للقلعة إلى كونه مقطوعاً يتبع التاج الملكى.

يتضح من الوثائق المشار إليها والمتعلقة بفترة رئاسة جوتييه المسمى على قلعة الخليل بعض الأمور على جانب من الأهمية أن طائفة الإسطبارية واصلت تغلغلها شيئاً فشيئاً وتنمية قوتها داخل أراضى الخليل سواء بيد الملك الصليبي أو على يد أولى السلطة فى الخليل أنفسهم. ولذلك دلالة، فظهور قوة الإسطبارية فى الإقطاعية لابد أن يأتى على حساب القادة العلمانيين فيها تقليصاً لدورهم العسكرى وربما الإقطاعى. أما الأمر الثانى فهو أن ملك بيت المقدس كان يمنح بعض الأراضى داخل إقطاعية الخليل دون الرجوع إلى فصله جوتييه مما يعد دلالة على أن سلطته اقتصرت فعلاً على ما كان يحوزه من ممتلكات شخصية له حرية التصرف فيها، إضافة لرئاسته لحامية قلعة الخليل بتعيين من ملك بيت المقدس. وأخيراً فلم تذكر أى من الوثائق جوتييه وقد حمل لقب «سيد»، وربما فى ذلك إشارة إلى أنه لم يكن إلا مجرد أحد الفرسان البارزين، ويعزى ذلك إلى عدم فرنجيته وحدائته فى المسيحية، أما وقد اعتمد بلدوين الأول عليه بوصفه رئيساً لحامية قلعة الخليل فلا إدراكه أنه «لايفل الحديد إلا الحديد» فرأى أن يمنحه القلعة للتصدي لخطر البدو والمسلمين القريبين من الخليل لعلمه بفنون قتالهم ولغتهم.

أما عن الحاكم التالى للخليل؛ فقد أشارت إليه وثيقة عام ١١١٥م / ٥٠٩هـ باسم بلدوين حاملاً لقب سانت أبراهام "Balduni de Saneto Abraham"، على أنه أحد الشهود على العقد، وظلت الوثائق تشير إليه كشاهد على العقود أيضاً فى أعوام ١١٢٠م / ٥١٤هـ، ١١٢٦م / ٥٢٠هـ، ١١٢٩م / ٥٢٣هـ، ١١٣٠م / ٥٢٤هـ.

(1) Delaville le Roux. C. G. O. H. Doc. No 25, 38, 120 PP. 26, 28, 98. Roehricht, R., Regesta, Doc. No. 41, 124, 308. Bres c. Bautier, J; la cart. du chap., Doc. No. 26. PP. 176 - 178, Doc. No. 77. PP. 178 - 183., Canonici Hehronesis Op. Cit., P. 310.

(2) Roehricht R., Regesta, Doc. No. 80.

(3) Mayer., H. E., Z. D. P. V., P. 67.

١١٣٦م/ ٥٣٠هـ^(١). ولعل هذه الإشارات تدل على أن هذا الشخص ظل يحتفظ بحكم الخليل فترة تناهز حوالى عقدين من الزمن تبدأ من عام ١١١٥م/ حتى ١١٣٦م وهذه تعد أطول فترة لحاكم صليبي يتولى أمر الخليل. والذي ينبغي الإشارة إليه أن أول ذكر لبلدوين قد ورد فى نفس الوثيقة التى ورد فيها آخر ذكر لاسم سابقه جوتيه المحمدى وقد انتسبت الشخصيتان فيها إلى سانت أبراهام، بيد أن الأمر يختلف فى أن جوتيه كان قد ظهر فى الوثائق مانحاً للممتلكات فى حين ظهر بلدوين بصفته شاهداً على العقد فحسب^(٢)، ويمكن تفسير ذلك بأن بلدوين قد شغل وظيفة مرموقة ما فى الخليل بحيث كان من الضرورى أن ينتسب إليها أثناء إمساك جوتيه المحمدى بزمام الأمور فيها.

أما عن أهم الأحداث التى شهدتها إقطاعية الخليل على عهد سيدها بلدوين دى سانت أبراهام فتمثل فى مشاركته فى ترشيح الملك الصليبي الجديد على عرش بيت المقدس ، فى الثانى من أبريل ١١١٨م/ التاسع من ذى الحجة ٥١١هـ توفى الملك بلدوين الأول أثناء عودته بسبب المرض من حملة كان قد شرع فى الخروج بها إلى مصر بالقرب من العريش^(٣)، وحمل جثمانه عبر طريق الخليل ودفن بجوار أخيه جودفرى عند الجلجثة^(٤). والجدير بالذكر أنه قد أصاب بسهم وأفر فى تأسيس وتدعيم الكيان الصليبي لإقطاعية الخليل، كما أنه وصف من قبل المؤرخين المسلمين أنفسهم بصفات تدل على قوة شخصيته وحكمته فى تدبير الأمور^(٥). وقد خلفه على العرش ابن عمه بلدوين دى بوج (Bédoin de Bourg) ، أمير الرها حيث قام البطريق أرنولف (Arnaulf) (تولى البطيركية ثانية من ١١١٢ - ١١١٨م/ ٥٠٦ - ٥١٢ هـ) بتتويجه ملكاً فى الرابع عشر من أبريل ١١١٨م/ الحادى والعشرين من ذى الحجة ٥١١هـ^(٦) ،

(1) Paoli., Cod. Dipl. I., Doc No. 17, pp. 18 - 19. Cf. Als; Bresc - Bautier, J., Le Cart. du Chap., Doc. No. 27, pp. 88 - 89, Doc. No. 30, p. 92. Appendixe I, pp. 347; Röehricht, R., Regsta, Doc. No. 80.

(2) Roehricht, R., Regsta, Doc. No. 80.

(٣) العريش مدينة فيما بين: أرض فلسطين وإقليم مصر، وهى مدينة قديمة من جملة المدائن التى اختطت بعد الطوفان، وهكذا فالعريش هو الاسم الذى أطلقت العرب على المدينة. والظاهر أن أهلها كانوا يسكنون فى مظال من الفش اليابس وهو:العريش كما يفعل أهل البادية حالياً فى الصيف. راجع:المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار القاهرة ١٣٢٤هـ. ج ٢، ص ١٥١؛ نعم شقير: تاريخ سيناء، ص ١٧٠.

(4) A lbert d'Aix, Op. Cit., PP. 708 - 709.

(٥) وصفته المصادر الإسلامية بأنه شجاع. انظر: الحريرى ، الإعلام والتبيين ، ص ٢٣ - ٢٤ ؛ راجع أيضا : ابن أيبك الدوادارى : كثر الدرر وجامع الغرر (الدرة المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية) ، القاهرة: ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١م ، ج ٦ ، ص ٤٨٠ ؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٧١.

(6) Fulcher of Chartaers, Op. Cit. PP. 225 - 231 ; Aononymous., Syriac chronicle, The First and the Second Crusades, ed. and trans tritton A. S. in the J. A. society, London 1933, Part I , P. 86.

وقد ظل بلدوين فى حكم البلاد حتى عام ١١٣١م/ ٥٢٥هـ. وفى عهده تكاملت الانظمة بشكل واضح فى جميع النواحي^(١).

لعل أكثر الاحداث الداخلية أهمية على عهد بلدوين دى سانت أبراهام بل وأهمها أيضا فى عهد اللاتين عامة فى مدينة الخليل هو ما تم إعلانه عن اكتشاف قبور الأنبياء الحقيقية؛ فتحت إشراف رئيس كنيسة سانت أبراهام ويدعى رينيه Rainier^(٢) وبالتحديد فى تاريخ السابع من يوليو ١١١٩م/ السابع والعشرين من ربيع الثانى ٥١٣هـ. تم فتح المغارة التى كان فيها رفات الأنبياء إبراهيم، إسحق ويعقوب^(٣) (عليهم السلام) وكان حدثاً له اثاره المهمة. وهناك رواية وضعها راهب من الخليل مجهول استعرض فيها قصة اكتشاف الرفات. وقد حظيت تلك الرواية باهتمام عدد من الباحثين الحديثين فتناولوها بالعرض والتحليل وأقروا بمصادقية الوقائع التى وردت فيها ونرجئ أمر الحديث فى هذا الموضوع حتى نتعرض له تفصيلا فى شق آخر من هذه الدراسة

وفى هذا الجانب من الدراسة نكتفى بإبراز ما ورد فى الروايات المختلفة ويفيد فى فهم بعض النواحي الداخلية الخاصة بالخليل. فقد أورد راهب الخليل المجهول إشارتين عن حاكم الخليل بلدوين دى سانت أبراهام أثناء سرده لقصة اكتشاف رفات الأنبياء؛ ففى الأولى ذكر أن بلدوين اجتمع برهبان كنيسة سانت أبراهام وقام بتنظيم عمل فتح المغارة وتكسير الأحجار فيما بينهم، وكذلك توفير الأدوات اللازمة لذلك حيث إن رينيه رئيس الرهبان كان فى القدس فى تلك الآونة، وقد نجح فريق العمل تحت رعاية بلدوين فى كسر حجر ضخّم فتح المجال لكشف خبايا المغارة. أما الإشارة الأخرى فتتمثل فى أنه عندما فتحت مغارة الدفن اعتقد حاكم الخليل فى أنها تحتوى على كنز فطالب الرهبان بأن يدخل هو أولا فيها ولكنه هاب الموقف بشدة ولم يتمكن من مواصلة البقاء فيها^(٤).

والذى يتفحص الملابس والظروف التى تمت فيها عملية التنقيب والاكتشاف يلمس أن الأمر تحيطه صعوبات حقيقية، ويرى أحد المؤرخين الحديثين أنه لا يمكن التقليل من هذا الشأن، فالتعامل مع أحجار ضخمة صلبة بأدوات القرن الثانى عشر

(1) Prawer, J. The World of the Crusaders, London 1972, P. 91.

(٢) ورد اسم رينيه فى عقد دونه الملك بلدوين الأول بتاريخ العشرين من يونيو ١١١٢م. / الثالث والعشرين من ذى الحجة ٥٠٥هـ. كاحد الشهود الموقعين عليه راجع :

DelaVilla le Raulx, C. G. O. H., Vol. I Doc. No. 25, Roehricht Vol. II ,Doc. 68 A.

(٣) ذكر راهب الخليل تاريخ بدء العمل فى فتح المغارة بشهر يونيو فى العام الحادى والعشرين من حكم الفرنجة، وفى دراسة تحليلية قام بها الباحث « بول ريان » بتاريخ العمل فى التنقيب والكشف فى المغارة يمتد فى الفترة من « شهر يونيو حتى أكتوبر من عام ١١١٩م/ ربيع أول جماد ثان ٥١٣هـ. راجع :

Canonici Hebronsis, Op. Cil, p. 309. Riant, p. Invention. P. 410.

(4) Cononic, Hehronensis, Op. Cit, PP. 310 - 312.

الميلادى / السادس الهجرى البسيطة لم يكن بالأمر الهين^(١). وهنا تبرز لنا حيوية الدور الذى ساهم به بلدوين دى سانت أبراهام، إذ حرص وهو من العلمانيين على أن يزوج نفسه داخل شئون كنيسة الحرم والعمل على تهيئة الأمور أمام رجال الدين فى تنفيذ ذلك المشروع المهم. ولكن ما الذى سوف يعود عليه من تلك الخطوة ؟ فما من شك فى أن وجود مثل هذا المشروع الهام فى قلب الأراضى التى يحكمها ما يفرض عليه ذلك. أما وقد تمحس بلدوين للاشتراك فى هذا العمل فرمما يرجع سر هذا الحماس إلى رغبته فى الاستحواذ على منافع مختلفة. ذكر الراوى لنا منها توقعه العثور على كنز ، أما المنافع المحتملة الأخرى وتمثل فى رغبة هذا الحاكم فى أن ينال مكانة رفيعة داخل مملكة الصليبيين بل وشهرة بين مسيحي أوروبا حين ترتبط عملية الاكتشاف باسمه.

وفى أواخر السرد الذى جاء على لسان راهب الخليل الذى استعرض فيه قصة اكتشاف قبور الأنبياء ذكر أن رينيه رئيس رهبان سانت أبراهام توجه فور اكتشاف رفات الأنبياء إلى بيت المقدس كى يخبر البطريك رموند دى بيكيينى Garmund de Picquigny بما حدث، ويطالبه بالقدوم الى الخليل كى يشارك فى الاحتفالات التى ستقام بمناسبة رفع رفات الأنبياء، ووعد البطريك بالزيارة، ولكنه لم يحضر. ويفسر البعض تخلف البطريك عن المشاركة فى الاحتفالات بسبب الأعباء الثقيلة الملقاة على كاهله فى إدارته لبطريركية بيت المقدس^(٢). فى حين رأى البعض فى ذلك تقصيراً لا يغتفر من أعلى مسئول دينى فى المملكة^(٣).

ووفقاً لما ذكره راهب الخليل فقد انتهز رئيس رهبان سانت أبراهام موسم وفود أعداد كبيرة من الحجيج إلى الخليل أثناء أعياد أكتوبر للاحتفال بما وقع من اكتشافات جديدة ، فرفع الرفات على آرائك خشبية أمام أعين الحشود التى جاءت تشهد تلك المناسبة^(٤). ويتضح من تلك النبذة المهمة أن عملية اكتشاف المقابر قد استغلت من قبل رجال الدين فى الخليل لإحداث ضجة إعلامية دعائية ضخمة^(٥) أراد بها لاتين

(1) Guthe, M. H., Die. Unterauchung des patriarchengrabes in Hebron, im Jahre 1119, Z.D.P.V., XV II, 1894, P. 243

(٢) راجع ما ورد على لسان المعلق ناشر النص فى مجموعة المؤرخين الغربيين للحروب الصليبية . L'editer, R. H. C., Occ. Vol. V, P. 313.

(3) Hamilton, B., The Latin Church. in the Crusder Slates, p. 65.

(4) Cononici Hebronensis, Op. Cit., P. 310.

(٥) عرفت أوروبا ألواناً مختلفة من فنون الدعاية فى العصور الوسطى أثرت توجيه القسط الأكبر منها ضد المسلمين، وكان الشعراء هم رواد هذا الفن إذ اكتسبوا شهرة فى هذا المجال منذ عهد بعيد يرجع إلى عصر شارل مارتل Charlesmartel حين انتصر على المسلمين الفاتحين فى معركة بلاط الشهداء عام (٧٣٢م/١٣٦هـ). راجع :

Pernond, R., The C rusaders, trans From french by Grant E., London 1963, P. 182.

المدينة استنارة مشاعر إخوانهم في الشرق اللاتيني والعرب الأوربي عن طريق روايات الحجاج حين عودتهم إلى أوروبا لدفعهم إلى تقديم المزيد من الدعم المالى أو القدوم إلى الشرق للانحراط في السلك العسكرى الصليبي . وهذا يبين أن رجال الدين كانوا قد أدركوا أن الور الحساس لدى الأوربيين بشئ طبقاتهم هو عنصر الدين، فأخذوا يضربون عليه بقوة بغرض التأثير على مشاعر الغرب وشحن أكبر قدر ممكن من الروح الصليبية لديهم، وقد ترتب على هذا الاكتشاف نتائج في غاية الأهمية شملت النواحي السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية، وعملت على بلورة السلطة الصليبية في الخليل وتطورها في شتى المجالات

ففيما يتعلق بالجوانب السياسية والإدارية للكيان الصليبي في الخليل فمن الضروري التعرف على بعض المصطلحات والألقاب المستخدمة في المصادر تيسيراً لهم الملبسات الخاصة بوضع السلطة في الإقطاعية، فبادئ ذي بدء يوجد نوعان رئيسيان من الإقطاعيات في النظام الدسنورى لمملكة بيت المقدس . الأول ممتلكات إقطاعية تابعة للملك Feudlum، والثاني ممتلكات لها سيدها الخاصع للملك Dominium والمعروف أن ملك بيت المقدس اللاتيني كانت له السلطة وفق قوانين بيت المقدس على شتى الإقطاعيات داخل المملكة ، غير أن سلطته كانت مباشرة وأقوى على الإقطاعيات من النوع الأول ، وهى الممتلكات الإقطاعية . وقد انحصرت الألقاب التى حملها حكام الخليل في المرحلة الأولى بين لقب سيد Domenus و لقب رئيس حامية القلعة Castlane وفى هذا الخصوص يذكر أحد الباحثين الحديثين أن اللقب الأخير يعد الحد الأدنى من السيادة فى السلم الإقطاعى للمملكة ^(١) وفى الحقيقة لم يكن خلع لقب سيد أو رئيس قلعة على من يتولى أمر الخليل وفلعتها، والأراضي المجاورة لها ما يؤكد تمتعه بالفعل بهذه السيادة كاملة فى إقطاعه وفقاً للنظام الإقطاعى السائد فى مملكة بيت المقدس . والملاحظ لدى الباحث أن الوضع الإدارى والدسنورى كان فى قلب مستمر إذ تفاوتت سلطة الحاكم فى الخليل بين سيادة فعلية وأخرى جزئية ويرجع هذا التفاوت إلى اختلاف السياسة الداخلية لدى ملوك بيت المقدس أصحاب السيادة العليا فى البلاد

ومن الجدير بالذكر أن الحاكم الصليبي فى الخليل قد تمتع بسلطات إضافية حيث لم نشر المصادر والوثائق التى تم الرجوع إليها إلى وطيعة البكوت Vicont فى الخليل ، وهى التى يقوم صاحبها بالإشراف على المدينة . ويكون فيها بمثابة النائب عن الملك أو عن البارون الكبير فيها ^(٢) وهذا يعنى أن إعاء من يقوم بهذه الوظيفة قد

(1) Beyer G. Z D P V (XV P 170)

(2) La Monte J I Feudal Monarchy in the latin kingdom of Jerusalem (100 1291 New York 1970, PP 142 143)

القيت على الحاكم الصليبي نفسه فى الإقطاعية . وهناك أمر آخر يتمثل فى أن السلطة فى الخليل كانت ذات شقين ، مدنية ، وهى تشرف على مدينة الخليل والقرى الواقعة فى زمامها ، وعسكرية ، وتشرف على الجهار العسكرى - الذى ستعرض له تفصيلاً فى الفصل الثالث - المكون من حاميات الفرسان فى قلعة الخليل والحصون الأخرى داخل حدود الإقطاع التى اهتم أولو الأمر بتشبيدها تبعاً للمتطلبات الحربية ، والملاحظ أن من أنيط إليه رئاسة القلعة ويحمل لقب حاميتها كان يتولى أيضاً المهام المدنية ، ودليل ذلك ما كان يقوم به بلدوين دى سانت أبراهام من مهام شملت النواحي المدنية والعسكرية ، علماً بأنه أحد الذين حملوا لقب حامى قلعة سانت أبراهام .

ومهما يكن من أمر فقد أصبح رؤساء قلعة سانت أبراهام أفضالاً للملك وهم : جراردى أنفس ، جلدمار كارينل ، جودفرى ، هيو الأول ، روجردى حيفا ، جوتيه المحمدى ، وبلدوين ، إذ ربطهم بالتاج علاقة التبعية الإقطاعية يقسمون له يمين الولاء ويلتزمون بأداء الخدمة الحربية وبقية الالتزامات الإقطاعية فضلاً عن قيامهم بجمع الضرائب والكوس وإرسالها إلى خزانة الملك فى بيت المقدس بعد استقطاع جانب منها للصرف على شئون إقطاعية الخليل الخاصة^(١) ، وكان شأنهم فى ذلك شأن باقى المقطعين وفقاً لنظم بيت المقدس . وكان الملك مقيداً الى حد كبير برأى أمرائه وأفضاله ورأى المحكمة العليا . فلم يكن بوسعه أن يعزل أى مقطع عن إقطاعه إلا بموافقتها^(٢) . أما بالنسبة للخليل فمن الواضح أن حاكمها كان يعين من قبل الملك الصليبي رغم تعاضم قدر بعضهم ، والدليل على ذلك عدم نشوء أسرة حاكمة فى الخليل ، كما أن فترات ولاية حكامها للسلطة كانت قصيرة بشكل ملحوظ حتى أنه بلغ عدد الذين تولوا السلطة بها سبعة أشخاص فى أقل من عقدين من الزمان .

وتعد الكنيسة الركن الثانى فى الكيان الإدارى الصليبي فى إقطاعية الخليل ، حتى أصبح منصب رئيس الكنيسة يسير فى خط مواز مع سلطة حاكم الخليل ، غير أنه حينما عرض المؤرخ الصليبي وليم الصورى الهرم الكنسى فى الأراضى المقدسة فى المرحلة السابقة على قدوم الصليبيين ، لم نجد للخليل كرسى أسقفى فيه^(٣) . وعلى هذا يؤكد الباحثون الحديثون الذين عنوا بالدراسات الدينية أنه منذ العصر البيزنطى وامتدادا إلى العقد السابع من الوجود اللاتينى فى الخليل لم يكن على رأس كنيسة حبرون إلا

(1) Archer, T. H. and kingsfort, C. L., Op. Cit., P. 125.

(2) Richard, J, The Latin Kingdom of Jerusalem, P. 73

راجع أيضاً : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٤٦٧ ، ص ٤٨١ ..

(3) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II , P. 364.

مجرد مطران Sufrgan أو رئيس كنيسة^(١) شأنها في ذلك شأن كنيسة المهد في بيت لحم، والقديس بطرس (Sant Pierre) في عسقلان، وكانت المطرانيات الثلاث المذكورة تتبع مباشرة لبطريك بيت المقدس، وظل هذا الأمر على حاله حتى قامت الأسقفية في الخليل^(٢) في عام ١١٦٨م / ٥٦٣هـ. وهذا ما سنعرض له في حينه. وقد خضعت الكنيسة لسلطة البطريك في بيت المقدس الذي كان يقوم بخدمة الملك^(٣). إذ كان على رئيس كنيسة سانت أبراهام أن يقدم عددا من الرجال مساويا لما كانت تقدمه كل من كنيسة قيسارية وصيدا للانخراط في السلك العسكري للمملكة^(٤).

أما فيما يختص بالجهاز القضائي في الخليل فله أهمية خاصة، إذ له تواجعه التي تفسر بعض الجوانب الإدارية الهامة؛ فقد قدم كتاب قوانين بيت المقدس قائمة توضح توزيع المحاكم داخل المملكة عصر الحروب الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري، غير أن هذا التقسيم يرجع بجذوره إلى ما ساد من أوضاع في القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري أيضا فيعنا يتعلق بالخليل فقد حظيت بتأسيس محكمة للبرجوازية بها Caurt des la Birgaceis، وقد عرفت المحكمة باسم محكمة سانت أبراهام. والواضح أن محكمة الخليل البرجوازية كان لها وضع مرموق في كل منطقة جنوب مملكة بيت المقدس، إذ يشير نفس المصنف إلى أن المحاكم البرجوازية في كل من أريحا وبيت لحم وبيت جبرين كانت تتبع لتلك المحكمة إداريا^(٥)، وقد تعددت اختصاصات هذه المحكمة وتنوع نشاطها، وهي تختص بعامة الفرجة دون النبلاء، وتفصل فيما يجرى بينهم من معاملات مالية ومدنية فضلا عما صار لها من نفوذ في القضايا الجنائية^(٦)، وقد قامت هذه المحاكم البرجوازية في كل مدينة من المدن الصليبية الكبرى وضمنها الخليل.

(1) Hamilton, B., The Latin church, PP. 67, 85..

(2) Vincent, Mackay, Abel, PP. 164 - 165, Mayer, H. E., Latins, Muslims and Greeks in the Latin kingdom of Jerusalem, in History 63, London 1978, P. 197, reprinted in, P. L. K. J., VI, London 1983.

(3) Hamilton, B., Op. Cit., P. 95.

(4) Jean d'Ibelin, le livre de Jean d'Ibelin, en, Assises de Jerusalem, tome I. P. 426 - 427, smail, R. C., crusading warfare, cambridge 1987, PP. 91 - 92.

(5) Jean d'Ibelin, Op. Cit., P. 420.

والجدير بالذكر أن الشخصية الأولى في بيت لحم كان أسقفها اللاتيني في كنيسة المهد، ولذا فمن الطبيعي أن يتولى هو رئاسة المحكمة البرجوازية في المدينة - راجع -

Mayer H. E., B. K. S., P. 69.

(6) Grousset, R. L'Empire du levant, P. 203.

وبما سبق يتضح أن ملامح قيام إقطاعية صليبية قد أخذت في الظهور والتبلور ، فهناك الأرض المستولى عليها الممتدة من سفوح التلال التي تفضى إلى ساحل البحر المتوسط غربا حتى بركة الخليل وصغر شرقاً ، وصحراء النقب جنوباً ، وكذلك فهناك سكان مغلوبون على أمرهم وأعدادهم قليلة بسبب نزوح جماعات منهم إلى البلاد المجاورة ، وقلة قوية توالى على رئاسة حاميتهما عدد من النبلاء والفرسان الأقوياء ضموها إلى حكمهم مدينة الخليل وأراضى شاسعة من حولها ، وأقيمت كنيسة الخليل والحق بها دير لتشكل ركنا هاما من أركان المجتمع اللاتينى . وعلاوة على ذلك فقد تم تأسيس محكمة للمبرجوارية لتنظيم العمل وتمييزاً للوضع الإدارى فى الخليل ، وأخيراً فقد نشأ بالفعل على عهد جلدمار كارنيل نظام ضرائبى محكم ، كان الملك بلدوين الأول قد وضعه فى مناطق الغزو فى الخليل والمناطق المجاورة ، ولهذا كله يجب أن نتعامل مع الخليل بصفتها إقطاعية صليبية بداية من فترة حكم جلدمار كارنيل لها ، وبالتحديد من أواخر عام ١١٠٠م / أوائل ٤٩٤هـ . أى بداية من تأسيس الحكم الصليبي فى المنطقة تقريباً .

ومن الطبعي أن تتأثر إقطاعية الخليل بالسياسة الداخلية لملوك بيت المقدس اللاتينيين ، إذ إنهم اتبعوا سياسة داخلية ترمى إلى ربط الإقطاعيات الصليبية بالتاج ^(١) ، وقد تفاوت تطبيق هذه السياسة من مكان إلى آخر داخل مملكة اللاتين . أما عن أبعادها فى إقطاعية الخليل خلال عهدهما الأول فقد ورد فى وثيقة ترجع الى فترة الحكم اللاتينى للأراضى المقدسة وحدثت عام ١٢٢٧م / ٦٢٤هـ . ما يفيد أن كلاً من قرى تقوع ، سعير ، بيت زكريا ، علاوة على خربة الشعار ، وبيت ناصب ، كان عليها أن تدفع ضريبة العشر لكنيسة بيت لحم ، وقد صنفت هذه المناطق فى الوثيقة على أنها أراض تتبع بيت المقدس ^(٢) ، وفى حقيقة الأمر فالبقاع المذكورة تعد من قرى الخليل إقليماً ، ومن ثم يبدو لنا بوضوح أن الملك الصليبي كان قد احتفظ لنفسه بأجزاء هامة من أراضى الخليل فيما يشكل خطأ واضحاً فى السياسة العامة للمملكة التى سستبلور بشكل أوضح فى المرحلة التالية .

وقد شهدت فترة حكم بلدوين دى سانت أبراهام لإقطاعية الخليل حدثين خطيرين لم ينعكس أثرهما على إقطاعية الخليل الصليبية فقط بل على مملكة بيت المقدس

(1) Tibble, steven, Monarchy and lordships in the latin Kingdom of jerusalem, Oxford, 1989. P. 50.

(2) Riant, P. E., tudes sur L'Histoire de L'Eglise de Bethlehem. Vol. I - Doc No. 9, PP. 140 - 147; Roehricht, R., Regste, Doc. No. 783.

Beyer, G., Z.D. P. V., LXV, P. 167

وعن موقع بيت ناصب وكثرتها الأثرية . راجع :

ككل حيث غيرا كثيرا من الواقع الإقطاعي والسياسي للخليل، إذ كان فولك دى أنجو Fulk d'Angou قد اعتلى عرش مملكة بيت المقدس ١١٣١-١١٤٣م/٥٢٥ - ٥٣٧ هـ ومع بداية حكمه كانت مملكته تعاني من الانقسام نتيجة لتمرّد أحد الإقطاعيين وهو هيلوبوازية Huige lePuiset المعروف باسم هيو الثانى صاحب يافا عام ١١٣٢م/٥٢١ هـ^(١). ونجح الملك فى التصدى له. وعندما ساء موقف هيو الثانى اضطر إلى الفرار للاجتماع بالفاطميين فى عسقلان. وقد استغل الفاطميون تلك الحيانة وما نتج من فرقة فى صفوف الصليبيين وأغاروا على إقليم يافا حتى وصلوا مشارق أرسوف^(٢) فى الوقت الذى أسرع دمشق فاستولت على بانياس Balinase شمالى المملكة الصليبية. ومالبث أن زحفت جيوش فولك واستولت على يافا لحمايتها. أما هيو الثانى فقد حكم عليه بالنفى ثلاث سنوات فأبحر إلى صقلية وهو يعاني من جرح أدى أخيرا إلى وفاته. وقد غدت تلك الأحداث بمثابة ثورة^(٣) داخلية أو تمرد حمل تيارات التغيير فى السياسة الداخلية والخارجية فى مملكة بيت المقدس.

وتأثرت إقطاعية الخليل إلى حد كبير بأحداث التمرد وفشله. وفى الحقيقة لا يمكن الإلمام بهذا الموضوع إلا من خلال ما اتخذته الملك فولك من تدابير حيال مملكته

(١) الراجع أن هيو كان ابن خالة للملك بلدوين الثانى، وقد زاد نفوذه فى المملكة بعد زواجه من أرملة بوستاس جرنبيه صاحب قيسرية وكان هيو الأول قد تولى إقطاع يافا من الملك بلدوين الثانى، وبوفاته أصبحت ممتلكاته إرثا لابن هيو. وقد ساءت العلاقة بين فولك وهيو لما شاع بين الأخير وزوجة الملك، وقد أورد وليم الصورى هذه القصة كاملة - كما وقعت - كما اختلفت آراء المؤرخين الحديثين حول العام الذى وقعت فيه هذه الأحداث الداخلية. حيث ذكر البعض أنها جرت فى عام ١١٣١م/٥٢٦ هـ. بينما أرخصا آخرون عام ١١٣٢م/٥٢٧ هـ. والأرجح هو التاريخ الأخير. ويؤيد ذلك أن المصادر العربية أشارت إلى أن هذه الخلافات بين الصليبيين وقعت فى المحرم ٥٢٧ هـ/ ١٢ نوفمبر - ١١ ديسمبر ١١٣٢م. راجع :

William of tyre, Op. Cit., Vol. II, PP. 71 - 74, Runciman S., Op. Cit., Vol. II, PP. 130 No. 1, 166, 190, 193, 229.

ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٧٥، راجع أيضاً: حسن عبد الوهاب: تاريخ قيسارية الشام فى العصر الإسلامى. الإسكندرية - ١٩٩٠م. ص ١١٢، ٤٧.

(2) William of tyre, Op. Cit., Vol. II, PP. 70 - 72.

تنهت المصادر الإسلامية لما وقع من خلافات داخل المعسكر الصليبي إذ يذكر ابن الأثير فى ذلك « وقع الخلاف بين الفرنج بالشام فتقاتل بعضهم مع بعض ولم تجر لهم بذلك عادة قبل هذه السنة وقتل منهم جماعة » راجع : - الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٨ ، كما ذكر ابن الكثير أن قتالا شديدا وقع بين الفرنج ، محق بسببه خلق كثيرون . انظر: البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٠٤ .

(3) Ibid, Vol. II, P. 72

اهتمت بعض الدراسات الحديثة بأمر ذلك التمرد ، وما ترتب عليه من تغيرات ، ومن أهم تلك الدراسات Mayer, H. E., Studies in the History of Queen Melsend of Jerusalem. D. O. P. Vol XXVL 1972, Parim.

بصفة عامة، إذ لجأ بداية إلى تكوين وحدات إدارية جديدة فى جنوب المملكة ، وفى هذا الصدد يرى أحد الباحثين الحديثين أن نزاع الملك مع الكونت هيو الثانى يعد جزءاً من محاولة متعمدة لزيادة حجم المقاطعات الخاصة بالملك ، ويرى أيضاً أن الملك فولك بعد أن دفع بهيو إلى التمرد قد وصل لهدفه الحقيقى وهو الحصول على مقاطعة يافا وإخضاعها لحكم التاج مباشرة ^(١) كما نجح فى إنشاء إقطاعين مجد اليابا Merabel وتل الصافية بعد فصلها عن يافا ^(٢)، وكانت الأخيرة قد ضمها الملك بلدين الأول إلى الإقطاعية بعد فصلها عن الخليل مسبقاً ^(٣). وهكذا تبلور أمامنا السياسة التى اتبعها فولك . حيث تحددت ملامحها فى الحرص على تركيز السلطات فى يده بإعادة تقسيم الإقطاعيات والاحتفاظ بأراض ملكية تتخلل إقطاعات نبلائه بغرض تقوية الرقابة عليهم والحد من مواردهم العسكرية والاقتصادية التى فى حوزتهم . وبمعنى أكثر وضوحاً فإن ما أقدم عليه الملك استهدف تفتيت قدرات الإقطاعات الصليبية، وذلك بتشتيت السلطة داخلها بغرض تدعيم قوة التاج . وعليه فقد خضعت إقطاعية الخليل لنفس الأساليب التى اتبعها الملك فى إقطاعياته . . وهذا الأمر سنتناوله الدراسة تفصيلاً فى حينه .

كان ذلك ما يخص الحدث الأول، أما فيما يتعلق بالحدث الثانى فيتمثل فيما ترتب من نتائج فى الجانب العسكرى داخل بيت المقدس مما كان له أثره البالغ أيضاً على إقطاعية الخليل . فنجد أن الأوضاع العسكرية المترتبة على استمرار حركة الجهاد الفاطمية والغارات التى توجهها حامية عسقلان النشطة ضد اللاتين فى مملكة بيت المقدس ماحت على الملك اتخاذ قرارات هامة لحمايتها ، فقامت سياسته على أساس خطة تقضى بإقامة سلسلة من القلاع لإحاطة عسقلان عسكرياً ومنعها من تكرار محاولة الاستيلاء على يافا أو غيرها من الأراضى الصليبية ، كما وقع فى أحداث التمرد الفاشل .

ولعل من المناسب فى هذا الموقف الإشارة إلى خطة إقامة القلاع، نظراً لارتباطها الوثيق بالتطورات الإقطاعية فى منطقة الخليل الصليبية، إذ كانت إقامة قلعة فى بيت جبرين التابعة للخليل هى أولى خطوات تنفيذ تلك الخطة، وقد أسرع الصليبيون فى تأسيسها عام ١١٣٤ م / ٥٢٨ هـ . ولم يفرغوا من تشييدها إلا فى عام ١١٣٦ م / ٥٣٠ هـ ^(٤). أما الخطوة التالية فتتمثل فى تشييد قلعة فى بلدة تل الصافية عند أطراف إقطاعية الخليل ، وبعد التفرغ من أعمال البناء دفع بها الملك فولك إلى أحد

(1) Mayer, H. E., Studies in the History of Queen Melisende. PP. 95 - 111

(2) Tibble, S., Op. Cit., P. 51

(3) Archer. T. H. and kingsford, C. L., The Crussades, PP. 117 - 118.

(4) Benvenisti, M. the Crusader in the Holy lond , PP. 176.

المقطعين ويدعى أرنول Arnoul هي والأرض المجاورة لها فكانت نواة لإقطاعية صليبية عرفت باسم بلانش جارد ^(١) Blance Garde ، ويؤكد ذلك تأسيس محكمة برجوازية بها ^(٢) مما يشير إلى قيام مؤسسات لسلطة خاصة بها ثم أضاف الصليبيون قلعة بينى Ebelin بحيث لم يأت عام ١٠٤١م/٥٣٦هـ. إلا وقد تم تشييد القلاع الثلاث المذكورة ^(٣).

وفي الحقيقة تأكد للباحث من هذا العرض وجود ارتباط وثيق بين حدثي التمرد وبناء القلاع وما ترتب عليهما ؛ فالتحالف الذي تم بين هيو لبوازيه والفاطميين أثناء تمرد هيو على الملك قد شكل تهديدا مباشرا بالهجوم من قبل الحامية الفاطمية في عسقلان ^(٤) فتمثل رد الفعل على ذلك في التوسع في تشييد سلسلة القلاع المذكورة، والدليل على ذلك أن السياق التاريخي جمع الحدثين؛ فبينما وقعت أحداث التمرد في عام ١١٣٢م/٥٢٦هـ. والعام الذي تلاه ، بدأ العمل بعد ذلك بعام واحد في بناء القلاع. ويدعم ذلك تقارب الأحداث جغرافيا بهذا الشكل الذي تم ، ولذا لم تكن على سبيل المصادفة.

جرت هذه الأحداث في وقت أخذت شخصية جديدة في الظهور على رأس السلطة في الخليل ألا وهي **هيو دي سانت أبراهام الثاني** الذي ذكرته الوثائق لأول مرة في سبتمبر ١١٣٦م/محرم ٥٣١هـ. حاملا لقباً وظيفيا هو رئيس قلعة سانت أبراهام Castello Sancti Abraham ^(٥) وقد أضاف الباحث كلمة «الثاني» على لقبه تمييزا له عن هيو دي سانت أبراهام الأول سابق الذكر. ولكن يعترضنا أمر مهم ألا وهو أن بلدوين دي سانت أبراهام كان لا يزال يحمل نفس اللقب في نفس العقد والعام، إذ كان في الترتيب الشاهد السابع عشر من مجموعة شهود بلغ عددهم أربعة وثلاثين، كما كان الشاهد العاشر ضمن قائمة البارونات، وهذه المعلومات تضع أمامنا عدة افتراضات، وهي أن بلدوين أصبح يحمل لقب سانت أبراهام بشكل اسمي فقط، في حين كان هيو يقوم بالمهام الفعلية في حكم الخليل. أما الافتراض الآخر فهو أن بلدوين احتفظ بحكم الإقطاعية دون القلعة في حين تولى هيو منصب حامى قلعة الخليل.

(1) Burchard of Mount sion, A Description of the Holy land, P. 24., Cf. Als, Runcinian, S., Op. Cit., 224.

(2) Jean J'ibelin, Le livre de Jean d' Ibllin, Tome I , P. 419 Cf. Als, Byer, G., Op. Cit., P. 176.

(3) William of Ttyre, Op. Cit., Vol. II PP. 130 - 132 Cf. Als Cuerin, V., Op. Cit., Tome. I, part II, P. 334; prawer, J. The latien kingdom . PP. 298 - 299, Benvenisti, M., Op. Cit., P. 116.

(4) Tiblle, S., Monarchy and lordships in the latin Kingdone, PP. 72 - 73.

(5) Poabe, S. Cod. dipl.. Rome I. Doc No. 17, PP. 18 - 19, Rohricht , Regerta doe. No. 228 A.

غير أن من الملاحظ أن اسم بلدوين قد اختفى من الوثائق اللاحقة على عام ١١٣٦م/٥٣١هـ، وهذا قد يعنى أن معاصرته لفترة حكم هيو الثانى لإقطاعية الخليل أو قلعتها كانت قصيرة بحيث يمكن اعتبار هيو الثانى قد جاء ليخلف بلدوين رغم إغفال الوثائق للأمر.

أما عن مدى تأثير إقطاعية الخليل فى ظل حاكمها الجديد هيو بسياسات الملك فولك ، فنجد أن الوثائق تفيد بأن هيو قد لبى طلب الملك عندما منح ريموند دى بوى Raymond du poey مقدم طائفة فرسان الإيبستارية بيت جبرين والقرى المحيطة بها فى تاريخ يسبق تحرير الملك عقد تثبيت المنحة فى سبتمبر ١١٣٦م/ ذى الحجة ٥٣٠هـ وتضيف الوثائق أن الملك فولك قد زاد فى نفس الوقت على منحة هيو بأنه أوكل إلى الإيبستارية حراسة القلعة^(١) الجديدة التى كانت قد شيدت هناك عند بيت جبرين .

وفى واقع الأمر فمن خلال ما أوردته وثيقة منح بيت جبرين لفرسان الإيبستارية المنشورة فى وثائق الطائفة يتبين أن الأمر لم يتوقف عند فقد إقطاعية الخليل لبيت جبرين وقلعتها الجديدة، وإنما شملت المنحة التى قدمها هيودى سانت أبراهام الثانى للطائفة تنازلاً عن بقاء عديدة أخرى تم تقديمها على حساب الخليل، وهى: «قرية بيت صور Beithour ، وخربة بيت صور التى يعتقد فى أنها تقع بالقرب من القرية التى تحمل نفس الاسم وأنها تقع فى وادى الصور الذى يحتوى على كثير من الأطلال وهو على بعد حوالى خمسة كيلومترات شمال بيت جبرين^(٢)، كما تشمل المنحة على دير نخاس Dier machar الواقعة على بعد كيلو مترين ونصف جنوب شرق بيت جبرين^(٣)، وخربة أبى الروازين Deir Rossin، وذكرت أيضاً باسم خربة دير رازى وتقع على بعد تسعة كيلومترات إلى الجنوب الغربى من الخليل^(٤)، ودير القبية Deir el Cabea^(٥) التى

(1)Paoli, S., Cod dipl., Tome I, Doc. No. 17, PP. 18 - 19. Delaville Le Roulx, C. G. O. H., Vol. I, No. 116, PP. 97 - 98, Roehricht R., Regesta. . No. 164.

وقد ورد فى نص الوثيقة «أننى أنا فولك ملك بيت المقدس بعد استشارة زوجتى ميلسند والبطريك ولیم . . . أوتق منح موضع بيت جبرين الذى كان هيودى سانت أبراهام بناء على طلب منا قد خصصه لرعاية الفقراء» هذا، وقد أورد ولیم الصورى حدث منح قلعة بيت جبرين للإيبستارية . انظر

William of Tyre., Op. Cit., Vol. II, P. 81.

(2) Conder, C. R. and Kitchener, H. H. The survey of western Palestines : Memoirs of the topography, Orography, Hydrography and archeology, samaria, London 1882, Vol. II, P. 412, Cf. Also., Beyer, G., Op. Cit., P. 184, N2..

(3) Beyer, G. ,Op. Cit., P. 184, n. 3.

(4) Conder, C., The Latin Kingdom, Vol. II, P.412. .

(5) Roehricht, R., Studis zur nitt elalterichen geographis, PP. 236, 278.

تقع على بعد ستة كيلومترات جنوب غرب بيت جبرين، وكذلك شاروبي Charrou- bete التى يمكن تحديد موقعها فى جنوب شرق اللد^(١). وعلاوة على ذلك فهناك كل من ميماس Meima والتى يرجح وقوعها فى شمال شرق بيت جبرين، وكذلك عراق حالة Hale^(٢) الواقعة على بعد كيلومترين ونصف شمال غرب المدينة، وخربة البطم^(٣) على بعد عشرة كيلومترات شمال غرب بيت جبرين، وهى بذلك تقع بالقرب من تل الصافية، والجدير بالذكر أن كلمة بطم تشير إلى أشجار البلوط المنتشرة بكثرة فى جنوب فلسطين، وتل الطواحين Eltwahin (لم يستدل على موقعها). وفضلاً عن ذلك فهناك خربة قويس Queibus (التي لم يستدل على موقعها)، وخربة فطاطا Fectata الواقعة جنوب غرب بيت جبرين، وسهالين Sahalin (التي لا يمكن التعرف عليها أيضاً غير أنه من الواضح أنها تنتمى لعرب الجهالين)، وخربة زيتة Zeita الواقعة على بعد سبعة كيلومترات جنوب غرب بيت جبرين، وأخيراً قركوزة Courcoza^(٤) (التي لم يستدل على موقعها أيضاً). وما يلفت النظر أن عدداً كبيراً من رجال الدين كانوا قد وقعوا على العقد بصفتهم شهوداً ومن أهمهم البطريك وليم الأول Waillaim I (١١٣٠ - ١١٤٥ م - ٥٢٤ - ٥٤٠ هـ) وشخص من الخليل يدعى ويدو (Wido) رئيس كنيسة سانت أبراهام، ومن البارونات تذكر منهم بلديون دى سانت أبراهام^(٥)، ويستدل من موقع كل من فطاطا وزيتة فى غرب بيت جبرين أن هيو الثانى كان قد أضاف إلى إقطاعيته فى الخليل أراضى تم للصليبيين الاستيلاء عليها من مسلمى عسقلان^(٦) ولكنها دخلت ضمن المنحة التى قدمها لهيئة الإبتارية.

غير أن أهم ما ترتب على استحواذ الإبتارية على بيت جبرين وقلعتها، وكان له أثره على بلاد الخليل، أن الطائفة كانت فى مرحلة التطور والازدهار المستمرين فأصبح لها من الثراء والقوة ما يكفى للتوسع على حساب الجيران. ولما كانت إقطاعية الخليل، هى الجارة الملاصقة وعدت هدفاً لمقدمى الإبتارية كى يقتطعوا من أراضيتها بالشراء بما توفر لهم من مال، يدعمهم فى ذلك موقفهم العسكرى المتنامى، ومن ذلك إقدامهم على تشييد قلعة لهم فى بيت صور^(٧) على الطريق الواصل بين الخليل وبيت لحم تثبيتاً لامتلاكهم لها.

(1) Abel , Geographie de la palestine, Vol. II, P. 290.

(2) Beyer, G., Op. Cit., P.184, N. 6 , N.8.

(3) Roehricht, R., Op. Cit., P. 278, Beyer, G., Z. D. P. V., LXV P. 184 N. 9.

(4) Roehricht, R., Op. Cit ., P. 278.

(5) De Laville Le Roulx. C. G. O. H. ,Vol. I, Doc. No. 116. PP. 97 - 98, Roehricht, R., Regesta, Doc. No. 164

(6) Beyer, G., Op. Cit., P. 185.

(٧) لم تتعرض المصادر الصليبية لبناء القلعة غير أن أحد الأثرين يرى أن طائفة الإبتارية هم الذين شيدها. راجع :

Rey, E. G., Op. Cit., P. 384.

وكان كتاب قوانين بيت المقدس قد أكد على أن بيت جبرين كانت لها محكمتها البرجوازية الخاصة، إلا أنها ظلت تابعة إدارياً لمحكمة سانت أبراهام^(١). وعلى هذا يجب أن نتوقف عند هذه الإشارة لأهميتها إذ يفهم منها أن بيت جبرين كانت وما تزال تتبع إدارياً للخليل، وإذا ما كان ذلك هو الأمر الواقع والطبيعي قبل انفصالها عام ١١٣٦م/ ٥٣٠هـ. فهل ظلت تلك التبعية مستمرة بعد هذا التاريخ؟ يسجل أحد الباحثين الحديثين تشككه في هذا الأمر دون أن يبرر أسانيده^(٢) إلا أنه يمكن توضيح أن تأسيس محكمة برجوازية في بيت جبرين كان قد تم بعد انفصالها عن الخليل وتميزاً لكيانها الخاص الجديد، وذلك لتنظيم العلاقة بين الأهالي والسيد الإقطاعي، شأنها في ذلك شأن باقي المحاكم من هذا النوع، أما في هذه الحالة بالذات فيمكن القول بأن هناك أمراً ذا مغزى بالنسبة لمدي تبعية بيت جبرين قضائياً للخليل بعد هذه المرحلة؟ فمن الناحية الإقطاعية والعسكرية فقد حدث انفصال واضح، أما من الناحية الإدارية فما زالت هناك بعض الروابط القائمة على التبعية، ولعل تفسير ذلك أن هذه التبعية كانت لمجرد تسهيل الإدارة في مجمل الإقليم الجنوبي من المملكة وخاصة أنه - كما ذكر من قبل - فإن محكمة بيت لحم كانت تتبع محكمة سانت أبراهام إدارياً كذلك، وبالتالي فيمكن اعتبار ذلك بمثابة تنظيم للمحاكم قائماً على الإقليمية الجغرافية، أما من الناحية العملية فإن بيت جبرين تعد إقطاعية مستقلة منذ أن منحت لطائفة الإسماعيلية، ولا بد أن يكون هذا الاستقلال قد تدعم أكثر بالتدريج حتى اكتمل تماماً بسقوط عسقلان في يد الصليبيين بحيث شكلت أراضيها حدود إقطاعية بيت جبرين الغربية في عام ١١٥٣م/ ٥٤٨هـ.

لم يقتصر تأثير إقطاعية الخليل سلباً على فقدان بيت جبرين فحسب، بل نجد أنه في خطوة أخرى على سبيل تقسيم أراضي الإقطاع أقدمت الملكة ملسند Melisende زوجة الملك فولك في عام ١١٣٨ م / ٥٣٣هـ على الاستحواذ على قرية بيشاني Bethanie (العيزارية Saint lazare) الحالية الواقعة على بعد ثلاثة كيلومترات جنوب القدس^(٣) من كنيسة القيامة لتؤسس ديراً فيها للراهبات مقابل التنازل للكنيسة عن قرية تقوع الخليلية^(٤)، وقد تعددت الوثائق التي تجدد عقد التبادل مع بعض الإضافات

(1) Jean D'Iblin, Tome. I, P. 423; Delaville le Roulx, J. C. G. O. H., Vol. I, No. 509.

(2) Riley - Smith, J., The Knights of st. John in Jerusalem and Cyprus., C, 1050. 1310, London and New York 1967. P. 462.

(٣) عن موقع بيسانى ومزيد من المعلومات عن الدير فيها راجع : -

Hamilton, P., The Latin church, P. 164.

(4) Bresc - Boutier, J., lecart duchap, Doc. No. 34, PP. 98 - 101 ; Roehricht, R., Regesta, Doc. No. 174; William of Tyre, Op. Cit., Vol, II , PP. 133 - 134, Cf. Als, Mayer, H. E., B. K. S., PP. 375 - 382.

الأخرى بدون الإخلال ببند مبادلة بيثاني بتقوع طيلة الوجود الصليبي في بلاد الخليل، وحتى بعد أن فقد الصليبيون هذه الأراضي. وكان يقوم بثبيت ممتلكات كنيسة القيامة شاملة قرية تقوع، كل من ملوك بيت المقدس والبطاركة والبابا في روما^(١) مما يؤكد أن تقوع أصبحت أراضي تابعة للكنيسة وأن السلطة العلمانية قد تقلصت إلى حد بعيد في تلك الجهة.

غير أن هناك وثيقة للملك بلدوين الثالث (١١٤٣ - ١١٦٢م / ٥٣٨ - ٥٥٧ هـ) تشير إلى أنه قد منح قرية تقوع لدير العازر في القدس في عام ١١٥٥م / ٥٥٠ هـ^(٢). وبذلك تظهر أمامنا مشكلة، كيف يتم تقديم قرية بعينها لكنيسة القيامة والعازر في وقت واحد، ويرد أحد الباحثين على ذلك بالإشارة إلى التشكيك في صدق الوثيقة الأحدث الخاصة بالملك بلدوين الثالث^(٣)، غير أن الباحث يميل إلى الاعتقاد في أن أراضي قرية تقوع قسمت إلى أجزاء تحت مبادلة كنيسة القيامة بأحدها بينما منح جزء آخر لكنيسة العازر.

تواصل حدوث تطورات في الموقف الإقطاعي داخل الخليل فإلى جانب تلك المنح الجزيلة التي قدمها كل من هيودي سانت أبراهام الثاني والملكة ملسند وابنها بلدوين الثالث للمهيناث الدينية المختلفة، أقدم هيو في عام ١١٤٤م / ٥٣٩ هـ على منح طائفة الإسبانية أراضي أخرى تتمثل في أربع قرى صغيرة مجاورة لبيت جبرين^(٤). وكان لمجمل هذه المنح المقدمة على حساب الخليل آثار عديدة على المستويين: المحلي حيث إقطاعية الخليل، والخارجي حيث الكيان الصليبي بصفة عامة، ففما يتعلق بالخليل فقد تم إعادة توزيع خريطتها الإقطاعية حتى شمل مجمل جنوب مملكة بيت المقدس الصليبية تقريباً، إذ انكمشت إقطاعية الخليل من ناحية الشمال الشرقي والشمال الغربي والغرب.

(١) تم توثيق العقد من قبل البابوات وملوك بيت المقدس والبطاركة في الوثائق على التوالي في أعوام ١١٤٤م / ٥٣٩ هـ، ١١٤٦م / ٥٤١ هـ، ١١٥٥م / ٥٥٠ هـ، ١١٦٠م / ٥٥٥ هـ، ١١٦٤م / ٥٥٩ هـ، ١١٦٨م / ٥٦٣ هـ، ١١٧٠ / ٥٦٥ هـ، وكان آخر تثبيت للوثائق على يد البابا سلسنتان الثالث Selestene III (١١٩١ - ١١٩٨م / ٥٨٧ - ٥٩٤ هـ) عام ١١٩٦م / ٥٩٢ هـ، راجع: Besc. Bautier J., Le Carte du chap., Doc. No.11, PP. 52 - 54, Doc No. 16, PP. 63. 68, Doc. No. 42, PP. 115 - 119, Doc. No. 45, PP. 123 - 126, Doc. No. 135, PP. 261, Doc., No. 150, PP. 292 - 296, Doc. No. 151, PP. 297 - 301, Doc. No. 170. PP. 323 - 328 ; Hiestand, R., papsturk und en fuer kirchen im Heiligen Lande Duesseldorf. 1985, Vol. III, Doc. No. 55, PP. 177 - 178. Rohricht., R. Regestam Doc. No. 309, 582.

(2) Rohricht, R., Regesta, Doc. No 324.

(3) Mayer H. E., B. K. S., PP. 375 - 378.

(4) Roehricht, R., Regesta, Doc. No. 144, 164.

إضافة إلى ما تعرضت إليه إقطاعية الخليل من تقليص لأراضيها تمثل في اقتطاع بيت جبرين وبيت صور وتقوع وقرى أخرى، ظلت سياسة المملكة في ظل نظام الحكم الجديد المكون من الملكة ملسد وابنها بلدين الثالث يقوم على نفس الاتجاه ، فوفقاً للوثائق تم تأسيس إقطاعية صغيرة في عين جدى التى ذكرت فى الوثائق الصليبية باسم قلعة سان جيل Castellum Gilles وما جاورها من أراض (١) . وقد ورد فى وثيقة عام ١١٤٩ م/ ٥٤٤ هـ اسم جوبير (Gubeir) على أنه أحد المقطعين الذين منحوا عين جدى (٢) ، كما كان على مقطعيها . تقديم ثلاثة فرسان للملك فى الخدمة العسكرية (٣) وهناك إشارة فى المصادر إلى مساحة الإقطاعية بأنها تمتد من صغر جنوباً حتى أريحا (٤) شمالاً، وهذا يعنى أنها احتلت كل الساحل الغربى للبحر الميت، ويرى الباحث أن فى ذلك مبالغة فى تقدير المساحة ، فلو افترضنا صحة ما ورد فى هذه الإشارة فإن إمكانيات الإقطاعية الجديدة سوف تصبح من الكبر بالقدر الذى يجعلها منافسة للإقطاعية الأم وهى الخليل ، فهذا الشريط الساحلى يشمل من الموارد البحرية والزراعية الكثير ، ومع ذلك فالوثائق تشير إلى أنه كان على الإقطاعية تقديم ثلاثة من الفرسان فقط فى حين كانت الخليل تقدم عشرين فارساً للخدمة العسكرية (٥) . وبذلك يتضح أن إقطاعية عين جدى كانت أقل مساحة مما ذكر ، ويفترض أنها قد اشتملت على قرية عين جدى ذاتها إضافة الى بعض الأراضى الزراعية محدودة المساحة من حولها بحيث ظل معظم الساحل الغربى للبحر الميت يشكل حدود إقطاعية الخليل حتى نهايتها.

وأخيراً لدينا فى إطار سلسلة الانسلاخات التى تمت فى إقطاعية الخليل الصليبية وثيقة متأخرة نسبياً ترجع إلى عام ١١٨٠ م/ ٥٧٦ هـ. تذكر أن باروناً يدعى بطرس دى كاستلى Peter de Castlie قد منح دير جبل طابور (٦) (الجليل) قطعة أرض من ممتلكاته فى صغر (٧)، بذلك تفيد الوثيقة بأنه قد تم انسلاخ صغر أيضاً عن إقطاعية

(1) De La ville Le Roulx, C. G. O. H., Vol. I P. 342, Roehricht R., Regesta, Doc. No., 539 C.

(2) De La ville Le Roulx, Les Archives, p. 81. Roehricht R., Regesta, Doc. No. 244.

(3) Jean d' Ibelin, Le Livre de Jean d'Ibelin, P. 423.

(4) Fetellus, Op. Cit., P. 12.

(5) Jean d'Ibelin , Le Livre de Jean d'Ibelin, P. 422.

(٦) عرفه العرب باسم «دير الطور» وكان قائماً قبل الغزو الصليبي. «والطور جبل مستدير... واسع الأسفل مستدق الأعلى... ليس إليه إلا طريق واحد وهو فيما بين طبرية واللاجون» وبالجليل عين «وحوله كروم» تعصر، والشراب عنده كثير ، ويعرف أيضاً بدير التجلى؛ لأن المسيح صلى الله عليه - على زعمهم - تجلى إلى تلاميذه بعد أن رفع حتى أراههم نفسه وعرفوه، والناس يقصدونه من كل موضع... وهو من المواضع الطيبة . انظر الشابشتى : الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، الطبعة الثانية بغداد ١٩٥١ م . ص ٢٠٧

(7) Roehricht, R., Regesta, Doc. No. 599.

الخليل، ولم يعثر فى أى من الوثائق الأخرى على ما يدل على تاريخ حدوث ذلك، إلا أنه يمكن ترجيح حدوثه أثناء فترة حكم هيودى سانت أبراهام الثانى؛ نظراً لأن معظم التغيرات الإقطاعية التى شهدتها الخليل كانت قد تمت على عهد هذا الحاكم استجابة للسياسة التى انتهجها الملك فولك فى هذا الصدد.

وبنظرة إلى الأحداث المتلاحقة خلال فترة حكم هيودى سانت أبراهام الثانى للخليل نجد أن جميع الشواهد تؤكد على أنه بانسلاخ كل من بيت جبرين وبيت صور والقرى المجاورة الأخرى علاوة على تقوع وعين جدى وبلدة صغر تم تقليص مساحة إقطاعية الخليل بشكل واضح فى جميع الاتجاهات. ورغم أن هيو كان قد قدم بنفسه معظم هذه المنح إلا أن هذا كان بموجب خطة العرش الموضوعية بإحكام، وساعد فى تنفيذها طموح الإسبتارية، كما كان كبر مساحة إقطاعية الخليل، وما اشتملت عليه من موارد طبيعية ضخمة ما دفع بالتفكير فى تقسيمها. ويمكن القول بأن ملوك بيت المقدس كانوا واضحين الرؤية فيما وضعوه من مخطط منذ البداية، حيث نجحوا فى تضيق الخناق حول مقطعيهم على الخليل بغرض عدم إتاحة الفرصة أمامهم فى منافسة الملك فى حجم ممتلكاته. هذا، وقد شهدت فترة حكم هيودى سانت أبراهام الثانى أشد حلقات هذا المخطط قوة، وكانت محصلة سياسة تشتت الممتلكات داخل الخليل أن أصبحت الأراضى الإقطاعية فى كثير من جهاتها موزعة بين العرش والمؤسسات الدينية المختلفة سواء كانت العسكرية منها كطائفة الإسبتارية، أو الدينية والرهانية كالكنائس والأديرة.

ويبقى لنا بصدد التعرض للأحداث الداخلية فى إقطاعية الخليل أثناء فترة حكم هيودى سانت أبراهام الثانى لها، جانب آخر نستشفه من خلال الوثائق، وفى العقد الذى دون بتاريخ نوفمبر ١١٣٦م/ صفر ٥٣١هـ. ظهر أحد الشهود باسم نورمان دى سانت أبراهام "Norman de S. Abraham"^(١). وفى وثيقة أخرى أرخت فى الرابع والعشرين من يونيو ١١٤٨م/ الرابع من صفر ٥٤٣هـ. تم الإشارة إلى شخص يدعى سريان دى سانت أبراهام Surian de S. Abraham ضمن الشهود على العقد^(٢). وهذه الإشارات المتكررة لرجلين يحملان لقب سانت أبراهام علاوة على هيو وربما بلدوين - الذى لم تذكر الوثائق مصيره الإقطاعى - تفتح المجال أمام عدة افتراضات، أولها: أن أسرة إقطاعية حملت لقب سانت أبراهام شرعت فى التكوين بحيث أخذ أعضاؤها فى الظهور بالوثائق. أما الافتراض الثانى: فهو أن يكون كل من نورمان

(1) Roehricht, R. Regesta, Doc. No. 169.

(2) De Marsy, A., Fragment d'un Cartulaire d'Order de saint - Lazare en, Terre. Sainte, in. A. O. L, Vol. II B, P. 127; Roehricht R. Regesta, Doc. No. 251..

وسريان من الرجال الذين شغلوا وظائف كبرى في الهيكل الإدارى فى إقطاعية الخليل ، ومن أبرز هذه المناصب وظيفة الرئيس Regelus-Rais^(١) ، أما الافتراض الثالث: فهو أنهما كانا رجلين بارزين يمثلان طائفتين من سكان الخليل خلال العصر الصليبي وهما النورمان والسريان إذ كان المجتمع الصليبي يقوم على العنصرية.

والثابت أن هيودى سانت أبراهام الثانى قد ظل يحكم الخليل وقلعتها حتى ما بعد شهر يوليو ١١٤٩م/ ربيع أول ٥٤٤هـ. وهذا هو تاريخ آخر وثيقة ورد فيها اسمه وكذلك ورد فى نفس الوثيقة حاكم آخر يدعى همفرى وهو يحمل لقب رئيس قلعة سانت أبراهام Anfroi, châtelain de saint - Abraham. ويدور موضوع العقد حول منح كل من هيو الثانى وهمفرى وزوجته شخصاً يدعى مارتان كروانا Martin caraona وورثته من بعده ضيعة صغيرة تدر إيجاراً سنوياً يقدر باثنين من البيزنطيات^(٢) وفى أغسطس من عام ١١٥٢م/ جمادى أول ٥٤٧هـ. قام همفرى منفرداً بتأكيد منح نفس الضيعة لمارتان كروانا وورثته من بعده^(٣). ونظراً لأن مارتان هذا قد أبرم اتفاقاً مع ابنه بونيه Bonnet بأن يقدم إيراد الضيعة السنوى إلى كنيسة القيامة فى حالة وفاة الأب^(٤) فقد تم الاحتفاظ بالوثائق المذكورة فى أرشيف كنيسة القيامة.

جاءت نهاية فترة حكم هيودى سانت أبراهام الثانى للخليل لتختتم نصف قرن من الحكم الصليبي، بها وتشهد الوثائق التى تم عرضها بأن هيو المذكور قد قام بدور فعال ونشط فى خدمة الملك الصليبي فى الأمور الداخلية فى الخليل بتنفيذ ما يطلب منه، أما عن فترة حكم الشخصية التى تلتها وهو همفرى دى سانت أبراهام فلم يرد فى المصادر أى إشارة عن تاريخ انتهاء حكمه للخليل فى حين رأى صاحب كتاب أسرار ما وراء

(١) واضح من المسمى العربى لوظيفة الرئيس أنها كانت معروفة قبيل الغزو الصليبي، وكان الرئيس فى بلاد الفرنج يعد من أعلى الرتب العسكرية، إضافة إلى سلطات أخرى تمثل فى جباية الضرائب وقبادة الدفاع المدنى، وأن يكون دليلاً للتجار والبائعين، وهو فى كل الأحوال كان يعد حلقة الاتصال بين الأهالى والحاكم الصليبي، ولذا كان عليه أن يتقن اللغة العربية، ومسئولته تشمل قرية كاملة، وقد نصل إلى أن يصبح مسئولاً عن ربع مدينة. راجع :

Richard, J., Op. Cit., P. 139; Riley-smith, J., some lesser officials in Latin syria, Ed. in E. H. R. Vol. LXXX VII, oxford. 1972, PP. 1 - 2.

(2) Rohricht, R., Regesta, Doc. No. 169., Bresc. Bautier, J., Le cart. du chap., Doc. No. 110 PP. 230 - 231.

والبيزنط هو فى الأصل عملة ذهبية بيزنطية، وقد سمي هكذا نسبة إلى بيزنطة (أى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية) وكانت هذه العملة متداولة بكثرة فى أوربا خلال العصور الوسطى والشرق اللاتينى حتى القرن الثالث عشر الميلادى تقريباً، ومتوسط قيمتها حوالى تسعة شلنات إنجليزية. انظر: جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على مصر «هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور» الطبعة الأولى، الإسكندرية ١٩٦٩، ص ٢١٦، هـ ٣.

(3) Bresc - Bautier, J., Op. Cit., Doc. No. 143 . PP. 233 - 234 , Roehricht, R., Regesta, Doc. No. 265.

(4) Ibid, Doc. No. 220.

البحار أن همفري كان مجرد فارس صليبي أقام في قلعة سانت أبراهام فانتسب إليها^(١). وعلى كل فسوف تتولى هذه الدراسة كشف النقاب عن تلك الشخصية فيما بعد. أما عن أهم الأحداث الداخلية التي شهدتها الخليل خلال العقد السادس من الحكم الصليبي فيها، فتتمثل في تجديد المنح السابقة وتأكيداتها، ومنها ما قام به الملك بلدوين الثالث عام (١١٥٤م/٥٤٩هـ). بموافقة أمه الملكة ملسند بتأكيد المنحة التي قدمها جلدمار كاربنل وقت حكمه للخليل لطائفة الإسمتارية، وكانت تشمل ضيعتين إحداهما في الخليل والأخرى في أريحا وفي ذات الوثيقة ثبت الملك منحة جوتيي المحمدي وهي قلعة سوسيا للإسمتارية^(٢). ومن ثم يمكن القول أن ذلك العقد الزمني لم يشهد أحداثاً ذات مغزى عميق بالنسبة للأوضاع الداخلية في الخليل، وذلك في ضوء المادة التاريخية المتاحة.

وفي أعقاب المرحلة الأولى من السلطة الصليبية في الخليل لنا وقفة تحليلية شاملة لتقييم الظروف التي أحاطت بالإقطاعية وأثرت فيها، فالذين رأوا أن السلطة فيها تمثلت منذ تأسيسها في رئيس حامية قلعتها كموظف من قبل الملك في قلعته الملكية، ورأوا أيضاً أن هذا الوضع ظل قائماً في الخليل طوال مايزيد عن الستة عقود من الزمن، وبالتالي لم ينعم أى من حكامها بالسيادة الحقيقية عليها، ويشمل هذا الحكم هيودى سانت أبراهام الثانى الذى كانت له حظوة منح الأراضى كما أشارت إليه بعض الوثائق حاملاً لقب سيد (Domenus) ويضيف أصحاب هذا الرأى تبريراً لذلك وهو أن منح الأراضى كان يتطلب دائماً توثيقاً من الملك عليه، كما أن كاتب المراسيم الملكية لا يلتزم بالدقة في كتابة الألقاب، فكثيراً ما كان يذكر ألقاباً لرجال لم يكن من حقهم حملها^(٣).

ويرى الباحث أنه من الصعب الأخذ بما أورده أصحاب الاتجاه السابق، ويؤكد على رأيه بأن نواة لإقطاعية صليبية كان قد تم تأسيسها فوق أرض الخليل مع بداية استيلاء الصليبيين عليها، وأنها ظلت تحتفظ بهذه الصفة مدة بقائها في حوزة الصليبيين. ويقدم الباحث العديد من البراهين والشواهد التي تدعم صحة رأيه، وتتمثل أهمها في: أن روجردى أفنس أول فصل إقطاعى يحكم الخليل، كان قد منح أرضاً حول الخليل يقدر ثمنها بثلاثمائة مارك ذهبي، علاوة على قلعة المدينة، كما أن جلدمار كاربنل كان قد تولى أمر قلعة الخليل علاوة على أنه امتلك الأراضى، والدليل على ذلك قيامه بمنح ضيعة لطائفة الإسمتارية، وكذلك الأمر بالنسبة لكل من هيودى سانت أبراهام الأول وجوتيي المحمدي منحا الأراضى لمؤسسات دينية فضلاً عن ترأسهما لقلعة سانت أبراهام،

(1) Rey, E. G., les Familles d'Outre - Mer, P. 424, Roehricht, R., Regesta. Doc. No. 293.

(2) Roehricht, R., Regesta, Doc. No. 134..

(3) Beyer, G, Z. D. P. V., LXV. PP. 171 - 172, 174, Cf. Als., Mayer., E. Z.D. P. V, Ci PP. 64 - 67.

أما بلدوين دى سانت أبراهام فقد تولى الإشراف على أعمال التنقيب عن رفات الأنبياء ، وهذا يعد من الأعمال المدنية . وأخيراً فقد تولى يهودى سانت أبراهام الثانى القلعة وإلى جانب ذلك فقد قدم قائمة طويلة من الممتلكات كمنحة لهيئات عسكرية ودينية مختلفة . كل هذا يبرهن على أن دور هؤلاء لم يقتصر على مجرد كونهم رؤساء حامية القلعة ، ومن ثم يتلخص رأى الباحث أنه خلال تلك المرحلة كان حكام الخليل قد تولوا حكم بعض أراضيها إضافة إلى قلعتها بصفة إقطاعية ، أى أن الملك الصليبي كان يقطعهم الأراضي بصفته سادة ، ولكن الظروف التى مروا بها لم تساعد على إظهارهم كإقطاعيين ، بمعنى الكلمة ، وأعنى بهذا أن عدم الزواج أو الموت أو الأسر كانت أسباباً عملت على عدم تأسيس أحد من هؤلاء الحكام لأسرة إقطاعية وراثية فى الخليل ، وبالتالي لم يتمكن أحدهم من تثبيت أقدامه فيها .

وعلى ذلك يمكن تحديد الموقف الإقطاعى فى الخليل والعلاقة التى ربطت الملك الصليبي بحكامها بأن الملك قام بإقطاع حكام الخليل المدينة وبعض القرى المجاورة وفقاً لقوانين الإقطاع المتعارف عليها فى مملكة بيت المقدس . وأن الملك احتفظ لنفسه ببعض الأراضي داخل الإقطاعية وعند أطرافها كى تكون تحت إشرافه مباشرة ، وبالتالي فمن حقه منحها أو التصرف فيها كما شاء . وفى هذا الإطار برزت قلعة الخليل كأهم ما يضمه الإقطاع نظراً للصبغة العسكرية المميزة للحركة الصليبية فى الشرق اللاتينى بصفة عامة .

وفى المرحلة التالية ارتبط الحكم الصليبي فى الخليل إلى حد بعيد بمنطقة شرقى الأردن *ultra jordanem* ولذا فمن الضروري إلقاء بعض الضوء على هذه المنطقة ؛ فأهم ما تضمه «الشوبك» وهو اسم إقليم وبلدة ذات عيون وجدول تجرى وبساتين وأشجار . ونظراً لأهمية موقعها شيد الملك بلدوين الأول بها قلعة حصينة عام ١١١٥م/٥٠٩هـ . عرفها الصليبيون باسم مونتريال - Le Krak de Mon-treal^(١) على بعد حوالى مائة كيلو متر شرق الخليل . كما تضم بلدة الكرك الحصينة التى تطور العمران فيها على يد الفرنج حيث تم تشييد قلعة ضخمة شديدة الحصانة فى عام ١١٤١م/٥٣٦هـ عرفت باسم قلعة الكرك فوق تل أطلق عليه المؤرخون اسم حجر الصحراء *Piere de Desert*^(٢) ، وقد تم تأسيس محكمتين للبرجوازية فى الشوبك

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج٤ ، ص ١٥٥ - ١٥٦

Al bert d'Aix, Op. Cit. ,PP. 702 - 703; Fulcher of chartres, Op. Cit, P. 218

(2) Willim of Tyre, Op. Cit, Vol. II, P. 127 , Paoli, S. cod. Diple, Tom. I, PP. 447 - 448

قال ياقوت الحموى عن القلعة « الكرك قلعة مشهورة حصينة فى طرف البلقاء من أرض الشام من ناحية جبال الشراه » راجع : - المشترك صقماً والمفروق وضعاً ، ص ٣٧١ - ٣٧٢ وفى موضع آخر يقول : « الكرك اسم لقلعة حصينة جدا وهى على سن جبل عالى تحيط بها أودية إلا من جهة الربيض » ، انظر : - معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٢٦٢ . كما قال عنها ابن شاهين الظاهرى « قلعة ليس لها نظير فى الإسلام ولا فى الكفر » راجع : زبدة كشف الممالك ، ص ٤٣ .

والكرك تمييزاً وتحديداً لقيام إقطاعية صليبية تضمهما معاً^(١). وهكذا ضمت الإقطاعية جهات شرق الأردن الواقعة شرقي البحر الميت حتى الصحراء جنوباً وصولاً إلى رأس خليج العقبة^(٢). وقد تولى حكم شرقي الأردن إقطاعيون يتبعون ملك بيت المقدس هم رومان دى بوى Roman de Boie (١١١٥ - ١١٣٢ م / ٥٠٩ - ٥٢٦ هـ)، ثم باجان الساقى Pagahus le Boutes حتى عام ١١٥٢ م / ٥٤٧ هـ. حينما خلفه ابن أخيه موريس Morius^(٣).

وتوضح لنا الوثائق إلى أى حد ارتبط الوضع السياسى فى الخليل بشرقى الأردن، ففي يوم الاثنين الحادى والثلاثين من يوليو سنة ١١٦١ م / السادس من شعبان سنة ٥٥٦ هـ، أقدم الملك بلدوين الثالث على إصدار مرسوم فى الناصرة بعقد مبادلة للممتلكات داخل المملكة بموجب اتفاق تم التوصل إليه مع أفضاله يقضى بحصول فيليب دى ميللى Philip de Milly^(٤) على الكرك والشوبك وما يحيطهما من أراض فى مقابل التنازل عن بعض ممتلكاته فى صور وصيدا علاوة على إقطاعية نابلس^(٥) التى كان يحكمها نيابة عن الملكة ملسند^(٦). ويضيف كتاب الأنساب فيما وراء البحار فى

(1) Jean d' Ibelin, op. Cit, P. 420

(2) Mas Latrie, La Terre au de la du Jourdain et ses premiers seigneurs", BE. char., XXXIX 1878, PP. 416 - 417

ويمكن تحديد أراضى إقليم ما وراء الأردن فترة الحروب الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى بأنها تلك الرقعة الممتدة من باتياس الداخلية ، حتى جنوب البحر الميت ورأس خليج العقبة جنوباً وذلك إلى الشرق من نهر الأردن والبحر، وقد ضمت إمارة الجليل الصليبية الأجزاء الشمالية فى هذا الإقليم، فى حين تكونت الإقطاعية الصليبية التى حملت اسم شرق الأردن ما تبقى من الإقليم ، وكان نهر الزرقاء، يفصل بين المنطقتين. راجع :-

Rey. E. G., Recherches Geographiques et Historiques sur la domination des Latin en Orient, Paris 1877 - P. 6

(3) Paoli, S., Cod. Diple, Tome I, Doc. No. 37 , P. 62. William of Tyre, Op. Cit; Vol. II PP. 70 - 72 Cf. Also, Rey, E. G. Seigneurs de Montreal, in R. O. L., Tome IV, Paris 1896, PP. 16 - 19,

(٤) ينتمى فيليب إلى أسرة ميللى وهى من الأسر النبيلة التى استقرت فى فلسطين بعد قدوم الصليبيين ، وتنتمى إلى العنصر الفلمنكى ، وكان الملك بلدوين الأول قد منح جزءاً كبيراً من إقطاعية نابلس إلى باين دى ميللى peyen de milly كبير العائلة فى تلك الفترة فى عام ١١٠٨ م / ٥٠٢ هـ ، راجع سعيد البيشاوى : مدينة نابلس ، ص ٩٨. راجع أيضاً.

Tibble, S., Op. Cit., PP. 88 - 89

(5) Mayer, H. E., ed., Tabulae Ordines Theutonici, Doc., No.3, P. 3; Roehricht, R., Regesta, Doc. No. 366

هناك مناقشة حول مبادلة الأراضى وما ترتب عليها من متغيرات فى الخريطة الإقطاعية يمكن مراجعتها فى: Tibble, S., Op. Cit., PP. 88 - 90.

(6) Rey. E. G., Les Familles d'Outre - mer, PP. 202, 403

الواضح أن فيليب دى ميللى قد حاز نابلس من الملكة ملسند، وعندما اشتد عليها المرض استغل بلدوين الثالث الفرصة وسعى إلى نقل فيليب من حكم نابلس إلى شرقي الأردن إذ كان لا يمكن للملك أن يجرى هذا التغيير إلا بعد استشارتها. وكان يقصد من وراء ذلك حرمان أمه الملكة من عون واحد من أهم رجالها. انظر :

Runcimam, S., Op. Cit, Vol II, P. 335.

موضعين مختلفين سانت أبراهام (الخليل) الى الممتلكات التي كانت لفيليب أن يحوزها وفقاً لتلك المبادلة^(١)، كما أشارت وثيقة واحدة فقط إلى فيليب على أنه سيد الشوبك والخليل^(٢). ووفقاً لتلك الإشارات يكون فيليب دى ميلى قد حاز المنطقة الممتدة من الزرقاء شمالاً حتى خليج العقبة جنوباً بما فيها قلعة وادى موسى وأيله^(٣)، علاوة على إقطاعية الخليل، وقد استمر الوضع على هذا النحو وفقاً لما ذكرته المصادر سالفة الذكر. ولم يتغير حتى السابع عشر من يناير ١١٦٦م/ ٥٦١هـ. وهو التاريخ الذى انضم فيه فيليب إلى طائفة الفرسان الداوية^(٤) وفقاً للعقد الذى أبرمه الملك عمورى الأول ملك بيت المقدس^(٥) (١١٦٢ - ١١٧٤م / ٥٥٧ - ٥٦٩هـ).

ويخلص الرأى السائد بين عدد من المؤرخين الحديثين المستندين إلى المصادر والوثائق الصليبية المشار إليها إلى التأكيد على أن ميلاد إقطاعية الخليل الصليبية قد حدث فى عام ١١٦١م/ ٥٥٦هـ على يد «فيليب دى ميلى». وبذلك يصبح هو أول من يحمل

(1) Les Lignages, d'outre, Mer in Assises de Jerusalem Tome II. Demand 1983, PP. 452 - 462.

(2) Roehricht, R., Regsta, Doc. No. 596.

تشير وثيقة أخرى إلى أن أهمنت ومناطق أخرى كانت من الاراضى التى أضيفت إلى ماحاز فيليب من ممتلكات وقد حدد دلافيل لورو موقع أهمنت بأنه بلدة معان الشمش الواقعة فى جنوب شرقى الشوبك ، إلا ان الباحث ماير يذكر أن أهمنت هو اسم مدينة عمان الحالية فى عصر الحروب الصليبية ، راجع :

Dé La ville le Roulx, Chartes de la terre - Sainte in R. O. L., Tome XI, Paris 1905 - 1908 , P. 185, N.25 ; Mayer, H. E; The Crusader lordship of kerak and shaubak, some preliminary remarks in , S. H. A. J., Vol. III, Aman 1987, P. 201.

(3) Mas latrie, La terre au dela du Jourdain et ses premiers seigneurs, PP. 417 , 418 Cf. Also, Deschamps, P., les chateaux des croises en terre - Sainte, " La Defense du Royaume de Jerusalem ", Paris 1939. Vol, II, P. 48

(4) Rey, E. G. , Les Familles d'Outre . Mer, P. 867

ويضيف نفس المؤرخ أن فيليب دى ميلى قد أصبح مقدماً لفرسان الداوية بعد انضمامه إليها بثلاثة أعوام تقريباً ، أما عن تاريخ تأسيس هيئة فرسان الداوية فقد اختلف المؤرخون الصليبيون فى تحديد تاريخ تأسيسها ، وإن كان قد انحصر فى الفترة الواقعة بين عامى ١١١٨ - ١١٢٠ م / ٥١٢ - ٥١٤ هـ ،

راجع : إبراهيم خميس : جماعة الفرسان الداوية وعلاقتهم السياسية بالمسلمين فى الشرق الأدنى الإسلامى ١١١٨م/ ٥١٢هـ - ١١٩٣م/ ٥٨٩هـ، رسالة ماجستير لم تطبع بعد ص ٤٧ - ٤٨ - يرجع الفضل فى تأسيس طائفة الداوية إلى فارس من شهبانى اسمه هيودى باينز Huyue de payens الذى تمكن من إقناع بلدوين الثانى بالسماح له ورفاقه بالنزول بساحة المعبد (المسجد الأقصى) وقد خضعت الطائفة إلى القواعد الرهبانية المسكونية، وما لبثت أن أضحت مستقلة، وبمرور الوقت أخذ دور فرسان الداوية العسكرى فى النمو حتى أصبحوا يلعبون دوراً مميزاً فى تاريخ الحركة الصليبية. راجع : William of Tyrem Op. Cit., Vol. I , P. 524 ; Runciman, Vol II, P. 157

(5) De La Ville Le Roulx, Chartes de la terre. sainte in. R. O. L, Vol. XI, PP. 183 - 185.

لقب سيد الخليل بصورة واقعية على أساس من الاستقلالية عن التاج الملكي، وكذلك الملكية الخاصة للأراضي^(١). وتخطى إحدى الدراسات الأكثر حداثة هذا الاتجاه، حيث يفند صاحبها أسباب الخطأ في أن العقد الأصلي الذي أقر مبادلة الأراضي في الناصرة لم يشر البتة إلى امتلاك فيليب دي ميلى للخليل ضمن الأراضي التي تمت مبادلتها معه. وهناك من الأدلة، ما يكفي للتأكيد على صحة العقد وأصالته^(٢). فإن أرشيف طائفة التيوتون الألمانية احتفظ بنسخة هنرى الثور Heinrichs de Buffels أخى فيليب دي ميلى من العقد وذلك فى علم ١٢٢٠م / ٦١٧هـ حينما اشترت الطائفة إقطاعية جوسلين Seigneurie de Joscoline^(٣) وكان من اللازم الاحتفاظ بالإثباتات القديمة التى تؤكد ملكيتهم للإقطاعية، وكان فيليب لا يمثل نفسه فقط فى عقد الناصرة لذا كان لزاما عليه أن يحصل كل فرد من افراد عائلته (بما فيهم هنرى الثور) على نسخة من العقد^(٤) ، أما ماورد فى كتاب الأنساب من ضم الخليل إلى شرقى الأردن على أنها ممتلكات فيليب الجديدة عام ١١٦١م / ٥٥٦هـ، فما هو إلا محض تخمين بل وادعاءات لا تستند على حقائق، علاوة على أن تدوين العقد فى هذا الكتاب لم يتم إلا بعد مرور ما لا يقل عن القرن من تاريخ ضمه لأرشيف طائفة التيوتون، كذلك فإن وثيقة عام ١١٨٠م / ٥٧٦هـ التى أشارت إلى فيليب وقد حمل لقب سيد الخليل إضافة إلى شرقى الأردن.. فهى مزيفة وأن التزوير واضح فيها؛ نظرا لاحتوائها على عدد من الأخطاء - سوف نعرض لها فى حينها - ومن ثم فلا يمكن الاعتماد على ماورد بها من معلومات^(٥).

(1) Rey, E. G. Les Familles d'Outre - Mer PP. 423 - 424; Beyer, G., Z. D. P. V., LXV PP. 169 - 174 , Cf. Als. Richard J., The Latin kingdom, PP. 87 - 89, Benvenisti M., The Crusaders in the Holy Land, PP. 11, 13, 167.

(2) Mayer, H. E, Z. D. P. V., CI. PP. 64 - 73.

(٣) إقطاعية جوسلين هى إحدى الإقطاعات التى تأسست فى المملكة الصليبية مؤخراً بعد زوال إمارة جوسلين فى الرها عام ١١٤٦م / ٥٤١هـ وتم تعويض جوسلين دي كورتناى الثالث ببعض الممتلكات فى شمال المملكة فى المناطق التى تنازل عنها فيليب دي ميلى فى عقد المبادلة وعرفت بإقطاعية جوسلين. وقد ورد اسم جوسلين دي كورتناى الثالث على أنه يشغل وظيفة مستشار المملكة فى وثيقة عام ١١٧٦م / ٥٧١هـ بفضل نفوذ أخته أجنس Agnes لكونها أم الملك بلدوين الرابع (١١٧٤ - ١١٨٥م / ٥٦٩ - ٥٨١هـ) وتكرر اسم جوسلين فى الوثائق مرة أخرى شاغلا نفس المنصب فى عام ١١٨٢م / ٥٧٨هـ. راجع :

De ville le Roulx C. G. O. H., Vol. I, Doc. No. 325, P. 424; Roehricht, R., Regesta, Doc. No. 537 .

(4) Mayer, H. E., ed., Tabulae ordinis theutonici, Doc. No.3, PP. 3 - 4.

وعن تتبع أصل الوثيقة وتاريخ وكيفية ضمها إلى أرشيف طائفة التيوتون راجع :-

Mayer, H. E., Die Seigneurie de Joscelin und der Deutsche Orden, in : Die geislichen Ritterorden Europas, ed. by Flechenstein J. und hellmann., Vortraege und ; forschung- gen 26, sigmaringen 1980, P. 182.

(5) Mayer, H. E., Z. D. P. V., CI, PP. 69, 74 - 74.

من ناحية أخرى تفيد إحدى الوثائق بأن فيليب دى ميلى كان قد منح فى عام ١١٥٢م/ ٥٣٧هـ. رهبان دير السيدة مريم فى وادى جوزفات Josphat نصف قرية بيت أومر^(١) وقد استند أصحاب الاتجاه الأول إلى هذه الوثيقة للتدليل على استحواذ فيليب على الخليل إضافة إلى شرقى الأردن^(٢) غير أن الاتجاه الثانى يرى أن فى ذلك خطأ واضحاً ، ذلك أن الاتجاه الأول أغفل تاريخ منحة فيليب إذ تمت قبل مبادلة أراضى أسرته فى نابلس وغيرها بإقطاعية شرقى الأردن ذاتها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فمن الوثائق ما يبرهن على أن فيليب قد ورث الأراضى القرية من الخليل عن أبيه وليس من خلال عقد المبادلة، إذ تذكر أن جويدو دى ميلى Guide de Milly والد فيليب دى ميلى كان قد منح أراضى ملكية قرية من الخليل فى عام ١١١٥م/ ٥٠٩هـ، وقام الملك بلدوين الأول بتثبيت هذه المنحة، ولم تذكر الوثيقة اسم تلك الأراضى ، ولكن وثيقة عام ١١٣٠م/ ٥٢٤هـ. التى قام فيها بلدوين الثانى بتثبيت منح جويدو دى ميلى للأراضى حددتها بأنها نصف قرية بيت أومر^(٣).

وبعد استعراض الركائز التى تنفى خضوع الخليل لحكم فيليب دى ميلى فالباحث يؤكد هذا الأمر ويضيف إليها ركيزتين ذاتى أهمية خاصة. فإذا ما كان فيليب قد تولى السلطة فى الخليل فهذا يتأتى من خلال ما ورثه من ممتلكات فى الإقطاعية عن أبيه، وهذا بدوره ربما يعنى أن أباه تولى السلطة فيها، غير أن ذلك لم يحدث بالقطع. وهكذا فعلاقة فيليب بالخليل لم تتعد كونه أحد ورثة جويدو دى ميلى فيما امتلك من أراضى فى الخليل فحسب. أما الركيزة الأخرى فتتمثل فى عدم ذكر فيليب مقرونا بالخليل فى أى من المستندات الملكية الأخرى المتاحة، ومنها على سبيل المثال وثيقة عام ١١٦٥م/ ٥٦٠هـ التى أشارت إلى فيليب على أنه سيد الشوبك^(٤) Philippas de Monte Regali فحسب.

لايعنى عدم إمساك فيليب دى ميلى بمقاليد الحكم فى الخليل انتفاء علاقة الإقطاعية بشرقى الأردن، ذلك الأمر الذى سوف يتضح ويتدعم فى المرحلة التالية ، حيث كانت إيزابيلا أو إليزابيث Elizabeth - Isabella زوجة فيليب ابنه أخى باجان الساقى سيد شرقى الأردن السابق ، وبذا تعتبر وريثة لخلفه موريس، فلما ماتت التحق فيليب بالدواية، أما جوتيه برسبار الثالث Gauter Birisebarre III فكان قد تزوج من

(1) Dela Borde. F., charter de josphat P. 41, Roehricht, R., Regesta, Doc. No. 291

(2) Beyer, G., Z.D.P.V. LXV, PP. 171 , 197.

(3) Mayer, H. E., Z. D. P. V., CI, PP. 77 - 78.

أما ما استند إليه ماير من وثائق فيمكن مراجعته فى :

Roehricht, R., Regesta , Doc, No. 8-, 134.

(4) Roehricht, R., Regesta, Doc. No. 412

ماريا Maria ابنة فيليب، وحينئذ تخلى عن ملكيته لبيروت، وأصبح وصياً على ممتلكات زوجته وابنتها الصغرى هلينا Heleina غير أنه فقد وصايته بسبب موت زوجته ثم ابنته، وتم تعويضه فيما بعد بإقطاع تل الصافية. وانتقل بذلك إقطاع شرقي الأردن إلى يد ستيفانى ابنة فيليب دى ميللى Stephanie de Milly^(١) بداية من عام ١١٦٧م/ ٥٦٢هـ كوريثة ممتلكات أمها المتوفاة وأبيها الذى سلك الرهبة وأصبح مقدماً لفرسان الداوية^(٢).

كانت ستيفانى دى ميللى قد تزوجت فى عام ١١٦٣م/ ٥٥٨هـ من همفرى الذى عادة مايشير إليه وليم الصورى باسم همفرى الثانى، غير أنه عرف فى التاريخ الصليبي العام باسم همفرى دى تورون الثالث Humfroi de Toron III^(٣)، وكانت آخر وثيقة صليبية أوردت اسمه بتاريخ نوفمبر ١١٦٨م/ ربيع أول ٥٦٤هـ. ويعتمد عليها الباحثون الحديثون لتحديد تاريخ وفاة همفرى^(٤)، أما المؤرخون المسلمون فعادة ماذكروه باسم «ابن الهمفري» وكان آخر ذكر له عندهم بتاريخ فبراير - مارس ١١٧٠م/ جمادى الآخر ٥٦٥هـ.^(٥) ونظراً لأهمية إقطاعية شرقي الأردن كان لابد من تزويج ستيفانى أرملة

(1) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, P. 418, Cf. Also Rey E. G., Les seigneurs de Barut, in R. O. L., Tome IV Paris 1896, PP. 12 - 18, Schlumberger, G., Renaud de châtillon, paris 1898, PP. 148 - 149.

ذكر عدد من المؤرخين الحديثين اسم ستيفانى برسم مختلف هو إنتت دى ميللى Etienne de Milly
اذكر منهم :

- Rey, E. G., Les Familles d'outre - Mer, P. 403. Grousset, R., Op. Cit., Vol II, P. 554.

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٦٨

(2) Beyer G., Z. D. P. V., LXV, P. 173.

(3) William of Tyer, OP. Cit., Vol. II, PP. 396 - 401; Cf. Also, Stevenson W., The crusaders in the East, P. 61, Archer, T. H. and kingsford. C. L., The crusades, P. 188, Grousset, R., Op. Cit., Vol. II P. 554.

ويتمى همفرى الثالث إلى أسرة تضم أربعة يحملون نفس الاسم ، قام بتأسيسها همفرى العجوز المعروف بهمفرى دى تورون الأول. وقد تمكن من تكوين إقطاعية صليبية على حساب إمارة الجليل حيث الأراضي الجليلية حول قلعة تبين التى شيدت عام ١١٠٦ - ١١٠٧م / ٥٠٠ هـ، وقد خلفه فى حكم الإقطاعية بقية أفراد الأسرة. وسوف يعرض تاريخ هذه الأسرة ببعض التفصيل خلال تلك الدراسة راجع : ابن القلانسي : تاريخ دمشق ص ٣٨٥ - ٣٨٦.

William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, PP. 19 - 20 , Albert d'Aix, Op. Cit., P. 690, Cf. Als. Prawer, J., Histoire du Royaume latin de jerusalem, Tr. Gerard Nahom, paris 1969 - 1970, Vol. II , P. 213, N. 1.

(4) Roehricht, R., Regesta., Doc. No. 454, Mayer H. E., Z. D. P. V., CI, PP. 76 - 77.

(٥) كثيراً ما خلطت المصادر الإسلامية بين همفرى الثانى والثالث، ومن أبرز الذين أشاروا إليهما، راجع :

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج ١١ ، ص ٣٥٣ ، العماد الاصفهاني : البرق الشامى، ج ٥ ، ص ١٤٨ - ١٤٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج ٢ ، ص ٧٢ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، حيدر آباد. ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ - ١٩٥٢ م، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٤٢ ، ٣٥١

همفري من رجل قوى آخر^(١) فكان هو ميلون دى بلانسى Milon De Plancy مستشار Senshall مملكة بيت المقدس، وذلك فى عام ١١٧٣م/ ٥٦٨هـ، وقد أشارت الوثائق إليه باسم ميلون سيد الكرك والشوبك مقروناً بزوجه ستيفانى^(٢)، ولكن سرعان ما اغتيل ميلون المكروه فى عكا أواخر العام الميلادى التالى^(٣). ونظرا لحساسية الموقف العسكرى لإقطاعية شرقى الاردن فكان لابد أن تتزوج ستيفانى للمرة الثالثة من رجل قوى آخر يتحمل أعباء حماية هذه الممتلكات وهو رينو دى شاتيو Renaud de Chatillon^(٤) الذى ذكرته المصادر الإسلامية باسم «أرناط» «الإبرنس صاحب الكرك»^(٥).

ويعد رينو دى شاتيو من الشخصيات المحورية فى إقطاعية الخليل الصليبية، بل وفى عالم الصليبيين. وتنقسم حياته إلى مرحلتين؛ تلخص الأولى فى أنه فارس فرنسى خدم فى جيش الملك بلدوين الثالث، هيا له زواجه من كونستانس Constance أميرة أنطاكية أن يحتل مكانة مرحومة^(٦)، غير أن وقوعه فى أسر المسلمين فى الفترة ما بين ١١٦٠ - ١١٧٦م/ ٥٥٥ - ٥٧٢هـ. ووفاء كونستانس أفقدها تلك المكانة^(٧). وسرعان ما مكته الزواج من ستيفانى دى ميللى فى نوفمبر ١١٧٧م/ جمادى آخر

(1) Deschamps P., Les Chateaux des croises en terre- sainte, P. 55, Mayer H. E., Z. D. P. V., CI, PP. 500 - 501.

(2) Mayer, H. E., ed., tabulae, PP. 7 - 8, De la Ville Le Roulx, C. G. O. H., Vol. I, PP. 317 - 318, Rohricht, R., Regesta, Doc. No. 496.

ولمعرفة المزيد عن شخصية ميلون دى بلانسى وعلاقة ملوك وبارونات المملكة الصليبية به. راجع: Rey, E. G., Op. Cit., PP. 403 - 404.

(3) William of Tyer, OP. Cit., Vol. II, PP. 401.

(4) Kinnamos John., Deeds of John and Manuel Comnenus. Tr. by charles M. Brand, New York 1976, PP. 136 - 137, 164, William of Tyre, Op. Cit., Vol II, P. 224; Ernoul Op Cit, PP, 73, 77, 96, Eracles, l'Estoire d'Eracles Empereur et La conquete de la terre d'Outremer, R. H. C. Occ. II, PP. 1 - 2, 4

(٥) العماد الاصفهاني: الفتح القسى، ص ٥٩، ٦٣، ٦٨، ٧٨؛ البرق الشامى، ج ٥، ص ٦٩؛ ابن الاثير: الكامل فى التاريخ، ج ١١، صفحات متفرقة، ج ١٢، ص ٢٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٠١، ٥٩، ١٩٢؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٣، ص ٢٣٤ - ٢٣٥، ٢٦٣، ٢٩٢؛ سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان، ج ٨، ق ١، ص ٣٦٩؛ ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص ٤٣.

(6) Kinnamos John, Op. Cit., PP. 136, 140 - 142, Cf. Also, Schlumberger, G., renaud de Chatillon, Paris 1898, PP. 40 - 44

(٧) ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٣، ص ٣٤، راجع أيضا:

William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, PP. 284, 414, Gibb, H. A. R., The carrer of Nor - Eddin, in setton, Vol. I, P. 523.

٥٧٣هـ^(١) التي تعد أغنى ورشة في المملكة الصليبية من أن يصبح أحد أقطاب الصليبيين^(٢)، وبذلك تبدأ المرحلة الثانية من حياته.

أما عن علاقة رينو دي شاتيو بإقطاعية الخليل فتمدنا الوثائق بمعلومات قيمة عن تلك العلاقة، ومنها ما ورد في وثيقة بتاريخ نوفمبر ١١٧٧م / جمادى الآخر ٥٧٣هـ. حيث ذكر فيها أن رينو الذي كان أميراً لانتاكية أصبح بنعمة الله أميراً للخليل والشوبك *Princeps Ebronensis et Montis Regalis* وذلك عندما قام هو وزوجته ستيفاني بتثبيت منح الممتلكات التي كانت قد حازتها الإمبراطورة من سلفه موريس - في إقطاعية ما وراء الأردن - للطائفة^(٣). وفي وثيقة أخرى تم ذكر رينو يحمل لقب أمير *Princeps الكرك والخليل*، وذلك كشاهد على عقد تم تحريره بتاريخ الثامن والعشرين من أبريل ١١٨٠م / ذي الحجة ٥٧٥هـ^(٤). كما ذكرت قوانين بيت المقدس ممتلكات رينو تحت اسم إقطاعية الكرك والشوبك وسانت أبراهام^(٥) *Seigneurie de Craque Montroyal St. Abraham*. ولعل في اكتساب رينو كل هذه الألقاب من واقع الكتابات الصليبية بل والإسلامية ما يشير إلى ذبوع صيته وظهوره على الساحة التي ملاها حركة وضجيجا.

لم تكتفِ الوثائق بإضفاء الشرعية على حمل رينو لقب سيد الخليل بل أثبت بعضها أنه قد اكتسب سلطة الموافقة على المنح وتبادل الممتلكات الخاصة بالخليل، إذ كان هناك خلاف قد دب في عام ١١٣٦م / ٥٥٨هـ حول ملكية دير السيدة مريم في وادي جوزفسات في كل من قرى جمرودة وترفومينا المجاورتين لها، ولم ينفُض النزاع إلا بموجب عقد أبرمه رينو دي شاتيو عام ١١٨٠م / ٥٧٦هـ. أقر فيه ملكية الدير في أراضي

(1) Paoli. S. Cod. Dipl. Doc. No. 31, p. 63; De La ville le Roulx, C.G.O.H., Vol. I, Doc. No. 521, p. 355.

(2) Schlumberger, G., Renaud de chatillin, pp. 142, Cf. Also, Hamilton, B., The Elephant of christ, Reynald of chatillon, in Monastic Reform. Catharsm and the crusades 900 - 1300, varior., London 1979. pp. 99 - 100; Mayer, H.E., The crusader Lordship of karak and shoubak, p. 202.

وقد أطلق هاملتون على رينو لقب «فيل الصليب» تشبيها له بالفائد الحبشي «أبرهة الأشرم» الذي قدم مكة لتدمير الكعبة. راجع القرآن الكريم. سورة الفيل رقم ١٠٥.

(3) Paaoli, S., Cod. Depl. Doc. No. 62; De la Ville le Roux, C.G.O.H., vol. I, Doc. No. 521, p. 355.

(4) Roehricht, R., Regesta, Doc. No. 593.

(5) Jeand Ibelin, Op. Cit., p. 418.

جمروة بعد مبادلتهما بأراضي في ترقوميا تسوية للخلاف^(١). وكان في موافقة رينو على مبادلة الأراضي دون ورود اسم الملك بلدوين الرابع^(٢) في الوثائق ما يعد تأكيداً على اكتساب رينو سلطة التصرف فعلياً في أراضي إقطاعية الخليل وقراها^(٣) بالاتفاق مع زوجته. هذا، وقد ظل منح رينو قرية جمروة لدير السيدة مريم بمثابة منحة ثابتة تؤكد لها الوثائق حتى بعد سقوط إقطاعية الخليل الصليبية، وكان آخر تأكيد للمنحة على يد البابا إسكندر الرابع في أولى سنوات بابويته (١٢٥٤ - ١٢٦١م / ٦٥٢ - ٦٦٠هـ) وبالتحديد في الثلاثين من يناير ١٢٥٥م / التاسع عشر من ذي الحجة ٦٥٢هـ^(٤).

تؤكد الوثائق مرة أخرى اكتساب رينو سلطة التصرف في أراضي الخليل، وهذا الأمر يتضح في حالة التصرف في أراضي بيت أومر، فحينما آلت ملكية نصف هذه القرية إلى جويدو دي ميللي فكان ذلك بموجب منحة من الملك بلدوين الأول، قام بلدوين الثاني بتثبيتها^(٥). وفي عام ١١٨٠م / ٥٧٦هـ. رأينا رينو يقوم بمنح النصف الآخر من بيت أومر لدير السيدة مريم بوادي جوزفات^(٦)، وهذا يشير إلى أن القرية

(1) Paoli, S., Cod. Dipl., Tom. 1. pp. 62 - 63; Mayer; H. E., ed., Tabulae Doc. No 7, pp. 11 - 12 : Delaville le Roulx C. G. O. H., Vol. 1, pp. 15, 395 - 396 : Delaborde, Chartes, pp. 88 - 89 ; Delaville le Roulx, R. O.L., Vol VII, pp. 153 - 154; Roehricht, R., Regesta Doc. No. 279. 551, 587, 593, 569. 693A.

وقد أفاض كل من ماير وبائر في مناقشة تلك القضية، واعتبر تلك الخطوة بمثابة إعادة رسم لحدود إقطاعية الخليل. انظر :

Beyer G., Z., D.P. V. LXV, pp. 171 - 172; Mayer H. E., Z. D. P. V., CI, pp. 68 - 69 B. K.S.P. 163

(٢) وقد توفي بلدوين الرابع في مارس ١١٨٥م وهو في حوالي الرابعة والعشرين من عمره، وكان كفناً في إدارة شئون المملكة شجاعاً في ميدان المعركة، غير أنه كان عاجزاً عن أن يضبط من فراش المرض ما يدور حوله من مؤامرات، ولقى هذا الملك ثناء كل من المؤرخين الصليبيين والمسلمين على حد سواء. راجع :

- William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, P. 401; Ernoul, Op. Cit., pp. 218 - 219; Itinerarium peregrinorum et Gesta Regis Eicardi, ed stubbs., W, in R. S. 38, Vol., I, London 1864, p. 296.

ومن المؤرخين المسلمين. راجع : العماد الأصفهاني : الفتح القسي، ص ٧٨؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٨٤.

(3) Mayer, H. E., Z. D. P. V., CI, pp. 69 - 70.

(4) Alexander IV, Pope, Les Registres d'Alexandre IV, ed. Bourel C. dans B.E.F.A.R., Paris 1902, Vol. I, p.34.

(5) Roehricht, R., Regesta, Doc. No. 80, 137.

(6) Delabord. H. F., chartes de josphat, p. 80; Roericht R., Regesta Doc. No. 596.

وفي هذا الصدد نعرض لاعتقاد أحد الباحثين الحديثين يذكر فيه أنه نظراً لكون بيت أومر القاسم المشترك في ملكية كل من فيليب دي ميللي ورينو دي شاتيو بوصفهما قد حكما إقطاعيتي الخليل وشرق الأردن، فمن المحتمل أن بيت أومر كانت جزءاً من الممتلكات التابعة لمن يحكم شرق الأردن. غير أن هذا الاعتقاد لا يتفق مع ما ورد بالوثائق، ولا مع دراسة الباحث هذه، راجع هذا الرأي في :

Tibbille, Op. Cit., PP. 73 - 74.

أصبحت من ممتلكات إقطاعية الخليل، كما يلاحظ أن هذه المنحة لم تتطلب توثيقاً من ملك بيت المقدس آنذاك وهو بلدوين الرابع، مما يدعم الرأي القائل بأن أركان إقطاعية الخليل لم تركز على أسس قوية إلا في عهد رينو دى شاتيو.

وبعد استعراض الملامح الرئيسية للآراء التى وردت من خلال الاتجاهين الذين يحددان البداية الحقيقية لاكتمال قيام إقطاعية الخليل وذلك بمساهمة من الباحث لإيضاح تلك الآراء وإثقالها، فلا بد من ترجيح الاتجاه الأقوى الذى يستند على أسس قوية فى الإقناع، ويرى الباحث أن ذلك يتوافر فى الأفكار الخاصة بالاتجاه الثانى، ولذا فهو يؤيده حيث إنه ارتكن إلى وثائق أثبتت أن رينو قد اكتسب سلطة خاصة لم تكن واضحة فى عهد سابقه ممن تولوا حكم الخليل. وقد ترتب على ذلك أن تغير الوضع الدستورى فى إقطاعية الخليل الصليبية كثيراً، إذ كانت واحدة من إقطاعيتين تم توحيدهما فى إطار المملكة بشكل لم يكن مألوفاً من قبل فى التنظيمات الإدارية والإقطاعية فى مملكة بيت المقدس، وقد هيا ذلك لرينو ظروفًا جعلت منه تلك الشخصية القوية داخل مملكة اللاتين فى القدس. وهناك عدد آخر من الأسباب التى أبرزت شخصية رينو الصليبية التى ظهرت فى شكلها القوى والبراق، وسوف يتم عرضها فى حينه.

يتبادر للذهن تساؤل هام هو: كيف تمكن رينو دى شاتيو من أن يحكم الخليل بعد زواجه من ستيفانى دى ميلى، وبالأحرى كيف امتلكت هذه السيدة الخليل وكثيراً من الأراضى الأخرى المجاورة لها، الأمر الذى أتاح الفرصة أمام رينو أن يحكمها عن طريق الزواج منها؟ ويمكن القول إن ستيفانى دى ميلى كانت قد تزوجت من همفري الثالث سيد تبنين - كما سلف الذكر - فى عام ١١٦٣م/ ٥٥٨هـ أثناء سيادة أبيها فيليب على شرقى الأردن، ومن ناحية أخرى أشارت الوثيقتان اللتان ترجعان إلى عامى ١١٤٩م / ٥٤٤هـ، و ١١٥٢م / ٥٤٧هـ. إلى شخص همفري حاملاً لقب رئيس حامية قلعة سانت أبراهام بعد أن خلف هيودى سانت أبراهام الثانى فى هذا المنصب^(١). فهل هناك من صلة بين الشخصيتين اللتين تحملان نفس الاسم «همفري»؟.

يرد أحد الباحثين الحديثين على ذلك التساؤل بالإيجاب، وهو بذلك يقدم طرف خيط قضية الحكم الصليبي فى الخليل فترة ما بعد هيودى سانت أبراهام الثانى، وقبل حكم رينو دى شاتيو، وتتلخص فى أنه عندما قام همفري دى سانت أبراهام بشيبت ملكية مارتن كروانا للضيعة التى كان قد حازها من قبل هيودى سانت أبراهام الثانى حيث شهد عدد من كبار رجال بلاط المملكة فى القدس المعروفين فى ذلك الوقت على

(1) Bresc-Bautier, J., Le Cart. du chap. Doc. No. 110, pp 230 - 231, Doc. No. 113, pp. 233 - 234; Roehricht, R., Regesta, Doc. No. 169, 255.

الوثيقة، ومن أهم الرجال؛ روهارت الكبير Roghart le Grand الذى كان يشغل منصب الفيكونت فى مملكة بيت المقدس، وهذا يعنى أن الشهود كانوا أعضاء فى محكمة النبلاء بالقدس، أما وقد كان همفرى ممثلاً فى المجلس فإنه لابد أن يكون من رجال البلاط الملكى، ومن ثم فهذه الموصفات تنطبق تماماً على همفرى دى تورون الثانى^(١)؛ نظراً لأنه كان من أبرز رجال المملكة حتى أنه شغل منصباً بالغ الأهمية فيها عام ١١٥٢م/ ٥٤٧هـ ألا وهو منصب الكونسطبل Le Connestable حيث كان يقوم بقيادة الجيش^(٢).

والذى يؤكد على أن همفرى دى تورون الثانى قد تولى السلطة فى الخليل، أن بطريك بيت المقدس فوشيه Fouché (١١٤٥ - ١١٥٧م/ ٥٤٠ - ٥٥٣هـ) قام فى الرابع والعشرين من يونية ١١٤٨م/ الرابع من صفر ٥٤٣هـ بتثبيت المنحة التى قدمها همفرى دى تورون إلى رهبان دير القديس عازر Saint Lazare القريب من القدس، وكانت عبارة عن عشرة قناطير زبيب وعشرة بيزانطات يتم الحصول عليها سنوياً مما تغله الأراضى القريبة من الخليل، وذلك فى حضور وبموافقة كل من زوجته وابنه، وكان من الشهود على العقد أحد محلفى محكمة القدس البرجوازية، علاوة على فارسين من الخليل وأحد الرجال السريان من الخليل أيضاً. وكذلك كان بين الحضور «جويدو» سيد إقطاعية تل المعشوقة (أسكاندليون) Guid domine Scandaleon وهو من أقارب همفرى^(٣) المذكور. وهكذا فمن الواضح أن هذه الوثيقة تقر صراحة بأن همفرى الثانى كان قد تولى حكم الخليل بعد أن حاز أراضى فيها. ويذكر أحد المؤرخين الحديثين أن الفرصة قد تهيأت أمام همفرى كى يمتلك تلك الأراضى بفضل قرابته من جويدو الذى كان قد حصل عليها من «هيو دى سانت أبراهام الثانى»^(٤) ولكنه لا يستند فى رأيه على مصدر.

(1) Mayer H. E., Z. D. P. V., Ct, pp. 70 - 74.

(2) William of Tyre. Op. Cit., Vol II, p. 19.

يتلقى القادة الصغار فى الجيش أوامرهم من الكونسطبل مباشرة فى ضوء أوامر الملك، وفى حالة غياب الأخير يقوم الكونسطبل بقيادة الجيش وإدارة العمليات الحربية، وهو يصدر قرارات قضائية على الجند المخالفين بعد استشارة من مجلس الحرب المكون من بلاط الملك، ولمعرفة المزيد عن وظيفة الكونسطبل ووظائف أخرى فى المملكة، راجع :

Chalandon, F., Histoire de la premiere crdsade jusqu'a l'elecion de Godefroe de Bouil-
lin, Paris 1925. pp. 318 - 319.

(3) De Mersy, Fragment d'un cartalaire de l'ordre de saint - lazare, Doc. No. VI. p. 127,
Cf. Also. Roehricht, R., Regesta. Doc. No. 251.

(4) Tiblle. S., Op. Cit., pp. 70 - 71

وإضافة إلى ذلك وجد الباحث وثيقة أخرى تؤكد نولى همفري دى تورون الثانى الحكم بالخليل، فهي تشير إلى أليس «Aleis» سلسلة الأسرة فى نوفمبر ١٢٣٤م/ ربيع أول ٦٤٢هـ حاملة لقب دى تورون والكرك وسانت أبراهام، وتقضى الوثيقة بمنح مبلغ ثلاثين بيرنطا سنويا لرهبان دير القديس عازر فى بيت المقدس^(١) والجدير بالذكر أن ملكية هذه السيدة لا تعدو كونها اسمية؛ نظرا لأن الخليل وشرقى الأردن كانتا بأيدى المسلمين منذ حوالى نصف قرن، غير أن الوثيقة لا تدع مجالا للشك فى أن الأسرة حازت الخليل فيما حازته من ممتلكات، وأنها جاءت لتؤكد ما ورد فى الوثيقة السابقة عليها، وفى هذا الصدد يرى الباحث أن ملكية همفري للأراضى حول الخليل قد أهدته لتولى السلطة، كما دعمت موقفه بين نبلاء المملكة فى أن يخلف يهودى سانت أبراهام الثانى فى حكمه للخليل. ورغم أن الوثائق قد ذكرت همفري حاملا لقب سانت أبراهام إلا أن الباحث يفضل أن يذكره بلقب دى تورون لاشتهاره به.

إن ظهور همفري الثانى دى تورون سيدا للخليل أعطى أهمية خاصة لدراسة ما يتعلق بباقي أفراد أسرته. وذلك فيما يتعلق بعلاقاتهم مع الخليل وسلطتهم عليها. وفى محاولة لتتبع تلك الصلة والظروف المحيطة بها فقد ورد فى التاريخ الصليبي العام من هذه الأسرة أربعة رجال يحملون اسم همفري، ذكر المؤرخ وليم الصورى ثلاثة منهم باسم همفري دى تورون مسلسلين، أما همفري الأول فقد اكتفى بالإشارة إليه بلقب شيخ الجبل، إذ إنه استحوذ على منطقة تبين الجبلية الواقعة على بُعد بضعة أميال فى ظهير صور، وتمكن من تأسيس إقطاعية صليبية له فيها^(٢)، وقد أشارت الوثائق إليه ثلاث مرات فى عام ١١٠٩م/ ٥٠٣هـ، هام ١١١٥م/ ٥٠٩هـ، عام ١١٢٨م/ ٥٥٢هـ كشاهد على العقود، وقد حمل همفري فى الوثيقتين الأخيرتين لقب دى تورون^(٣) DE TORON، وخلفه على تبين ابنه همفري الثانى، الذى ذكره وليم الصورى برسم همفري الصغير، حيث كانت أول إشارة إليه فى عام ١١٣٧م/ ٥٣١هـ^(٤).

وكان همفري الثانى قد حاز مكانة رفيعة عند الملك بلدوين الثالث، وارتقى أعلى المناصب فى المملكة كما ذكر سلفا، ولعل من أهم مواقفه، مؤازرته للملك فى نزاعه مع أمه ملسند حول الانفراد بعرش المملكة، ويتلخص هذا النزاع فى أنه عندما بلغ بلدوين الثانية والعشرين من عمره أصبح من حقه أن يتوج ملكا، وترتب على ذلك أن انقسم بارونات المملكة إلى فريقين، وجد همفري مصلحته فى الانضمام إلى فريق بلدوين.

(1) de Mersy, A., *Fragement d'un cartulate d'order saint - lazare*, p. 127.

(2) William of tyre Op. Cit,m Vol. II, P. 19.

(3) Roehricht, R., *Regesta*, Doc. No. 59, 79, 127.

(4) William of tyre, Op. Cit., Vol., II. pp. 218 - 251.

وقد أثر الملك ألا يستخدم القوة، ودعا إلى عقد المجلس العام في المملكة للبت في هذا النزاع، وتحدد يوم الثلاثين من مارس عام ١١٥٢م / الحادى والعشرين من ذى الحجة عام ٥٤٦هـ كموعدا لعقد المجلس. وفي الاجتماع اصطدم بلدوين بالبطريك فوشيه الذى أراد بإيعاز من الملكة أن يتوجها مع ابنها فى نفس اليوم، وتمت تسوية المشكلة على مرحلتين: ففي المرحلة الأولى قبل أن تقسم المملكة بينه وبين ملسند بحيث تحتفظ لنفسها بيت المقدس ونابلس وأجزاء من جنوب فلسطين؛ وفي المرحلة الثانية تمكن الملك بلدوين من أن يستحوذ على بيت المقدس بإيعاز من همفرى الثانى وغيره من أنصار الملك، وأجاز بلدوين لأمه فقط أن تحتفظ بنابلس والجهات المجاورة لها طوال حياتها. وبذلك أصبح لبلدوين السيادة العليا على المملكة فى حين انسحبت ملسند من أمور الحياة العامة وانشغلت برعايتها للكنيسة^(١). وهكذا قدم همفرى دى تورون الثانى كل ما لديه من إمكانيات دعمت موقف الملك فى النزاع على العرش، ولا شك أن ممتلكاته فى تبين والخليل كانت قد شكلت الركيزة التى ينطلق منها لتقديم هذا الدعم، مما جعله جديرا بثقة الملك وأصبح من المقربين إليه.

تولى همفرى الثانى منصب الكونسطبل فى نفس العام الذى وقعت فيه هذه الأحداث، والواضح أنه قد حصل على مكافأة من قبل الملك بلدوين الثالث لجهوده الكبيرة وكفاءته فى إنجاز المهام التى أنيطت إليه. ومن ناحية أخرى أقدم همفرى الثانى على الزواج من ابنة رينيه دى بروس Renier de Brus الذى كان سيدا بقلعة بانياس^(٢)، وهذا يفسر ما حدث عام ١١٥٧م / ٥٥٢هـ، حينما آلت ملكية الإقطاعية لهمفرى الثانى^(٣) وبذلك اشتملت ممتلكات همفرى الثانى على كل من تبين والخليل وبانياس.

وبالرجوع إلى الإشارات المتقدمة التى تؤكد على أن همفرى الثانى قد حمل لقب سانت أبراهام فى عام ١١٤٩م / ٥٤٤هـ يتبين أنه امتلك الخليل وتولى حكمها لمدة ثلاثة أعوام قبل تعيينه كونسطبلا للمملكة، وأما وقد شغلته وظيفته بالغة الأهمية تلك عن القيام بمهام الحكم فى الخليل فمن الصعب أن نتوقع استمراره فى حكمها بشكل مباشر، غير أنه ليس من المعروف من الذى تولى مهام همفرى الثانى فى الخليل حتى

(1) William of tyre, Op. Cit., Vol. II, pp. 205 - 207.

(٢) كانت بانياس قد سقطت فى يد الدماشقة عام ١١٣٢م / ٥٢٧هـ، غير أن الصليبيين سيطروا عليها مرة أخرى فى عام ١١٤٠م / ٥٣٤هـ، حيث منحت إلى النبيل رينيه دى بروس. راجع: ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٧٥، ٤٢٧؛ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١٠، ص ٦٨٤ - ٦٨٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ١١٣؛ أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، بيروت (ب - ت)، ج ٣، ص ٢، ٧. راجع أيضا:

William of tyre, Op. Cit., Vol. II, pp. 74, 67 - 77.

(3) William of tyre, Op. Cit., Vol. II, pp. 256, 309, Cf. Also., Meyer. H. E., Z. D. V., Ci. P. 7 73.

يأتى من يتولى أمرها، إذ كان ابنه همفري الثالث صغيرا غير مؤهل لحمل هذه المسئولية، فقد ذكر وليم الصورى - وهو المؤرخ الصليبي الأساسى لتلك الفترة - أثناء عرضه لأحداث حصار المسلمين لبانياس ١١٥٧م / ٥٥٢هـ أن كلا من همفري الثانى وابنه همفري الشاب الصغير قد شاركوا فى أعمال الدفاع عنها، وكانت هذه أول إشارة إلى همفري الثالث فى المصادر. ومن الجلى أن همفري الأب قد تدخل فى أمر اختيار ستيفانى دى ميلى زوجة لابنه، تلك الزيجة التى أتاحت الفرصة أمام همفري الثالث لربط ممتلكات شرقى الأردن بممتلكات الأسرة فى الخليل وتبنين.

ويُعد همفري الثالث حلقة الوصل فى العائلة حيث ربط بين همفري الجدد وهمفري الرابع الذى كان ثمره الزواج من ستيفانى، والجدير بالذكر أن همفري الثالث قد توفى فى عام ١١٧٠م / ٥٦٥هـ فى حياة أبيه همفري الثانى^(١) تاركا قضية الحكم الصليبي فى الخليل من الأمور الشائكة.

كانت أهم الأحداث الداخلية التى شهدتها إقطاعية الخليل على عهد همفري الثالث ما يتعلق بالكنيسة، ونعرض فى هذا الموضوع نبذة عن أهم التطورات التى شهدتها خلال العقود السالفة بداية من حدث اكتشاف رفات الأنبياء فى عام ١١١٩م / ٥١٣هـ؛ فقد ظلت كنيسة سانت أبراهام فى تلك المرحلة خاضعة لسلطة رؤسائها وكان أبرزهم «رينيه» الذى وقعت أحداث اكتشاف مقابر الأنبياء فى عهده، والواضح أنه لم يكن على رأس كنيسة سانت أبراهام فى عام ١١٣٦م / ٥٣٠هـ وهو العام الذى دون فيه راهب الخليل بيان اكتشاف مقابر الأنبياء، إذ ذكر رينيه بأنه ذو الذكرى العطرة^(٢) مما يوحي بأنه كان قد توفى قبل هذا التاريخ. ويصبح هذا الأمر فى حكم المؤكد حين يرد اسم الراهب ويدو Wido كشاهد على عقد عام ١١٣٦م / ٥٣٠هـ ملقبا برئيس كنيسة سانت أبراهام^(٣) وعلى الأرجح أن يكون هو نفسه الراهب ويدو الذى شارك أيضا فى عملية اكتشاف رفات الأنبياء ثم ترقى إلى منصب رئيس الكنيسة بعد وفاة رينيه. أما عن رجال الدين فى الكنيسة الذين جاءوا بعد ذلك فمنهم جودفري Godofredus Canoni-cus Abrahame الذى ورد اسمه فى وثيقة مؤرخة فى التاسع عشر من أبريل ١١٤٠م / العاشر من رمضان ٥٣٥هـ^(٤)، وروجر Rogerius رئيس دير سانت أبراهام، الذى ورد اسمه كشاهد على عقد تم توكيده فى الثالث من يوليو ١١٥٠م / غرة

(1) William of tyre, Op. Cit., Voll. II, pp. 265, 309, 401; Cf. Also Mayer, H. E., Z. D. P. V. Ci, pp. 73, 76.

(2) Canonici Hebronensis, Op. Cit. p. 309. C Als. Vincent, mackay, Abel. p. 172.

(3) Paoli, S., cod eple. Doc. No. 17. pp. 18 - 19.

(4) Bresc Bautier, J., le cart, du shaip., Doc. No. 76. pp. 176 - 178. Doc. No. 77. pp. 178 - 183' Roehricht, R., Regesta. Doc. No. 194.

جمادى الأول ٥٥٠هـ^(١). كما ورد اسم آدم Adam رئيس كنيسة سانت أبراهام في العقد الذى قام هو بموجبه ببيع إحدى قرى أنطاكية واسمها نهاريا Naharia (الواقعة على الطريق الذى يبدأ من أنطاكية إلى جسر فارفار Farfar، ل أخيه بطرس جى Peter Jai علاوة على منزلين آخرين وذلك بتاريخ السادس من مارس ١١٦٣ م/ السابع والعشرين من ربيع الأول ٥٥٨هـ^(٢).

وقد شهدت كنيسة الخليل تطورا هاما على عهد همفرى الثالث إذ ارتقت من كونها مجرد مطرانية إلى أن أصبحت مقرا للكرسى أسقفى؛ فمن المعروف أنه منذ مجلس نيقيا الكنسى عام ٣٥٢م كانت الأسقفية الأم Mettro - politian تتقدم على ثلاث من الأسقفيات التابعة، واحتلت الأسقفيات التى أقيمت على يد الصليبيين نفس المواقع والتقسيمات الكنسية المعروفة سابقا عند البيزنطيين^(٣)، غير أن بطريركية بيت المقدس ترأست أسقفيتين فقط هما بيت لحم واللد - الرملة. وظل الوضع هكذا حتى عام ١١٦٨م/ ٥٦٣ هـ حينما تأسست أسقفية الخليل التى شغلت الكرسي الثالث الشاغر^(٤) حيث أرسل بابا روما إسكندر الثالث - ١١٥٩ - ١١٨١م/ ٥٥٤ - ٥٧٨ هـ إلى البطريرك عمورى دى نسل Amorlis de Neslle ١١٥٧ - ١١٨٠م/ ٥٥٢ - ٥٧٦ هـ بشأن إعادة ترتيب الكراسى الكنسية فى مملكة بيت المقدس، وطلب منه تأسيس كرسيين لأسقفيتين جديدتين هما الخليل والبطراء^(٥)، على أن يخضع دير عين جدى لأسقفية الخليل الجديدة^(٦)، وبذلك تمت مخالفة النظم الكنسية مرة أخرى، والذى يهمننا فى هذا الموضوع أن أسقفية الخليل انضوت تحت السلطة الدينية لبطريركية بيت المقدس.

(1) Roehrricht, R., Regesta. Doc. No. 308, Cf. Also, Roehricht, R. S.S., in Z. D.P.v. I 1888, p. 41.

(2) Roehicht, R., Regesta. Doc. No. 379.

(3) Riley Smith, J., Latin Titular Bishops in palestine and syria, 1137 - 1291, C.H.R., Vool., LXIV, January 1978, p.2.

(4) Jacques de vetry, The History of jeruslen Trans., by Aubrey stewart, in P.P. T. S. Vol. XI, London 1869. P. 108.; Mayer H. E. B. K. S., pp. 114 - 115' Latins, Muslims and Greeks of jerusalem. p. 191.

ويذكر أحد الباحثين أن كنيسة بيت لحم لم ترتق سلفا إلى درجة الأسقفية. انظر

Hamilton B., Op. Cit., p. 68.

(5) Hiestand, R., Papstukund en fuer kirchen in heiligen, Lande, Vol. II Duesselorf 1985, Doc. No 118, p. 292.

من الواضح أن عام ١١٦٨م / ٥٦٣ هـ قد شهد جدلا كبيرا بشأن أسقفيتى الخليل والبطراء دون غيرهما من مدن مملكة بيت المقدس، وخاصة أن تأسيس الأسقفيتين جاء دفعة واحدة

Mayer H. E., b. K. S., pp. 125 - 126, 197 - 198; Hamilton B, the latin church, pp. 68, 84.

(6) Rey, E. G., Les Colonies franques, p. 384; smith G. A., The Historical Geogrophy of Holy Land, p. 185.

يرجح البعض أن الدافع وراء إعطاء تلك المكانة جاء كرد فعل للأهمية التاريخية الإستراتيجية الحربية التي غلبت على الخليل في هذه الفترة، وتنامى دور الإقطاعية العسكرية في مواجهة المد الإسلامى القوى^(١). بينما يرى آخرون أنه نوع من التكريم للمدينة لكونها مقر دفن الأنبياء^(٢). وفى حقيقة الأمر يرى الباحث أن هذه الخطوة جاءت كشجرة للأمرين فى آن واحد، ويضيف أن ذلك جاء كرد فعل مباشر للدعاية الكبيرة التى أعقبت عملية اكتشاف المقابر، ولا شك أن تلك الخطوة قد أضافت إلى الخليل مكانة وقدرسية كبيرة بين المسيحيين ترتب عليها نشاط متزايد فى حركة الحج والزياره.

أما أساقفة الخليل فكان أولهم رينو Rainaldus, Ebron Episcopus ابن أخى البطريرك فوشيه (١١٤٥ - ١١٥٧ م / ٥٤٠ - ٥٥٢ هـ) وظل اسم رينو يذكر فى الوثائق من عام ١١٦٧ - ١١٧٤ م / ٥٦٢ - ٥٦٩ هـ^(٣). أما آخر أساقفة الخليل فقد احتفظ بلقبه هذا حتى بعد انهيار الحكم الصليبي فى الإقطاعية، ولذا فقد أمضى بقية حياته يحمل اللقب اسماً إلى أن توفى فى عام ١١٨٩ م / ٨٥٨ هـ^(٤).

كان همفرى الثالث حين وفاته قد ترك ابنه همفرى الرابع قاصراً فتولت أمه ستيفانى الوصاية عليه^(٥)، وقد شملت ممتلكاته كلا من الخليل وتبنيى اللتين ألتا إليه عن طريق أبيه وجده همفرى الثانى؛ وشرقى الأردن التى ألت إليه عن طريق أمه وجده فيليب دى ميلى. ونظراً لمنزلة همفرى الثانى فى المملكة فقد تمكن - كما هو واضح - من تعطيل زواج ستيفانى ثلاثة أعوام حرصاً منه على ألا تتولد مشاكل تهدد ممتلكات حفيده.

وتعد وصاية ستيفانى على ابنها همفرى الرابع من الظواهر الطبيعية وفقاً للعرف الصليبي مع بقاء الجد على قيد الحياة، غير أن هذه الوصاية كانت لها دلالة خاصة

(1) Hamilton. B., The latin church, p.52.

(2) Vincent, Makay, Abel. p. 165.

(٣) ورد رينو كشاهد على العقود فى وثيقتى ١١٧٠ - ١١٧١ م / ٥٦٦ هـ انظر :
- Bresc Bautier, G., Le cart du chap. Doc. No. 158, pp. 307, 309. Cf. Also. Boaset. S. R., Kingdoms and strongholds of the crusaders, London, 1971, p. 74.

(4) Roger de Hovden Chronica, ed. stubbs, W., in R. S., 51, London 1868. Vol III, p. 87.

(5) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II. P. 401.

ويلاحظ أن المؤرخين المسلمين المعاصرين تنبهوا لبعض دقائق ما يقع فى البيت الصليبي حيث أشاروا إلى ستيفانى دى ميلى برسم «البرنيسة ابنة فيليب أم همفرى». على سبيل المثال راجع : العماد الاصفهاني الفتح القسى، ص ٢٠٥؛ العليمى الأئس الجليل، ج ١، ص ٢٩١

بالنسبة لإقطاعيتي الخليل وشرقي الأردن إذ ازدادت العلاقة بينهما ترابطاً، فبعد أن قرب زواج همفري الثالث من ستيقاني بين الإقطاعيتين بصمتهم المالكين جاءت وفاة الزوج في عام ١١٧ م / ٥٦٥ هـ لتوحدهما في ظل ملكية شخص واحد هو همفري الرابع ثمرة هذا الزواج. وعليه لا بد من تعديل الآراء التي تؤكد على أن اتحاد الإقطاعيتين قد تم بخضوعهما لسلطة رينو دي شاتيو في عام ١١٧٧ م / ٥٧٣ هـ^(١) وقد شكلت الإقطاعيتان معا رقعة شاسعة من الممتلكات الصليبية غدت تضاهي ممتلكات الملك الصليبي نفسه^(٢)، الأمر الذي استحوذ على اهتمام همفري الثاني حينما أبدى حرصه المستمر على حماية ممتلكات حفيده الممتدة، فخرج في عام ١١٧٣ م / ٥٦٨ هـ لصد هجوم صلاح الدين الأيوبي على الكرك^(٣)، وكان من الأولى أن يقوم ميلون دي بلانسي بهذه المهام العسكرية بوصفه زوج ستيقاني سيدة شرقي الأردن ومن ثم يتبين أن همفري تولى ذلك الأمر من منطلقين: أولهما بغرض حماية ممتلكات حفيده، وثانيهما أنه كان يشغل وظيفة الكونسطبل، ولذا فعليه الدفاع عن أراضي المملكة أيما كانت

وقد ارتبطت الأحوال الداخلية في إقطاعية الخليل الصليبية في المرحلة التالية بمجريات الأحداث في مملكة بيت المقدس بصفة عامة حيث توفي الملك عموري الأول فخلفه ابنه بلدوين الرابع في نوفمبر ١١٧٤ م / صفر ٥٦٩ هـ كما اغتيل ميلون دي بلانسي في أواخر هذا العام الميلادي، وبذلك لم تكن لفترة زواجه القصيرة من ستيقاني أي تأثير على وضع همفري الرابع في الخليل وعواد همفري الجد محاولة تأمين ممتلكات حفيده ونجح على ما يبدو في تعطيل زواج ستيقاني ثلاثة أعوام أخرى حتى نم لها الزواج من رينو دي شاتيو عام ١١٧٧ م / ٥٧٣ هـ، فتجددت المخاوف من جديد على ممتلكات الحفيد. فأقدم همفري الثاني في نفس العام على الزواج من سيدة من أنطاكية تدعى فيليبيا Philippa d'Antioch كرد فعل على زواج ستيقاني من رينو، وكان همفري يأمل من تلك الزيجة أن ينجب من يرثه في تبنيس حتى يؤمن الممتلكات في الخليل وشرقي الأردن لهمفري الرابع، إذ كان من الطبيعي أن يعترض كبار النبلاء في المملكة على اتساع رقعة ممتلكات همفري الرابع في حالة وفاة الجد، ولكن همفري الجد

(1) Mayer, H. E., Z D P V Ci, P. 84; Tibble, S., pp. 51, 71.

(٢) يقدر أحد الباحثين الحديثين مساحة إقطاعية شرقي الأردن وحدها بحوالي خمسة آلاف كيلومتر مربع شاملة الكرك والشونك ووادي موسى وطفيلة، كما يقدر الباحث نفسه آخر أعداد أطوالها بأنها تمتد من عمان حتى العقبة بمسافة ثلاثمائة كيلو متر، ومن الكرك إلى الخليل حوالي ستين كيلو متر. راجع

Deschamps, P Les chateaudes croises, p. 49' Benveni sti, M, Op. Cit., p. 15.

(3) William of tyre. Op Cit Vol. II, p 401

لم ينبج من فيليبيا، إذ ما لبث أن ألم به مرض شديد وكذلك سرعان ما توفيت زوجته^(١). وهكذا استمرت الأوضاع على ما كانت عليه.

توفي همفري الثاني متأثرا بجراحه خلال معركة ضد المسلمين في أبريل ١١٧٩م/ ذى القعدة ٥٧٤ هـ^(٢). وقد أثبتت الأحداث أنه كان محقا فيما أبدى من قلق على مصير ممتلكات حفيده الشاسعة، فمن الواضح أنه بعد وفاة الجد طالب فريق من النبلاء حفيده همفري الرابع بالتنازل عن تبنين إذا ما أراد أن يحتفظ بحقه في شرقي الأردن والخليل، وما لبثت أن أشارت وثيقتا عام ١١٨٠م / ٥٧٦ هـ. عام ١١٨١ م / ٥٧٧ هـ إلى شخص آخر اسمه بلدوين يحمل لقب حامى قلعة تبنين^(٣). ومن الثابت أن تبنين قد أصبحت في وقت لاحق من ممتلكات أجينيس^(٤) أم الملك بلدوين الرابع مما يفيد بأن همفري فقد حقوقه الوراثية في تبنين بعد عام واحد من وفاة جده ومن ثم لم يتبق أمام همفري الرابع إلا أحقيته في شرقي الأردن والخليل. وأصبح بذلك حكم أسرة همفري في الخليل محفوفًا بالآخطار إذ قام رينو دي شاتيو بدور الوصى على همفري بصفته زوج أمه إلى أن يصل إلى سن الرشد.

وفيما يتعلق بحكم رينو دي شاتيو للخليل فقد خضعت له منذ عام ١١٧٧م/ ٥٧٣ هـ. وتأكد انضمامها إلى شرقي الأردن كإقطاعية متحدة ذات إمكانيات كبيرة، ومن ناحية أخرى كان لدى رينو القدرة في التأثير على الملكة أجينيس التي كان لها تأثيرها على

(1) William of tyre, Op. Cit., Vol. II, p. 401, 416 - 417.

ويعرف وليم الصوري فيليبيا بأنها ابنة ريموند صاحب أنطاكية وأخت بوهيموند الثالث الذي كان يحكم في تلك الآونة الإمارة، وأخت ماريا إمبراطورة القسطنطينية، ويلاحظ الباحث أن نسب فيليبيا المرموق كان وراء ارتباط همفري الثالث بها لذا كان بمثابة زواج منفعة بغرض تعضيد وضعه بين النبلاء الصليبيين، فضلا عن رغبته في الإنجاب منها.

(٢) كانت بانياس الواقعة في شمال شرق مملكة بيت المقدس الصليبية بيد همفري الثاني، وقد جرت المعركة التي جرح فيها في المراعي القريبة من المدينة ضد مسلمي دمشق تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي وابن أخيه فرخ شاه، وكان همفري أبرز القادة الصليبيين الذين شاركوا الملك بلدوين الرابع في أحداث تلك المعركة، راجع :

William of Tyre. Op. Cit., Vol. IIP. 401.

العماد الأصفهاني : البرق الشامي، ج ٣، ص ١٥٩، ١٧٨، ج ٥، ص ١٤٨ - ١٤٩؛ أبو شامة : الروستين، ج ٢، ص ١٠؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان، ج ٨، ق ١، ص ٣٥١؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج ٢، ص ٧٢.

(3) Roehricht, R., Regesta, Doc. No. 606, 615' Cf. Also, Mayer, H. E., Z.D.P.V. Cl, pp. 77 - 78.

(٤) ذكر الرحالة المسلم ابن جببر الذي زار تبنين عام ١١٨٣ م / ٥٧٩ هـ أنها من ممتلكات الخنزيرة أم الخنزير صاحب عكا. يقصد بها أجينيس، راجع : رحلة ابن جببر، ص ٢٠١.

ابنها الملك^(١). وبذلك اجتمعت الظروف لدى رينو كى يتدخل فى أمور العرش والشئون الداخلية فى بيت المقدس، كما سطع نجمه بين الصليبيين بعد معاركه الكبرى ضد صلاح الدين فى العام الذى تولى فيه الحكم. وأتبع رينو هذا الموقف بآخر حينما تولى فى نفس العام قيادة جيش المملكة فى حملة ضد حماة وحارم المسلمين^(٢)، كما اختير من قبل العائلة الملكية ليكون أحد أعضاء البعثة التى توجهت إلى أنطاكية للالتقاء بسفارة بابوية ليحضر المناقشات الدينية التى دارت^(٣) هناك.

هكذا ازداد نفوذ رينو فى المملكة الصليبية وارتفع شأنه وبدا أن لديه القدرة على تحريك كثير من الأمور بداخلها، وفى هذا الموضع نجد لزما التوقف أمام دراسة العلاقات التى تربط بين همفرى الرابع ورينو دى شاتيو؛ لأنهما يمثلان السلطة فى الخليل، فقد سعى رينو إلى العمل على تزويج همفرى الرابع من إيزابيلا Isabelle وريثة عرش بيت المقدس وابنة الملك عمورى الأول من زوجته الأولى ماريا كومينا Maria Komnen، وتمت الخطبة فى أكتوبر ١١٨٠ م / جمادى آخر ٥٧٦ هـ^(٤). ومن الثابت أن همفرى فى هذا التاريخ لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره كما أن إيزابيلا كانت فى سن الثامنة من عمرها^(٥) ولعل التذكير فى خطبة شخصين فى هذه السن الصغيرة يعكس إلى أى حد تدخلت السياسة لإيجاد هذه الرابطة.

ترتب على مشروع الخطبة أن تدعم موقف همفرى الرابع داخل البلاط الملكى، هذا فضلا عن ممتلكاته الكبيرة وقربته من رينو دى شاتيو، ونجد فى الوثائق ما يدعم ذلك، ففي الحادى والعشرين من أبريل ١١٨٣ م / الخامس والعشرين من المحرم ٥٧٩ هـ. قام همفرى الرابع بمنح رهبان دير القديس عازر إيرادا سنويا يقدر بعشرين بيزنطا تقتطع من عوائد جمرك عكا الذى كان رهبان بلدوين الرابع قد منحوه إياه^(٦)، غير أن الوثيقة تبرهن من ناحية أخرى على أن رينو كان

(1) Mayer, H. E., Z.D.P.V., Cl., 67.

(2) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج ١١، ص ٤٤١ - ٤٤٣؛ ابن العديم : المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٦.

William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, p. 426 - 432.

تقع حماة إلى الجنوب من حلب بحوالى مائة وأربعين كيلو مترا، أما حارم فتقع إلى الغرب منها بحوالى ثمانية وخمسين كيلو مترا.

(3) Ibid, Vol. II., p. 445, De la bord, F., chartes de josphat, p. 89.

(4) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, P. 459' Roehricht, R., Regesta, Doc. No. 596.

الملاحظ أن الوثيقة المشار إليها قد ذكرت خطأ إيزابيلا كزوجة لهمفرى فى حين أن هذا الزواج لم يتم إلا فى مرحلة تالية.

(5) William of Tyre, Op, Loc, Cit. ' Hamilton, P., the Elephant of christ., pp. 103 - 104.

(6) Delaville le Roulx, C. G. O. G., Vol. II, p. 146.

بعيد النظر حينما وضع سياسة خاصة ترمى إلى إتمام تلك الخطبة بغرض شغل همفري الرابع بممتلكات أخرى كجمر كعكا، لكي يصرف نظره عن ممتلكاته في الخليل أو شرقي الأردن وربما كليهما. ومن الجلي أن تلك السياسة قد اشتملت أيضا على أنه إذا رزق رينو بوريت فيكون من المتوقع أن يخلفه في حكمه في أي من الإقطاعيتين المذكورتين بينما تترك الإقطاعية الأخرى لهمفري الرابع عند انتهاء وصاية رينو عليه، إلا أن المصادر لم تشر ألبته إلى إنجابه لوريت، ومعنى هذا أن حق همفري الرابع في امتلاك شرقي الأردن والخليل ظل مؤكدا.

وفي عام ١١٨٣م / ٥٧٩هـ أشار همفري الرابع إلى رينو بلفظة «سيدى» Dominus meus^(١) وهذا يعنى أنه حتى ذلك العام كان همفري يعد رينو وصيا عليه، ولكن يتبادر للذهن تساؤل: إلى أي حد كانت وصاية رينو شرعية على همفري الرابع؟ وفي الحقيقة، فإن القرابة التي تربط بين كل من رينو وهمفري الرابع تجعل من الطبيعي أن يفرض الأول وصايته على الآخر إلى أن يبلغ سن الخامسة عشرة وهو سن الأهلية، ذلك وفقا لقوانين بيت المقدس^(٢)، وهكذا أضفى عليها صبغة الشرعية. أما وقد اعترف همفري بوصاية رينو عليه في وقت قارب فيه من سن الثامنة عشرة أي في سن يسقط قبلها الوصاية عليه، فهذا يدل على أن سلطة ونفوذ رينو دى شاتيو في حكم الخليل وشرقي الأردن قد أصبحتا من القوة بحيث لا يمكن المساس بهما، حتى ولو كانت الشرعية في صالح همفري الرابع في وقت انحسر فيه نفوذ أسرته.

أخذت إقطاعية الخليل طوال السنوات القليلة التالية تتأثر وتتفاعل مع الأحداث التي تقع داخل مملكة بيت المقدس الصليبية ككل، حيث آلت أحوال المملكة إلى السوء؛ إذ تفاقم مرض الملك بلدوين الرابع حيث كان يعاني من الجذام، وأخذ يشكك في كل من حوله، وظن أن المؤامرات تحاك من أجل وراثة العرش، فرأى الملك ضرورة حسم هذه المشكلة، فكان لابد من البحث عن زوج آخر مناسب للأميرة سبيلا Sabella شقيقته الكبرى بعد أن توفي زوجها وليم دى مونت فرات، وانتهى الأمر بزواجها من جى لوزجنان بعد أن حضر خصيصا من فرنسا سنة ١١٨٠م / ٥٧٦هـ، للزواج منها^(٣)، وبذلك أضحى جى يشارك سبيلا حكم المملكة بوصفه وصيا على العرش بسبب مرض الملك^(٤). أما عن موقف رينو دى شاتيو فقد سعى من جانبه إلى توطيد علاقته مع جى

(1) Roehricht, R.m Regesta., Doc. No. 628.

(2) Jean d' Ibelin, Lelivre de Jean d'Ibelin, P. 402.

(3) Eirnouli, Op. Cit., PP. 59 - 60.

راجع أيضا سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٦٦.

(4) Willam of Tyre , Op. Cit., Vol.II , PP. 492 , 496.

لوزجنان وقد بنى هذه العلاقة على أساس مبادلة الخدمات فيما بينهما^(١) مستثمراً قرابته من همفري الرابع الذى أوشك أن يكون أحد أفراد البيت الملكى .

ظلت الخليل وباقى أرجاء مملكة بيت المقدس تعاني من ضغوط صلاح الدين العسكرية عليها ، فى الوقت الذى لم تنجح آراء رينو المتطرفة ولا مساعى الوصى جى لوزجنان لدفع هذا الخطر المتجدد . وأثناء ذلك أخذت المشاكل الداخلية تزداد حدة وعمقاً عندما سعى جى للحصول على لقب ملك ، كما رفض جى الموافقة على طلب الملك بلدوين الرابع فى الحصول على مدينة صور بدلاً من بيت المقدس معاشاً له^(٢) ، ولذلك عقد بلدوين مجلساً للبارونات فى نوفمبر ١١٨٣م / شعبان ٥٣٩هـ وتم الاتفاق على عزل جى لوزجنان ، وأن يتوج بلدوين الخامس الذى لم يتجاوز الخامسة من عمره ملكاً ، وأن يتولى ريموند الثالث أمير طرابلس Raimond de Tripoli (١١٥٢ - ١١٨٧م / ٥٤٧ - ٥٨٣هـ) الوصاية عليه لحين بلوغه سن الرشد^(٣) . وهكذا ، فقد رينو مناصرة جى لوزجنان له فى الوقت الذى أخذت شخصية ريموند فى الظهور على حساب رينو بين قادة المملكة ، وأدرك ريموند حاجة المملكة لفترة من الهدوء تستعيد فيها قوتها وتتناسى خلافاتها الداخلية ، وهذا يتضح من خلال حرصه على عقد هدنة مع صلاح الدين تبدأ من ١١٨٥م / ٥٨١هـ^(٤) .

أصاب إقطاعية الخليل الصليبية بسهم وافر فى أحداث الانقسام الذى دب بين قيادة مملكة بيت المقدس ، ففي أغسطس ١١٨٦م / جمادى الأول ٥٨٢هـ توفى الملك الطفل بلدوين الخامس ، وترتب على ذلك ظهور خلافات وانقسامات^(٥) فى الرأى حول من سيخلفه على العرش حيث أصبح من حق كلتا الأختين : سيبلا وإيزابيلا حكم المملكة وتمثلت المشكلة فيمن ستتوج^(٦) ، وأثناء ذلك انضم رينو دى شاتيو إلى فريق

(1) Hamilton B., The Elephant of christ, P. 104.

(٢) كان الاتفاق المبرم بين جى وبلدوين هو أن يحصل الأخير على مدينة بيت المقدس ودخل سنوى قدره عشرة آلاف بيزنطا ، راجع :

William of Tyre, Op. Cit., Vol. II P. 501.

راجع أيضاً ما أورده الرواية الإسلامية فى هذا الصدد فى : ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٤ ، العماد الأصفهاني : الفتح القسى ، ص ٦٨

(3) Roehriche,t R., Regesta, Doc. No. 753.

(٤) العماد الأصفهاني : البرق الشامى ، ج ٥ ، ص ٦٨ ؛ راجع أيضاً

Eracles, Op. Cit., PP. 12 - 13 , Runciman,S., Op. Cit, Vol. II, PP. 446 - 447.

(5) William of Tyre, Op. Cit., Vol II , PP. 501 - 502.

راجع أيضاً : العماد الأصفهاني . الفتح القسى ، ص ٦٨ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥٢٦ - ٥٢٧ .

(٦) فى مثل هذه الحالة كان الأمر يرفع إلى بابا روما ليقول رأيه ، وحسباً للقضية تعرض على ملكى إنجلترا وفرنسا كى يؤكدوا على الاختيار المقترح، راجع :

Hamilton, B, The Elephant of Christ, P. 105.

سبيلا^(١) وجى لوزجنان ومن ورائهما البطريك هرقل وجوسلين دى كورتناى بدافع المصلحة الشخصية . وترتب على هذا الانضمام من الناحية العسكرية إضافة ستين فارساً إلى جيش هذا الفريق، ومن الناحية السياسية، كان رينو يمثل ثقلًا بين قادة المملكة وبذا كان له تأثيره الواضح على النبلاء الصغار حيث نجح فى ضم العديد منهم إلى فريقه^(٢). وهنا يجدر الإشارة الى أن ثلث عدد الفرسان الذين كانوا تحت قيادة رينو كانوا هم فرسان الخليل، وبذلك يمكن القول أن انضمام رينو الى هذا الفريق كان له أثاره العميقة فى تعضيد موقفه حتى يمكن إتهامه بإذكاء روح الحرب الأهلية فى المملكة.

ومرة أخرى يبرز أمامنا دور إقطاعية الخليل الصليبية الحيوى فى إحداث الانقسام من خلال دور الطرف الآخر المتمثل فى همفرى الرابع زوج إيزابيلا حيث التف من حولهما ريموند الثالث وعدد من البارونات، وكان أعضاء هذا الفريق يطالبون بأن يكون همفرى ملكاً بأحقية زوجته فى وراثة عرش المملكة، وبذلك سيقت مملكة بيت المقدس إلى حرب حقيقية. وبعد عدة اشتباكات تمكن الفريق الأول الذى كان يضم قوات الخليل من الزحف على صور وبيروت وعكا، غير أن همفرى رفض الإستمرار فى هذا النزاع واتجه إلى بيت المقدس حيث أقسم يمين الولاء إلى جى وسبيلا، وبذلك فشل الفريق الثانى فى تحقيق أهدافه^(٣). ولاشك أن هذه الصراعات بين الفرنج كانت سببا فى زعزعة الكيان الصليبي من جذوره قبل عام واحد تقريباً من موقعة حطين، وما يسترعى الانتباه هنا أن كلا من همفرى الرابع ورينو دى شاتيو ظلا فى موقعهما فى مواجهة

(١) اتفق القادة الصليبيون فى المملكة على تنويع سبيلا، وقام البطريك هرقل بتنويعها وترك لها حرية اختيار زوج لها، ووسط دهشة المجتمعين وضعت التاج فوق رأس زوجها السابق جى لوزجنان الذى كان قد طلقها منذ ثلاثة أعوام واضطر ريموند إلى أن يقسم يمين الولاء لعدوه جى وزوجته سبيلا ملكة بيت المقدس . انظر

Ernoul, Op. Cit., PP. 30 - 31.

وقد تنبه العمد الأصفهانى بشكل دقيق إلى مايجرى فى داخل البيت الصليبي من منازعات وأحداث حول عرش المملكة والوصاية عليها . راجع : الفتح القسى ، ص ٦٧ - ٦٨

(2) Riley -smith J. S., The feudal Nobility and the kingdom of Jerusalem 1174 - 1277 , London 1973, PP. 109 - 110.

ويطرح الباحث المذكور تقيماً واضحاً ودقيقاً للموقفين العسكرى والسياسى اللذين غدت عليهما مملكة بيت المقدس الصليبية فى الداخل فى تلك المرحلة . راجعه فى

Ibid. Loc. Cit.,

(3) Ernoul, Op. Cit., PP. 30 - 31, 129 - 136 , Eracles, Op. Cit., Vol., II PP. 25 - 31; Roehricht, R., Geschichte des konigreichs Jerusalem, PP. 446 - 451.

الأخر فى تلك المرحلة رغم ما يربطهما من قرابة ومصالح مشتركة ، كانت السلطة والممتلكات فى الخليل وشرقى الأردن هى محورهما .

وتفيد أحد المصادر الأوربية المدونة فى القرن الرابع عشر الميلادى / الثامن الهجرى أن رينو دى شاتيو قد ضم بيت لحم إلى مناطق سيادته فى الخليل وشرقى الأردن فى عام ١١٨٦م / ٥٨٢هـ^(١) . وكرد فعل على ذلك يذهب أحد الباحثين الحديثين إلى الاعتقاد فى أن أسقفية الخليل فرضت سيطرتها الدينية على أسقف بيت لحم^(٢) ، بيد أن ذلك لايتفق مع الواقع ، فإذا ماجراً رينو على انتهاك قوانين المملكة بالاستيلاء على جزء من الممتلكات الشخصية التابعة للتاج الملكى استغلالاً لنفوذه وقوة جيشه ، فإنه لايمكنه الإخلال بالهيكل الأسقفى مخافة الصدام بالبابا فى روما . ومن الجلى أن رينو قد أقدم على تلك الخطوة متتهزاً فرصة الفوضى التى سادت المملكة بعد وفاة بلدوين الخامس ؛ نظراً للترامن بين حدوث الوفاة وضمه غير الشرعى لبيت لحم . وبذلك يتأكد أن مبدأ القوة كان هو شعار رينو الذى رفعه سواء فى علاقته بالمسلمين أو بإخوانه من الصليبيين .

وفى الوقت الذى سادت فيه الانقسامات مملكة بيت المقدس الصليبية كان صلاح الدين الأيووبى قد نجح فى تكوين جبهة إسلامية قوية ، كما أتم استعداداته الحربية لتوجيه ضربة قاسية للكيان الصليبي فى بلاد الشام ، وكانت موقعة حطين فى الرابع من يوليو عام ١١٨٧م / الخامس والعشرين من ربيع الآخر ٥٨٣هـ . وفيها قتل رينو دى شاتيو كما أسر همفرى الرابع . وبذلك فقدت كل من الخليل وشرقى الأردن حاكميهما الصليبيين ، ومالبت أن سقطت الخليل فى يد صلاح الدين بعد شهرين أو يزيد قليلاً من معركة حطين^(٣) . ومن الطريف أن صلاح الدين اتخذ من همفرى الرابع ترجماناً له فى بعض المفاوضات التى دارت مع الفرنج فى العام التالى^(٤) مما يشير إلى أنه تعلم اللغة العربية أثناء الأسر .

وهكذا تم القضاء على الحكم الصليبي نهائياً فى بلاد الخليل وعادت إلى أهلها بعد حوالى تسعة عقود من الزمن ، ولكن هناك وقفة لتقييم شخصية رينو دى شاتيو التى اقترنت بالتاريخ الصليبي للخليل فى عقدها الأخير ، وكذلك همفرى الرابع

(1) Les lignages, d'outre - Mer in Assises de Jerusalem Tome II , P. 462.

(2) Mayer, H. E., B. K. S., P. 376.

(3) De la Bord, F., Charte de Josphat, PP. 88 , 91.

العماد الأصفهانى : البرق الشامى ، ج ٥ ، ص ١١٤ . وسوف تتناول الدراسة تاريخ فتح الخليل وأحداثه المختلفة فى الفصل التالى منها .

(٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٠٤ .

المالك الحقيقي لها في عرف الفرنج الدخلاء. وبداية نلمس تفاوتاً في الآراء حول شخصية رينو إذ يذكر أحد الباحثين الحديثين أن رينو كان خلال فترة حكمه صليبيًا مخلصاً لخدمة الصليب بصفة عامة^(١). بينما يرى باحث آخر أنه كان مغامراً لا يعبأ بتصرفاته أكثر من أي حاكم صليبي آخر ، كما كان يتدخل في الشؤون السياسية طيلة المرحلة الثانية من حياته التي تشتمل على العقد الأخير منها^(٢) والتي كان خلالها حاكماً للخليل وشرقي الأردن. أما المؤرخ وليم الصوري الذي عاصر رينو عدا السنوات الثلاث الأخيرة من حياته تقريباً فقد قال عنه: «أنه جعل مجد العالم اللاتيني في الوحل»^(٣). أما الباحث فيرى أنه على الرغم من أن رينو قد أذكى روح العداء والانقسام بين صفوف الصليبيين في مملكة بيت المقدس ، وعلى الرغم من انتهاكه للأعراف والقوانين الصليبية باستحواذه على السلطة في شرقي الأردن والخليل علاوة على استيلائه على بيت لحم وتجاوزاته الأخرى إلا أنه يرجع إليه الفضل في تدعيم كيان إقطاعية الخليل الصليبية وإبرازها ضمن اتحادها مع شرقي الأردن، بيد أن رينو على المستوى الصليبي العام جر المملكة الصليبية إلى مصيرها المحتوم نتيجة سياسة خاطئة وضعها في تعامله مع المسلمين في وقت كانت تعاني فيه المملكة من الضعف.

أما همفري الرابع فلم يستعد سلطته فيما كان يحق له من ممتلكات في الخليل وشرقي الأردن إلا بعد إطلاق سراحه في عام ١١٨٩م / ٥٨٥ هـ ، ولكن سيادته في هذه المرة كانت أسمية، بينما طلقت إيزابيلا منه بعد وقت قصير من فك أسره، فتلاشت الأضواء من حوله، وظل يذكر باسم همفري سيد الشوبك والكرك، ثم توفي في عام ١١٩٨م / ٥٩٤ هـ^(٤). وظل هذا اللقب يتوارث ويتناقل بين بارونات أسرة همفري من بعده، والملاحظ أن همفري لم يحمل في مرحلة سيادته الاسمية تلك لقب سيد الخليل ولا لقب دى تورون إذ اكتفى بالإشارة إليه حاملاً لقب سيد شرقي الأردن، غير أن الصليبيين ظلوا يذكرون الخليل في وثائقهم على أمل أن يضعوا أيديهم عليها مرة أخرى حين ذكرت ضمن الممتلكات الاسمية لسلسلة أسرة همفري دى تورون «أليس» في الوثائق^(٥).

(1) Hamilton B., The Elephant of christ, PP. 105 - 106..

(2) Mayer, H. E., The Crusader lordship of kerak and shoubak, P. 202.

(3) Wiliam of Tyre, Op. Cit. , Vol. II, P. 224.

(4) Ernoul, La chronique , PP. 66, 124; Cf. Also., Rey, E.,G., Les seigneurs de Mont-treal, in R. O. L., Tome IV, Paris 1896, P. 22.

(5) De marsy. A., fragment,P. 153 ,Cf. Also. Rey E. G., Les Familles d'Outre - Mer , P. 423.

ونحاول فى أعقاب هذا السرد رسم حدود إقطاعية الخليل الصليبية من بين ثانيا الوثائق والمصادر التى لم تتعرض للأمر مباشرة، ففىما يتعلق بالحدود الشمالية نجدها تتمثل فى قرى تىل الفصائل Phesech وسعير وذلك جهة الشمال الشرقى حيث إقطاعية أريحا^(١)، وفىما يتعلق بالجهة الشمالية فهى ملاصقة للأراضى المملوكة شخصيا للملك الصليبي فى بيت المقدس وما حولها ، حيث ضمت قرى بيت زكريا وبيت أومر فى الفترة الأولى^(٢)، ولكن بعد حكم رينو دى شاتيو للخليل اشتملت الإقطاعية عليهما^(٣)، وفى جهة الشمال الغربى تعد قرية البطم آخر حدود الخليل مع إقطاعية تل الصافية^(٤). أما الحدود الغربية فكانت تنتهى فى المرحلة الأولى مع سفوح التلال المنحدرة تجاه الرملة وغزة ، وباقتطاع أراضى تل الصافية وبيت جبرين تحددت الحدود الغربية للخليل فى الفترة التالية بحديهما الشرقى . أما الحدود الجنوبية فلم نجد فى الوثائق الصليبية شيئا يساعد على رسمها نظراً لعدم الإقبال على امتلاك مثل هذه الأراضى المقفرة حيث مشارف صحراء النقب، ومن ثم تحددت بنهاية المناطق المسكونة، كما يمكن تميزها باختلاف الريف عن الصحراء والمعمور عن المهجور^(٥). وأخيراً فالحدود الشرقية تمثلت فى البداية فى ساحل البحر الميت الغربى ، وحينما تم اقتطاع عين جدى وصغر وما يتبعهما من أراض لم تتضح معالم تلك الجهة^(٦). وما يلفت النظر أن حدود إقطاعية الخليل فى بعض مراحلها الصليبية تشابهت إلى حد كبير مع الحدود التى ترسمها الحكام المسلمون لإقليم الخليل فى العصور التالية^(٧). وهذا يشير إلى أن الصليبيين هم الذين وضعوا معالم حدود بلاد الخليل، الأمر الذى لم يكن بنفس الوضوح من قبل .

ونظرة شاملة للواقع الإقطاعى داخل إقطاعية الخليل الصليبية وما حولها يمكن تبين مدى التمزق والتفتت الذى غير أوضاع الممتلكات الصليبية معظم القرن الثانى عشر الميلادى، القرن السادس الهجرى، فقد طبق على أراضى الخليل منذ البداية النظام الإقطاعى شأنها فى ذلك شأن باقى الكيانات الصليبية الأخرى فى بلاد الشام، وكان أول مقطع فيها هو جرار دى أفنس . وبعد أن كانت بلاد الخليل مقسمة إدارياً بين الكورتين الإسلاميتين فى بيت جبرين وبيت المقدس، فقد تم تقسيمها بعد الغزو الصليبي إلى عدة

(1) Roehricht, R., Regesta, Doc, No. 234.

راجع : رسم حدود إقطاعية الخليل الصليبية وما لحق بها من تغيرات فى خريطة رقم (١).

(2) Riant, P., Etndes sun L'historia de l'eglis de Bethlehem, Vol. I, Doc. No. PP. 140 - 147 - Cf. Also., R. ohricht, R., Regesta. Doc. No. 983

(3) De la Bord, F., chartes de Josphat, P. 80

(4) Delaville Le Roulx, C. G. O. H., Vol. I, Doc. No. 116, P. 98.

(٥) عبد الغنى النابلسى : الحضرة الأنبيسة ، ص ٦٤ .

(6) Beyer - G. D. P. V. LXV, P. 188.

(٧) العليمى : الأنس الجليل، ج ٢، ص ٤٣٠ .

إقطاعيات لا تستند على أسس معينة كتقسيم جغرافى أو عسكرى أو سكانى، وظهرت تقسيمات إدارية جديدة لم تكن معروفة قبل قدوم الصليبيين قد تتمثل إضافة إلى بيت جبرين فى إقطاعيات تل الصافية، وعين جدى وصفر، تفاوتت كل منها عن الأخرى من حيث المساحة والموارد. ومن ناحية أخرى حازت المؤسسات الدينية نصيباً وافراً من أراضي بلاد الخليل، وحظيت طائفة فرسان الإستبارية بالقسط الأكبر فيها. والجدير بالذكر أن الطائفة قد غلب عليها النشاط الحربى الذى سرعان ما كان له تأثيره بعمق فى الكيان الصليبي قاطبة، فبالإضافة إلى الأراضي الشاسعة التى حازتها فهناك مراكز عسكرية إستراتيجية تمكنت الطائفة من ضمها من أبررها قلعة بيت جبرين فى ١١٣٦م/٥٣١هـ.

وفى تقييم لمدى تأثير إقطاعية الخليل بالسياسة الداخلية التى اتبعها ملوك بيت المقدس نجدها تتمثل فى استحواذ إقطاعيين من خارج إقطاعية الخليل كأفراد أسرة مبلّى على أجزاء من أراضيها. وكذلك إخضاع جزء كبير من أراضي الإقطاعية لسيطرة الملك بشكل مباشر وإقامة وحدات إدارية جديدة على حساب أراضي الخليل. وكان الغرض من تلك السياسة هو وضع القيود لمنع أى من حكام لخليل من تقوية سلطته مما يهيم أمامه فرصة القيام بأى نوع من الاضطرابات. وهذا التشتت فى الممتلكات يؤكد على أن ملكية الأراضي فى الخليل ليست بيد الفصل الإقطاعى فيها، فى حين بدت سيطرة الملك الصليبي واضحة فيما نفذه من سياسة بنجاح.

وتتحدد ملامح دراسة الحكم الصليبي فى بلاد الخليل من خلال تصنيف تاريخها الإقطاعى بتقسيمه إلى ثلاث مراحل يميز المرحلة الأولى منها تتابع عدد من أتباع الملك أو أفضاله أو مقطعيه، وربما أيضاً نبلائه على حفظ قلعة الخليل وحكم المدينة أيضاً ولكن بشكل غامض، ويتمثل ذلك الغموض فى تداخل فترات ولاية بعضهم مع الآخر كما هو الحال فى فترات حكم كل من جودفرى وهيو الأول من ناحية وهيو الأول وروجرى حيفا من ناحية أخرى، لذلك تداخلت فترتا حكم بلدوين وهيو الثانى، والملاحظ كذلك أن وراثة الممتلكات فى الخليل لم تلعب أى دور فى تلك المرحلة، مما يضعنا أمام أمرين لا ثالث لهما؛ إما أنه لم يكن هناك وريث لأى من المقطعين المنحدرين تحت هذا التقسيم بسبب عدم الزواج أو الوفاة أو غير ذلك، وإما أن الملك كان يقوم بتعيين المقطع ليكون بمثابة موظف فى دولاى العمل الملكى، والباحث يميل إلى الأخذ بالاعتبار الأول؛ نظراً لأن ملكية معظم هؤلاء المقطعين ثابتة بالوثائق كما تم عرضه، كما أن بعضهم كانوا نبلاء فيتوقع أن تكون لهم ملكيات شاسعة من أرض الخليل على الأقل.

أما المرحلة التالية من تاريخ الحكم الصليبي فى الخليل فتبدأ من حكم همفرى الثانى لها فى عام ١١٤٩م/٥٤٤هـ، والذى انتهت فترة حكمه بشكل مباشر عليها فى غالب الظن بعد ذلك بثلاثة أعوام، وجميع الشواهد المطروحة أثناء الدراسة تدلل على

أنه حتى عام ١١٧٧م/ ٥٧٣هـ كانت الخليل خاضعة لأسرة همفري مابين إشراف من همفري الثاني على الإقطاعية وحكم مباشر لابنه همفري الثالث بعد أن اشتد عوده ، أما بعد وفاته فقد أصبحت الملكية بيد همفري الرابع صغير السن ، مما يجعل السلطة على الخليل مشتتة بين رسمية وعرفية ، حيث برز نفوذ كل من ستيفاني الأم وهمفري الثاني الجدد والملك الصليبي عموري الأول ، غير أن مكانة همفري الثاني الكبيرة في المملكة أهله كى يكون ذا نفوذ أوضح فى الخليل . حتى جاء رينو دى شاتيو لينافسه فيها بصفته زوج أم همفري الرابع . ويمكن تمييز تلك المرحلة فى تاريخ الخليل الصليبي بأن الحكم بها أصبح قائماً على الوراثة فى أسرة همفري ، كما شهدت الإقطاعية تطوراً مهماً الا وهو قيام الأسقفية بها عام ١١٦٨م/ ٥٦٣هـ . الأمر الذى أضفى ثقلًا دينيا وسياسيا لهما بعدهما الواسع .

وأخيرا تأتى مرحلة حكم رينو دى شاتيو للخليل فى الوقت الذى ارتبطت فيه باتحاد مع شرقى الأردن وتتميز هذه المرحلة بتطور الحكم الصليبي بشكل متكامل فى الإقطاعية وتوسعها ، كما أصبح لها استقلاليته . وعلاوة على ذلك تميزت المرحلة بتغيير دستورية الحكم فى الخليل ؛ إذ تمكن حاكمها رينو من فرض وصايته على همفري الرابع رغم بلوغ الأخير السن القانونية التى تسقط هذه الوصاية ، كذلك أصبح منح رينو للممتلكات ظاهرة جديدة فى تاريخ الخليل الإقطاعي ؛ لأن تقديمه للمنح كان لا يتطلب توقيعاً من الملك ، وليس من المستغرب أن يحدث ذلك وقد ظهر رينو الشخصية الثانية بالمملكة الصليبية فى بعض الأوقات .

وبعد استعراض المراحل الثلاث التى مر بها تطور الحكم الصليبي فى الخليل نجد فى نظرة تقييمية شاملة ان إقطاعية صليبية نشأت على أرض الخليل حملت مسمى صليبياً مميزاً هو «سانت أبراهام» متخذاً من القلعة الخلية الأولى لقيامها ، ولكن سرعان ما اتسعت الحركة العمرانية فى البلدة حتى غدت مدينة . وقد ساعد على تطور الحكم فيها الوضع المرموق الذى حازته بفضل اكتشاف مقابر الأنبياء بها بعد مرور عقدين من الزمن للحكم الصليبي . أما بعد إقامة الأسقفية فى عام ١١٦٨م/ ٥٦٣هـ فقد خطت الخليل خطوة هامة نحو الأمام حيث تدعم موقفها الدينى والسياسى ، ثم ما لبثت أن تقدمت بسرعة نحو التطور حتى تم تدعيم أركان الإقطاعية بشكلها الكامل فى العقد الأخير من عمرها الصليبي . وما من شك فى أن أسرة همفري كان لها بعض الفضل فى إصقال الحكم اللاتينى فى الخليل ، وفى ذات الوقت لا يمكن إغفال فضل رينو دى شاتيو الذى يعد أول سيد للخليل بالمعنى الكامل لهذا اللقب ، الذى تمكن من الارتقاء بالوضع القانوني للخليل فى مجال ملكية الأراضى بفضل علاقاته القوية بالبيت الملكي فى القدس ، ولا مبالغة فى أن الخليل قد احتلت فى آخر عهدها الصليبي مكانة رفيعة متقدمة فى قائمة الإقطاعيات الصليبية الصغرى الاثنى عشرة داخل مملكة بيت المقدس ، وذلك بفضل ما غدا لها من ثقل ديني وعسكري واقتصادي ، تلك الأمور التى سنعرض لها بالتفصيل على مدى فصول الدراسة التالية .

الدور العسكري لإقطاعية الخليل الصليبية ضد المسلمين



الفصل الثالث

- قدرة الخليل الصليبية في المجال العسكري .
- دور حكام الخليل العسكري في حملات الرملة الثلاث ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٥ م / ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٨ هـ .
- موقف الصليبيين في إقطاعية الخليل من البدو ورد الفعل .
- هجوم فاطمي دمشقى مشترك ضد الخليل ١١٠٧ م / ٥٠١ هـ ، أسبابه ، أحداثه ، توابعه ، دلالته .
- بروز الخليل قاعدة دفاعية هجومية في جنوب مملكة بيت المقدس .
- الموقف العسكري في الخليل بعد تشييد القلاع في الغرب .
- معارك عام ١١٣٩ م / ٥٣٣ هـ فوق أرض الخليل ونتائجها .
- الموقف العسكري بين إقطاعية الخليل الصليبية ومصر ، الفعل ورد الفعل .
- التغيرات السياسية حول الخليل وأثرها العسكري على الإقطاعية ١١٦٤ - ١١٧٧ م / ٥٥٩ - ٥٧٢ هـ .
- دور الخليل في معركة تل الصافية ١١٧٧ م / ٥٧٣ هـ .
- معارك رينودى شاتيو ضد صلاح الدين حتى حطين ١١٨٧ م / ٥٨٣ هـ .
- القضاء على إقطاعية الخليل الصليبية ، تاريخه والآثار المترتبة عليه .

بعد التعرف على أهم الملامح الجغرافية والسكانية والتاريخية لإقليم الخليل ، وبعد التعرض لإرساء أساس إقطاعية صليبية فوق أرض هذا الإقليم ، ومناقشة قضايا الحكم الصليبي فيها بين النشأة والتطور والتقسيم والتبلور؛ بدت الخليل فى ثوبها الصليبي وأخذت تضطلع بمهام لم تألفها منطقة بلاد الخليل من قبل ، فبعد أن كانت جزءاً من إقليم الشام الشاسع بلا هوية سياسية تميزها أضحت إقطاعية صليبية وظيفتها عسكرية بالدرجة الاولى ، إذ كان عليها أن تسعى وتكابد المسلمين من حولها من أجل البقاء . وقد حظيت إقطاعية الخليل بموقع جغرافى ممتاز أهلها للظهور فى عصر يعج بالصراعات والأحداث .

برزت الأهمية الإستراتيجية لبلاد الخليل بمجرد وصول الصليبيين إلى الأراضي المقدسة، فى الثالث عشر من يونية ١٠٩٩م/ العشرين من رجب ٤٩٢ هـ^(١) . بدأ الصليبيون الهجوم على بيت المقدس إلا أن أدوات الحصار لم تكن كافية لإتمام الهجوم، كما كان هناك عجز فى المؤن ، فراح الصليبيون يبحثون عن الطعام والماء والمواد الخام اللازمة للقتال فى المناطق المجاورة ، فى الوقت الذى قام فيه المسلمون بطمر الآبار وتدمير قنوات المياه حتى أصبح الماء شحيحاً فى المعسكر الصليبي فترتب على ذلك مشاكل ضخمة اضطرت الصليبيين إلى حمل الماء من مناطق تبعد حوالى عشرة كيلومترات أو يزيد، فكمن لهم المسلمون وقتلوا وأسروا الكثير منهم وارتفع ثمن الماء المنقول إلى أقصى حد^(٢) . وهناك تعقيب لأحد الباحثين الحديثين يذكر فيه أن مشكلة نقص المياه تلك كانت كفيلة بإجهاض الحملة على بيت المقدس بأكملها^(٣) . وفى الحقيقة لا يمكن أن نفرس ما وقع من رد فعل إسلامى إلا بأنه شكل من أشكال مقاومة الأهالى للغزاة الجدد بالقدر الذى كان فى حدود طاقتهم، وتوضح المساقات المذكورة أن هؤلاء الأهالى كانوا من سكان البقاع الشمالية للخليل حيث العروب وحلحول وبيت أومر وغيرها الذين تمكنوا من خلق مشكلة أساسية للجيش الصليبي المحاصر لبيت المقدس وذلك عن طريق استخدام المياه بوصفها سلاحاً له فاعليته .

وقد حاولت قوة إسلامية أخرى تتألف من أربعمائة من العرب ومائتين من الأتراك قطع السبيل بين الصليبيين المحاصرين للقدس، ويافا - الميناء الوحيد الذى تأتى من خلاله الإمدادات من وراء البحار، ولكن قوة صليبية بقيادة الكونت جلدمار كارنيل تمكنت بعد معركة حامية من تيسير تلك المهمة^(٤) ، وبذلك خابت آمال الفاطميين حينما

(1) Hagenmeyer , C. H. R. , Die Kreuzugsbriefe aus den Jahren 1088 - 1100 , Innsbruck 1901 , PP. 386 - 389 .

(2) Raimand D'Agiles , Op. cit. , PP. 290 - 291 , Fulcher of chartres , Op. Cit. , P. 121 .

(3) Treece Henry , The crusades , London 1962 , P. 137 .

(4) Raimond D'Agiles , Op. cit. , PP. 291 - 292 , William of Tyre , Op. Cit. , Vol. I , PP. 356 - 357 .

تكشف لهم أن زحف الصليبيين لم يكن يستهدف السلاجقة الأتراك فى شمالى الشام فحسب، إنما تخطى ذلك إلى ما كان يحوز اهتماماً أكبر لديهم وهو الاستيلاء على الأراضى المقدسة ومدينة القدس التى كانت تحت سيطرتهم.

قامت العلاقة إذن بين الصليبيين والدولة الفاطمية منذ البداية على أساس من العداء، وخاصة أن الغزاة أظهروا كثيراً من الإرهاب والوحشية أشارت إليها المصادر المختلفة^(١) وقد عبر عن ذلك المؤرخ أحمد بن سعد الدين بوضوح، فذكر أنه حينما قدم الفرنج إلى الشام استولوا على بيت المقدس وجمعوا اليهود وحرقوا طائفة منهم «وهدموا مساجد العباد والعلماء وسائر الزهاد، سبعين ألف مسلم قد أسروا ومثلها قتلوا بها»^(٢). ووسط هذه الظروف والروح العدائية التى غمرت الشام كان من الطبيعى أن يدرك جودفرى دى بوايون حاكم بيت المقدس أن دولته يجب أن تكون حربية خالصة، وبرهن على ذلك بأن اكتفى بحمل لقب «حامى قبر السيد المسيح»^(٣). وقد انعكس ذلك قطعياً على الخليل إذ كان عليها أن تشارك باقى الدولة الصليبية فى الجهود الحربية بأن تصبح كياناً حربياً كذلك له **مقدرته العسكرية**. ولا غرو فقد كان المسلمون متحفزين للانقضاض على الدخلاء الأوربيين وقتما تسنح الفرصة أمامهم. وهكذا تميزت الفترة الأولى من التاريخ الصليبي للخليل بما اضطلعت به من دور عسكرى .

وفى أبريل ١١٠٠م/ جمادى آخر ٤٩٣ هـ. أرسل دايمبرت بطريرك بيت المقدس إلى الشعب المسيحي فى ألمانيا يشره بالانتصارات التى حققها الصليبيون فى الأراضى المقدسة، داعياً إياهم للقدوم للدفاع عنها. وفى الخطاب أشار إلى بقاء بعض الصليبيين للدفاع عن المدن التى نجح الصليبيون فى إخضاعها، وهى علاوة على بيت المقدس، بيت لحم، يافا، طبرية، نابلس، قلعة سانت أبراهام، الرملة^(٤). ومن ناحية أخرى عنيت المصادر الصليبية التى تعرضت لاستيلاء الصليبيين على الخليل بالإشارة إلى القلعة التى لم تشيد إلا بأيديهم فيما بعد^(٥). وكان ابن ميسر المؤرخ المسلم المعاصر الذى انفرد بذكر حدث استيلاء الفرنج على الخليل أشار إليها بقبر إبراهيم عليه السلام^(٦). وهكذا فمن الملاحظ أن المصادر الصليبية قد اتجهت إلى الإشارة للبلاد التى تم غزوها

(١) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ص ٢٢٢ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٥٠ .

(٢) أحمد بن سعد العمري : ذخيرة الإعلام بتاريخ الخلف والأعلام من أمراء مصر الحكام ، مخطوط بمكتبة محافظة الإسكندرية تحت رقم ١٢٤٢٨ ج ، ورقة ٢٤١ .

(٣) حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، القاهرة الطبعة الثانية ١٩٥٨م ، ص ١٨٩ .

(4) Hagenmeyer , H. , Die Kreuzzugsbriefe aus den Jahren 1088 - 1100 , Innsbruck 1901 , Letter no. 20 - 21 , P. 177 .

(5) Baudré de Doll , Op. Cit., P. III , Albert d'Aix , Op. Cit., P. 523 .

(٦) ابن ميسر : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٨ ، وقد نقل عنه المؤرخون المتأخرون نسبياً هذا الحدث . انظر: المقرئى : انعاظ الحنفاء، ج ٣ ، ص ٢٣ .

بصفتها مدناً فى حين كانت الخليل هى الوحيدة التى أشير إليها بوصفها قلعة، ومن واقع ذلك يفهم أن أهمية الخليل تكمن بالدرجة الأولى فى تلك المرحلة فى القلعة وما تلعبه من دور إستراتيجى فى حين أن المسلمين كانوا يهتمون فقط بقدسيته وأهميتها الدينية. وهذا بالطبع يعكس طبيعة العصر ويؤكد على مدى تغلب روح الحرب بسبب العدوان الصليبي.

وهناك ما يميز الخليل أيضاً من الناحية الحربية، فوفقاً لما أقرته مجموعة قوانين بيت المقدس كان على سيد كل إقطاعية صليبية تقديم عدد من الفرسان والجند للخدمة فى جيش ملك بيت المقدس، وتحدد هذا العدد بالنسبة للخليل بعشرين فارساً يقدمهم الفصل الإقطاعي، فضلاً عن خمسين جندياً من السرجندارية وتقدمهم كنيسة سانت أبراهام^(١). ولم تتحدد مدة الخدمة بفترة محددة إذ كان على جند الخليل أن يسرعوا لخدمة الملك وقما يطلب منهم ذلك^(٢). بيد أن نظام الخدمة العسكرية المذكور لم ينظم بشكل دقيق إلا بعد ربع قرن من الوجود الصليبي فى الأراضى المقدسة^(٣). وفى ضوء ذلك نتج الدور العسكرى للحاكم الإقطاعي والكنيسة فى الخليل سواء بالنسبة للعلاقة بالملك الصليبي أو ضد المسلمين.

وهناك عدة مواقف تدلل على الطابع الحربى الذى اصطبغت به إقطاعية الخليل منذ تأسيسها، فقد اتضح على سبيل المثال أن فرسانها عاونوا جودفرى فى جهوده الحربية حينما دعم تانكرد أمير الخليل عسكرياً، ذلك أن هذا القائد كان قد وضع مخططاً لضم إقليم السواد الواقع شرقى إمارته فى مايو ١١٠م/ رجب ٤٩٣ هـ، ولكن مشروعه واجه صعوبات لم ينجح فى التغلب عليها، وحينئذ طلب مساعدة من «جودفرى دى بوايون» الذى كان مشغولاً بتوطيد غزوه فى جنوب بيت المقدس وأسرع بالتوجه إلى إمارة الجليل وانضم بكل قواته التى بالضرورة اشتملت على فرسان الخليل، وبفضل هذه المساعدة الحيوية تمكن «تانكرد» من فرض نفوذه على السواد^(٤).

وهكذا يتكشف لنا النظام الحربى الذى وضعه الصليبيون فى تلك الآونة بهدف إتمام عملية الغزو بالشكل المطلوب رغم الإمكانيات البشرية القليلة، إذ يلاحظ من تصفح تاريخ الدولة الفرنجية فى بيت المقدس منذ بداية عهدها أن نظامها الحربى قام على النحو التالى: تقسيم صليبي للأرض المقدسة إلى فريقين: الأول يلتف حول جودفرى،

(1) Jean d'Ibelin , Op. Cit. , PP. 422 , 426 ; La Monte , L. , Feudal Monarchy , PP. 215 - 216 .

(2) la Monte J., L., Op. Cit. , PP. 140 - 141 , Cf. Also Richard , G., Op. Cit. , P. 126 .

(3) Mayer , H. E., The Crusaders , London 1987 , P. 156 .

(4) Albert d'Aix , Op. Cit., PP. 516 - 517 .

وقد أورد أحد المؤرخين الحديثين التاريخ المذكور أعلاه كتاريخ لوقوع تلك الأحداث، راجع :
Grousset , R. , Op. Cit., Vol. I , P. 186 .

والثاني يلتف حول تانكرد، وبطبيعة الحال كان فريق جودفري أكثر عدداً وقوة وكان فرسان الخليل وقائدهم جرار دي أفسس يشكلون إحدى دعائمه. والواضح أن هذا النظام قد وضع على هذا النحو كي يتمكن القائدان (جود فري وتانكرد) من التوسع بشكل أيسر كل في اتجاهه، وبالفعل أثبتت الخطة نجاحاً ملحوظاً حيث تمكن جودفري من التوسع جنوباً حيث الخليل وأرسوف وغيرهما في حين نشط تانكرد في التوسع شمالاً حيث إقليمي الخليل والسواد وميناء حيفا.

وفي الوقت الذي ظهر فيه جلدمار كارنيل كحاكم للخليل وحام لقلعتها كان بلدوين الأول قد أمسك بمقاليد الحكم في مملكة بيت المقدس وهو الذي وضع الإستراتيجية الحربية على أساس اتباع أسلوب الحرب الخاطفة، وأن يجعل من جيشه وحدة متحركة تنتقل بسرعة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب حسب الحاجة مكتفياً بإقامة نوع من المخافر الصغيرة على الحدود لمراقبة تحركات القوى الإسلامية المجاورة^(١) بغرض التغلب على مشكلة قلة أعداد المقاتلين الصليبيين^(٢). وهكذا نلاحظ تغيراً سريعاً في الإستراتيجية الحربية للكيان الصليبي في بيت المقدس، فبعد أن قامت تلك الإستراتيجية على أساس هجومى ارتكزت بعد الاستيلاء على الأراضي المقدسة على الدفاع عن الأراضي التي تم الاستيلاء عليها مع الحرص على التوسع إذا ما تهيأت الفرصة لذلك .

انعكست تلك الإستراتيجية بالطبع على إقطاعية الخليل الصليبية بشكل مباشر إذ لم يجد الفرنج من بُد للاستقرار في الأماكن التي لم يكتمل فيها أمنهم بعد في جنوب الخليل وشرقها فاتخذوا عدة تدابير لإتمام حركة التوسع كان أولها: إقامة خطوط دفاعية ضمن حدود إقطاعية الخليل، وكان أحدها يتمثل في وادي الحسى الممتد من ساحل البحر المتوسط إلى شرقى الأردن، وعلى طوال هذا الخط الدفاعي كانت توجد مواقع وقوات تقوم بحماية الفيالق الصليبية التي كان يرسلها الملك إلى منطقة ما وراء البحر الميت للاستطلاع أو تدعيم الوجود الصليبي بها^(٣). ولم يكن عدد الفرسان الذين تم تخصيصهم للدفاع عن الخليل وقلعتها بالقدر الكافي للنهوض بهذا العمل انطلاقاً من موقع القلعة الخطير ولكن مع السياسة التي وضعها بلدوين قد تتحول قلعة الخليل في وقت قصير إلى قاعدة عسكرية ضاربة. وفي الصفحات التالية نعرض حلقات ذلك الدور العسكرى لإقطاعية الخليل الصليبي .

(1) William of Tyre , Op. Cit., Vol. I , P. 487 .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٢٩١ .

(3) Deschamps , P. , les Chateaux des Croises , Vol. I , PP. 17 - 18 .

أخذ الوضع العسكري لإقطاعية الخليل يتحسن شيئاً فشيئاً في خط متواز مع تبلور الحكم الصليبي بها إذ أخذت المدن التي لا تزال تحت سيطرة الفاطميين تنهار في الواحدة بعد الأخرى في أيدي الصليبيين ، فخلال بضع سنوات سقطت مدن : حيفا ، أرسوف ، قيسارية ، ثم عكا^(١) ، وغيرهم . وترتب على ذلك أن تدعم موقف المملكة الصليبية ، الأمر الذي ترك آثاره الإيجابية تبعاً على الخليل حيث حظيت بقدر من الأمن في جهاتها الغربية . بيد أن عسقلان ظلت تمثل مركز الخطر المستمر ليس فقط بالنسبة للخليل وإنما لمجمل جنوب مملكة بيت المقدس . فانطلاقاً منها تابعت الحملات الفاطمية وكان للخليل دور في مواجهة معظمها . وأولى هذه الحملات بعد قيام الكيان الصليبي في الخليل هي ما تعرف بمعركة الرملة الأولى حيث جهز الأفضل شاهنشاه وزير مصر جيشاً كبيراً بقيادة سعد الدولة الطواشي وجهه إلى عسقلان استعداداً للمعركة بغرض استرجاع بيت المقدس^(٢) ولما علم الملك بلدوين الأول بتلك الأخبار توجه على رأس جيش يتألف من مائتين وستين فارساً وتسعمائة من الرجالة^(٣) إلى يافا ومنها إلى سهل الرملة بالقرب من عسقلان . وكان جلدمار كارنيل من أبرز القادة الذين اصطحبهم الملك ، ووضع الصليبيون خطتهم على أساس تقسيم الجيش إلى خمسة صفوف ، تولى جلدمار قيادة الصف الثاني منها . كما اعتمدت الخطة على مباغته الفاطميين ، ومع بدء المعركة في صباح السبت السابع من شهر سبتمبر عام ١١٠١م/ العاشر من ذي الحجة ٤٩٤ هـ . تمكن الفاطميون من تحطيم الصفوف الثلاثة الأولى . وسقط جلدمار صريعاً في ميدان المعركة^(٤) ولكن سرعان ما تأرجع ميزان القوى في

(١) اهتمت المصادر الصليبية بأحداث حصار وسقوط المدن المذكورة ، بينما تناولتها المصادر الإسلامية باختصار له مغزى . راجع على سبيل المثال :

Fulcher of chartres , Op. Cit., PP. 152 , 156 - 159 , 191 , Albert d'Aix , Op. Cit., PP. 520 - 521 , 548 , 563 - 565 .

ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٢٢٥ ؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٣٢٠ .

(٢) ابن القلانسي : نفس المصدر ، ص ٢٢٦ ، راجع أيضاً :

Godfridi , Anonymi Rhenani Historia et Gesta duces Godfridi , ed. in : R. H. C. H. Occ., Tome V., Paris 1880, P. 505 .

(3) Fulcher of chartres , Op. Cit., P. 156 .

ويحدد أحد المؤرخين الصليبيين عدد الجيش الصليبي بثلاثمائة فارس وألف من الرجالة ، وفي هذا الصدد يشير أحد الباحثين إلى أنه عادة ما تتفاوت مصادر تلك الحقبة الصليبية في تقدير عدد الجنود في كل جيش ، إلا أنه يمكن الخروج بمجرد انطباع عام عن حجمه من خلال الأرقام غير الدقيقة ، راجع :

Albert d'Aix , Op. Cit., P. 504 .

أسامة زكي زيد : حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين في عهد الوزير الفاطمي الأفضل (١١٠١ - ١١٠٥ م / ٤٩٥ - ٤٩٩ هـ) مجلة كلية الآداب - عدد ٢٩ لعام ١٩٨١م ، ص ١٩ ج ١ .

(4) Fulcher of chartres , Op. Cit., PP. 157 - 159 , Albert d'Aix , Op. Cit., P. 549 .

صالح الصليبيين فى اليوم التالى من القتال فتقهقر الفاطميون إلى عسقلان^(١) بعد أن روعهم مقتل قائدهم سعد الدولة^(٢) وحاول الفرنج اللحاق بالقوات المنسحبة لكنها احتمت بأسوار عسقلان فأحرق الفرنج الجهات المحيطة بالمدينة . وقطعوا أشجارها وعادوا إلى القدس^(٣) .

ونظرة إلى ما ورد فى المصادر عن أحداث معركة الرملة الأولى فلا نجد ذكرًا للخليل أو فرسانها إذ لم يكن « جلدمار كارنيل » حاكمًا للخليل وقلعتها أثناء المعركة ، إذ كانت المحكمة العليا قد أقرت بأحقية فى إقطاعية حيفا وذلك فى شهر أغسطس / ذى القعدة قبل المعركة بقليل ، وتعلمنا المصادر أن التجهيز للمعركة قد بدأ فى مايو / شعبان من نفس العام^(٤) ، وعلى هذا فمن الأرجح أن جلدمار ذهب إلى ساحة المعركة قبل أن يترك السلطة فى الخليل ورياسة حامية قلعتها ، وبالتالي تكون مجموعة الفرسان التى شكلت الصف الثانى من الصفوف الخمسة فى المعركة قد تألفت من فرسان الخليل وربما بالاشتراك مع فرسان حيفا ، ويدعم هذا الاعتقاد عدم ذكر المصادر لشخص تولى السلطة فى الخليل فور ترك جلدمار الحكم فيها . ومن ناحية أخرى تعكس الأعداد القليلة من المقاتلين المكونة لجيش الملك بلدوين مقدرة مملكة بيت المقدس العسكرية المحدودة فى تلك الآونة مما يقوى فكرة أن الملك لابد أنه استغل كل ما أوتى من إمكانيات المملكة البشرية بما فيها قوات الخليل من الفرسان والجند .

وفى المرحلة التالية كان دور الخليل العسكرى أكثر وضوحًا ، إذ أصر الوزير الفاطمى الأفضل على الانتقام للهزيمة التى حلت بجيشه ، فأعد جيشًا كبيرًا تحت قيادة ابنه شرف المعالى بلغ ما يقرب من عشرين ألف فارس وعشرة آلاف راجل^(٥) . وتجمعت القوات الفاطمية فى عسقلان فى منتصف مايو من عام ١١٠٢م / رجب ٤٩٥ هـ . ثم تحركت فى اليوم التالى إلى القرب من الرملة ، ومن هذا الموقع غدت تهدد كل من يافا وبيت المقدس^(٦) بل والخليل ، ومع قلة أعداد المدافعين عن الرملة تمكن الفاطميون من

(1) Godfridi , Op. Cit., PP. 506 - 507 ; Albert d'Aix , Op. Cit., P. 551 .

(٢) ابن الفلانسى : تاريخ دمشق ، ص ٢٢٧ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، حيدر آباد ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٧ ، راجع أيضا :

Grousset , Op. Cit., Vol. I, P. 227 .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٢٨٦ .

(4) Godfridi , Op. Cit., P. 505 ; Albert d'Aix , Op. Cit., P. 459 , Cf also Grousset, Op. Cit., Vol. I, P. 225.

(5) Fulcher of Chartres , Op. Cit., P. 163; Bart olf de Nangis , Op. Cit., PP. 534 - 535.

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٣٦٤ ؛ ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٢٥ .

(6) Fulcher of Chartres , Loc. Cit.; Guibert de Nogen , Historia quae dicitur Gesta Deiper frances , P. 244 , Cf. als. Grousset , Op. Cit., Vol. I, P. 229 .

الاستيلاء على المدينة ، وما لبثوا أيضاً أن دخلوا اللُد ، وحينما علم بلدوين الأول بهذه الأخبار وهو في يافا خرج على رأس مائتي فارس لقتال الفاطميين^(١) . وقد اعتبر عدد من المؤرخين المعاصرين أن الملك كان متهوراً بإقدامه على تلك الخطوة ، إذ تمكن المصريون من القضاء على معظم فرسانه في معركة السابع عشر من مايو ١١٠٢م/ السادس والعشرين من رجب ٤٩٥ هـ . والأحداث التي تلتها^(٢) في حين تمكن الملك من الهروب بصعوبة إلى أرسوف، ومنها إلى يافا التي تمكن الفاطميون من حصارها براً وبحراً^(٣) ، وينفرد وليم الصوري برواية مفادها أن أحد شيوخ القبائل العربية أخبره بخطط الجيش الفاطمي وحرضه على الهروب من قلعة الرملة فأنقذ حياته، ويوضح أيضاً أن هذا البدوي كان أحد زعماء القبائل القاطنة بالقرب من البحر الميت^(٤) .

وفي هذا الموقف الصعب سعى الملك إلى استدعاء قواته من القدس والخليل وسائر مملكته ، ولكن نظراً لوقوف الجيش المصري حائلاً دون وصول النجدة إلى يافا فلم يكن من المستطاع إيجاد حلقة اتصال بين الملك وقواته في الداخل ، وحينئذ تطوع أحد الشبان السريان بمهمة حمل رسالة الملك وسار في طريق متعرج عبر أراضي وعرة متخفياً في ليلة مظلمة^(٥) . ولما وصلت الأخبار إلى الصليبيين في القدس والخليل وباقى أرجاء المملكة عمت موجة من الحماس الشديد . وكان الملك قد حدد في رسالته طلب النجدة من رجال القدس والخليل ، وقدر فوشيه دي شارتر عدد الذين استجابوا بأربعمائة وثمانين رجلاً بين فارس وراجل، ثمانون منهم من إمارة الخليل، وتسعون منهم ممن تجمعوا في بيت المقدس، والباقي من الأرجاء الأخرى في المملكة^(٦) ، في حين قدرها المؤرخ الصليبي المجهول بمائتين من الجند اجتمعوا من القدس والخليل^(٧) وتمكنت قوات

(1) Fulcher of Chartres , Op. Cit. , PP. 163 - 168 ; Albert d'Aix , Op. Cit., P. 591 .

(2) Godfridi , Op. Cit., P. 510 ; Fulcher of Chartres , Op. Cit., PP. 168 - 169 ; Albert d'Aix , Op. Cit., P. 591 .

(٣) ابن الفلاني : تاريخ دمشق ، ص ٢٢٩ . راجع أيضاً :

Albert d'Aix , Op. Cit., P. 595 , Cf. Also Runciman , Op. Cit., Vol. II , P. 79 .

(4) Willan of Tyre , Op. Cit., Vol. I , PP. 445 - 448 .

(٥) وفي تقدير تحليلي لأحد الباحثين يمكن تحديد يوم ٢٣ مايو الموافق ٢ شعبان من العام نفسه بأنه تاريخ وصول المبعوث الملكي إلى القدس ، وهذا يفسر كيف تخفى المبعوث في جنة الظلام حتى وصل بيت المقدس مستغلاً تلك الليلة غير المقفرة . عن تحديد تاريخ الوصول . انظر :

Hagenmeyer , H., Chronologie du Royaume de Jerusalem , in R. O. L., Vil. XI , Paris 1904 - 1907 , PP. 173 - 174 .

(6) Fulcher of Chartres , Op. Cit., P. 172 .

(7) Anonymus , Gesta Firncarum Ex Qujnantius Iherusalem ed. , R. H. C., P. 535 . Cf. Als. Grousset , R., Op. Cit., Vol. I , P. 526 .

الجليل من الوصول إلى أرسوف والإبحار إلى يافا وحينما شاهدوا الحصار الفاطمي على الشواطئ تركوا السفن سابحين إلى بر المدينة^(١) ، أما رجال الخليل ومن معهم من باقي أرجاء المملكة فقد أسرعوا إلى أرسوف بعد يومين فقط من استدعائها، فانضمت إلى جيش الملك الذي خرج من يافا في السابع والعشرين من مايو/ السادس من شعبان من نفس العام للزحف على الفاطميين. وعلى بُعد خمسة كيلومترات تقريباً من يافا دارت معركة ضارية ومع بدايتها إنتصر الفرنج وتقهقر الفاطميون تجاه عسقلان. وقد استولى الصليبيون على غنائم ضخمة خلفها الفاطميون وراءهم. وما لبث أن عاد رجال الخليل في رفقة الملك بلدوين إلى مواطنهم^(٢).

جاء تدخل قوات الخليل وفرسانها متأخراً ولكن في الوقت المناسب بعد أن وصل إليها طلب النجدة من الملك المحاصر في يافا؛ ونظراً لإمكانات الخليل البشرية المحدودة من الفرنج فلا يمكن الزعم بأن لها الفضل وحدها في دعم الملك بإنقاذه من القتل أو الأسر وفي كسر الحصار وتوجيه ضربته الحاسمة للفاطميين، وإنما كانت قوات المملكة في الداخل قد لعبت دوراً مؤثراً في قلب الموازين العسكرية بتحويل نصر الفاطميين إلى هزيمة، وربما كان تأثيرها في غاية من الأهمية لعنصرين أساسيين هما: عنصر الوقت الذي كان حساساً إلى حد بعيد، حيث عانت قوات الملك من القتل والمطاردة والحصار والوهن لمدة عشرة أيام تقريباً ومن ثم كانت تحتاج لمن يعوض ما وقع من خسائر ويدعم الموقف العسكري العصيب. ويتمثل العنصر الثاني في أنه بمجرد وصول الإمدادات، بُعث الأمل من جديد لدى الصليبيين، حيث ارتفعت الروح المعنوية مما جعل الملك الصليبي يغير إستراتيجيته من الدفاع إلى الهجوم، الأمر الذي لا بد أنه ترك في المقابل اليأس في قلوب الفاطميين. وبذلك أصبح لدى الملك ما يكفي للصمود والقتال، وهذا أدى به في النهاية إلى حسم نتيجة المعركة لصالح الفرنج.

أما عن الموقف الصليبي الأمني والموقف العسكري الداخلي في الخليل ذاتها في تلك الآونة وبالتحديد خلال عامي (١١٠٢ - ١١٠٣ م/ ٤٩٤ - ٤٩٦ هـ) أثناء زيارة الرحالة الصليبي سايلوف للمدينة وما جاورها من بلاد فقد ذكر أن العرب كانوا يكمنون في كهوف الجبال وذلك من أجل مراقبة الطرق نهاراً و ليلاً انتظاراً لاغتنام الفرصة المناسبة لمهاجمة مجموعات الصليبيين قليلة العدد الذين لا تتوافر لديهم حماية كافية. ويضيف الرحالة الصليبي أن هؤلاء العرب سرعان ما يظهرون ويتشرون في كل مكان ثم يختفون من فورهم، ويؤكد على أن من يمر بالطرق المؤدية إلى القدس

(1) Fulcher of Chartres , Op. Cit., P. 172 .

(2) Fulcher of Chartres , Loc. Cit.; Albert d'Aix , Op. Cit., P. 596, Cf. Als. Hagenmeyer , H., Op. Cit., PP. 175 - 181 .

ولمعرفة المزيد عن أحداث المعركة راجع أيضاً : أسامة زكي زيد : حملات الرملة الثلاثة ، ص ٥٩ - ٦٢

يمكنه رؤية جثث القتلى ملقاة على جانبيها تنهشها الوحوش الضارية . وكان من الصعب على الصليبيين دفن قتلاهم إذ كان خطر مهاجمة المسلمين لهم يحول دون إتمام هذا الأمر . ويردف سايولف وصفه بالقول : أن الخطر كان يحرق بسالكى الطريق ليس فقط الفقير والضعيف بل أيضاً الثرى والقوى إذ كان الكثير منهم يقتل بأيدي العرب^(١) .

وهذا الوصف الجيد من قبل الرحالة الصليبي يفيد فى إدراك حجم المقاومة الإسلامية ضد الصليبيين خلال تلك المرحلة المبكرة من وجودهم فى فلسطين^(٢) . وفى الحقيقة فإن عناصر المقاومة هذه لا بد أن تكون من البدو، كما ينم الوصف المذكور على أن عنف المقاومة الإسلامية كان يأخذ شكل حرب العصابات ضد الصليبيين القادمين من الغرب الأوربي إذ اعتمدت - كما هو واضح من الوصف - على أسلوب الكر والفر والمباغتة والعودة بسرعة إلى المخابئ فى الجبال . كذلك يمكن تفسير الإشارة بأن العرب يقتلون الفقراء والأغنياء ، بأنها تدل دلالة واضحة على أن قاتليهم لم يهدفوا إلى سلب أموالهم وأمتعتهم ولكن رغبة فى الجهاد والمقاومة الموجهة ضد الدخلاء ، فإذا ما كان هدف هؤلاء العرب هو السلب والنهب فما الداعى إذن من استهدافهم قتل فقراء الصليبيين ؟

ووسط خطر البدو الذى يحيط بالخليل ظهر من جديد تهديد خارجى آخر، إذ أرسل الوزير الأفضل حملة ضخمة أخرى بغرض استعادة فلسطين والقدس فى أغسطس ١١٠٥م/ ذو الحجة ٤٩٨ هـ. تضم خمسة آلاف بين فارس وراجل تحت قيادة ابنه سناء الملك ، وكان البدو أهم عنصر فى تشكيل الجيش الفاطمى الزاحف^(٣) . وفى هذه المرة اتخذ الخطر شكلاً جديداً إذ إنحازت قوات دمشق المؤلفة من ألف وثلاثمائة فارس تحت قيادة الأمير إصفهز صباووه التركى، وهكذا تكون جيش إسلامى قوى اجتمع فى الوادى القريب من عسقلان . والجدير بالذكر أن الجيش الدمشقى قد اجتاز أرض شرقى الأردن فى طريقه إلى أرض المعركة^(٤) .

(1) Saeulf , Op. Cit., PP. 11 - 12 .

(٢) محمد مؤنس عوض : الرحالة الأوروبيون ، ص ٤٤ - ٤٥ .

(٣) ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٤١ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٣٩٤ ؛ المقرئى : اعطاء الحنفاء ، ج ٣ ، ص ٣٥ .

Fulcher of Chartres , Op. Cit., P. 182 , Albert d' Aix , Op. Cit., P. 621 .

(٤) ابن القلانسى : تاريخ دمشق، ص ٢٤٠ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٤٥٥ ؛ المقرئى : اعطاء الحنفاء ، ج ٣ ، ص ٣٥ ؛ راجع أيضا :

Runciman , S., Op. Cit., Vol. II , PP. 89 - 90 .

وهنا تتضح ملامح أحد جوانب الدور العسكري الصليبي الذي قام به هيودى سانت أبراهام الأول الذي كان يحكم الخليل في هذه الآونة ، إذ كان الطريق الطبيعي الذي كان على الدماشقة أن يسلكوه في طريقهم إلى عسقلان عبر وادي الحسى وبعد الالتفاف حول البحر الميت إلى صغر ومنها مرت القوات بقريتي الكرمل والسموع الخاضعتين لسلطة حاكم الخليل . ومن ثم فلا بد أن يكون هيودى قد تولى مهام رصد تحركات الدماشقة من موقع إقطاعيته الخطير ويبلغ بها الملك «بلدوين» الأول كى يتخذ الإجراءات اللازمة لإعداد جيشه للمعركة الوشيكة .

هكذا قدم حاكم الخليل معلومات قيمة للملك بلدوين أتاحت له الفرصة فى التعرف على بعض جوانب خطط الجيش الإسلامى ، فقام بوضع الخطة المناسبة لمواجهتهم انطلاقاً من يافا وراح يدبر أمره ويجمع قواته ، وكان من أبرز القادة الذين استعان بهم من رجال مملكته - وفقاً لرواية ألبرت ديكس جودفرى سيدبرج داود ، وهيودى سانت أبراهام سيد الخليل ، كما كان فى صحبة الملك الفارس الموثوق فيه «جوتيه المحمدى» ذى الخبرة الكبيرة فى شئون الحرب^(١) . وفضلاً عن ذلك أرسل الملك يطلب من بطريك بيت المقدس إفرمار دى شوكنس - *Efremar de Chocques* (١١٠٢ - ١١٠٨ م / ٤٩٥ - ٥٠٢ هـ) أن يُحث الأهالى على حمل السلاح والتوجه إلى ميدان المعركة . وسرعان ما تقدم عدد من المتطوعين جاءوا من كل مكان للانضمام إلى المعسكر الصليبي ، وبعد أن أتم الملك بلدوين ترتيب جيشه توجه نحو عسقلان فى نفس الوقت الذى كان فيه الجيش الإسلامى قد تحرك من عسقلان تجاه يافا فالتقى الجيشان عند الرملة^(٢) .

وتتبعاً لدور هيودى سانت أبراهام الأول فى المعركة ، قام الملك الصليبي بتقسيم جيشه إلى خمسة فرق على رأس كل منها حاملو الأبواق والرايات استعداداً للقتال الذى نشب فى السابع والعشرين من أغسطس ١١٠٥ م . / الرابع والعشرين من ذى الحجة ٤٩٨ هـ^(٣) . ولما كان هيودى حاكم الخليل من أبرز قادة الملك فمن الأرجح أنه قام بإسناد قيادة إحدى هذه الفرق إليه ، وعند بزوغ فجر هذا اليوم بادر الصليبيون بالهجوم على معسكر المسلمين ، وكاد الدماشقة أن ينجحوا فى تحطيم صفوف الفرنج بفضل ما اشتهروا به من السرعة الفائقة والمهارة التامة فى تصويب سهامهم نحو الأهداف ، ولكن الملك الصليبي تمكن من أن يقود فرقته العسكرية فى هجوم قوى استطاع بعده تشتيت جيش المسلمين المتحالفين رغم ما أظهروه من بسالة فى القتال ، ولم يأت المساء حتى حلت الهزيمة بالمسلمين وتفرقوا فعاد كل من الفاطميين والدماشقة إلى

(1) Albert d'Aix , Op. Cit., P. 621 .

(2) Fulcher of Chartres , Op. Cit., PP. 183 - 184 .

(3) Albert d'Aix , Op. Cit., P. 622 .

بلادهم^(١). وقد حاولت بعض القوات المصرية الصمود ومواصلة القتال وعلى رأسهم حاكم عسقلان جمال الملك ولكنه ما لبث أن استشهد^(٢)، وبذلك انتهت المعركة لصالح الجيش الصليبي بعد خسارة فادحة في الأرواح، ومما يؤكد ذلك عدم مقدرتهم في مطاردة المسلمين. وقد ترتب على معركة الرملة الثالثة أن فشل الفاطميون في استرداد القدس وفلسطين، إلا أنهم ظلوا يشكلون خطراً أساسياً على الكيان الصليبي في المملكة^(٣).

وفي نقص لدور الخليل العسكري في أحداث المعركة، نجد أنه بالإضافة إلى ما قامت به حامية قلعة المدينة من رصد لتحركات الدماشقة، فقد كان تشكيل الجيش الصليبي في المعركة ذاتها يوضح انخراط عدد من القادة الذين ارتبط اسمهم بالخليل وحكمها؛ ففيما يخص جودفرى سيدبرج داود الذي حمل لقب «سيد الخليل» - وفق ما تم عرضه في الدراسة سلفاً - فمن الصعب القبول بما أورده ألبرت ديكس بشأن اشتراكه في أحداث تلك المعركة؛ نظراً لأنه كان قد سقط أسيراً في أيدي المسلمين قبل عام تقريباً من تلك الأحداث. أما عن هيو دي سانت أبراهام فقد تولى قيادة مفرزة فرسان الخليل مكونين إحدى الفرق الخمسة في المعركة. وكذلك فيما يتعلق بجوتيي الحمدي فكان من الطبيعي أن يحرض الملك على استقطابه لكونه تركيا مرتداً لما لديه من خبرة بفنون الحرب والقتال اشتهر بها وزملاؤه الأتراك. والواضح أن الملك قد أصاب في ضم هذا الرجل إلى معسكره إذ أفاد من درايته بأمور المسلمين حين تمكن من التغلب على أسباب القوة لدى جيش الدماشقة وكفاءتهم العالية في استخدام السهام والسرعة الفائقة في الحركة^(٤)؛ إدراكاً منه للقول المأثور «لا يقل الحديد إلا الحديد» وأخيراً فقد شارك الأهالي من الفرنج ورجال الدين في الخليل البطريك أفرمار زحفه إلى أرض المعركة.

وهناك بعض الحقائق ذات العلاقة بالأوضاع العسكرية في الخليل وما حولها يمكن استخلاصها في هذا الموقف، أولها: أنه عادة ما تشترك قوات الخليل في الدفاع عن أي من أجزاء مملكة بيت المقدس الجنوبية بحكم قربها الجغرافي وسرعة التحرك عسكرياً.

(1) Fulcher of Chartres, Op. Cit., PP. 185 - 186; Albert d'Aix, Loc. cit. .

(2) Fulcher of Chartres, Op. Cit., P. 186 .

ابن ميسر: أخبار مصر، ج ٢، ص ٤١ - ٤٢؛ المقرئ: انعاظ الخفا، ج ٣، ص ٣٥؛ الحريري: الاعلام والتبيين، ص ١٦ - ١٧. يلاحظ أن المصادر الإسلامية أجمعت على أن القتال انتهى بلا هزيمة، وقد يرجع ذلك إلى تقلب أطوار المعركة.

(3) Grousset, Op. Cit., Vol. I, P. 245, Cf. Also, Runciman, S., Op. Cit., Vol. II, P. 90.

(٤) عن التكتيك العسكري للمسلمين. انظر:

Smail, R. C., Crusading Warfare, (1097 - 1193), Cambridge, 1956, PP. 76 - 78 .

وانظر أيضاً: عبد الرؤوف عوف: الفن الحربي في صدر الإسلام، القاهرة ١٩٦١م، ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

وثانيها : أنه رغم إخفاق التحالف الفاطمي الدمشقي في إستعادة الأراضي السلبيية إلا أن اعتقاده مثل ظاهرة خطيرة على إقطاعية الخليل وأراضى الصليبيين المجاورة لها في المرحلة التالية . أما ثالثها فيتمثل في : بروز قوة البدو لتشكيل دعامة هامة في تكوين الجيش الفاطمي ، ولعل الدافع وراء انخراطهم في الأعمال الحربية ضد الفرنج - كما لاحظنا في الحملات السابقة - يرجع إلى تصرفات الفرنج أنفسهم حينما هددوا بغزوهم مصدر رزق هؤلاء البدو الكامن في الزراعة والرعى فلجشوا إلى الانضمام إلى الجيش الفاطمي مقابل راتب معين ، كما يرجع لرغبتهم في التخلص من المعتدى الذي أرق عليهم حياتهم ، وفي المقابل وجد الفاطميون في البدو عنصراً مهماً في المعارك لدرايتهم الكبيرة بطبيعة المكان وعلاقتهم المستمرة بإخوانهم من العشائر البدوية التي لانزال تزح تحت نير الغزاة الصليبيين . وأخيراً يرى الباحث أن استمرار المعارك الحربية بهذا الشكل الذي يكاد أن يكون بمعدل سنوى بين حامية عسقلان والفاطمين من ناحية والصليبيين المواجهين لهم في إقطاعية الخليل من ناحية أخرى لابد أن يترك أثره على الواقع السكاني في منطقة الصدام العسكري بالشكل الذي جعل منها منطقة شبه خاوية من السكان .

وتفيد المصادر أن الخليل ظلت مهددة عسكرياً من قبل القوات الفاطمية بصفتها الأرض المواجهة لعسقلان في الطريق إلى القدس إذ أقدم الوزير الأفضل على محاولة أخرى للسيل من بيت المقدس ، وينفرد المؤرخ الصليبي ألبرت ديكس بأنه في أكتوبر ١١٠٦م/ صفر ٥٠٠ هـ. خرجت بضعة آلاف من فرسان مصر من عسقلان وهاجموا معسكراً صليبياً بين يافا وأرسوف وقتلوا كل من به ، كما هاجموا الرملة وما لبثت تلك القوة أن وجهت غزوها نحو بيت المقدس ، فهاجموا على الطريق قلعة لم يكتمل بناؤها بعد ، عرفت بقلعة الملك (مسجد اليابا) وكان الملك بلدوين في تلك الآونة مشغولاً بترتيب الأوضاع في إمارة الخليل في الشمال ، وفور سماع تلك الأنباء أسرع للتصدي للفرسان المصريين وتمكن من ردهم إلى عسقلان^(١). وقد حقق هذا الجيش الإسلامي في تلك الغارة ما لم تحفقه القوات الفاطمية في حملات الرملة الثلاث السابقة^(٢). ومن الطبيعي أن تتعرض الأطراف الغربية من إقطاعية الخليل لضربات الفاطمين لشدة قربها . ومن الجدير بالذكر أن مؤرخ تلك الغارة الفاطمية ألبرت ديكس لم يظهر أى دور لروجر سيد حيفا الذى كان يتولى في تلك الأثناء حماية الخليل مما يدفع إلى الاعتقاد بأنه كان يقيم في إقطاعيته حيفا خلال تلك الأحداث ، أما فرسانه في الخليل فقد اكتفوا بالتأهب والاستعداد لدفع الخطر الإسلامى في حالة وقوعه على الخليل أو قلعتها وهم في الطريق إلى الإغارة على القدس .

(1) Albert d'Aix , Op. Cit., PP. 635 - 638 .

(2) Runciman , S., Op. Cit., Vol II , P. 96 .

ومما يثير الانتباه هنا أنه على الرغم من هزائم الفاطميين العسكرية، وعدم إحراز أى نتائج أساسية من دخولهم فى معارك عدة ضد الصليبيين كان أهمها معارك الرملة الثلاث إلا أن المقاومة الإسلامية فى المرحلة التالية اتخذت شكلاً آخر حيث واصل أهالى الخليل من المسلمين جهادهم ضد الوجود الصليبي، وفى هذا الصدد يذكر دانيال الروسى الذى قام بزيارته للخليل (فيما بين عامى ١١٠٦ - ١١٠٧ م / ٤٩٩ - ٥٠٠ هـ) أنه تمكن من زيارة المنطقة الصحراوية الواقعة قرب البحر الميت بالقرب من أحد الجداول المنحدرة جنوبى بيت لحم، وهو بذلك يقصد بركة الخليل، ولكنه لم يتمكن من الإستمرار فى رحلته إلى صغر لتخوفه من اعتداءات المسلمين أو التعرض لأى مكروه، وذلك بعد أن حذره أحد المسيحيين السريان من المواصلة، فاضطر للعودة إلى الخليل ومنها توجه الرحالة الصليبي إلى بيت لحم فالقدس فى حماية مجموعة من المسلحين الفرنج الذين تمكنوا من اجتياز الطريق بدون التعرض لاعتداء المسلمين^(١). ولحسن الحظ كشفت لنا المصادر الإسلامية عن هوية الأهالى من المسلمين وذكرتهم بأنهم بنو ثعلبة وبنو جرم الذين يعدون من قبيلة بنى طيئ العربية، وجرم هذه غير جرم قضاعة الذين يتزلون «ببلاد غزة والداروم»^(٢). ورواية دانيال السابقة توضح أن حركة الجهاد الإسلامى ظلت مستمرة من قبل بعض العشائر المسلمة فى «بلاد الخليل»، وأن قضية الأمن الصليبي ظلت مهتزة مدة طويلة نسبياً بعد الغزو الفرنجى حتى بلغت زهاء العقد من الزمن .

إن قضية مقاومة مسلمى الخليل المتمثلين فى البدو بشكل أساسى للوجود الفرنجى ينهنا إلى بعد اقتصادى له أهميته ، وما يخصنا هنا ما يتعلق بالنشاط التجارى لهؤلاء البدو، والدور الذى غدا على الخليل أن تقوم به فى هذا الشأن. ومن الطريف أن يقدم لنا مؤرخان. أحدهما صليبي كان يقيم بعيداً عن الأحداث ولكنه معاصر لها، وآخر مسلم متأخر نسبياً من حيث الزمان ولكنه دقيق فيما ذكره من معلومات لها مغزاها ؛ إذ يشير ألبرت ديكس بوضوح إلى أن القوافل الإسلامية كانت تضطر إلى تجنب الطرق القديمة التى اعتادتها قبل مجيء الفرنج بالاتجاه نحو الجنوب ثم الصعود مرة أخرى من ناحية غور الأردن . وكانت غارات الفرنج تسبب إزعاجاً شديداً لتلك القوافل حتى أثناء اجتيازها الطرق الجديدة^(٣). أما المقرئى فيقول: «ولم يكن الدرب الذى يسلك فى وقتنا [فى القرن الخامس عشر الميلادى / التاسع الهجرى] من القاهرة إلى العريش فى الرمل يعرف فى القديم [المقصود به الطريق الساحلى] وإنما عرف بعد خراب تيس والفرما وإزاحة الفرنج عن بلاد

(1) Daniel The Russian , Op. Cit., PP. 44 - 48 .

(٢) العمرى : قبائل العرب ، ص ١٠٦ ؛ المقرئى : البيان والإعراب ، ص ٣ - ٤ .

(3) Albert d'Aix , Op. Cit., P. 648 .

الساحل بعد تملكهم له مدة من السنين، ويفصل المؤرخ ذلك بقوله : « لما خرج الفرنج من بحر القسطنطينية فى سنة تسعين وأربعمائة لأخذ البلاد من أيدي المسلمين... بطل السفر حيثئذ من مصر إلى الشام وصار يسلك عن طريق البر مع العرب مخافة الفرنج » (١) .

وبالنسبة للخليل فتبين هاتان الإشارتان بعض الجوانب الهامة الخاصة بها ، أولاها: أن طرق القوافل الاسلامية أصبحت تعرج بشكل أساسى ودائم على الطريق الذى تشرف عليه قرى الخليل . وثانيها: أن البدو الذين يشكلون أكثرية سكانية فى بلاد الخليل قد برزوا بشكل أنشط فى مجال التجارة ، فبعد أن كان الطريق الداخلى الذى يتحكمون فيه أحد الطرق البديلة ، غدا بعد الغزو الصليبي يمثل الطريق البرى الرئيسى الوحيد بين الشام ومصر طالما أراد المسلمون عدم التعاون مع الصليبيين فى هذا المضمار ، وهذا الأمر أدى بالضرورة إلى ازدياد ثروات البدو وعلو شأنهم وظهورهم كقوة سياسية يعمل حسابها غير أن ذلك كان سلاحاً ذا حدين ، حيث أصبحوا هدفاً للفرنج فى جولاتهم التالية من الغزو .

والأحداث التالية تتناول رد الفعل الصليبي من أجل القضاء على الخطر الواضح لبدو «الخليل» وامتداده خارجها، إذ كان من الضروري الإقدام على عمل لتأمين صليبي الخليل وجنوبى مملكة بيت المقدس ، ولذلك وجه الملك بلدوين الأول اهتمامه إلى توسيع ممتلكاته فى جهة الشرق من الخليل لمنع غارات البدو وتسليمهم عن طريق النقب، فكان لابد من السيطرة على الإقليم الواقع بين البحر الميت وخليج العقبة حيث وادى عربة (٢) . ويشير ابن القلانسي إلى أن البدو فى تلك المنطقة أرسلوا إلى طغتكين أتابك دمشق يطلبون منه الحماية، فأرسل إليهم جيشاً قدره المؤرخ الصليبي ألبرت ديكس بثلاثة آلاف من الفرسان، وحين وصلت هذه القوة إلى منطقة وادى موسى شرعت فى تشييد قلعة تطل على الوادى (٣) وما من شك فى أن رغبة الفرنج فى احتكار طرق التجارة لصالحهم ورغبة الدماشقة فى تأمين قوافلهم والحجاج بالتعاون مع البدو كانتا وراء كل تلك التحركات العسكرية ، كما كان شروع الدماشقة فى تأسيس قلعة وادى موسى يهدف إلى إيجاد قاعدة عسكرية متقدمة لحماية الطريق وتوجيه الغزو إلى الخليل وغيرها من ممتلكات المملكة الصليبية للضغط عسكرياً عليها إذا لزم الأمر .

(١) المقرئى : الخطط، ج ١ ، ص ٢٠٠ .

(2) Mayer, H. E., The Crusader Lordship of Kerak and Shaubak , P. 199 .

(٣) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٣٩٥ . راجع أيضا :

Albert d'Aix , Op. Cit., P. 645 .

تقع قلعة «وادى موسى» على تل شديد الانحدار ، يعرف حالياً باسم تل وعيرة على أطراف البتراء ، حيث تطل خرائب استحكامات الصليبيين التى تغطى مساحة كبيرة على وادى موسى وفى هذه الجهة أيضاً ، خرائب حصن صغير يرجع إلى العصور الوسطى ، كان قد شيد على تل فى جوف البتراء .
انظر :

Grousset , R., Histoire de Croisades , Vol. I, PP. 250 , 679 , Vol. 2 , PP. 854 - 855 .

ساهمت إقطاعية الخليل بدور عسكري مؤثر ضد الدماشقة في هذا الموقف وينفرد ألبرت ديكس من بين المؤرخين الصليبيين بذكر تفاصيل ما حدث في المعسكر الصليبي في هذه المرحلة ، إذ حدد تاريخ الأحداث بشهر مارس عام ١١٠٧م^(١) / رجب ٥٠١هـ. ويروى المؤرخ أن الملك بلدوين قام بجمع قاداته سادة المدن القريبة من بيت المقدس ، فتمكن من حشد خمسمائة من الجند ، وتولى الملك القيادة ، فاجتاز بجيشه وادئى سادوم وعامورة (وهما جدولان يشقان بركة الخليل) ثم واصل طريقه عبر تلال الخليل الوعرة فالتقى ببعض الأهالي على مقربة من البحر الميت وكانوا من طائفة السريان . وهنا يشير المؤرخ الصليبي إلى أن جيش المملكة قد لقي حفاوة وترحيباً شديداً من هؤلاء السكان ، وأنهم لم يكتفوا بذلك بل بادر أحد رهبانهم ويدعى تيودور Theodor بتقديم العون للصليبيين ، وكان الدور الذي لعبه يشمل أمر القيام بمهمة الدليل بوصفه خبيراً بتضاريس المناطق المجاورة لبلاده ، وكذلك استخدام الحيلة مع المسلمين . ويستطرد المؤرخ مستعرضاً تلك الحيلة ذاكراً : أن الراهب دخل معسكر الأتراك وقص عليهم الأحداث بطريقة عكسية قائلاً: «إن الملك بلدوين قد خرج من بيت المقدس يقود جيشاً جراراً، وقد دمر قرانا المتواضعة، وهكذا تشتتنا وكنت أنا الوحيد الذى أصل إليكم بعد أن فررت بصعوبة حتى أخبركم بالأنا تتظروا مواجهة جيوشه، حيث إنها تفوقكم عدداً بمراحل، وأنها على وشك الوصول». . وحينئذٍ بادر المسلمون بالفرار فى جنح الظلام^(٢) .

وقد شملت رواية ألبرت معلومات أخرى على جانب كبير من الأهمية ، فهو يتحدث عن دور العرب فى أحداث هذه الحملة ، وفيها يميز دورين متضادين لهذه القبائل ، وفيما يتعلق بالطائفة الأولى من العرب فيشير المؤرخ إلى أنهم انضموا إلى الملك أثناء وجوده فى المنطقة الواقعة جنوبى البحر الميت - حيث غور الصافى ووادى عربة - وأنهم حرضوه على مهاجمة قلعة الدماشقة فى وادى موسى ونصحوه بأن هذا سوف يدعم موقف الصليبيين العسكرى ، الأمر الذى سوف يعمل على تقوية موقف الملك فى أى مفاوضات مع المسلمين فى منطقة شرقى الأردن كى يسمحوا بانتقال السريان من بين ظهرانيهم إلى مملكة بيت المقدس^(٣) . أما الطائفة الثانية من العرب فتشير المصادر الاسلامية إلى أنهم قبيلة بنى جزام التى تضم عشائر عديدة وهم يسكنون

(١) حدد ألبرت ديكس تاريخ تلك الأحداث بأنه بعد أسبوع من يوم أربعاء الرماد الموافق الثامن والعشرين من فبراير ١١٠٧م / رجب ٥٠٠هـ . راجع :

Albert d'Aix , Op. Cit., P. 644 , Cf. Also Stevenson , W, P. 49 - No. 3 .

(2) Albert d'Aix , Op. Cit., PP. 644 - 645 .

(٣) لمعرفة المزيد عن مشروع بلدوين الأول لتوطين السريان واليعاقبة فى المملكة . راجع :

Grousset, R., Op. Cit., Vol. I, PP. 250 - 252 .

مناطق شرقي الأردن حتى شرقي مصر^(١). ويذكر البرت ديكس أنهم هم الذين استدعوا الأتراك الدماشقة للقدوم ، وإقامة قلعة وادى موسى وقدموا لهم كل المساعدات اللازمة لتشييد القلعة ، غير أنه حينما فر الدماشقة تاركين القلعة لم يجد هؤلاء العرب بدأ فاختبئوا في كهوف الجبال المجاورة ، وحاول الملك القضاء عليهم باستخدام الدخان وتمكن أخيراً من قتل البعض وأسر ستمائة منهم وغنم كل ما لديهم ، وجمع كل العناصر السريانية في المنطقة وعاد متصراً إلى بيت المقدس بعد حملة استغرقت ثمانية أيام مجتازاً غور الأردن عند شمال البحر الميت^(٢) .

وإذا ما حاولنا تتبع ما ورد في رواية البرت هذه ، فنجد أنها قد اشتملت على عديد من المعلومات المتعلقة بالمتغيرات الإستراتيجية حول بلاد الخليل ، ودورها العسكرى ، فالحملة استغرقت فترة قصيرة لا تسمح بتثبيت الوجود الصليبي بمنطقة شرقي الأردن ، غير أنها نجحت في نقل المسيحيين السريان منها ، فضلاً عن أنها وجهت ضربة لتحالف بدو شرقي الأردن مع الدماشقة الذين أخفقوا في حمايتهم والدفاع عن المنطقة . وإضافة لذلك تم تحقيق قدر من الأمن لإقطاعية الخليل الصليبية بالقضاء على خطر المسلمين في قلعة وادى موسى القرية جغرافياً منها هذا ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى كشفت رواية المؤرخ الصليبي لأول مرة عن حقيقة انقسام البدو إلى فريقين : الأول وهم البدو الذين دانوا للملك الصليبي بالولاء ، ودليل ذلك ما قدموه من مساعدات وما أسدوه من نصح إليه لعلمهم بمكنونات إخوانهم البدو في الجانب المقابل ، وتؤكد لنا المصادر الإسلامية ، ذلك حينما أشارت إلى بنى جرم وهم فرع من بنى ثعلبة الطائيين «بأنهم كانوا يبدأ مع الإفرنج لما تغلبوا على البلاد»^(٣). ولما كان هؤلاء البدو قد انضموا إلى العسكر الصليبي لسكنائهم داخل حدود إقطاعية الخليل حيث الجنوب والشرق ، فهذا يبرر عنصراً جديداً من عناصر القوة لصالح الإقطاعية الصليبية تميزت به بشكل أوضح عن باقى إقطاعيات مملكة بيت المقدس ؛ نظراً لارتفاع أعداد البدو بها . أما الفريق الثانى من البدو فهم الذين دانوا لدمشق سواء كان بالتبعية أو التحالف ، وهذا بدوره يعتمد على مدى قوة الحاكم الدمشقي ومدى تأثيره عليهم . وأياً ما كان الأمر فالثابت أن الوجود الصليبي في المنطقة قد أدى إلى انقسام البدو على أنفسهم بعد ما كانت لهم قوتهم التي دوخت دولة الفاطميين منذ عدة عقود خلت إبان قيام الدولة الطائية ، حيث حرص كل من الصليبيين والدماشقة على التنافس في إخضاع أكبر عدد من عشائر البدو وضمهم إلى معسكره مما أدى في النهاية إلى تشتت انتمائاتهم وعدم ظهورهم قوة سياسية موحدة .

(١) المقریزی : البيان والإعراب ، ص ١٨ .

(2) Albert d'Aix , Op. Cit., PP. 644 - 645 .

(٣) العمري : القبائل العربية ، ص ١٠٧ ، المقریزی : البيان والإعراب ، ص ٤ .

ولاشك أن أمن إقطاعية الخليل الصليبية قد تأثر بالتغيرات التي أحدثتها الحملة ضد «وادي موسى»، إذ نجح الصليبيون في التمهيد للتحكم في المواقع التي تمكنهم من الدفاع عن الأودية الواقعة جنوب الخليل التي يسهل للمسلمين النفاذ منها، أما الجهات التي ثبت الصليبيون أقدامهم فيها حيث شرقي وجنوبي الخليل، فقد أتاحت أمامهم الإشراف على كل من وادي عربة الذي يشق طريقه بعمق حتى رأس خليج العقبة - بامتداد مائة وثمانين كيلومتراً - وشبه جزيرة سيناء التي تعد امتداداً لصحراء النقب واللّتين عرفتا معاً باسم البرية الكبرى (La grande Berrie) ^(١). وصفوة القول أن أهمية الحملة تكمن في أنها كشفت بشكل واضح عن المعالم العسكرية للجهات المحيطة بالخليل إلى أن يأتي الوقت المناسب لإحداث توسعات صليبية فيها .

ترتب على إخضاع بدو الخليل واهتمام الملك بلدوين الأول بتأمين حدود الإقطاعية وتشديد قبضة الصليبيين عليها أن أصبح الاتصال بين مصر والشام مهدداً إلى حد بعيد حيث تحكمت الإقطاعية في طرق القوافل الممتدة بينها، ويذكر ألبرت ديكس رواية تؤكد ذلك، ففي بدء فترة حكم جوتيه المحمدي للخليل وفي يونيو ١١٠٧م ^(٢) / ذى القعدة ٥٠١ هـ. قام الملك وهو على رأس ستين فارساً بمباغطة قافلة مصرية أثناء تحركها عند غور الصافي قاصدة دمشق، واستولى منها على غنائم عظيمة فكانت الحصيلة سبعة عشر جملأً محملة بالزيت وأحد عشر محملة بالسكر وأربعة محملين بسلع أخرى ^(٣). وهكذا اجتمعت الأسباب لإشعال الموقف من جديد بين المسلمين والفرنج وذلك بتنسيق عمل عسكري إسلامي مشترك يضم الفاطميين في عسقلان وأتراك دمشق هدفه الخليل .

ويكشف لنا ألبرت ديكس عن أسباب اختيار المسلمين للخليل هدفاً لتوجيه حملتهم مشيراً إلى الدور الذي تلعبه قلعتها في مراقبة حركة القوافل التجارية بين مصر والشام . وذلك بفضل موقعها الإستراتيجي الذي مكنها من مراقبة كل المناطق الواقعة جنوب البحر الميت، وعليه ذكر المؤرخ أن الغرض من الحملة هو تدمير قلعة الخليل . واستعداداً للمعركة قامت مصر بتقديم أموال لدمشق لإعانتها على تجهيز الجيش مشاركة منها في إتمام الحملة . وبينما أخذ المسلمون في إعداد قواتهم تسربت هذه الأخبار إلى جوتيه المحمدي فرفعها إلى الملك بلدوين الأول في القدس التي مكث فيها أربعة أيام للراحة بعد غارته السابقة على القافلة، فأسرع ليلاً على رأس فرسانه وقضى ليلته في الخليل وعند الفجر قام بمباغطة صفوف الفاطميين المحاصرين للمدينة بأمره ما لديه من

(1) Deschamps, P., Op. Cit. Vol. I, P. 18 .

(2) Grousset, R., Historia des Croisades, Vol. I, P. 251, Cf Als. Edgingtan S. B., ed. Albert d'Aix, Historia Hierosolimitana .

(3) Albert d'Aix, Op. Cit., P. 648 .

فرسان بلغ عددهم السبعين. ونظراً لعدم استكمال الفاطميين استعداداتهم، علاوة على ما أحدثه الجيش الصليبي من ضوضاء وحركة أوهمت الفاطميين بكثرة أعدادهم ولوا هارين^(١).

على هذا النحو تمكن حاكم الخليل جوتيه المحمدى والملك الصليبي من إجهاض أول محاولة جادة من قبل المسلمين تهدف إلى استعادة الخليل، أو القضاء على قلعتهما. ولعل تمكن الملك من تقصى الأخبار والتحرك بهذه السرعة الخاطفة يدل على أن جوتيه المحمدى كان قد نجح فى المهمة التى أنيطت به وهى متابعة وجمع المعلومات الخاصة بتحركات القوى الإسلامية القريبة من الخليل، وخاصة تجاه عسقلان، الأمر الذى سهل مهمة التصدى لهم. والملاحظ أيضاً أن الملك قد استخدم فى هذه المعركة عدد سبعين فارساً أى ما يزيد بعشرة فرسان عن عدد الذين شاركوه فى الغارة التى شنّها على القافلة قبل ذلك بأيام وفى ذلك إشارة إلى أن جوتيه المحمدى قد انضم ضمن تجريدة من فرسان الخليل عددهم عشرة إلى الملك الصليبي فى الأحداث الأخيرة. وهذا أمر طبيعى، إذ لا بد أن يدور جوتيه عن إقطاعيته الخليل، أما ما تبقى لديه من فرسان فكان عليهم البقاء داخل القلعة للدفاع عنها أمام أى محاولة إسلامية للالتفاف.

فى غضون الأعوام التالية صممت المصادر المختلفة عن ذكر أى مساهمة عسكرية للخليل وحاكمها جوتيه المحمدى، إلا أن هناك غارتين للفرسان الفاطميين على جنوبى المملكة الصليبية؛ الأولى فى عام ١١١٠م / ٥٠٤هـ. والثانية فى الفترة الواقعة من الثانى والعشرين من يونية حتى الخامس من سبتمبر عام ١١١٣م / السابع من محرم حتى الحادى والعشرين من ربيع الأول ٥٠٧هـ. ورغم وصول الفاطميين إلى أسوار بيت المقدس فى كلتا الغارتين^(٢)، إلا أنه لم نسمع عن نشوب معركة ما بين فرسان الخليل والمسلمين، ولعل ذلك يرجع فى الغارة الأولى إلى تجنبهم الاقتراب من قلعة الخليل أثناء سلوكهم الطريق إلى بيت المقدس. أما فى الغارة الثانية فيرجع السبب إلى قلة أعداد المغيرين من الفاطميين فضلاً عن انشغال القسم الأعظم من قوات المملكة بما فيهم معظم قوات الخليل بالمعارك الضارية ضد المسلمين فوق أرض الجليل^(٣). وهكذا فمن

(1) Albert d'Aix., Op. Cit., PP. 646 - 647 . Cf. Als. Roehrichet , R., Geschichte des Konigreichs Jerusalem, P. 64 .

(2) Albert d'Aix , Op. Cit., PP. 676 , 693 - 696; Fulcher of Chartres , Op. Cit., PP. 205 - 209 .

(3) Fulcher of Chartres , Op. Cit., PP. 207 - 209 ; Albert d'Aix , Op. Cit., PP. 693 - 695 .

ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٩٤ - ٢٩٨؛ ابن الشحنة: روضة المناظر فى أخبار الأوائل والأواخر، الطبعة الأولى بالمطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠٣هـ، ص ٨٥؛ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣١٩٧ تاريخ، ج ١ ورقة ١٦٥ - ١٦٧ وقد وردت تفاصيل تلك المعارك التى عرفت فى التاريخ الصليبي باسم موقعة الضنبرة فى: على أحمد السيد: إمارة الجليل تحت حكم اللاتين، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، الإسكندرية ١٩٨٨م، ص ٣٠٠ - ٣٣٢.

الطبيعى الا نجد دوراً ذا قيمة لقوات الخليل العسكرية فى هذه المرحلة، إذ إن نشاط الفاطميين اقتصر على مجرد الإغارة فقط ولم يكن هجوماً منظماً ينبغى على الفرنج التصدى له .

هكذا لم يتأثر أمن الخليل بشكل عملى بالفارتين الفاطميتين الاخيرتين غير أن هذا الامر يجب أن يستوقفنا إذ كان من السهل على حكام مصر استعادة بلاد الخليل بل وكثير من الاراضى الجنوبية فى مملكة بيت المقدس الصليبية، وزرع شوكة فى صميم الكيان الفرنجى . أما وقد أحجم واضعو القرار فى القاهرة عن اتخاذ تلك الخطوة فمن المعتقد أن ذلك يرجع إلى أمر من اثنين أو كليهما معاً؛ أنه سوف يكون من الصعب إنفاذ الإمدادات الفاطمية إلى الخليل برّاً، أما وقد نجحوا لفترة طويلة فى الاحتفاظ بعسقلان كقاعدة لهم فهذا يرجع إلى سهولة دعمها بحراً وبرّاً . ويتمثل الأمر الآخر فى أن دمشق كانت فى موقع إستراتيجى أفضل بالنسبة لطرق التجارة عبر شرقى الأردن وجنوبى الخليل مقارنة بمصر^(١)، كذلك نلمس دور دمشق فى تبنيها فكرة تأمين الطرق التجارية بالعمل على الحفاظ على ما بيد المسلمين من أراضٍ إضافة إلى محاولة انتزاع بعض المراكز الصليبية التى يمكن أن تشكل خطراً على تلك الطرق وخاصة الخليل وقلعتها وهذا الأمر يمكن تتبعه والتأكد منه بداية من تحمس ظهير الدين طغتكين أمير دمشق فى الاشتراك إلى جانب المصريين فى معركة الرملة الثالثة وصولاً إلى اشتراكه فى محاولة استرداد الخليل ١١٠٧م / ٥٠١هـ، أما وقد شغل الدماشق بأحداث المعارك فى الخليل فإن الفاطميين فقدوا من يشجعهم فى إتمام عمل عسكري بهذا الشكل الواهن . وعلى ذلك فالباحث يرى أن فكرة استرجاع المسلمين للخليل كان يجب أن يكون مشروعاً دمشقياً بالدرجة الأولى، ومع ذلك كان غياب قيام تنسيق عسكري متكامل وطويل الأمد بين دمشق والقاهرة هو السبب وراء بقاء الخليل فى يد الصليبيين .

وفى المرحلة التالية شهدت أراضى الخليل تحركات عسكرية كثيفة من شتى قوات مملكة بيت المقدس الصليبية، استعداداً للتوجه فى حملة قوية جديدة على منطقة جنوب البحر الميت وشرقى الأردن، وذلك فى ١١١٥م / ٥٠٩هـ^(٢)؛ وتعددت الآراء حول الغرض من الحملة، ومنها أنها استهدفت الانتقام من الفاطميين لما شنوه من هجمات على جنوبى مملكة بيت المقدس^(٣) غير أنه من الأوقع أن تكون قد استهدفت توطيد أقدام الصليبيين فى شرقى البحر الميت^(٤) . وكان فى توجه الملك بلدوين الأول

(١) يشير ابن الأثير إلى أن الطريق الممتد من مصر إلى شرقى الأردن أصعب وأبعد من طريق دمشق، راجع : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥٦٨ .

(2) Albert d'Aix , Op. Cit., P. 702 .

(3) Barker , E., The Crusade , London , 1949 , PP. 53 - 54 .

(4) Runciman , S., Op. Cit., Vol . II , P. 109 .

إلى الخليل ما يعكس رغبته فى اتخاذها مركزاً يحشد فيه قواته ويجلب منه المؤن لجيشه ويتخذ منها قاعدة للانطلاق. وكان «جوتيه المحدى» لا يزال فى حكم الخليل آنذاك؛ لذا كان طبيعياً أن يقدم لجيش الملك كل ما يمكن تقديمه من عون.

وبعد أن استعدت القوات الصليبية المجتمعة فى الخليل أزمعت الخروج فى الخريف/ جمادى أول - شعبان من العام نفسه. وهبطوا تجاه الجنوب للاتفاف حول أراضى الخليل صوب الشرق^(١) واجتار الصليبيون وادى عربية وما لبثوا أن وصلوا إلى منطقة الشوبك التى تكسوها الغابات وتقع على أطراف هضبة شرقى الأردن، وتطل على غور الصافى والطرف الجنوبى للبحر الميت. وفى هذا الموقع الممتاز وفوق التل قام الملك بلدوين بتشيد قلعة ضخمة حصينة من الحجر الأبيض ووضع بها حامية من الفرسان^(٢)، وبهذه الخطوة التوسعية عدت الخليل وطرقها المعبر الطبيعى للصليبيين للوصول إلى الشوبك. وفى العام الثانى شهد ريف الخليل تحركات صليبية جديدة حيث تفقدت بعض الفرق أطراف الإقطاعية لإظهار القوة، وسرعان ما أعيد تشكيلها وتجميعها فوق أرض الخليل لتؤلف جيشاً كبيراً اتجه فى حملة أخرى لتدعيم الغزو الصليبي فى منطقة شرقى الأردن. وواصلت القوات الصليبية طريقها جهة الجنوب فغزوا بلدة آيلة وفيها شيدوا قلعة عرفت باسمها، بل وعبروا خليج العقبة إلى جزيرة فرعون (L'île de Graye) الواقعة على بعد أربعين كيلو متراً منها، وأسسوا فيها قلعة أخرى، ووضع الصليبيون حامية من الفرسان فى كل من هاتين القلعتين^(٣). وفى خاتمة تلك الحملة عاد الصليبيون إلى الخليل ومنها انطلقوا مرة أخرى لمهاجمة وسلب القرى المجاورة التى يقطنها العرب حتى وصلوا الأطراف^(٤).

(1) Albert d'Aix , Op. Cit., P. 702 .

ذكر البرت العام بأنه ١١١٦م لكنه يذكر أن وقت التحرك كان أثناء فصل الخريف .

(2) Fulcher of Chartres , Op. Cit., PP. 209 - 210 ; Albert d'Aix , Op. Cit., PP. 702 - 703 .

المقريزى : المخطط ج ١ ، ص ٢٠٠ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(3) Albert d'Aix , Op. Cit., P. 702 ; William of Tyre , Op. Cit., Vol. I , P. 505 .

قامت قلعة جزيرة فرعون بدور المراقبة من موقعها الممتاز المشرف على ملتقى أراضى مصر والشام والحجاز، وهى عبارة عن كتلة صخرية جرانيتية صلبة ، ثلاثمائة متر طولاً ومائة وخمسين متر عرضاً وذلك فى أوسع حيز لها ، تحتضن الجزيرة ميناء جهة الشرق وتستمد ماءها من ماء المطر الذى يجتمع فى صهاريج ، وقد أقيمت القلعة فى الجزء الشمالى ، مائة وعشرة أمتار طولاً وثلاثين متراً عرضاً. ولمعرفة المزيد عن الجزيرة وقلعتها. راجع: نعم شقير: تاريخ سيناء ، ص ١٦٤ - ١٦٨ ، ص ٢٤٠ - ٢٤٤ راجع أيضاً:

Rey, E. G. Les calanies Franques PP. 155 - 156 , Recherches Geographiques et Historiques sur la Domination des Latins en Orient , Paris 1877 P. 10 ; Benveniste, Op. Cit., PP. 318 - 319 .

(4) Albert d'Aix , Op. Cit., P. 703 ; Fulcher of Chartres , Op. Cit., PP. 218 - 219 .

نستخلص من الأحداث السابقة بعض الحقائق المهمة، وبداية فقد وجدت علاقة إستراتيجية خاصة تربط الخليل بشرقى الأردن، فهذه هي المرة الثالثة التي تتضح فيها تلك العلاقة بهذا الشكل، فحملتا ١١١٥م/ ٥٠٩هـ، ١١١٦م/ ٥١٠هـ تتشابهان مع حملتى ١١٠٠م/ ٤٩٣هـ، ١١٠٧م/ ٥٠١هـ. وذلك فى أن الخليل كانت القاعدة التى انطلق الصليبيون منها إلى ما وراء الأردن. ومن ناحية أخرى صاحبت كل حملة عمليات تمشيطية للبدو الذين يتنقلون بداية من سهول عسقلان وفى جنوبى الخليل وشرقيها وصولاً إلى شرقى الأردن، بحيث ظهرت هذه المناطق وكأنها امتداد طبيعى وسكانى لإقطاعية الخليل الصليبية. غير أن الحملتين الأخيرتين تتميزان بأنهما استهدفتا ليس فقط إظهار القوة، بل إخضاع القبائل البدوية فى شرقى الأردن بإقامة مراكز دائمة للصليبيين فى جوف بلادهم، حيث تم تأسيس إقطاعية صليبية. وبإيجاد تلك الرابطة بين الإقطاعيتين وضع الصليبيون الأسس التى ارتكزوا عليها لتقطيع أوصال العالم الإسلامى، وظلت تلك السياسة ماثلة بنجاح مطرد طيلة العقود التالية من الزمن.

تأثرت إقطاعية الخليل كثيراً بنتائج حملة الصليبيين على شرقى الأردن فبعد إشراف الخليل الجزئى على الطريق الواصل بين مصر ودمشق تأسست إقطاعية صليبية أخرى تكمل دورها فى هذا الأمر. وقد تنبه المؤرخون الصليبيون والمسلمون إلى أن الحافز التجارى كان وراء توسعات الفرنج فى الجهات الجنوبية والشرقية من الخليل حيث هيات للمملكة الاتصال بالبحر الأحمر وما يرتبط به من نشاط بحرى، وساعدت الفرنج فى السيطرة على طرق القوافل بشكل أفضل ولاسيما الطريق الممتد من دمشق إلى مصر والبحر الأحمر وكذلك المسالك المؤدية من مصر للحجاز ودمشق^(١). وبفضل تلك السياسة تم التحكم فى النقل والتجارة فى منطقة الشرق الأدنى^(٢) لكن من الملاحظ أن الفرنج قد نجحوا فقط فى تهديد حركة القوافل الإسلامية النظامية التى تشرف عليها الدول الإسلامية، ويقول ابن الأثير عن ذلك: «انقطعت السبل بالملاحين»^(٣) غير أن الفرنج لم يفلحوا فى إيقاف نشاط البدو فى النقل والتجارة، ولذا فمن الطبيعى أن يتجه الحكام المسلمون إليهم للقيام بتلك المهمة، ومن ثم استمرت التجارة الإسلامية تمر عبر طريق شرقى الأردن وجنوبى الخليل ولكن فى ظروف صعبة، فإذا ما قدر لها أن تنجو من هجمات الفرنج فإنها ما تلبث أن تقع فريسة أطماع البدو وجشعهم إن لم تُوكَل إليهم حمايتها. ومن هنا برز دورهم فحرص الصليبيون باستمرار على التخلص من منافستهم بتوجيه الضربات المتتالية لهم بل والعمل على إخضاعهم.

(1) William of Tyre, Op. Cit., Vol. I, P. 506.

المقريزى: الخطط ج ١، ص ٢٠٠.

(2) Grousset, R., Op. Cit., Vol. I, P. 315.

(3) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١٠، ص ٧٢. راجع أيضاً: الحريرى: الإعلام والتبيين، ص ١٨.

تعمل القسم الجنوبي من إقطاعية الخليل الصليبية إذن عبء الضربات الإسلامية المتكررة، وظلت بيت جبرين طيلة الحقبة الأولى من الوجود الصليبي تعاني من غارات حامية عسقلان الفاطمية بحكم موقعها القريب منها^(١). والواضح أن قيادة مملكة بيت المقدس فكروا في كيفية التصدي لهذه الغارات، وأخذوا يتدارسون الأسباب الناجمة التي يمكن بها إيقاف هذا الخطر، وربما كانت الفكرة التقليدية في مثل هذه الظروف هي أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم. وبناء عليه لم يكتف قادة المملكة بمحاولة إسقاط «عسقلان» بل اتجه تفكيرهم إلى محاولة القضاء على مكنم الخطر في مصر ذاتها.

وفي مارس ١١١٨م/ ذى الحجة ٥١١ هـ استقبل بلدوين دى سانت أبراهام، الملك بلدوين الأول، وبعد أن أمضى الصليبيون ليلة في الخليل يستكملون فيها التزود بالمؤن والاستعداد، خرج جيش صغير بالنسبة للمهمة المزمع القيام بها استأنف زحفه^(٢) على طريق الرمل الساحلى نحو مصر قاصدين «مملكها والتغلب عليها»، حتى بلغوا فرع دمياط إلا أن الملك قرر العودة إلى القدس بسبب مرض شديد ألم به^(٣)، إضافة إلى أن البدو بادروا بمهاجمة الفرنج ومطاردتهم أثناء عودتهم حتى يصل عسكر الفاطميين^(٤). ويذكر ألبرت ديكس أن الملك المريض فضل أن يسلك في طريق عودته نفس الطريق الذى قدم من خلاله مروراً بالخليل وقلعتها على الرغم من وعورته، ويوضح المؤرخ هذا التصرف من قبل الملك بأنه اختار الطريق الذى لم يتوقع المسلمون مرور الصليبيين منه، وأن هذا يبين ما كان يتحلى به الملك من حذر ودراية بالصعوبات التي يمكن أن تواجه جيشه. ومالبت أن توفي الملك بلدوين في الطريق، فشدد الجيش الصليبي الحراسة على النعش سالكين طريق الخليل نحو القدس^(٥)، غير أن البدو وعسكر الفاطميين تبعوهم وواصلوا الغارات على بلادهم وقتلوا وأسروا أعداداً كبيرة منهم^(٦).

(1) William of Tyre , Op. Cit., Vol. II , P. 81 - Cf. Als., Benvenisti , M., Op. Cit., P. 186 .

(2) Albert d'Aix , Op. Cit., P. 705 .

راجع تاريخ الحملة في : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٥٤٣ .

(٣) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٣١٦ ، ابن الأثير : نفسه ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة سنة ١٣٥٣هـ - ١٩٣٥م . ج ٥ ، ص ١٧١ . ويذكر المقرئ أن طريق الرمل يعرف أيضاً بطريق الحفار أو الدرب السلطاني، وأنه يمتد في شمال صحراء سيناء من رفح والعريش حتى ينتهي عند القرما (٣٥ كم شرقى بورسعيد) ، ولم يستعمل هذا الطريق إلا بعد عام ١٠٩٤م . / ٤٨٧هـ . راجع : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٦ .

(٤) المقرئ : اتعاظ الحفا ، ج ٣ ، ص ٥٣ ، وقد أورد المقرئ الأحداث خطأ في عام ٥٠٩ هـ . الموافق ١١١٥ - ١١١٦م .

(5) Albert d'Aix , Op. Cit., PP. 706 - 708 .

(٦) المقرئ : نفسه .

تأثرت الخليل كثيراً بنتائج حملة بلدوين الأول على مصر في خاتمة حياته رغم فشلها ، فلاشك أن هذه الحملة تعد نقطة تحول في الموقف العسكري للخليل إذ تحولت الإقطاعية من موقف المدافع بشكل ميز الفترة السابقة من عمرها الصليبي إلى أن أصبحت قاعدة ينطلق منها الصليبيون للهجوم على مصر ، وهذا يعنى بطبيعة الحال مشاركة الحاكم الصليبي في الخليل وقلعتها جيش المملكة في كل هجوم يخرج من الإقطاعية ، ولعل أحداث تلك الحملة تؤكد ذلك؛ إذ سلك الجيش الصليبي طريق الخليل في رحلتى الذهاب والعودة إلى القدس . كما كشفت أحداث الحملة عن أهمية استخدام طريق الخليل كطريق بديل للطريق الساحلى الذى اعتاد الصليبيون استخدامه كما هو واضح مما ذكره ألبرت ديكس ، وقد أعد طريق الخليل في هذه المرحلة أكثر أماناً من غيره . وأخيراً تشير القرائن إلى أن باجتياز الفرنج طريق الخليل - النقب - سيناء نجحوا في إخضاع أو استقطاب عشائر قبيلة بنى ثعلبة البدوية التى كانت لها السيادة الحقيقية على الطريق أو أنهم أبرموا معهم الاتفاقيات اللازمة لتأمين حركة مرور الصليبيين على الطريق . وبالتالي فلا بد أن هذه الإجراءات قد تركت آثاراً إيجابية على الإقطاعية، ذلك بالحد من الغارات البدوية عليها .

لم يستقر أمن الصليبيين تماماً في الخليل رغم الإجراءات التى اتخذت، ففي يوليو ١١١٩م/ ربيع أول ٥١٣هـ . قامت فرقان من جيوش المسلمين خرجتا من عسقلان الفاطمية وصور التى كان يشرف على حمايتها حينئذ الدماشقة بمهاجمة سبعمئة حاج صليبي وهم في طريقهم من بيت المقدس إلى نهر الأردن، وقتل في الغارة ثلاثمائة كما أسر ستون منهم^(١) . والجدير بالذكر أن هؤلاء الحجاج كانوا يتحركون في عمق المملكة الصليبية وكانت الإغارة عليهم تلزم المهاجمين القادمين من عسقلان المرور بقرى الخليل . وعندما سمع الملك بلدوين الثانى بهذه الأنباء قرر الاستعداد للانتقام، وحينئذ قرر شيوخ البدو دفع مبلغ من المال إليه لامتصاص غضبه فقبلها وتعهد لهم بعدم المساس بهم وبمراعيهم^(٢)، وقد اكتفى بذلك نظراً لمقتضيات الظروف العسكرية فى أنطاكية التى استوعبت اهتمامه بها فى هذه الآونة^(٣) . ورغم أن القوة التى أغارت على الصليبيين ليست قوة البدو ، لكن يمكن أن يفهم أن الملك الصليبي استاء من موقفهم المحايد

(1) Albert d'Aix , Op. Cit., PP. 702 - 703 .

عن أوضاع صور في هذه المرحلة راجع : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٤٨٨ - ٤٩٠ ، ٦٢٠ - ٦٢١ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١٧٣ .

(2) Albert d'Aix , Loc. Cit.

(3) Stevenson , W., Op. Cit., P. 68 .

والجدير بالذكر أن الوضع العسكرى الصليبي فى أنطاكية كان خطيراً بسبب الهزيمة أمام قوات حلب فى معركة ساحة الدم Ager Sanguinis وما أعقبها من أحداث . عن ذلك راجع Runciman , S., Op. Cit., Vol. II , PP. 169 - 175 . =

فشرع فى الانتقام منهم ومن الفرق المهاجمة ، ولذا فمن الأرجح أن هذا الموقف انتهى باتفاق يقضى بتعاون البدو مع السلطات الصليبية فى حماية رعاياها من الحجاج .

هكذا يمكن تقييم الوضع العسكرى حول الخليل خلال العقدين الأولين منذ بداية الغزو الصليبي بأن الهجمات ظلت متواصلة بين المعسكرين الإسلامى والصليبي، وإن كانت هجمات المسلمين أكثر خطورة وقوة، وإنها تفاوتت فى مدى قوة تهديدها للخليل. ومن ذلك يمكن تمييز هجمات المسلمين وتصنيفها فى طورين أساسيين؛ ميز الطور الأول منها ضخامة أعداد المشتركين فى الحملات، وتنظيمها، وأنها استهدفت استرجاع الأراضى المقدسة بما فيها الخليل. أما الطور الثانى من الهجمات الفاطمية فاتسم بالسرعة الحافظة بهدف الإغارة والتدمير وإتلاف المحاصيل وإزعاج الصليبيين من الحجاج والمستوطنين فى منطقة السهل الساحلى وجنوب الخليل، وبصفة عامة فقد اتصفت هذه الغارات بأنها هجمات انتقامية رداً على ما قام به الصليبيون من غارات على الأراضى الإسلامية .

ظلت جبهة الخليل - عسقلان هادئة فى الفترة التالية إذ لم ترصد المصادر أى نشاط عسكرى ذى مغزى، اللهم إلا تلك المعارك التى وقعت عند أطراف إقطاعية الخليل من جهة الغرب فى منتصف مايو ١١٢٣م/ السابع عشر من ربيع الأول ٥١٧هـ، وذلك عندما خرج جيش مصرى كبير من عسقلان قاصداً جنوبى المملكة حتى وصل بينى ويافا^(١)، فبادرت القوات النظامية الصليبية والأهالى من شتى أرجاء المملكة بالخروج لملاقاته . وبدأ الصليبيون الهجوم على المصريين، ومالبت أن برح المصريون ساحة القتال برغم تفوقهم العددي وتركوا معسكرهم نهياً للصليبيين^(٢). وتعكس هذه الهزيمة بين صفوف الجيش المصرى الأوضاع المتردية التى تعانى منها، مصر منذ وفاة الوزير الأفضل فى نوفمبر ١١٢١م/ رمضان ٥١٥هـ^(٣) الذى طالما حرص على تنظيم الحملات ضد

= راجع أيضاً : حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون (١١٧١ - ١٢٦٨م/ ٥٦٧ -

٦٦٦هـ) الإسكندرية ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٨٩م ، ص ١٥٧ - ١٦٢ .

(١) كان الملك بلدوين الثانى قد وقع فى أسر المسلمين من بنى أرتق فى عام ١١٢٣م/ ٥١٧هـ، وحينئذ أسند بارونات المملكة إلى يوستاس جرنيه Eustaces - Garnier سيد صيدا وقيصرية الوصاية على العرش ولكنه مالبت أن توفى بعد بضعة أشهر، فتولى من بعده وليم دى بور أمير الجليل الوصاية. راجع :

Fulcher of Chartres , Op. Cit., P. 246 .

(2) Ibid, Loc. Cit., Cf. Als. Stevenson , W., Op. Cit., P. 114 .

وتتفق المصادر الإسلامية فى عرض معظم هذه الأحداث وما أسفرت عنه . راجع : ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٦٣ - ٦٤ ؛ المقرئى : اتعاظ الخفا ، ج ٣ ، ص ٩٩ .

(٣) ابن ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٥٧ ؛ سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ ؛

الفرنج ، إضافة إلى ما وقع فيها من اضطرابات داخلية وكوارث طبيعية مما أدى في النهاية إلى انشغالها عن الجهاد^(١). وما يهم الخليل من هذه الأحداث أن تحول الصراع في المرحلة التالية بين الصليبيين والفاطميين من جبهة الخليل - عسقلان إلى جبهة صور وما حولها، إذ تؤكد الشعور لدى الفاطميين بعدم قدرتهم على موازنة ودعم مدينة صور التي ماتزال بأيدي المسلمين ، في نفس الوقت الذي حرص فيه الصليبيون على إسقاط هذا الميناء المهم.

وبالرغم من أن المصادر المختلفة لم توضح دور بلدوين دى سانت أبراهام وجهوده في الاستيلاء على مدينة صور ، إلا أنه في الاجتماع الخاص الذي عقده بارونات مملكة بيت المقدس مع البنادقة الذين جاءوا لعرض خدماتهم الحربية على الصليبيين تمت مناقشة محاولة إسقاط أى من المدينتين اللتين ما زالتا في يد المسلمين وهما عسقلان وصور. وتشير المصادر إلى أن بارونات يهوذا (أى حكام جنوب المملكة) كانوا يطالبون بتوجيه الحملة إلى عسقلان في حين طالب أمراء الشمال بضرورة إسقاط صور ، وقد أقر المجتمعون في النهاية مشروع حصار صور^(٢).

وعلى هذا فهناك شواهد عديدة تدفع إلى الاعتقاد في أن بلدوين دى سانت أبراهام كان أحد المنادين بتوجيه حملة البندقية الصليبية المشتركة إلى عسقلان للتخلص من الخطر المتجدد الذى ينطلق منها ، كذلك من الطبيعى أن يشترك حاكم الخليل مع فرسانه في الاستيلاء على صور بحكم ما يفرضه النظام الإقطاعى من خدمات عسكرية وحرية فضلاً عن الإسهام في مد القوات الصليبية بما تحتاجه من مؤن وزاد وعناد خاصة وقد طال حصار المدينة ومكثت الجيوش الصليبية أمام أسوارها فترة طويلة حتى سقطت في السابع من يوليو ١١٢٤م/ الحادى والعشرين من جمادى الأولى ٥١٨هـ^(٣). وهذا الأمر لابد أن يقتضى من بلدوين أن يرتب أمر الدفاع عن «الخليل» قبل أن يرحل للمشاركة في الأعمال العسكرية حول صور خشية أن تتعرض إقطاعيته لأى هجمات فجائية خلال تلك الفترة.

= ابن كثير: البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ١٨٨ - ١٨٩ ؛ القرزى : اتعاظ الحفا ، ج٣ ، ص ٦٠

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٧٦ - ٧٧ ؛ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ، ج١٠ ، ص ٥٩٦.

(2) Fulcher of Chartres , Op. Cit., PP. 238 - 255 , William of Tyre , Op. Cit., Vol. I , PP. 550 - 553 .

(٣) بدأ المتحالفون حصارهم لصور في السادس عشر من نوفمبر ١١٢٤م/ الثامن والعشرين من ذى الحجة ٥١٧هـ ، وقد استخدم الصليبيون فى إسقاط المدينة كل أنواع الأسلحة المستخدمة فى الحروب ، كما أقاموا عليها المجانيق ترميها ليلاً ونهاراً ، واستمر الحصار طوال الربيع وأوائل الصيف حتى سقطت . راجع :

Anonymous Syric Chronicle , The First and the Second Crusade , ed. and tr. Arthur S. Tritton and others in J. R. A. S., London 1933 , PP. 94 - 95 , Fulcher of Chartres , Op. Cit., PP. 264 - 265 , William of Tyre , Op. Cit., Vol. II , PP. 13 - 21 .

ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣١١؛ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١٠، ص ٦١٩، ٦٢٢.

عاشت الخليل آمنة من خطر المسلمين إلى أن قتل الخليفة الأمر بأحكام الله الفاطمي في العشرين من أكتوبر ١١٢٩م/ الرابع عشر من ذي القعدة ٥٢٤هـ^(١) وتولى الخلافة الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد^(٢) (١١٣١ - ١١٤٩م/ ٥٢٥ - ٥٤٤هـ) فقام بتغيير سياسة مصر إزاء الصليبيين حيث أحيا فكرة الجهاد ورأى فيها فرض عين عليه، فكان يجرد حملة عسكرية كل ستة أشهر ذهاباً وإياباً إلى عسقلان لمناوءة الفرنجة، وكانت تشمل بضع مئات من الفرسان علاوة على مبالغ من المال وكميات من المؤن^(٣). ويفهم من المصادر أن هذه السياسة أدت إلى إذكاء حالة الحرب والتوتر العسكري من جديد، إذ يذكر وليم الصوري أن حركة قطاع الطرق نشطت ضد الحجاج الصليبيين، الأمر الذي دعا وليم بطريرك بيت المقدس إلى قيادة حملة ضدهم كما قام باستكمال تشييد قلعة أرنولد (قلعة الملك) للتصدي لهم^(٤) ولما اعتاد المؤرخون الصليبيون اعتبار حركات المقاومة الإسلامية في الداخل من قبيل قطع الطرق فيتبين أن مقاومة البدو للفرنج أخذت في الظهور من جديد استجابة لروح الجهاد الجديدة التي سادت مناخ المنطقة. ويخبرنا أسامة بن منقذ أنه في هذه الآونة شن المسلمون سلسلة من الغارات استهدفت المنطقة الممتدة حتى بيت جبرين والخلي^(٥). ومن ناحية أخرى استغل الفاطميون لجوء هبولى بوازيه إليهم لمساندته في نزاعه مع الملك فولك ووجهوا حملة لمهاجمة جنوب المملكة الصليبية في سبتمبر ١١٣٢م/ ذي القعدة ٥٢٧هـ غير أن الملك فولك تحرك في الوقت المناسب وتصدى للحملة فأنقذ الموقف^(٦). وهكذا برهنت الأحداث على أن إقطاعية الخليل الصليبية ظلت تعاني عسكرياً من غارات المصريين وتحريضهم للبدو داخل الكيان الصليبي.

وكان وجود هيودي سانت أبراهام في موقع متقدم على الجهة الجنوبية للمملكة الصليبية ما فرض عليه أن يقوم بدور أساسي للمشاركة في تنفيذ خطة عسكرية متكاملة تقوم على تشييد سلسلة من القلاع فوق أراضي إقطاعية الخليل. ونظراً لتحمل بيت

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٦٦٤ - ٦٦٥؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر،

ج ٣، ص ٤٤؛ السبوطي: تاريخ الخلفاء، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م، ص ٣٤٨.

(٢) تولى الحافظ الخلافة في مصر حوالي تسعة عشر عاماً، وكان له وزير أرمني كرهه الناس، ولمعرفة المزيد عن فترة خلافته في مصر. راجع: أحمد سعد الدين العمري، ذخيرة الأعلام، مخطوط ب،

ورقة ٢٤٣؛ ابن العمري: تاريخ مختصر الدول، بيروت، ١٩٥٨م. ص ٢٠٣.

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر، ص ٩٢؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج ٢، ص ٦٣؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٤٤.

(4) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, P. 58.

(5) أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص ١٥ - ١٨.

(6) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, PP. 71 - 72.

ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٨٧.

جبرين للعديد من الضربات من قبل حامية عسقلان طوال العقود السالفة، لذا تقرر أن تكون بيت جبرين هي أولى القلاع التى يتم تشييدها^(١). وقد اختلف المؤرخون المعاصرون فى تحديد تاريخ تشيد قلعة بيت جبرين، ومن خلال ما أوردته المصادر يمكن القول بأن البدء فى العمل والانتهاه منه قد شمل الفترة الواقعة بين (١١٣٤م - فبراير ١١٣٨م / ٥٢٨ - رجب ٥٣٣ هـ)^(٢). ويشرح وليم الصورى الظروف التى أحاطت ببناء القلعة، فيذكر أنه عندما أدرك الصليبيون تواصل اعتداءات المصريين، وأن قواتهم تتجدد وتُدعم بشكل مستمر قرروا إقامة عدد من القلاع فى المنطقة يمكنها ضم قوات كافية لصد المصريين الذين طالما نجحوا فى توجيه ضربات قوية للفرنج، كما كانوا يجتاحون كل المنطقة بلا رادع حتى أطراف يهوذا حيث إقطاعية الخليل، وقد جرى الاستعانة بأهالى تلك البلاد للقيام بأعمال البناء. ويستفيض الأب مارتن اليعقوبى فى سرد رواية تخلص إلى أن طائفة السريان فى قرى الخليل لعبوا دوراً أساسياً فى أعمال البناء تحت قيادة رجال الدين منهم . وعلى بعد يقارب عشرين كيلومتر من عسقلان تم تأسيس قلعة قوية أحيطت بالأبراج وبسور قوى الارتفاع وخندق^(٣). وهكذا تم اختيار مكان مناسب لإقامة القلعة على أن يكون فى بداية سفوح التلال وقريباً من السهل بحيث تتحكم فى الطريق الواصل بين عسقلان والخليل^(٤) ويفهم من هذا العرض أن بيت جبرين الواقعة ضمن ممتلكات الخليل الصليبية استقبلت الملك فولك ملك بيت المقدس ومن معه من نبلاء ليشاركوا هيو دى سانت أبراهام فى تشيد قلعة المدينة، وأن الصليبيين وأعوانهم فى إقطاعية الخليل تحملوا أكبر الاعباء لانجاز هذا المشروع الضخم والهام.

أما عن الآثار المترتبة على منح بيت جبرين وقلعتها والأراضى المحيطة إلى الإيستارية بالنسبة للجانب الاسلامى أن قام الوزير الفاطمى رضوان الوحشى فى يوليو ١١٣٦م / ذى القعدة ٥٣١ هـ. بتجديد العمل (بديوان الجهاد)^(٥) واهتم بتقوية الثغور،

(1) Delaville le Roilx , J., Les Hospitaliers en Terre Sainte et Chypres 1100 - 1310 . Paris 1904 , PP. 46 - 47 .

(٢) تشير المصادر الصليبية إلى بدء العمل فى القلعة عام ١١٣٤م . / ٥٢٨ هـ. بينما تحدد السريانية منها هذا فى ١١٣٨م . / ٥٣٢ هـ. راجع :

William of Tyre , Op. Cit., Vol. II , P. 80 , Martin , Abbe, Les Premiers Princes Croises et Les Syriens Jacobites de Jerusalem , PP. 65 - 66 .

(3) Martin Abbe, Op. Cit., PP. 65 - 67 , William of Tyre , Op. Cit., Vol. II , PP. 80 - 81 .

(4) King E., The Knights Hospallers in the Holy Land London , 1931 , P. 34 , Cf. Als., Grousset , R., Op. Cit., Vol. II , P. 158 , Benvenisti , M., Op. Cit., , P. 116

(٥) يعرف ديوان الجهاد أيضا بديوان العمائر ، وكان يشرف على دار الصناعة فى مصر حيث كانت تشيد سفن الأسطول ومنه يتفق على رؤساء المراكب ورجالها ، وإذا لم يف بواجباته استدعى له من بيت المال بما يكفيه . راجع : القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٩٤ . أما الوزير رضوان =

واستعد لتعمير عسقلان بالعدد والآلات وأشاع الخروج إلى الشام لغزو الفرنج وأظهر في الاعتناء بذلك ما لا يوصف^(١). ويلاحظ الباحث أن هذه الأحداث قد توافقت مع تسلم الإستراتيجية قلعة بيت جبرين من هيودى سانت أبراهام مما يوحي بأن هذه الأحداث جاءت كرد فعل طبيعي على الإجراء الصليبي.

مرة أخرى نجد الخليل وقد ساهمت بشكل واضح في إتمام خطة إقامة سلسلة القلاع ، ففي عام ١١٣٦م / ٥٣١هـ تقريباً، قدم حشد من نبلاء الصليبيين تحت قيادة الملك فولك إلى الأجزاء الشمالية الغربية من بلاد الخليل وعند بلدة تل الصافية تم تأسيس قلعة قوية^(٢) على الطريق بين بيت لحم من ناحية والرملة وعسقلان من ناحية أخرى . والقلعة تعد من طراز القلاع الصليبية الصغرى *Castrum* وهي مربعة الشكل ذات أبراج في الأركان الأربعة من بينها برج أكثر قوة ، بينما ضمت القلعة أشكالاً مختلفة من التحصينات الإضافية^(٣). كذلك يبدو أن هيو قد شارك في الجولة الثالثة من إقامة سلسلة القلاع المجاورة لإقطاعيته وذلك عندما اجتمع أمراء ومقطعو الملك الصليبي فولك بكل ما لديهم من إمكانيات، أتوا بها من إقطاعاتهم أو حصلوا عليها من المناطق المجاورة^(٤)، حيث بلاد الخليل ويافا واللد وغيرها لتشييد قلعة في منطقة بينى Ibelin التي تقع على مسافة ستة عشر كيلومتراً إلى الجنوب الغربي من اللد، وعند مفترق طريقين يمتدان من عسقلان إلى يافا وإلى الرملة، كذلك تعد من النقاط القريبة المتاخمة لبلاد الخليل من الناحية الشمالية الغربية^(٥). ويحدد البعض تاريخ الانتهاء من تشييد هذه القلعة بعام ١١٤١م / ٥٣٦هـ^(٦).

وفي تقييم لدور الخليل وحاكمها هيودى سانت أبراهام الثاني في عملية إقامة القلاع الثلاث المذكورة ، نجد أنه من الطبيعي أن يكون هيو في مقدمة المستقبلين للملك وحاشيته في كل جولة من جولات تشييد القلاع ، ولا بد كذلك أن تكون الخليل قد

= فقد حمل لقب (الافضل) وتولى الوزارة في مصر حوالى اثني عشر عاماً بداية من عام (١١٣٤م / ٥٢٨هـ) ، كان صاحب سيرة طيبة امتدحه المؤرخون، أعاد الطمأنينة للناس، وكان قوياً وشجاعاً، بارعاً في ضبط الإدارة . «حيث نظم الدواوين ورتب الأمور أحسن تدبير» . راجع : ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، تحقيق محمد فريد الشبال ، رسالة دكتوراه لم تنشر بعد ، بريطانيا ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ج ٢ ، ص ١٥٤ - ١٥٩ .

(١) المقرئى : اتعاط الحنفا ، ج ٣ ، ص ١٦٤ ، راجع نفس المعنى فى :

Martin , Abbe, Op. Cit., P. 489 .

(2) William of Tyre , Op. Cit., Vol. II , P. 131 , Déschamps , P. , Op. Cit., P. 37 .

(3) King, E., p. Cit., P. 34 , Cf. Also Prawer, J., The latin Kingdom , P. 299 . Benvenisti , M., Op. Cit., P. 116 .

(4) William of Tyre , Op. Cit., Vol. II , PP. 130 - 131 .

(5) Runciman , S., Op. Cit., Vol. II , P. 229 ; Benvenisti M., Op. Cit., P. 316 .

(6) Deschamps , P., Les Chateaux des Croises , P. 11 .

قدمت ما أمكنها تقديمه فى تنفيذ هذه المشاريع الضخمة. وإذا ما عد تشييد القلاع خطوة هامة على سبيل تدعيم أمن الخليل، ففى مقابل هذا يعنى أن الإقطاعية فقدت أراضى مهمة بما حوت من إمكانيات بشرية واقتصادية هامة. ومن الناحية الحربية، يرى أحد الباحثين الحديثين أن هيودى سانت أبراهام الثانى قام بمنح بيت جبرين للإستبارية فى وقت وجد فيه نفسه لا يستطيع مواصلة الدفاع عن جنوب مملكة بيت المقدس حيث إقطاعية الخليل، وذلك بعد أن وجد فيهم عنصراً حربياً يعتمد عليه^(١). ويؤكد وليم الصورى على أن فرسان الإستبارية قد أثبتوا نجاحاً فى القيام بدور المدافعين عن حدود المملكة، فيذكر أنهم تولوا حراسة قلعة بيت جبرين بكل جهد ومثابرة واجبة بحيث أصبحت هجمات المصريين على الأراضى الفرنجية أقل عنفاً وضراوة^(٢). هذا ولم يتوقف دور الطائفة وفرسانها على الناحية الدفاعية بل أصبحوا رابضين على خط الهجوم الأول لحدود مملكة بيت المقدس الصليبية^(٣) ونلمس الدور الدفاعى الهجومى المشترك فى تصدى فرسان بيت جبرين الجدد لغارات حامية عسقلان المصرية وجيوش مصر^(٤)، وكذلك التصدى لهجمات البدو المفاجئة، وفضلاً عن ذلك تمكنت حاميات بيت جبرين وتل الصافية وبنى من إحكام القبضة على الطرق بين بيت جبرين إلى الخليل وبيت لحم فبيت المقدس وكذلك الطريق المؤدى إلى الرملة ويافا مروراً بالقلاع الثلاث^(٥). وهكذا، فقد عادت القلاع المذكورة بالمنفعة العامة لصالح الخليل وباقى المملكة الصليبية حيث نعمت الخليل بقسط كاف من السلام من جهة مصر لم تنعم به منذ الغزو الصليبي لها بفضل الدور الذى قامت به القلاع.

وبينما نجح الصليبيون فى حماية أراضى الخليل وباقى جنوب المملكة الصليبية بتأسيس القلاع وتشكيل حاجز من قوة فرسان الإستبارية فى بيت جبرين فى مواجهة مصر، قدم الخطر على الخليل من اتجاه آخر حيث تحالف الأتراك الدماشقة مع البدو فى شرقى الأردن. ولاغرو فقد أثبت البدو الذين لم تطلهم سيطرة الفرنج فى شرقى الأردن قوة كامنة مضادة خلال الفترة السابقة، ويشهد على ذلك استعانة دمشق غير مرة بقبيلة بنى مر - أكبر القبائل البدوية - لفهم دور بدو شرقى الأردن العسكرى ضد

(1) King, E. J., Op. Cit., P. 34 .

(2) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, P. 82, Cf. Als. King, E. J., Loc. Cit.

مصطفى محمد الخناوى : جماعة الفرسان الإستبارية ودورها فى الصراع الصليبي الإسلامى فى عصر الحروب الصليبية (١٠٩٩ - ١٢٩١ م / ٤٩٣ - ٦٩٠ هـ) رسالة ماجستير لم تطبع بعد - جامعة المنيا ١٩٨٠م / ١٤٠٠ هـ، ص ١٣٤ .

(3) De la ville le Roulx, J., Les Hospitaliers en Terre Sainte et a Chyre (1100 - 1310) Paris 1904, PP. 46 - 47, Richolson, R. L., The Growth of the Latin States, 1118 - 1144 in Setton, K. M., Vol. I, P. 444 .

(4) Stevenson, W., Op. Cit., P. 137, Grousset, R., Op. Cit., Vol. II, P. 127 .

(5) Prawer, J., The Latin Kingdom, P. 29 .

الصلبيين علينا أن نرجع قليلا بالأحداث، ونضرب لذلك مثالين: أولهما: حينما أوقع هؤلاء البدو الهزيمة في صفوف جيش جوسلين دي كورتناي الأول Joscelyn I, du Courtenay في صيف ١١١٩م/ ربيع أول - جماد آخر ٥١٣هـ^(١). وقد ظهر البدو في هذه الأحداث على أنهم الطرف المسلم الوحيد في المعارك. أما المثال الثاني: فحينما تحالف البدو مع الدماشقة لإيجاد جبهة متماسكة نجحت في إفشال الحصار الصليبي لدمشق في حملة ١١٢٩م/ ٥٢٣هـ^(٢). وبذلك أضفت قوة البدو نوعاً من التوازن الإقليمي بين قوى بلاد الشام رغم التفوق العام للصلبيين في هذه الآونة.

والصفحات التالية تُظهر إلى أي حد تأثرت الخليل بمجموعة الروابط السياسية القائمة على التحالف أو مد النفوذ بين القوى الإسلامية: البدو من ناحية ودمشق ومصر من ناحية أخرى، وفي هذا الصدد يروى وليم الصوري أنه في صيف عام ١١٣٩م/ أواخر ٥٣٣هـ قدم لزيارة فولك ملك بيت المقدس صهره ثيري الالزاسي Thierry d'Alsace كونت فيلاندر (١١٢٨ - ١١٥٨م / ٥٢٢ - ٥٥٣هـ) فاستغل الصليبيون وجود جيش ثيري بينهم للتوسع وضم قلعة جلعاد^(٣) التي بيد المسلمين والواقعة فيما وراء الأردن، وقد اهتم الصليبيون بإخضاع هذه القلعة؛ نظراً لأن الغارات كانت تخرج منها وتهدد مملكة بيت المقدس. ويضيف وليم الصوري وسط صمت غامض للمصادر الإسلامية أن فرسان المملكة الأشداء، وكذلك الأهالي من الفرنج في المناطق المجاورة، قد انضموا إلى الجيش الصليبي الزاحف، وبينما بدأ الصليبيون أعمالهم الحربية، بحصار جلعاد، علم الأتراك أن المناطق الواقعة غربى الأردن حيث بلاد الخليل وغيرها قد جردت من جميع المدافعين عنها فيما عدا بيت المقدس التي بقيت فيها قوة قليلة العدد للدفاع عنها فانتهزوا هذه الفرصة وعبروا نهر الأردن تاركين مدينة أريحا على يمينهم، وتقدموا بمحاذاة ساحل البحر الميت الشمالي الغربى حيث جبل

(1) Albert d'Aix, Op. Cit., PP. 710 - 711 .

(2) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٥٥٦، وعن تقدير التاريخ المذكور أعلاه راجع:

Stevenson, W., Op. Cit., P. 68 .

ولمعرفة المزيد عن تلك الحملة راجع: ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٥١؛ المقبرى: تاريخ المقبرى، مخطوط بمحاضرة الإسكندرية رقم ١٢٩ ب؛ ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٦٥٧ - ٦٥٨ .

William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, PP. 40 - 41 .

(3) يطلق هذا الاسم أصلاً على منطقة صخرية من الأرض جنوبى نهر الزرقاء فيما وراء نهر الأردن، ثم صار يطلق على كل منطقة عجلون وجبل عوف الممتدة من نهر عرنون إلى نهر اليرموك. راجع: بطرس عبد الملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس، مادة جلعاد. وتوجد عدة قلاع ذات حصانة طبيعية في المنطقة أهمها قلعتا جلعاد وجرش. راجع: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

Abel, F. M., Geographie de la palestine, Vol. II, PP. 68, 276. Cf. Als. Grousset, R., Op. Cit., Vol. II, PP. 124 - 125 .

المنطاد والفريديس، ومن هناك انطلقوا إلى المنطقة الجبلية واستولوا على بلدة تقوع بلدة النبيين عاموس وحقوق (Habakkuk - Amos)، وقتلوا السكان القليلين الذين كانوا ما يزالون باقين فيها في حين تمكن معظمهم من الهرب بصحبة زوجاتهم وأطفالهم وحيواناتهم إلى كهف يدعى «أودولا» Odolla الذي يحدده أحد المؤرخين الحديثين بأنه مغارة شارتون المجاورة بفضل الإنذار المبكر الذي نبههم به الهجوم، وتم للغارة نهب كل شيء في البلدة^(١) ويذكر أحد الباحثين الحديثين أن شراسة الهجوم تترك انطباعاً قوياً بأنه بعد نهب المغيرين لبلدة تقوع قاموا بتدميرها^(٢).

وفي وقفة لفحص وتحليل أحداث المرحلة الأولى من الغارة الإسلامية على تقوع ندرك أن الأتراك الذين داهموا هم من الدماشقة، غير أن النشاط العسكري للغارة والرقابة الدقيقة لتحركات الصليبيين ومعرفة نقاط الضعف والقوة في جيشهم تبين أن البدو قد شاركوا بشكل أساسي في الأحداث، وما يدعم هذا الرأي أن الغارة انطلقت من مواطن البدو في شرقي الأردن، كما أن أعمال القتال اتخذت نمطاً عسكرياً يختلف شيئاً ما عن النمط المنظم للهجمات لدى الأتراك الدماشقة منفرداً، ومن ناحية ثالثة فالعمل بالتجارة جعل البدو على دراية كبيرة بجغرافيا السطح لقرى الخليل وهذا الأمر تؤكدته الأحداث. ومن ثم فكان من الطبيعي أن تحالفاً عقد ليربط كل من البدو والدماشقة معاً في تلك الآونة. ولكن لماذا كانت تقوع هي هدف الغارة؟، وفي الحقيقة كانت الغارة تستهدف بالدرجة الأولى معاقبة كل من السريان والبدو الذين رضخوا للفرنجة وتعاونوا معهم ضد إخوانهم العرب، وقد انتهز المغيرون فرصة فراغ قرى الخليل من المدافعين الفرنجة عنها وانخرطهم في أعمال حصار جلعاد فوجهوا ضربتهم تلك. كذلك ربما استهدفت الغارة أيضاً أديرة المسيحيين التي اشتهرت بها تقوع^(٣) بغرض السلب والنهب. تطبيقاً لمبدأ «السِّنّ بالسِّنّ»، فلطالما ارتكب الصليبيون الجرائم ضد الأمنيين من الأهالي بدواً وغيرهم من المسلمين.

(1) William of Tyre , Op. Cit., Vol. II , PP. 102 - 104 , Cf. Als. Grousset , R., Op. Cit. , Vol. II , P. 151 .

(2) Mayer , H. E., B.K.S., P. 379 .

(٣) من الأديرة التي ثبت للباحث وقوعها في تسوع أو بالقرب منها دير هيباس Hipace الذي أقامه الإمبراطور الروماني مارسيان Marsian حوالي عام ٤٥١م. فضلاً عن ديرين أحدهما يتبع كنيسة الضريح المقدس في القدس والآخر يتبع دير القديس عازر للمجذومين في القدس أيضاً . راجع :

Un Rapport Alphabétique sur les Monastères de Palestine , dans : R. O. C. , Vol. IV , P. 540 . Roehricht , R., Syria Sacra , in Z. D. P. V. , Vol. X , 1887 , PP. 241 , 272 .

وتتمثل المرحلة التالية للغارة على قرى الخليل فى رد الفعل الصليبي عليها، ووفقا لرواية وليم الصورى المؤرخ الصليبي الأساسى لهذه الحقبة، أن «روبرت البيرجندى» Robert de Bergande، مقدم طائفة الداوية (١١٣٦ - ١١٤٨ م / ٥٣٠ - ٥٤٣ هـ) (١) علم حين قدومه من أنطاكية إلى القدس، بتعرض تقوع للغارة فتوجه على الفور برفقة عدد قليل من الفرسان وبعض المتطوعين من أهل القدس، يقودهم من أنابه الملك للدفاع عنها، وهو الفارس برنارد فاشيه Bernard Facher، وحينئذ غير المسلمون مواقعهم بحيث مروا بالخليل إلى موقع عادليم Adelom (قرية الشيخ مذكور خمسة عشر كيلو مترا شمال شرقى بيت جبرين) حتى وصلوا عسقلان. ولم يتبع روبرت وإخوانه قوات المسلمين ظنا منه أنهم انسحبوا أمامهم فانتشر الفرنج يبحثون عن الغنائم. وأدرك المسلمون هذا التشتت (٢)، وبواصل المؤرخ الصليبي روايته فيذكر أن المسلمين اجتمعوا من جديد وانقضوا فجأة على الصليبيين المتفرقين بشجاعة كبيرة، والثقة تملؤهم بطريقتهم المألوفة فى القتال وفتكوا بهم فتكا. ولفت الضجيج وأصوات البوق والغبار المتصاعد أنظار قوات الفرنج المبعثرة فأسرعوا إلى مكان المعركة إلا أن صفوفهم انهارت. وأظهر المسلمون تفوقا تاما فحل بالصليبيين هزيمة نكراء، فحاولوا الفرار ولكن وعورة المكان حالت دون ذلك فوقعوا فريسة القتل، والتردى من فوق الصخور شاهقة الارتفاع. ثم يردف المؤرخ وصفه بالقول: «وطارد الأتراك المسيحيين، وأنزلوا بهم مذبحة مروعة فى كل المنطقة الواقعة بداية من الخليل حتى حدود تقوع، وسقط العديد من النبلاء والمشهورين فى ذلك اليوم، وخاصة رجال الداوية بينما عاد المسلمون إلى عسقلان مبتهجين بالنصر. أما الصليبيون عند جلعاد فقد عادوا إلى مواطنهم بعد أن علموا بأحداث تلك الكارثة المروعة، حيث انتهوا للتو من إسقاط جلعاد (٣). وتقدر المدة التى استغرقتها الأعمال الحربية فوق أرض الخليل بيومين كاملين (٤). وتركت هذه الهزيمة شعورا بالأسى والحزن، الأمر الذى جعل الصليبيين يذكرونها حتى بعد مرور حوالى نصف قرن، ويتضح ذلك فى النقد الذى وجهه المؤرخ المجهول لطائفة الداوية، وذكّرهم بالمآسى الشديدة التى ألمّت بهم عند تقوع (٥).

(1) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, p. 104 - 105.

روبرت هو ابن سيد مقاطعة أنجو الفرنسية، لمعرفة المزيد، راجع :

Rey, E.G., Les Familles d'Outer - Mer, pp. 870 - 871.

(2) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II. pp. 104 - 105.

عن موقع عادليم راجع : مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين، ج ٥، ق ٢، ص ٢٩٨.

(3) Ibid, Loc. Cit., Cf. Als., Grousset, R., Po. Cit., Vol. II. pp. 126 - 127.

(4) Roehricht, R., Geschichte des Konigreichs. Jerusalem, p. 219.

(5) Ereacles. Op. Cit., pp. 26 - 27.

والمعركة التي نحن بصددھا ودارت أحداثھا فوق أرض الخليل تعد من أقوى المعارك التي شهدتھا الإقطاعية الصليبية. وتوضح الأحداث الحربية التي جرت أنها كانت حملة في وقائعھا غارة في نتائجھا^(١)، وذلك أن التخطيط لها كان دقيقا وصائبا، حيث استغل المسلمون ساحة الخليل المكشوفة ووجهوا إليها الهجوم، كما استغلوا جوانب القوة في جيشهم وقدرتهم على الكر والفر وتصويب السهام والمناورة. وفي محاولة لتفهم الجوانب المختلفة لرواية وليم الصوري للأحداث يجب العمل على سد تلك الفجوات الخاصة بتحركات القوة الإسلامية المهاجمة. فحينما ارتدت عناصرھا إلى عسقلان للاحتماء بها كان تصرفا ينم عن حنكتهم في المعارك وإتقانهم لفن الكر والفر، وكانت مناورة أقدموا عليها للحصول على الإمدادات من إخوانهم المسلمين في حامية عسقلان الفاطمية، ورغم أن المؤرخ لم يشر إلى هذا الدعم إلا أن اختيار المسلمين الاتجاه إلى عسقلان يدعو الباحث إلى افتراض ذلك بقوة، ويدعم هذا الافتراض أنه حينما قرر منظمو تلك القوة الإسلامية الإغارة على أراضى الخليل كانوا يدركون عدم وجود قوة نظامية تعترض سبيلهم، أما وقد أسرع قوة فرسان الداوية والمدافعين عن بيت المقدس بالقدوم إلى ساحة المعركة فقد تطلب هذا التغيير إحداث تغيير في الجانب المقابل. ولم يجد المسلمون بدا إلا باللجوء إلى عسقلان لطلب العون^(٢) وقد أكدت أحداث المعركة ذلك، إذ سيطر المسلمون بشكل تام على الميدان وأنزلوا هزيمة ثقيلة بصفوف الفرنج

(١) هناك من يصنف الحملات العسكرية في نوعين : مباشرة وهي تلك التي تهدف إلى إسقاط قلعة ما أو التوسع في الأرض، وغير مباشرة وهي تلك الحملات التي تقتصر أهدافھا على إضعاف الخصم وإجباره على الاعتراف بالطرف الآخر. وعلى هذا فالحملة على الخليل تعد من النوع غير المباشر، راجع: Riley - Smith, J., *The Knights of St. John in Jerusalem and Cyprus, 1050 - 1310*, London 1967, pp. 133 - 134.

(٢) ذهب أحد الباحثين إلى الربط بين أحداث المعركة وغارة شنها الفرنج على عسقلان بعدما يربو عن العام ونصف، وينص في بحثه على : «عندما علمت حاملة عسقلان الفاطمية بتحريك هذه القوات الصليبية المشتركة اتجهت إلى السهل الذي يقع بين عسقلان ومدينة الخليل... وقد علم روبرت دي كراون (مقدم الداوية) بأخبار التحرك الإسلامي فصمم على الاشتباك مع حامية عسقلان والتقى الفريقان في ٢١ رمضان ٥٣٥ هـ / ٣٠ أبريل ١١٤١ م. حيث اتبعت القوات الفاطمية لأول مرة نفس التكتيك الذي اتسمت به العمليات العسكرية للمسلمين». وفي سياق نفس الأحداث يستكمل نفس الباحث دور حامية عسقلان بعد انتصارھا قائلا : «عادت حامية عسقلان محملة بالأسلاب والغنائم» انظر : إبراهيم خميس : تاريخ طائفة الداوية : رسالة ماجستير لم تطبع بعد، الإسكندرية، ص ٧٦ - ٧٧ مستندا إلى : ابن الفلانسى : ذيل تاريخ دمشق، بيروت. ١٩٠٨، ص ٢٧٣، ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٥٢ وبمراجعة ما أورده ابن الفلانسى وقد نقله ابن الأثير عنه : يتضح أن قوله ينص : «وفي شهر رمضان منها [أي سنة ٥٣٥ هـ] ورد الخبر بظهور عسكرية عسقلان على خيل الإفرنج الفاتزين عليها وقتل جماعة منهم وعودهم مغلولين خاسرين» راجع : تاريخ دمشق، ص ٤٢٨. وهكذا يتبين أن الباحث المشار إليه قد وقع في لبس حيث تداخلت الأحداث بين معركتين لا صلة بينهما إلا في إطار رغبة الصليبيين في الانتقام لما قد يكون الفاطميون قد قدموه من دعم للمسلمين في المعركة عند الخليل سلفا، إذ أشار النص المصدرى إلى هزيمة غارة فرنجية على عسقلان فحسب دون الإشارة إلى أحداث أخرى ترتبط بها.

اعترف بها ولیم الصوری بل ووصفها بالمذبحة. وكما رأينا فقد أحسن المسلمون تماما استغلال طوبوغرافية أرض الخليل لصالحهم مما يدعم الاعتقاد في أن البدو قاموا بدور رئيسي في المعارك إلى جانب الأتراك. وأخيرا فما تمخض عن المعركة كان أقل بكثير من حجمها، إذ اقتصر على نشر الرعب وإحداث التدمير وبث الشعور بالصدمة لدى المعسكر الصليبي دون تحقيق فتوحات وتوجيه ضربة انتقامية لهم بسبب سياستهم العدوانية التوسعية المستمرة.

ولعل أهم ما ترتب على معركة ١١٣٩م / ٥٣٤هـ أنها أظهرت مدى ضعف دفاعات مملكة بيت المقدس في الخليل وما حولها، ولذا دأب الملك فولك على تشييد المزيد من القلاع في جنوبي الخليل وشرقي الأردن. واجتمعت حشود الصليبيين لمشاركة هيو دي سانت أبراهام الثاني في أعمال بناء كل من قلعتي الكرمل والسموع^(١) على طريق وادي الحسى الذى يربط شرقي الأردن بساحل البحر المتوسط غزة^(٢). والواضح أن الملك فولك قد أسند الإشراف على كلتا القلعتين لحاكم الخليل هيو نظرا لوقوعهما داخل إقطاعية الخليل التى يحكمها. وفى خطوة أخرى وجه الصليبيون جهودهم إلى إقطاعية شرقي الأردن لدعم موقف سيدها باجان في إقامة قلعة الكرك إلى الجنوب الشرقي من البحر الميت عام ١١٤١ - ١١٤٢م / ٥٣٦هـ^(٣) ثم قام مورييس ابن أخيه الذى خلفه في حكم البارونية في عام ١١٥٢م / ٥٤٧هـ بإضافة سور مزدوج للقلعة وبعض التحصينات الأخرى لتقويتها^(٤). وكان لموقع القلعة أهمية حربية قصوى، فبتشييدها امتدت تحصينات شرقي الأردن لتضم إضافة لها كلا من الشوبك وطفيلة ووادي موسى وأيلة علاوة على قلعة جزيرة فرعون^(٥). ورغم تلك السلسلة من التحصينات فلم يتمكن الفرنج من استغلال كل أراضي شرقي الأردن والانتشار فيها، إلا أنهم نجحوا في فرض السيطرة جزئيا على البدو في صحراء النقب وأراضى شرقي الأردن، فظلت قبائلهم تمارس حياة الرعى وتؤدى الإتاوة للفرنج من حين إلى آخر^(٦). وكان لموقع مجمل القلاع أهمية اقتصادية أيضا إذ هيأت فرصة السيطرة على الطرق التجارية الوحيدة التى كانت لا تزال تسلكها القوافل الإسلامية فيما بين مصر والشام والحجاز^(٧) كما مكنت سيد بارونية شرقي الأردن من الاستحواذ على ما أشارت إليه

(1) Benvenisti, M., The Crusaders in the Holy Land, p. 300.

لم يعتمد هذا المؤرخ الحديث على مصادر، والواضح أنه حدد تاريخ تشييد القلعتين بناء على كشوف أثرية.

(2) Deschamps, Les Chateauxdes Croises en Terre-Sainte, pp. 5, 21.

(3) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, p. 127.

(4) Benvenisti, M., Op. Cit., pp. 317 - 318.

(٥) نعم شفيق : المرجع السابق، ص ١٩٣ - ١٩٩.

Benvenisti, M., Op. Cit., pp. 317 - 318.

(6) Holmes, U.T., Urban life Mind in Palatine and Syria in Twelfth and Thirteenth Centueries in Setton K., Vol. IV, p. 31.

(7) Stevenson W., Op. Cit., p. 146 ; Runciman S., Op. Cit., Vol. II, P. 230.

المصادر من ثروات فى المنطقة تتمثل بشكل أساسى فى القمح والشعير والمراعى فضلا عن ملاحات البحر الميت^(١).

وهكذا فبعد أن حظيت أراضي الخليل بقدر وافر من الأمن من ناحية الغرب بتشييد قلاع بيت جبرين، تل الصافية وبنى كان من الطبيعى أن يتأثر أمنها إيجابيا فى الجنوب والشرق بتشييد سلسلة قلاع السموع والكرمل فالشوبك والكرك. ففى الوقت الذى سيطرت فيه الكرك على منطقة العبور فى شمال البحر الميت كانت الشوبك تتحكم فى هذه الجهات، وتشير الأحداث إلى أن استكمال بناء قلعة الكرك كان يعد نقطة حسم لإقرار أوضاع الحركة التجارية الإسلامية فوق الطريق إذ لم تكن السيطرة الصليبية عليها مكتملة قبل عام ١١٥٢م / ٥٤٧ هـ. حيث كانت الفرصة متاحة أمام البدو للنفاذ أحيانا، أما بعد هذا التاريخ فلم يكن أمامهم بد فى المرحلة التالية إلا التعاون مع الفرنج والعمل لحسابهم.

والجدير بالذكر أن المصادر المختلفة قد صمتت أمام ذكر أى أحداث تتعلق بالنشاط الحربى لإقطاعية الخليل أو فوق أرضها طيلة العقدين الخامس والسادس فترة سيطرة الصليبيين عليها، ورغم ذلك فهذا لا يعنى أن الأوضاع قد تجمدت فيها، فالحركة الصليبية فى مملكة بيت المقدس حركة دائبة لا تكاد تتوقف. ومن أهم سمات هذه الحركة فى تلك الفترة قدوم الحملة الصليبية الثانية من أوروبا التى انخرط فيها عدد ضخم من الملوك والأمراء والفرسان والجند من الغرب الأوروبى والشرق الفرنجى بغرض استرداد الرها^(٢) وفى مؤتمر كبير ضم قيادات الحملة فى عكا تقرر توجيه الحملة إلى مملكة دمشق الإسلامية وضمها إلى المعسكر الصليبي، وتوجهت حملة ضخمة بالفعل للاستيلاء على المدينة فى أول يولية ١١٤٨م / ربيع الأول ٥٤٣ هـ. ولكنها أخفقت فى تحقيق أهدافها^(٣). والذى يهمنى فى هذا الموقف أنه لم يأت ذكر لحاكم الخليل هيوذى سانت

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق، ص ٢٨١.

Albert d'Aix, Op. Cit., p. 538 ; Fetellus, Op. Cit., pp. 11 - 12, Cf. Als., Abdel, f. M., Geographie de Palestine, Vol. I. p. 505.

(٢) تمكن المسلمون من استرداد الرها مرتين عنوة خلال فترة وجيزة، كانت المرة الأولى على يد عماد الدين زنكى فى يوم السبت الرابع والعشرين من ديسمبر ١١٤٤م / السادس والعشرين من جمادى الآخرة ٥٣٩ هـ. ثم تأكد هذا الفتح بعد حوالى عامين على يد ابنه نور الدين محمود زنكى. راجع : البندارى الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق، تحقيق : لجنة إحياء التراث العربى، ص ١٨٧. ولمعرفة المزيد راجع : ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٤٣٦ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك، ج٤، لرحة ٥١، انظر أيضا :

Michel Le Syrien, Op. Cit., Vol. III, pp. 261 - 262.

(3) William of Tyre. Op. Cit., Vol. II, pp. 163 - 165.

أبراهام على مدى أطوار الحملة جميعها، وقد يرجع ذلك إلى أن التخطيط للحملة قد توقع تدخل الفاطميين العسكري بشكل أو بآخر. ولذا فقد تم الإبقاء على قادة وفرسان الإقطاعيات الصليبية في جنوب مملكة بيت المقدس داخل إقطاعياتهم لحمايتها، إذ لم تشارك أرسوف ويافا والرملة والد ففلا عن الخليل في الأعمال الحربية.

وماذا عن أوضاع القوة الإسلامية المحيطة بالخليل في هذه المرحلة؟ فقد أصبح من الواضح أن أمن الخليل قد ارتبط بشكل أساسي بأحوال القوى المجاورة وخاصة في مصر وقاعدتها المتقدمة عسقلان، ولا يعنى هذا أن مملكة دمشق وباقي القوى الإسلامية في الشام والعراق كانت بمنأى عن التأثير سياسيا وعسكريا على الخليل. وفيما يختص بأحوال مصر فقد ظلت تعاني من حلقات الصراع حول السلطة، ومن الشدائد التي آلت بها في الفترة الممتدة (١١٣٥ - ١١٥٤ م / ٥٢٩ - ٥٤٩ هـ)^(١).

أما في الشام فكانت الأوضاع السياسية للمسلمين تسير نحو الأفضل، إذ كان استرداد الرها على يد عماد الدين زنكى في عهد ابنه نور الدين محمود^(٢) إشارة واضحة على مدى ما وصلت إليه الصحة الإسلامية في تلك المرحلة. ولم يقتنع نور الدين باسترداد الرها وإنما جرفه تيار الجهاد إلى توجيه هجماته من حلب ضد إمارة أنطاكية الصليبية فنجح في الاستيلاء على عدة قلاع^(٣) وتوج جهوده في توحيد الشام بضم دمشق عام ١١٥٤ م / ٥٤٩ هـ^(٤).

وتشير المصادر إلى بروز شخص همفرى الثانى خلال فترة حكمه للخليل في المجال العسكري مرة أخرى، حينما أظهره المؤرخ وليم الصورى بصفته أبرز من صاحب الملك بلدوين الثالث في زحفه عام ١١٥٠ م / ٥٤٥ هـ. لإقرار الأمور في أنطاكية

(١) يعد المقرئى أفضل من عرض لأحداث مصر في هذه الفترة. راجع : اتعاظ الحنفا : ج ٢، ص ٣٢٣ - ٣١٩، ١٨٩.

(٢) تولى عماد الدين زنكى بن قسيم الدولة أنشقر أتابكية الموصل واتخذها قاعدة للتوسع وتوحيد الجبهة الإسلامية في العراق والشام في الفترة الواقعة من عام ١١٢٨ حتى ١١٤٦ م / ٥٢٢ - ٥٤١ هـ. وكان «غرى الخلق أسدى الحق... ولكن ختم الله في آخر عمره بالسعادة وبالشهادة ووفقه للجهاد». انظر : البندارى الأصفهاني : المصدر السابق، ص ١٨٧.

(٣) البندارى الأصفهاني : المصدر السابق، ص ١٠٧ - ١٠٨؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١، ص ١١١ - ١١٢.

Cf. Also, William of Tyre. Op. Cit., Vol. II. pp. 196 - 197.

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٧٣؛ ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي، تسمية المختصر في أخبار البشر، تحقيق أحمد البدرارى، طبعة أولى، بيروت ١٩٧٠م. ج ٢، ص ٥٥؛ ابن كثير : المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٣١ - ٢٣٢؛ الحموى : التاريخ المظفرى، مخطوط.

والفلاح المتبقية في يد الصليبيين من إمارة الرها^(١). ونظرا لفقد أنطاكية لأميرها ريموند دي بواتيه Rymonde de Poater (١١٣٦ - ١١٤٩ م / ٥٣١ - ٥٤٤ هـ) قبل عامين تقريبا فكان على قادة بيت المقدس التحرك لإنقاذ الموقف، والملاحظ أن الملك لم يتجاوز سن التاسعة عشرة في تلك الآونة، ومن ثم تبرز أهمية الدور الذي قام به همفري في قيادة الجيش. وتخلص رواية المؤرخ الصليبي المذكور إلى أن المسلمين كانوا يهددون الممتلكات المذكورة بشدة، فرأى الملك بلدوين تسليم رجال الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين Manuel Comnenus (١١٤٣ - ١١٨٠ م / ٥٣٨ - ٥٧٦ هـ) بعض حصون أنطاكية والرها فعارض همفري هذا الإجراء معلنا قدرته في الدفاع عنها، لكن الملك أصر على رأيه، كذلك أبدى همفري الثاني براعة عسكرية في صد قوات جيش نور الدين التي جاءت لتطارده جيش اللاتين، وتمكن همفري من الانسحاب المنظم، وقوّت على المسلمين إزال هزيمة بهم في تلك البلاد البعيدة^(٢).

ومرة أخرى تشارك الخليل مملكة بيت المقدس سياستها التوسعية على حساب الممتلكات المصرية في عسقلان، إذ ظهر همفري الثاني بصفته أبرز قادة الملك بلدوين الثالث حينما آزره في النزاع ضد أمه ملسند على العرش وما أعقب ذلك من تنصيبه كونسطبلا للمملكة.

وبعد أن تماسكت صفوف الصليبيين خرج جيش قوى يضم جميع مقاتلي المملكة بكل ما استطاعوا جمعه من أدوات الحصار. وفي يوم الأحد الموافق الخامس والعشرين من يناير ١١٥٣ م / السابع والعشرين من شوال ٥٤٧ هـ، وصل أمام أسوار عسقلان، وقد استغل الفرنج انشغال مصر بمشاكلها الداخلية حيث تواصلت المعارك وأعمال الحصار البرى والبحرى حتى سقطت المدينة في يوم السبت الموافق الثاني والعشرين من أغسطس ١١٥٣ م / التاسع والعشرين من جمادى الأولى ٥٤٨ هـ^(٣)، وهكذا فقد انتهت عملية التوسع غربى الخليل بضم آخر الموانئ الفاطمية على الساحل إلى حوزة الصليبيين. ومن ثم فلا بد أن تكون الخليل قد قامت بدورها العسكرى بإنفاذ فرسانها وجنودها للاشتراك في المعارك، كما قدمت من مواردها المختلفة من مؤن وأخشاب وقطران مما اشتهرت به من منتجات لازمة لأعمال القتال.

(1) William of Tyre, Op. Cit. Vol. II, pp. 207 - 209. Cf. Als., Mayer, H. E., Z. D. P. V., CI, pp. 74 - 75.

(2) Kinnamos, J., Op. Cit., pp. 141 - 143 ' William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, pp. 209 0 212.

(3) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, pp. 202 - 231 ' Jubb, A Margre ed. Estoires d'outremer et de la Raissance Salehadin, London, 1990, p. 49.

راجع ابن الفلانى : المصدر السابق، ص ١٤٩٧ ج ابن الاثير : الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ١٨٨ - ١٨٩، ابن أبيك الدوادارى : المصدر السابق، ج ٦، ص ٥٦٢، ابن الجوزى : ملخص تاريخ الإسلام : ورقة ١٥٧٤، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان، ج ٨، ق ١. ص ٢١٥.

Stevenson W., Op. Cit., p. 171, Cf. Als. Smail, R. C., Crusading Warfare, p. 96.

أما عن آخر حلقات الصراع بين الخليل ومملكة بيت المقدس الصليبية من ناحية ومصر الفاطمية من ناحية أخرى، ففيها تعرضت الخليل لخطر داهم ومباشر من قبل الفاطميين في ظل ظهور وزيرها القوى الصالح طلائع بن رزيك^(١) في يونيو ١١٥٤م / صفر ٥٤٩ هـ. وتم التمهيد لهذه الجولة من الصراع بنشاط سياسى إسلامى ملحوظ، ففي ٢٥ أبريل ١١٥٧م / الثانى عشر من ربيع الأول ٥٥٢ هـ. أرسل نور الدين رسولا من قبله إلى مصر «لإيصال بعض الرسائل إلى صاحب الامر فيها وليكون فى صحة الرسول القادم منها»^(٢) وفى ذلك إشارة واضحة إلى أن الاتصالات والسفارات أخذت تتواصل بين الصالح بن رزيك فى مصر ونور الدين فى دمشق لتنظيم عمل عسكري ما مشترك فيما بينهما ضد الفرنج. وفى اليوم التالى توجه نور الدين صوب بعلبك ليكون على مقربة من الأحداث، فشعر همفري دى تورون أن ممتلكاته فى بانياس أصبحت مهددة فخرج لمنازلة المسلمين حيث التقى بهم فى معركة بالقرب من المدينة فى الحادى والعشرين من مايو / السابع من ربيع الثانى من العام نفسه تمكن المسلمون بعدها من الاستيلاء عليها ومحاصرة همفري وفرسانه فى قلعتها صبيبة لمدة شهر ونصف تقريبا، وحينئذ قاد بلدوين الثالث جيشا ضخما تمكن به من مباغطة المسلمين واسترداد المدينة منهم. وما لبثت المعارك أن تجددت حول بانياس فى أوائل ديسمبر أواخر شوال من العام ذاته ولكن بشكل محدود^(٣). وهذه الأحداث تبرز حقيقة أن همفري الثانى ظل مشغولا عن ممتلكاته فى الخليل طيلة هذه الفترة بالأحداث العسكرية حول بانياس.

والأحداث التالية تبين إلى أى حد تأثرت الخليل والجبهة الجنوبية لمملكة بيت المقدس بالتنسيق العسكرى الذى شهدناه أخيرا بين كل من مصر ودمشق، فقد تمكن نور الدين من إشغال وتهديد الصليبيين بقوة فى شمال المملكة كما رأينا، فى الوقت الذى خطط فيه ابن رزيك لتوجيه غاراته ضد الفرنج. وفى الحقيقة فالأعمال الحربية الفاطمية ضد الفرنج لم تلق اهتماما من المؤرخين المسلمين المعاصرين مثلما لقيت من المقرئى المؤرخ المتأخر نسبيا، وأول ما يخبرنا به أن الهدنة قد انفسحت فى الشهور الأولى من

(١) الصالح بن رزيك كان من خيار الملوك والوزراء. راجع : الوثيقة الخاصة بذلك نشر : جمال الدين

الشيال : الوثائق التاريخية لمصر الإسلامية، مجموعة الوثائق الفاطمية : وثائق الخلافة والوزارة.

الطبعة الثانية، إسكندرية ١٩٦٥م، جـ - وثيقة ١١، ١٧، ص ٣١٧ - ٣٥٣.

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق، ص ٥١٩٨ - ٥٢٠. ويسجل أبو شامة قصائد نظمها وزير مصر

يحرص فيها نور الدين على قتال الفرنج. راجع : الروضتين، ج ١، ص ١١٥ - ١١٨.

(3) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, p. 258.

ابن القلانسي : المصدر السابق، ص ٥٢٠ - ٥٢٣، ٥٣٤؛ ابن العديم : زبدة الحلب، ج ٢، ص ٣٠٧ -

عام ٥٥٢هـ / فبراير - أبريل ١١٥٧م^(١)، والملاحظ أن انتهاء الهدنة المصرية الصليبية تتزامن مع احتدام الموقف العسكري عند بانياس، وكذلك فانعقاد الهدنة من قبل يفسر فترة الهدوء التي سادت الجبهة الجنوبية للمملكة الصليبية والسلام الذي نعمت به الخليل خلال بضعة السنوات الأخيرة أى منذ أن سقطت عسقلان فى يد الفرنج.

ويمكن تلخيص الوقائع التي ساقتها المصادر الإسلامية بأنه بعد انتهاء الهدنة، قام ابن رزيك بتجهيز جيش كبير يضم بين صفوفه أعدادا من البدو، وقسمه إلى ثلاث فرق؛ دفع بالاولى إلى الفرنج فى غزة وما جاورها فى الثامن والعشرين من يوليو / السابع عشر من جمادى الاولى من العام المذكور، وظلت تنهب وتدمر الاطراف لمدة أربعة أسابيع، حتى عززت بالفرقة الثانية فتوجهتا إلى الصليبيين فى عسقلان فأسروا وغنموا وعادوا منتصرين. أما الفرقة الثالثة فقد اتجهت جنوب نهر الشريعة^(٢)، وهو نهر الأردن فى جزئه الممتد من بحيرة طبرية حتى مصبه^(٣) عند البحر الميت. وقد أدت الفرقة دورها كاملا «وأبليت بلاءً حسنا وعادت مؤيدة». ثم أتبع وزير مصر تلك الغارات بأخرى بلغ عددها أربعة، توغلت الاولى حتى بلغت الشوبك وانتهت بأسر العديد، ونهب المنطقة فى أغسطس ١١٥٧م / شهر رجب نفس العام. وبعد شهرين تمت الإغارة من جديد على بلاد الفرنج. وكان آخر حلقات تلك الجولة غارتين وقعتا فى ديسمبر ١١٥٧م / الأسبوع الاول من ذى القعدة نفس العام حيث وصلت أطراف أعمال دمشق^(٤)، أى بالقرب من بلدة بصرى التي أعلنت خضوعها إلى دمشق أوائل هذا العام^(٥). وقد واكبت تلك الأعمال الحربية البرية هجمات من الأسطول المصرى على كثير من مدن مملكة بيت المقدس الساحلية^(٦).

لم يتوقف النشاط الحربى الفاطمى فى هذه المرحلة عند هذا الحد إذ خرجت فرقة من أربعة آلاف من العسكر تحت قيادة شمس الخلافة أبى الأشبال ضرغام (أحد كبار قادة الفاطميين آنذاك) وبلغت «تل العجول» فى الثامن عشر من مارس ١١٥٨م / الخامس عشر من صفر ٥٥٣هـ، فالتقوا بالفرنج وانتهت المعركة لصالح

(١) المقرئى : اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٣٠؛ أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٥ - ١٦؛ ابن ميسر : أخبار مصر، ج ٢، ص ٩٦، وينبغى الإشارة إلى أن قليلا من المؤرخين المسلمين أوردوا شذرات عن تلك الغارات منهم أبو شامة : الروضتين، ج ١، ص ١١٥؛ ابن كثير : المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٣٠.

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر، ج ٢، ص ٩٥ - ٩٦؛ المقرئى : اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٣٠.

(٣) أطلق اسم الشريعة على نهر الأردن منذ عصر الحروب الصليبية، ويعرفه البدو بهذا الاسم حتى الآن. راجع : جمال الدين الشيال محقق المقرئى : السلوك، ج ١، ص ٣٨١. هـ ١.

(٤) المقرئى : اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٣٠؛ ابن ميسر : أخبار مصر، ج ٢، ص ٩٦.

(٥) ابن القلانسي : تاريخ دمشق، ص ٥١٩.

(٦) أبو شامة : الروضتين، ج ١، ص ١١٥؛ المقرئى : اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٣٠.

المسلمين^(١). وبعد حوالى شهرين تعرضت قلعتى وادى موسى والشوبك لغارة فاطمية قوية وحصار امتد ثمانية أيام. وكذلك تعرض بيت المقدس لهجوم فاطمى أعقبه موجة من التخريب والنهب فى الثامن من يونيو ١١٥٨م / التاسع من جمادى الأولى ٥٥٣هـ^(٢).

وهكذا شاركت إقطاعية الخليل الصليبية الأجزاء الجنوبية من مملكة بيت المقدس ذلك المصير النعس، إذ يشير أسامة بن منقذ إلى أن القائد الفاطمى ابن الفرج هاجمها^(٣). والملاحظ أن هذا هو ثالث هجوم إسلامى مباشر على مدينة الخليل بعد استقرار الصليبيين فيها. وعلى الرغم من إدراك المسلمين لصعوبة مهاجمة الخليل بسبب موقعها فوق الجبال الشاهقة وحصانتها الطبيعية، إلا أنها كانت هدفا للإغارة عليها، وهذا يدل على مدى حرص المسلمين على الحد من خطورتها بتوجيه الضربات المتوالية لها. ومما يلفت النظر هنا أن الهجوم على الخليل وقع أثناء وجود سيدها همفرى دى تورون الثانى محاصرا فى قلعة بانياس، أو مشغولا بالدفاع عنها ضد هجمات نور الدين المتجددة كما ذكرنا سلفا، وبذلك ظلت ممتلكاته فى الخليل مكشوفة أمام هجمات المصريين. ومن الطبيعى أن التنسيق الذى تم بين دمشق والقاهرة لم يغفل تلك النقطة؛ ولذا وضعت فى هذه المرحلة خطة لم تكن تستهدف فقط مجرد النهب والسلب وإنما إنهاك الصليبيين وتخريب كياناتهم.

أما عن رد الفعل الصليبي فقد جاء ضعيفا يعكس موقف الصليبيين العاجز الذى نجح المسلمون فى التخطيط والتنسيق له، حيث خرجت قوة صليبية نحو العريش بغرض دفع غارات المسلمين فى أغسطس - سبتمبر / شعبان من نفس العام فخرجت لهم سرية فاطمية وردتهم على أعقابهم. وقام حكام القاهرة بتوجيه غارة أخرى على بيت جبرين «وعدت غائمة»^(٤). والجدير بالذكر أن بيت جبرين فى تلك الآونة كانت خاراجة عن

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار، ص ١٥٥ ابن ميسر : المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٦، المقرئى : اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٣٣. وقد أورد ابن القلانسى الأحداث باختصار وأشار إلى موقعها بأنه «بالقرب من غزة وعسقلان» وهذا يتفق مع موقع تل العجول التى تقع بالشرق من المدينتين، وأشار المؤرخ إلى تاريخ الأحداث بأنه فى أوائل أبريل / أوائل ربيع الأول من نفس العام، ولعل الفارق الزمنى وهو حوالى أسبوعين أو يزيد يعادل تقريبا الفترة التى تواتر فيها أخبار الغارة حتى تصل إلى دمشق مقر إقامة المؤرخ. راجع : تاريخ دمشق، ص ٥٧٣ وعن موقع تل العجول. راجع :

Stevenson W., Op. Cit., o. 310.

(٢) المقرئى : اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٣٣.

(٣) أسامة بن منقذ : الاعتبار، ص ١٥ - ١٧، راجع أيضا :

Roehricht, R., Geschichte des Konigreusalem, p. 293.

(٤) المقرئى : نفسه.

نطاق إقطاعية الخليل الصليبية، ولذا فالغارة الأخيرة كانت تستهدف الإستراتيجية فيها. وانقضت الشهور التالية فى تجهيز العساكر الفاطمية «فى البر والبحر، ومسيرها وعودها بالغنائم الكثيرة والأسارى العديدة... وكثرت الغنائم من الفرنج بالقاهرة حتى امتلأت الأيدى بها»^(١). ولعل فى هذه الغارات المتتابعة ما جعل المؤرخين المسلمين المعاصرين يطلقون على الوزير طلائع بن رزيك لقب أبى الغارات.

والواضح أن مجموعة تلك الغارات، إضافة لضغوط نور الدين العسكرية فى الشمال جعلت فرجة مملكة بيت المقدس يطلبون عقد هدنة مع مصر فى السابع والعشرين من مارس ١١٥٩م / الخامس من ربيع الأول ٥٥٤ هـ، إلا أن الفاطميين شنوا غارة كبيرة بتحريض من نور الدين تضم ستة آلاف وخمسمائة فارس فى السادس والعشرين من مايو ١١٥٩م / سادس جمادى الأولى ٥٥٤ هـ استغرقت حوالى شهر ضد غزة، عاد بعدها العسكر غانما^(٢). ولعل هدوء الجبهة المصرية الفرنجية فى المرحلة التالية يعد شاهدا على أن الهدنة وقعت بين الطرفين من جديد.

وفى وقفة تحليلية نلاحظ أن مجمل الأحداث السابقة قد تركت آثارا لها مغزاها على الخليل وقراها، وأول ما يسترعى الانتباه هنا أن الغارات استغرقت حوالى عامين أصاب الشلل خلالها قادة الخليل، بل وكامل مملكة بيت المقدس الصليبية بفضل قدر من التعاون المؤقت بين قادة مصر والشام، وتجدد الإشارة هنا إلى عنصرين هامين أيضا وهما أن حجم الجيوش المغيرة يعد ضخما حتى أن تجهيزها يشابه تجهيز الحملات، أما العنصر الثانى فقد كان البدو يمثلون جانبا هاما فى تكوين الفرق العسكرية المغيرة. وفضلا عن ذلك، يمكن تقييم مجموعة تلك الغارات بأنها لم تثمر إلا عن نتائج محدودة تتمثل فى أنها نجحت فى إلقاء الرعب بين الصليبيين، كما أنها أكدت على أهمية العامل المشترك بين القوى الإسلامية، فى حين لم تتمكن من استرداد مدينة ما أو إقليم معين من أيدي الصليبيين. وهذا يجعل الباحث يرجح أن الإستراتيجية الإسلامية فى هذه المرحلة قامت على أساس العمل على ردع الفرنج بإظهار القوة ضدهم بغية الحد من خطرهم، وربما سعيا وراء إحداث ضغوط عسكرية مستمرة تجعلهم يفكرون فى التخلي عن اعتداءاتهم على الأراضى الإسلامية، بل وللتمهيد لعمل عسكري أكبر يهدف إلى تطهير كل الأراضى المقدسة. وفى المقابل أكدت الغارات بالنسبة للجانب الصليبي على أهمية التفكير مجددا فى كبح جماح الفاطميين بشكل جذرى إذ لم يحقق الاستيلاء على عسقلان منذ بضع سنوات خلّت نجاحا كافيا فى القضاء على خطرهم.

(١) المقرئى : اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٣٣ - ٢٣٤.

(٢) المقرئى : المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٣٦.

وفى الفترة الواقعة بين عامى (١١٦٤ - ١١٦٩ م / ٥٩٩ - ٥٦٤ هـ) شاركت قوات الخليل جهود سادتها من آل همفرى والملك عمورى فى المحاولات المتكررة لإخضاع مصر^(١)، وذلك أن أحوالها الداخلية ازدادت سوءا إذ توفى الخليفة الفاتر وهو فى سن الحادية عشرة من عمره فى الرابع والعشرين من ١١٦٠م. السابع عشر من رجب ٥٥٥ هـ، ثم تولى الخلافة من بعده العاضد بالله عبد الله. فدخل كبار القادة فى صراعات دامية للاستحواذ على الوزارة. وقد استغل الصليبيون تلك الفرص للتدخل فى شئون مصر الداخلية تمهيدا لإخضاعها، وتراوح هذا التدخل بين توجيه حملات حربية بلغ عددها أربعة، ووضع حامية صليبية فى القاهرة، وفرض إتاوة سنوية عليها. بيد أن نور الدين قام بتوجيه عدة حملات إلى مصر لدفع الفرنج عنها^(٢) بوازع من نزعته للجهاد ورغبته فى توحيد الجبهة الإسلامية حتى حسم الأمر لصالحه فى النهاية حينما اضطر الخليفة العاضد أن يعلن تعيين قائد جيوش نور الدين وهو أسد الدين شيركوه^(٣) وزيرا على مصر. وما لبث أن تهيأت الظروف أمام صلاح الدين ابن أخى شيركوه ويدعى «أيوب بن شادى» كى يتولى الوزارة خلفا لعلمه الذى توفى فى الثالث والعشرين من مارس ١١٦٩م / الثانى والعشرين جمادى الآخر ٥٦٤ هـ^(٤). وكذلك حينما توفى العاضد آخر خلفاء الفاطميين فى الرابع عشر من سبتمبر ١١٧١م / العاشر من محرم هـ. وهكذا تهيأت الفرص لتوحيد بلاد الشام ومصر مما شكل أكبر الخطر على

(1) William of tyre, Op. Cit., Vol. II, pp. 325 - 326.

(٢) تعرضت مصادر عديدة لتلك الأحداث المهمة فى تاريخ الحركة الصليبية. كما ظهرت دراسات عامة ومتخصصة فيها. راجع أهم تلك المصادر فى ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٦ - ٤٠ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج ١١، ص ٢٩٨، ٣٠١، ٣٢٤، ٣٢٧، ٣٣٥، ٣٤٠ ؛ التاريخ الباهر، ص ١٣٦ - ١٣٨ ؛ أبو شامة : الروستين، ج ١، ص ١٤٢، ١٤٥، ١٧٤ ؛ ابن النديم : زبدة الحلب، ج ٢، ص ٣١٥ - ٣١٧، ٣٢١، ٣٢٦ ؛ ابن كثير : المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٤٧ - ٢٤٨، ٢٥٢، ٢٥٥ - ٢٥٧ ؛ ابن الشحنة : روضة المناظر، ج ٢، ص ١٣١ - ١٣٤.

Cf. Als William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, pp. 319 - 366.

ومن الدراسات الحديثة راجع :

Schlumberger, Campagnes du Roi Amaury I de Jerusalem Paris. 1906 - pp. 19 - 92.

سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٦٨١، ٦٨٤، ٦٨٧، ٦٩١.

(٣) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى، القاهرة ١٩٤٥، ج ٤، ص ٣٣٢، ٣٣٣ أما شيركوه فهو الأمير أسد الدين شيركوه بن شادى مقدم عسكر نور الدين وأكبر أمراء دولته، تولى الوزارة مدة سبعين يوما ونقل جثمانه ليدفن فى المدينة المنورة. راجع ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج ١١، ص ٢٩٨ ؛ سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨، ق ١، ص ٢٧٨ ؛ ابن أبيسك الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر. ج ٧ (الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب)، تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢م، ص ٢٨ - ٣٢.

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج ١١، ص ٣٤١ - ٣٤٤، ٣٦٧ - ٣٦٨ ؛ ابن شداد : المصدر السابق، ص ٣٩ - ٤٠ ؛ أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر، ج ٣، ص ٥٠ - ٥٢.

الفرنجة في بيت المقدس وفي ذلك يقول ابن واصل : «ولما ملك صلاح الدين الديار المصرية أيقن الفرنج بالهلاك»^(١).

ولارتباط أمن إقطاعية الخليل الصليبية بموقف البدو تبرز أماننا سياسة صلاح الدين تجاههم منذ البداية، ونستشف مما ورد بالمصادر حقيقة تلك السياسة حيث تراوحت بين استخدامهم في تكوين جيش مصر الذي شرع هذا القائد في إعادة بنائه، أما البدو الذين خضعوا للصليبيين وأعانوهم فقد رأى أن من الضروري معاقبتهم جراء مواقفهم المتخاذلة تجاه المسلمين. ونعرض في هذا الموضع للشق الأول من تلك السياسة مرجئين التعرض للشق الآخر لحينه. فحينما نقل صلاح الدين نظام الإقطاع الحربي والوراثي الشخصي إلى مصر عن مخدمه نور الدين خصص الرواتب حسب درجات الأجناد وأعراقهم، فكان الأتراك والاكرد والتركمان قد تم تخصيصهم بضعف رواتب نظرائهم من البدو والمصريين، كما صنف البدو أنفسهم درجات^(٢). ويوضح المقرئ أن صلاح الدين جند ألفا وثلاثمائة فارس من الجزاميين، «وكلف الثعالب مثل ذلك فامتعضوا» نظرا لعدم رضاهم بالرواتب المعروضة عليهم «ولوحوا بالتحيز للفرنجة»^(٣). ومن المشكوك فيه أن يكون صلاح الدين قد مزج بين القبائل العربية الرحل وفرق الجيش، ومن ثم فلا بد أن يكون قد شكل منهم جندا مستقلا^(٤). وهكذا تم ترتيب جيش قوى في مصر بحشد طاقاتها وفنون الأتراك والبدو الحربية إضافة إلى العناصر الأخرى.

وتتلخص الظروف السياسية والعسكرية المحيطة بالخليل في المرحلة التالية بأن أدرك الصليبيون مدى خطورة ضم نور الدين لمصر على مملكة بيت المقدس فقرروا إنفاذ حملة بحرية على دمياط في أكتوبر ١١٦٩م / ٥٦٥ هـ. بالاتفاق مع الفرنجة في صقلية والقدس، بيد أن الحملة باءت بالفشل بفضل المقاومة العنيدة التي أبدتها المدافعون^(٥) ومن

(١) ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١، ص ١٧٩.

(٢) ينص تقرير الرواتب على «الأجناد من الأتراك والاكرد والتركمان، دينارهم الإقطاعي دينار واحد كامل جنديا، الكنانية والعساقلة من العربان، ومن يجزى مجراهم على عادة الأجناد المصريين، دينارهم نصف دينار، والغزاة والقواد ومن هم في معنائهم دينارهم ربع دينار، والعربان إلا من شذ منهم، دينارهم ثمن دينار». انظر ابن ممتي : كتاب قوانين الدواوين، جمعه ونشره وعلق عليه : عزيز سوريا لعطية، القاهرة ١٩٤٣م، ص ٣٦١، راجع أيضا : نظير حسان سعداوى : جيش مصر في أيام صلاح الدين، القاهرة ١٩٥٦، ص ٥.

(٣) المقرئ : السلوك لمعرفة دولة الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٤، ج ١، ق ١، ص ٤٧.

(4) Stevenson. Op. Cit., p. 215.

نظير حسان : المرجع السابق، ص ١٢.

(5) William of Tyre. Op. Cit., Vol. II, pp. 362 - 368.

ابن واصل : مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٨، الحنبلى : شفاء القلوب في مناقب بنى أيوب، تحقيق : ناظم رشيد، بغداد ١٩٧٩م، ص ٧٣. ولمعرفة المزيد عن أحداث الحملة على دمياط راجع : محمود سعيد عمران : السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، ص ٢٩٧ - ٣١٨.

ناحية أخرى يبدو أن همفري الثالث حاكم الخليل آنذاك أدرك خطورة مد جسور الاتصال بين دمشق ومصر، فقام بتشديد الرقابة على القلاع الواقعة تحت سيطرته حيث السموع والكرمل والشوبك وغيرها في الوقت الذي رأى فيه نور الدين ضرورة تغيير هذا الوضع فلجأ إلى اتباع سياسة هجومية ضد الفرنج، ولعل أهم تحركاته العسكرية ذلك الهجوم الذي شنه بنفسه في أبريل ١١٧٠م / جمادى الآخرة ٥٦٥هـ. حيث ضرب حصارا على الكرك ونصب عليها المجانيق مدة أربعة أيام^(١)، وتكشف لنا أحداث هذا الهجوم عن رد فعل إقطاعية الخليل وسيدها همفري الثالث الذي رأى أنه لا يمكنه الوقوف مكتوف اليدين أمام الهجوم على ممتلكات زوجته ستيفانى في شرقى الأردن. وقد تنبه بعض المؤرخين المسلمين إلى الموقف الذي اتخذته الفرنج من حصار نور الدين للكرك فيقول ابن الأثير: «أنا الخبر أن الفرنج قد جمعوا له وساروا إليه، وقد جعلوا في مقدمتهم إليه ابن همفري وقريب بن الدقيق، وهما فارسا الفرنج في وقتها^(٢)». أما ابن كثير فيذكر أنه حينما أوشكت الكرك على السقوط في يد نور الدين تقدم هذان المقدمان نحو دمشق فخاف نور الدين أن تجتمع إليهما فرنج مملكة بيت المقدس فترك الحصار «ورأى أن يتوجه إلى دمشق لحمايتها»^(٣). غير أن همفري أدرك عدم مقدرة على مواجهة جيش نور الدين نظرا لقلّة عدد قواته فأسرع بالانسحاب تاركا المجال أمام جيش الدماشقة ينهب ويحرق ما على طريقه من القرى. وظل نور الدين يترصد بالفرنج حتى اطمأن على إنفاذ قافلة من التجار في حماية بعض العسكر فضلا عن نجم الدين أيوب وبعض من أصحاب صلاح الدين. ويرى ابن الأثير أنه لم يثن نور الدين عن مواصلة غزواته إلا وقسوع زلازل عظيمة متتابعة في بلاد الشام تركت آثارها السيئة من تهديم للقلاع، وتخريب للدور عانى منها كل من المسلمين والفرنج على السواء «فاشغل كل منهم بعمارة بلاده خوفا من الآخر»^(٤).

وفى طور آخر من الصراع تعرضت المنطقة الممتدة من الخليل إلى غزة في الأول من ديسمبر ١١٧٠م / العشرين من ربيع الأول ٥٦٦هـ لأول هجوم يخرج فيه صلاح الدين لقتال فرنجية بيت المقدس، ولم يعد إلى مصر إلا بعد أن أنزل الهزيمة بهم حتى أن

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٦٠.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٣٥٢؛ راجع أيضا : ابن التديم : المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢٩. ولم تكشف المصادر المختلفة ولا المراجع الناحية عن شخصية ابن دقيق.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٦٠ - ٦١، وقد أورد المؤرخ اسم همفري الثالث برسم «ابن القنرى».

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق، ج ١١، ص ٣٥٣ - ٣٥٤؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٦١.

الملك عمورى أفلت من الأسر بصعوبة^(١). وقد أرسل أسامة بن منقذ رسالة جافة إلى صلاح الدين أنه فيها على الانسحاب بعد أن اقترب المسلمون من الخليل^(٢). ويفهم من هذه الأحداث الحربية أن خطة صلاح الدين لم تشتمل فى هذه المرحلة على استعادة أى من بلاد المسلمين رغم أن الفرصة كانت متاحة أمامه لكى يضم الخليل، ولنا أن نلتمس له العذر فى ذلك؛ نظرا لأن استعداداته لم تكتمل بعد، كما أن تجربته ما زالت قاصرة فى مجال القتال ضد الفرنج، وتؤكد لنا عملية إسقاط صلاح الدين أيلة فى نهاية ديسمبر/ تاسع عشر ربيع آخر من نفس العام بفضل استخدام الجيش والأسطول^(٣) أنه كان يسير وفق مخطط مدروس حيث أدرك استحالة توغله بين القلاع اللاتينية فوق تلال الخليل وصحراء النقب ما دامت أيلة تقطع الطريق بين دمشق والقاهرة.

وفى المرحلة التالية نجد أن همفرى الثانى هو الذى تولى أمر شئون الخليل الحربية بل وشرقى الأردن نظرا لوفاة ابنه همفرى الثالث، وكذلك انشغال مليون دى بلانسى المسئول عن حماية شرقي الأردن بمشاركة الملك عمورى الأول فى حروبه فى شمال الشام. وكان همفرى الثانى قد أسرع إلى الكرك للدفاع عنها^(٤) ضد هجوم مشترك شرع القيام به كل من نور الدين وصلاح الدين فى مايو ١١٧٢م / شوال ٥٦٧هـ إلا أن الهجوم لم يستكمل بسبب نشوب الخلاف بين القائدين^(٥). ويذهب ابن الأثير إلى الإشارة بأن صلاح الدين حرص على عدم التوسع فى حرب الصليبيين ليزلوا حاجزا بينه وبين نور الدين الأمر الذى جعله يتخوف من أن يغدر نور الدين به فأنهى حصار الكرك، واتخذ من مرض والده نجم الدين أيوب ذريعة للعودة إلى مصر^(٦).

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج ١١، ص ٣٦٥؛ البندارى، سنا البرق الشامى، بيروت ١٩٧٠، ج ١، ص ١٨٠؛ الدمشقى : الدر الثمين فى سيرة نور الدين، مخطوط بمحافضة الإسكندرية ١٣٣٦ ب، ورقة ٩٥.

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار، ص ١١٢ - ١١٣، ويضيف أسامة أن صلاح الدين فضل العودة إلى القاهرة بسرعة لتدعيم تحصينات قلعتها، وأن هذا أمر كان لا يستدعى إنهاء القتال.

(٣) أبو شامة : الروضتين، ج ١، ص ١٩٢ - ١٩٣؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج ٢، ص ٤١؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٣٦؛ الحنبلى : شفاء القلوب، ص ٧٤، راجع أيضا : نعوم شقير : تاريخ سيناء، ص ١٩٩.

Röhrich, R., Geschichte des Konigreichs Jerusalem, p. 350.

(4) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, p. 375.

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج ١١، ص ٣٩٢؛ أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر، ج ٣، ص ٥٣.

(٦) ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص ٦؛ الكامل فى التاريخ، ج ١١، ص ٣٩٢، ٤٠٢؛ راجع أيضا : ابن الغازانى : تاريخ الغزائى مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٢٦، ج ٢، ورقة ٣٢١؛ ابن العديم : المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨؛ ابن كثير : المصدر ج ١٢، ص ٢٦٨.

وفى مايو - يونيو ١١٧٣م / ذو القعدة ٥٦٨هـ. أتت إلى الخليل حشود الصليبيين من شتى أرجاء المملكة واجتمعت عند قرية الكرمل الواقعة فى الجنوب استعدادا لمواجهة جيش صلاح الدين الذى بلغت أعداده فى ذلك الوقت أربعة عشر ألف مقاتل حيث شق طريقه عبر وادى عربة نحو الشوبك^(١). ووفقا لرواية وليم الصورى فقد بادر الملك عمورى بالتقدم عبر الصحراء، حيث النقب وبرة الخليل نحو جنوب الشوبك، إلا أنه أثر الارتداد إلى الحافة الهضبية الجنوبية لبلاد الخليل حيث الكرمل، ويبرر المؤرخ إقدام الملك على نقل معسكره إلى الكرمل بأنه من هذا الموقع يمكنه مراقبة تحركات صلاح الدين فإذا ما ظل الجيش الصليبي فى مواقعه الأولى جنوبى البحر الميت لربما دخل صلاح الدين وجيشه أراضي المملكة عبر شماله ويلحق بها التدمير والخراب، أما السبب الثانى فهو توافر المياه من حوض الكرمل القديم الذى كان كفيلا بتزويد الجيش بأسره بالمياه، إضافة إلى ذلك فالكرمل تقع بالقرب من منطقة شرقى الأردن إذ لا يفصل بينهما سوى غور الصافى ولهذا السبب فقد كان بإمكان الجيش الصليبي الحصول على أخبار تحركات صلاح الدين أولا بأول^(٢)، هكذا نجح صلاح الدين فى شل حركة الجيش الصليبي فوق أرض الخليل؛ وأثبت أنه يتقن فن المراوغة والتخطيط الحربى مرة أخرى، وأضحت كل منطقة شرقى الأردن مكشوفة أمامه فاجتاحها، وظل حتى نهاية شهر سبتمبر من نفس العام / أوائل صفر ٥٦٩ هـ. ينهب ويقطع الأحراش والكروم ويدمر القرى خارج القلاع^(٣).

ولكن إلى أى حد ارتبطت أهداف هجوم صلاح الدين على شرقى الأردن بالتأثر على الوضع العسكرى لإقطاعية الخليل الصليبية؟، توضح المصادر الإسلامية المعاصرة ذلك بشئ من المبالغة فذكرت أن صلاح الدين أغار على بعض العشائر البدوية المقيمة حول الكرك والشوبك فى شرق وجنوب البحر الميت، وكان هؤلاء ينقلون الأخبار إلى الصليبيين فأنزل بهم قتلا وتشريدا حتى لم يبق فى بلادهم أحد من العربان «وإذا نهض الفرنج لا يجدوا بين أيديهم دليلا»^(٤). وكتب صلاح الدين إلى نور الدين يخبره بأن

(1) William of Tyre, Op. Cit., Vol. pp. 387 - 388; Rohricht R., Geschichte des Konigreichs Jerusalem, p. 357.

المقريزى : السلوك، ج ١١، ق ١، ص ١٢٢؛ نظير حسان : جيش مصر فى أيام صلاح الدين، ص ٨٠.
(2) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, p. 388.

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٤٥، أبو شامة : المصدر السابق ج ١، ص ٢٠٦، وانظر أيضا : Ibid, Vol. II, pp. 388 - 389.

(٤) أبو شامة : الروضتين، ج ١، ص ٢٠٦، راجع أيضا : سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان، ج ٨، ق ١، ص ٢٩٢.

أولئك العربان «كانوا آفة على المسلمين ودليلا للكفار على الإسلام»^(١)، فاستحسن نور الدين ما فعله صلاح الدين معهم، غير أنه رأى من الكياسة بعد أن أتم تأديبهم أن يسوس من تبقى منهم بالليين وحسن المعاملة بإقطاع أمرائهم القطائع حتى لا يتعرضوا للحجاج^(٢).

وأحداث تلك الحملة تظهر الشق الآخر من السياسة التي وضعها صلاح الدين في التعامل مع البدو؛ فقد رأينا من قبل اتجاهه لضم بعض من قبائلهم لاستخدامهم في الجيش، وها هو الآن يتجه إلى معاقبة البعض الآخر الذين تعاونوا مع الفرنج في قطع طرق القوافل الإسلامية، وكان هؤلاء الذين تعرضوا للعقاب قد امتد نشاطهم الخائن بل وسكناهم في كل من بلاد الخليل وشرقي الأردن. أما وقد انتهى صلاح الدين من توجيه حملته التأديبية ضد البدو الخارجين فقد أثره سيده نور الدين محمود اتباع سياسة ذكية معهم حتى لا يجنحوا تماما للفرنج على أنهم الملاذ الوحيد من عقاب السلطة الإسلامية. ومن الطبيعي أن تكون القطائع التي أقطعت لهم في إطار تلك السياسة المرنة تقع في جهات خاضعة لمصر وقرية من مواطن البدو حيث سيناء والأراضي القريبة من أيلة وفي وادي عربة.

ومهما يكن من أمر فقد انتهت تلك الحملة بعد أن ضرب صلاح الدين الحصار حول الشوبك لعدة أيام وأشرفت حاميتها على التسليم بأن صدرت الأوامر للجيش المصري بفض الحصار والعودة بدون تحقيق مكاسب ذات بال^(٣). وهناك عدة تفسيرات لهذا الموقف منها ما ادعاه صلاح الدين نفسه بأن الأوضاع الداخلية في مصر حتمت عليه العودة لإقرار الأمور بها في حين أعده نور الدين بمثابة خيانة تستوجب استخدام القوة لانتزاع مصر من يد صلاح، غير أن الأخير استخدم السياسة في تخفيف وطأة ما أقدم عليه وقدم الاعتذارات التي أجلت فقط رد فعل سيده نور الدين^(٤).

وأثناء فترة إشراف همفري الثاني عسكريا على إقطاعية الخليل، شهدت القوى المجاورة تغيرات هامة حيث توفي نور الدين في السادس عشر من مايو ١١٧٤م / الرابع من شوال ٥٦٩هـ^(٥)، كما توفي عموري ملك بيت المقدس في الحادي عشر من يوليو / الثامن من ذي الحجة من العام ذاته، وبذلك أصبح

(١) سبط ابن الجوزي : المصدر السابق، ج ٨، ق ١، ص ٢٩٩ - ٢٩٣. راجع أيضا : العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان : مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٥٨٤ تاريخ، ج ٢١، ق ٣، ورقة ٥٠٥، ٥٣٨.

(٢) ابن خلكان : المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٥؛ ابن كثير : المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٧٠.

(٣) أبو شامة : الروستين، ج ١، ص ٢٠٦.

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٣٧١ - ٣٧٢؛ ابن كثير : المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٧.

(٥) ابن العديم : المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٣٦؛ أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر، ج ٣، ص ٥٥.

الميدان خاليا أمام صلاح الدين لتحقيق آماله بتوحيد الجبهة الإسلامية بحيث تضم كلا من مصر والشام والعراق^(١). وفي أواخر نوفمبر/ جمادى أول من نفس العام خرج صلاح الدين في طريقه إلى دمشق لإرساء الأوضاع فيها بعد وفاة نور الدين سالكا وادي عربة^(٢)، ولم يصطدم في طريقه بقوات الخليل وشرقي الأردن التي كانت تتحكم في هذا الطريق .

وفي فترة السنوات الأربع التالية لم يبرز للخليل دور عسكري مميز حيث حظيت الإقطاعية، وكذلك شرقي الأردن التي تعد امتداداً إقطاعياً لها، بقدر كبير من الهدوء، إذ انشغل صلاح الدين بضم عدد من مدن الشام إلى دولته أثناء تلك الفترة ، ومن أهمها دمشق التي استولى عليها «بلا ضربة ولا طعنة» في التاسع والعشرين من نوفمبر ١١٧٤م / نهاية ربيع الآخر ٥٧٠هـ. وكذلك حماء وحمص وبعبلبك^(٣). ومن ناحية أخرى اهتزت الأوضاع الداخلية في مملكة بيت المقدس بعد وفاة عموري حيث تولى أمرها صبي مريض هو بلدوين^(٤) الرابع، فأصبح مجال المنازعات الداخلية مفتوحاً بين القادة. وعلى هذا أخذ ميزان القوى في الشرق الأدنى الإسلامي يميل لصالح المسلمين.

وقبل الانتقال للتعرف على الدور العسكري لإقطاعية الخليل في ظل حكم رينو دي شاتيو لها يجدر أن نلقى نظرة شاملة على الدور العسكري للإقطاعية وفرسانها خلال فترات حكم أفراد أسرة آل همفري المتداخلة لها فيما بين عامي (١١٤٩ - ١١٧٧م/ ٥٤٥ - ٥٧٣هـ) وبداية فمن الصعب بمكان تمييز دور منتظم ومحدد لإقطاعية الخليل الصليبية سواء بالقرب من حدودها مع المسلمين أو بعيداً عنها ، فبداية تمثل الجهد العسكري لدى همفري الثاني في سنوات حكمه الأولى للخليل في ظهوره كأبرز القادة

(١) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٨ ، راجع أيضاً :

Grousset : Histoire des croisades , Vol. II , P. 598 .

(٢) المفريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٨ . ويعتقد أحد الباحثين أن صلاح الدين قد سلك طريق بئر سبع وهو في طريقه إلى شرق الأردن ثم دمشق . وهذا يتعارض مع ما ورد في المصدر المذكور ، فضلاً على أن طريق وادي عربة كان يعد أكثر أماناً بعد استرداد صلاح الدين لآيلة الواقعة عند بداية الوادي من ناحية الجنوب . انظر :

Smith , G. A. , The Historical Geography of the Holy Land , P. 278 .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١ ، ص ٤٠٢ ، ٤١٦ - ٤٢٠ ؛ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٢٦ - ٣٢٩ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٥٠ ؛ أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ، ج ٣ ، ص ٥٦ ؛ اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٣ ، ص ٣٩٢ ؛ العليمي : الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .

(4) William of Tyre , Op. Cit., Vol. II , PP. 489 - 292 .

راجع أيضاً : العماد الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٦٧ - ٦٨ .

الذين خرجوا مع بلدوين لتوطيد سلطة الصليبيين في شمال الشام ، وفي المشاركة في تشييد القلاع الصليبية ، ولعل أبرز جهوده العسكرية في الداخل أيضا مؤازرته للملك للانفراد بالسلطة في بيت المقدس . أما فترة ما بعد شغله وظيفة الكونسطبل العسكرية الهامة في عام ١١٥٢م / ٥٤٧ هـ ، فقد اختلطت فيها دوافعه وحيثياته ، وبالتالي أنشطته الحربية ، كما أنه حار خلالها ممتلكات متباعدة شملت أجزاء تقع شمالي المملكة في تبين وبانياس فضلا عن أراضي إقطاعية الخليل في الجنوب . أما دور همفري الثالث العسكري ، فكانت مسؤوليته محدودة فقط في الدفاع عن كل من إقطاعيتي الخليل وشرقي الأردن ، ونظراً للأوضاع السياسية في مصر والشام في الفترة التي عاصرت مدة سيادته على الإقطاعيتين والسباق الذي حدث من أجل الاستيلاء على مصر فلم يبرز لهمفري الثالث دور عسكري ذو مغزى ، اللهم إلا خروجه من الخليل لرفع حصار نور الدين محمود للكرك في عام ١١٧٠م / ٥٦٥ هـ وكانت وفاته في سن الشباب قد ألقت عبء الخليل وشرقي الأردن على كاهل أبيه همفري الثاني لحماية ممتلكات حفيده الصغير همفري الرابع ، ولعل آخر ما قام به همفري الجسد في هذا الإطار خروجه عام ١١٧٢م / ٥٦٧ هـ للدفاع عن الإقطاعيتين ضد جيشين قوين هما جيشا نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي والتي ساعدت الظروف على اتحادهما تحت قيادة واحدة في السنوات التالية .

وهكذا يمكن القول بأن هناك فترة انتقالية قد برزت في التاريخ العسكري لإقطاعية الخليل ، إذ تغيرت السلطة تدريجياً وبسرعة فخرجت من أيدي أسرة آل همفري إلى رينودي شاتيو ، فقد كان همفري الثاني يتمتع بقوة ونفوذ ملحوظين على عهد كل من الملكين بلدوين الثالث وعموري الأول ، ويظهر جوسلين دي كورتناي كمستشار للملك بلدوين الرابع في عام ١١٧٦م . / ٥٧١ هـ . انزوت شخصية همفري وأصبح توقيعه على الوثائق يلى توقيع جوسلين الثالث^(١) . ويبدو أن عامل كبر السن كان له تأثيره ، ذلك أن وظيفة همفري قائداً لجيش مملكة بيت المقدس بحكم منصبه ككونستبل للمملكة تتطلب من هو أكثر حيوية ونشاطاً ، وقد توافرت تلك الصفات في رينو دي شاتيو الذي احتل موقعاً هاماً بين نبلاء المملكة نتيجة لزواجه من ستيفاني دي ميلى في عام ١١٧٧م / ٥٧٣ هـ . وكما سنلاحظ فإن رينو قد قام بمهام تلك الوظيفة بشكل عملي رغم احتفاظ همفري الثاني بالمنصب حتى وفاته حيث لم نجد في المصادر ما يشير إلى عزله عنه ، وهذا بالطبع سوف ينعكس على الدور العسكري لفرسان الخليل حيث أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من جيش رينو المؤثر القوى نسبياً . وكان موقع البلاد والقلاع التي استحوذ رينو عليها حيث الخليل والكرك والشوبك ووادي موسى وأيلة وغيرها سبباً

(1) Rohricht , R., Regesta , Doc. No. 553 .

أساسياً في دعم موقف رينو العسكري؛ نظراً لأن مناطق سيادته تلك تحكمت في طرق التجارة التي كثيراً ما استخدمت في المجال الحربى بين مصر والشام ، بل وفي حركة الحج الإسلامى . وبذلك تضاعفت الظروف كى تجعل من رينو قائداً صليبياً ينتظر منه الكثير لتدعيم موقف الفرنج في منطقة الشرق الأدنى الإسلامى .

عنى رينو دى شاتيو منذ البداية بتجهيز جيش قوى ربما لإدراكه الواقع الحرج الذى أضحت عليه بلاد الصليبيين نتيجة توحيد الجبهة الإسلامية في مصر ودمشق ، وكذلك للزعزعة التى تملكته منه فى مناوأة المسلمين باستمرار ، فكان عدد الستين فارساً الذين جاء عشرون منهم من الخليل بشكل دعامة جيشه الأساسية . وقد كون هؤلاء الفرسان طبقة اجتماعية مرموقة فى المجتمع الصليبي ، ولجئ رينو فى إضافة أعداد أخرى من الفرسان الوافدين من أوروبا فضلاً عن مجموعة أخرى يطلق عليهم « صغار الفرسان » وهم من أبناء الصليبيين الذين جاءوا أخيراً وفضلوا الإقامة فى بلاد الشام وشاركوا فى الحركة الصليبية من قبل ، فضلاً عن عدد كبير من الحجاج الذين كانوا ينخرطون فى المجهود الحربى مع رينو بشكل مؤقت كمتطوعين . ونظراً للشهرة الواسعة التى اكتسبها رينو فى الغرب على أنه رائد الغزوات الصليبية ضد المسلمين ، فقد أعربت أعداد ضخمة من الفلاحين الأوربيين عن رغبتهم فى القدوم والاشتراك فى جيش رينو . وأضف إلى هذا وذاك فقد كانت هناك الجنود المرتزقة الذين جاءوا من مصادر مختلفة ، وكذلك كما كان رينو يعقد المهادنات مع القراصنة وقطاع الطرق من البدو ويفرض عليهم مشاركته لفترات محددة من السنة للخدمة فى جيشه مقابل عدم توقيع العقوبات عليهم^(١).

وقع أول اختبار حقيقى تعرض له رينو كحاكم للخليل عند أطراف مناطق سيادته فيها ، إذ تعرضت الإقطاعية لخطر هجوم صلاح الدين عليها ، كما ساهمت الإقطاعية بسهم وافر فى التصدى لهذا الخطر وذلك فى أواخر نوفمبر ١١٧٧م/ الأسبوع الأخير من جمادى الأولى ٥٧٢ هـ ، وحددت المصادر الإسلامية الهدف من وراء الهجوم بأن صلاح الدين كان يرغب فى جهاد الفرنج^(٢). ولكن يستشف من الأحداث أنه استهدف أيضاً تحقيق بعض الفتوحات ، فحينما علم الملك بلدوين الرابع بزحف جيش صلاح الدين نحو عسقلان بادر على رأس خمسمائة من فرسانه بدخول المدينة لحمايتها ، وحينئذ ضرب صلاح الدين الحصار حول عسقلان وقاد غالبية جيشه نحو عمق المملكة فأدرك الملك الصليبي ذلك فطلب مساعدة القوات الفرنجية التى فوق الجبال^(٣)، غير أن الفرنج « غابوا وانقطعت أخبارهم ولم تعرف أسرارهم »^(٤). ويفهم

(1) Schlumberger , G., Renaud de Chatillon , P. 176 .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٤٤٢ .

(3) William of Tyre , Op. Cit., Vol. II PP. 425 - 426 .

(٤) العماد الاصفهاني : البرق الشامى ، ج ٣ ، ص ٥٤ . راجع أيضاً : ابن الشحنة ، روضة المناظر فى أخبار الأوائل والأواخر ، ج ٢ ، ص ١٥٤ .

من تلك الإشارات أن الملك استنجد برينو دى شاتيو وقواته فى الخليل نظراً لأن الجبال التى تقع المدينة فوقها هى أقرب الجبال من الأحداث . ويبدو أن رينو كان لا يزال مشغولاً بترتيب البيت الصليبي فى الخليل وشرقى الأردن حين بلغته أنباء الهجوم فبادر بتنظيم جيشه للدخول فى المعركة فاستغرقت هذه الترتيبات بعضاً من الوقت .

وفى محاولة لتصوير الموقف العسكري للجانيين الإسلامى والصليبي فى غربى الخليل ، نجد أن صلاح الدين تقدم بجيشه الذى تراوحت أعداده بين أربعة وعشرين وستة وعشرين ألف مقاتل إلى الأعمال الفرنجية التى تلى عسقلان^(١)، فى الوقت الذى تم فيه تخصيص بعض القوات الإسلامية لمحاصرة المدينة وبداخلها الملك وجيشه، فى حين بقيت الحاميات فى المدن والقلاع الصليبية للدفاع عنها، الأمر الذى جعل من مملكة بيت المقدس أرضاً مكشوفة أمام هجوم المسلمين، مما وضع الصليبيين فى موقف حرج للغاية^(٢)، ولذلك تشجعت قوات صلاح الدين للإغارة على الفرنج فستقرت وتوغلت فى أراضيهم ودخل قراهم « تنهب وتأسر وتقتل وتخرج فى طلب الغنائم » ولم تتمكن قوات الفرنج من الخروج لصدهم، « وتوسط صلاح الدين بلادهم عازماً على أن يقصد بعض حصونهم ويحاصرها »^(٣). وما لبث أن وصل صلاح الدين ومن معه من قوات إلى الرملة ، وكانت حاميتها قد انضمت إلى جيش الملك فى عسقلان، فأحرقوها وهاجموا اللد . ويصف المؤرخون الصليبيون حالة المعسكر الصليبي فى هذا الموقف فيذكرون أن غارات الفرق العسكرية الأيوبية قد بلغت كل البقاع الممتدة من أرسوف إلى نابلس، حتى لم يتمكن الرعب من قلوب الفرنج فى تلك الجهات فحسب، بل أيضاً من أولئك الذين يعيشون فوق جبل يهوذا، حيث القدس^(٤) والخليل . وفى تلك الأثناء خرج الملك الصليبي وجيشه من عسقلان بمحاذاة الساحل على أن يتوغل يميناً فى الوقت المناسب لمواجهة صلاح الدين ، وكما هو واضح كان ذلك ضمن خطة عسكرية تم وضعها على عجل بالتنسيق مع قائده رينو المربط فى قلعة الخليل عن طريق المراسلات .

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٣ .

William of Tyre , Op. Cit., Vol. II , P. 432 .

وقد تناولت إحدى الدراسات جيش صلاح الدين فى هذه المعركة من حيث التسليح والتنظيم والإعداد ، انظر : نظير حسان : جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، ص ١٣ .

(2) Ibid , Vol. II , P. 426 .

العماد الأصفهاني : البرق الشامى ، ج ٣ ، ص ٥٤ - ٥٥ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٤٤٢ ، راجع أيضاً : ابن واصل : المصدر السابق ،

ج ٢ ، ص ٥٩ ؛ العماد الأصفهاني : البرق الشامى ، ج ٣ ، ص ٥٤ - ٥٥ .

(4) Ibid , Vol. II , PP. 427 - 428 ; Ernoul , Op. Cit., PP. 43 , 47 - 48 ; Roger de Hoveden , Chronica , ed., W. Stubbs , R. S., London 1868 , Vol. II , P. 81 , Cf. Als.

ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٨٩ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٤٤٢ .

وهنا يأتي دور قوات الخليل الرائد تحت قيادة رينو دي شاتيو الذي تمهل بعض الوقت ربما لاستدعاء فرسان حاميات قلاع شرقى الأردن للانضمام إليه فى الخليل، وأسّرت تلك القوات إضافة إلى فرسان البلاد الجبلية المجاورة، وتولى رينو قيادة الجيش وتمكن من مهاجمة قوات صلاح الدين عند واد يمر بقرية تل الجز^(١) Montgisard فى السادس والعشرين من نوفمبر ١١٧٧م/ الثانى من جمادى الآخرة ٥٧٣ هـ.^(٢) وعلى ذلك ذهب المؤرخون إلى أن أطلقوا على هذه المعركة اسم تل الجز^(٣) أو تل الصافية^(٤) أو واقعة الرملة^(٥) أو كسرة الرملة^(٦) نظراً لقرب هاتين البلديتين منها، والباحث يميل إلى استخدام مسمى موقعة تل الصافية لقربها الشديد من الأحداث مقارنة بالرملة.

على كلٍ تلخص وقائع المعركة فى أن جيش صلاح الدين فوجئ بهجوم فرنجى مضاد من جهة الشمال يوم الجمعة السادس والعشرين من نوفمبر ١١٧٧م/ ثانى جمادى الآخرة ٥٧٣ هـ^(٧)، وورد فى رواية صلاح الدين نفسه للأحداث ما معناه، أن الفرنج

(1) William of Tyre , Op. Cit., Vol. II , PP. 429 - 430 ; Ernoul , Op. Cit., P. 54 ; Michael le Syrien , Chronique , Vol. III , P. 373 .

ومن المؤرخين المسلمين المعاصرين الذين أشاروا إلى قيادة رينو والمقاومة ضد الهجوم . راجع : ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٥٣ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٤ ؛ سبط بن الجوزى : المصدر السابق ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٤٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٥٩ ؛ المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٦٤ ؛ وتل الجزر : حصن من أعمال فلسطين ؛ راجع : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤١ ، وبالتحديد فإن تل الجزر يقع إلى جنوب شرق الرملة ويعرف موقعه الآن باسم « أبو شوشة » انظر : فيليب حتى ، تاريخ سوريا ، ص ٢٦ ؛ مصطفى الدباغ : القبائل العربية فى فلسطين وشمالها ، ص ٣٢ .
(٢) المقرئى : المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(3) Schlumberger , G., Renaud de Chatillon , PP. 183 - 186 .

(٤) أبو شامة الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٣ ؛ سبط بن الجوزى : المصدر السابق ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٤٢ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٩ ؛ المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٦٤ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٥٧ .
(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٥٣ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٤٤٢ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٢٩٧ ؛ الخبلى : شفاء القلوب ، ص ٩٣ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٤٨ ؛ ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٥٣ .

(٦) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ . والجدير بالذكر أن العماد الاصفهاني المعاصر للأحداث لم يتطرق فى روايته إلى الكسرة التى تعرض لها الجيش الإسلامى واكتفى بالإشارة إلى المعركة باسم « توبة الرملة » راجع : البرق الشامى ، ج ٣ ، ص ٥٣ - ٥٥ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٦ ؛ أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٧ .

(٧) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

انتهزوا فرصة انشغال جيشه بتنظيم الصفوف استعداداً للقتال ، بينما جعل «الميمنة إلى جهة اليسرة والميسرة إلى جهة القلب» ، وانقضوا على المسلمين فأوقعوا بهم الهزيمة^(١) . وهناك إشارة أوردها الحنبلي يذكر فيها ، أن الملك المظفر تقي الدين ابن أخى صلاح الدين قد «أمر ابنه أحمد بالصعود لمقاتلة الفرنج» ولكنه ما لبث أن استشهد^(٢) ، كما يشير ابن الوردي إلى نفس المعنى بالقول : «فطلعت الفرنج» وصلاح الدين فى بعض العسكر^(٣) . أما المقرئى فيذكر أنه حينما احتشد المسلمون بالوادي «أشرف الفرنج عليهم»^(٤) . يفهم من هذه الإشارات المختلفة أن رينو وفرسانه قد اتخذوا من جانب الوادي المرتفع موقعاً لهم تمكنوا من فوقه من السيطرة على ميدان المعركة^(٥) ؛ نظراً لمرايضة غالبية المسلمين فى وادي الخليل المنخفض عنهم . وبدا لنا أن تخيل أن رينو دى شاتيو نجح وهو فى قلعة الخليل فى الاتصال بحاميات المدن الصليبية التى يسهل عليه النفاذ إليها من خلال الأودية فوق الجبال ، وتقدم على رأسها سالكا وادي الخليل منحدرًا إلى موقع المعركة . وجدير بالذكر أن وادي الخليل الذى شهد أحداث القتال لابد أن يكون جافاً فى هذه الآونة إذ إنه من الأودية التى تغمرها مياه الأمطار فى فصل الشتاء الذى لم يبدأ بعد .

هكذا باغتت القوات التى قادها رينو جيش صلاح الدين بحيث لم يتوافر لديه من الوقت ما يكفى لإعادة حشد قواته المتأثرة البعيدة عنه والتى تقدر بما يزيد عن العشرين ألف مقاتل^(٦) ، وهذا العدد يشكل أربعة أحماس الجيش بأسره أما من تبقى حول صلاح الدين من فرسان فقد لاذوا بالفرار إلا حرسه الخاص من القاراغلامية^(٧) .

(١) انظر ابن شداد : نفسه ، ويجدر بالذكر أن هذا المؤرخ المعاصر أورد أحداث المعركة باختصار شديد واكتفى فقط بالإشارة إلى الهزيمة .

(٢) الحنبلي : شفاء القلوب ، ص ٣٣٧ ، الملك المظفر تقي الدين هو عمر شاهنشاه بن أيوب بن شادى ، كان رجلاً فاضلاً أديباً شجاعاً واهتم ببناء المدارس فى مصر والشام ، وبالحرارة الأدبية والعلمية (توفى فى الثامن عشر من سبتمبر ١١٩٣م / التاسع عشر من رمضان ٥٨٩هـ) راجع السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٤ ، ص ٢٨٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٤٩ ؛ المظفرى : تاريخ المظفرى ، مخطوط .

(٣) ابن الوردي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨٧ .

(٤) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٦٤ .

(٥) يقدر أحد المؤرخين الحداثيين مساحة ميدان المعركة بأربعة أميال مربعة ، أى حوالى ستة كيلومترات ونصف مربعة . راجع :

Schlumberger , G., Renaud de Chatillon , P. 191 .

(٦) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ . ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .

(7) William of Tyre , Op. Cit., Vol. II , PP. 432 - 437 .

ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٥٣ . والقاراغلامية عبيد سود أو ممالك ، تم إعدادهم إعداداً خاصاً ليكونوا جنداً خاصاً بالسلطان ، ولهم رى مميز . راجع :

Ibid , Loc. Cit., Roehricht , R., Geschichte des Kohigreichs Jerusalem , P. 377 .

«ولولا أن الليل حل وحجز بينهم لم يتبق من المسلمين أحد»^(١) وحينئذ ولى الجيش الأيوبي الأديبار إلى مصر فى وقت قصير بعد أن خلف وراءه كل ما حازه من غنيمه وأسرى، وقذف الفرسان بأسلحتهم إلى الأرض ليخفوا فى الانسحاب^(٢) وعزا أبو الفرج ابن العبرى فى تاريخه المعاصر حالة الفوضى التى عمت بين الجيش الإسلامى إلى هبوب ريح عاصفة فى وجوههم أثارت الرمل فى عيونهم^(٣) أما المؤرخون المسلمون فإنهم يرجعون خسائر المسلمين الضخمة فى الأرواح إلى أنهم «لم يكن لهم حصن قريب» يلجأون إليه^(٤).

وأياً ما كان الأمر فقد وقعت الهزيمة فى جيش المسلمين وحاول صلاح الدين أن يجمع فلول قوائمه «ومضى فى نفر يسير إلى مصر... أما العسكر الذى كانوا دخلوا بلاد الفرنج فى الغارة فإن أكثرهم ذهب ما بين قتل وأسير»^(٥). ولقى جيش صلاح الدين مشقة كبيرة أثناء اجتيازه شبه جزيرة سيناء، حيث طاردهم الفرنج فقتلوا الكثير منهم «ومن سلم من الناس مات جوعاً وعطشاً»^(٦). كما انتهز البدو فرصة انهزام الجيش فأعملوا فيهم السلب والنهب بل والقتل فبات من بقى منهم فى أسوأ حال^(٧). ووصل صلاح الدين القاهرة فى الثامن من ديسمبر ١١٧٧م/ نصف جمادى الآخرة ٥٧٣ هـ وهو فى حالة معنوية يرثى لها^(٨).

أما عن النتائج المترتبة عن موقعة تل الصافية فأول ما يتبادر للذهن ظهور رينو دى شاتيو على أنه بطل الصليبيين الأول، وقد ساعدت الظروف مملكة بيت المقدس الداخلية

(١) الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ٩٣ .

(2) William of Tyre , Op. Cit., Vol. II , PP. 430 - 434 ; Michel le Syrien , Op. Cit., Vol. III , P 373 .

(3) Bar Hebraeus . The Chronography , ed. and trans. by E. A. Wallis Budge , Oxford 1932 , Vol. I , P. 341

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٤ .

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٤٤٢ - ٤٤٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٦٠ ؛ ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، ص ٨٧

(٦) الحنبلى : المصدر السابق ، ص ٩٤ .

(7) William of Tyre , Op. Cit., Vol. II , P. 534 .

المظفرى : التاريخ المظفرى ، مخطوط .

(٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٤٤٣ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٤ ؛ المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٦٥

ولعل أفضل من وصف حالة صلاح الدين والجيش المنسحب من المؤرخين الحديثين

Paine Luran , Saladen Aman for ages , London 1974 , PP. 96 - 99 .

على بروز رينو فى هذا الموقف حيث تقلصت سلطة الكونستابل همفرى الثانى أمامه ، كما كان بلدوين الرابع شاباً مريضاً صغير السن بلا وصى يتولى شئون المملكة، ومن ناحية أخرى أكدت جغرافية المكان حيث أطراف بلاد الخليل ، على أنها عنصر فعال فى مجال الحرب وسلاح ماضى فى يد من يجيد استخدامه، فمن قبل تمكن المسلمون فى معركة ١١٣٩ م / ٥٣٤ هـ من استغلال طبيعة نفس المنطقة أحسن استغلال، وها هو رينو أثبت مقدرته فى استخدام هذا العنصر لصالحه، فكان بصدق درساً أفاد منه صلاح الدين أيما إفادة فى حروبه التالية حيث أخذ يضع دائماً فى حسابه عنصر تأثير جغرافية المكان وطبيعته على المعارك ، فأخذ ينتقل من نصر إلى نصر. ولعله أيقن بعد تلك الهزيمة أنه لا مجال لمهاجمة عمق مملكة بيت المقدس انطلاقاً من مصر ، إذ تدل الغزوات اللاحقة على أنه جعل من دمشق قاعدة لمثل هذه الغزوات . والملاحظ أيضاً أن صلاح الدين قد حرص فى غزواته اللاحقة على إيجاد قاعدة متقدمة لجيشه قريبة من بلاد الفرنج حتى يسهل لجنده الانسحاب إليها فى حالة حدوث تطورات سلبية أثناء القتال ، وقد تجلّى ذلك فى غزواته المتكررة للجليل وشرق الأردن ، أما وقد توقفت الأعمال العسكرية فوق أرض الخليل وحولها خلال المرحلة التالية من مراحل الصراع الإسلامى الصليبي ، فهذا يؤكد على تعثر إيجاد قاعدة قريبة للمسلمين .

ويمكن تقييم الدور الذى لعبه بدو الخليل والمناطق المجاورة لها فى المعارك بأنه كان ذا شقين؛ ففيما يخص المواقف المخزية التى تحسب عليهم ، فقد تعاونت عشائر قبيلتي جذام وثلعية مع الفرنج ضد صلاح الدين ، كما أن بعضهم لم يكن مخلصاً الإخلاص كله لجيوش المسلمين ، فطعنوهم من الخلف ، وآذوهم فى خطوط تموينهم وطرق مواصلاتهم ، وخرجوا على النظام والطاعة ، وسلبوا المعسكر الإسلامى عندما انهزم المسلمون فى المعركة^(١). ومن المواقف الإيجابية، إنضمام بدو الكنانية الذين ينتسبون إلى قبيلة كنانة المهاجرة من عسقلان بعد سقوطها فى أيدي الصليبيين إلى صلاح الدين فى المعارك^(٢) حيث استخدمهم فى مواضع كثيرة واستعان بهم فى كشف الطرق والوديان وخاصة فى سيناء .

لم تمض فترة طويلة على معركة تل الصافية حتى خرجت قوات الخليل وشرقى الأردن تحت قيادة رينو دى شاتيو فى أول غارة له خارج مناطق سيادته الصليبية إلى شبه جزيرة سيناء لمهاجمة قلعة سدر^(٣) متهزين فرصة انتقال صلاح الدين إلى

(١) نظير حسان : جيش مصر ، ص ١٤ ، ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٦٠ .

(٣) لعلها قلعة الجندي التى شيدت على أحد جبال « الراحة » على بعد اثنين من الكيلومترات شمال عين سدر، وهى بذلك تشرف على مساحة واسعة من السهول والجبال الأقل ارتفاعاً فى كل اتجاه ، أنقاضها تدل على أنها كانت على قدر عظيم من الحصانة والقمامة والإتقان ، ولها بوابة كبيرة فى الجهة الشمالية =

دمشق فى السادس عشر من أبريل ١١٧٨م/ الرابع والعشرين من شوال ٥٧٣ هـ غير أن رينو «لم يتم له أمر، وصرف الله شره وكفى أمره» إذ اضطّر هو وفرسانه إلى العودة^(١). ويتضح من هذه الأحداث أن قوات الخليل كانت تعد دعماً لقوات شرقى الأردن، وفى المقابل كان فرسان شرقى الأردن سنداً لفرسان الخليل فى كل جهود رينو العسكرية الهدامة ضد المسلمين، وتعكس هذه الغارة طبيعة رينو العدوانية منذ البداية؛ نظراً لأن قلعة سدر كانت تحمى بالدرجة الأولى طريق الحجاج المسلمين العزل من السلاح، ومهاجمة القلعة فى هذا الوقت الذى يتفق مع بدء موسم الحج تعكس رغبته المبكرة فى تهديد حركة الحج الإسلامى والسيطرة على طريق التجارة من بداياته فى مصر. وفى أغلب الظن أن رينو اعتمد بالدرجة الأولى على فرسان الخليل فى هذه الغارة نظراً لقربها الجغرافى النسبى، وعليه فلعل إستراتيجية هذا القائد قامت على أساس الاعتماد على الفرسان الذين هم أقرب لمكان الأحداث، على أن يقوم المقيمون فى قلاعه الأخرى بتقديم الدعم لقوة الهجوم الأساسية سواء كانت فرسان الخليل أو الكرك أو الشوبك.

تواصل نشاط رينو دى شاتيو الحربى ضد المسلمين، وتعددت الجولات التى كان ينبغى لفرسان الخليل الاشتراك معه فيها ويادئ ذى بدء فقد كانت قلاع الخليل إضافة إلى قلعتى الكرك والشوبك التى يسيطر عليها رينو لا تتحكم فى الطرق التجارية والحجاج فحسب، بل تتحكم فى الطريق البرى والعسكرى الرئيسى الذى يربط بين جناحى الدولة الأيوبية فى مصر والشام، ومع ذلك لم يدرك هذا القائد حساسية الدور الرئيسى الذى ينبغى أن يقوم به وهو فى ذلك الموقف^(٢). إذ كانت الهدنة قد عقدت بين صلاح الدين والصليبيين فى مملكة بيت المقدس فى مايو ١١٨٠م/ شعبان ٥٧٦ هـ بشرط أن «المسافرين يسافرون» وألا تنقطع حركة القوافل بين الشام ومصر^(٣). وبموجب هذه الهدنة كان ينبغى للخليل أن تنعم بقسط من الهدوء، إلا أن سيدها رينو تناسى الهدنة ونقضها بأن خرج فى العام التالى وأوغل بجيشه الذى يضم فرسان الخليل فى صحراء العرب حتى تيماء، وتيماء هذه واحة مهمة لوقوعها فى منتصف

= الغربية وفوق عتبة الباب حجر تاريخى كبير مربع الشكل نقش عليه كتابات تدل على أنها شيدت فى عهد صلاح الدين الأيوبي. ولمعرفة المزيد عن القلعة. راجع: نعمون شقير: تاريخ سبنا، ص ٥٣٣ - ٥٣٤.

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٦٤؛ راجع أيضاً: المقرئى: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٦٥.

(2) Ernoul, Op. Cit., PP. 62 - 63. Cf. Als. Hamilton, B., The Elephant of Christ, P. 105.

سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٧٧.

(٣) ابن أيلك الدوادارى: كثر الدرر وجامع الغرر، ج ٦ (الدرة المضيفة فى أخبار الدولة الفاطمية) ص ٥١؛ ابن الشحنة: روضة المناظر فى أخبار الأوائل والأواخر، ج ٢، ص ١٥٧. راجع أيضاً:

William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, PP. 466 - 468.

الطريق بين الشام والمدينة المنورة حيث تقع على طريق الحجاج^(١)، وهى تبعد ما يزيد عن الألف كيلومتر من ممتلكات رينو، الذى كان يهدف إلى «الاستيلاء على تلك النواحي الشريفة»^(٢). وما أن سمع عز الدين فرخشاه ابن أخى صلاح الدين ونائبه بدمشق ذلك حتى أغار فى صيف ١١٨١م / ٥٧٨ هـ على مناطق سيادة رينو فى شرقى الأردن «ونهبها وخربها واكتسح نواحيها»^(٣). مما جعل رينو يعجل بالعودة لصد الهجوم، وفى طريق العودة هاجم قافلة دمشقية كانت فى طريقها إلى مكة وسلبها^(٤).

أدرك الملك بلدوين الرابع خطورة الأعمال التى أقدم عليها رينو، ليس بالنسبة لمناطق سيادته فى الخليل وشرقى الأردن فحسب بل على المملكة جميعها، فطلب منه رد ما سلبه من القافلة ولكنه رفض^(٥). وقد تناول المؤرخون الحديثون تصرف رينو ورد فعل الملك بالتحليل؛ فمنهم من اعتبرها دليلاً على اهتزاز قوة عرش المملكة^(٦). ومنهم من يبرر غارة سيد الخليل وشرقى الأردن فيذكر أنها لم تكن بمثابة مغامرة حربية أو تصرف أحرق من قبل رينو، وإنما كانت خطة وضعها هذا القائد من أجل صرف نظر صلاح الدين عن ضم حلب التى كانت تشكل ركناً هاماً فى توطيد الدولة الأيوبية، غير أن الغارة لم تثبت عن تحقيق غرضه^(٧). والباحث يؤكد على صحة ما ورد من آراء ويضيف أن الأحداث التى أحاطت بتلك الغارة تكشف عن تنامي نفوذ رينو دى شاتيو وتألقه بين قادة المملكة نتيجة لازدياد قوته بفضل تعاظم موارده وعدد الفرسان والجند فى جيشه، الأمر الذى ساهم فيه إقطاعية الخليل الصليبية مساهمة أساسية، ومن ثم فما يعد اهتزازاً لسلطة الملك يعد فى المقابل قوة لمقابل رينو على الخليل وشرقى الأردن.

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ليدن ١٣٢٦هـ. / ١٩٠٨ م. ص ٦٨ ؛ أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣ ، الحموى : التاريخ المظفرى ، مخطوط .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٤٧٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٠١ ؛ راجع أيضاً :

Schlumberger , G., Renaud de Chatillon , PP. 190 - 191 .

(٣) ابن الوردي : المصدر السابق، ج ٢ ، ص ٩٠ .

(4) Ernoul , Op. Cit., PP. 54 - 56 .

ابن الأثير : نفسه .

(5) Ernoul , Op. Cit., P. 52 .

(6) Schlumberger , G., Renaud de Chatillon , P. 193 , Grousset , R., Histoire de Croisades , Vol. II , P. 703 .

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٧٠ .

(7) Hamilton , B., The Klephant of Christ , P. 105 .

ترتب على غارة رينو الأخيرة وسلب قافلة المسلمين^(١) نتائج عديدة، وفيما يتعلق بالخليل فقد أقحمت قواتها في المعارك التي ما لبثت أن احتدمت من جديد، ذلك أن صلاح الدين غادر مصر إلى دمشق في مايو ١١٨٢ م/ المحرم ٥٧٨ هـ عن طريق أيلة. وأدرك الفرنج خطورة انتقاله نحو الشمال فاجتمعوا عند الكرك في محاولة لإيقافه^(٢). وينفرد ابن واصل بالإشارة إلى «تجمود السلطان في شجعان أصحابه وسار على سمت [أى الطريق المستقيم] الكرك إلى الحسى والقريتين»^(٣) والمعروف أن كلا الموضعين لهما حساسيتهما الخاصة لإقطاعية الخليل الصليبية، فالوادي يمر بقسمها الجنوبي، أما القريتين فهي بلدة صغيرة تقع داخل الإقطاعية في الجهة الجنوبية الشرقية منها. ويشير وليم الصوري إلى أن القوات الصليبية التي كانت قد احتشدت عند الكرك قد استهدفت معاقبة رينو وتأديبه على مخالفته أوامر ملك بيت المقدس، إلا أن هذه الخطة باءت بالفشل نظراً لإدراك رينو لها، فاتخذ الاحتياطات اللازمة في الوقت الذي نجح فيه صلاح الدين في الوصول إلى أراضي الشوبك فقام بتدمير محصول القمح، كما أصبحت الممتلكات الصليبية في شمالي المملكة مكشوفة أمام هجمات فرخشاء النائب على دمشق بسبب انشغال جيش المملكة بالأحداث في الجنوب^(٤) وحاول الجيش التصدي لقوات صلاح الدين وإبعادها عن شرقي الأردن للتفرغ للدفاع عن الجهات الشمالية، فلأزم صلاح الدين الأطراف، ووصل دمشق في الثاني والعشرين من نوفمبر ١١٨٢ م/ الثاني والعشرين من صفر ٥٧٨ هـ^(٥). ومن الطبيعي أن تشارك قوات الخليل سيدها رينو في كل تحركاته سواء في مساندته لإحباط خطة الملك بلدوين، أو التصدي لتهديدات صلاح الدين لمناطق سيادته.

(١) تمثل انتقام الأيوبيين في الاستيلاء على محتويات سفن فرنجية جنحت إلى الساحل المصري قرب دمياط، وتم أسر رجالها والاستحواذ على محتوياتها، كما تم توجيه عدة غارات عنيفة على إمارة الجليل، راجع :

William of Tyre , Op. Cit. , Vol. II , PP. 467 - 473 , Cf. Als. Stevenson , W., Op. Cit. , PP. 224 - 225 .

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١١٣ .

(٢) العماد الأصفهاني : البرق الشامى ، تحقيق فالح صالح حسين ، الطبعة الأولى ، الأردن ١٩٨٧ م. ، ج ٥ ، ص ٤٥ - ٤٦ ؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١١ ، ص ٤٧٨ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٨ ؛ ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٥٦ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٣ .

(4) William of Tyre , Op. Cit. , Vol. II , P. 469 .

راجع أيضا : أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٨ - ٢٩ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٤ - ١٥٥ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٤٧٩ .

(٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٨ ؛ ابن الأثير : نفسه .

William of Tyre , Op. Cit. , Vol. II , PP. 468 - 469 .

أخذ الدور العسكرى للخليل فى التصاعد ضد المسلمين فى ظل حاكمها رينو ، ذلك القائد الذى كنّ للإسلام والمسلمين كراهية شديدة ، إذ انتهاز فرصة انشغال صلاح الدين بمحاولة ضم الموصل بأن أحيا مشروعه لغزو بلاد الحجاز فقام بوضع خطة شاملة استخدم فيها عنصرًا جديدًا لم يكن مألوفًا فى الحروب الصليبية من قبل ، ألا وهو استخدام الأسطول فى البحر الأحمر^(١) . وبهذا الأسلوب لمحج رينو فى التغلب على مشكلة قلة عدد الرجال اللازمين للقيام بحملة برية^(٢) ، كما وفر عنصر المفاجأة الفعال فى الحروب . وبداية رأى رينو أن هذا لن يتأتى إلا بالاستيلاء أولاً على أيلة وخاصة أن غزوات المصريين كانت تتوالى انطلاقاً منها فهاجمها واستولى عليها^(٣) . كما عنى رينو بصنع أسطول بحرى خاص به بلغ عدد قطعه خمس سفن حربية كبيرة ، تسع كل منها مائتى مقاتل غير عدد آخر من المراكب الصغيرة^(٤) . وفى تحديد آخر لعدد السفن يذكر أحد المعاصرين أنها بلغت ستاً وعشرين مركباً كبيراً وصغيراً تم طلاؤها باللون الأسود كى لا تعكس أشعة الشمس ، ومن ثم تحجب رؤيتها^(٥) .

ونتوقف أمام بناء رينو للأسطول نظراً لقيام الخليل بدور ملموس فى هذا الحدث إذ كان يلزم الأسطول كميات ضخمة من المواد الخام المختلفة ؛ وبالفعل فالمصادر تؤكد على أن رينو قد اعتمد على المواد الخام المتاحة فى مناطق سيادته ، فأخذ يقطع أشجار إقليم الكرك وأكثر نخيل العريش فتوافرت بذلك الأخشاب اللازمة^(٦) . وتفاوتت المصادر فى تحديد مكان الترسانة التى تم تصنيع السفن فيها . فيذكر فريق منهم أن رينو حمل الأخشاب إلى حصن الكرك وهناك عهد إلى دير الرهبان بصنع المراكب ، كما عهد إلى صليبي عسقلان بصنع عدد آخر منها . وتم نقل جميع السفن مفككة على ظهور الجمال إلى أيلة ثم أعيد تجميعها فى الميناء^(٧) . وهناك فريق آخر من المؤرخين يذكر أن

(١) ابن أبيك الدوادارى : الدر المطلب فى أخبار ملوك بنى أبوب ، ص ٧١ - ٧٢ ؛ ابن الأثير :

الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ص ٤٩٠ ؛ أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ، ج ٣ ، ص ٦٥ .

(2) Schlumberger , G., Renaud de Chatillon , P. 200 .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

(٤) ابن واصل : نفسه .

Lane Poole : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem (History of the Nations) 24 New York . 1978 , P. 176 .

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٠٠ ، راجع أيضاً :

Schlumberger , G., Op. Cit., P. 204 .

(٦) القرئزى : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٧٤ .

(٧) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٥ ؛ ابن واصل :

المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٧ ؛ الفلشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٥٦ .

رينو جلب المواد الخام والصناع إلى أيلة وأقام بها حتى انتهى من تصنيع أسطوله هناك^(١). وأمام هذا الاختلاف لأبد من محاولة التوصل إلى الموقع الحقيقي لقيام دار الصناعة تلك ، ونعرض هنا لرأى أحد الباحثين يرجح فيه أن تشييد السفن قد تم فى الكرك وأنه قد تم تجربيته فى البحر الميت^(٢). فى حين يرى باحث آخر أنه ليس من المعقول أن تكون السفن قد بنيت فى الكرك؛ نظراً لعدم وجود المواد الخام ولا الخبرة اللازمة لدى رينو فيما يحكم من بلاد، ولذا يرى هذا الباحث أن أعمال البناء قد تمت فى أحد الموانئ التى يسيطر عليها رينو وحلفاؤه من قادة المملكة مثل جى لوزجنان، وربما يكون ذلك قد تم فى عسقلان^(٣). وإذا ما أردنا ترجيح أحد الرايين، نجد أن الرأى الأول أقرب إلى الواقع لأمور عديدة: فالبحر الميت كان يعد إمتداداً طبيعياً وعمقاً إستراتيجياً بالنسبة للقائد رينو، فشاطئه الشرقى والغربى حيث منطقتا شرقى الأردن والخليل تعدان مناطق سيادته، كما تعتبر بلدة تقوع أهم المراكز الصليبية لإنتاج القطران اللازم لصناعة السفن ، علاوة على أن هذه الصناعة كانت معروفة فى البحر الميت فى ظل الحكم الصليبي وفقاً لإشارة الرحالة الصليبي فيتاس حوالى ١١٣٠ م / ٥٢٥ هـ^(٤). فضلاً عن وفرة الأخشاب من غابات موئاب أى حول الكرك وأيضاً من غابات الخليل ، ومن ثم فقد توافرت المواد الخام الضرورية لقيام صناعة السفن فى البلاد التى يحكمها رينو، وعلى ذلك يمكننا الإقرار بأنه قد لجأ فى جميع الأحوال إلى الاستعانة بإمكانيات الخليل الطبيعية وخبرة أهلها الطويلة فى بناء أسطوله .

لم يكد يتم تركيب تلك السفن حتى بدأت سفيتان فى محاصرة جزيرة فرعون المواجهة لأيلة^(٥)، فى حين قامت بعض السفن بالإغارة على الموانئ المصرية الصغيرة على البحر الأحمر مما أثار الرعب بين الأهالى « فلإنهم لم يعدوا بهذا البحر فرنجياً قط لا تاجراً ولا محارباً »^(٦). وما لبثت أن عبرت السفن البحر إلى الشاطئ المقابل حيث الحجاز فنزل الفرنج على ساحل الحوراء قرب ينبع وأغاروا على القوافل . وتعهد بعض الخونة من البدو «إرشادهم إلى داخلية البلاد»^(٧)، حتى «أشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر»^(٨)، وقد حدد المؤرخان أبو شامة وابن واصل هدفين من وراء حملة رينو

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٦٩ ؛ المقرئى : نفسه .

(2) Runciman S., Op. Cit., Vol. II , P. 437 .

(3) Hamilton , B., The Elephant of Christ , PP. 105 - 106 .

(4) Fetellus : Description of Jerusalem and the Holy Land , PP. 11 - 12 .

(٥) العماد الاصفهاني : البرق الشامى ، ج ٥ ، ص ٦٩ ، ٧٢ - ٧٤ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

(٦) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٤٩٣ .

(٧) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٧ ، راجع أيضاً : المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٧٨ .

(٨) العماد الاصفهاني : البرق الشامى ، ج ٥ ، ص ٧٠ .

البحرية تلك: أولهما قطع «طريق الحاج عن حجه» وضرب العالم الإسلامي في الصميم بطعن المسلمين في أقدس مقدساتهم. وثانيهما هو احتكار تجارة الشرق الأقصى والمحيط الهندي، وذلك بالاستيلاء على ميناء عدن في جنوب البحر الأحمر^(١) بينما يرى أحد المؤرخين الحديثين أن الهدف الحقيقي منها هو رغبة رينو في ممارسة المزيد من عمليات السلب والنهب التي عرف بها من قبل^(٢).

لم تتح الفرصة أمام رينو لتحقيق مآربه، ففي مارس ١١٨٣ م / شوال ٥٧٨ هـ قام العادل سيف الدين أبو بكر، أخو صلاح الدين ونائبه في مصر بإعداد أسطول قوى في البحر الأحمر تحت قيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ^(٣) الذي وضع خطة منظمة بأن قسم أسطوله إلى قسمين تمكن الأول من تدمير سفن الفرنج عند جزيرة فرعون وإنهاء الحصار حولها، أما القسم الآخر فتمكن من تعقب السفن الفرنجية عند حوراء وتمت مطاردة من هبط من الفرنج إلى البر وأسره ثم قتلهم لما اقترفوه من جرائم في حق المسلمين ومقدساتهم^(٤). أما رينو فقد فر عائداً بصعوبة بالغة إلى مناطق سيادته بعد أن فشل فشلاً ذريعاً فيما كان يصبو إليه^(٥) ويمكن تقدير المدة التي استغرقتها أحداث تلك الحملة البحرية بعام كامل. النصف الثاني من عام ١١٨٢ م. والنصف الأول من ١١٨٣ م / عام ٥٧٨ هـ.

أما عن النتائج المترتبة على حملة رينو البحرية فتجدها قد أحيطت بجدل واسع من قبل المؤرخين المعاصرين والحديثين، نخلص منه بآراء أهمها: إن الحملة أضافت برهاناً على الدور الخائن لقبائل جزام وبنى ثعلبة البدوية الذين سكن بعضهم الخليل

(١) أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٣٦، ٣٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٣٠.
(2) Schlumberger, G., Renaude de Chatillon, PP. 190 - 191.

(٣) العماد الأصفهاني: البرق الشامي، ج ٥، ص ٦٩ - ٧٠.

ولد العادل في يونيو ١١٤٥ م. / المحرم ٥٤٠ هـ. وتوفي في ٢ سبتمبر ١٢١٨ م / ٧ جمادى الآخر ٦١٥ هـ، استخلفه صلاح الدين في مصر «ثقة به واعتماداً عليه وعلماً بما هو عليه من توفير العقل وحسن السيرة» كما كان ذا مكر شديد وخديعة صبوراً حليماً ذا أناة «راجع: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٣٥٠ - ٣٥١؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج ٥، ص ٧٤ - ٧٩، أما حسام الدين لؤلؤ فكان أرمني الأصل من جملة أجناد مصر أيام الفاطميين ثم انضم لصلاح الدين وأصبح مقدم الأسطول، وكان مقداماً شجاعاً توفي في ١٢٠٠ م / ٥٩٦ هـ. ودفن بالقاهرة. انظر المقرئزي: الخطط، ج ٢، ص ٨٥ - ٨٦.

(٤) ابن جبير: المصدر السابق، ص ٢٠١؛ العماد الأصفهاني: البرق الشامي، ج ٥، ص ٧٠ - ٧١؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٤٩٠ - ٤٩١، راجع أيضاً:

Ernoul, Op. Cit., PP. 69 - 70.

(5) Ernoul, Op. Cit., P. 90.

فلولاهم ما كان في مقدور الفرنج التماس طريق الحجاز ومعرفة معالمه ، بينما عملت على تجميع الوحدة الإسلامية بالالتفاف حول صلاح الدين^(١). كما فتحت الحملة المجال أمام التوسعات الصليبية فنهت إلى أهمية منطقة البحر الأحمر وبلاد العرب والمحيط الهندي في الفترات التالية^(٢). وقد تنبه صلاح الدين إلى دور البدو المناهض فأناط إلى نائبه الجديد على دمشق «شمس الدين محمد بن عبد الملك» المعروف بابن المقدم في سبتمبر ١١٨٢م/ جمادى الأولى ٥٧٨ هـ مهمة إخضاع البدو المتواطئين مع الفرنج وإصلاح ذات البين فيما بين عشائهم^(٣). إلا أن أهم ما ترتب عن الحملة أن صلاح الدين أقسم ألا يغفر لسيد الخليل رينو دي شاتيو فعلته «ونذر دمه»^(٤). وهذا يعني أن الخليل وفرسانها غدت أكثر عرضة للانتقام المسلمين في أي وقت بوصفها تحت سيادة رينو .

سرعان ما حانت فرصة الانتقام ، ذلك حينما خرج فرسان الخليل وشرقي الأردن تحت قيادة همفري الرابع ورينو دي شاتيو للدفاع عن إمارة الجليل حين تعرضت لهجوم صلاح الدين في التاسع عشر من سبتمبر ١١٨٣م/ التاسع والعشرين من جمادى الأولى ٥٧٩ هـ^(٥). فقد اتبع صلاح الدين خطة حربية منظمة تقضى بتشتيت قوى الفرنج فوق أرض الجليل إذ استغل باقتدار الفارق العددي في القوات بأن فرق سراياه في اتجاهات عدة، ولم يستطع الصليبيون صدهم حيث شلت حركتهم فتمكن المسلمون من مهاجمة بعض البلاد والحصون وألقوا بها أضراراً^(٦). أما فيما يتعلق بقوات همفري الرابع فقد تمكنت قوات إسلامية تحت قيادة الأميرين: عز الدين جورديك النوري^(٧).

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٧ .

(2) Richard , J. Les Navigations des Occidentaux sur l'Océan Indien et la Mer Caspienne (XII - XV Siècles) ed. O. O. M. , XXXI , London 1976 , P. 359 .

(٣) العماد الأصفهاني : البرق الشامي ، ج ٥ ، ص ٧١ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٥ .

(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٦٢ ؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١١ ، ص ٤٨١ ؛ ابن كثير :

البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣١٤ - ٣١٥ ؛ ابن العديم : ردة الحلب ، ج ٣ ، ص ٧٣ .

William of Tyre , Op. Cit., , Vol. II , PP. 492 - 493 .

(٦) العماد الأصفهاني : البرق الشامي ، ج ٥ ، ص ١٤٩ - ١٥٠ ؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ،

ج ١١ ، ص ٥٠١ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج

٢ ، ص ١٤٨ ، وقد انقضت الرواية الصليبية إلى حد كبير مع الرواية الإسلامية في سردتها

للأحداث ، إلا أن المؤرخ إرنول أضاف الرواية الخاصة بهزيمة همفري وفرسانه . راجع :

William of Tyre , Op. Cit., Vol. II , PP. 491 - 495. Ernoul , Op. Cit., PP. 90 - 102.

(٧) كان عز الدين جورديك بن عبد الله النوري من أكابر أمراء نور الدين ، وقام بخدمة صلاح الدين في

جميع غزواته ، ولذا فكان يرتكن إليه في المهمات الكبار وهو الذي قتل شاور بمصر وتوفى عام

١١٩٨م/ ٥٩٤ هـ انظر أبو شامة : الذيل على الروضتين ، نشره : السيد عزت البعطار . بيروت

الطبعة الثانية ، ١٩٧٤م ، ص ١٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٧ ؛ أبو المحاسن :

النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٤٣ .

وجاؤلى الأسدى من التقدم غرباً حتى جبل جلبوع^(١) (عين التبانة) حيث التقت بفرسان همفرى الرابع القادمة من جهة الجنوب وأطبقت الحصار من حولها على منحدرات الجبل لمدة خمسة أيام حتى خارت قوى الصليبيين، وعندئذ فتح المسلمون ثغرة بين صفوفهم لإغراء همفرى وفرسانه بالنفاذ من خلالها وما لبثوا أن وقعوا فى الكمين «فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا مائة رجل» وذلك فى التاسع والعشرين من سبتمبر/ العاشر من جمادى الآخرة من نفس العام، واكتفى صلاح الدين بهذا القدر من القتال وأصدر الأوامر للجيش بالانسحاب فاقفل راجعاً عبر نهر الأردن فى السادس من أكتوبر ١١٨٣م/ السابع عشر من جمادى الآخرة ٥٧٩ هـ^(٢).

والواضح من هذه الأحداث أن قوات رينو دى شاتيو التى كانت تحت قيادة همفرى الرابع كانت مستهدفة من قبل صلاح الدين، وقد نجحت الجاسوسية الإسلامية فى رصد حركة فرسان الخليل وشرقى الأردن ونقل أخبارها إلى القيادة الإسلامية، الأمر الذى سهل عليها الإيقاع بها وهى فى الطريق نحو الشمال. وقد ترتب على هذه الهزيمة النكراء فى صفوف جيش الخليل وشرقى الأردن توجيه ضربة قوية لمقدرة الجيش القتالية، ولاشك أن ذلك كلف رينو الكثير من أجل استعادة ترتيب وتدعيم هذا الجيش من جديد.

لم يكد يمر شهر واحد تقريباً حتى جُرت قوات الخليل إلى معركة جديدة مع صلاح الدين، ففى الوقت الذى انشغل فيه كثير من قادة بيت المقدس والملك بالمشاورات الخاصة بإقصاء جى لوزجنان عن الوصاية عن العرش كما كان رينو دى شاتيو مشغولاً بالإعداد لحفل عرس همفرى وإيزابيلا. وصلت جيوش صلاح الدين خارج الكرك فى العشرين من نوفمبر ١١٨٣ م / ثانى شعبان ٥٧٩ هـ.

(١) يطلق عليه حالياً اسم جبل فقّوع ويقع بالقرب منه قرية جلبون التى تشبه الاسم القديم ، والجبل هو أبرز المرتفعات المكونة لسلسلة جبال تتخذ شكل قوس شرقي وادى إزراييل (مرج أبى عامر) جنوبى الجليل ، وهى تعلو فوق سطح البحر بارتفاع حوالى خمسمائة متر ، منحدراتها الجنوبية شديدة الانحدار وعرة تكثر فيها الحفر والشقوق ، أما المنحدرات الغربية فهى مستدرجة والمنطقة بشكل عام صخرية جرداء . راجع : بطرس عبد الملك وآخرون : قاموس الكتاب المقدس ، مادة جلبوع .

(2) Ernoul , Op. Cit., PP. 69 - 102 .

العماد الأصفهاني : البرق الشامى ، ج ٥ ، ص ١٥ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥٠١ ؛ ابن العديم : زبدة الخلب ، ج ٣ ، ص ٧٣ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٠ ؛ أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ، ج ٣ ، ص ٦٧ . راجع أيضاً :

Schlumberger , G., Renaud de Chatillon , PP. 223 - 224 .

وما أن علم رينو عن طريق كشافته بنية صلاح الدين فى محاصرة الكرك حتى زحف من عكا إلى هناك مع قوة من الفرسان كبيرة كافية للدفاع عنها، وهذه الإشارة تجعل من المعتقد أن يكون رينو قد عرج على الخليل وقلعتها واصطحب معه ما أمكن للخليل تقديمه من فرسان. فى ذلك الوقت نجح صلاح الدين فى تنظيم وتوزيع قواته فى شكل نطاق لحصار القلعة بكامل المعدات الحربية المستخدمة فى الحصار^(١). ومن الطبيعى أن يبذل رينو ومن معه من فرسان الخليل جهوداً مضنية لكى يشقوا طريقهم عبر صفوف المسلمين إلى القلعة.

انتقد وليم الصورى دور رينو دى شاتيو العسكرى بشدة فى الدفاع عن الكرك وذكر أنه كان من الممكن لعدد قليل من الفرسان القيام بهذا الدور، واتهمه وباقى قادة المعركة من الفرنج بالطيش وسوء التدبير. ومن ثم فإن الخطر لم يثن الصليبيين داخل الكرك عن إتمام الاحتفال بالعروسين حين أخذ المسلمون يدكون القلعة ليل نهار ولم يتمكن من بداخلها من إبداء أى مقاومة بسبب كثافة الأحجار المنهمرة حتى تملك الياس منهم. وفى هذا الوقت أخذ بلدوين الرابع يحشد كل ما لديه من قوات فى المملكة، كما عين ريموند الثالث صاحب طرابلس قائداً عاماً للجيش، وانطلق الجميع نحو البحر الميت^(٢). وينفرد المؤرخ المسلم ابن العديم بالإشارة إلى أن القوات الفرنجية التى تقدمت لنجدة الكرك قد اجتمعت فى الخليل، فى حين ذكر المؤرخون المعاصرون للأحداث أن القوات الفرنجية اجتمعت فى الوالة وهى أرض تقع بين الكرك والبحر الميت وفى الحقيقة قد لا يكون فى ذلك تضارب فلعل القوات الصليبية اجتمعت أولاً فى الخليل ثم توجهت إلى الوالة، وهناك تم تجميعها وتنظيمها مرة أخرى. وعلى كل فبوصول تلك القوات قرر صلاح الدين العودة إلى دمشق فى الرابع من ديسمبر/ منتصف شعبان من نفس العام^(٣). ليعاود المسلمون مهاجمتها فى غضون بضعة أشهر حيث دخلت قوات رينو فى مواجهات جديدة مع جيش صلاح الدين حينما زحف نحو الكرك

(1) William of Tyre , Op. Cit., Vol. II , PP. 498 - 499 , Ernoul , Op. Cit., PP. 81 - 85.

العماد الاصفهاني : البرق الشامى ، ج ٥ ، ص ١٥٣ ؛ ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥٠٢ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٦٣ ؛ الحموى : تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان المعروف باسم التاريخ المصورى ، نشرة بطرس غريازنيويج - موسكو ١٩٦٠ ، ص ٩٠ .

(2) William of Tyre , Op. Cit., Vol. II , PP. 499 - 503 , Ernoul , Op. Cit., PP. 66 , 81 - 83 , 103 - 104 , Schulmberger , G., Op. Cit., PP. 225 - 227 .

أوردت المصادر الإسلامية بعض التفاصيل للخطط والمعارك حول الكرك أغفلتها المصادر الصليبية : راجع تلك التفاصيل فى العماد الاصفهاني : البرق الشامى ، ج ٥ ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ ؛ ابن الاثير ، فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥٠٢ ، ٥٠٦ ؛ المقريزى فى السلوك ، ج ١ ، ص ٧٩ - ٨٠ .

(٣) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٧٤ ؛ ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٥٠٢ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥١ - ١٥٧ ؛ الحنبلى : المصدر السابق ، ص ١٠٨ - ١١٤ .

وحاصرها لمدة ثمانية أسابيع ولم يثنه عن إسقاطها سوى قدوم حشود من قوات المملكة الصليبية^(١).

هكذا وضع رينو مناطق سيادته في مهب الرياح الإسلامية. ولكن لنا أن نتساءل لماذا كانت مدينة الخليل بمنأى عن خطر هجوم جيش صلاح الدين عليها وهى من المناطق الخاضعة لسيادة رينو بالرغم من وصول المسلمين إلى أطراف الإقطاعية ؟ وأول ما يتبادر للذهن أن الخليل كانت تمثل للمسلمين إحدى أهم البقاع المقدسة، ولعل هذا السبب قد جعل صلاح الدين المعروف بورعه وتقواه يستنكف مهاجمتها تبجيلاً لها ولمن دفن فيها من أنبياء^(٢)، ورأى أن يكثف جهوده في توجيه ضربات للكرك بصفتها حاضرة عدوه رينو، والشوبك التى كانت تعد مركزه التالى.

وبعد هذا العرض المشير المزدحم بالمعارك الحربية يبرز أمامنا الموقف العسكرى فى إقطاعية الخليل الصليبية، وتحددت ملامحه فى، أنه منذ أن أمسك رينو بزمام السلطة فيها وضع يده على الموارد البشرية والطبيعية فى الإقطاعية وسخرها لخدمته وإعانتته فى المعارك التى لا تكاد تنقطع. ولاشك أن هذه الظروف جعلت رينو يعيش حياة غير مستقرة داخل الخيام إذ كان عليه التنقل من مكان لآخر داخل مناطق سيادته فتارة فى الكرك وتارة فى الخليل والشوبك ووادي موسى، فضلاً عن تحركاته الأخرى استعداداً لآى مواجهة مفاجئة ضد قوات المسلمين. وبما جعل الوضع صعباً بالنسبة لرينو وجيشه أن هجمات المسلمين كانت تنطلق من اتجاهين مختلفين. أحياناً من دمشق، وأحياناً أخرى من القاهرة، بل ربما تشترك فى توقيت الهجوم. وبالرغم أن رينو بذل جهداً ملموساً فى رفع عدد الفرسان والجند فى جيشه وتمكن من ضم أعداد لا يستهان بها من البدو لتكون عوناً له فى حروبه ضد إخوانهم المسلمين إلا أن جيشه كان يعد جيشاً صغير العدد مقارنة بجيش صلاح الدين الكبير القوى حيث أنقن بناءه وتوزيعه حتى أصبح جيش كل ولاية من ولاياته فى مصر ودمشق وحلب من القوة ما يكفى لتوجيه ضربات قاصمة للكيانات الصليبية.

(1) Ernoul , Op. Cit., PP. 103 - 105 .

ابن شداد : المصدر السابق ، ص ١٠٨ ؛ أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر، ج ٣ ، ص ١٨
(٢) تؤكد المصادر على سلوك صلاح الدين الكريم الذى ينم عن أخلاقه الرفيعة، وخاصة تجاه الأماكن المقدسة، ومن تلك المواقف ترفعه أثناء هجومه فى أوائل أكتوبر ١١٨٤ م/ أواخر جمادى الآخر ٥٨٠ هـ عن إزال الضرر بأهل بلده بسطية الفرنج تكريماً للبلدة التى تضم ضريح النبی زكريا (عليه السلام) فضلاً عن مسجدتها الذى تحول إلى كنيسة ويذكر ياقوت الحموى عن البلدة أنها من أعمال نابلس وبها بئر زكريا ويحيى (عليهما السلام) وجماعة من الأنبياء والصديقين راجع :
ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١١ ، ص ٥٠٨ ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢ ، ص ١٥٨ ؛
ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٥١ .

وبعد الفشل الذى أحاط بمعارك سيد الخليل وشرقى الأردن رينو ضد المسلمين تحول من الإغارة والنهب إلى قطع الطريق واللصوصية، فشرع فى التعرض للقوافل التى تجتاز الطريق من القاهرة إلى دمشق والعكس. وعلى الرغم من عقد هدنة الأربع سنوات فى ١١٨٥م/ ٥٨١هـ^(١) قام رينو بمهاجمة قافلة للمسلمين كانت فى طريقها من القاهرة إلى دمشق جنوب البحر الميت، ورفض تسليم الأسلاب التى حصل عليها، وبذلك خرق شروط الهدنة، وذلك فى أواخر ١١٨٦م/ شوال ٥٨٢هـ^(٢). وبهذا العمل الأحق استحق رينو أن يوصف بأنه مغامر خطير اتسمت كثير من تصرفاته بالظلم والتهور وعدم مراعاة العهود والجهل بأحكام السياسة وأصولها مما سبب متاعب لا حد لها للصليبيين بالشام^(٣)، فإذا جاز للمسلمين أن يصبروا على قيام دولة من الكفار فإنهم لا يطيقون قيام دولة من اللصوص^(٤)، وخاصة أن صلاح الدين ترك لرينو أكثر من فرصة، أما الآن فقد بات قانعاً بضرورة القضاء على الوجود الصليبي ليس فى المناطق التى دانت بالسيادة لرينو حيث الخليل وشرقى الأردن فحسب، بل وفى مملكة اللاتين فى القدس بأسرها^(٥).

وكتب صلاح الدين إلى جميع الأقطار والبلاد التى نجح فى توحيدها تحت سلطانه يستدعى جموع الجهاد واستحضر «الحضر والبدو»، وخرج يوم السبت منتصف مارس ١١٨٧م/ مستهل عام ٥٨٣هـ من دمشق إلى بصرى، ويصف العماد الأصفهاني رد فعل الفرنج، فيذكر أن رينو أرسل من يرصد تحركات المسلمين خوفاً ورعباً «ولاسيما إيرنس الكرك فإنه كان حريصاً على الدرك... فلما شم ذلك الذنب رائحة الأسد، عاود دخول حصنه» وتقدم السلطان إلى الكرك فأقام عليها وقد عصف بكل ما مر به من بساتين وحقول، ثم انتقل إلى الشوبك حيث واصل غاراته على أراضيها، وهناك التقى بالجيش المصرى وظل فى حصار القلعتين مدة شهر^(٦). ويصور المؤرخ ابن الأثير

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٧٤ - ٧٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٨٥ ؛ أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر، ج ٣، ص ٧١ ؛ الحنبلى : شفاء القلوب، ص ١١٨ .

Eracles, Op. Cit., PP. 12- 13 .

(2) Eracles, Op. Cit., P. 34 ; Ernoul, Op. Cit., PP. 96 - 97 .

العماد الأصفهاني : الفتح القسى، ص ٧٧ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٧٤ - ٧٥ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج ١١، ص ٥٢٧ ؛ أبو شامة : الروضتين، ج ٢، ص ٧٥ ؛ المقرئى : السلوك، ج ١، ق ١، ص ٩٢ .

(3) Grousset R., Histoire des Croisades, Vol II, P. 729 .

(4) Barker, E., Op. Cit., P. 88 .

(5) Mayer, H. E., The Crusader Lordship of Kerak and Shaubak, PP. 202 - 203 .

(٦) العماد الأصفهاني : الفتح القسى، ص ٥٨ - ٦٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٨٦ ؛ المقرئى : السلوك، ج ١، ق ١، ص ٩٣ . راجع أيضاً :

Ernoul, Op. Cit., PP. 96 - 97 .

تحركات الجيوش أثناء ذلك فيذكر أن صلاح الدين قام ببيت سراياه «على ولاية الكرك والشوبك وغيرهما فنهبوا وخربوا وأحرقوا، والبرنس محصور لا يقدر على المنع عن بلده، وسائر الفرنج قد لزموا طرف بلادهم خوفاً من العسكر» المراض عند حوران، كما تلقى صلاح الدين الجيش المصرى فأحبط بذلك خطة رينو الذى كان ينوى قطع الطريق عليهم^(١)، وبينما تواصلت أعمال الحصار والمعارك عند الكرك والشوبك اجتمع عدد من القادة والأمراء المسلمين حول الأفضل، على بن صلاح الدين فتألف منهم جيش عظيم اجتاز نهر الأردن نحو صفورية جنوبى الجليل، وفى موضع قريب يدعى عيون كريسون خاضت القوات الإسلامية معركة ضارية فى أوائل مايو ١١٨٧م/ أواخر صفر ٥٨٣هـ ضد فرسان الإسمتارية والداوية وحشود صليبية أخرى انتهت بمقتل مقدم الإسمتارية وهزيمة ثقيلة بين فرسان الطائفتين، ووصلت بشرى تلك الانتصارات إلى المسلمين المحاصرين للكرك، وكان من بينهم العماد الأصفهاني^(٢) المؤرخ الحربى لجيش صلاح الدين .

وتشير الأحداث السابقة إلى أن قوات الخليل كانت فى معزل عن الاشتراك مع إخوانهم الصليبيين فى تلك المعارك، إذ يتضح من الخطة العسكرية التى اتبعها صلاح الدين أنها قامت على أساس عزل رينو دى شاتيو داخل قلعة الكرك. وبالتالي تمكن أولاً من تشتيت قوات رينو فى البلاد الخاضعة له من ناحية، وفصل تلك القوات تماماً عن قوات الفرنج المقيمة عند صفورية فى الشمال من ناحية أخرى. أما وإذا كانت الخليل قد احتفظت بحايتها دون مشاركة فى الأحداث فتفسير ذلك أن فرسانها تكاد تكفى الدفاع عن الإقطاعية إذا ما تعرضت لهجوم مفاجئ ولو لبعض الوقت حتى تأتى الإمدادات الصليبية من قبل رينو الذى كان مسئولاً عن حماية الإقطاعية .

لم تمض إلا بضعة أسابيع حتى تقدم فرسان الخليل فى آخر مساهمة حربية لهم خارج حدود الإقطاعية تحت قيادة كل من رينو دى شاتيو وهمفري الرابع^(٣) لمواجهة جيش صلاح الدين الذى اجتاز نهر الأردن فى بداية شهر يوليو ١١٨٧م/ الثانى

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١١، ص ٥٢٩؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٨٦ .

(٢) العماد الأصفهاني: الفتح القسى، ص ٦٣؛ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١١، ص ٥٢٩ - ٥٣٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ١٨٧ .

Radulphi de Coggeshall Chranican Anglicanum de Expugnation terra Sancta Libellur , ed Stevenson, J. , in R. S. 66 , Vol. II , London 1875 , PP. 213 - 215 .
Huilleemi de Gangicee , Chreeniceen , Cf., R. H. G. F., Vol. XX . , Paris , 1840 , P. 742 .

(3) Eracles , Op. Cit., P. 63 .

والعشرين من ربيع الآخر ٥٨٣هـ. وفى اليوم التالى تم الاستيلاء على مدينة طبرية دون قلعها فى الوقت الذى أخذت القوات الصليبية من شتى الأرجاء تتجمع عند بلدة صفورية، وانقسمت آراء الصليبيين، فكان رينو دى شاتيو من القادة الذين آثروا التقدم لإنقاذ طبرية بعد أن انضم إليه همفرى الرابع وبعض قادة الفرنج الذين اتهموا القادة الآخرين بالهجن. وتمكن رينو من إقناع الملك جى لورجنان براهه فأمر بالتقدم وتوزيع الجيش الصليبي بحيث أسند إلى رينو وهمفرى وغيرهما مسئولية الدفاع عن مؤخرة الجيش^(١)، فوصل الصليبيون إلى المرتفعات المعروفة بقرون حطين حيث انعدمت المياه بينما عسكر جيش المسلمين فى السهل المجاور وأحكموا تطويق جيش المملكة، وفى صباح يوم السبت الرابع من يوليو ١١٨٧ م/ الخامس والعشرين من ربيع الآخر ٥٨٣هـ استعرت معركة حطين الفاصلة وسط ظروف عصيبة عانت منها الفرنج الأمرين، إذ نجح المسلمون فى تحطيم جيشهم وانجلت المعركة عن ظفر عظيم^(٢) طالما سعى إليه المسلمون.

ترتب على هزيمة الصليبيين عدة نتائج عظيمة الأهمية استعرضها المؤرخون المعاصرون والحديثون فى حيز كبير من مؤلفاتهم، وفيما يختص **بأثر المعركة على إقطاعية الخليل** يمكن استخلاص بعض النتائج المباشرة وأخرى غير المباشرة، وأول ما يثير انتباه الباحث هو أن عددًا كبيراً من فرسان الخليل ورجالها قد وقعوا إما قتلى أو

(1) Ernoul , Op. Cit., PP. 170 - 171 ; Eracles , Op. Cit., PP. 49 - 51 , Benodicti of Petroburgensis , Vita Henerici II Anglicie Rogis , Cf. R. H. G. F., Vol. XVII , Paris , 1878 , P. 669 .

وقد اتفق المؤرخون المسلمون مع المؤرخين الصليبيين فيما أوردوه بخصوص حركة جيش المسلمين والتواريخ . انظر : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥٣٢ - ٥٣٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) المعروف أن موقعة حطين قد حظيت باهتمام المؤرخين المعاصرين بل والتأخرين . وكذلك عنيت دراسات حديثة بإبراز كثر من جوانبها المختلفة ، ومن أهمها راجع :

Eracles , Op. Cit., PP. 63 - 64 . Guillelmi de Hangico , Chronicon , P. 742 .

العماد الأصفهاني : الفتح القسى ، ص ٧٦ - ٨٠ ؛ ابن شداد : النوار السطانية ، ص ١٢١ - ١٢٣ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥٣٤ - ٥٣٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٦ - ١٩٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٠ - ٣٢١ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٩٢ - ٣٩٤ ؛ المظفرى : تاريخ المظفرى مخطوط ؛ المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٩٢ - ٩٤ وعن خطط المعركة ودور القادة الصليبيين راجع :

Jean Richard , An Account of the Battle of Hattin referring to the Frankish Mercenaries , in Speculum XXVII , 1952 , P. 170 republished in Cambridge 1976.

عن الروايات المعقدة المطولة المتناقضة التى وردت فى وصف معركة حطين . راجع :

Runciman , S., Op. Cit., Vol. II , Appendix . No. 2 , PP. 468 - 491 .

أسرى أو جرحى فى ميدان المعركة شأنهم فى ذلك شأن بقية الجيش الصليبي^(١). أما رينو دى شاتيو الذى كان يمثل سبباً أساسياً فى إشعال حماس المسلمين وتصميم صلاح الدين على وضع نهاية للفرنج فى الشام ، والذى ساقهم إلى الهاوية فى حطين ، فقد كان هو أول من تخلص صلاح الدين منه وبرّ بقسمه ، فقتله بيده^(٢). أما همفري الرابع الذى يعد الشخصية الثانية فى إقطاعية الخليل وشرقى الأردن فقد بقى قيد الأسر لدى صلاح الدين ، وبذلك شارك كثير من قادة الصليبيين مصيرهم بما فيهم الملك جى لوزجنان نفسه^(٣) وكان صلاح الدين قد أمر بنقل الأسرى إلى دمشق فى حين تم بيع الفرسان والجند فى سوق الرقيق^(٤).

ومن نتائج حطين المباشرة أنها عدت «مفتاح الفتوح الإسلامية»^(٥)، وهذا يعنى أن مجمل أراضى الفرنج فى مملكة بيت المقدس بما فيها إقطاعية الخليل أضحت مكشوفة أمام جيوش المسلمين ، وأصبحت الفرصة مهيأة تماماً أمام صلاح الدين لاسترداد الأراضى المقدسة ، وبالفعل فبعد سقوط طبرية واستكمال الاستعدادات انطلق صلاح الدين إلى مدينة عكا وغيرها من المدن الساحلية الفرنجية^(٦) ، بفرض الفتح ليحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التى تربطهم بالعالم الخارجى وبخاصة الغرب الأوروبى^(٧). وتمكن صلاح الدين خلال بضعة أسابيع من فتح معظم المدن الساحلية بل والداخلية منها حتى بلغ عددها خمسين بلداً كبيراً ، قدم المؤرخون المعاصرون قائمة طويلة بأسمائها^(٨)، فكان أهمها الناصرة ،

(١) هناك مقولة شهيرة تصور حالة الجيش الصليبي بعد القتال تنص على : « فمن شاهد القتلى قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتل » راجع : أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٨ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥٣٧ .

(٢) العماد الأصفهانى : الفتح القسى ، ص ٨٠ - ٨١ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢٤ - ١٢٥ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٩٤ - ١٩٥ ؛ الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ١٢٠ . وقد أورد العلمى الحيشيات التى كانت وراء قتل رينو بيد صلاح الدين والظروف التى أحاطت ذلك تفصيلاً . راجع الأنس الجليل ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(3) Benedicti of Petroburgensis , Vita Henerici II , Anglicie Rogis , P. 470 .

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥٣٧ ؛ ابن أليك الدوادارى : الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ، ص ٥٣ - ٥٤ .

(٤) العماد الأصفهانى : الفتح القسى ، ص ٨١ - ٨٢ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٢ .

(٥) ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٨ ؛ الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ١٢١ . راجع أيضاً : Guillelmi de Hangico , Chronicon , P. 742 .

(٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥٣٩ - ٥٤٤ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٩ .
(7) Stevenson , W., Op. Cit., P. 249 .

(٨) العماد الأصفهانى : الفتح القسى ، ص ٩٠ - ١٠٤ ، ١٩٩ - ٢٠٠ ؛ ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٢٤٨ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٣٢٢ .

Benedicti of Petroburgensis , Vita Henerici II , Anglicie Rogis , Vol. VII , P. 481 .

قيسارية، حيفا، صفورية، الشقيف، نابلس، يافا، تبنين، صيدا، جبيل وبيروت (١).

أما إذا انتقلنا إلى التعرف على التاريخ الذي تم للمسلمين فيه فتح الخليل؛ فبداية يؤكد الباحث على أهمية تناول هذا الأمر بالتفصيل؛ نظراً لأن عنصر التوقيت مهم لفهم دقائق الخطط الحربية التي اتبعتها صلاح الدين في معركة فتح الخليل المظفرة، كذلك فتاريخ سقوط الخليل يعني فقد الصليبيين لتلك الإقطاعية للأبد. وأول ما يلفت النظر هو أن المصادر بصفة عامة تفاوتت في تحديد التاريخ، كما أن القليل منها عنيت بالإشارة إليه. ومن المؤرخين المسلمين المعاصرين نجد العماد الأصفهاني يشير إلى أخذ صلاح الدين في طريقه إلى عسقلان كلا من مدن: «الرملة وبينى وبيت لحم والخليل وأقام (بالأخيرة) حتى تسلم حصون الداوية: غزة والنطرون وبيت جبريل، وكان قد استصحب معه مقدم الداوية [جيراردى موننفرات] وشرط معه أنه متى سلم معاقلهم أطلقه»، فعمل بالفعل على تسليمها (٢). أما عسقلان فقد اتفقت المصادر الإسلامية والغربية على تاريخ فتحها، إذ شرع صلاح الدين في حصارها في يوم الأحد الرابع والعشرين من أغسطس ١١٨٧م/ السادس عشر من جمادى الآخرة ٥٨٣هـ. ورفض المدافعون عنها التسليم واستمروا في المقاومة لمدة أسبوعين حتى خارت قواهم ففتحت في الرابع من سبتمبر/ الثلاثين من جمادى الآخرة من نفس العام (٣).

ويتفق عدد من المؤرخين المسلمين منهم ابن واصل والمقريزي مع العماد الأصفهاني في أن الخليل إضافة إلى الرملة وتبنين وبيت لحم قد سقطت في يد صلاح الدين وهو في طريقه إلى عسقلان، أما كل من غزة والنطرون وبيت جبريل فقد تم فتحها أثناء الحصار ذاته (٤). وعندما تصدى كل من أبو الفدا وأبو المحاسن لتلك

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٥٤٠ - ٥٤٣؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٣٥؛ سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ق ١، ص ٤٣٣؛ الخريزي: الإعلام والتبيين، ص ٤٢ - ٤٣.

(٢) العماد الأصفهاني: الفتح القسى، ص ١١٤، راجع أيضاً: ابن شداد: النوار السلطانية، ص ٨٠؛ أبو شامة: الروستين، ج ٢، ص ٩٩؛ ابن العديم: زبدة الخلب، ج ٣، ص ٩٧؛ ابن بهادر: فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٩٧٧ تاريخ، ورقة ١٥٧، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ق ١، ص ٣٩٦ - ٣٩٧؛ المقريزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٩٧، وقد أشارت المصادر الصليبية إلى سقوط المدن والقلاع المشار إليها أعلاه دون تدقيق في تاريخ السقوط. انظر: .

Eracles, Op. Cit., PP. 70 - 79.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٥٤٥ - ٥٤٦؛ العماد الأصفهاني: الفتح القسى، ص ١١٣ - ١١٢.

ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، ص ٢٠٩؛ ابن شداد: المصدر السابق، ص ٨٠.

Ernoul, Op. Cit., PP. 232 - 233; Raudphi de Coggeshall Chronicon Anglicanum, De Expugnacione Terra Sancta Libellus, ed. Stevenson, J., in: R. S. 66, Vol. II, London 1875, PP. 236 - 237.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٠٩؛ المقريزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٩٥.

الأحداث ذكروا أنه أثناء حصار صلاح الدين لعسقلان بث عسكره لفتح الرملة والداروم وغزة وبيت لحم وبيت جبريل والنظرون وغيرها^(١). وبذلك فالمؤرخان لم يشيرا ألبتة إلى فتح الخليل، وهذا يعطينا انطباعاً بأن بعض المؤرخين شغلوا عن الخليل بأحداث أخرى قد تكون على جانب أكثر أهمية ، وهذا يرجع بالطبع إلى ازدحام هذه الفترة الزمنية القصيرة بالأحداث الجسام .

أما ابن الأثير فينص في روايته على أنه « لما فتح صلاح الدين عسقلان [في التاريخ المذكور] أقام بظاهرها وبث السرايا في أطراف البلاد المجاورة لها، ففتحوا الرملة والداروم، وغزة، ومشهد إبراهيم الخليل عليه السلام، ويسبى، وبيت لحم، وبيت جبريل، والنظرون وكل ما كان للداوية^(٢) ». ويؤكد الخبيلي على هذا المعنى حيث يذكر أن صلاح الدين أقام على عسقلان^(٣) إلى أن تسلم أصحابه غزة وبيت لحم وبيت جبريل والخليل والنظرون بغير قتال ، وتسلم السلطان هذه الأماكن في أربعين يوماً آخرها ثامن رجب^(٤) الموافق الثالث عشر من سبتمبر ١١٨٧ م. وهذه الفترة تطابق الفترة التي تلى فتح بيروت في السادس والعشرين من يوليو ١١٨٧ م/ التاسع والعشرين من جمادى الأولى ٥٨٣ هـ^(٥).

وقد أدلت الرواية الصليبية بدلوها أيضاً في أمر تاريخ فقد إقطاعية الخليل حيث أشارت إحدى الوثائق المنشورة حديثاً إلى أن البطريق هرقل قد أرسل إلى أوربان الثالث Orban (١١٨٥ - ١١٨٧ م/ ٥٨١ - ٥٨٣ هـ) يستغيث به طالباً منه العون في دفع خطر جيش صلاح الدين عن القدس، ويبلغه بسقوط المدن الصليبية الواحدة تلو الأخرى، ويسقوط عسقلان في الرابع من سبتمبر ١١٨٧ م/ الثامن والعشرين من جمادى الآخرة ٥٨٣ هـ. ودخول صلاح الدين إليها في اليوم التالي . وتلا البطريق ذلك بالإشارة إلى سقوط الخليل دون ذكر تاريخ السقوط تحديداً على أنها المدينة التي تلت عسقلان، وأنهى قائمة المدن التي خرجت عن حوزة مملكة بيت المقدس بمدينة بيت لحم. ويمكن تحديد تاريخ الرسالة في الأيام الواقعة من السابع عشر حتى العشرين من سبتمبر ١١٨٧ م/ الثاني عشر حتى الخامس عشر من رجب ٥٨٣ هـ وتاريخ

(١) أبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر، ج ٣، ص ٧٢؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٥٤٦ ويتفق عدد من المؤرخين مع ما أورده ابن الأثير في الخطوط العريضة منهم: الحموي: التاريخ المظفر، مخطوط. راجع أيضاً: ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٩٧.

(٣) الخبيلي: شفاء القلوب، ص ١٢٥ - ١٢٦.

(٤) العماد الأصفهاني: الفتح القس، ص ١٠٤ - ١٠٧؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٩٦، ٩٧؛ سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ق ١، ص ٣٩٦ - ٣٩٧؛ ابن العديم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٩٧؛ العليمي: الأنس الجليل، ج ١، ص ٢٩١.

وصولها إلى الغرب الأوروبي في أواخر نوفمبر^(١) / النصف الثاني من شوال من نفس العام .

وفي إطار ما ذكرته المصادر الصليبية عن تاريخ فقد الخليل ؛ يتقدم أحد المعاصرين بتقرير مطول عن البلاد التي تمكن صلاح الدين من انتزاعها من أيدي الفرنج ، وفيما يختص بالخليل يذكر ، أنه بعد كارثة سقوط بيت المقدس في يد هذا القائد (أي بعد الثاني من أكتوبر ١١٨٧م/ السابع والعشرين من رجب ٥٨٣هـ كما يلي ذكره) خارت قوى الصليبيين العسكرية والمعنوية إلى حد بعيد ، ولذا استسلمت حامية بيت جبرين والخليل بنفس الشروط التي استسلم بها المدافعون عن بيت المقدس^(٢) . وبذلك تمثل أمامنا روايتان صليبيتان متضاربتان في تحديد تاريخ السقوط إذ حددته الأولى بأنه وقع بعد سقوط عسقلان وقبيل فتح بيت المقدس بينما ذكرته الأخرى بعد ذلك . والملاحظ أن المؤرخين الصليبيين بصفة عامة انشغلوا بمصير دولتهم بعد هزيمة حطين وبالأحداث العظيمة الأخرى حتى أصبح أمر سقوط قلعة ما أو مدينة من الأمور المتكررة المعتادة . وبذلك اشتركوا مع فريق كبير من المؤرخين المسلمين في سرد الوقائع دون تحرى الدقة المتناهية في ترتيبها ترتيباً تاريخياً .

وأمام هذه الإشارات الإسلامية والصليبية المتفاوتة فيما بينها بخصوص تحديد تاريخ فتح الخليل يجد الباحث ضرورة التوقف لمحاولة التوصل إلى حقيقة وقوع هذا الحدث ، وقبل الخوض في هذا الأمر ينبغي أولاً تصحيح ذلك اللبس الذي وقع فيه المؤرخون المسلمون حينما أشاروا إلى أن طائفة الداوية كانت تحوز كل مجموعة القلاع التي فتحت على يد صلاح الدين الواقعة حول الخليل . فإذا ما كانت غزوة قد خضعت لتلك الطائفة بالفعل منذ تأسيس قلعته الصليبية عام ١١٤٩ - ١١٥٠م / ٥٤٤ هـ^(٣) ، نجد أن كلا من بيت جبرين والنظرون كما هو معروف كانتا من ممتلكات الإسماعيلية^(٤) .

(1) Hiestand , R., Padsturkundor Fner Kirchen in Heiliger land , Vol. III doc. No 149 , PP. 322 - 323 , Cf. Also., Itinerarum Peregrinorum et gesta Regis Ricardi auctore Ricardo , ed. Stubbs William , in R. S. 39 , London 1864 .

وفي شرح وتعليق الناشر هشتند للوثيقة حاول باجتهاد واضح التوصل إلى تاريخ كتابة رسالة البطريك وحدده بالتاريخ المذكور أعلاه ، انظر :

Ibid , PP. 324 - 326 .

(2)Radulphi de Coggeshall chronicon Anglicanum , De Expugnatione Terra Sancta Libellus , ed., Stevenson , J., in R. S. 66 . , Vol. II London 1875 , PP. 239 - 240 .

(3) William of Tyre , Op. Cit., Vol. II , P. 203 .

أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٢ .
(4) Riley Smith, J., The Knights of St. John in Jerusalem and Cyprus 1050 - 1310 , London and New York 1967 , PP. 50 - 51 , 434 - 436 .

أما فيما يختص بتاريخ الفتح فهناك كثير من الشواهد التي تجعل الباحث يميل إلى الاعتقاد في أنه قد تم فيما بين السادس والعشرين من يوليو حتى العشرين من أغسطس/ النصف الأول من جمادى الآخرة، وهى الفترة الواقعة بين تاريخ فتح بيروت والبدء فى أعمال حصار عسقلان وهذا التاريخ يتفق مع ما ورد فى رواية العماد الأصفهاني ومن نقل عنه من المؤرخين المسلمين ، ويؤكد ذلك أن الفترة الواقعة بين دخول صلاح الدين عسقلان فى الخامس من سبتمبر/ الأول من رجب حتى العشرين من سبتمبر/ منتصف رجب وهو التاريخ الذى بدأ فيه حصار بيت المقدس^(١) لم تكن كافية كى يقر صلاح الدين الأوضاع فى عسقلان بالإضافة إلى فتح مجموعة المدن والقلاع القريبة حيث الخليل وما جاورها من بلاد، وعلاوة على ذلك فما واجهته فرسان الداوية والاسبتارية من هزيمة نكراء، وفقدهم لقادتهم خلال الشهور القليلة الماضية جعلهم يتخبطون وينهارون أمام أقل الضغوط؛ ولذا وجدناهم يسلمون قلاعهم جملة واحدة، ولما كانت الخليل محاطة بهذه القلاع فلا بد أن حمايتها قد شعرت هى الأخرى بالوهن والضعف فلم تنتظر حتى تسقط عسقلان أو بيت المقدس - كما أشار البعض - وبادرت بالتسليم .

وما دلالة سقوط الخليل قبيل إسقاط عسقلان ؟ وإلى أى حد كان لذلك تأثيره فى الأحداث الحربية؟ فرواية العماد الأصفهاني المشار إليها سلفاً تؤكد على إقامة صلاح الدين فى الخليل واتخاذها قاعدة لفتح القلاع القريبة نسبياً بما فيها بيت جبرين، ومن هنا تتضح أهمية إتمام عملية فتح الخليل والقلاع المجاورة قبل التوجه لفتح عسقلان وإسقاطها . ومن ثم يصبح من الواضح أن القائد أدرك أن الخليل بموقعها الإستراتيجى تهيم على الطرق المؤدية إلى القدس من ناحية الجنوب ، كما أن الخليل وقلعتها تحول دون قيام أى اتصال بين الصليبيين المدافعين عن عسقلان والصليبيين فى القدس ، ومن هذا الموضع تمكن صلاح الدين من أن يضرب عصفرين بحجر . فمن ناحية يدخل شعوراً من الإحباط والوهن وفقد القيادة والسيطرة بين حامية عسقلان الصليبية، ومن ناحية أخرى يضاعف من حجم اليأس وقلة الحيلة لدى الصليبيين فى القدس تمهيداً لتوجيه ضرباته القاصمة لكلتا المدينتين .

وفى جانب آخر من حدث فتح الخليل لم نمدنا المصادر بأى تفاصيل عن كيفية إسقاطها، ونخرج من ذلك بانطباع مفاده أن حامية الخليل الصليبية استسلمت لجيش صلاح الدين ولم تبد مقاومة تذكر . وذكر ياقوت الحموى - الذى توفى ١٢٣٠م/ ٦٢٨هـ - أن «الخليل حصن وعمارة وسوق»^(٢)، وهذا يشير إلى أن المسلمين غنموا

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥٤٧ .

(٢) العماد الأصفهاني : الفتح القسى ، ص ١١٤ ؛ العليمى : الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .

(٣) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٨٧ .

القلعة سليمة بغير سوء حتى ذكرها الرحالة المشار إليه . أما الفرنج الذين كانوا بداخل مدينة الخليل وقلعتها فالواضح أنهم رحلوا إلى بيت المقدس مقتفين بذلك أثر الصليبيين الذين فتحت بلادهم القريبة منها، وهذا يتضح من إشارة ابن الأثير التي يقول فيها « واجتمع أهل تلك النواحي [يقصد المناطق المحيطة ببيت المقدس حيث عسقلان وغيرها] مجمعين على حفظه والذَّب عنه»، وفي موضع آخر يضيف نفس المؤرخ أن الفرنج نزحوا من البلاد والقرى المجاورة لبيت المقدس إليها « بحيث امتلأت الطرق والكنائس وكان الإنسان لا يقدر أن يمشى»، ويقدر أعداد الذين اجتمعوا بالقدس بما يربو على الستين ألفاً من الفرنج^(١) في حين يقدرهم المؤرخ الحموي بمائة ألف فرنجي^(٢).

على أية حال يعد فتح الخليل وقلعتها إنتصاراً له أهميته، وتجدر الإشارة هنا إلى ما ورد في خطاب صلاح الدين إلى الخليفة العباسي «الناصر لدين الله أحمد المستضيء» (١١٧٩ - ١٢٢٥م / ٥٧٥ - ٦٢٢هـ) يعدد فيه البلاد التي فتحها وانتصاراته ويسأل الخليفة أن يوافق على إصباح شرعية حكمه بهذه البلاد، وكانت الخليل إحدى البلاد المذكورة، وفي ذلك ينص الخطاب على: «ومقام الخليل صلوات الله عليه أن يقوم به [أى بالمدينة] من ناره غير برد وسلام [ويعنى صلاح الدين بهم السكان من الفرنج مشيراً إلى قصة إلقاء إبراهيم (عليه السلام) فى النار] ومضجع الرسول شرفه الله أن يتطرقه من لا يدين بما جاء به من الإسلام، ففتح الله هذه القلعة [يقصد قلعة الخليل] وصارت معقلاً للجهاد وموثلاً لسفار البلاد وغيرهم من عباد العباد»^(٣) وتحمل عبارة صلاح الدين المختصرة هذه الكثير عن أهمية فتح الخليل إذ شدد على أربع نقاط أساسية رأى أنها تمثل جوانب تلك الأهمية: أولها؛ الأهمية الدينية للمسجد الإبراهيمي وكونه أحد الأماكن التي مر بها الرسول محمد ﷺ أثناء الإسراء به إلى القدس. وثانيها؛ إبراز السلطان لأهمية قلعة الخليل ونيته فى أن يجعل منها معقلاً للجهاد فى المرحلة التالية للقضاء على ما بقى فى أيدي الفرنج من بلاد وخاصة بيت المقدس. أما ثالث تلك الجوانب فهو إبراز صلاح الدين أهمية قلعة الخليل فى حماية المسافرين وطريق التجارة المار بوادي الخليل الذى تتحكم فيه القلعة، أما الجانب الأخير فهو؛ إتاحة الفرصة أمام الراغبين فى زيارة المسجد الإبراهيمي والتعبد فيه من المسلمين للقدوم إليه فى أمان .

وبعد الفتوحات التى حققها صلاح الدين فى جنوبى فلسطين حيث الخليل وعسقلان وغيرهما رأى ضرورة أن يحصل جيشه على قسط من الراحة، وكذلك لإتمام

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥٤٧ ، ٥٥٠ ، راجع أيضاً : الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٢) الحموى : تاريخ المظفرى ، مخطوط .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٩٤ .

الاستعدادات وتوفير المؤن اللازمة للخطوة الضخمة التالية ألا وهي فتح بيت المقدس^(١). وفي الحقيقة لم تستخدم الخليل كقاعدة لفتح القلاع والمدن الصليبية المحيطة بها فحسب، بل استخدمت كقاعدة لفتح المدينة المقدسة ذاتها. ويؤكد ذلك مرابضة جيش صلاح الدين جهة غرب القدس عند انتهاء الطريق القادم من الخليل في بداية الأمر، وذلك في الحادى والعشرين من سبتمبر ١١٨٧م/ الخامس عشر من رجب ٥٨٣هـ. وما لبث أن انتقل إلى شمال المدينة بعد خمسة أيام وفقاً لمتطلبات الخطة الحربية المتبع^(٢)، ورغم إغفال المصادر المختلفة كيفية استغلال صلاح الدين إمكانيات منطقة الخليل الطبيعية في أعماله الحربية إلا أنه من الطبيعي ألا تفوت عليه فكرة استخدام أحواض مياه العروب الواقعة شمال الخليل كعنصر ضغط على الصليبيين داخل بيت المقدس نظراً لأنها كانت تمد المدينة كما هو معروف بما يلزمها من مياه، وخاصة أن المدينة أصبحت تضم أعداداً متزايدة من الفرنج^(٣) الذين تضاعفت بالتالى احتياجاتهم لكميات المياه .

وفى يوم الجمعة الثانى عشر من أكتوبر ١١٨٧م/ السابع والعشرين من رجب ٥٨٣هـ دخل صلاح الدين بيت المقدس^(٤) وعامل الفرنج داخلها بالحسنى حيث لقيت ستيفانى دى ميلى - أرملة رينو دى شاتيو التى انفردت بعده بالسيادة الاسمية على كل من الخليل وشرقى الأردن - معاملة تعد نموذجاً طيباً لكرم صلاح الدين حينما طلبت منه أن يأذن لها بالخروج من بيت المقدس وكذلك إطلاق سراح ابنها همفرى الرابع «فصرح لها بالسفر وهى بنوابها محوطة، وبرأيها منوطة»^(٥). وما لبث أن اهتم صلاح الدين بإضفاء الشخصية الإسلامية على القدس، ولم يمر وقت طويل على ذلك الفتح إلا وقد

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٢ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥٤٧ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٥٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٢ ، الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

Stevenson , M., Op. Cit., P. 253 ; Richard , J., An Account of the Battle of Hattin , P. 170 .

(3) Geoffrey de Vinsauf , Chronicles of the Crusades , Itinerary of Richard and Others to the Holy land, London 1848 , P. 78 .

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٤٤٨ .

(٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٨١ - ٨٢ ؛ أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٢ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥٤٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٨ - ٢٢٧ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٩٩ ؛ العماد الاصفهاني : الفتح القسى ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٦ ؛ العماد الاصفهاني : الفتح القسى ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ . راجع أيضاً :

Eracles , Op. Cit., PP. 98 - 99 Cf. Als. Richard , J. An Account of the Battle of Hattin , P. 170 .

وجه صلاح الدين أعماله الحربية ضد بقية ممتلكات همفرى الرابع الأسير فى قلاع الكرك والشوبك والسلع وهرمز^(١) التى تعتبر امتداداً للكيان الإقطاعى الصليبي الواحد. الذى كان يضم إقطاعية الخليل أيضاً. وحاول صلاح الدين ألا يستخدم القوة فى البداية فاشتراط على ستيفانى دى ميلى كى يطلق سراح ابنها همفرى الرابع قائلاً «إن سلمت الكرك أطلقته» فتقدمت إلى القلعة مع ابنها همفرى الذى أمر القائد بإحضاره من سجنه بدمشق وطالب المدافعين عنها بتسليمها فلم يستجيبوا وحينئذ أودع القائد همفرى فى سجنه مرة أخرى، فى حين توجهت الأم نحو عكا^(٢)، وحينئذ استؤنفت الأعمال العسكرية. وتتلخص خطة صلاح الدين العسكرية لفتح المدن والقلاع المذكورة فى تخصيص فرقة من الجيش لكل منها، تكون مهمتها ضرب الحصار التام حولها حتى تستسلم. وفى هذا الإطار تمكن العادل أخو صلاح الدين من إسقاط الكرك فى عام ١١٨٨م / ٥٨٤هـ. ثم تسلم فى العام التالى الشوبك وهرمز والوعيرة والسلع^(٣).

من الطيىعى أن يحرص المسلمون على إضفاء الصبغة الإسلامية على الخليل أيضاً، فحظيت باهتمام المسلمين شعبياً وحكاماً، فبمجرد أن علموا بالفتوح التى توجت بفتح القدس «أتوه رجالاً وركباً من كل جهة للزيارة» والإقامة^(٤) أما على صعيد الحكام فقد تم وضع الخليل ضمن تقسيم إدارى مميز، يشمل إضافة إليها، كلاً من بيت جبرين وغزة والداروم وما يحيط بها من أرض، كما تم تعيين «علم الدين ابن سليمان بن قيصر» والياً من قبل صلاح الدين على هذا العمل^(٥) ثم تطور الوضع

(١) وردت سلع بمطوقين فى المصادر الإسلامية سَلْع - سَلْع، راجع : البكرى : معجم ما استعجم ، ج ٣ ، ص ٧٤٧ ، وهى حصن بوادى موسى (عليه السلام) بقرب البيت المقدس ، أما هرمز : فهى قلعة بوادى موسى (عليه السلام) بين القدس والكرك . راجع : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٠٣ ، ج ٥ ، ص ١٢٣

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٥ - ٦ : العماد الاصفهاني : الفتح القسى ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ ، العليمى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣١٥ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥٥٠ ، ج ١٢ ، ص ١٩ - ٢٠ : راجع أيضاً : ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٦ .

(٤) المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٩٧ .

(٥) أشار المؤرخون المسلمون المعاصرون إلى علم الدين قيصر برسوم مختلفة : علم الدين بن قيصر وعلم الدين بن جندر وعلم الدين صنفقر، وذكروا أنه من كبار ممالك صلاح الدين، وكثيراً ما لجأ صلاح الدين وخلفاؤه إلى الاستعانة بقيصر فى الحروب وعادة ما كان يثبت جدارته فى المهام التى وكلت إليه، راجع : ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٨٧ ، ١٩١ : ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٤٠ ، ٢٥١ - ٢٥٢ ، ٢٦٥ - ٢٦٦ : العليمى : الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٣٢٤ . راجع أيضاً :

الإدارى للخليل مرة أخرى فى مرحلة تالية بأن يكون تقسيماً قائماً بذاته عرف بـ «عمل بلد الخليل»^(١). وهكذا نفّضت بلاد الخليل ثوبها الصليبي وحل المسلمون محل الفرنج بها، كما تم القضاء على الحدود الإدارية الصليبية التى كانت تميز إقطاعية الخليل بإقامة تقسيم إدارى أكثر اتساعاً شكلت بلاد الخليل جزءاً منه.

وفى ما يختص بالبدو من سكان بلاد الخليل فقد استعادوا من جديد حريتهم واطلقت لهم ملكياتهم التى كان الصليبيون قد سيطروا عليها إذ عادت المصادر لتشير من جديد إلى أسماء البقاع وموارد المياه بنسبها إلى العشائر العربية فى المنطقة؛ فيشير ياقوت الحموى إلى حوض الكرمل بأنه «ماء لطى»^(٢) والمعروف أن طيى هى أكبر القبائل العربية التى سكنت بلاد الخليل وما جاورها. وتكشف المصادر عن أن القبائل العربية فى الخليل وغيرها من بلاد فلسطين وشرقى الأردن قد نعمت بكيان مميز إبان الوجود الصليبي فى المنطقة، أى حتى عام ١٢٩١م/ ٦٩٠هـ. إذ كان الأيوبيون وكذلك المماليك يعينون رئيساً للبدو يعرف بأمر العرب، ومن أشهر هؤلاء الأمراء عيسى ابن مهنا بن مانع بن حذيفة الذى توفى فى السادس والعشرين من مايو ١٢٨٤م/ التاسع من ربيع الأول ٦٨٣هـ «وكان رجلاً ديناً خيراً». فصلحت سيرتهم [أى رعيته من العرب] وقل فسادهم»^(٣). وبذلك ظهر ما يمكن تشبيهه بالحكم الذاتى فى البلاد التى خضعت لأمير العرب. ومن ثم اجتمعت الأسباب التى أبرزت ملامح بلاد الخليل الإسلامية من جديد فى النواحي السياسية والإدارية والاجتماعية.

وظلت الخليل فى الفترة التالية تشكل إحدى ركائز المقاومة الإسلامية، وأحياناً اتخذت قاعدة لتوجيه الهجوم ضد الكيان الصليبي المضمحل الذى ما لبث أن توسع انطلاقاً من صور بحيث ضم عدداً من المراكز التى نجح المسلمون من قبل فى فتحها. ومن حين لآخر كان هذا الكيان يقوى أمام المسلمين حتى يكاد يشكل خطراً داهماً عليهم فى مصر والشام وذلك وفقاً لأطوار المد الصليبي والدعم الأوروبى الذى لم ينقطع، وكانت أهم تلك الموجات تلك الحملة الكبرى التى عرفت باسم الحملة الصليبية الثالثة، وكان ريتشارد قلب الأسد Richard Courde Lion ملك إنجلترا (١١٨٩ - ١١٩٩م/ ٥٨٥ - ٥٩٥هـ) يمثل أبرز قادتها^(٤). ورغم فشل الحملة فى تحقيق هدفها الذى جاءت من أجله وهو استرداد بيت المقدس إلا

(١) الفلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٠٢.

(٢) ياقوت الحموى: المشترك صقاً والمفترق وضماً، ص ٣٧٢ - ٣٧٣.

(٣) ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٢٩٠.

(4) Geoffrey De Vinsauf, Chronicle of the Crusades Itinerary of Richard and Other- to the Holy land, London, 1848, PP. 218 - 221. =

أنها وضعت أساس الخط السياسي الصليبي والخريطة التي طالما سعوا لتنفيذها في المنطقة العربية. إذ كان ريتشارد يطمح إلى أن يجعل من نهر الأردن حداً طبيعياً يفصل بين ممتلكات الفرنج والمسلمين^(١). وهذا يعني أن القدس والخليل بل وجميع الأراضي الفلسطينية الأخرى ظلت مستهدفة دائماً من قبل الصليبيين طيلة العقود الزمنية اللاحقة.

ويرى الباحث ضرورة تقديم نبذة عن التاريخ السياسي لبلاد الخليل خلال الفترة التالية لإجلاء الصليبيين عنها حتى تكتمل صورة الواقع السياسي للمنطقة في العصر الصليبي بعامه ، فبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي يوم الأربعاء الثاني من مارس ١١٩٣م/ السابع والعشرين من صفر ٥٨٩هـ^(٢). تناوب السلطة على بلاد الخليل ابنه الأفضل، على والعزير^(٣)، أبو الفتح عثمان، ثم استقرت السلطة فيها بيد عمهما العادل^(٤) في ١٢١٠م/ ٦٠٧هـ إلى أن توفي في ١٢١٨م/ ٦١٥هـ وما لبثت أن دانت بلاد الخليل لابنه المعظم عيسى^(٥) وفي عهده حظيت الخليل باهتمامه الواضح حيث ولى حكمها لأحد أمرائه وهو : الرشيد بن فرج بن عبد الله الذي أعانه في أمور حمايتها وأيضاً في مجال المنشآت المعمارية ، وشهدت المدينة بصفة عامة حيوية ملحوظة^(٦). وتوفي المعظم عيسى في الثاني عشر من نوفمبر ١٢٢٧م/ أول ذي الحجة ٥٢٤هـ وآلت ممتلكاته بما فيها بلاد الخليل لابنه الناصر داود^(٧).

وما لبثت أن دانت الخليل للناصر داود بن المعظم عيسى مما أدى إلى دخولها حلقات من النزاع بين أبناء البيت الأيوبي انتهت بخضوعها لعمه الكامل محمد ابن أيوب سلطان مصر (١٢١٨ - ١٢٣٨م/ ٦١٥ - ٦٣٧هـ) وذلك في أغسطس

= في ٢٠ أبريل ١١٩١م/ ١٢ ربيع الأول ٥٨٧هـ. وصل الملك الفرنسي فيليب أوغسطس إلى عكا ، وشارك الصليبيين جانباً من معاركهم ضد المسلمين ، راجع أيضاً : ابن أبيك الدواداري : الدر المطلوب في أخبار الملوك بنى أيوب ، ص ٩٩ ، الحموي : التاريخ المنصوري ، ص ١٠٠ .

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٤١٠ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٣) ابن العبري : تاريخ مختصر ، ص ٢٢٣ ؛ المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١١٤ - ١١٥ .

(٤) ابن أبيك الدواداري : الدر المطلوب في أخبار ملوك بنى أيوب ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٥) الحموي : تاريخ المظفرى مخطوط ؛ ابن أبيك الدواداري : الدر المطلوب في أخبار ملوك بنى أيوب ، ص ١٩٨ - ٢٠١ .

(٦) العلمي : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٣٧ ، ويضيف مؤرخ الخليل موضحاً أن المعظم عيسى يعد أكثر حكام المسلمين اهتماماً بالخليل وشؤونها المختلفة ، وقدم مقارنة بينه وبين بعض حكام المسلمين التالين في هذا الشأن .

(٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٤٩٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٢٥ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٠١ ؛ ابن أبيك الدواداري : الدر المطلوب في أخبار ملوك بنى أيوب ، ص ٢٩٤ - ٢٩٧ .

١٢٢٨م / رمضان ٦٢٥هـ^(١). وفى تلك الآونة أقدم الكامل محمد فى عام ١٢٢٩م / ٦٢٦هـ على التفاوض مع فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا الذى قدم إلى الشام فى حملة صليبية صغرى عرفت بالسادسة وتعهد الكامل بتسليمه بيت المقدس علاوة على معظم البلاد الفلسطينية التى كان قد فتحها صلاح الدين ولم تكن من بينها بلاد الخليل^(٢). ولم يتمكن الناصر داود من استرداد الخليل إلا بعد الإتفاق على التنازل عن دمشق لعمه الكامل فى نفس العام، وظلت فى يده إلى أن انتهى أمر الخليل سياسيًا فى عهد الأيوبيين بسقوطها فى يد الخوارزمية ١٢٤٤م / ٦٤٢هـ^(٣) لحساب الصالح أيوب^(٤) الذى تولى السلطنة ما بين (١٢٤٠ - ١٢٤٩م / ٦٣٨ - ٦٤٧هـ) وما لبث أن تمكن الناصر داود بعد عام واحد تقريبًا من استعادة الخليل، وذلك بمساعدة الخوارزمية أيضًا، وبعد وفاة الصالح أيوب دخلت الخليل فى دوامة جديدة من الصراعات بين القوى الإسلامية المختلفة .

ولعل أهم الأحداث التاريخية التى سجلها المؤرخون عن الخليل عصر الدولة الأيوبية نهوض الحركة التجارية عبر طرقها جيئة وذهابًا ، ويدلل على ذلك حادثة تعرض جيش ريتشارد قلب الأسد لقافلة إسلامية عظيمة الثراء يحرسها جيش من ألفى رجل، عند موقع تل الخويلفة (ثلاثون كيلومترًا جنوب غرب الخليل) وذلك فى الثالث

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٤٨٠ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٢٧ - ٢٣٠ ؛ السلامى : مختصر التواريخ ، ورقة ٣٢٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ ، ٢٠٦ - ٢٠٧ ، ابن الوردى : تنمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ ؛ اليونى : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٢٩ الحموى : التاريخ المنصورى ، ص ١٨١ .

Gottschalk , H. L., Al-Malik Al-Kamil von Agypten und Aeine Zeit , Eune Studie Zur Geschichte vorderasiens und Agyptens in dl ersten Haelfte des 7/113 - Jahrhunderts Wiesbaden , 1958 , PP. 164 - 182 .

(٣) اليونى : نفسه ، المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥ ؛ ابن أيبك الدوادارى : الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ، ص ٣٤٩ - ٣٥٤ ؛ ابن العميد : تاريخ بن العميد المعروف بتاريخ المسلمين ، ليدن ١٩٢٥ ، ج ١ ، ص ٩٣ ، راجع أيضًا :

Humphreys , R. S., From Saladin to the Mongols , New York , 1977 , P. 206 .

والخوارزمية : قوم يتسبون إلى خوارزم وهى بلاد على المجرى الأسفل لأحد أنهار آواسط آسيا ، شهدت نهضة فى عهد السلطان محمد (١٢٠٠ - ١٢٢٠م / ٥٩٦ - ٦١٧هـ) وعاصمتها تدعى الجرجانية ، وقد سقطت فى يد جنكيز خان عام ١٢٢٠م / ٦١٧هـ فانهارت الدولة وتفرق جيشها وأخذوا يعملون كمرتزقة ، انظر : إبراهيم زكى خورشيد : دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٩ ، ص ٣ - ١٤ .

(4) Mathieu , Paris Chronica Maiora , Vol. IV , PP. 218 - 220 .

المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧ .

والعشرين من يونيو ١١٩٢م/ الثامن من جمادى الآخرة ٥٨٨هـ^(١)، وكانت المفاجأة كاملة وخسارة المسلمين فادحة^(٢)، وهذا يعنى أن طريق القوافل عبر وادى الخليل أخذ يستأنف دوره التجارى والعسكرى بشكل أكثر كفاءة وكثافة عن ذى قبل؛ نظراً لاستمرار المعارك وتخرج الموقف العسكرى فى فلسطين باستمرار .

ومن المواقف الماثورة أيضاً لبلاد الخليل الأيوبية، نهوض أهلها للتعبير عن سخطهم على تسليم الملك الكامل بيت المقدس لإمبراطور ألمانيا فردريك الثانى إبان الحملة الصليبية السادسة عام ١٢٢٩م / ٦٢٦هـ^(٣). وتبلور هذا السخط فى انضمام أهل الخليل إلى أهل نابلس الإسلامية وقد كونوا فرقة بلغت أعدادها خمسة عشر ألفاً من الثوار انقضوا على مدينة بيت المقدس فدخلوها بسهولة، وانتشروا فى شوارعها، واستولوا على كل ما وقعت عليه أيديهم^(٤). وظلت المدينة مباحة للثوار فى حين أسرع سكانها المسيحيون من السريان واللاتين واعتصموا ببرج داود^(٥) وهو الحصن الوحيد الذى كان لا يزال باقياً فى بيت المقدس فى ذلك الوقت؛ ولذلك كانت الخسائر المادية أكثر من الخسائر فى الأرواح^(٦). وقد أبدى كل من قادة الصليبيين والمسلمين على حد سواء اعتراضهم على ما حدث^(٧)، فتقدم جيش صليبي من عكا بعد يومين فقط من استرداد الثوار لبيت المقدس فتشجع بهم السكان الهاربون إلى برج داود، ووفقاً لما ذكره المؤرخ المجهول صاحب تاريخ هرقل أن المسيحيين قاموا بتنظيف الشوارع من المهاجمين وتمت مطاردتهم فى كل اتجاه كما تم قتل ألفين منهم^(٨). ورغم المبالغة التى تشوب رواية

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢١١ - ٢١٣ .

Geofrey de vinsauf , *Chronicles of the Crusades* , PP. 303 - 308 , Eracles , Op. Cit., P. 157 , Ambroise, Op. Cit., No. 10329 - 10378 ; *Itinerarium Peregrinorum* , PP. 380 - 382 .

وعن جغرافية المنطقة مسرح الأحداث راجع :

Grousset , R., *Histoire des Croisades* , Vol. III , PP. 104 - 106 .

(٢) راجع أفضل وصف لأحداث المعركة فى :

Ambroise , Op. Cit., No. 10376 - 10557 .

راجع أيضاً : ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢١٣ - ٢١٥ .

(٣) راجع الخريطة السياسية ورسم الحدود الجديدة لمملكة بيت المقدس الصليبية فى :

Grousset , Op. Cit., , Vol III , PP. 323 - 324 , Cf. Also, Riley - Smith , J., *The Atlas of the Crusades* , London , 1991 , P. 98 / 3 .

(4) Eracles , Op. Cit., PP. 383 - 384 .

الحموى : تاريخ المظفرى ، مخطوط .

(٥) الحموى : تاريخ المظفرى ، مخطوط .

Eracles , Loc. Cit.

(6) Grousset , R., Op. Cit., , Vol III , PP. 325 - 326 .

(7) Roehricht , *Geschichte des Koniguchs Jerusslem* , P. 697 .

(8) Eracles , Op. Cit., P385 .

المؤرخ الصليبي إلا أن هناك حقيقة تأكدت وهي أنه لا يمكن تفسير ما حدث إلا بأنه رد فعل شعبي يعكس الرأي العام في ضرورة الاحتفاظ بالسيادة على القدس .

وإذا ما برز لبلاد الخليل دورها الإيجابي المشار إليه فقد ظهرت بعض المعوقات التي لا بد أن تكون قد تركت آثارها على المنطقة . فوفقاً لاتفاقية متعددة الأطراف تمكن الصليبيون عام ١٢٤١م / ٦٣٨هـ من استعادة كل أراضي مملكة بيت المقدس الصليبية القديمة باستثناء نابلس وما جاورها وغزة والخليل^(١)، والأغوار وشرقي الأردن^(٢) . ونظراً لأن طائفة الداوية لم تكن طرفاً في تلك الاتفاقيات قام فرسانها في الثلاثين من أكتوبر ١٢٤٢م / الثالث من جمادى الأولى ٦٤٠هـ بالاعتداء على نابلس وأحرقوها وأعقبوا ذلك بشن هجوم خاطف على مدينة الخليل، وترتب عليه أن قام الناصر داود بالانتقام من القوافل التجارية الصليبية والحجاج المتجهين إلى بيت المقدس^(٣) ولم تكشف المصادر عن أى تفاصيل لغارة فرسان الداوية على الخليل إلا أنه من الواضح أنها استهدفت إرهاب المسلمين في الخليل ونابلس الذين طالما أظهروا موقفًا رافضاً للوجود الصليبي في بيت المقدس .

وبعد هذا العرض الموجز لمدى تأثير وتأثر بلاد الخليل بالأوضاع السياسية في عصر الدولة الأيوبية يمكن أن نخلص إلى أنها لم تحظ بالاهتمام اللائق بها وبمكائنتها أثناء هذا العصر، وفي محاولة لإبراز أسباب ذلك يظهر لنا وقوعها في منطقة النزاع المباشر بين القوى الأيوبية المختلفة في مصر والشام، وكذلك بين الأيوبيين والصليبيين من جهة أخرى ، وجاء تأثير الخليل بهذه النزاعات من خلال وقوعها على طريق الجيوش دابة الحركة، وإن كان هذا التأثير له بعض الإيجابية في مجال التوسع العمراني، وخاصة في عهد المعظم عيسى .

وفي المرحلة التالية تبدلت السلطة على بلاد الخليل سريعاً وأخذت تتلقفها القوى الإسلامية المختلفة ضمن الصراعات التي تفجرت داخل البيت الأيوبي على السلطة، مما أوجد مناخاً يتسم بعدم الاستقرار في كل من الشام ومصر . وفي المقابل سادت المعسكر الصليبي حالة من الإحباط امتدت لفترة طويلة من ١٢٤٨ - ١٢٥٧م / ٦٤٦ - ٦٥٥هـ . حيث تأججت الخلافات الداخلية بين الصليبيين حتى وصل بهم الحال إلى الصدام

(1) Histoire des Patriarches d'Alexandrie , in Blo chet , R. O. L., 1903 - 1904 , P. 342 .

(2) Mattheui , Paris Chronica Maiara , ed. Luard H. R. R-S., 52 London 1872 , Vol. IV , PP. 141 - 143, Philippe de Navorre , Chronique de Philip pede Novarre , em Gestes des Chiprois , ed. Raynaud G., Geneve 1887 , PP. 99 , 101 .

(3) Matthew Paris , Op. Cit., Vol. IV , P. 197 .

وقد اكتفى تاريخ بطارقة الإسكندرية بسرد تفاصيل الهجوم على نابلس ، راجع :
Histoire de Patriarches d'Alexandrie , PP. 350 - 351 .

المباشر^(١). وقد تمخض عن الخلافات المستحكمة والصدامات الحربية بين أمراء الأيوبيين أن برز في الساحة عنصر أضحى له تأثيره المهم والمباشر في التوازنات السياسية والعسكرية في كل المنطقة، ألا وهم المماليك الذين أصبحوا الأداة التي لا غنى عنها لكى ينفذ أمراء الأيوبيين مآربهم^(٢) فدأبوا على شراء ممالك صغار من الرقيق الأصفر من بلاد القفجاق وما وراء النهر، وتربيتهم لجعلهم دعامة جيوشهم. وسرعان ما تضخم نفوذ المماليك السياسى فى الدولة حتى أصبح لا يمكن للصالح أيوب الاستغناء عن خدمتهم الحربية، فرتب جماعة من المماليك حوله وسماهم البحرية فكان من قادتهم الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى والأمير قلاوون الألفى وتمكنوا من الوصول للسلطة فى مصر والشام بعد قتل آخر سلاطين الأيوبيين توران شاه بن الملك الصالح أيوب^(٣). كما أظهرت هذه الجماعة بطولات عظيمة فى صد الحملة الصليبية السابعة ١٢٥٠ - ١٢٥٣م / ٦٤٨ - ٦٥١هـ ومحاولات قائدتها ملك فرنسا «لويس التاسع» " Louis IX " للاستحواذ على أجزاء من مصر والشام تشمل بلاد الخليل^(٤) وكذلك تصدوا للمغول وأطاعهم الذين وصلوا بغزوهم الهمجى حتى تم لهم الاستيلاء على بلاد الخليل وغزة فى جنوب فلسطين عام ١٢٦٠م / ٦٥٨هـ، ولكن سرعان ما تمكن أول

(1) Humphreys , R. S., From Saladin to the Mangols , PP. 321 - 322 .

ولمعرفة المزيد عن أوضاع الصليبيين والحروب الأهلية والاتفاقات فى هذه الفترة راجع :

Mayer , H. E., Ibelin Versus Ibelin The Struggle far the Regency of Jerusalem 1253 - 1258 , Repr., in : P. L. K. J. , V, PP. 25 - 57 .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك المنشور تحت اسم أيوبيون ومماليك وصليبيون ، ج ١ ، ص ١٦٨ - ١٦٩ . راجعه فى :

Lyon and Riley - Smith , Ayyulids Mamlukes and Grusades , London 1971 , Vol. I PP. 168 - 169 .

ابن شداد : الأعلام الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق : سامى الدهان ، دمشق ١٩٦٢م . ص ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٣) ابن أبيك الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٨ (الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية) تحقيق د. أولرخ هارمان ، القاهرة ١٣٩١ هـ . / ١٩٧١م . ص ٣٧ - ٤٢ . راجع أيضاً : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٧٥ - ١٠٧٩ .

(٤) تهيات الظروف أمام الملك لويس للاستيلاء على الخليل وبيت المقدس حينما عرض عليه سلطان مصر أن يتنازل عن الأرض المقدسة فى فلسطين مقابل إعادة مدينة دمياط إليه ، ولكنه رفض هذا العرض، فأضاع بذلك فرصة لا تعوض .

انظر :

Anonymus , Continuation Guillaun de Tyr de 1229a - 1261 dite du menus cerit de Rothelin , in R. H. C. H. occ . Vol. II , PP. 565 - 566 . Mathew , Paris , Chronica Majora , Vol. IV , PP. 430 - 433 , Jean de Join Ville , Chronide of the Crusade of St. Lewis , ed. and trans by : Frank N. Arziahr London , 1965 , PP. 163 - 186 .

راجع أيضاً : جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأوسط القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٢٦ - ١٢٩ .

السلاطين المماليك سيف الدين محمود فطر من إنزال الهريمة بهم فى معركة عين جالوت فى نفس العام. والنرى تمكّن بعدها من استرداد بلاد الخليل^(١) فضلاً عن معظم بلاد الشام

وإذا كان سيف الدين قطز نجح فى إيقاف خطر المغول وتوجيه ضربة قاصمة لهم، فإن بيبرس الذى تولى السلطة بعده فى مصر والشام (١٢٦ - ١٢٧٦م / ٦٥٨ - ٦٧٤هـ) نجح فى استعادة عدد كبير من الإقطاعات والمعاقل الصليبية سواء ما كان يتبع المملكة الصليبية الاسمية فى عكا أو فى إمارة طرابلس أو إمارة أنطاكية^(٢). ولاشك أن شخصيته القوية كانت من العوامل التى ساعدته على تحقيق هذا النجاح ، وبالإضافة إلى الحالة التى تردى إليها أفرنج الشام، فلم تكن تواتيه فرصة إلا استغلها لصالحه^(٣) وحينما تولى السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الألفى الحكم فى مصر والشام (١٢٧٩ - ١٢٨٩م / ٦٧٨ - ٦٨٩هـ) وأصل سياسة بيبرس القائمة على جهاد كل من التتار والصليبيين، فانتصر على التتار فى موقعة حمص الفاصلة عام ١٢٨٢م / ٥٥٨هـ. ونجح قلاوون فى استرداد كثير من البلاد التى كانت بيد الفريج^(٤) حتى لم يتبق معهم إلا عكا وأطرافها ، وترك مهمة القضاء عليهم إلى ابنه الأشرف خليل - الذى لم تستمر فترة سلطنته إلا حوالى ثلاث سنوات - عندما أمر فى فجر يوم الجمعة الثامن عشر من مايو ١٢٩١م / السابع عشر من جمادى الأول ٦٩٠هـ بشن الهجوم الأخير على عكا، فدخلها عنوة بعد أن أعمل فى الصليبيين السيف «فركب بعضهم البحر إلى قبرص وسقط عدد منهم صرعى من شدة الزحام».

وهكذا يتضح من الأحداث السابقة أن الخليل لم تسقط مرة ثانية أمام هجمات الصليبيين المتتابعة وظلت صامدة شامخة تسهم فى تسطير تاريخ الأمة الإسلامية ولصالح المعسكر الإسلامى على مر الأطوار التاريخية التى مرت بها كل من الدولة الأيوبية والدولة المملوكية إبان سلاطينها الأوائل وأصبحت المدينة تتبوأ مكانة ممتازة بين مدن الشام بفضل دورها العسكرى الذى استعرضناه فى هذا الفصل وأيضاً بفضل مكانتها الدينية والاقتصادية محور دراستنا فى المرحلة التالية من البحث

(١) أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص ١٦ - ١٧ ؛ ابن العميد : تاريخ ابن العميد ، ص ١٧٢ - ١٧٧ ؛ رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ، ج ١ ، ترجمة : محمد صادق نشأت وآخرون ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٣٠٧ - ٣١٣ ؛ ابن الشحنة : روضة المناظر فى أخبار الأوائل والأواخر ، ج ٢ ، ص ٢٦ - ٢٦١ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٥ - ٣٦

(٢) ابن أبيك الداودارى : الدرر الزكية ، ص ١٣٦ ، ٢١٣ ، ٢١٤

(٣) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر تحقيق عبد العزيز الخويطر : الرياض ١٩٧٦م

(٤) ابن عبد الظاهر : نشريف الأيام ، ص ٢٧٢

ونظرة شاملة لكل ما تم عرضه عن دور إقطاعية الخليل العسكرية إبان الوجود الصليبي ، نلاحظ أنه منذ البداية وجد الصليبيون أنفسهم نتيجة لتوسيع الغزو يطلون على صحراء النقب وشبه جزيرة سيناء من ناحية ، وكذلك يطلون على البحر الميت وأراضى شرقى الأردن من ناحية أخرى . ومن الطبيعي أن تشكل مصر مركز التهديد الرئيسى للصليبيين من جهة الجنوب طيلة العقدين الأول والثانى منذ الغزو، وذلك انطلاقاً من قاعدتها فى عسقلان ، وعليه برزت أهمية تشييد قلعة فوق أعلى قمة بين هذه الجهات حيث جبل الخليل لتأمين الكيان الصليبي الجديد . وهكذا ألقى على قلعة الخليل وحمايتها العسكرية منذ العام الأول عبء الدفاع عن جنوب مملكة بيت المقدس من ناحية الداخل . وقد برز فى هذه الفترة أكثر من حاكم للخليل أدوا تلك المهمة الدفاعية على خير وجه وبالتحديد أذكر كلا من : هيو دى سانت إبراهام الأول ودوره فى أحداث معركة الرملة الثالثة ، وجوتيه المحمدى وتصديه للمسلمين الذين وصلوا بهجومهم حتى مدينة الخليل ذاتها .

لم تقتصر أهمية الدور العسكرى للخليل على الدفاع ، بل ترك الأمر لمقتضيات الظروف العسكرية ؛ ولذا لم يسر هذا الدور على وتيرة واحدة فقد يكون دوراً هجوماً . وظهرت حملات بلدوين الأول الهجومية (١١٠٠م / ٤٩٤هـ) (١١٠٧م / ٥٠١هـ) (١١١٥م / ٥٠٩هـ) وكذلك قد تقتصر على مجرد إجراء المناورات كما حدث خلال تحركات الملك عمورى الأول العسكرية عام ١١٧٣م / ٥٦٨هـ . وفى كل هذه الأحوال كان دور الخليل يتمثل فى موقفها الداعم لجيش المملكة سواء بما لديها من فرسان أو موارد طبيعية أو موقع إستراتيجى سهل من خلاله مراقبة الجيوش . ولما كان الصليبيون يمثلون ظاهرة التحدى بالنسبة لمنطقة الشرق الأدنى الإسلامى ظهرت صحوة إسلامية شعارها الجهاد ، فى أسرة آل زنكى وأكمل مسيرتها صلاح الدين الأيوبي، وأثناء ذلك تمت إحاطة الخليل بسلسلة من القلاع فوق أراضى الإقطاعية أو على مقربة منها ، ولم تتوقف أهميتها على توفير الأمن للمستوطنين الصليبيين وإنما استهدفت أيضاً بسط سيطرتهم السديقة على الطرق التجارية التى تربط مصر بإخوانها فى الشام والحجاز بغرض شل مصر والقضاء على قوتها الاقتصادية والسياسية . وتعد بيت جبرين أهم هذه القلاع رغم انتقال القلعة عن إقطاعية الخليل بتأسيس قاعدة لطائفة الإسبتارية فيها إلا أن هناك عدداً من القلاع ظلت تمثل أجزاء من كيان إقطاعية الخليل حتى النهاية، ومنها قلاع الكرمل والسموع وتقوع .

وعادة ما كانت الخليل تنضم إلى شرقى الأردن على مر التاريخ فى ظروف إستراتيجية معينة، وفى عصر الحروب الصليبية يعزى اتحادهما على يد رينو دى شاتيو عام ١١٧٧م/ ٥٧٣هـ إلى ظروف سياسية خاصة كانت تمر بها مملكة بيت المقدس ألا وهى تفاقم خطر الصحوة الإسلامية عليها . وبالتالي كان لابد من التصدى لها بإيجاد كتلة صليبية من الأراضى المتصلة كى تكون حاجزاً بين جناحى القوة الإسلامية الضاربة فى كل من الشام ومصر ، وقد استفادت كل من إقطاعيتى الخليل وشرقى الأردن ومملكة بيت المقدس بنتائج تلك الخطوة . وكما رأينا فقد نجح رينو وقتياً فى أن يعوق التحركات العسكرية للقوات الإسلامية ، غير أن محاولاته تحطمت أمام الخطط العسكرية لصالح الدين التى نجحت فى التغلب على جهود رينو المضادة ، فتمكن صلاح الدين من أن يوحد دولته كما تمكن من كسر الحاجز الصليبي عدة مرات خلال صولاته وجولاته العسكرية التى أتمها بعد الدرس المستفاد من هزيمته فى تل الصافية . وأخيراً فلابد من التأكيد على ظاهرة ميّزت إقطاعية الخليل طيلة عصرها الصليبي عسكرياً، ألا وهى أن أراضيتها أصبحت تشكل قاعدة انطلاق الجيوش الصليبية فى معظم الأحيان ، وكذلك ميدان تحركاتهم أثناء التوجه إلى إقطاعية شرقى الأردن ، فضلاً عن استخدام قلعتها كنقطة مراقبة لتحركات الجيوش الإسلامية على حدود المملكة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى قامت الخليل أحياناً بنفس الدور بالنسبة للقوات المتجهة صوب غزة وعسقلان فمصر . وهذا يعنى بما لا يقبل الشك أن الإقطاعية قدر لها أن تساهم بشكل مستمر عسكرياً واقتصادياً فى الحركة الصليبية .

الحرم الإبراهيمي والمزارات الأخرى

في بلاد الخليل

أنشاء الوجود الصليبي بها

الفصل الرابع

ارتباط أصحاب الديانات السماوية الثلاث عقائدياً بالخليل .
الكتابات الصليبية الأولى عن الحرم الإبراهيمي .
قصة اكتشاف رفات الأنبياء (عليهم السلام) ١١١٩ م / ٥١٣ هـ .
الكتابات الصليبية واليهودية عن الحرم .
الكتابات الإسلامية .
تعليق عام ،

أ - الكتابات تحت الفحص والتحليل المقارن .
ب - تصور شامل للحرم من واقع الكتابات المذكورة والمؤلفات الأثرية .
ج - مدى تأثير إقطاعية الخليل وحرمتها بالاكتشافات .
د - قضية دفن آدم ويوسف (عليهما السلام) في الخليل .
هـ - ظاهرة ضيافة الخليل .

المزارات والأضرحة الأخرى في بلاد الخليل ،

أ - المزارات الواقعة في الشمال .

ب - المزارات في الشرق .

ج - المزارات في الغرب .

- الظروف المحيطة بحركة الزيارة داخل بلاد الخليل .

- زيارة الخليل بعد الفتح الإسلامي .

- آثار الصليبيين الفكرية على حركة الزيارة لمقدسات الخليل .

تناولت الدراسة فى شقها السابق فصولاً ثلاثة مهدت لدراسة تاريخ الخليل إبان العصر الصليبي ، وتناولت جوانب الحكم اللاتينى والظروف التى أحاطت به ، وكذلك الدور السياسى والعسكرى الذى لعبته الإقطاعية الصليبية فى الصراع ضد المسلمين طيلة هذه الحقبة المليئة بالأحداث . أما هذا القسم من الدراسة فسوف ينصب على جانب أساسى آخر من جوانب الحركة الصليبية ألا وهو الجانب الدينى وإلى أى حد ساهم الارتباط بالأراضى المقدسة فى بلاد الخليل فى شحذ وتشكيل هذا الجانب فى عصر عرف باسم عصر الإيمان؛ نظراً للدور الأساسى الذى لعبه الدين فى حركة الشعوب سواء فى الغرب أم فى الشرق .

وبطبيعة الحال فبلاد الخليل موضوع الدراسة تشغل حيزاً أساسياً من الأرض التى اعتبرها معتقو الأديان السماوية الثلاثة أراضى مقدسة باركها الله . ونظراً لأن الدراسة صبت فى قالب تاريخى يرجع بأصوله إلى قرون مضت منذ أن ارتبطت الأرض بالأديان فنجد من اللازم التمهيد . فى عجالة لمدى ارتباط كل من اليهود والمسيحيين والمسلمين بما تحتويه أرض الخليل من مقدسات إبرازاً لأهميتها، وفيما يختص باليهود فنجدهم ارتبطوا فى عباداتهم وطقوسهم منذ القدم بالحرم الإبراهيمى، فهم يعتقدون فى أن إبراهيم (عليه السلام) يعد الأب الأكبر للسلالة العبرانية ويعقوب (عليه السلام) هو إسرائيل الذى ينتسب إليه أسباط اليهود الاثنا عشر^(١)، كما أن النبی داود (عليه السلام) حكم الخليل قديماً حوالى سبع سنوات . وبصفة عامة فقارىء تاريخ العبرانيين يلحظ أن الخليل احتلت جانباً هاماً منه ، فهى إحدى المدن المقدسة الأربع فى فلسطين^(٢) .

ولنا أن نتساءل: هل يستند اليهود على أسس عقائدية فى تقدسهم للخليل؟ وهل الذهاب إليها يعد حجاً أم مجرد زيارة؟ وفى الحقيقة فإن كثيراً منهم يتفقون فى أن بيت المقدس تعد مهبط آمال اليهود وقبلتهم . كما أن الخليل تقع فيما يدعونه بأرض الميعاد زعماء منهم أن الله وعدهم بها فى أيام إبراهيم (عليه السلام) وفيما بعد ذلك أيضاً . ويتحدد محيط هذه الأرض بثلاثة أيام سيراً على الأقدام^(٣) وتمتد من بئر سبع جنوباً إلى

1 - Jacob Ben R. Nathaniel Ha Cohen, The Itinerarey of Rabbi Jacob Ben R. Nathaniel Ha Cohen, Twelfth century, in J. T., pp . 92 - 93. Cf. Als. Archer, T. H. and kingsford C. L., The crusade, P. 297.

٢ - العهد القديم : صموئيل الثانى : ٢ : ١ - ٥ .

Benvenisti, M., Op. Cit., p. 199 .

3 - Petachia of Ratisbon, Op. Cit., p. 88 .

فيما يخص وعود اليهود المزعومة بأرض الميعاد فقد انقسم علماء التوراة فى ذلك إلى فرقتين ، فرقة تقول أن النبوات تمت وانقضى زمنها ، وفرقة تقول أن الله سيعطى البلاد لليهود بعد أن ينتصروا . راجع : عمر الصالح البرغوتى و خليل طوطح : تاريخ فلسطين ، القدس ١٩٥٣ ، ص ٣ - ٤ .

شمال الجليل بمسافة ١٦٠ ميلاً، ومن أريحا إلى يافا شرقاً وغرباً بمسافة أربعين ميلاً^(١)، فى حين تفاوتت آراء اليهود حول الحج إذ يذهب البعض منهم إلى أن الحج إلى القدس واجب يحتمه الدين ثلاث مرات فى العام، فى حين يذهب البعض الآخر إلى أن تهدم الهيكل فى بيت المقدس قد وضع نهاية لشعيرة الحج اليهودى^(٢). ومن ثم فترحال اليهود إلى الخليل لم يكن يشكل يوماً ما قسماً من رحلة حجهم، وإنما كان الذهاب إليها من قبيل التبرك بالأنبياء الراقدين فيها والأماكن ذات الذكرى الطيبة لديهم.

ظل اليهود يحيطون الخليل باهتمامهم الواضح طيلة العصر البيزنطى، ويدل على ذلك سكنى أعداد كبيرة منهم حول الحرم الإبراهيمى. والثابت أن العلاقة بين اليهود والمسلمين الفاتحين قامت على أساس من التسامح والمودة، ويشير إلى ذلك تعاونهم مع الفاتحين فى إرشادهم إلى خبايا الحرم الداخلى^(٣)، وفى المقابل سمح لهم المسلمون أن يعيشوا فى سلام فى المدينة وأن يقيموا شعائرهم عند الحرم الإبراهيمى^(٤) وحينما استولى الصليبيون على الخليل قضوا على كل نشاط دينى لليهود فقلت أعدادهم حتى يمكن القول بأن وجودهم قد انعدم بها، وتؤكد ذلك المصادر اليهودية ذاتها التى أبدت حسرة على انهيار أمجادهم فى تلك الديار، كما لم نجد بها أية إشارة على وجود تجمعات يهودية فى تلك الأثناء^(٥) ومع ذلك احتفظت المكتبات العالمية بعدد من الرحلات اليهودية المدونة والتى توجهت إلى الخليل إبان الوجود الصليبي^(٦)، وتفسير ذلك أن اليهود الأوربيين الذين نشطوا فى مجال التجارة وجدوا الفرصة سانحة أمامهم لزيارة الأراضى المقدسة فى صحبة الحجاج والمحاربين الصليبيين الذين لا يكاد ينقطع تدفقهم.

أما بالنسبة للمسيحيين فإن بقاع الخليل المقدسة تعنى الكثير بالنسبة لهم، فمن المعروف أنهم يعتقدون بنفس معتقدات اليهود حول مقدسات المنطقة فكلاهما يؤمن بما جاء فى العهد القديم فى هذا الصدد، ومن أهم هذه المعتقدات دفن إبراهيم وأبنائه

1 - Anselme Adorno , Iteneraire, pp. 251 - 252 .

٢ - عمر الصالح البرغوتى : نفس المرجع ، ص ٣٤ .

3 - Canonici Hebronensis, Op. Cit ., p. 309 .

٤ - بنيامين التطيلي : الرحلة ، ص ١٠٦ .

5 - Goitein , S. D., (Summarized and trans.) Geniza Sources for the crusader period Asurvey, in outrener. Studies in the History of the crusading Kingdom of Jerusalem, ed. Kedar, Z. B., Mayer H. E., and smail R. C., Jerusalem 1982, pp. 308 - 312 .

٦ - بنيامين التطيلي : الرحلة ، ص ١٠٥ .

Petachia of Ratisbon, Op. Cit., p. 88, Jacob Ben, R. Nathaniel Ha Cohen, Op. Cit., p. 93 .

(عليهم السلام) فى مغارة المكفيلة^(١). ومن الناحية التاريخية، تعلق المسيحيون بالمدينة فقد اعترف الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٥ - ٣٣٧م) بالمسيحية ديناً شرعياً فى بلاده وعقب ذلك زارت أمه السيدة هيلانة Helen المنطقة^(٢)، فجعلت من الحرم الإبراهيمى ديراً وبداخله كنيسة بعد إدخال كثير من التعديلات الشكلية على المبنى فى الداخل، فكان ذلك إيذاناً ببدء رحلات الحج المسيحى إلى كنيسة القيامة وما يتبع ذلك من زيارات للأماكن المقدسة الأخرى ومنها الخليل^(٣). ومنذ ذلك الوقت احتلت الخليل موضعاً بارزاً فى التراث المسيحى، حيث زخر بقصص وأساطير اصطبغت بالدين، أذكر منها على سبيل المثال ما تردد عن دفن آدم (عليه السلام) فى المدينة، كما أن هناك مزاعم تشير إلى أن نوحا (عليه السلام) قد أخذ رفات أبى البشرية ووضعها فى الصخر لحمايتها، وبعد الفيضان قسمت بين أبناء نوح الثلاثة بحيث حظي سام بالرأس التى دفنت فيما بعد فى الخليل. وقد حاول التراث المسيحى ربط هذه الأسطورة بالدين حينما أقر واضعوها بأن آدم قد تم تعميده بدماء السيد المسيح، وهذا لا يعدو إلا محواً لخطيئته^(٤). والذى يهمننا من ذلك أن الخليل احتلت جانباً من الثقافة الدينية المبكرة لدى المسيحيين مما أعطاها ثقلاً دينياً وأصالة فيما بينهم غرباً وشرقاً .

أما عن مكانة بلاد الخليل الدينية عند المسلمين فهى عظيمة ؛ إذ ارتبطت المدينة بالاسلام منذ البداية استناداً إلى نصوص دينية ؛ فقد تضمن كتاب الله العزيز والأحاديث الواردة عن النبى ﷺ من فضائل بلد الخليل ما فيه كفاية^(٥)، ومن هذه الإشارات ما ورد

١ - العهد القديم : سفر التكوين ، ٢٣ : ٢ ، ١٩ ، ٢٥ : ٩ ، ٣٥ : ٢٧ - ٢٩ ، ٥٠ : ١٤ .
انظر أيضاً : العهد الجديد : سفر أعمال الرسل : ٧ : ١٥ - ١٦ ؛ لمعرفة المزيد عن المعتقدات الخاصة بدفن الأنبياء فى مغارة المكفيلة راجع :

Lunez La Carerue, Macpelah, en Dictionnaire de la Bible, Tome VI, Paris 1905, Cols. pp. 524 - 527 .

2 - Johannes phocas, Op. Cit., p. 12 .

راجع أيضاً : الأنصارى الدمشقى، المصدر السابق ، ص ٢٥٩ ؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، تحقيق : على عبد الواحد وافى ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ص ٨٥٤ . ويذكر القلقشندى رواية مفادها أن الإمبراطور رأى فى منامه انتصار دين الصليب فحينما تساءل عن مكان هذا الدين ذكر له أن مقره فى القدس والخليل بأرض فلسطين، وكان لذلك النام أثر فى اتجاه قسطنطين الكبير إلى اعتناق المسيحية . راجع : صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٤٢٨ .

3 - Gestero, J., AA. SS., Octobris Tomus Quartus, Tome IV. Paris et Rome, 1866, pp. 688 - 689 .

٤ - أفاض الرحالة الصليبيون فى وصف ما جاء بالتراث المسيحى عن قصة دفن آدم (عليه السلام) خلال القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى . راجع على سبيل المثال :

Saewulf, Op. Cit., pp. 12, 24; Daniel the Russian, Op. Cit., p. 44; John Of Wurzburg, Op. Cit., p. 32 .

٥ - العمري : الدولة المملوكية الأولى ، ص ١٢٤

في القرآن الكريم: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ...﴾ (١). وقد تم تحديد مساحة الأرض المباركة تلك بمربع طول ضلعه أربعون ميلاً مركزه بيت المقدس (٢)، ومن ثم عدت الخليل وما حولها من صميم الأرض المباركة. ومن أحاديث الرسول (ﷺ) رواية أبي هريرة، فيما معناه: «لما أسرى بي إلى بيت المقدس مر بي جبريل عليه السلام على قبر إبراهيم، فقال: انزل فصل ركعتين فإن هنا قبر إبراهيم...»، وللحديث تكملة (٣). وقد اتخذ هذا الحديث للتأكيد على أن أبا الأنبياء إبراهيم مدفون بالفعل حقاً وصدقاً في الخليل (٤). وفضلاً عن مكانة الخليل كمقر لقبور أبى الأنبياء إبراهيم وذريته الكريمة عليهم جميعاً السلام، فقد أضاف حدث الإسراء والمعراج أهمية سامية للخليل، وبذلك ارتبطت المدينة بشخصية النبي محمد (ﷺ) ذاتها طبقاً لنفس المكانة التي حازتها القدس (٥)، ذلك أن رحلة الإسراء قد أضفت أهمية خاصة على البقاع التي مر بها الرسول (ﷺ)، والمعروف أن الرحلة المشرفة قد بدأت من مكة مروراً بجبل الطور في سيناء ومدينة الخليل وبيت لحم قبل الوصول إلى القدس. وهكذا أخذ الفكر الإسلامي يتطور سريعاً بأن ربط بين قدسية الخليل وبيت المقدس، وأصبحت الخليل المدينة المقدسة الثانية في بلاد الشام.

وأضاف زخم من التراث الإسلامي مزيداً من الأهمية على مدينة الخليل، ومن ذلك ما أورده بعض المصادر الإسلامية من الروايات الخاصة بأن باني الحرم هو النبي سليمان (عليه السلام)، مستعيناً بالجن لضخامة الأحجار المستعملة في البناء (٦)، وهذا

١ - القرآن الكريم: سورة الإسراء، آية ١.

٢ - المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٧٣؛ الانصاري الدمشقي: المصدر السابق، ص ٢١٢؛ العمري: المصدر السابق، ص ١٢٣، راجع أيضاً: عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ص ٣٥ - ٣٦.

٣ - الفزاري: باحث النفوس إلى زيارة القدس المحروس، مخطوط بمحاضرة الإسكندرية، رقم ٤٩٨١ ج، فصل ١٣، ورقة ١ - ٢؛ ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ٧٥، ٧٧؛ التدمري: المصدر السابق، ص ١٩٢.

٤ - من الذين تصدوا لقضية صحة دفن الأنبياء (عليهم السلام) وزوجاتهم في الخليل ابن بطوطة. فيذكر أن المسلمين يدركون باستمرار صحة كون قبر إبراهيم وإسحق ويعقوب وقبور زوجاتهم في الخليل ولا يقطعن في ذلك إلا أهل البدع، وهو نقل الخلف عن السلف ولا تشكك فيه، راجع: الرحلة، ص ٧٧. وكذلك العمري الذي قال: ولا شك ولا ريب أن إبراهيم ومن ذكر معه مدفونون داخل هذا السور، وأما تعيين موضع القبر فالله أعلم. راجع: مسالك الأبصار، ج ١، ص ١٦٩.

5 - Le strange, G., Palestine under the Moslems: Description of syria and the Holy land from A. D. 650 To 1500, London 1890, p. 318.

٦ - الأصبخري: المصدر السابق، ص ٥٧؛ المقدسي: المصدر السابق، ص ١٧٢؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢١٢؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص ٧٥، التدمري: المصدر السابق، ص ١٩٣ - ١٩٤.

جعلنا نلمس مدى اهتمام المسلمين قبيل الغزو الصليبي بالأمكان المقدسة فى الخليل ، حيث إن أهالى فلسطين والبلاد المجاورة لها غير القادرين على الحج إلى الحجاز كانوا يقومون بزيارة القدس ومنها إلى الخليل ، وتوزيع الأضاحى على الفقراء ، وإقامة الصلوات والاحتفالات^(١).

وبعد هذه النبذة عن مكانة بلاد الخليل الدينية فى نظر معتقى الأديان الثلاثة يقدم لنا ألبرت ديكس تصويره عن المدينة وحرماها غداة استيلاء الصليبيين عليها، حيث يذكر أن المكان كان مقدساً ومبجلاً من جميع الطوائف سواء أكانوا أتراكاً أم فاطميين أم يهوداً علاوة على المسيحيين^(٢). ولدراسة الجوانب الدينية المختلفة فى بلاد الخليل فترة الوجود الصليبي بها يحسن أن نترك العنان **لشهادات المعاصرين** من زوار ومؤرخين ، ثم نتبع ذلك بالدراسة والبحث سعياً للوصول إلى الحقيقة التاريخية المجردة . ولما كان الحرم الإبراهيمي يعد أهم معالم إقطاعية الخليل الصليبية الدينية فيجب أن نضعه فى مقدمة الأماكن التى تتناولها الدراسة التالية .

ويعد سايولف أبكر الرحالة الصليبيين الذين زاروا الحرم الإبراهيمي ودون ملحوظاته، حيث يذكر أنه فى شرقى المدينة يرقد الأنبياء القديسون^(٣) : إبراهيم، إسحاق ، يعقوب (عليهم السلام) كل دفن مع زوجته علاوة على أبى الخلق آدم، وأحيطت قبورهم منذ القدم باستحكامات فى غاية المناعة (المقصود بها أسوار مبنى الحرم) وكل قبر يبلغ من الكبر حداً يشبه الكنيسة الضخمة ويحوى كل منها قبرين أولهما لأحد من الأنبياء والآخر لزوجته ، وقد وضعت فى جلال مهيب . ومنذ عهد بعيد عطرت هذه القبور بأطيب أنواع العطور وأغلاها . وما زالت حتى يومنا هذا تزكى بأريجها أنوف من يذهب لزيارتها^(٤).

أما الرحالة دانيال الروسى فيصف الوضع الذى كان عليه الحرم وقت زيارته له ، ويذكر أنه عبارة عن مبنى قوى تحيطه أسوار ذات حجارة ضخمة وارتفاع شاهق وتقع المغارة فى الداخل وسط هذا المبنى وكل أرضيته من الرخام الأبيض ، والمغارة تقع أسفل تلك الأرضية وفيها يرقد الأنبياء وأزواجهم، وتتجاور مقبرتا إبراهيم (عليه السلام)

١ - ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ٣٣ .

2 - Albert d'Aix, Op. Cit., p. 524 .

٣ - اعتاد الحجاج والمؤرخون الصليبيون بصفة خاصة على إطلاق لفظة البطاركة Patriarchum على الأنبياء المدفونين فى المكفلة، وكذلك على أبناء يعقوب (عليهم السلام) بل وعلى الباباوات البارزين .

4 - Saewulf, Op. Cit., p. 24 .

وزوجته «سارة» ، وكذلك إسحق (عليه السلام) وزوجته «رفقة» ، ويعقوب (عليه السلام) وامراته «ليثة» أما قبر يوسف (عليه السلام) فيقع داخل المغارة ولكن عند طرفها^(١). وهكذا يلاحظ تشابه روايتى الرحاليتين الصليبيين سايولف ودانيال الروسى إلى حد بعيد، وهذا يعد أمراً طبيعياً نظراً لأن زيارة كليهما إلى الخليل لا تفصل بينهما إلا حوالى أربع سنوات فقط، غير أنه من اللافت للنظر أن مجموع ما ورد فى وصفها قد جاء مطابقاً لمعظم ما ورد من وصفهما للحرم على لسان الرحالة المسلم ناصر خسرو الذى زاد عليهما وصفه للآثار الرائع والمكونات العديدة التى حازها من خلال صدقات أغنياء المسلمين^(٢). ويفهم من ذلك أن الحرم لم يحظ باهتمام الصليبيين خلال السنوات الأولى من غزوهم للخليل إذ لم يتم تسجيل أى إضافات أو تحسينات بأيديهم خلال هذه الفترة، فى حين أشارت المصادر الصليبية ذاتها إلى أن الحرم الإبراهيمى تعرض للسلب والنهب منهم، كما ذكر فى الفصل الثانى حين التعرف على الغزو الصليبي للخليل.

وقبل أن نتقل للتعرف على حدث اكتشاف مقابر الأنبياء (عليهم السلام) فى مغارة الحرم الإبراهيمى نجد أن وراء ذلك قصصاً تضرب بجذورها منذ قرون مضت فى الفكر الأوروبى، وقد غلب عليه الطابع الأسطورى، فقد شاعت قصة مفادها : أن الإمبراطور البيزنطى ثيودوس الثانى Theodos ٤٠٨ - ٤٤٠ م. المعروف بورعه أرسل بعضاً من رجاله إلى الخليل لينقلوا رفات الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام) الراقدة هناك إلى القسطنطينية، وحينما حاول هؤلاء الرجال الاقتراب أصيبوا بالعمى ولم يرتد إليهم بصرهم إلا حينما ابتعدوا فاضطروا إلى العودة دون تلبية طلب الإمبراطور ، وحينما حاول مطران الخليل الذى عاصر نفس الإمبراطور الدخول إلى مغارة الدفن مات على الفور^(٣). وهناك أسطورة أخرى تتلخص فى أنه خلال الفترة الواقعة بين القرنين السابع والتاسع الميلاديين الأول والثالث الهجريين ظهر فى الغرب الأوروبى وبالتحديد فى أسبانيا أسطورة مفادها : أنه أثناء زحف المسلمين لفتح الأراضى المقدسة فى فلسطين تمكن عدد من نصارى بيت المقدس من إخفاء رفات بعض الأنبياء فى متاعهم، ومنها رفات إبراهيم الخليل (عليه السلام) ، ووسط رحلة غلب عليها الجانب الأسطورى وصل هؤلاء المغامرون إلى أسبانيا وأقاموا ذويلة لهم فى طليطلة ، وحينما

1 - Daniel the Russiam, Op. Cit ., pp. 53 - 54 .

٢ - ناصر خسرو : المصدر السابق ، ص ٣٣ - ٣٤ .

3 - Canenici Hebronensis, Op. Cit., pp. 305 - 306 .

قدم المسلمون فاتحين لهذه البلاد استقر الأمر بالمغامرين في مدينة أوبيدو «Obeedo»^(١). وهذا الفكر يعكس اهتمام الأوربيين بالمعتقدات الخاصة بأجساد الأنبياء، ومدى حرصهم على الاحتفاظ بها. ولا بد وأن هذا الفكر اختمر في الأذهان عبر القرون إلى أن انتعش من جديد في عصر سادت فيه الصراعات الدينية والروح الصليبية.

وبعد مرور عقدين من الزمان تقريباً من الوجود الصليبي في الخليل وقع حدث على قدر كبير من الأهمية ألا وهو اكتشاف مقابر الأنبياء (عليهم السلام). وبين أيدينا رواية لاتينية تم تدوينها بعد سبعة عشر عاماً من تلك الواقعة، وفيها تناول راهب الخليل المجهول الاسم تفاصيل القصة في ثوب أدبي قشيب مستخدماً الأسلوب الروائي^(٢)، وأهم ماسرده ذلك الذي يتعلق بالتطورات التاريخية التي مر بها الحرم، ثم تناوله للمبنى بالوصف الدقيق فيذكر أنه عبارة عن بناء شديد القوة ذي مظهر جميل يثير الرهبة يتكون من أحجار مربعة كبيرة وملساء يبلغ ارتفاع السور ثمانية عشر ذراعاً وطوله تسعة وأربعون ذراعاً، والأرضية من البلاط المربع الكبير الشديد الصلابة، حتى أنه يتحمل إقامة بناء عليه، وتبلغ من القوة ما يفوق مثل حجمها من الرخام. وتم ترتيب أجزاء المبنى بشكل لا يمكن انتزاع أى منها دون بذل عناء كبير، وقد تم تشييد ست مشاهد رمزاً لقبور الأنبياء مصطفة بحيث ضمت ثلاث مجموعات كل منها يضم اثنين منها، وتقع مشاهد الأنبياء قبالة مشاهد زوجاتهم بحيث وقع مشهد إبراهيم (عليه السلام) وزوجته سارة في الوسط، بينما إسحاق (عليه السلام) ورفقة في الشرق، ومشهد يعقوب (عليه السلام)، وليثة في الغرب، وهذا كله في مغارة على عمق أربعة عشر ذراعاً^(٣) أسفل البلاط. والجدير بالذكر أن الذراع وحدة قياس تعادل أربعة وستين سنتيمتراً، ومن ثم فهذه المقاييس تطابق الواقع الذي عليه مبنى الحرم^(٤)، كما أن الوصف يظهر أن وضع المشاهد هو نفس وضعها حتى يومنا الحالي^(٥).

١ - وردت هذه القصة في مخطوطتين ترجعان إلى أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر الميلاديين / أوائل السابع الهجري، وتوجد الأولى في مكتبة كونبراى Conprey في فرنسا تحت رقم ٨٠٤، أما المخطوط الثاني فيوجد في مكتبة Chutmen . Thomasphilipos في بريطانيا تحت رقم ٢٩٩، وموارد بهما دون في وثائق الفونس الثالث صاحب قشتالة، المعروف بلقب «الطيب» (١١٥٨ - ١١٩٤ م. / ٥٥٣ - ٥٩٠ هـ) وذلك في السنوات السابقة على سقوط بيت المقدس (١١٨٧). / ٥٨٣ هـ) وقد تدخل المؤرخ بإضافة بعض المعلومات على ما ورد في المخطوطين إلا أنه من الصعب التعرف عليها. راجع:

- Kohlars C. N., ed Historienon ymedu Roymede Jerusalem, compose, Utelise la fin de Dauziemesiecles, dans, R. O. L., Vol V, Paris 1903 pp. 211 - 219 .
2 - Riant, P., irveation de la sepulture des patrlarches Vol. II . A., P. 412 ; Vincent , Mackay, Abel , P. 167 .
3 - Canonici Hebronesis, Op. Cit., p. 308 .
عن بناء أسوار الحرم الإبراهيمي من الأحجار الضخمة . راجع : شكل رقم : (١ ، ٤) .
4 - Riant, P., Op. Cit., Vol. II A. p. 416 , N 17 .
5 - Vincent , Mackay , Abel , p. 161 .

استند راهب الخليل في روايته لأحداث اكتشاف المقابر إلى ما سمعه مباشرة من اثنين من رجال الدين المقيمين في كنيسة سانت أبراهام وهما إيد Eudes، وأرنول Arnoul وكانا قد شاركا بشكل مباشر في هذا العمل . وتتلخص أحداث القصة في أنه في أحد أيام شهر يونيو ١١١٩م/ صفر - ربيع الأول ٥١٣ هـ^(١) قام أحد الرهبان أثناء فترة الراحة بالدخول إلى الكنيسة لالتقاء الشمس وحرارتها وجلس بجوار مشهد إسحاق «عليه السلام» ولاحظ تصاعد هواء بارد من خلال فتحة بين بلاطتين في الأرضية، وحينئذ حاول فحص مدى هذا العمق باستخدام ثقل ربطه في خيط وقام بتدليته من الفتحة وتمكن من تحديد العمق بأحد عشر ذراعاً ، وروى ذلك على الزملاء الذين قاموا خلال يومين أو ثلاثة بإعداد الأدوات اللازمة لإحداث فتحة أوسع بين هذه الأحجار . ثم قدم بلدوين دى سانت أبراهام حاكم الخليل واجتمع بالرهبان وقام بتنظيم العمل فيما بينهم حيث إن ربنيه رئيس الرهبان كان في القدس في تلك الآونة، وبعد عناء وجهد شاقين تمكن الرهبان من كسر حجر ضخّم فظهر مدخل المغارة وكان أرنول يعد أنشط الذين هبطوا وذلك باستخدام الحبال حيث تمكن من التعرف على فتحة الدهليز^(٢) الذي يؤدي إلى غرفة سفلية تكفي لثلاثين مصلياً مغطاة بكتلة حجرية ضخمة واحدة، وتوقف العمل بعض الشيء حتى يأتي ربنيه من القدس ليشهد بنفسه حدث اكتشاف المقابر .

وحينما عاد ربنيه اجتمع بمروسيه من الرهبان للإعداد للمرحلة التالية من التنقيب ودخل الجميع الغرفة مرة أخرى وشبه لهم أنها كنيسة جميلة . وفي موقف مهيب قاموا بانتزاع حجر في سور كان يسد فتحة مغارة أخرى اعتقدوا أن رفات الأنبياء راقدة بها . وفي اليوم التالي دخل أرنول ليكتشف الأمر فعثر - والحديث كله لراهب الخليل - على رفات يعقوب (عليه السلام) ، وفي مغارة فرعية أخرى وجد بها رفات إبراهيم وإسحاق «عليهم السلام»^(٣) . وحينئذ خرج أرنول كي يعلن للجميع اكتشافه لرفاة البطارقة

١ - تم تحديد التاريخ الذي وقعت فيه حادثة الاكتشاف بيوم الخامس والعشرين من يونيو ١١١٩م/ الثالث عشر من ربيع أول ٥١٣ هـ . وذلك وفقاً لدراسة مطولة . عن ذلك راجع :

Riant, P., Op. Cit., Vol II A, P. 414 - 416

Guthe, M. H., Die Untersuchung des Patriarchatstums in Aethiopia Jahrbuch Z., D. P. V., Dd. XVII, 1894 , P.P. 238 - 241, Roehrichte R., Geschichte des Koaijreichts Jerusalem, P. 141 .

٢ - وصفه الراوى بأنه قناة مياه ضخمة ولكنه كان مجرد عمر عرضه نصف متر وطوله يتراوح ما بين ثمانية وتسعة أمتار، أما الارتفاع فيبلغ ستة أمتار تقريباً ، راجع :

Vincent , Mackay , Abel , P. 180 .

٣ - من المعتقد أن يكون ترتيب مواقع رفات الأنبياء مبنى على توقع الرهبان المكتشفين، على افتراض أن يعقوب (عليه السلام) قد قام بدفن جده وأبيه في المغارة الداخلية أولاً، وحينما توفي هو تم دفنه (عليه السلام) في المغارة الخارجية، راجع: الفزاري: المخطوط السابق، الفصل ١٣، ورقة ٢ - ٣ . انظر أيضاً :

Vincent , Mackay , Abel , P. 182 .

(الأنبياء المكرمين) ووفقاً لمزامع راهب الخليل حمل رئيس الرهبان والرهبان الماء والنبيد لتنظيف أكفان الرفات مما علق بها من أتربة، وخاصة أن مغارات الدفن كانت تستند إلى جسم الجبل المقام عليه الحرم، كما زعم أن الرهبان حملوا الرفات وطافوا بها في شوارع الخليل ابتهاجاً وإعلاناً بهذا الإنجاز، ثم عادوا للمغارة ووضعوا كل رفات على منضدة من الخشب كان قد تم إعدادها لهذا الغرض. ثم خرج الجميع، وقام رئيس الرهبان بإغلاق مدخل المغارة حتى لا يتمكن أحد من الدخول دون إذنه.

يستمر راهب الخليل في روايته ذاكراً أن رجال الدين واصلوا تنقيباتهم في اتجاه آخر من المغارة، ولفت نظر أرنول أحرفاً مكتوبة على حجر لم يتمكن أحد من قراءتها ويرجع البعض أنها كلمات باللغة العبرية^(١)، وقد استتج الرهبان منها ما يدل على وجود مغارة أخرى. وفي السادس من أغسطس من نفس العام الخامس والعشرين من ربيع الآخر تم اكتشاف خمسة عشر إناء فخارياً تضم عظاماً لموتى دون معرفة أصحابها، غير أن الراوى يعتقد أنها بقايا رفات بعض زعماء بنى إسرائيل^(٢). وقد شاعت فيما بعد أسطورة مفادها أن تلك الأواني كانت تحوى عظام أبناء يعقوب الأحد عشر (عدا يوسف (عليه السلام)، علاوة على عظام رجال بارزين آخرين من زعماء اليهود^(٣). وينهى راهب الخليل روايته بأنه تم استخراج بعض الأواني كى توضع فى المذبح الذى أقيم فى ساحة المشاهد للتبرك بها. وفى يوم السادس من أكتوبر الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من نفس العام قدمت حشود أبناء الشعب الفرنجى من بيت المقدس والبلاد الأخرى المجاورة للخليل لحضور الاحتفالات الكبيرة التى أقيمت بهذه المناسبة، كما أخذت مجموعات من المسلمين تواصل زياراتها للحرم التى كانوا اعتادوا القيام بها بأعداد كبيرة من قبل^(٤).

ويرى أحد الباحثين الحديثين أن مدونة راهب الخليل تمت كتابتها قطعاً فى الأراضى المقدسة، ويذكر أن هناك من الشواهد ما يدعو إلى التصديق بما ورد فيها، إذ جاءت رواية كل من إيد و أرنول لراهب الخليل متفقة فى سرد كل النقاط والتفاصيل، علاوة على أنه ليس هناك دليل للتشكيك فى حسن نية الراهب، ولذا يمكن الاستناد إلى روايته فى كل ما وقع من أحداث^(٥). ويتفق باحثون آخرون على ذلك، وقد أضافوا

1 - Cuthe, M. H, Op . Cit. p. 241 .

2 - Canonici Hel ronensis , Op. Cit., pp. 312 - 313 .

3 - Vincent , Maciay , Abel , Loc . Cit .

4 - Canonici Hebronensis, Op. Cit ., p. 313 .

5 - Kohler , cn, Invention des Patriarches Abraham , Isaac et Jacob , R. O. L, Tome IV, Paris 1896 , pp 496 - 497 .

برهاننا آخر للتأكيد على صحة الرأي وهو أن صاحب المدونة استخدم أسلوباً روائياً واقعياً في وقت لم تعرف فيه أوروبا ذلك اللون في الكتابة الأدبية ، ولذا ما كان عليه إلا أن دَوّن ما قص عليه^(١). ولنا أن نتوقع بشدة أن راهب الخليل زار الخليل وحرّمها، وربما أقام بعض الوقت هناك ، والدليل على ذلك الدقة التي حاول تحريها في روايته ، غير أنها لا تخلو من مبالغات .

وبعد الرواية التي قدمها راهب الخليل فهل هناك من يؤكد لها من المؤرخين والرحالة الصليبيين؟، وللتعرف على الإجابة نعرض لإشارتين تعدان نموذجين لعشرات من الإشارات الصليبية المشابهة لها ؛ فيذكر بطرس الشماس وهو أحد الرحالة الصليبيين الذي زار الخليل عام ١١٣٧م / ٥٣١ - ٥٣٢ هـ تقريبا أنه في الكهف المزدوج حيث يرقد الآباء في مكان تحيطه الأسوار من جوانبه الأربعة ، وواجهة المبنى تتجه نحو الشمال ، وكل مقبرة من هذه المقابر تعلوها أبنية من حجارة بيضاء لامعة على شكل كنيسة ، وربما تكون رفات آدم الرجل الأول ترقد في مكان ليس على مبعدة من مكان دفن الأنبياء الآخرين، وتحديدًا فمكان دفنه يقع عند حافة سور المغارة، وفي الساحة يمكن أيضًا مشاهدة المقابر الثلاثة الأصغر حجمًا الخاصة بالزوجات^(٢). أما يوحنا أف فريزبرج - وهو من أكثر الرحالة الصليبيين اهتمامًا بتسجيل المعلومات الخاصة بالأراضي المقدسة والبحث فيها - فيذكر أن مدينة الخليل تعد مدينة البطاركة، وذلك لأنها تضم رفات أربعة من الأنبياء وهم: آدم وإبراهيم وإسحاق ويعقوب، وكذلك زوجاتهم وهن: أمنا حواء وسارة ورفقة وليثة، وقد تم دفنهم جميعًا في المكفيلة^(٣). وإذا ما اتجهنا للتعرف على موقف وليم الصوري - وهو أفضل من تعرض للأحداث الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري - نجد أنه يكتفى بالقول «والخليل التي يوجد بها المقابر الطاهرة للبطاركة»^(٤). وعليه يتضح أن أصحاب المدونات الصليبية التزموا الصمت حيال حدث الاكتشاف ، واقتصرت إشارات من تعرض بالحديث عن الخليل - وهم كثيرون - على أنها تضم المقابر المقدسة^(٥).

1 - Vincent , Mackay , Abel , p. 178 .

2 - Peter le Deacon , in : Itinera Hierosolimitana Crucesignatorum , 1137, A. D. Vol . III, Jerusalem 1984. p. 185 .

3 - William of Tyre , Op . Cit ., Vol . I, p. 340 .

4 - John of wurzburg , Op . Cit., p. 58 .

٥ - راجع على سبيل المثال :

Gelardus de Escolo , Geographiarum Tera sanketi , 1112 . 1120 , A . D. Itinera Hierosolimitana cruce signatorum Vol . III , Jerusalem 1984 . p. 185; Fetellus , Op . Cit., P. 11 ; Ernoul , Op., Cit., p. 72; Rnonymus , Continuation , pp. 511 - 512 .

وإذا ما انتقلنا للتعرف على مادونه الرحالة والزوار اليهود لمنطقة الخليل نلاحظ اهتماماً واضحاً منهم بأمر المقابر ، حتى كانت لهم تجاربهم الخاصة . وتتناول بالعرض رواية الذين زاروا الخليل أثناء الوجود الصليبي بها ، حيث يذكر بنيامين التطيلي أن « بها بيعة حسنة للنصارى تدعى كنيسة القديس إبراهيم » كانت فى أيام حكم المسلمين كنيسة لليهود حتى استولى الإفرنج عليها . « وفى هذه الكنيسة ستة قبور يقول النصارى أنها أضرحة إبراهيم وسارة ويعقوب وليثة يحجها اليهود للتبرك لقاء إتاوة يؤدونها . فإذا جاء يهودى دفع المال إلى الحارس القيم على القبور فيفتح له باباً من حديد يرتقى عهده إلى أسلافنا طاب ذكروهم . فينحدر منه إلى مغارة خاوية ويبدده شمعة يهتدى بها وسط الظلام ، ومنها يلج مغارة ثانية وهى خالية أيضاً ومنها إلى ثالثة حيث يجد ستة أضرحة متقابلة فيقرأ على الأول هذا قبر سيدنا إبراهيم عليه السلام . وعلى الثانى هذا قبر سيدنا إسحاق عليه السلام وهكذا ، وفوق القبور قناديل مرتبة ليلاً ونهاراً . وفى هذا الغار عدد من القوارير مملوءة بعظام الموتى . فقد جرت عادة اليهود أن يأتوا بعظام موتاهم إلى هذا المقام»^(١).

أما الرحالة اليهودى ربي فتاحية الراتسبونى ؛ فيذكر فى روايته أنه قام بزيارة الخليل حيث نقل عنه رفيقه يهوذا وصفه مشيراً إلى المبنى بأنه قصر عظيم شديد فوق مقابر الأسلاف ، والتى عنى ببناؤها النبى إبراهيم (عليه السلام). ويبالغ يهوذا فيما نقله عن فتاحية فى وصف أحجام الأحجار المستخدمة فى البناء ، فعلى سبيل المثال يقدر طول الواحد منها بثمانية وعشرين متراً تقريباً ثم استأنف الراوى حديثه فيقول: أن الربى أعطى الحارس قطعة ذهبية ففتح له باب المغارة وبداخلها ثلاث غرف بها توابيت الدفن لكنها توابيت مزيفة تستعمل للتضليل ، هكذا حذر يهود عكا ، فسأل الحارس عن المقابر الحقيقية مانحاً إياه قطعة ذهبية أخرى . وحينئذ أقر الحارس بمكان المقابر الحقيقية وقال أنه لم يسمح قط لأحد من الأُمميين (أى اليهود والمسلمين) أن يدخل إليها من قبل . ثم أحضر الحارس شعلة وتم نزول سلم يبلغ خمس عشرة درجة ينتهى إلى المغارة الداخلية وهى تؤدى إلى مغارة أخرى شديدة الهيبة ، فى وسطها سرداب يُفضى إلى قبور منحوتة فى الصخر . و يتوسط مدخل السرداب قضبان حديدية كبيرة الحجم إلى الحد الذى لا يمكن للبشر صنع مثلها إلا بمساعدة من السماء ، ويندفع من بين هذه القضبان ريح قوية أدت إلى إطفاء الشعلة وحينئذ تأكد الحضور من أن الأنبياء مدفونون فى هذه المغارة ،

١ - بنيامين التطيلي : الرحلة ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

فبادروا بإقامة الصلوات ، ثم حاول الربى التقدم نحو فتحة السرداب حيث المغارة فهبت الرياح بشدة وطرحته أرضاً خارج^(١).

وفيما يتعلق بآخر الروايات اليهودية عن زيارة الحرم الإبراهيمي أثناء السيطرة الصليبية على الخليل نذكر ما أورده يعقوب بن الربى ناتانيل هاكوهين^(٢) حيث أورد أنه ارتدى ملابس غير مألوفة بالنسبة له لتسهيل الدخول إلى المبنى ، وأول ما سجله هاكوهين وصفه للمشاهد الستة نسباً إقامتها خطأ إلى الرهبان الفرنج بغرض مخادعة الناس ، كما وصف المبنى بأنه كنيسة. ويفسر هاكوهين سبب تخفيه في غير ملابسه بأنه لم يُسمح لليهود بالهبوط إلى مغارة المكفيلة، وها هي الفرصة قد أُتيحت له للهبوط إليها ، وكانت في نظره تحتوى على كنوز تم إخفاؤها بينما أعدها الرهبان الفرنج كنوزاً للرحمة. ومن يحظ بالتزول إليها ينله شرف كبير عادة ما يطلق عليه «الهبوط العظيم». ثم يتقل الرحالة إلى وصف جزء آخر فيذكر أنه بداخل المغارة حائط كبير تعلوه بعض الأواني الفخارية وليس مسموحاً لأى شخص أن ينفذ إلى ما وراء الحائط، وحينما حاول بعض الرهبان إحداث ثغرة فيه منعتهم الرياح من إتمام عملهم^(٣).

وإذا ما انتقلنا للتعرف على موقف المؤرخين والرحالة المسلمين وما أوردوه من خلال ما سمعوه أو شاهدوه أثناء الزيارة، نجد أن أكثر المدونات معاصرة لحدث الاكتشاف ما سجله المؤرخ المسلم بن القلانسي في أحداث عام ٥١٣ هـ الممتد من الرابع عشر من أبريل سنة ١١١٩م حتى الثاني من أبريل ١١٢٠م. حيث قال: «وفى هذه السنة حكى من ورد من بيت المقدس عن ظهور قبور الخليل ولديه إسحق ويعقوب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم مجتمعون في مغارة بأرض بيت المقدس وكأنهم كالأحياء ، لم يبل لهم جسد ولا رم عظمهم، وعليهم في المغارة قناديل معلقة من الذهب والفضة، وأعيدت القبور إلى حالها التي كانت عليها. هذه صور ما حكاه الحاكى والله أعلم بالصحيح من غيره»^(٤). وقد اهتم عدد كبير من المؤرخين المسلمين

1 - Petachia of Ratisbon , Op. Cit., pp. 89 - 90 .

٢ - اتضح للباحث أن الرحالة اليهودي يعقوب هاكوهين قام بأكثر من رحلة للخليل ، كانت الأولى أثناء الوجود الصليبي أى قبل عام ١١٨٧م / ٥٨٣ هـ وهذا يتضح من واقع أحداث الزيارة، وعلى سبيل المثال؛ أشار الرحالة إلى الحرم الإبراهيمي بالكنيسة التي بناها الفرنج ، وكان ناشر الرحلة (إدلر - ن) قد أشار إلى أنها قد تمت أثناء القرن الثاني عشر الميلادى دون أن يحدد موعد وقوع الزيارة للخليل ، وما إذا وقعت في ظل الحكم الصليبي أم الإسلامى .

3 - Jacob Ben R. Nathaniel Ha - Cohen , Op. Cit., p. 93 .

٤ - ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٣٢١ .

بإثبات هذا الحدث فى مدوناتهم حتى أولئك الذين غلب على مؤلفاتهم الإيجاز^(١) مما يعكس رد الفعل بالنسبة للرأى العام بين المسلمين .

لم يسجل أحد من المسلمين زيارته للخليل لعدة عقود تالية من الزمن بما فى ذلك أسامة بن منقذ الذى تكررت زيارته لبيت المقدس . غير أن الرحالة الإدريسى وصف الخليل قائلاً: «وفى مسجدھا قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب وكل قبر من قبورهم تجاه قبر امرأته». والجدير بالذكر أن الرحالة أشار إلى مدينة الخليل باسم مسجد إبراهيم^(٢) (عليه السلام) مما يشير إلى أنه اقتبس بعضاً مما أوردته المدونات الجغرافية الإسلامية السابقة التى اكتفت فى العادة بالإشارة الى مدينة الخليل بالمسجد القائم بها^(٣). بيد أن الهروى يعد أول من قام بزيارة الحرم وسجل رحلته إبان الوجود الصليبي للخليل حيث قال: «بها مغارة فيها قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسارة (عليهم السلام) وقيل إن قبر آدم ونوح وسارة فى هذه المغارة»، ثم تطرق الهروى فى حديثه إلى كيف أن أحد الزوار المسلمين كان قد تمكن سلفاً من النزول إلى المغارة التى بها رفات الأنبياء واصفاً إياها بأنها كبيرة والهواء يخرقها. وبها دكة عليها إبراهيم الخليل (عليه السلام) ملقى وعليه ثوب أخضر وشيته يلعب الهواء بها، وإلى جانبه إسحاق ويعقوب (عليهما السلام)، وحينما حاول النظر فيما وراء الجدار إذا بصوت ينهره «إياك والحریم» فعاد من حيث نزل ثم إستشهد الهروى بالتوراة «سفر التكوين» ليدعم الاعتقاد السائد أن إبراهيم وأبناءه (عليهم السلام) مدفونون فى المغارة^(٤).

ولعل أهم ما قدمه الهروى تلك المعلومات التى نقلها عن لسان الفرنج أنفسهم عن عملية الاكتشاف حيث يروى (بشئ من التصرف)، دخلت القدس سنة ١١٧٣م/ ٥٦٩هـ واجتمعت فيه، وكذلك فى مدينة الخليل (عليه السلام) برجال طاعنين فى السن حدثونى أنه لما كان فى زمان الملك (بلدوين الثانى) انخسف الموضع فى هذه المغارة فدخل جماعة من الفرنج إليها بإذن الملك، فوجدوا فيها إبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليه السلام) قد بليت أكفانهم وهم مستندون إلى حائط ورءوسهم مكشوفة فجدد الملك

١ - ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، ج ٩، ص ٢٢؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٢، ص ١٨٤، اليافعى: مرآة الجنان، ج ٣، ص ٢٠٤، ابن الجزرى: تاريخ ابن الجزرى، مخطوط فى محافظة الإسكندرية تحت رقم ٢٠٧٢، ورقه ٥١٤؛ ابن الشحنة : المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٩؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك؛ نشر ليون، ج ١، ص ٤٢.

٢ - الإدريسى: نزهة المشتاق، ص ١٨٧.

٣ - الأصطخرى : المصدر السابق، ص ١٥٩.

٤ - الهروى : الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٣٠ - ٣١.

أكفانهم ثم أمر بسد الموضع. ويحدد تاريخ هذه الأحداث بعام ١١١٩م / ٥١٣ هـ. ويواصل الهروى حديثه قائلًا: «حدثني الفارس بيرن^(١) الذى كان مقيمًا فى بيت لحم ومعروفًا لدى الفرنج لرجلته وكبر سنه أنه دخل مع أبيه إلى هذه المغارة ورأى إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب ورء وسهم مكشوفة، فقلت: كم كان عمرك؟ فقال: ثلاث عشرة سنة. وقال لى: إن الفارس جفرى بن جرج كان ممن تقدم الملك إليه ليجده أكفانهم ويعمر ما انخسف من المغارة، وهو فى الحياة، فسألت عنه فقيل: مات منذ أيام»^(٢).

وهناك بعض المصادر الأوربية والإسلامية المتأخرة نسبيًا عن فترة الوجود الصليبي فى الخليل ولكنها قدمت لنا معلومات هامة أغفلها أقرانهم الذين سبقوهم فى تسجيل ما رأوه وسمعوه عن الحرم الإبراهيمى فى تلك الفترة، ومن هؤلاء الرحالة اليهودى صموئيل بن شمشون الذى توجه إلى الخليل ١٢١٠م / ٦٠٧ هـ تقريبًا وزار حرمها، بل وهبط حسب ظنه إلى المغارة السفلى، ولعل أهم ما أمدتنا به مدونته وصفه للسرداب الهابط إليها حيث يروى: «هبطنا أربعًا وعشرين درجة على سلم صغير للغاية حيث لا يمكن التلفت لليمين أو لليسار، وبدا لنا ثلاثة مقابر فصلينا وسجدنا خاشعين ثم رجعنا إلى القدس»^(٣). كذلك يشير كل من ابن بطوطة والعمرى، اللذين تعددت زيارتهما للخليل والحرم إلى وجود فتحة على يمين المنبر يهبط منها على درج من الرخام إلى سرداب ضيق يقضى إلى ساحة ذات أرضية رخامية فيها صور القبور الثلاثة، ويلاحظ أن الزيارتين قد تمتا بعد إعداد المبنى كى يكون مسجدًا. ويذكر ابن بطوطة معلومة مهمة يقول فيها: «وكان هناك مسلك إلى الغار المبارك وهو الآن مسدود»^(٤). وهكذا نلمس أن

١ - ربما يكون هو الفارس بليان الذى ينتسب إلى عائلة تحمل لقب بيت لحم. بليان دى بيت لحم «Beilian de Beit - Leem» المذكور فى الوثائق الصليبية. انظر: Delaville le Roux, Les Archives, pp. 83, 150 - 51.

٢ - الهروى: المصدر السابق، ص ٣١.
3 - Samuel Ben Samson, Itinerary of Rabbi Samuel Ben Samsan, in: 1210, A. D. in J. T. pp. 104 - 105.

قام صموئيل بن شمشون برحلته إلى فلسطين فى صحبة الرحالة اليهودى يعقوب بن ناتانيل هاكوهين الذى سبق أن زار الخليل سلفًا، وقد تمت ترجمة كتاب شمشون من العربية إلى العبرية ويسرد فيه أنه حمل رسالة من ملك بيت المقدس الاسمى يوحنا دى بريان توصى بهجرة اليهود إلى فلسطين، وكانت نتيجة ذلك قدوم ثلاثمائة من أبرز اليهود من إنجلترا وفرنسا فى العام اللاحق.

Cf. Ibid, P. 103.

٤ - ابن بطوطة: الرحلة، ص ٧٥، العمرى: المصدر السابق، ص ٢١٠، والجدير بالذكر أن رحلات ابن بطوطة تكررت للخليل وكانت أولها فى عام ٧٢٥ هـ الموافق ١٣٢٥ م. وتكررت زيارات العمرى أيضا للمدينة ويذكر أنه قام بزيارتها عام ٧٤٥ هـ الموافق ١٣٤٤ م.

الرحالة اليهودى ابن شمشون لم يكن دقيقاً فى وصفه إذ اعتقد أنه هبط إلى المغارة وإنما حسب وصفه يتضح أنه اكتفى برؤية المشاهد الثلاثة المزدوجة وليست القبور الأصلية الثلاثة .

ومن الجوانب الهامة التى أوضحها لنا الرحالة والمؤرخون المتأخرون نسبياً مذكره ياقوت الحموى عن مبنى الحرم من الخارج؛ فبعد أن تعرض إلى مشاهد الأنبياء وزوجاتهم داخله أخبرنا بأن القبور كان يحيط بها حيز أوسور «محكم البناء حسن الأعمدة والرخام»^(١)، وينقل أبو اليمن العليمى رواية تواترت إلى خطيب مسجد الخليل (عليه السلام) «محمد بن بكران بن محمد» فى القرن الرابع عشر الميلادى/ الثامن الهجرى مفادها أن جماعة من ذوى المناصب الرفيعة فى الرملة منهم قاضيها أبو عمر، أقامت فترة فى الخليل لزيارة الحرم تمكنت من رفع كتابة باللغة اليونانية منقوشة على حجر قبالة مشهد رفقة زوجة إسحاق (عليه السلام) وتم الاستعانة بمترجم، فكان معنى النص . . «بسم إلهى إله العرش القاهر الهادى الشديد البطش العليم الذى لا يُحد، هذا قبر إبراهيم الخليل (عليه السلام)، والعلم [أى المشهد] . . من جهة الشرق قبر زوجته سارة. والعلم الأقصى الموازى لقبر إبراهيم الخليل قبر يعقوب، والعلم الذى يليه من الشرق قبر (ليثة) زوجه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وهذا الحجر المنقوش موجود إلى يومنا هذا، وقد اشتهر عند الناس مكانة بمقام آدم»^(٢).

كذلك لفتت التجهيزات داخل الحرم الإبراهيمى أنظار الزوار حيث سجل بعض المعاصرين من المسلمين واليهود وجود قناديل من ذهب وفضة لتضىء المبنى ليلاً ونهاراً ، بل وتندلى بعضها لتضىء الساحة التى بها المشاهد، فضلاً عن تلك المصابيح التى استخدمت لتزيين جنبات المبنى. ورغم قيام الصليبيين ، بنهب أثاث الحرم وقت غزوهم للخليل إلا أن المصادر المختلفة تؤكد على استمرار وجود هذه المصابيح فى مرحلة تالية من الوجود الفرنجى وبعده^(٣)، مما يفيد بأنهم حرصوا على إعادة ما كان عليه المبنى من بهجة وزينة .

وتكشف البحوث الأثرية عن وجود فتحة مستديرة فى أرضية الساحة، ومحيطها من أحجار مرمرية كان يلقي الزوار من خلالها قطعاً صغيرة من الأوراق والقماش

١ - ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢١٢ .

٢ - العليمى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤١ - ٤٣ ، ويعدد المؤرخ رسوم اسم زوجة يعقوب (عليه السلام) - إضافة إلى ليثة المذكور أعلاه - فيذكرها: إليه ، ليا ، لبقا .

٣ - ابن القلانسى : تاريخ دمشق ، ص ٣٢١ ؛ بنيامين التطيلي : الرحلة ، ص ١٠٥ ، يقول العمري عن الحرم «وبه سرداب الخليل» المنسوب إليه داخل ذلك السور يوجد عليه قنديل، وهكذا تقول العامة: «صاحب السرداب والقنديل» ، راجع العمري ، المصدر السابق ، ص ٢١١ .

مكتوب عليها دعوات خاصة وابتهاالات متشفعين بالأنبياء (عليهم السلام) الراقدين في المغارة^(١). وإذا ما ألقى شخص ما نظرة من خلال تلك الفتحة إلى أسفل لوجد - كما رأى أحد شهود العيان من الاثريين المحدثين - أرضية المغارة يفرشها أكوام من الأوراق التي تحمل تلك الدعوات^(٢)، وهذه الظاهرة تثبت بالدليل القاطع القيمة الجوهرية من وراء زيارة الحرم على مرّ العصور من شتى الطوائف، فرمما كانت أمانى أى زائر تتوقف أثناء الزيارة عند إلقائه بدعواته الخاصة مكتوبةً إلى مغارة الأنبياء. ومن جهة أخرى فوجود مثل هذه الظاهرة يكشف عن أمور أخرى لا بد أن تكون قد واكبتها مثل وجود شخص يشرف على هذا التقليد، وكذلك وجود صندوق يجمع فيه الأموال من الزائرين... إلخ .

وبنظرة شمولية لكل ما ورد بالمصادر والمراجع المتاحة بخصوص الحرم الإبراهيمي وقت السيطرة الصليبية عليه وما يتعلق بهذه الحقبة من بعد ، يمكن أن نلاحظ بوضوح أن مصادر الصليبيين أصحاب الصلة المباشرة آنذاك لم تتعرض لحدث الاكتشاف من قريب أو بعيد، وبالتالي أصبحت رواية راهب الخليل هي المتميزة بانفرادها ودقة تناولها للأحداث خطوة بخطوة . أما عن الرحالة والمؤرخين الصليبيين الآخرين بصفة عامة فكانوا يتعرضون بالحديث عن الخليل كمحطة انتقال من مدينة إلى أخرى أو كمزار رئيسي ولوا وجوههم شطره ، وكانت إشاراتهم للحرم الإبراهيمي في الغالب سطحية ولم تكن محل دراسة أو تحليل عميقين .

وإذا ما أخضعنا الروايات اليهودية الثلاث للفحص ، فنجدها مهمة لأنها سدت فجوات في بناء تخيل الظروف المحيطة بالحرم الإبراهيمي فترة الوجود الصليبي ، وبمقارنة روايتي بنيامين التطيلي وفتاحية الراتسبونى نلمس تفاوتًا واضحًا، فقد جاءت الرواية الأولى سطحية تخلط بين حقائق تخص ساحة المشاهد والمغارة السفلية مما يوحي بأن بنيامين لم يقيم بزيارة الحرم بالفعل وإنما نقل عن أناس آخرين رؤيتهم، في حين تعد رواية فتاحية أقرب إلى التصديق ، ومن ذلك ذكره لوجود سلم يتألف من خمس عشرة درجة ، ووصفه للقضبان الحديدية التي تمنع مواصلة الدخول إلى أماكن الدفن، ولذا لنا أن نقف في روايته بقدر . أما عن الرواية الثالثة لصاحبها يعقوب بن هاكوهين فقد جاءت مهتزة غير دقيقة ويبدو أنها اعتمدت في بعض جوانبها على النقل عن روايات الآخرين،

1 - Enlart , C. les Monuments des Craises dans le Royaume de Jerusalem , Paris 1928 , Vol II , P. 128 .

2 - Conder , C. R., Cenotaphs of the Hebrew Patriarchs at the Cave of Macphella , in P. E. F., Quarterly Statement , october 1882 , P.P. 201 - 202 .

خصص الفزارى والتدمري فصلاً من كتابهما يبرزان فيه فضائل زيارة قبر إبراهيم (عليه السلام) مستندين إلى عدد من الأحاديث والنصوص الدينية التي تشير إلى أن الدعوة عند هذا الموضع مستجابة . انظر الفزارى: المخطوط السابق، شكل ١٢، ورقة ٣ - ١٣ التدمري : مشير الغرام ، ص ١٨٣ - ١٨٤ ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .

أما زيارته فمن المعتقد أنها اقتصر على الدخول إلى ساحة المشاهد التي نسب بناءها إلى الرهبان المسيحيين، وهذا يخالف حقيقة أن المسلمين هم الذين أقاموها حماية للمقابر من عبث العابثين، ومما يقلل من أهمية هذه الرواية أيضاً تحامل الراوى على الصليبيين حينما ادعى أنهم يمنعون اليهود من زيارة الحرم حتى أنه اضطر للتخفى فى غير ملابسه، والواضح أنه ارتدى ملابس الفرنج حتى يعفى من الرسوم التي دفعها بنيامين التطيلي وفتاحية الراتسبونى من قبل، كذلك ادعى هاكوهين احتواء المغارة على كنوز ثمينة نسباً ذلك إلى ما تردد بين رهبان الفرنج، كما ادعى أن مغارة الدفن قد تم سدها بحائط، وهذا يكمل مآذركه فتاحية الراتسبونى فى هذا الصدد. وعليه يتضح أن رواية فتاحية هي أكثر الروايات اليهودية واقعية وتستحق أن تؤخذ فى الاعتبار.

ومن الجوانب الهامة التي أبرزتها الروايات اليهودية أسلوب التعامل مع القائم بحراسة مغارة الدفن بالحرم الشريف، إذ أوضح بنيامين التطيلي ضرورة دفع إتاوة عن اليهودى الراغب فى الزيارة، ولم يحدد قيمتها أو الجهة التي تقوم بالحصول، بينما ذكر فتاحية الراتسبونى أنه قدم عملتين ذهبيتين من أجل أن يسمح له الحارس الصليبي بالزيارة. ويفهم من ذلك أنه أثناء الوجود الصليبي كان الهبوط إلى المغارة مباحاً لمن يدفع الإتاوة حتى لو كان الهابط إليها غير مسيحي. أما وقد تمكن الزائر اليهودي يعقوب هاكوهين من الهبوط إلى المغارة دون أن يشير إلى دفع أى مبالغ للحارس الصليبي، فهذا يرجع إلى تنكره فى ملابس الفرنج أصحاب السلطة حينئذ، أما إذا تمكن بعض اليهود والمسلمين الآخرين من الزيارة فلا بد أنهم قد قاموا بدفع المبالغ المحددة لذلك.

أما الروايات الإسلامية المعاصرة للوجود الصليبي فى الخليل فقد قامت بتغطية الجوانب المختلفة للحدث، بمعنى أن ابن القلانسي المقيم فى دمشق سجله وكأنه أمر طبيعى لم تتدخل فيه اليد الصليبية، فقد تواتر إليه أن رفات الأنبياء (عليهم السلام) ظهرت لشهود العيان دون أن تبلى، وما لبثت أن أعيدت المقابر إلى حالتها الأولى، والشكل الثانى من الرواية الإسلامية التي قدمها الإدريسي جاءت وصفية شأنها شأن معظم الروايات الصليبية عن الحرم. فهو يصف المشاهد وكيف تراصت فى صفوف متقابلة فحسب. أما الرواية الثالثة لصاحبها الهروى فقد كانت دقيقة وصفية قائمة على الجمع بين الرواية الإسلامية والرواية الصليبية فى آن واحد، فقد انخفضت الأرض فى نظره وأخرجت جثث الأنبياء (عليهم السلام) من باطنها، وهذا يتفق مع ما أورده ابن القلانسي، كما يمكن القول بأن رواية الهروى جاءت مكملية لرواية راهب الخليل الصليبي نفسه. وأتت رواية الهروى بتفاصيل أكدت ما كان قد أشار إليه راهب الخليل

ومنها إعادة تكفين الأنبياء (عليهم السلام) واتفق معه فى تحديد التاريخ الذى وقعت فيه حادثه الاكتشاف وزاد عليه توضيح تكليف الملك الصليبي لأحد الفرسان بتعمير ما انخسف من الأرض وبالأحرى إعادة سد الفتحة وإقامة بعض الإنشاءات الأخرى (التي ستعرض لها فى الفصل التالى من الدراسة). كما تنطوى رواية الهروى على معلومات ميزتها عن سائر الروايات ومنها أن نوحاً (عليه السلام) مدفون فى المغارة ، ومن الواضح أنه تأثر بالإسرائيليات، كما أشار هو ذاته لذلك حينما استشهد بالتوراة للتأكيد على دفن آدم وحواء والأنبياء (عليهم السلام) فى المكفيلة .

وأخيراً فالعرض السابق يقدم الدليل على أن كلا من المسلمين والصليبيين قد اهتموا بأمر حدث اكتشاف المقابر غير أن اهتمام المسلمين كان أوضح وأشد، فعلى الرغم من البعد المكاني لإقامة المؤرخين المسلمين وأيضاً الزماني فى بعض الأحيان عن الحدث إلا أنهم أظهروا هذا الاهتمام . وعلى العكس من ذلك فرغم التواجد الراسخ للفرنج فى الخليل وفى حرمها والدعاية القوية حول حدث الاكتشاف إلا أنه لم تبرزه أمامنا إلا رواية راهب الخليل والتي لم تظهر إلى السطح إلا فى فترة متأخرة زمنياً رغم كتابتها بعد وقت قصير من الحدث . وأخيراً فمن الواضح أن اهتمام أصحاب الكتابات جميعاً الذين كان لهم شرف زيارة الحرم الإبراهيمى أو الحديث عنه اندفعوا أحياناً نحو المبالغة وإحاطة المقدسات التى زاروها بكثير من المبالغات، ومثلنا على هذا ما يتعلق بقوة اندفاع الرياح من داخل المغارة السفلية لتمنع الهبوط إليها . هذا، وقد تكررت تلك الإشارات فى الروايات اليهودية .

وبعد عرض أهم ما ذكرته المصادر عن الحرم الإبراهيمى أثناء العصر الصليبي فى الخليل وبعد تناولها بالتحليل والفحص والمقارنة ومع الأهمية البالغة لهذه المادة ، فماذا عن موقف الدراسات الحديثة منها ؟ وللإجابة ، نجد أن هذه الدراسات لم تتعامل مع المادة التاريخية الواردة فى المصادر بشكل شامل . فتخصصت فى تحليل إحداها أو مقارنتها بأخرى فى نقاط معينة ، وعلى سبيل المثال انحصرت جهود أول الذين كانوا وراء تلك الدراسات فى التحقيق التاريخي للمعلومات التى ساقها راهب الخليل فى روايته^(١)، بينما انصبّت دراسة تالية على تفنيد بعض الآراء التى توصلت إليها الدراسة السابقة وأضافت عليها بعض التعليقات غير العميقة عما أورده فتاحية الراتبونى من مشاهدات^(٢)، بينما اهتمت دراسة ثالثة بلغة رواية راهب الخليل وتأملاً للأسلوب الذى استخدمه فى الكتابة، فجاءت الدراسة التاريخية غير قوية نظراً لتغلب الدراسة الأدبية عليها^(٣). أما أهم الدراسات الحديثة المنصبة على الحرم فقد عنت بالدرجة الأولى باستخلاص الحقائق المعمارية القديمة للمبنى من واقع عدد محدود من الروايات^(٤)، ومع ذلك فما من شك فى أن مجموع تلك الدراسات أعان الباحث فى التوصل إلى أفكار

1 - Riant , P., Op. Cit., pp. 411 - 416 .

2 - Gnthe , M. H., Op. Cit., pp. 238 - 250 .

3 - Kohler C., Op. Cit ., p. 477 - 502 .

4 - Vincent , Mackay, Abel , pp. 166 - 187 .

خاصة، وتصور لبعض الجوانب المتعلقة بالحرم، رمز الخليل وعلمها البارز، وهذا ما سيعبر عنه في الصفحات التالية.

ويحسن بنا في هذا الموضع أن نستخلص بعض الحقائق التي تساعد على وضع تصور إجمالي للحرم مما توافر لدينا من مادة تاريخية أصيلة ومشاهدات الأثرين وأصحاب المراجع الحديثة^(١). وأول ما نلاحظه أن كثيراً من ملامح الحرم وقت الحروب الصليبية لا تزال ماثلة حتى يومنا هذا، فهو بنيان قوى للغاية، يقع على منحدر الجبل إلى وادي الخليل. والمبنى يتجه بشكل عام من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي وهو ينقسم إلى ثلاثة أجزاء، الأول وهو السور الخارجى للحرم والأحجار المكونة له ضخمة جداً، ولا نجد اختلافاً في روايات الزائرين المعاصرين لفترة الوجود الصليبي للخليل في وصفه ويبلغ طول ضلعيه خمسة وستين متراً وثمانية وثلاثين متراً عرضاً تقريباً، بينما يبلغ الارتفاع حوالي خمسة عشر متراً وهو بذلك يرتفع عن قمة الجبل المقام عليه، والأسوار سميكة للغاية وحجارتها ملساء وضخمة. والمدخل إلى المبنى يقع عند الطرف الجنوبي ويصعد إليه باستخدام درج واسع ويترك المبنى انطباعاً عميقاً في نفس زواره.

وإذا ما انتقلنا إلى أوصاف الحرم من الداخل؛ فنجد أن أشد ما يلفت الانتباه أنه يتألف من طابقين، الأسفل منهما عبارة عن ساحة طويلة في الوسط يحد بها ممشى في اليسار وآخر على اليمين تفصل الأعمدة فيما بينها وتعلوها القباب، ويضم هذا القسم الستة مشاهد الشهيرة، إضافة إلى المغارة الحقيقية التي تضم الكهف الداخلى، وبه رفات الأنبياء. وقد اعتبر معظم الكتاب المعاصرين الساحة والمغارة السفلية وحدة معمارية واحدة، في حين تنبه البعض الآخر ومنهم راهب الخليل والعمرى وابن بطوطة إلى حقيقة الأمر من أنها تتألف من الطابقين. وهذا يفسر ما تم عرضه من ظن البعض أنهم هبطوا إلى المغارة الحقيقية ورؤية قبور الأنبياء ذاتها. وتكاد تجمع الروايات بشتى اتجاهاتها على إقرار حقيقة وجود صفين من المشاهد المربعة تعلوها قباب هرمية الشكل بحيث يقع المشهد قبالة الآخر انتهاءً بمشهدى إسحاق (عليه السلام) وزوجته (رفقة)، ويقع أولهما على يمين العمودين في آخر الحرم، بينما يقع الآخر على يسارهما، وتجدر الإشارة إلى أن مشاهد الأنبياء الثلاثة (عليهم السلام) كانت ترتفع عن مثيلاتها الخاصة بزوجاتهم. أما مشهد يوسف (عليه السلام) فيقع في الجهة الجنوبية الغربية من الحرم

١ - راجع الروايات المختلفة التي تم عرض بعضها والإكتفاء بالإشارة إلى بعضها الآخر على مدى الصفحات السابقة داخل هذا الفصل، عن أهم الدراسات الحديثة. راجع :

Conder, C. R., Survey of Western Palastine, Vol. III, pp. 333 - 349, Guerin, V., Op. Cit., Part II, pp. 214 - 256 ; Goldziher, I gmar dr. Das patriarchengrab in Hebron moch al - A bdori, in: Z. D. P. V, Bd - X VII- pp. 115 - 122 ; Guthe, M. 1., Op. Cit, pp. 242 - 248 , Crimaldi, A B., Genotaphs of the Hebrew Patriarchs at the cave of Macphelah, in N. B- I. R., Glascow, January, 1911, pp. 145 - 150 .

وتعلوه قبة ومثذنة، ويمكن الدخول إليه من الحرم عن طريق باب يقع فى مواجهة البوابة الخارجية للمبنى، وهذا الوصف يطابق الواقع^(١) بشكل عام .

أما الجزء الثالث من مبنى الحرم الإبراهيمى؛ فهو المغارة السفلية التى لم يمكن الدخول إليها فى البداية عن طريق فتحة طبيعية حيث أمكن الدخول إليها عند الاكتشاف باستخدام الحبال، إلا أن الزيارات التالية أشارت إلى وجود فتحة مخصصة لذلك ولكنها سدت إما بقضبان حديدية، كما ذكر فتاحية الراتسبونى أو بحائط اعتبره البعض نهاية المبنى من الداخل. والملاحظ أن مبنى المغارة لم يكن له تلك الصورة البدائية والعشوائية ككهف محفور داخل صخر الجبل، ولكن كان قد تم تنظيمه بطريقة تغلب عليها الدقة حتى أنها اتخذت شكل المقبرة العظيمة، وتتميز المكفيلة عن باقى المغارات المنتشرة فى مملكة بيت المقدس بأنها تمتد تحت كل مساحة المبنى العلوى^(٢). وتشتمل المقبرة على أربعة عناصر أولها: غرفة طولية ضيقة تقع أسفل البلاطة التى تم انتزاعها، سمحت مساحتها لأكثر من شخص بالتزول إليها، وهى تؤدى إلى غرفة أكثر اتساعاً جدرانها امتداداً للجدران العلوية. أما العنصر الثانى: فهو ممر ضيق وطويل وصفه راهب الخليل بالقناة يبلغ ارتفاعه حوالى خمسة أمتار ونصف، بينما يبلغ طول الممر حوالى تسعة أمتار. أما العنصر الثالث: فهو غرفة يمكن لها أن تحتوى على ثلاثين شخصاً، ويميزها عن العنصرين السابقين أنها مغطاة بكتلة حجرية واحدة، مما يشير إلى أن الغرفة محفورة فى الصخر ذاته، ويفترض أنها تكون مستطيلة الشكل أو بيضاوية، وسعتها لثلاثين مصلياً، تشير إلى أن قطرها يبلغ حوالى ثلاثة أمتار، ولم ينقل راهب الخليل عن المكتشفين أية شواهد - على أنها اتخذت شكل الكنيسة بالفعل. ويتمثل العنصر الرابع والأخير فيما وصفه المكتشفون الصليبيون بالكهف الداخلى، والواضح أنه كان بدايئاً لتشكيله داخل الصخر^(٣). ويتبين من مجمل وصف المغارة أن العناصر الأربعة متتابعة حسب الترتيب من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى، وهى بذلك تتفق تقريباً مع الاتجاه الطبيعى للكنائس، وعليه تكون نقطة الانطلاق قد بدأت من أسفل مذبح الكنيسة.

وبالإضافة إلى العناصر الأربعة الأساسية المكونة للمغارة فهناك عناصر أخرى ثانوية ومنها الفتحة التى يتم الهبوط منها إلى المغارة عبر سلم ضيق عرضه سبعون

١ - انظر مواقع أجزاء الحرم الداخلية : شكل رقم (٢) .

2 - Enlart, C., Op. Cit., Vol I, p. 59 .

3 - Vincent, Mackay, Abel , pp. 183 - 185 .

ستميتراً تم حفره فى الصخر وبلغ ضيقه الحد الذى جعل الرحالة العمرى يزحف داخله أثناء محاولته الوصول للمغارة^(١) وبلغت أعداد درجات السلم خمس عشرة درجة ، وقد أقيم فى موضع الفتحة التى تمكن المكتشفون من إحداثها . أما الفتحة التى استخدمت فى إسقاط الدعوات الخاصة بالزوار مكتوبة إلى المغارة فهى تقع بالقرب من السلم مباشرة . ويقع أسفل كل مشهد فتحة محيطها ثلاثون ستميتراً ، أما عرض المغارة فهو يطابق عرض السور الخارجى للمبنى بينما يقلّ الطول بعض الشيء عن طول السور^(٢) . وعلى أية حال فبتحليل ما ورد فى رواية راهب الخليل يتأكد أن وصف محدثيه عن مغارة الحرم جاء نتيجة لرؤية مباشرة عبر عنها أحياناً بشكل ساذج ، ولكن مكتنفاً من وضع تصور أقرب إلى الحقيقة .

وهناك نقطة محورية تدعو إلى التوقف عندها ، ألا وهى أن عملية اكتشاف المقابر الحقيقية أخذت صفة رسمية ، وتشير إلى ذلك الاتصالات التى تمت بين رهبان كنيسة سانت أبراهام والبطريك جيرموند - كما أسلف الذكر فى الفصل الثانى من هذه الدراسة - ودعوه للحضور للوقوف على إتمام المشروع ، كذلك تمت العملية بحضور بلدوين دى سانت أبراهام سيد الخليل . بل إن الهروى يشير إلى أن الاكتشافات تمت بإيعاز من الملك بلدوين الثانى . وهكذا أباحت كل من السلطين الدينية والعلمانية لنفسيهما الهبوط إلى مغارة الدفن ذاتها حتى زعم الرهبان أنهم أخرجوا رفات الأنبياء (عليهم السلام) وطافوا بها فى شوارع الخليل يوماً كاملاً عارضين إياها لكل من يريد رؤيتها^(٣) وتُظهر هذه الأحداث جانباً من الأساليب التى اتبعها الصليبيون فى مجال الدعاية من أجل دعم موقفهم الاقتصادى والعسكرى فى الشرق اللاتينى ، وقد آتت تلك الدعاية أكلها كما سنوضحه فى الصفحات التالية ، وقبل ذلك وكى تتضح لنا الصورة نوه فى عُجالة إلى الأسلوب الذى اتبعه المسلمون مع تلك القضية ، فهل تقاعسوا قرابة الخمسة قرون عن اكتشاف رفات الأنبياء (عليهم السلام) حينما كانت الخليل بين أيديهم ؟

١ - العمرى : المصدر السابق ، ص ٢١٠ ، راجع أيضاً :

Chen, D., Measuring the cave of Abraham in Hebron , p. 292 .

2 - Vincent Mackay Abol, pp. 185 - 187 .

3 - Canonici Hebrbnensis , Op . Cit., p. 312 .

الهروى : المصدر السابق ، ص ٣٠ .

فى الواقع كان موقع المقابر معروفا لدى المسلمين منذ الفتح الإسلامى للخليل ، وهذا بشهادة كل من المؤرخين الصليبيين^(١) والمسلمين ، وليس أدل على ذلك من إقامة المشاهد الرمزية منذ العصر الاموى مطابقة لمواقع القبور الحقيقية أسفلها^(٢). وهذا الأمر تؤكده قصة وقعت أحداثها فيما بين عام ٩٣٤ - ٩٤٠ م / ٣٢٢ - ٣٢٨ هـ تدور حول شخص يدعى إبراهيم الإسكافى^(٣) سعى جاهداً إلى أن يهبط إلى مغارة الأنبياء (عليهم السلام) للوقوف على صحة توجيه ما ينفقه من أموال فى أعمال الخير ، ولتحقيق ذلك قصد زيارة مسجد الخليل ، فصادق القيم وهو الحارس بالموضع ، «وكان القيم رجلاً رومياً وتقرب إليه بهدية وطلب النزول إلى المغارة فوعده عند انقطاع الزوار فى زمان الثلج ، فلما انقطع الناس أتى ببلاطة فقلعها وأخذ ما يستضىء به ونزل»^(٤) وهذه القصة تناولها أحد الباحثين الحديثين فى دراسته بالتحليل وأقر بأنها على قدر كبير من الصحة^(٥) وهذا يدل على أن الحكام المسلمين لم يعمدوا الهبوط إلى مغارة الدفن حذراً وقسدية ، بل من الثابت أنهم منعوا الأهالى وغيرهم فى كثير من الأحيان من الدخول إلى ساحة المشاهد العلوية بغرض الزيارة. أما تجربة الإسكافى فكانت استثنائية وراءها هدف معين ، ووقعت فى الخفاء وبدون علم السلطات. وبذلك يتبين لنا الفارق بين الأسلوبين الفكرين لكل من الصليبيين والمسلمين حيال قبور الأنبياء (عليهم السلام) .

أما الجانب التالى الذى ينبغى تسليط الضوء عليه فهو مدى ما تركته عملية الاكتشاف من آثار على زيارة الصليبيين وغيرهم لمدينة الخليل ؛ وفى الواقع بين أيدينا قرار أصدره الملك بلدوين الثانى ليس من المستبعد أنه أقدم على إصداره بمناسبة اكتشاف مغارة الأنبياء ، ذلك أن القرار اتُخذ فى تاريخ يقع فيما بين الرابع والعشرين من أبريل - الحادى والثلاثين من أغسطس عام ١١٢٠ م / الثالث والعشرين من المحرم - الرابع من جمادى الآخرة ٥١٤ هـ . وهو يقضى بإعفاء الذين يجلبون القمح والشعير والفول والعدس والحمص إلى بيت المقدس من الضريبة التى كانت مقررة عليهم . وكان حاكم

1 - Canonici Hebronensis , Op. Cit ., P. 308 .

٢ - المقدسى : المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

٣ - العليمى : المصدر السابق ، ص ٤٣ - ٤٥ .

٤ - الهورى : الإشارات إلى معرفة الزيارات ، ص ٣٠ ؛ القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ١٨٧ ،

وقد أورد العليمى القصة بالتفصيل ، انظر : الألس الجليل ، ج ١ ، ص ٤٣ - ٤٥

5 - Goldziher , Op. Cit ., p. 117 .

الخليل بلدوين دى سانت أبراهام أحد الشهود على هذا القرار^(١). ويرى البعض أن الغرض من هذا القرار هو خدمة الأعداد المتزايدة من الحجاج الصليبيين للمدينة^(٢). ومن الراجح أن القرار اتخذ لتشجيع حركة الحج الصليبي إلى الخليل وغيرها من البقاع المقدسة، وذلك بتخفيض أسعار السلع الغذائية . ونظرا لاتخاذ القرار بعد فترة أقل من عام من حدث اكتشاف المغارة، يتضح أن صدى عملية الاكتشاف كان وراء قدوم الحجاج بهذه الأعداد الضخمة، ويدعم هذا الاعتقاد حضور حاكم الخليل إلى القدس ومشاركته مراسيم اتخاذ القرار .

من ناحية أخرى أخذ شأن كنيسة سانت أبراهام فى الارتفاع تدريجيا حتى أصبح رجال الدين العشرين الذين تم تخصيصهم على التعاليم الأوغسطينية فى كنيسة القيامة بيت المقدس يتبادلون الزيارات مع زملائهم رهبان سانت أبراهام الذين يبلغون أحد عشر راهبًا ، وكذلك مع رهبان كنيسة المهد فى بيت لحم^(٣)، وهذا بدوره يعطى الانطباع بأن الكنيسة المقامة فى الحرم الإبراهيمى غدت تشكل أحد أهم الكنائس الصليبية . وبالفعل صنف عدد من الباحثين كنيسة سانت أبراهام بأنها كنيسة كاتدرائية كبرى^(٤).

وحينما قام الكونت هنرى دى تروى Henry de Troyes بالحج إلى الأراضى المقدسة وزيارة الخليل وكنيستها سانت أبراهام فى ١١٧٩م/ ٥٧٥ هـ قام بمنح أسقفها ورجال الدين منزلا فى مدينته الأصلية تروى، الواقعة فى مقاطعة شامباني Shampagny ، وقد تحول المنزل إلى كنيسة ومستشفى تحمل اسم سانت أبراهام ، وذاع هذا الاسم بداية من عام ١٢٣٤م/ ٦٣٢ هـ، وقد صارت الكنيسة على نفس النظام الأوغسطينى الذى كان معروفاً فى الخليل^(٥). وهذا يضيف بلا شك دلالة أخرى على مدى ما لقيته مدينة الخليل من اهتمام بين الأوربيين^(٦)، حيث جذبت أعدادا كبيرة من

1 - Bresc Bautier, J., Le Cart . du Chap ., doc. No. 27 .

2 - Archer , T. H., and Kingsford C. L., The Crusades , p. 288 .

3 - Bresc Bautier, J., Le Cart . du Chap., doc. No. 9 , p. 32 .

4 - Enlart , C., Op. Cit., Vol. I, P. 15 , Benvenuti , M., Op. Cit, p. 345 .

5 - D'Arbois , H . , ed . quatre petits Hapitiaux de ... Traves , in M . S . A . L , XXI , 1857 , Part . J . , pp . 19 - 23.

6 - Richard, J., Hospitals and Hospital Congregation , in the latin Kingdom during the first period of the frankish Conquest , in : C. M. V., II , london 1983 , pp. 98 - 99 .

الحجاج إليها بعد الأصداء التي ترددت عن مكانة الخليل الدينية المتزايدة إلى أن تأسس بها كرسى أسقفى قبل هذه الزيارة بما يزيد عن عقد واحد من الزمن ، وما ورد فى الوثيقة يؤكد أن هذا الاهتمام بمقدسات الخليل لم يتوقف داخل حدود الأراضى المقدسة فحسب، بل جذب اهتمام قادة أوريبيين حتى جعلتهم يتجهون إلى تطبيق نفس الأسلوب الكهنوتى المعروف فى الخليل على كنيسة حملت اسم سانت أبراهام داخل مستشفى فى الغرب الأوربى .

وإضافة لذلك طلب أولريك الرابع Ulric IV رئيس دير سان جال L'abbé de Sainti - Galli فى عام ١١٨٠م / ٥٧٦ هـ من صديقه الكونت رودلف فيلندوف Rodolphe de Fullendof أن يشتري بعضاً من رفات الأنبياء الثلاثة (عليهم السلام) فى الخليل، وكان الكونت يعمل نائباً لرئيس الدير وقرر القدوم إلى الأراضى المقدسة كى يقضى بها آخر أيام حياته فى خلوة. وحينما توجه الكونت إلى القساوسة فى كنيسة سانت أبراهام والأسقف يعرض عليهم الأمر رفضوا الدخول إلى القبور ذاتها تقديساً لها، واكتفوا بالتوجه نحو المذبح، وهناك وقف الكونت على أيديهم حيث أعطوه شيئاً من الآثار فوضعه فى صندوق مرصع بالجواهر الثمينة ووضع عليه ختمه الخاص وأرسل به إلى رئيس دير سان جال ، وفى مقابل ذلك منح القائمين على كنيسة سانت أبراهام مبلغ عشرة ماركات ذهبية . أما أولريك الرابع فقد قام بوضع الآثار التى وصلته فى مذبح كنيسة فى سان جال حيث أحيطت بقديسة بالغة^(١). وقد ورد فى المصادر الإسلامية روايات تدعم الاعتقاد فى صدق اتخاذ مثل هذه المواقف فى التعامل مع مقدسات فلسطينية^(٢). ومن المرجح أن القطعة الأثرية التى حصل عليها الكونت الأوربى كانت من الأوانى التى أخرجها المكتشفون من المغارة ووضعوها عند مذبح كنيسة سانت أبراهام - وفقاً لإشارة راهب الخليل سالفه الذكر - ومن ناحية أخرى، تكشف هذه القصة مدى الارتباط الروحى لرجال الدين فى أوربا بالمقدسات فى الخليل، كما تكشف إلى أى

1 - Casus Sancti Galli , M. G. H, SS ., Vol . II , Stuttgart 1953 , p. 170 .

ويقدر بول ريان قيمة المبلغ المذكور أعلاه بأنه يعادل حوالى ١٣١٠٠ فرنك فرنسى وذلك فى عام ١٨٨٤ م . راجع :

Riant, p., Invention de la sepulture des Patriarches , p. 420 .

٢ - نجد فى المصادر الإسلامية رواية من هذا القبيل ولكنها تخص كنيسة القيامة ، ونصها : « كان الفرنج قد قطعوا من [قبة] الصخرة قطعة كبيرة وسيروها إلى القسطنطينية وكذلك إلى صقلية . فكانوا يبيعون منها ملوك الفرنج وزناً من الذهب وقيل إن بعض ملوك الفرنج خرج عن ملكه وتولى خدمة ستارة الصخرة إشفافاً عليها، وكان كل ملك يأتى إلى زيارة القدس يقصد أن يأخذ منها قطعة بحسب البركة » . انظر : ابن واصل : المصدر السابق، ج ٢ ، ص ٢٣٠ ، وأيضاً : ابن أبيك الدوادارى : الدرر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ، ص ٨٩ - ٩٠ .

حدّ استغل رجال الدين اللاتين فى كنيسة سانت أبراهام ذلك لجمع الأموال من الغرب الأوروبى . وأخيراً برهنت هذه الأحداث على نجاح الدعاية الصليبية التى أعقبت عملية الاكتشاف .

وهناك قضية تشكل جانباً هاماً بالنسبة لأمر زيارة الحرم الإبراهيمى ألا وهى ما اعتقده الزوار فى أن مغارة المكفيلة تضم رفات النبيين آدم ويوسف (عليهما السلام) علاوة على رفات الأنبياء (عليهم السلام) الذين سلف ذكرهم ، وفى الواقع شغل هذا الاعتقاد كلا من الصليبيين والمسلمين على حدّ سواء . فقد ورد فى كتب الرحالة الصليبيين إشارات عديدة تؤكد على أن آدم (عليه السلام) وحواء تم دفنهما فى المغارة^(١) . والواضح أن هؤلاء الرحالة إستندوا إلى ما ورد فى العهد القديم الذى أشار إلى دفن آدم فى قرية أربع (الخليل)^(٢)، كذلك اعتقد الصليبيون فى أن رفات النبی يوسف (عليه السلام) قام بنقلها بنو إسرائيل من مصر ودفنوها فى الطرف الأقصى من المغارة قريباً من أبائه^(٣) . أما المسلمون، فمن الواضح أن المعتقدات الإسرائيلية والصليبية قد تسربت إليهم حينما ردد بعض رحالتهم أن مغارة دفن الأنبياء تضم رفات النبی آدم (عليه السلام) وحددوا مكانها عند طرف المغارة، كما رددوا معلومة دفن يوسف (عليه السلام) أسفل السور الجنوبى الغربى من جهة الخارج ، ومصادقاً لذلك قام الخليفة العباسى المقتدر (٩٠٨ - ٩٣٢م / ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) بتشييد قبة أعلى القبر^(٤)، وعليه فقد كان المسلمون على معرفة بدفن يوسف (عليه السلام) فى الخليل من قبل الغزو الصليبي، وكان قبره هدفاً للزيارة فى ذلك الوقت .

ووفقاً للدراسات اللاهوتية المعنية فإنها تنتهى إلى وجود بعض الشواهد على عدم دفن آدم ويوسف (عليهما السلام) فى المكفيلة، وإن كانت الدراسات ذاتها أكدت على دفن أبى البشرية فى مكان قريب من المكفيلة داخل مدينة الخليل، أما رفات يوسف (عليه

1 - Saewulf , Op. Cit ., P.P. 11 - 12 , 24 ; Daniel The Rusaian , Op. Cit ., P. 44; Fetellus , Op. Cit., P. 9; John of warzburg, Op. Cit., pp. 32, 58 - 59 ; Menestat Albertus , I Tineria Hierosalumitana Crucisignatorum 1251 - 1252, A. D. Jerusalem 1980 , Vol II, P. 5.

٢ - سفر يوشع : ١٤ : ١٥ .

3 - Saewulf , Op. Cit , P. 24, Jclardos de Escalo , Op. Cit., p. 185, Ernoul , Op. Cit., P. 73

٤ - الهروى : المصدر السابق ، ص ٣٠ ؛ ياقوت الحموى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٢ ؛ ابن بطوطة : المصدر السابق : ص ٧٧ ؛ العمرى : المصدر السابق ، ص ٢١٠ ؛ التدمرى : المصدر السابق ، ص ١٨٦ ، ١٩١ .

السلام) فقد تم نقلها فى مرحلة تالية إلى مدينة نابلس^(١). وبالفعل ذكر قليل من الرحالة الصليبيين قبر يوسف (عليه السلام) فى نابلس ووصفوا مشهده بأنه مبنى من المرمر ويستطيع كل من يمر به مشاهدته، وبجواره أضرحه أخرى خاصة بإخوته عليها بعض النقوش^(٢). ومهما يكن من أمر فقد شغل معظم المهتمين بزيارة الخليل بوجود رفات هذين النبيين الكريمين دون أن يدور بخلداهم تحرى صحة دفنهما (عليهما السلام) فى الخليل من عدمه، ومن ثم ظل الاعتقاد فى دفن رفات الأنبياء الثلاثة إبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام) وزوجاتهم يمثل أمراً ثابتاً لدى كل من تناول الأماكن المقدسة فى الخليل بالحديث، فى حين تفاوت الأمر بالنسبة لقضية دفن آدم ويوسف (عليهما السلام).

وننتقل إلى جانب أخير يعد من أهم المظاهر التى اقترنت بالحرم الإبراهيمى بل وبتاريخ مدينة الخليل معظم فترة العصور الوسطى، ألا وهو **ضيافة الخليل** أو سماء الخليل. وكى تتضح لنا الرؤية حول نشأة هذه الضيافة والأسباب التى أدت إلى قيامها وتتبع الأطوار التى مرت بها، فنجد أنها ترجع بأصلها إلى أيام إبراهيم (عليه السلام) عندما كان يكرم ضيفه حتى أنه لا يأكل إلا إذا شاركه طعامه الفقراء والمساكين، ويحتم على الضيف أن يقيم فى ضيافته خمسة عشر يوماً، وفى رواية أخرى ثلاثة أيام «وإذا قصد إطعامهم دق الطبل لإعلامهم أنه هيا لهم ما يأكلون ليجمعوا، فإذا سمعوه بادروا واجتمعوا لأكل سماءه الكريم، فصارت سنة بعده فى كل يوم»^(٣). وقد ورد أول ذكر لضيافة إبراهيم (عليه السلام) فى المصادر الإسلامية فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى / الرابع الهجرى على لسان المقدسى حينما قال: «وفى هذه القرية [يقصد مدينة الخليل] ضيافة دائمة وطباخ وخباز وخدّام مرتبون، يقدمون العدس بالزيت لكل من حضر من الفقراء ويدفع إلى الأغنياء إذا أخذوا. ويظن أكثر الناس أنه . . . من وقف تميم الدارى وغيره»^(٤).

1 - Lunez la Carerue, Macpelah, Cols. 527 - 528, Vigauraulx, F., Hebron, Col. 559.

2 - Wellemar Malmesbreyror, Itinera Hierosolumitana, 1127, A. D. Vol. III, Jerusalom 1984, p. 69.

٣ - التدمرى: المصدر السابق، ص ١٨٢؛ العليمى: الأنس الجليل، ج ٢، ص ٦٧١ - ٦٧٢.

Meshullam Ben R. Menahem of Volterra, Op. Cit., pp. 186 - 187.

٤ - المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ١٧٣.

أما عن الضيافة أثناء الوجود الصليبي في الخليل فينفرد الرحالة المسلم العمري بالحديث عنها صراحة ، ويبدأ بتناول حال الضيافة منذ أن كان المسلمون يشرفون على الحرم الإبراهيمي مضيقاً بعض التفاصيل المهمة ، حيث يذكر أن المسلمين أوقفوا عليه أوقافاً عظيمة وأن السماط كان يُمد في كل يوم بعد صلاة العصر ويفرق من الخبز على الواردين على قدر كفايتهم . وهناك الموظفون الذين يعملون على خدمة الضيافة ليل نهار حيث يقومون بغربلة القمح وطحنه وعجنه وخبزه فضلاً عن مستلزمات إيقاد الأفران ، «للم يزل على هذا مدى الشهور والأعوام والليالي والأيام لا ينقطع له مدد... ولما استولى الفرنج على بلد الخليل أجروا هذا السماط وزادوا على ما كان قبله وبالفعل في صلة هذا المعروف»^(١). وما يشير الغرابة أنه لم نجد إشارة واحدة في شتى المصادر الصليبية التي تم الرجوع إليها إلى استمرار الضيافة في عملها على عصر الصليبيين رغم الاهتمام الواضح من قبل رحالتهم لوصف دقائق رحلات حجهم ، اللهم إلا ما أورده ألبرت ديكس - المقيم في الغرب - الذي سجل منفرداً ظاهرة الاحتفالات التي أقامها المسيحيون بعد استيلائهم على الحرم بشكل لا يقل عن الاحتفالات التي كان يقيمها المسلمون ، كذلك أولى المسيحيون الحرم تبجيلاً واحتراماً لا يقل أيضاً عن الذين أشرفوا عليه سلفاً^(٢). ويستشف من هذه الإشارات أنه بسيطرة الصليبيين على الخليل توقفت ظاهرة إقامة الاحتفالات الإسلامية ، وكذلك توقف النشاط الإسلامي المتعلق بضيافة الخليل بفقد المسلمين الإشراف على الحرم ، وفي نفس الوقت نرى في الإشارات تدعيماً لما ذكره العمري بشأن إبقاء الصليبيين على نشاط الضيافة بعد أن بسطوا أيديهم على إدارتها .

ونظراً لارتباط ظاهرة ضيافة الخليل بحركة الزيارة والترحال إلى الخليل ؛ فيجدر بنا التعرف بشكل أعمق على جوانبها الأساسية المختلفة ، ورغم التأخر النسبي للمعلومات التالية التي تناولت ذلك إلا أنها تكشف عن جذورها السابقة ، ومن ذلك ما يسجله الرحالة المسلمون والأوربيون عن الضيافة بعد استرداد المسلمين لها ، فيقول كل من ياقوت الحموي والقزويني : «وهناك مشاهد وزوار وقوام ، وفي الموضع ضيافة للزوار» . ثم يضيف القزويني قائلاً عن الضيافة : «هو موضع طيب نزه ، آثار البركة

١ - العمري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

2 - Albert d'Alix , Op. Cit. , P. 524 .

ظاهرة عليه^(١). وما لبث أن شهدت الضيافة تطورات متلاحقة، فقد أحدث الظاهر ببيرس نهضة كبيرة في مدينة الخليل، مثلت الضيافة جانباً منها حيث «رتب بمدينة الخليل السماط والرواتب للمقيمين والواردين»^(٢). وعليه ذاع صيت الضيافة حتى ذكرها كثير من المؤرخين والرحالة المسلمين أثناء زيارتهم في المرحلة التالية للأماكن المقدسة في الشام^(٣)، إذ يذكر العمرى من خلال مشاهداته الشخصية أنه كان يتم تفريق ما بين سبعة آلاف وعشرة آلاف رغيف يومياً، كما يتم «تفريق عدس بزيت وسماق، وفي الصباح يفرق طعام الجشيشة»^(٤)، وفي بعض أيام الأسبوع يطبخ ما هو أفخر من ذلك» ويشمل هذا المعروف جميع طوائف المجتمع^(٥). وحينما زار أبو بكر الحموى الضيافة مدح كرمها قائلاً «وأكلنا من شهى عدسه لوئاً ووجدناه من الهناء ألواناً»^(٦) ومن ناحية أخرى لفتت الضيافة بكرمها الغامر أنظار الزوار الأوروبيين سواء المسيحيين أم اليهود، إذ يؤكد الرحالة المسيحي أنسلم أدورنو على تقليد توزيع الخبز بكميات كبيرة داخل الحرم ويقدر كمية الدقيق التي كانت تستهلك يومياً بما يتراوح ما بين عشر وأحد عشر جوالاً، وكانت ترد من إيراد الأراضي الموقوفة للصرف على الحرم الإبراهيمي لتقديم الأعمال الخيرية^(٧). كما يذكر الزائر اليهودي رابى مشلم بن مناحم أنه كان يتم توزيع ثلاثة عشر ألف رغيف إضافة إلى كميات من اللحوم والخضراوات يومياً وبشكل منتظم، ويقدر الربى الدخل السنوى للضيافة بخمسة آلاف دينار ذهبى يأتيها من تبرعات المسلمين^(٨). كان أكثر ما أثار إعجاب يهودى آخر أن القائمين على الضيافة كانوا لا يفرقون في توزيعهم للوجبات بين أصحاب الديانات والجنسيات المختلفة، وكذلك لا يفرقون بين فقير وغنى^(٩). هذا،

١ - يافوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٨٧ ؛ الفزوينى : المصدر السابق ، ص ١٨٧ . راجع أيضاً : الباكوى : تلخيص الآثار ، ص ٥٤ .

٢ - المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٥ . راجع أيضاً العليمى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٤ .

٣ - البلوى : تاج الفرق ، ورقة رقم ٦٢ ؛ ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ٧٧ ، ١١٦ .

٤ - يطلق عليها أهل الخليل اليوم اسم الدشيشة وهى عبارة عن قمع تم سلقه . راجع : مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ١١٣ . ج ١ .

٥ - العمرى : المصدر السابق ، ص ١٧٦ ؛ ابن شاهين الظاهرى : المصدر السابق ، ص ٢٤ .

٦ - أبو بكر الحموى : ثمرات الأوراق ، صححه وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة : الطبعة الأولى ١٩٧١ م ، ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .

7 - Anselme Adorno , Op, Cit., P. 251 , Cf. Als . Felix Fabri, Op. Cit., pp. 108 -109 .

8 - Mushullam Ben R. Menahem of Volterra , Op. Cit ., P. 186 .

9 - Obadiah Da Bertinoro , Op. Cit ., P. 233 .

وقد ظلت الضيافة تمارس نشاطها الدينى الاجتماعى حتى نهاية العصر المملوكى^(١).
والجدير بالذكر أن هذا العرض يوضح أن وظيفة الضيافة اختلفت عن وظيفة النزول التى
كان يأوى إليها المسافرون، حيث لعبت الضيافة دوراً أوسع فى استقبال الزوار بأعداد
كبيرة ومدهم بالطعام المجانى إحياء لذكرى بعينها .

ونتقل الآن إلى التعرف على الأماكن المقدسة الأخرى فى أرض الخليل
حيث لم تقتصر بالنسبة للصليبيين على الحرم الإبراهيمى ومغارة المكفيلة، وإنما هناك
العديد منها منتشر فى بقاع مختلفة داخل وخارج المدينة. حيث يذكر الرحالة بطرس
الشماس أن الحجاج المسيحيين كانوا يفدون إلى مبنى فى مدينة الخليل يضم شطراً من
بيت داوود «عليه السلام» الذى ظل قائماً حتى فترة الحروب الصليبية محفظاً بروقه ،
حيث دأب الصليبيون على القدوم إلى غرفة فيه للصلاة معتقدين فى أن هذا النبی كان
يسكن فيها . ويحدد نفس الرحالة موقع البيت بأنه على بعد ثلاثمائة ياردة (أى ما
يعادل ٢٧٦ متراً تقريباً) من كنيسة بلا سقف ذكرت باسم إبرامرى Abramiri^(٢).
والواضح أن الرحالة يقصد بذلك الإشارة إلى أن بيت داوود يقع على مقربة من كنيسة
سانت أبراهام التى تنطبق عليها الموصفات التى ذكرها ، ومن الطبيعى أن يشجع هذا
القرب زوار الحرم الإبراهيمى على التوجه إلى هذا المزار .

وتذكر إحدى الدراسات الحديثة أن الغرفة المتبقية من بيت داوود المذكورة عرفت
بأنها مقبرة فيما بعد، حيث أقيم من فوقها دير عرف باسم دير الأربعين^(٣). ولم تعط
الدراسة أى تفاصيل تحدد طبيعة هذه المقبرة، غير أن العلمى يشير إلى مزار يقع فوق تل
فى ظهر مدينة الخليل من جهة الغرب ، يعرف باسم مشهد الأربعين وقد أقيم عليه
مسجد ، ويقال : «إن به أربعين شهيداً»، والناس يقصدونه للزيارة، وهو موضع
مأنوس^(٤). وعليه يمثل أماننا مزار اشترك كل من الصليبيين والمسلمين فى إبداء اهتمام
به، وإن اختلفوا فى تسميته ومدلوله الدينى .

١ - العلمى : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٧٢ . ويعتد المؤرخ أكثر المؤرخين إفاضة فى الحديث عن
الضيافة ، وما يوضحه المؤرخ أنه حينما توقفت الضيافة عن نشاطها لمدة ثلاثة أشهر أثناء عام ١٤٩٤م /
٨٩٣ هـ سبب ذلك فى إحداث موجة من السخط والاستنكار بين الأهالى احتجاجاً على ذلك .

٢ - وللتعرف على الأماكن المقدسة الهامة فى بلاد الخليل راجع : خريطة رقم (٢) . أما عن بطرس الشماس
فقد يكون أحد الرهبان المسيحيين الشغوفين بالكتابة فى اللاهوت ، والواضح أنه لم يحج إلى الأراضى
المقدسة وأنه جمع معلوماته من خلال الأوربيين العائدين من الشرق اللاتينى وقت الحروب الصليبية .
Wilkinson and Others, Jerusalem Pilgrimage , 1099 - 1185, London 1988, p. 232 .

3 - Vincent , Mackay, Abel, p. 158 .

٤ - العلمى : المصدر السابق ، ص ٤٢٧ .

وفى إطار مدينة الخليل يقع ضريح يوسف النجار (رضى الله عنه) جاذباً أنظار جميع الطوائف حتى أصبح يعد من المزارات الهامة بالمدينة ، وعلى الراغب فى زيادة الضريح أن يهبط بضع درجات عن مستوى سطح الأرض، وفى المعتقدات اليهودية فرفة يوسف النجار توجد فى غرفة سفلية من مبنى الضريح القائم^(١). ولم تكشف المصادر المختلفة عن أى تفاصيل خاصة، والنشاط فى مجال الزيارة اعتماداً على وجود هذا الضريح، اللهم ما إشارة إلى وجود القبر، ذكرها الرحالة الأوربى فيلكس فابرى^(٢)، كما توجد إشارة متأخرة أخرى إلى أن مسجداً كان قد أقيم فوق الضريح^(٣) وهذا بدوره يجعلنا نميل إلى الاعتقاد فى أن الصليبيين قد اعتنوا بالمكان وجعلوا منه كنيسة إحياء لذكرى من بداخل القبر.

كذلك يوجد فى نطاق مدينة الخليل وخارجها آبار اكتسبت قدسيته من واقع سيرة إبراهيم وإسحاق (عليهما السلام) والأنبياء والقديسين من بعدهما ، وفى وسط الرياض الممتدة فى قلب المدينة يفد الزوار من كل مكان لزيارة ما يعرف باسم « بئر إبراهيم » وقد حرص بعض الحجاج الصليبيين والزوار اليهود على زيارته^(٤). ونجد فى المصادر اليهودية والإسلامية من يشير إلى مباركة ماء هذا البئر وإلى أن ماء طيب ما زال يفيض على مر الأزمنة منذ أن بناها إبراهيم (عليه السلام). وفى الوقت الذى يذكر فيه الرحالة اليهودى بنيامين التطيلي أنه لم يسمح بإقامة أى بناء على البئر، نجد فى المصادر الإسلامية من يذكر أن أبنية ترجع إلى عصور مختلفة قد أقيمت عليها^(٥)، ولما كان الرحالة اليهودى قد سجل ملحوظته تلك أثناء الوجود الصليبي فيصبح واضحاً أن الأبنية التى تمت إقامتها عند البئر قد أقيمت إبان الدولتين الإسلاميتين اللاحقتين؛ الأيوبية والمملوكية. وتفيد الدراسات الأثرية أنه لم يتم أى تغيير على الهيكل الأساسى للبئر وتحدد عمقه بسبعة أمتار، فى حين يبلغ قطر فتحته ثلاثة أمتار ، وهو مبنى من الأحجار المصقوفة بانتظام دقيق^(٦). وعلى أية حال فإن بئر إبراهيم (عليه السلام) يعد

1 - Jacques de Verone , Liber peregrin , 1335 , A. D. in R. O. L , Vol. III, Paris 1895, P. 253, Cf. Als. Vigouroux F., Hebron, Col . 555 .

2 - Felix Fabri , Op. Cit ., pp. 109 - 110 .

٣ - عبد الغنى النابلسى : الحضرة الأنبيسة ، ص ٦٩ .

4 - Daniel the Russian, Op. Cit., P. 45, Jacob Ben R. Nathania Ha Cohen, Op. Cit., p. 92, Samuel Ben Samson , Op. Cit., p. 105 .

وبئر إبراهيم هذه غير التى تحمل نفس المسمى فى عفران . راجع : ابن بطوطة : المصدر السابق ،

ص ٨٨

٥ - بنيامين التطيلي : الرحلة ، ص ١٠٦ ، ومن المؤرخين المسلمين راجع : العليمى : المصدر السابق ، ج ١ ،

ص ٤٨ ، عبد الغنى النابلسى : الحقيقة والمجاز ، ص ٦٩ - ٧٠ .

6 - Guerin , V., Op. Cit., tome I, Part II, P. 214 .

من البقاع التي اهتم بها معتنقو الأديان الثلاثة ، وهذا أمر طبيعي نظراً لانتسابها إلى إبراهيم أبى الأنبياء (عليهم السلام) كما أن هناك بئر السيدة سارة الذي جذب أيضاً انتباه بعض الزوار خاصة اليهود منهم الذين حددوا موقعه فى غربى مدينة الخليل^(١)، وقد ظل هذا البئر يفيض بالماء لعدة قرون تلت^(٢). وإضافة إلى هذين البئرين يوجد أيضاً بالقرب منهما بئر ثالثة انفرد الزوار اليهود بذكرها ونسبوا إلى إسحاق^(٣) (عليه السلام).

ونتقل الآن إلى التعرف على المزارات الهامة الأخرى فى بلاد الخليل خارج المدينة، فيكاد يجمع الرحالة الصليبيون على أهمية التوجه إلى زيارة حقل دمشق المبارك، غير أنهم لم يحددوا موقعه بدقة واكتفوا بالإشارة إلى أنه خارج الخليل ولكنه على مقربة منها ، وتربة هذا الحقل فى نظر هؤلاء حمراء اللون بالغة الخصوبة وتفيض كل عام بمحصول عميم من الثمار، فكلما أخذ الأهالى منه عاد من جديد ليمتلئ^(٤)، ويرجع هؤلاء الرحالة ذلك إلى أن الله باركها بأن خلق آدم (عليه السلام) منها^(٥)، فى حين بالغ البعض الآخر بذكرهم أن الزوار يقبلون على أكل بعض من هذه التربة دون أن يتسبب ذلك فى ضرر لهم^(٦). والجدير بالذكر أن تقديس الصليبيين للحقل قد ترك صدى بين اليهود، ويدل على ذلك حرص بعضهم على التوجه إليه بالزيارة وتأثروا بما كان سائداً بين الصليبيين من معتقدات، ومنها أن الناس يحرصون على إدخال تلك التربة فى مواد بناء مساكنهم تبركاً بها^(٧)، وقد ذاع صيت التربة حتى أن سكان الخليل احترفوا الاتجار فيها وقاموا بتصديرها إلى مصر بأغلى الأثمان وكأنها من أنفس المعادن وفقاً للإعتقاد ذاته، ولم تحدد المصادر^(٨) الحقبة الزمنية التي شهدت تلك الظاهرة.

1 - Samuel Ben Samson , Op. Cit ., p. 105 , Obadiah Da Bertinoro , Itinerary of Obadiah Da Bertinoro , p. 233 .

٢ - عبد الغنى النابلسى : الحضرة الانبياء ، ص ٥٤ .

3 - Jacob Ben R. Nathaniel Ha. Cohen , Op. Cit ., p. 93, Obadiah Da Bertinoro, Op. Cit., P. 249 .

4 - Peter Le Déacon , Op. Cit., p. 186, Fetillus, Op. Cit., P. 30, John of Wuerzburg , Op. Cit ., p. 59 .

5 - Theaderich, Op. Cit., P. 54, Menestat Albertus, P. 5; Anselem Aderno, Op. Cit., p. 351 .

6 - Anenymus, Descriptions Terrae Sanctae., ed., Tobler, T., (Document No. 4, 1145. A. D.) , Leipzig 1874, P. 156 , John of Wurzburgg, Op. Cit., P. 59 , Anomtonas , Socond Guid , P. 242, Conder, C., The latin Kingdonst of Jerusalem, p. 201 .

7 - Jacop Ben R. Nathaniel Hacoheh , Op Cit., P. 93, John of Wurzburg, Op. Cit., p. 58.

8 - Ibid, Loc. Cit, Bepa, Itencra Hierosolomitana 1148, A. D. Vol. IV, Jerusalem 1986, p. 47, John of Wurzburg Loc. Cit .

وفى حالة صدق تلك الإشارة يصبح واضحاً أن جانباً من المصريين تأثرو أيضاً بهذه المعتقدات .

وإضافة إلى هذا توجد خارج مدينة الخليل منطقة تعرف باسم وادى البكاء اهتم الحجاج الصليبيون واليهود بزيارتها معتقدين أن قابيل قتل فيها أخاه هابيل^(١)، وقد عرف الوادى بهذا الاسم لاقتراحه بقصة هبوط آدم وحواء إليه وهما يبكيان حسرة على تلك الفعل الشنعاء ولمدة مائة عام ، ولا نجد فى القصص الدينى فى الكتاب المقدس أى ذكر لهذه الأحداث ، مما يؤكد أنها نتاج الخيال الأسطورى^(٢)، كما لا نجد أى صدى لهذا القصص فيما تم الرجوع إليه من مصادر إسلامية، مما يؤكد أن هذه المنطقة لم تجذب اهتمام الزائر المسلم .

أما المنطقة الشمالية من إقطاعية الخليل الصليبية فتضم عدة مزارات هامة أشارت إليها المصادر المختلفة نعرض لها حسب ترتيبها انطلاقاً من الخليل إذ كان الحجاج الصليبيون يحرسون أيما حرص حينما يخرجون من مدينة الخليل على زيارة منطقة شجرة ممرى Mambre التى تعد أحد الشواهد الأساسية المطلوب زيارتها . ولذئوع صيت الشجرة فقد عرفت قرية بيت إبراهيم باسم ممرى ، تلك الشجرة التى تعلو التل القائم بها^(٣)، وهى من أشجار البلوط الذى تنتشر زراعته فوق تلال بلاد الخليل أما الموضع فكان معروفاً باسم تربنتيس Terbinthus ، كما ذكرها الصليبيون، أما المسلمون فقد عرفوها باسم رامة الخليل^(٤) التى قال ياقوت الحموى عنها: «وهى قرية على جبل مطل على جبرون» وهى تبعد مسافة اثنين كيلو متر ونصف شمال الخليل كما تبعد أربعمائة متر إلى الشرق من طريق الخليل - القدس^(٥). وتكررت الإشارة إلى ممرى عدة مرات بالكتاب المقدس رمزاً لمدينة الخليل^(٦)، وما يذكر أنها اكتسبت هذا الاسم من أحد

1 - Anonymus, Descriptes Terrae Sancti, ed. Tobler, T., P. 106, Amonymus, second Guide, P. 242, PeNestat, Adozne, Op. Cit., p. 5 .

2 - Anselme Adozne, Itineraire, p. 251 .

3 - Gelardus E Scola, Geogra PHy Tera sanjiet, P. 185 .

4 - Theoderid, Desoipion of The Haly lond, P. 53 .

الهروى : الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٢٩، الفزاري: المخطوط السابق : الفصل ١٣ ، ورقة

٥ - ٦، العلمي : الانس الجليل ، ج ١ ، ص ٤٠ .

٥ - ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ص ٢١٢ ، انظر أيضاً مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ٥ ، ق

٢ ، ص ١٦٣ ، ويرجح هذا الباحث أن رامة الخليل هى قرية المرطوم التى ذكرت سابقاً أنها من إقطاع

تيم الدارى .

٦ - سفر التكوين : ١٤ : ١٣ و ٢٤ ، ٢٣ : ١٩ ، ٣٥ : ٢٧ .

الأمراء الأموريين الذين عاشوا فيها قديماً^(١). وقد اكتسبت شجرة ممري قدسيتها عند النصراني نظراً لاعتقادهم في أن إبراهيم (عليه السلام) عندما استظل بظلها رأى الملائكة الثلاث هابطين من الطريق ليكونوا في ضيافته^(٢). وقد حاول الأهالي الإبقاء على زراعة أشجار البلوط في نفس المكان حتى جاء الصليبيون فاستكثروا من زراعته إحياء للذكرى^(٣)، بينما لقيت شجرة ممري إقبالاً من اليهود على التوجه إلى زيارتها^(٤).

ويزعم الصليبيون الذين ارتحلوا إلى الخليل أن الشجرة لا تزال شامخة، تحتفظ برونقها ولونها الأخضر بعد فترة قصيرة من الغزو الصليبي للخليل^(٥). ويصف دانيال الروسي المكان بأنه يبعث على زائريه الرهبة، نظراً للقدسية الشديدة التي تكتنفه، وأن الرخام الأبيض يحيط به من كل اتجاه، حيث بدت الشجرة وكأنها تنشق من خلال الصخر، وفوق التل وبجوار الشجرة وإلى الشرق منها يوجد أساس منزل قديم مستوى البناء، ويضيف دانيال أن موضع هذا المنزل المتهمد هو نفسه مكان الخيمة التي نصبها إبراهيم (عليه السلام) وأقام فيها. أما الشجرة ذاتها فلم تكن كبيرة للغاية إلا أنها كثيفة الأغصان والأوراق وبها كثير من الثمار، وأن فروعها متدلية قريبة من الأرض، ويتعجب الرحالة الصليبي من بقاء الشجرة على ذلك الحال طيلة القرون السابقة دون أن تنفئ. كذلك فهو يرى أن كل الأراضي المجاورة شديدة الخصب لأنها مباركة من الله تعالى^(٦). ويؤكد كل من الرحالتين: المجهول وفيتلس اللذين زارا الخليل عام ١١٣٠م - ٥٢٤هـ على أن شجرة ممري كانت لا تزال شامخة بحالها حين رايها^(٧)، غير أن هناك رحالة صليبيي آخر ذكر أن الشجرة كانت قد جفت وذلك بعد ثلاثة أو أربعة عقود، ومع ذلك ظل المكان يحظى باهتمام الأهالي وزيارة الحجاج^(٨). وتذكر إحدى الدراسات الحديثة أن

1 - Peter le Deacon, Op. Cit., P. 185, Guerinn, V., Op. Cit., Part II, p. 239.

2 - Gelardus de Esola, pp. 185, John of wurzburg, Op. Cit., p. 58.

3 - Saeutuf, Op., Cit., P. 24, Peter le Deacon, Op. Cit., P. 185, Menestat Albertus, Op. Cit., p. 5.

4 - Samuel Ben samson, pp. 104 - 105.

5 - Saewlf, Op. Cit., P. 24., Danial The Russian, Op. Cit, 45, Peter le Déacon, Op. Cit., p. 185.

6 - Danul the Russian, Op. Cit., pp. 52 - 53.

7 - Anonymus, Itimera Hierosolimitana cruce signatorum, 1130. A. D. Jerusalem 1981, Vol. III, pp. 79 - 80; Fetellus, Op. Cit., p. 8.

يبدو أن الأمر قد التبس عند بعض الرحالة الصليبيين فأفروا ببقاء الشجرة الحقيقية حتى وقت زيارتهم للمنطقة، وعلى الأرجح أن الشجرة التي راوها كانت قد غرست في وقت ما قبل مجيء الصليبيين رمزاً.

8 - John of wurzburg, Loc. Cit.

شجرة ممري كان قد قضى عليها قبل القرن الرابع الميلادي، غير أن المسيحيين حرصوا على زراعة شجر البلوط من جديد في المنطقة تبركاً^(١). وهذا يفسر انخداع الحجاج الصليبيين برؤية شجرة ممري ذاتها ، في حين نرى أن البعض الآخر تنبه لذلك وأكدوا على عدم بقائها وقت الحروب الصليبية .

ومن مظاهر اهتمام الصليبيين بشجرة ممري إعادة بناء الدير البيزنطي والذي بداخله الكنيسة ، ويستنتج هذا من أن الرحالة الصليبيين الأوائل الذين زاروا ممري أشاروا إلى منزل متهدم في هذا الموقع فحسب^(٢) ولكن بداية من عام ١١٧٠م / ٥٦٥ هـ سجل رحالة صليبيون آخرون مشاهداتهم لكنيسة تم تحديد موقعها بأنها مقامة على أنقاض مبنى قديم ، كان مشيداً في موضع خيمة إبراهيم (عليه السلام) فوق التل وفي مواجهة شجرة ممري^(٣). وبالرجوع إلى الدراسات المتخصصة يتبين أنه في عام ٣٢٥ م . (أي في عهد الإمبراطور قسطنطين الكبير) تم تأسيس اثنين من المباني أحدهما دير، في حين لا يعرف للآخر تصور محدد وكان الدير قد أقيم في موضع مذبح إبراهيم (عليه السلام) في ممري، وهو مستطيل الشكل يبلغ طول السور حوالي خمسة وستين متراً، بينما يبلغ العرض خمسين متراً. وقد بينت الأسوار من أحجار كبيرة الحجم، حيث يبلغ سمكها خمسة وسبعين سنتيمتر بينما يتراوح ارتفاعها بين مترين وثلاثة أمتار، كما تم تزئينها من الخارج بالنقوش^(٤). وبمنظرة متمعة إلى الإشارات المذكورة يتضح أنه حينما جاء الصليبيون وجدوا المبنى البيزنطي قد تهدم إلى حد كبير، ولكن مع رغبة الصليبيين وخاصة رجال الدين منهم في إضفاء الشخصية الصليبية على المكان، وبمساعدة من حاكم الخليل قاموا بإعادة بناء الدير وكنيسته، وذلك استجابة أيضاً لتزايد عدد الزوار من الحجيج الصليبيين . والذي يجب التنويه إليه أن الكرسي الأسقفى في الخليل كان قد أقيم قبل عامين فقط من تسجيل أول مشاهدة للكنيسة الصليبية في المنطقة مما أعطى ثقلًا دينيًا خاصاً لمجمل إقناعية الخليل الصليبية أهلها للنهوض بالمؤسسات الدينية في شتى أرجائها .

1 - Vigouroux, F., Mambre, en Dictionnaire de la Bible, Tome III, Paris 1903 . Cols. 633 - 634 .

2 - Saewlf, Loc Cit., Daniel the Russian, Op. Cit., P. 52 , Gelardus de Escola, Op. Cit, P. 186, Peter le Deacon, Op. Cit., p. 185 .

3 - Amonimus , Second guide, p. 242 .

4 - Vigouraux , F., Mambre, en Dictionnaire de la Bible, Cols. 629 - 630 .

وماذا عن موقف الزوار المسلمين من ممرى ؟ فقد أشار عدد قليل من الرحالة والمؤرخين المسلمين إلى هذه البقعة ، وحينما تعرضوا إليها اكتشفوا بالإشارة إلى أهمية موقعها وتعدد محاسنها الطبيعية من ينابيع وبساتين ، كما أشاروا بشكل عابر إلى أنها كانت مقاماً لأبى الأنبياء إبراهيم (عليه السلام)^(١). وعلى الرغم من اعتقاد المسلمين فى قصة ضيف إبراهيم وبقدوم الملائكة مبشرين له بإنجاب ابن من سارة، وإبلاغة بإنزال العقاب على قوم لوط^(٢) إلا أن ذلك لم يشكل دافعاً على حرص المسلمين على زيارة المكان. وعليه يتحدد موقف المسلمين من الشجرة، بأنه لا يقوم على إظهار القدسية مقارنة بما أبداه الصليبيون، حيث لم تشمل رحلات المسلمين زيارة هذا المكان.

وعندما ينتهى الزائر الصليبي من زيارة منطقة ممرى ويريد التوجه نحو الشمال فإنه يعرج على عين الدورا الواقعة بالقرب من بيت صور على طريق الخليل - بيت المقدس ، وقد حظيت العين باهتمام وتقديس الصليبيين حيث اعتبروها عين فيليب Philip's spring التى ورد ذكرها فى العهد الجديد^(٣)، فهناك قام فيليب «وهو أحد الحواريين الاثنى عشر» بتعميد أحد الحجاج الأحباش. وقد عرف المسيحيون هذا الطقس باسم معمودية التوبة^(٤). وقد تنبه الرحالة المسلم القزوينى لهذه الظاهرة ف سجلها فى مؤلفه وأشار إلى العين قائلاً: «إن ماءها عظيم القدر عند النصارى»^(٥). وبطبيعة الحال اقتصر الاهتمام بهذا المزار على المسيحيين سواء أكانوا غربيين أم شرقيين .

أما الجولة التالية بين مزارات منطقة شمال الخليل، فتكاد تقتصر على اهتمام الزائر المسلم عندما كان يتجه وهو فى طريقة إلى القدس لزيارة ضريح النبی یونس (عليه السلام) فى حلحول إبان الوجود الصليبي، ولوقوع القرية على الطريق الرئيسى الواصل

١ - ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٨٧ ؛ الهروى : المصدر السابق ، ص ٢٩ ؛ العليمى

: الأئس الجليل ، ج ١ ، ص ٤٩ .

٢ - راجع : القرآن الكريم سورة : الذاريات : ٢٤ - ٣٧ ، هود : ٦٩ - ٧٦ ، الحجر : ٥١ - ٦٠ .

٣ - أعمال الرسل : ٨ : ٣٨

4 - Burchard of Mountsion, ADescription of the Holy Land , P. 35 . Cf. Als . Anselme Adarno, Op. Cit., P. 351, Cf Als. Benvenuti, M., Op. Cit, P. 325 .

ورد ذكر هذه المعمودية فى إنجيل متى : ٣ - ٦ ، ولمعرفة المزيد عن فيليب الحوارى انظر : إنجيل متى :

١٠ - ٣ .

٥ - القزوينى : المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

بين المدينتين فقد تيسر لكثير من الناس زيارته^(١)، وخاصة التجار، وهناك إشارة تفيد بأن اليهود كانوا أيضاً يترددون على هذا المزار^(٢). وفي شهادة لياقوت الحموى يذكر فيها أن المسجد المقام على الضريح كان يؤمه عدد كبير من الناس للزيارة، كما يوضح أن قبر يونس يقع على يمين الطريق المتجهة إلى القدس، ثم يضيف قائلاً: «وعليه بناء وقبة وله خدام، زرته مرات»^(٣). وفي حلحول مزار آخر ينسب الأهل إلى الصحابي الجليل «عبد الله بن مسعود الهذلي»، ولكن الشكوك تحيط بصحة هذا الاعتقاد^(٤). ومن واقع هذه الإشارات يلاحظ أن المصادر الصليبية لم تسجل قيام أحد من الرحالة الصليبيين بزيارة قبر يونس (عليه السلام)، في حين أشارت المصادر الإسلامية المعاصرة إليه وسجلت تنامي الاهتمام به من قبل زوار المسلمين وأولى الأمر منهم، مما يفيد بأنه كان مزاراً إسلامياً بالدرجة الأولى.

اعتاد كل من يزور حلحول أن يعرج على بيت أومر للزيارة حيث قبر النبي متى أبي النبي يونس عليه السلام، وقد أقيم فوق القبر مسجد جامع على عهد المعظم عيسى عام ١٢١٥م / ٦١٢هـ^(٥) وهو يشهد على اهتمام المسلمين المطرد بالأماكن المقدسة في بلاد الخليل بعد إجلاء الصليبيين عنها. ويذكر الأثريون أن الجامع يتألف من طابقين، الأول: ويضم مشهد النبي متى وعدداً من الغرف، أما الطابق الثاني: ففيه غرفتان ومساحة كبيرة مكشوفة، وللجامع مئذنة قديمة وبئر عميقة يشاع أن ماءها لا ينضب^(٦). كذلك كان الزائر المسلم يعرج على قرية سعير التي شاع بين الناس أن مسجدتها يضم ضريح العيص (عليه السلام) وصار «يقصد للزيارة»^(٧). وفي نفس المنطقة يقصد الزوار اليهود أحد الكهوف للزيارة، وهم يزعمون أنه كهف شاؤول والد النبي داوود (عليه السلام)^(٨).

١ - الهروى: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٢٩؛ العمرى: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٦؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص ٧٧ - ٧٨.

2 - Jacob Robbi, The Itineraty of Robbi Jacob 1238 - 1244, A. D., in, J. T., p. 120.

٣ - ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٩٠.

٤ - الهروى: المصدر السابق، ص ٢٩، وعبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) من أكابر الصحابة فضلاً وعقلاً وقرباً من الرسول (ﷺ) توفي في المدينة عام ٦٥٥م / ٣٢ هـ. انظر: ابن حجر العسقلاني:

الإصابة في تمييز الصحابة، القاهرة ١٣٢٣، ج ١، ص ٢٣٨.

٥ - الحموى: التاريخ المظفر، مخطوط.

6 - Guerin, V., Op. Cit., Part 21, p. 33.

٧ - العليبي: الأنس الجليل، ج ١، ص ٤١.

8 - Meshullam Ben R. Menaham of volterra, Op. Cit., p. 187, Obadiah Da Bertinora, Op. Cit., p. 233.

وتعد تقوع أحد المراكز الدينية الرئيسية الواقعة شمال الخليل ، وقد أولاهما المؤرخون والرحالة الصليبيون واليهود اهتماما ملحوظا، فثناء استعراض وليم الصورى للأماكن المقدسة فى الشام تعرض للبلدة وذكر أنها بيت الرسولين حبقوق Habacoc وعاموس Amos ^(١) (وهما من أنبياء بنى إسرائيل)، وقد أشار دانيال الروسى إلى وجود كنيسة بالبلدة أقيمت إحياءً لذكرى النبى حبقوق حيث كان يعيش ^(٢). كما ثبت فى عصر الحروب الصليبية إنه ورد اسم دير يقع بجوار الكنيسة يحمل ايضا مسمى النبيين ^(٣). ونظراً لأن رحلة دانيال الروسى فى الأماكن المقدسة بإقطاعية الخليل قد تمت فى وقت مبكر فيصبح من الأرجح أن الكنيسة والدير أقيما للجاليات السريانية فى تقوع منذ أن كانت الخليل خاضعة للسيطرة الإسلامية، ذلك أن السنوات القليلة السابقة تعد فترة غير كافية كى تمت اليد الصليبية إلى تلك الجهات بالتشييد والعمران المدنى، نظراً لأن أعمال الغزو وتوطيد أركان الدولة الصليبية والمشاريع العسكرية كانت تشكل شغلهم الشاغل ومحور اهتمامهم فى بداية وجودهم فى المنطقة.

وقد شهدت الحياة الديرية فى تقوع وأطرافها انتعاشا واضحا إبان العصر الصليبي، حيث حرصوا على إحياء الأديرة القديمة التى ترجع إلى العصر البيزنطى، إذ امتلكت كنيسة القيامة وألعاذر أراضى شاسعة فيها، كما تم لربانها إقامة حياة ديرية خاصة بهما. ويرجع أحد الباحثين الحديثين اهتمام المسيحيين بتقوع إلى اعتقادهم فى قصة مفادها أنه حينما سمع هيرودس الكبير الذى كان يحكم فلسطين بمولد طفل بين اليهود، وهو المسيح عليه السلام وشاع أنه سوف يملك البلاد أمر بقتل عدد كبير من الأطفال، ثم دفن أعداداً منهم فى بلدة تقوع ^(٤)، وهذا مفسر لما وافق رجال الدين على مبادلة قريتهم بيثانى بتقوع فى عام ١١٣٨م/ ٥٣٢ هـ مع الملكة ملسند ^(٥)، رغم أن خصوبة الأرض فيها كانت أقل. ووردت تقوع فى أكثر من مصدر صليبي على أنها مدينة صغيرة أو بلدة ^(٦) إبان العصر الصليبي مما يعكس مدى ما وصلت إليه الحياة الديرية فيها من نشاط أسقط عنها صفة القرية. ويبدو أن وقوع تقوع على أطراف

1 - William of Tyre, Op. Cit., Vol. I, P. 340 ; Jacob, Op. Cit., 120 .

2 - Daniel the Russian, Op. Cit., pp. 48 - 49 .

3 - Roehricht, R., S. S., P. 43 .

4 - Mayer , H. E., B. K. K., pp. 378 - 379 .

5 - Bresc - Bautier , J., Le Cart . du chap., doc No. 34 , pp. 98 - 101 .

6 - William of Tyre , Op. Cit., Vol . I, P. 340 ; Ernaul , Op. Cit., p. 72 .

الصحراء جعلها ساحة خصبة لنشأة ونمو الأديرة، غير أن هذا الموقع جعلها عرضة للهجمات المفاجئة من قبل المسلمين كما حدث أثناء غارة ١١٣٩م / ٥٣٣ هـ .

وهناك مجموعة أخرى من الأديرة تم حصرها في الجهة الشمالية من بلاد الخليل حيث يشهد دير القديس شاريتون ST. Chariton على مدى ما وصلت إليه الحياة الديرية من ازدهار إبان الوجود الصليبي في إقطاعية الخليل، ويحدد أحد الرحالة الصليبيين المجهولين موقع الدير على بعد أربعة أميال جنوب بيت لحم، في حين ذكر رحالة صليبي آخر أن الدير يقع أقرب إلى مدينة الخليل عند أطراف قرية تقوع وبالقرب من الصحراء في الاتجاه نحو البحر الميت، ويتطابق هذا الموقع مع بركة الخليل كما هو واضح، ويصف نفس الرحالة الدير فيذكر أنه يتوسط جبلا صخوريا وقد أحاطت به الأسوار، ويوجد بداخله كنيسة تضم قبر القديس شاريتون، وفي خارج الأسوار مقابر سبعمائة من القديسين^(١). كما ضمت بيت أومر ديراً كبيراً سكنه الرهبان اللاتين^(٢)، ويسجل الزوار الصليبيون في بلاد الخليل قيام كنيستين في بلدة بيت زكريا^(٣)، بقيت واحدة منهما حتى رآها أحد الرحالة الأوربيين بعد إجلاء الصليبيين عن الخليل بقرنين ونصف من الزمان تقريبا ، بينما أشار إلى تدهم الأخرى^(٤)، ويمكن تفسير قيام كنيستين في بلدة محدودة كبيت زكريا وفي عصر واحد بأن كلا منهما تمثل طائفة مسيحية تختلف عن الأخرى، ولعلهما طائفتا الفرنج والكاثوليك وطائفة السريان الأرثوذكس اللتان تشكلان أكثرية السكان المسيحيين في تلك الجهة .

وبعد التعرف على الأماكن المقدسة والمزارات التي كان يؤمها الزوار في منطقة شمال الخليل، نتجه الآن للتعرف على **المزارات الواقعة في الشرق** حيث ديار قوم لوط (عليه السلام): سدوم وعمورة وبقية المدن الخمس التي لم تدمرها نيران الصاعقة فقط، بل غطى الماء أرضها أيضا، حيث تكون البحر الميت. وكان البحر الميت من أهم البقاع التي يرغب الحجاج المسيحي^(٥) واليهودي^(٦) في زيارتها. وقد ملأ البحر أجواف زائريه رعبا، فهو يذكرهم بالمدن الغارقة والذنب الذي أدى بسكانها إلى هذا المصير

1 - Daniel The Russian, Op. Cit., pp. 48 - 49 .

2 - Mayer , H. E., B. K. S. K, p. 372 .

3 - Johannes Phocas , The Pilgrimage of Johonnco Phocas to The Holy Land , p. 30 .

4 - Johannes Poloner, Descrip tion of The Ho Ly Land 1422 A. D., Trans . By Aukrey stewart, in : pp. T. S - Vol. VI, london 1894 , p. 12 .

5 - Danieul the Russian, Op. Cit., pp. 48 - 49 ; Fulcher of chartres, Op. Cit., pp. 144 - 145 .

6 - Petachia of Ratisbon , Op. Cit ., p. 88 .

التعس ، وقد حظى البحر الميت باهتمام المؤرخين والرحالة الصليبيين أمثال: فوشيه دى شارتر ودانيال الروسى وفيتلس وثيرودريك ويوحنا أف فريزبرج وغيرهم ، ومن اليهود فتاحية الراتسبونى ويعقوب هاكوهين ، وقد غلب على وصفهم بشكل عام للبحر الميت تلك الصورة القاتمة، فهو موطن للشيطان، موحش، ذو رائحة متنة كريهة ولا يستقر عليه شيء وبيتلع كل شيء حتى أخف الأشياء مثل الأخشاب وغيرها ، كما يلفظ فى يوم محدد من العام كل ما بجوفه من حديد وأخشاب وغيرها ، ومن المعتقد لدى البعض أن ليس للبحر قاع . ويزعم الرحالة الصليبيون أنه إلى الجنوب من البحر يوجد تمثال من الملح لامرأة النبی لوط (عليه السلام) لا يزال شاخصا للأعين^(١)، ورغم تكرار المشاهدات الصليبية للتمثال إلا أن الرحالة اليهودى المعاصر فتاحية يؤكد أنه لم يعد له وجود^(٢).

أما عن موقف المسلمين من زيارة البحر الميت ، فبالرغم من اعتقادهم فى قصة لوط (عليه السلام)^(٣) مع قومه المفسدين حتى أنهم أطلقوا على المنطقة المجاورة للبحر ديار قوم لوط، إلا أن رحالتهم اكتفوا فى معظم الأحيان بوصفه، ولم يشكل البحر بالنسبة لهم منطقة جذب للزيارة كما هو الحال بالنسبة للصليبيين واليهود، واكتفوا بإظهار أوصاف تعكس كآبته وقبحه فى أنظارهم، ويتجلى ذلك فى المسميات التى أطلقوها عليه ومنها: البحيرة المتنة أو التنة والبحيرة المقلوبة^(٤). وكذلك عكست مسميات بحيرة سدوم وبحر لوط وديار قوم لوط^(٥) ارتباط المنطقة بالقصص الدينى المعروف لدى المسلمين. ومن ثم كان البحر ومعامله يقدم العظة لكل من يذهب إليه من شتى الطوائف.

1 - Fulcher of chatres , Op. Cit., pp. 143 - 145, Daniel the Russian, Op. Cit., pp. 45 - 46., Fettellus, Op. Cit., pp. 11 - 12; Theoderich , S., Op. Cit., pp. 53 - 54, John of wurz burg, Op. Cit., pp. 58 - 59; Petachia of Ratispon, Op. Cit., p. 89; Jacob, Op. Cit., p. 120 .

2 - Petachia of Ratisbon, Op. Cit., p. 88 .

٣ - وقد وردت قصة قوم لوط (عليه السلام) فى مواضع عديدة بالقرآن الكريم . راجع سورة : هود ٧٧ ، ٨٩ ، الحجر ٥٩ ، الشعراء ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٧ ، القمر ٣٣ ، ٣٤ ، التحريم ١٠ ، الأعراف ٨٠ ، النحل ٥٤ ، العنكبوت ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٣ ، الصافات ١٣٣ .

٤ - ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٦٩ ، ١٨٥ ؛ الإدريسي : المصدر السابق ، ص ١٢٤ ، ١٥٨ ؛ الأنصارى الدمشقى : المصدر السابق ، ص ٢٠١ ، ٢٢١ ؛ ابن زنيل : مخطوط ابن زنيل ، محافظة الإسكندرية رقم ٣٦١٧ ، ج ٢ .

٥ - المقدسى : المصدر السابق ، ص ١٧٤ ؛ ناصر خسرو : المصدر السابق ، ص ١٧ ، العمرى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٤ ؛ ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ٧٧ .

ومن أكثر المزارات التي ذاع صيتها في الشرق أيضاً وكانت جديرة بزيارة الحجاج الصليبيين، ذلك الجبل الكائن في قرية صغر جنوب البحر الميت، حيث اعتقدوا في أنه يضم قبر النبي لوط (عليه السلام) وقبرى إبنتيه والمغارة التي هربوا إليها^(١). وإذا كان الرأي السائد بين الصليبيين أن لوطا (عليه السلام) مدفون في صغر، نجد المسلمين يؤكدون على أن قبره فوق تل ببلدة كفر بريك^(٢) «وعلى قبره أبنية حسنة البناء بيضاء اللون وليس بالمبنى أى إضافات»^(٣). وإلى الغرب من مسجد لوط (عليه السلام) توجد مغارة تحتوى على رفات أربعين نبيا يعرج المسلمون إليها للزيارة^(٤). وتقدم إحدى الباحثات الحديثات تفسيراً للتضارب في تحديد موقع ضريح لوط (عليه السلام) حينما ذكرت أن البيزنطيين نقلوا الجثمان من صغر إلى كفر بريك، نظراً لصعوبة الوصول إليه فوق التل، بالإضافة إلى قربيه الشديد من البحر الميت، ولما تحول السكان في المنطقة إلى الإسلام أبقوا على الوضع الجديد^(٥). وبذلك اشترك الصليبيون مع المسلمين في إظهار الاهتمام بقبر لوط (عليه السلام) رغم أن كليهما يحدد موقعا يختلف عن الآخر للزيارة.

وفي نطاق بلدة كفر بريك وعلى مقربة من مسجد لوط (عليه السلام)^(٦) وبمسافة ثلاثة كيلو مترات من ناحية الجنوب تقريباً، يوجد مسجد اليقين الذي تم تشييده منذ وقت طويل قبل الغزو الصليبي وظل محطاً للزوار المسلمين^(٧) لقرون عديدة. والمسجد مقام على تل يرتفع تسعمائة متر عن سطح البحر «وله نور وإشراق ليس لسواه، ولا يجاوره إلا دار واحدة» يسكنها القائم على حراسته. وهو مستطيل الشكل يبلغ طوله عشرة أمتار وعرضه سبعة أمتار. وبالقرب من بابه موضع منخفض في حجر صلد تم تشكيله في صورة محراب لا يتسع إلا لمصل واحد، ويقال إن إبراهيم عليه السلام سجد

1 - Daniel the Russian , Op. Cit., P. 56; Theodrich, Op - Cit., P. 53, Ernoul, Op. Cit., pp. 71 - 72 ; Menestat Albertus, Op. Cit., p. 5 .

٢ - الهروى : الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٢٩؛ ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك، ص ٢٤

٣ - ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٧٥ - ٧٧ ؛ راجع أيضاً : المقدسى : المصدر السابق، ص ١٧٣ .

٤ - التدمرى : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ؛ عبد الغنى النابلسى : الحضرة الأنيسية ، ص ٦٤ - ٦٥ ؛

اللقيمى : سوانح الأنس ، أهل العلم والحكم في ريف فلسطين ، ص ١٨٧ .

5 - Hoade, O. E. U., gency Guide to the Holy land , P. 449 .

٦ - الهروى : الإشارات إلى معرفة الزيارات ، ص ٢٩ ، ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٧٧ .

٧ - قام بتشحيده أبو بكر بن إسماعيل الصباحى في عام ٩٦٣ م / ٣٥٢ هـ . انظر المقدسى : أحسن التقاسيم ؛

ص ١٧٣ ؛ العليمى : الأنس الجليل، ج ١، ص ٤٣ ؛ عبد الغنى النابلسى : الحضرة الأنيسية ، ص ٦٧ ؛

اللقيمى : أهل العلم والحكم في ريف فلسطين ، ٨٩ .

فى ذلك الموضع شكراً لله تعالى عند هلاك قوم لوط ، فتحرك موضع السجود وساح فى الأرض قليلاً^(١) وقال : «أشهد أن هذا هو الحق اليقين»^(٢).

وقد أبدى بعض الصليبيين الزائرين لمعالم بلاد الخليل الدينية فى **جزئها الجنوبي الغربي** اهتماماً وذلك بالذهاب إلى بلدة يطة حيث كان يقيم النبی زكريا، كما كانت مهد ابنه يحيى (عليهما السلام)^(٣)، وكذلك تلمس قدراً مماثلاً من الاهتمام من قبل المسلمين بزيارة هذه البلدة فيقول الرحالة أبو بكر الحموى : «وجئنا المشهد وقد ظهرت عليه بضريحين كريمين، بهجة الدين والدنيا» وثم تلاوة أجزاء من القرآن الكريم التى تناولت بشرى النبی يحيى (عليه السلام)، وأطال الحموى فى وصف ما اعتراه من مشاعر البهجة والسرور أثناء الزيارة هو ورفاقه^(٤). والملاحظ أن زوار يطة عصر الحروب الصليبية لم يذكروا اسم البلدة واكتفوا بالإشارة إليها بمقر النبيين زكريا ويحيى (عليهما السلام)، وفى العصر الإسلامى ذكرت بالبلدة التى بها الضريحان، وهذا بدوره يشير إلى أن المسلمين اهتموا بالموضع بعد رحيل الصليبيين عنه حتى بدت واحدة من كبريات القرى فى بلاد الخليل .

أما فى **الشمال الغربي** فقد حظيت بيت جبرين - والتى هى فى نظر الكثير من المؤرخين الصليبيين ورحلاتهم بئر سبع - باهتمام ملحوظ من الناحية الدينية، ولذا فقد حرصوا على زيارتها ، ويرجع ذلك الاهتمام إلى اعتقادهم فى أن إبراهيم (عليه السلام) قد أقام فيها فترة طويلة، وأنه قام ببناء مذهب فيها للتعبد، كما اعتقدوا أن الله سبحانه وتعالى تحدث إلى نبيه هناك وأمره بالتضحية بابنه^(٥). وتكمن أهمية بيت جبرين فى نظر

١ - ابن بطوطة: الرحلة ، ص ٧٧ ، ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٤٢٦ ، وفيما يختص بمقاييس السجد ، راجع مصطفى الداغ : بلادنا فلسطين ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ٢١٩ .

٢ - المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٧٣ ؛ الهورى : المصدر السابق ، ص ٢٩ - ٣٠ .
3 - Anonymus, Oescrietis Terrae Sonctoe, ed. Tob ler, T. pp. 106 - 107, Johannes Phocas, Op. Cit., P. 34, Itinerarium Peregrinorum, p. 361 .

عرف النبی يحيى (عليه السلام) لدى المسيحيين باسم يوحنا المعمدان ، بشر بالمسيح (عليه السلام) وقد أشارت الأناجيل إلى معجزة ولادته من أبوين طاعينين فى السن، ولعرفه المزيد عنه راجع : بطرس عبد الملك وآخرين : قاموس الكتاب المقدس مادة يوحنا المعمدان .

٤ - أبو بكر الحموى : ثمرات الأوراق ، ص ٣٦٨ ، راجع : ما يتعلق بهذه البشرى فى القرآن الكريم : سورة مريم آية (٧) .

5 - Williamof Tyre, Op. Cit., Vol II, P. 80, Anonymus , Descriptis Terrae Samcte, p. 104, Anselme Adorno, Op. Cit., p. 50 .

وقد استند هؤلاء فيما يبدو إلى ما ورد بالمعهد القديم : سفر التكوين : ٢١ : ٢٢ - ١٤ ومن المصادر الإسلامية التى أشارت إلى إقامة إبراهيم (عليه السلام) فى بئر سبع. انظر التدمرى : المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

المسلمين فى أنها تضم ضريح الصحابى الجليل نعيم الدارى الذى أقام بهذه البلدة سنوات حياته الأخيرة إلى أن توفى بها فى عام ٦٦٠م / ٤٠ هـ^(١)، ولا يزال قبره فيها يزار. وفضلاً عن ذلك وبالقرب من قرية إدنا التابعة لبیت جبرین يوجد مزار النبی صالح (عليه السلام)، يزار أيام الجمع والاعياد^(٢). وبالإضافة إلى الأهمية الدينية لها فقد لفتت البلدة أنظار زائريها بجوها الصحى وجمالها الأخاذ^(٣)، وهكذا اجتذبت بیت جبرین الزوار الصليبيين والمسلمين على حد سواء .

وبعد هذا العرض لمشاهد الأنبياء (عليهم السلام) فى بلاد الخليل المختلفة نجد أن المسلمين قد أولوا أضرحة صحابة الرسول (ﷺ) الذين استشهدوا أو توفوا فى أماكن متفرقة من هذه البلاد اهتماماً كبيراً أيضاً. وقد أوردت المصادر قصص بطولات عدد منهم استشهدوا فى معركة أجنادين فوق أرض بلاد الخليل ومن أشهرهم: عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم الرسول (ﷺ) الذى وجد شهيداً وحوله عشرة من قتلى الروم^(٤)، والصحابى عمر بن سعيد بن العاص ابن أميه وكنيته « أبو عتبة القرشى الأموى» وهو من الذين هاجروا إلى الحبشة^(٥). ويشيع بين أهالى الخليل أنه فى غرب قرية بيت كاحل يقع مقام يحمل اسم الشيخ المغازى لا يعرفون عن حقيقته سوى أنه من صحابة الرسول (ﷺ)^(٦). وبالقرب من مسجد اليقين فى بلدة كفر بريك توجد «مغارة بها قبر فاطمة بنت الحسين بن على وبأعلى القبر وأسفله لوحتان من الرخام» فى إحدهما مكتوب عبارات تشير إلى صحة دفن السيدة فاطمة بنت الحسين فى القبر، وفى اللوح الآخر تم تدوين أبيات من الشعر تشير إلى شرف نسل صاحبة القبر^(٧). وفى بلدة ترقوميا يوجد مسجد عتيق فيه مزار يحمل اسم الشيخ قيس،

١ - المقرئى : ضوء السارى فى معرفة خبر نعيم الدارى ، ص ٣٨ .

٢ - مصطفى الدباغ : قبائل فلسطين العربية وشمالها ، ص ١٠١ ؛ بلادنا فلسطين ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ٣٠٣ ، ٢٦٥ .

3 - Anselme Adorno, Loc. Cit .

٤ - ابن حجر العسقلانى : الإصابة فى تمييز الصحابة ، ج ١ ، ص ٣٠٨ .

٥ - ابن حجر العسقلانى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٣٩ . ولمعرفة المزيد عن الصحابة الشهداء فى أجنادين ، راجع : نفس المصدر فى أماكن متفرقة .

٦ - مصطفى الدباغ : بلاد فلسطين ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ١٨٤ .

٧ - ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٧٧ ، فاطمة بنت الحسين : نابتة من رواة الحديث روت عن جدتها فاطمة الزهراء ، وعن أبيها وعن غيرهما ، تزوجها الحسن بن على ثم عبد الله بن عمرو بن عثمان ، راجع : ابن طولون : أعلام الورى ، ج ٥ ، ص ١٣٠ .

يذكر الأهالي أنه صحابي استشهد في صدر الإسلام، والمسجد يتسع لمائتين من المصلين، وقد تم تجديده^(١).

وفي نهاية هذا العرض أماننا كثير من النصوص التي تعبر عن مدى مايكنه معتقو الأديان السماوية من تبجيل وقُدسية لبِقاع الخليل المختلفة وأكتفى هنا بالتنويه إلى نماذج منها ؛ إذ يذكر دانيال الروسى «أن بلاد الخليل هى بلاد الله المرجاة، خصبة ومباركة وليس تحت السماء مكان يعدل هذه البقعة»^(٢)، ومن الجانب الإسلامى يقول ابن شاهين الظاهرى عن بلاد الخليل: «وبهذه الأماكن الشريفة من الفضائل ما تكل عن ضبطه الأقلام وتعجز عن الإحاطة به العقول والأفهام ويفضلها وشرفها يصل لسلطانها الشرف التام ويُفضّل ملكه على سائر ملوك الإسلام»^(٣). وفي الحقيقة لا تخلو هاتان الإشارتان من مبالغة؛ إلا أنهما تعكسان المكانة الرفيعة التي حازتها الخليل.

وفي تقييم شامل لحركة الزيارة لمعتنى الأديان الثلاثة إبان العصر الصليبي في الخليل يتبين أن الأماكن المقدسة في الإقطاعية كان لها أهمية كبرى نظراً لتأثيرها الروحي عليهم، ويدل على ذلك حركة الزيارات الدائبة ، فكثير من هذه الأماكن كان يقدسها الجميع وخاصة الحرم الإبراهيمي، فمنذ القدم حرص اليهود على زيارة بلاد الخليل ، كما كان ذلك هو حال المسيحيين بداية من القرن الرابع الميلادي . وكانت هناك ذكريات خاصة بأهل هاتين الديانتين تتعلق بمعتقداتهم الدينية ، علاوة على أنها أرض المحيا والممات بالنسبة للأنبياء : آدم ، إبراهيم ، إسحاق ، يعقوب ويوسف وداود وزكريا ويحيى ، وقد استند معظم الرحالة الصليبيين في الغالب على الكتاب المقدس أثناء تعرضهم بالحديث عن الأنبياء والقديسين وما يتعلق بهم ، والملاحظ أن بعض الكتابات الإسلامية قد استندت أيضاً إلى الإسرائيليات في هذا الصدد .

أما عن حركة الحج المسيحي عصر الحروب الصليبية فقد شهدت ازدهاراً كبيراً بطبيعة الحال، فما من أحد من الأوربيين أو غيرهم من المسيحيين تقريباً ارتحل إلى الأراضي المقدسة في فلسطين، إلا وقد حرص على أن تشمل زيارته المعالم الدينية بأرض الخليل، أو بالإشارة إليها في كتاباته، وخاصة قد اختلطت حركة الحج بالحركة

١ - مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ٢٥٦ .

2 - Daniel the Russian, Op. Cit., p. 44 .

٣ - ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف المالك ، ص ١٧ .

الصليبية ، وفى كثير من الأحوال أصبحتا صنوين لا فرق بينهما . والجدير بالذكر أن زيارة الخليل وحرمتها بما يضم من قبور الأنبياء قد عانت من بعض المعوقات ؛ وذلك لوقوع المدينة خارج نطاق رحلات الحج الكبرى حيث القدس والناصره ، الأمر الذى جعلها معزولة إلى حد ما ، علاوة على أن الوصول إليهما كان محاطاً بالأخطار، ولذا اجتذبت المدينة بالدرجة الأولى السكان المحليين سواء كانوا مسلمين أو لاتين أو مسيحيين شرقيين ، بالإضافة إلى بعض الجماعات من الحجيج والزوار القادمين من مناطق بعيدة ، وقد فرضت ظروف الأمن أن يقدموا فى أعداد كبيرة وحماية قوية ، وذلك خاصة فى المناسبات والأعياد . وفى كثير من رحلات الرحالة الصليبيين المدونة لاحظ الباحث أن الأماكن المقدسة فى الخليل لم تحظ بقسط كاف من الكتابة ، إذ كانت الإشارة إليها مجرد استكمال كتابة الدليل أو الروايات عن الأراضى المقدسة دون أن يضطر أصحابها إلى زيارة مقدساتها فعلا، وكان هؤلاء بطبيعة الحال من رجال الدين المسيحي ، ومن هؤلاء جوهانس فوقاس .

على أية حال ظلت مدينة الخليل والأرض المباركة محط أنظار كثير من الحجاج على مر القرون، وما من شك فى أن الحركة الصليبية قد أعطت دفعة قوية لزيارة هؤلاء، فنزائدت أعدادهم وزخرت المكتبات بمؤلفاتهم، وإذا ما استبعدنا الحج إلى القدس الذى يستأثر باهتمام كل وافد نجد الخليل وحرمتها من أهم المناطق التى يتوق الحجاج الأوربي إلى زيارتها^(١). وعادة ما كان الحاج يصل إلى القدس أولا، وحينما يختار الاتجاه إلى الخليل فعليه المرور ببيت لحم، ثم طريق غير آمن يمر بحلحول وبيت صور ورامه الخليل ، فالخليل، ويبلغ طوله سبعة وثلاثين كيلو مترا ، ويتفرع منه الطريق المؤدى إلى نقوع والبحر الميت . والجدير بالذكر أن زعزعة الأمن على الطريق الرئيسى إلى الخليل ترجع لسببين: الجهاد والمقاومة الإسلامية ضد الصليبيين، والأخطار التى يسببها قطاع الطرق . وقد ظلت مشكلة الأمن هذه تقلق كلا من الزوار الصليبيين وحكامهم ، ومن الرحالة الصليبيين الذين سجلوا معاناتهم والمشاكل التى واجهتهم أثناء الرحلة إلى الخليل سابولف ودايال الروسى، وكذلك الزائر اليهودى يعقوب ناتانيل هاكوهين الذى أكد على أنه واجه صعوبات شديدة خلال تجواله^(٢) . والواضح أن مشكلة

1 - Riley Smith, J, The crusades : A short History , London 1987 , p. 42

2 - Saewulf , Pilgrimage to Jerusalem and the Holy land, pp. 44 - 49 , Daniel the Russian , Op. Cit., pp. 45 - 49, Jacob Ben R. Nathnll Ha - calten, Op. Cit., pp. 92 - 93

وعن الطرق التى استخدمها الزوار للانتقال بين مزارات بلاد الخليل ، راجع : خريطة رقم (٣) .

قطاع الطرق ظلت قائمة تهدد الطريق إلى الخليل حتى بعد استرداد المسلمين لها، بحيث اضطر أولو الأمر إلى أن يضعوا عددًا من الحراس على رأس كل مجموعة زوار من المسيحيين أو اليهود لحمايتهم ، وكان الحراس يطلبون منهم سرعة الحركة لدواعي الأمن^(١). ولم تكن مجموعات الزوار من المسلمين بمنأى عن ذات الخطر ، ولذا ظهرت وظيفة «الصاحب» الذى أوكلت إليه حماية الزوار من شتى الأديان ، وكان يباشر عمله بتفوق على رأس مجموعة من المسلحين^(٢).

وبعد التعرف على الظروف المحيطة بعنصر الأمن على الطريق إلى الخليل لنا أن نحدد معالمه والمرارات الصليبية الهامة الواقعة عليه . ويشير ألبرت ديكس أثناء التعرض لرحلة إياب جيش بلدوين الأول من مصر حاملين جثمان ملكهم عام ١١١٨م/ ٥١١ هـ بأنهم سلكوا طريق الحج الصاعد وحدده بأنه الطريق القادم من بئر سبع إلى الخليل فبيت لحم متجهًا لبيت المقدس^(٣)، وبعد ما تأصلت حركة الحججاج الزائرين إلى بقاع الخليل المقدسة وخاصة بعد اكتشاف مغارة الأنبياء وإقامة المزيد من الكنائس والأديرة ظهرت المزارات المسيحية فى سلسلة لم تقطع فى اتجاهين ، إذ يخرج الزائر الصليبي من القدس إلى كنيسة المهد فى بيت لحم وقبر السيدة رحيل Rhssel (الزوجة الأخرى ليعقوب عليه السلام) فيمر الزائر الأوربي ببيت صور والصحراء التى أقام بها يوحنا المعمدان على يمينه مشهد يونس (عليه السلام) فى حلحول ثم مشهد أبيه متى فى بيت أوه ثم عين الدورا .

ويختار الزائر الصليبي بعد ذلك بين أن يستكمل رحلته إلى الخليل أو أن يتجه إلى تقوع ، ومن الطبيعي أن يفضل الذهاب أولاً إلى رامة الخليل حيث شجرة عمري ويتفقد الأماكن المباركة فيها حيث بئر إبراهيم وبئر سارة ، وما يلبث الزائر أن يقرر الذهاب إلى أهم بقاع المنطقة حيث الحرم الإبراهيمي ويدخل إليه ليجتمع بإخبرائه المسيحيين فى كنيسة سانت أبراهام ، لتأدية بعض الطقوس والصلوات ، ثم يتجه الزائر إلى دير الأربعين وإلى مشهد يوسف النجار ، ومن هناك قد يقرر الراغب فى استكمال

1 - Anselme Adorno, Itineraire, pp. 249 - 251, Meshullam Ben R. Menahem of Volterra, Op. Cit., p. 187.

٢ - أبو بكر الحموى - ثمرات الأوراق ، ص ٣١٧

3 - Albert d'Aix , Op. Cit ., p. 708 .

رحلته فى بلاد الخليل أن يتجه إلى الطريق المؤدى إلى يطة حيث الكنيسة المقامة هناك مهد يوحنا المعمدان ومحط الأسرة المقدسة ، فيستكمل طريقه إلى بيت جبرين حيث الدير والكنيسة اللتين أقيمتا تخليداً لذكرى مذبح إبراهيم ، كما كانت بيت جبرين تمثل بالنسبة للزوار الصليبيين بئر سبع التى ارتبطت بذكرى أبى الأنبياء . أما الزائر الذى يختار التوجه إلى تقوع فكان يلفت نظره الأديرة المقامة بها ، ثم يتجه إلى عين جدى وكنيستها ، وهناك يترأى البحر الميت لناظره بما يحمل من ذكريات تثير الشجون والكآبة والاعتبار مما وقع لهؤلاء القوم الآثمين ، وتنقضى رحلة الزائر بالوصول إلى بلدة صغر حيث قبر لوط (عليه السلام) ومغارة ابتيه وكذلك التمثال الملحي لامرأة لوط (عليه السلام)، الذى كان لا يزال شاخصاً للأعين عند شاطئ البحر وأطلال الأديرة القديمة ، ويتفق الزائر اليهودى مع الزائر الصليبي فى الاهتمام بالتوجه إلى معظم البقاع التى زارها .

أما عن حركة الزيارة الإسلامية إبان الوجود الصليبي ، فهناك ما يدل على استمرارها ، ويُستدل على ذلك من إشارات وردت بالمصادر المختلفة ، حيث ذكر ابن القلانسي أن خبر ظهور قبور الأنبياء تواتر إليه من خلال المسافرين القادمين من بيت المقدس ، كما تمكن أسامة بن منقذ من زيارة المدينة المقدسة ولم يشير إلى أن رحلته قد شملت زيارة الخليل ، كذلك قام الهروى بزيارة كل من الخليل وبيت المقدس . وعلاوة على ذلك فلدينا الإشارات الدالة على أن الصليبيين كانوا يفرضون إتاحة على المسلمين الزائرين للخليل - كما سلف ذكره - ولما كان أسامة يخرج من عسقلان أثناء توجهه إلى بيت المقدس ، فمن الطبيعى أن تكون الخليل إحدى المحطات التى توقف فيها هذا الأمير المسلم . ولا يعنينا من ذلك إلا أن هذه الإشارات تعد دليلاً على أن المسلمين كانت لديهم الفرصة فى زيارة الأماكن المقدسة فى بلاد الخليل وغيرها بل والصلاة فيها^(١) ، طالما توافرت لدى الزائر الإمكانات اللازمة للسفر والترحال وخاصة الأموال وربما العلاقات الشخصية التى تربطه ببعض الشخصيات الفرنجية وحينئذ تعمل على تيسير الرحلة بالنسبة لهم . وفضلاً عن ذلك يعتقد أن الفرصة قد أتحت للزيارة أمام التجار ، علاوة على الأهالى الذين تأصلت فيهم عادة التوجه إلى المزارات .

١ - أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٣٤ ، ١٣٩ .

وتختلف رحلة الزائر المسلم بشكل واضح عن أصحاب الديانات الأخرى ،
 فحينما ينوى الاتجاه إلى الخليل بعد زيارته للمسجد الأقصى يعرج على حلحول لزيارة
 ضريحى النبی یونس وأبيه متى ، ثم يتجه رأساً إلى الحرم الإبراهيمی ویلقى السلام على
 أصحاب المشاهد إذا ما تيسر له الوصول إليها ، ثم يتجه إما لزيارة ضريحى زكريا
 ويحيى (عليهم السلام) فى يطة وأضرحة الصحابة فى بيت جبرين ، أو إلى كفر بريك
 حيث قبر لوط (عليه السلام) ، ومنها إلى مسجد اليقين وضريح فاطمة بنت الحسين
 (رضى الله عنها) . وهكذا يشكل الحرم الإبراهيمی القاسم المشترك بين معتقى الديانات
 السماوية الثلاث فى الزيارة ، وكذلك اتفقوا فى إظهار الاهتمام بقبرى يونس (عليه
 السلام) فى حلحول ولوط (عليه السلام) مع التباين فى تحديد موقع قبره .

وماذا عن الظروف المحيطة بالآماكن المقدسة ببلاد الخليل والزيارة إليها بعد أن
 عادت إلى السيادة الإسلامية وخروجها عن حوزة الصليبيين؟ ، فى الواقع شهدت زيارة
 بلاد الخليل انتعاشاً كبيراً بعد فتح صلاح الدين لها عام ١١٨٧م / ٥٨٣ هـ ولما ارتبطت
 زيارة الخليل بالحج إلى الحجاز فقد وصلت أعداد كبيرة لزيارة الخليل من مسلمى الشام
 الذاهبين لأداء فريضة الحج هذا العام ، وكان أمير الحج الأمير ابن المقدم أكبر الأمراء
 الصلاحية الذى طلب من صلاح الدين أن يأذن له بأن يحج ويحرم من القدس وزيارة
 الخليل فأذن له ، كذلك وفدت جماعات من المسلمين إلى الخليل فى بدء رحلة حجهم
 على مر الأعوام^(٣) ، وهكذا عبر المسلمون عن ابتهاجهم بفتح القدس والخليل وتواصلت
 زيارتهم بأعداد كبيرة فى أوقات غير منتظمة من أماكن شتى بعد أن كانت قاصرة أساساً
 على مسلمى المنطقة .

وواكب الاهتمام الشعبى بزيارة بلاد الخليل اهتمام صلاح الدين الأيوبي نفسه ،
 ذلك أنه بعد فتح المدينة وفى عام ١١٩١م / ٥٨٧ هـ أمر بنقل منبر فى غاية الفخامة
 من القاهرة إلى المسجد الإبراهيمى تبركاً وإعزازاً بالفتح^(٢) ، وهو المنبر الذى كان قد أقامه
 بدر الجمالى وزير مصر الفاطمية قبل قرن واحد من الزمن فى مقام الحسين (رضى الله
 عنه) فى عسقلان وتم نقله إلى مسجده بالقاهرة . مع رأس الحسين (رضى الله عنه) قبيل

١ - العماد الأصفهاني : البرق الشامى ، ج ٥ ، ص ٧٥ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥٥٩ .

٢ - العليمى : الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٢٨٧ ، ج ٢ ، ص ٦٠٥ ، وحول الكتابات الإسلامية المحفورة بالذهب على المنبر . راجع :

Vincent , Machay , Abele , P. 222 . Cart 85 .

استيلاء الفرنج على المدينة ١١٥٣م / ٥٤٨ هـ^(١)، كذلك يمكن تفسير تعيين صلاح الدين لعلم الدين قيسر في عام ١١٩٢م / ٥٨٨ هـ . والياً على الجزء الجنوبي من فلسطين شاملاً الخليل^(٢) بأنه كان يرغب في تنظيم أمور تلك الجهات ، علاوة على قيامه بحماية أفواج الزوار من الاعتداءات الفرنجية .

وفي المرحلة التالية أولى الحكام المسلمون الخليل بالاهتمام رغم وقوعها آنذاك في منطقة الاحتكاك العسكري مع الصليبيين ، وفيما يختص بالشئون الدينية نجد أن السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى قام بتعيين علاء الدين أيدغدى الأعمى في وظيفة ناظر الحرمين الشريفين الذى ارتقى كثيراً بشئون الخليل، والمقصود بالحرمين الشريفين هنا المسجد الأقصى بالقدس والحرم الإبراهيمى بالخليل ، ومما ينسب إلى هذا الأمير اهتمامه بتطوير ضيافة الخليل وإدارته لكافة الأنشطة الدينية والاجتماعية المتعلقة بالحرم الإبراهيمى طيلة فترة توليه هذا المنصب ١٢٦٣ - ١٢٩٤م / ٦٦١ - ٦٩٣ هـ^(٣) . ومن ناحية أخرى خضع القضاء فى كل من بيت المقدس والخليل لسلطة واحدة عرف واليها بلقب «قاضى القدس والخليل»^(٤)، وهكذا جمعت القدسى ووحدة الإدارة بين المدينتين . ولعل تلك النبذة تبرهن على أن الخليل واصلت نموها وتطورها بشكل مطرد على يد المسلمين استكمالاً لما بدأه الصليبيون، وكان القاسم المشترك بين العصرين هو ما حظيت به المدينة من قدسية .

أما عن الأسلوب الذى انتهجه حكام المسلمين فى تعاملهم مع زوار الخليل من الصليبيين، فقد حدد صلاح الدين الأيوبي ملامحه منذ البداية، فنظراً لارتباط الظروف

١ - ابن مير : أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٣٨ ؛ المفريزى : انعاظ الحنفا ، ج ٣ ، ص ٢٢ .

٢ - ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤١ ، العليمى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٠٥ .

٣ - العليمى : نفسه . هو الأمير الكبير : علاء الدين الأعمى أيدغرى بن عبد الله الصالحى النجمى ، كان من أكابر الأمراء فلما أضر أقام بالقدس الشريف وولى نظره فعمره ، وكان مهيباً لا يخالف . وله كثير من الأعمال العمرانية « وكان يباشر الأمور بنفسه وله حرمة وافرة » توفى فى أغسطس ١٢٩٤م / شوال ٦٩٣ هـ . راجع : ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٣٧ .

٤ - ابن قاضى شعبة : تاريخ بن قاضى شعبة تحقيق عدنان درويش ، دمشق ٩٧٧م ، ج ١ ، ص ٧٧ ، ١٥٩ . وقد استقل القضاء فى الخليل بتعيين والٍ خاص به فى أواسط القرن الرابع عشر الميلادى / الثامن الهجرى يدعى عباس بن عبد المؤمن العفرماوى الحارمى ، انظر : ابن حجر العسقلانى : أبناء الغمر بأبناء العمر . تحقيق محمد أحمد دهان ، دمشق ١٣٩٩ هـ ، ج ١ ، ص ٣١٣ .

بشكل وثيق بين الحرمين الأقصى والإبراهيمي يصح الاعتقاد في أن ما اتبع بخصوص بيت المقدس يكون قد طُبّق بالنسبة للخليل، وقد سمع صلاح الدين للإفرنج كافة بزيارة بيت المقدس وقال قولته الماثورة : « إذا جاءوا لزيارة كنيستهم ما يليق بنا ردّهم »، وتم الاتفاق على هذا في معاهدة الرملة في الأول من سبتمبر ١١٩٢م. / العشرين من شعبان ٥٨٨ هـ^(١). ويرى العليمي أن هذا الإجراء من قبل صلاح الدين كان بدوافع سياسية بغية تخفيف حلق الصليبيين بعد استرداد الأماكن المقدسة، وبذلك يمكن تقوية الفرصة أمام ريتشارد قلب الأسد الذي اهتم بوضع العراقيل أمام زيارة الفرنج لهذه الأماكن بغرض استئثارهم ضد المسلمين^(٢)، والثابت أنه بعد انحسار الدوافع السياسية وراء اتخاذ هذا القرار استمر السماح للصليبيين بالزيارة، وكان كل ما على الفرنجي فعله تقديم رسم دخول مقابل كل زيارة يقوم بها للحرم الإبراهيمي، واستمر هذا الوضع طيلة عصر الأيوبيين في بلاد الخليل^(٣)، وتؤكد الزيارات التي قام بها الرحالة الصليبيون إلى الخليل أثناء ذلك العصر^(٤) روح التسامح التي غلبت على معاملات المسلمين مع الفرنج رغم استمرار حالة الحرب معهم في كثير من الأحيان.

وفيما يتعلق بالنهج الذي اتبعه المسلمون مع الزوار اليهود، فيوضح لنا الزائر اليهودي الربى صموئيل بن شمشون جانباً منه، حيث يذكر أنه حينما قام بزيارة الحرم الإبراهيمي تهيأت أمامه فرصة الهبوط إلى مغارة الدفن بمصاحبة الربى الصباغ اليهودي ابن سعديّة وذلك بعد الحصول على تصريح مختوم من سلطان المسلمين (الخليفة العباسي) حملة أحد الأمراء ورافق اليهوديين أثناء الزيارة، ولولا هذا التصريح ما سمح لهما بالهبوط^(٥). وتكشف الوثائق اليهودية عن شخص هذا الربى وتذكره باسم

١ - العماد الاصفهاني : الفتح القسي ، ص ٦٠٧ - ٦٠٩ . ولعل أهم ما تضمنته الاتفاقية هو أن يحتفظ الصليبيون بوجود لهم يتركز عند الساحل ، في حين تبقى المناطق الداخلية ومنها بيت المقدس والخليل في يد المسلمين ، وأن تشمل الهدنة البر والبحر ، على أن تستمر فترة ، تفاوت المؤرخون المسلمون في تقديرها ، ذكرها الفريق الأول بثلاثة أعوام وثمانية أشهر ، أما الآخر فذكرها بثلاثة أعوام وثلاثة أشهر ، وتم الاتفاق كما ذكر ابن واصل على « فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل » ، ولمعرفة المزيد عن الاتفاقية راجع : ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٨٥ - ٨٦ ؛ ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٠٢ - ٤٠٦ ؛ راجع أيضاً : سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٨٩٦ - ٨٩٩ .

٢ - العليمي : الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٣٤٤ .

٣ - ابن واصل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ ؛ المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٤ .
4 - Jacques de Vitry, The History of Jerusalem, Vol . XI, pp. 106 - 107 , Menestat, Albertus , Op. Cit., P. 5 .

5 - Samuel Ben Samson , Op. Cit., pp. 104 - 105 .

«إبراهيم بن سعدية»^(١)، وأغلب الظن أن صموئيل بن شمشون تمكن من إتمام زيارته بعد تدخل الربى إبراهيم بن سعدية لدى السلطات الإسلامية للحصول على التصريح، ويفهم من هذه الزيارة أنه بعد استرداد المسلمين للخليل اقتصرَت زيارة أهل الذمة على المشاهد العلوية، في حين استلزم هبوط سلم المغارة تصريحاً مختوماً من الخليفة العباسى نفسه، وهذا بدوره يعنى أن المسلمين تعاملوا بروح من التسامح مع أصحاب الديانات الأخرى بشكل لم نره فى معاملة الصليبيين لهم.

ولكن ماذا عن مصير زيارة الصليبيين واليهود للحرم الإبراهيمى ؟ والإجابة يقدمها مدونو المصادر الإسلامية حيث ذكروا أن عز الدين الحلبيّ نائب السلطان ببيرس على مصر زار الخليل فى الفترة الواقعة من أكتوبر - ديسمبر ١٢٦٧م/ صفر - ربيع الآخر ٦٦٦ هـ^(٢) والواضح أن الزيارة كانت بإيعاز من ببيرس بغرض تقصى أوضاع الخليل، ذلك أن السلطان قام فى نفس العام بزيارة الحرم الخليلي بنفسه وقد « بلغه أن اليهود والنصارى ... يؤخذ منهم حقوق عن زيارة الخليل عليه السلام والنزول إلى المغارة بنجسهم، فأنكر ذلك وكتب مرسوماً يمنعهم من دخول المقام الشريف واستمر الأمر على ذلك »^(٣)، ومع ذلك يخبرنا الرحالة الصليبي بركارد أنه تمكن من زيارة الخليل وحرمها حوالى عام ١٢٨٣م / ٦٨٢ هـ^(٤). وعبر الرحالة الصليبي ريكولدو دى مونت - كروتشو عن غضبه بسبب تطبيق هذا القرار حيث منعه المسلمون من الدخول إلى الحرم خلال زيارته للأراضى المقدسة فى تلك الأثناء أو بعدها بسنوات، ولكنه عاود المحاولة فلم يسمح له إلا بالصلاة خارج المبنى^(٥)، كذلك يروى الحاج الأوربي جاك دى فيرونا

1 - Mann, J., the Jews in Egypt and in Palastine under the Fatimid, First Publication, Ox Ford 1922, Vol. 2, P.P. 203 - 204 .

٢ - ببيرس المنصورى : التحفة المملوكية فى الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية - الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م، ص ٦٧؛ اليونى : مرآة الجنان، الطبعة الأولى - حيدر آباد - الهند، ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٠م؛ ج ٢، ص ٣٧٣ .

٣ - ابن الفرات : المصدر السابق، نشر ليون ج ١، ص ١٠٨، راجع أيضاً : المقرئى : السلوك، ج ١، ق ٤ . ص ٥٤٤ .

4 - Burchard of Mount Sion , A description of the Holy Land , p. 35 .

5 - Ricoldo de Monte - Croce , Lettres de - Ricoldo de Monte - Croce , 1280 - 1300, A. D., ed . Rehrich R. in A. O. L., Vol. II - B, Paris 1884 , p. 278 .

حوالى عام ١٣٣٥م / ٧٣٦ هـ مدى إعجابه بأسوار الحرم المبنية بالأحجار وقد أخذت شكل أسوار القلعة الكبيرة ، هذا المبنى المربع الجميل العالى القوى العظيم حيث كان يعيش الفرنج، ثم يضيف القول: «أنه بسبب مآسينا وأخطائنا أصبح المبنى جامعا للمسلمين وهؤلاء لا يسمحوا لأى مسيحي يدخل وإلا حكموا عليه بالقتل»^(١). ويفهم من ذلك أن الصليبيين فقدوا تدريجياً تلك الامتيازات التى كانت تمنحهم حق زيارة الحرم الإبراهيمى، خاصة بعد القضاء على كل وجود لهم فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى.

وبعد هذا العرض الشامل للمزارات والنشاط الدينى فى بلاد الخليل عصر الحروب الصليبية لنا وقفة نتتبع فيها الآثار التى خلفتها تلك الفترة من أفكار وممارسات بين الأهالى ، وقبل الخوض فى هذا الأمر لنا أن ننوه إلى أن تشكيل فكر الأمم أو التأثير فيه وفى تقاليدها يستغرق وقتاً من الزمن غالباً ما يطول ، وعليه فالباحث يسعى جاهداً إلى التحرر عن هذا النوع من المؤثرات الفكرية التى تتعلق فى هذا الموضع بالعقيدة ومدى ما خلفه الصليبيون فى هذا المضمار على المجتمع الإسلامى فى بلاد الخليل ، وكى يتأتى لنا ذلك يجب التعرف على ظاهرة الزيارة وقسدية المزارات فى المنطقة قبيل الغزو الصليبي فغالباً ما كانت الخليل تخضع لحكم الفاطميين الذين أدخلوا على الدين أموراً لم تكن معروفة من قبل . الأمر الذى رفضه المقدسى عندما قال «الأفضل عندى التورع عنه»^(٢)، وكان حينئذ يتحفظ على ظاهرة توزيع طعام العدس بالزيت فى ضيافة الخليل . وكذلك فمن خلال كتابات ناصر خسرو يتضح أن ظاهرة إقامة الاحتفالات وتقديم الأضاحى وزيارة الحرم الإبراهيمى قد أخذت فى التصاعد والتنامي^(٣) فى ظل هذه الدولة ويبدو أنه فى هذه الفترة كانت التجاوزات الشرعية التى درج عليها الأهالى فى حدود تقبلها الفقيه الشيخ ابن الحجاج العبدري - زار الخليل فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى / الثامن الهجرى - حيث اكتفى الأهالى بزيارة الحرم من الخارج^(٤) . أما حينما تولى الصليبيون الإشراف على الحرم الإبراهيمى وحولوه إلى كنيسة مارسوا داخلها كثيراً من الطقوس

1 - Jacques de Verona , Liber peregrin , p. 252 .

٢ - المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٧٣ .

٣ - ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ٣٣ .

٤ - العبدري : المدخل ، ج ٤ ، ص ٢٥٩ ، والجدير بالذكر أن العبدري قام بزيارة الخليل وكانت وفاته فى

عام ١٣٣٧م . / ٧٣٧ هـ وكان له كتب فى الفقه على المذهب المالكي .

والترانيم وأقاموا فيها الاحتفالات الحاشدة بالأهالي ، بل وحياة ديرية اشتملت على أنشطة مختلفة . وبعد خروج الخليل من حوزة الصليبيين أبدى المسلمون شعوباً وحكاماً اهتماماً شديداً بالحرم والمدينة ، وتضاعفت أعداد الزوار وتزايدت معهم مطالبهم والخدمات ، حتى حرص الحكام الأيوبيون على تعيين وال يقوم بخدمة الحرم الإبراهيمي ، كما أولت السلطة المملوكية الحرم رعاية واضحة . وخلال هذين العصرين غدا النشاط الصوفي مسيطراً على الحرم^(١) ، بينما ظلت ضيافة الخليل تقوم بدورها المميز في استقبال الزوار . كذلك ظل الزوار الصليبيون يترددون على الخليل بحرية حتى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري .

وقد لفت تطور قدسية الخليل وتحولها إلى مكان جدير بالزيارة أنظار كثير من علماء الدين المسلمين حيث يتلخص موقف العبدري في ضرورة منع الناس من دخول الحرم الإبراهيمي ، وحثه في ذلك أن مكان المقابر الأصلية غير معلوم بالتحديد في الخليل ، فكما رأى أن الفرنج قد بنوا تلك المشاهد ولذلك يجب على المسلم الورع أن يتأسى بالأجيال السابقة ويزور الحرم من الخارج فقط . وأبدى نفس الرحالة غضبه من الموسيقيين الذين اعتادوا أن يعزفوا على البوق والطبله وألات أخرى بعد صلاة العصر «نوبة الليل» ويجلبوا الناس ليرقصوا ويمرحوا، وهذا كله يعتبر «إثمًا شنيعًا ومنكرًا» . كذلك اعترض العبدري على الوجبات اليومية من الخبز والعسل التي تقدمها ضيافة الخليل ، والتي تعتبر انتهاكاً لقدسية ذكرى إبراهيم (عليه السلام) ، لأنه اعتاد أن يقدم لضيوفه اللحم وليس العسل^(٢) ، وكان العبدري بأرائه تلك قد وضع منهجاً صار عليه أقرانه من رجال الدين خاصة المغاربة يقضى بأن كل الاحتفالات الشعبية التي تطورت حول الحرم بما فيها الضيافة تعد في حكم البدع^(٣) . وقد استند هذا الحكم على حديث الرسول (ﷺ) لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا من قبور أنبيائهم مساجدًا» . وفي المقابل ظهر فريق آخر مثله التدمري خطيب الحرم الإبراهيمي في النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي/ التاسع الهجري ، والعلمي اتفق مع الفريق الأول في ضرورة عدم اتخاذ المقابر كمساجد ولكن يستثنى من ذلك قبر إبراهيم (عليه السلام) على أساس

١ - ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٧٧ ؛ العلمي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢١ ، ٦٠٥ .

٢ - العبدري : المدخل ، ج ٤ ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ ، راجع أيضا : البلوى : تاج الفرق ، ورقة ٣٦٣ .

٣ - البلوى : نفسه ؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، حيدر أباد - الدكن

١٣٥٣ هـ ، ج ٢ ، ص ٤٠ ، ابن قيم الجوزية : إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان ، تحقيق : محمد

سعيد كيلاني ، القاهرة ، ج ١ ، ص ٢١١ / ٢١٤ .

تشابه قدر الحرمين النبوي (فى المدينة المنورة) والإبراهيمى مستندين إلى عدة أحاديث نبوية تظهر ذلك . وأكد هذا الفريق فى مناقشات طويلة صحة وجود مقابر الأنبياء، هذا عدا الروايات المختلفة التى نقلوها تواتراً عن أناس دخلوا المغارة ورأوا رفات الأنبياء التى لم تبلى . وقد حرص هذا الفريق على وصف المكان بالحرم تأكيداً منهم على صفته كمسجد دون أن يكون مجرد مقبرة^(١). وأمام هذين الموقفين من الحرم الإبراهيمى نجد أن أفكار وآراء الفريق الثانى قد عكست الاتجاه العام للشعوب والحكومات الإسلامية مما جعل للخليل مركزاً دينياً إسلامياً بارزاً .

وبعد التعرف على التطورات التى شهدتها زيارة الخليل وما صاحب ذلك من تغيير فى مفاهيم الناس وردود فعلهم يتبين أن الصليبيين نجحوا فى خلال أقل من قرن واحد فى السيطرة على الخليل، وربما من خلال زياراتهم التالفة إليها فى بث بعض الأفكار الغربية بين أهالى الخليل من المسلمين تتعلق بالاحتفالات والطقوس، وبصفة خاصة لاقت هذه الأفكار هوياً لدى الفكر الصوفى^(٢) الإسلامى الذى يهتم فى أحد جوانبه بتكريم الأنبياء وأولياء الله الصالحين وإضفاء هالة من النورانية حولهم، وباتساع دائرة هذه الأفكار انعكس ذلك على الاهتمام بإقامة الأضرحة والعناية بها والحرص على زيارتها، مما دفع الولاة المسلمين فى الخليل إلى إرضاء الشعوب بتأمين الطرق وتزيين وترميم أماكن الزيارة. وأخيراً فمن الشواهد التى تؤكد على انتشار أفكار عقائدية غريبة بين الأهالى احتدام المناقشات والجدل بين علماء المسلمين حول ظاهرة زيارة القبور فى الخليل حتى أضحت تمثل قضية إسلامية عامة .

وفى تقييم عام لهذا الشق من الدراسة نجد أن إقطاعية الخليل الصليبية أدت خلال القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى وظيفة رئيسية خدمت بها المناطق القريبة منها والبعيدة عنها باعتبارها مركزاً دينياً له شأنه بأن وقف الحرم الإبراهيمى بما فيه من قبور للأنبياء (عليهم السلام) رمزاً شامخاً وسط سلسلة من الأماكن المقدسة تضافرت

١ - التدمرى : المصدر السابق ، ص ١٨٣ - ١٨٤ ، ١٨٨ - ١٨٩ ؛ العلبى : المصدر السابق ، ص ٤٢٥ - ٤٢٧ .

٢ - تشير مصادر صليبية وإسلامية إلى أن طائفة الصوفية كان لها نشاط ملحوظ فى الخليل بعد إجلاء الصليبيين عنها ، وتذكر أن الفقهاء والدراويز هم الذين هاجموا بيت المقدس فى عام ١٢٢٩ م / ٦٢٦ هـ ، راجع :

Eracles , Op. Cit ., pp. 183 - 185 .

الحوى : تاريخ المظفرى ، مخطوط .

جميعاً كى تجعل من الخليل المدينة المقدسة الثانية فى بلاد الشام ، وذلك بعد مدينة بيت المقدس ، الأمر الذى شحذ همم معتنقى الأديان الثلاثة فسعوا إليها بالزيارة ، ولا غرو فى ذلك فقد اقترن الحرم بإبراهيم (عليه السلام) أبى الأنبياء ، ولذا فمن الطبيعى أن تحظى المدينة بكل هذا الاهتمام .

ولما أصبحت السيادة فى الخليل للصليبيين نجدهم لم يكتفوا بتمييز عصرهم بإيجاد كيان سياسى مختلف ونظم إدارية جديدة فحسب ، بل حاولوا تأسيس ما يميز عصرهم أيضاً فى مجال الدين ، فعلاوة على الكنائس والأديرة التى تمت إضافتها إلى جوار مثيلاتها من أماكن العبادة للمسيحيين الشرقيين ، وفضلاً عن تلك الكاتدرائية المتميزة التى تم استبدال المسجد الإبراهيمى بها ، أقدم الصليبيون فى الخليل بمساندة من السلطات على عملية كان لها صداها المذوى فى جميع أرجاء العالم المسيحى ألا وهى اكتشاف رفات الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام). ذلك الأمر الذى عاد على الخليل بمكاسب عميمة لم تقتصر على النواحي الروحانية بل امتدت لتشمل الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، ولم يأت هذا وليد الصدفة وإنما - كما ثبت لدينا - قامت الكنيسة باستثمار الحدث فى إحداث ضجة إعلامية ضخمة لم يكن الهدف من ورائها الإغلاء من شأن مدينة الخليل فحسب ، وإنما إضفاء المزيد من القدسية والأهمية على مجمل الأراضى المقدسة فى فلسطين للفت الأنظار ، ويعد حدث إقامة كرسى للأسقفية فى مدينة الخليل ١١٦٨م / ٥٦٣ هـ الذى لم يكن معروفاً فى النظام الكنسى القديم برهاناً على نجاح حملات الدعاية الصليبية .

أبرزت الحركة الصليبية التى شهدت إقطاعية الخليل جانباً منها عدداً من البقاع المقدسة فى الإقطاعية كان اهتمام المسلمين بها ضعيفاً ، لا يكاد يذكر ، وفى أحيان أخرى لم تكن تشكل بالنسبة لهم أهمية دينية . ومن أمثلة ذلك شغل البحر الميت أذهان زواره من الصليبيين واليهود ، والدليل على ذلك ربطهم كل شىء فى البحر بحدث الانتقام الإلهى من قوم لوط (عليه السلام) ، كما أولى الصليبيون قبر لوط اهتماماً واضحاً لم نلمس عند المسلمين نفس القدر من الاهتمام بزيارته ، إلا بداية من العصر الصليبي وبعده ، كذلك اهتم الصليبيون واليهود ببقاع مثل دير الأربعين وبئر إبراهيم وبئر سارة وبئر إسحاق . ولم نجد ما يدل على أن هذه البقاع قد حظيت من قبل باهتمام المسلمين بهم ، وإضافة لهذه الأمثلة فهناك بعض البقاع التى لم يهتم المسلمون بزيارتها فى أى وقت من الأوقات لا قبل ولا أثناء ولا بعد الوجود الصليبي ومنها «شجرة ممرى» و «عين الدور» ومدينة «تقوع» والأديرة ، وهذا أمر طبيعى نظراً لارتباط هذه الأماكن بالعقيدة المسيحية وربما اليهودية أيضاً .

أهم المظاهر الحضارية

في بلاد الخليل

تحت الحكم الصليبي

الفصل الخامس

■ التوزيع والتركييب السكاني في إقطاعية الخليل .

■ أوضاع البدو إبان العصر الصليبي.

■ الحياة الاجتماعية.

■ الحياة الثقافية.

■ نظام ملكية الأرض،

أ. الإقطاع الصليبي.

ب. الأوقاف الإسلامية.

■ الحياة الاقتصادية،

أ. الزراعة وأهم المحاصيل والأشجار المثمرة.

ب. الغابات والرعى.

ج. الصناعة.

د. استخراج الأملاح والقطران وغيرها.

هـ. التجارة وطرقها الدولية والمحلية.

و. الموارد المالية.

■ المظاهر العمرانية،

أ. العمران الصليبي في مدينة الخليل، المدني. الكنسي. العسكري.

ب. العمران في بيت جبرين، المدني. الكنسي. العسكري.

ج. الع. ران في الريف الخليلي.

تم التعرض فى الشق الاول من الدراسة إلى ملامح الحكم الصليبي فى إقطاعية الخليل الصليبية وإلى أى حد وجهت سماتها العامة دفة الحياة السياسية والعسكرية للإقطاعية طيلة القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى تقريباً، فجاء تصنيف هذا الشق فى فصلين فى محاولة لإبراز النواحي المتعلقة بالجوانب السياسية . وانصب الشق الآخر من الدراسة المتألف من فصلين أيضاً على توضيح الكثير من الجوانب الحضارية، شملت الفكر الدينى للصليبيين فى الخليل فى نفس العصر ومدى ما تركه من آثار تجلت فى قيام حركة نشيطة من الزيارة استهدفت العديد من مزارات بلاد الخليل عكست روح العصر ، وقد واكب ذلك انعكاسات شملت جوانب حضارية مختلفة اصطبغت بالدين . ولم يكن من الملائم أن تُخلط المظاهر الحضارية بعضها ببعض، وعليه تم تخصيص هذا القسم من الدراسة وهو الأخير فيها للتعرف على المظاهر الحضارية الأخرى التى يغلب عليها النواحي المادية حتى تكتمل الرؤية وتوضح معالم إقطاعية الخليل الصليبية من جوانبها المختلفة . وأخيراً يجب التنويه إلى أن الدراسة الحضارية القادمة لا تتناول شتى المظاهر وإنما تم التركيز فيها على السمات الحضارية الواضحة فى الإقطاعية التى ساعدتنا الوثائق والمصادر المعاصرة، وكذلك كتب الأثرين والدراسات الحديثة المتاحة على التعرف عليها .

يُعد العنصر البشرى أهم المقومات الحضارية على الإطلاق، نظراً لأنه يعتبر المحرك الحقيقى لكل الظواهر المختلفة، وعلى هذا نسلط بعض الضوء على سكان إقليم الخليل نظراً لأهمية الموضوع. فبصفة عامة تعرضت الأراضى المقدسة أثناء الحملة الصليبية الأولى لموجة من البطش والعنف أجبرت الكثير من الأهالى على الفرار والهجرة إلى البلاد المجاورة فى مصر والشام^(١) ومع ذلك لا يمكن القول بأن عدد السكان فى إقليم الخليل قد انخفض بالحجم الذى انخفض به فى مناطق أخرى مثل القدس^(٢) الأمر الذى دفع الملك بلدوين الأول إلى نقل المسيحيين الشرقيين إلى العاصمة^(٣) بشكل أساسى، ويرى الباحث أن سكان ريف إقطاعية الخليل وباديتها لم يتأثروا بنفس الدرجة التى تأثر بها سكان مدينة الخليل من حيث النزوح عن البلاد، وتشير إحدى الدراسات الحديثة إلى أن مدينة الخليل قد ضمت أثناء الوجود الصليبي بها حوالى خمسة آلاف نسمة، وهى بذلك تعد منافسة لمدينة عكا التى ضمت وفق نفس الدراسة عدداً مماثلاً من السكان،

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٣٩ .

2 - Roehricht, R., Geschichte des konigreichs Jerusalem, . pp. 20 - 21 , 47, Geachichte des Ersten Kreuzzuges , p. 220 .

3 - william of Tyre , OP. Cit., Vol . I, pp. 470 - 472 .

وفضلاً عن ذلك تعد الخليل عاشر كبريات المدن في بلاد الشام قاطبة في عصر الحروب الصليبية، وسادسة المدن الشامية التي وقعت في يد الصليبيين^(١).

وتوزيع السكان في بلاد الخليل ارتبط إلى حد كبير بتوزيع موارد المياه فقد كان نقصها يعد أصعب المشاكل التي تحد من الاستقرار في المنطقة، فهناك حوالي اثنتا عشرة قرية مقامة على هضبة بلاد الخليل وحوافيها الثلاث، حافظت على وجودها منذ العصور الوسطى حتى الوقت الحاضر، في حين اندثرت قرى أخرى كانت في الجزء الجنوبي الشرقي من بلاد الخليل^(٢)، ومن أهم هذه القرى الزيف التي كانت مكتظة بالسكان وهي في جنوب الخليل^(٣) وكذلك قريتا السموع وصُغر اللتان كانتا تعدان قاعدتان لانطلاق الجيش الصليبي نحو شرقي الأردن^(٤) وفيما عدا تلك البقاع فتكاد تكون كل المنطقة الجنوبية من إقطاعية الخليل الصليبية مهجورة من السكان^(٥)، والواضح أن ذلك لم يكن بفعل العوامل الجغرافية فقط، وإنما بسبب المعارك المستمرة على الجبهة المصرية.

ولا شك أن تحديد ملامح البناء الاجتماعي بدقة في إقطاعية الخليل الصليبية يعد من الأمور الصعبة، ونظراً لاختلاط العناصر واختلاف الأديان والأجناس وتباين أنماط النشاط الاقتصادي للسكان. وبداية فإذا ما صنف التركيب السكاني في بلاد الخليل اعتماداً على تعدد العناصر المكونة للمجتمع نجد أنه عندما استولى جود فرى دي بوايون على مدينة الخليل وأتم بلدوين الأول ضم باقي الإقليم حدث خلل ملحوظ برحيل الكثير من الأهالي المسلمين وحلول العنصر الفرنجي بأعداد أقل بدلاً منهم^(٦) ومع ذلك ظل معظم سكانه خليطاً من العرب والعجم والمغاربة؛ فالعرب أقاموا في بلاد الخليل منذ

1 - Russell, J. C., The Population of the crusader States, in : Setton, Vol V, 1985, p.405.

وتضيف الدراسة أيضاً مع بداية الحروب الصليبية كانت أعداد سكان المدن بالآلاف على النحو التالي: أنطاكية ٤٠٠٦، الرها ٢٤، القدس ١٠، طرابلس ٨، غزه ٦١، الخليل ٥٦ وبالطبع فإن كل هذه التقديرات تقريبية ولعلها تعطى إشارة عن أوضاع هذه المدن السكانية عصر الحروب الصليبية، انظر :

1. bid, pp. 298, 308 .

2 - Kormon, y., Op. cit., pp. 72 - 73 .

٣ - المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٦٦ .

٤ - ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك ، ص ٧٢ - ٧٣ .

Beyer . G., Z. D . P.V, LXV . p. 188 .

5 - Prawer , J., The latim Kingdom , P. 355

٦ - ابن ميسر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨ ؛ المفريزي : اتعاظ الخفا ، ج ٢ ، ص ٢٥

القدم ، أما بالنسبة للعجم فقد انتشرت أعداد منهم فى بلاد الشام ومنها فلسطين بعد نجاح العباسيين فى تأسيس دولتهم اعتماداً على الفرس ، أما الأتراك السلاجقة فقد استقروا فى فلسطين أثناء تبعيتها للحكم العباسى ، وقد ازدادت أعدادهم عندما استولى الأتراك السلاجقة على البلاد فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى / النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، فى حين استوطن المغاربة أخيراً فى بلاد الخليل وغيرها من بلاد فلسطين بداية من الحكم الفاطمى فى المنطقة^(١) . ومن ثم بقيت فئات عريضة من هذا المجتمع المسلم فى بلاد الخليل تحت سيادة الفرنج .

ووفقاً لما أورده المصادر المعاصرة للوجود الصليبي فى الخليل فنحاول إلقاء بعض الضوء على أعداد المسلمين داخل الإقطاعية حيث ذكر المؤرخ الصليبي إرنول أنه حينما قام ملك أرمينيا توروس Thoros بزيارة مملكة بيت المقدس عام ١١٦٥م / ٥٦٠ هـ تقريباً لفت نظره أن المسلمين كانوا يقيمون فى جميع قرى المملكة الفرنجية ، كما لاحظ الرحالة المسلم ابن جبير سنة ١١٨٤م / ٥٨٠ هـ هذه الظاهرة وسجلها حينما مرّ بريف إمارة الخليل الصليبية^(٢) . ورغم أن إشارة ابن جبير لم تخص الوضع السكاني القائم فى بلاد الخليل إلا أنها تركت انطباعاً بغلبة السكان المسلمين على غيرهم داخل مملكة بيت المقدس بصفة عامة ، أما ملحوظة الملك توروس التى نقلها لنا المؤرخ إرنول فتعد قوية فى تعميق هذا الانطباع؛ نظراً لأنها شملت مجمل الريف داخل المملكة اللاتينية بما فيه ريف الخليل ، ولم تقتصر المعلومات التى قدمها الملك على ذلك ، بل يمكن أن نستخلص أيضاً من باقى روايته إحصائية بأعداد المسلمين، إذ يذكر أن ملك أرمينيا المذكور عرض على عمورى الأول ملك بيت المقدس أثناء زيارته أن يطرد الفلاحين المسلمين من مملكته واستبدلهم بثلاثين ألفاً من محاربى أرمينيا الجديرين بالثقة الذين يصطحبون معهم أسرهم ليعمروا البلاد ويقوموا بمهمه الدفاع عنها^(٣) . وإذا ما وضعنا فى الحسبان أن ماكان يدور فى خلد الملك توروس هو استبدال أعداد من المسلمين بأعداد أخرى مماثلة من الأرمن فيعتقد أن أعداد المسلمين داخل مملكة بيت المقدس تجاوزت الثلاثين ألفاً^(٤) ، ومع الإشارات المتكررة فى المصادر على قيام البدو بكثير من أوجه الأنشطة الاقتصادية

(١) العليمى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٧ ، ٦٠٤ - ٦٠٥ راجع أيضاً : سعيد البشاوى : الملكات الكنسية ، ص ٣٦٧ .

2 - Ernoul , La Chronique , p. 28 .

ابن جبير : الرحلة ، ص ٢١ .

3 - Ernoul , Op. Cit ., pp. 28 - 29 .

٤ - إن التقدير الحر (الإحصاء غير الرسمى) المبني على الافتراضات لعدد سكان مملكة بيت المقدس فى أوج زيادة فى تعدادها خلال السنوات الأخيرة قبل سقوطها فى عام ١١٨٧م / ٥٨٣ هـ . تشير إلى أن عدد الفرنج بقدر فيما يتراوح بين مائة ومائة وعشرين ألفاً ، أما باقى فئات المجتمع من المسلمين وغيرهم فيتراوح تقديرهم بين ثلاثمائة ألف وثلاثمائة وستين ألفاً . راجع .

Prawer, J., Historie du Royaume Latin de Jerusalem, Vol. I, pp. 568 - 572 .

فى بلاد الخليل^(١). فلنا أن نقر بأن المسلمين شكلوا أغلبية سكانية داخل إقطاعية الخليل مع الأخذ فى الاعتبار صعوبة الوصول إلى إحصائيات محددة فى هذا العصر واستحالة التعرف على واقع أعداد البدو الرحل داخل البرارى والصحراء بدقة.

أما عن العنصر الفرنجى فى إقطاعية الخليل فقد وفد إلى الأراضى المقدسة فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى/الخامس الهجرى عدد كبير من الأوربيين الذين انضموا إلى الحملة الصليبية الأولى، وكان معظم هؤلاء من فرسان فرنسا وإيطاليا، كما أنهم كانوا ينتمون إلى مدن ومقاطعات مختلفة فى الغرب الأوروبى، وقد انبهروا بما وجدوه فى الشرق حتى أنهم نسوا البلاد التى انحدروا منها فى الغرب^(٢). وأصبح الفرنج أصحاب السطوة، وقد كانت لهم مكانتهم الخاصة، واستقرت أوضاعهم بشكل عام مع الطبقة الإقطاعية التى تكونت من خلالهم (وهى إحدى خصائص إقطاعية الخليل الصليبية)، فعلى الرغم من الاختلاف فى المكانة بين سائر الفرنج والنبلاء فإنهم ينتمون إلى أصل واحد، وهو أنهم من الفرنج ولهم المكانة العليا عن سائر السكان الأصليين، وللسكان من الفرنج أن يشتروا وأن يمتلكوا من العقارات فى المدن والقرى وكان الطريق مفتوحاً أمام الفرنجى العادى إلى أن يصل لرتبة فارس وهى التى تلى النبيل فى السلم الإقطاعى^(٣).

أما العنصر السكانى التالى بعد كل من المسلمين والفرنج فيتمثل فى السريان إذ تشير المصادر إلى أن العنصر السريانى قد اشتهر بشكل ملحوظ فى تكوين المجتمع هناك حيث يذكر دانيال الروسى أنهم كانوا يمثلون نصف سكان إحدى القرى الكبيرة المشرفة على برية الخليل^(٤) أما ألبرت ديكس فيشير إلى وجود تجمعات سكانية سريانية بالقرب من البحر الميت أثناء روايته لأحداث انضمام أحد رهبانهم ويدعى ثيودور إلى الملك بلدوين الأول خلال حملته عام ١١٠٧م/٥٠١هـ من أجل الإغارة على مناطق شرقى الأردن عند وادى موسى ونقل ما بها من سريان إلى المملكة^(٥)، والواضح أن هؤلاء كانوا يشكلون الدفعة الأولى بينهم، إذ يشير وليم الصورى إلى أن اجتياح المسلمين لإمارة الجليل الصليبية خلال أحداث معركة الصنبرة ١١١٣م/٥٠٧هـ أدى إلى كشف نقطة ضعف المملكة الصليبية، وتمثلت فى قلة أعداد السكان فيها فسعى الملك بلدوين الأول إلى نقل أعداد أخرى من السريان من وراء الأردن لتعمير بلاده والعمل بها^(٦).

(١) راجع ما سيرد فى هذا الفصل عن دور البدو فى اقتصاد الخليل ص ٢ .

2 - Fulcher of Chortres , Op . Cit ., p. 271 .

3 - Prawer , J., The Latin Kingdom , p. 25 .

4 - Daniel the Russian , Op - Cit ., p. 45 .

5 - Albert d'Aix , Op . Cit ., p. 644 .

6 - William of Tyre , Op. Cit ., Val I, pp . 507 - 508 .

ويحدد فيتلس مواطن السريان الأساسية ببلدتي صغر وعين جدى والمناطق المجاورة لهما عند جنوبى البحر، وقد أكد فوشيه دى شارتر ذلك بالإشارة إلى وجود السريان جنباً إلى جنب مع العرب فى جهات جنوب هضبة القيسيين بالإضافة إلى ما ذكر من أماكن^(١). وفضلاً عن ذلك يذكر مارتن اليعقوبى أن السريان اليعاقبة كانوا يحوزون قرى بأكملها حول بيت جبرين قبيل الغزو الفرنجى وأثنائه^(٢).

ظل العنصر السريانى يشار إليه فى الوثائق طيلة الفترة التالية ؛ ففى وثيقة السادس والعشرين من يوليو ١١٦٠م/ الخامس والعشرين من رجب ٥٥٥ هـ منح الملك بلدوين الثالث السريان عدداً من القرى تقع جنوبى المملكة الصليبية منها دير ميسون Dair Mysson^(٣)، كما ذكرت إحدى الوثائق لعام ١١٦١م/ ٥٥٦ هـ أنهم كانوا يقطنون قرية بيت جالة^(٤) (الواقعة على الاطراف الشمالية لإقطاعية الخليل) وقرية بيت صور - التى كانت قد اقتطعت من الإقطاعية - فى وثيقة ١١٦٣م/ ٥٥٨ هـ^(٥)، وأشارت الوثائق أيضاً إلى طائفة اليعاقبة من المسيحيين المحليين وذكرت وجودهم فى قرية ترقوميا فى عام ١١٧١م/ ٥٦٦ هـ^(٦) كما أشارت الوثائق. وكذلك الدراسات المتخصصة إلى وجود أعداد كبيرة من الأرثوذكس السريان بجانب الفرنج فى بيت جبرين^(٧)، وبعد سقوط بلاد الخليل فى يد صلاح الدين عام ١١٨٧م/ ٥٨٣ هـ ظل المسيحيون الشرقيون يقطنون جنباً إلى جنب مع المسلمين فى شتى أرجاء الأراضى المقدسة^(٨). وبذلك يصبح من الثابت أن الخريطة السكانية لم تتغير كثيراً فى بلاد الخليل بعد استعادتها من أيدي الصليبيين، إلا فيما يخص العنصر الفرنجى.

ورغم أن اليهودية ديانة سماوية إلا أنه يمكن تصنيف معتنقيها على أساس عنصرى ، وتشير مصادرهم إلى أن أعدادهم كانت قليلة بصفة عامة فى الأراضى المقدسة^(٩)، وكذلك الحال بالنسبة للخليل إذ كانوا يعملون بحرفة الصباغة ويشهد على

1 - Fetellus , Op . Cit . , p. 12 , Fulcher of Chartres , Op. Cit . , pp. 143 - 146 .

2 - Martin, Appe , Op . Cit . , p. 65 .

3 - Bresc - Bantier, G., Le Cart . du Chap., Doc. No . 45 , pp. 123 - 126 .

4 - Roehricht, R., Regesta , Vol . I, Doc . No. 253 .

5 - Ibid., Doc. No, 353 .

6 - Ibid ., Doc. No, 488 .

7 - Delaville Le Roulx , C. G. O. H., Vol I, p. 443, Prawer, J ., Colonisation Activeties, p. 1089 .

8 - Burchard of Mount Sion , Op . Cit . , p. 28 .

٩ - بنيامين التطيلي : المصدر السابق ، صفحات متفرقة ، راجع أيضاً .

Conder , C., The Latin Kingdon , p. 243 .

ذلك وجود أحد الصباغين اليهود، ذائع الصيت ويدعى يوسف بن سعدية^(١) وكذلك صناعة الزجاج، وأحياناً بالزراعة. واختلف باحثان حديثان فى تقدير أعدادهم فى المناطق الخاضعة للصليبيين فى بلاد الشام بصفة عامة فالأول يذكر أن عددهم بلغ ألفاً ومائتى أسرة بينما يقدرهم الآخر بألف وتسعمائة نسمة تقريباً^(٢) ليس من بينهم أى من الأغنياء، وكان الصليبيون لا يرحبون بسكنى اليهود بين ظهرانيهم فى حين كانت أوضاعهم على العكس من ذلك بين المسلمين، حيث ظهر منهم كثير من الأغنياء والعلماء^(٣) وكان ترتيبهم فى السلم الطبقي الاجتماعي يأتى بعد طبقة المسلمين، وقد كانت سكنى اليهود فى الخليل تتميز بتجمعهم فى حارة عرفت باسمهم شأنهم فى ذلك شأن يهود بيت المقدس^(٤). ووفقاً لقوانين المملكة اللاتينية فقد منع اليهود من امتلاك الأراضى الزراعية؛ ولذا عملوا فيها كإجراء^(٥). وهكذا كانت أوضاع اليهود متدهورة فى ظل الحكم الصليبي، ويلاحظ الباحث أنهم ظلوا على هذه الحالة مدة الوجود الصليبي فى الخليل وباقى بلاد فلسطين رغم دواعى الهجرة إلى الأراضى المقدسة بغرض إقامة مجتمع يهودى هناك، تلك الفكرة التى نادى بها أحد رببى اليهود فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى^(٦).

وإذا ما حاولنا التعرف على التركيب السكانى فى إقطاعية الخليل من خلال نشاط السكان الاقتصادى والحرف السائدة بينهم، فنخلص فى هذا الصدد إلى بعض الحقائق، وهى أن المجتمع فى الإقطاعية كان يتألف من ثلاث فئات: البدو الذين يعمل معظمهم بالرعى، والفلاحين الذين استقروا فى أرضهم لفلاحتها، وأهل الحضر، والثابت أن سكان مدينة الخليل كانوا يندرجون تحت التصنيف الأخير، وأن قطاعاً منهم كانوا ينتسبون إلى بيت تميم الدارى (رضى الله عنه)^(٧) وما يجدر ذكره أن ترتيب فئات الحرف المذكورة قد رُتبت اعتماداً على عدد الذين يعملون بها تقريباً، وقد تم وضع ذلك التصنيف من خلال المعلومات الجغرافية والتاريخية الوارد ذكرها على طول الدراسة.

وبعد التعرض للتركيب السكانى على أسس مختلفة بين عنصرية وطائفية وحرفية، يجدر تسليط الأضواء على علاقة عناصر المجتمع فى الخليل بأصحاب السلطة

1 - Mann, J., The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatemids, Vol I, pp. 223 - 224.

2 - Rey, C. E., Les Colonies Françaises, pp. 102 - 103, Conder, C., Loc. Cit.

3 - Conder, C., Loc. Cit.

4 - Rey, C., Op - Cit., pp. 103 - 104.

5 - Jean d' Ibelin, Op - Cit., p. 254.

6 - Samuel Ben Samson, Op - Cit. p. 103.

٧ - العمرى : القبائل العربية، ص ١٥٤.

فى البلاد . فبعد قدوم الصليبيين إلى الأراضى المقدسة ، قبل المسيحيون الشرقيون بتبعيتهم لهيئة الكنيسة اللاتينية ، وكان الملك بلدوين الأول قد أجاز لهم مباشرة شعائهم الخاصة فظفر بمحبته لهم ، وظل هذا الأمر ماثلاً فى سياسة ملوك بيت المقدس اللاحقين تجاههم^(١)، غير أن العلاقة بين السريان فى الخليل والملك فولك لم تتصف بالود حيث اتهم بسوء معاملة رجال الدين منهم^(٢). ومع ذلك تمتعت الطوائف المختلفة فى مملكة المملكة الصليبية ببعض الحرية فى ممارسة الشعائر الدينية^(٣). ولا شك فى أن المصلحة كانت وراء العلاقة بين ملوك بيت المقدس والأهالى من غير الصليبيين، وعلى سبيل المثال كانت حاجة بلدوين الأول إلى فلاحين مهرة يتزولون بأرض جنوب فلسطين التى أضحت مهجورة بعد رحيل كثير من المسلمين عنها جعلته يشجع هجرة السريان واليعاقبة من البلاد الإسلامية المجاورة إلى مملكته^(٤). وهكذا فالعلاقة بين الطرفين ظلت محددة بمدى قوة المصالح التى تربط كلا منهما بالآخر .

أما عن أوضاع المسلمين من أهل الخليل تحت حكم اللاتين فقد ارتبطت منذ البداية بالأحداث الحرية؛ إذ ترتب على المذابح الأولى التى لاقوها على أيدي الفرنج أن تعاملوا معهم فى غاية الحذر والخوف ، وتمخض عن ذلك أن عزلوا سياسياً. ومن ناحية أخرى بادر السادة الجدد بإقامة العديد من المستوطنات لتثبيت غزوهم وممارسة السيطرة على الأهالى القريبين منها. أما عن جوانب حياة المسلمين المختلفة فقد سمح الفرنج لهم بأن يبقوا على دينهم وممارسة الشعائر الدينية، إلا أن أعداد المساجد قد تناقصت ، كما منعت صلاة الجمعة فى العادة ، وتم تطبيق القوانين عليهم بصورة مرضية ، وكانت الضرائب مرهقة ولكنها فى مجملها محتملة^(٥). ونظراً لأن العنصر البدوى كان يشكل البنية الأساسية ليس فقط بالنسبة للمجتمع الإسلامى فى بلاد الخليل وإنما يشكل أيضاً العنصر السائد عددياً فى الإقطاعية وقت السيطرة الصليبية فينبغى تناوله وإلقاء مزيد من الأضواء عليه .

وقبل الخوض فى الحديث عن الوضع الإدارى والسياسى للبدو تحت حكم اللاتين فى إقطاعية الخليل الصليبية نرى أن نعرض نبذة عن التيار الاجتماعى لهم. إذ كانت كل

1 - Rey , E. G . Les Colonies Françques, pp . 15 , 93 . Runcinan , S., Op. Cit , Vol . II, pp. , 310 , 32 .

2 - Martin Appe , Op . Cit , p. 66 .

3 - Kedar , B. Z., The Subjected Muslims of the Frankish levant , in : Muslims under The Latin Rule 1100 - 1300, ed., Powell, M., James, Princetin 1990 , pp. 141 - 143.

4 - Runciman , S., Op. Cit ., Vol - II , p. 101 .

5 - Kedar , B. Z ., Op . Cit ., p. 161 .

قبيلة تنقسم إلى أفرع رئيسية يعرف كل منها بالعشيرة، وتنقسم كل عشيرة إلى مجموعة من العصب أو الأفخاذ، وكان كل منها يكون وحدة سكانية بعينها تنقسم إلى عدد من العائلات، وكل منها يتشعب إلى عدد يتراوح ما بين سبعة وإحدى وعشرين خيمة فيكون متوسط كل عائلة حوالى عشرة خيام^(١). وينقسم البدو إلى نوعين وفقاً للحرفة السائدة؛ فالذين احترفوا الرعى منهم تميزت حياتهم بالترحال والسعى وراء الكلالا وسكنى الخيام والإبقاء على أسلوب حياتهم الخاص، ومن يعمل منهم بالزراعة عرف الاستقرار وارتبط بالأرض^(٢)، وسكن القرى والإقطاعات التى خضعت للحكم الصليبي؛ واحتفظ بسكنى الخيام وتربية الحيوانات بجانب الزراعة^(٣).

كان البدو قد أثبتوا حتى من قبل أن يأتى الصليبيون إلى المنطقة أنهم أولو بأس، وأنهم يأبون الخضوع إلى حاكم غريب غير شيخ القبيلة صاحب الزعامة الشرعية فى نظرهم. وعندما جاء الصليبيون استمرت تلك الروح تتملكهم لفترة من الزمن أبرزوا فيها مقاومة لهذه السلطة الجديدة، فاضطر الحكام الصليبيون إلى تجريد الحملات لكسر شوكتهم وتأمين الطرق من خطرهم، ولم يتمكن الصليبيون فى الخليل وباقى المملكة اللاتينية من الحد من مقاومة شيوخ العرب إلا بعقد الاتفاقيات معهم تارة^(٤)، والضرب بيد من حديد تارة أخرى حتى أجبروا أخيراً على الخضوع والاستسلام وبرهنوا على ذلك بأن قاموا بدفع ضريبة حقوق المراعى التى فرضها الصليبيون عليهم^(٥)، ويبدو أن الأمر استقر أخيراً بأن أتاحت الفرصة أمام شيوخ القبائل ورؤساء القرى فى ممارسة السلطة بموجب تشريعاتهم التقليدية المتوارثة الخاصة بهم فى ظل السيادة الفرنجية.

1- Prawer, J., The Latir. Kingdom, pp. 372 - 374, Grusader Instititatisns, p. 214. No. 63.

يسكن البدو فى خيام من الشعر تحمىها النساء وتنصب بحيث يكون أبوابها متجهة نحو الشرق، وللخيمة المستوفاة تسعة أعمدة، ثلاثة فى الوسط، وثلاثة على كل من الجانبين، وأعمدة الوسط ترتفع عن الأخرى، كما أنها تتقدم عنها فى صدر الخيمة. وهذا هو هيكل الخيمة قد تكبر أو تصغر حسب الحاجة، وتقسم الخيمة عند أعمدة الوسط بثلاث نسيج من الصوف بحيث يخصص قسم للنساء والآخر للرجال، وتثبت الخيمة بالحبال والأوتاد ويغلق بابها وقت المطر. وحينما يحل فصل الربيع والصيف يتم استبدال الخيام بالعرائش التى تقام من القش وأغصان الأشجار. ولمعرفة المزيد راجع: نعيم شقيير: تاريخ سيناء، ص ٢٣٢، ٢٧٢.

٢ - المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، الطبعة الأولى بالمطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠٣ هـ، ج ١، ص ٢١٨، راجع أيضاً: ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٨٦ - ٤٨٧.

3 - Rey, E. C., Les Colonies Françques, pp. 101 - 102, Chalandon, F., Op. Cit, pp. 356 - 357.

4 - Albert d'Aix, Op. Cit., pp. 503, 516.

يذكر المؤرخ الحديث رينيه جروسيه أن القائد جودفرى كان قد عقد بعض اتفاقيات تجارية مع القبائل العربية فى فلسطين عام ١١٠٠ م / ٤٩٣ هـ مما أدى إلى توفير ما يلزم الصليبيين من غذاء ومواد خام فترة وجودهم الأولى. راجع.

Grousset, R., Histaire de Croisaden, Vol. I, pp. 181 - 182.

5 - Kedar, B. Z. Op. Cit., p. 165.

ذلك ما كان يمثل الواقع الجديد الذى انتهت إليه أحوال المسلمين الداخلية من أهل الخليل، أما فيما يتعلق بعلاقتهم بالسلطة الصليبية الحاكمة فلدينا عدد من الوثائق التى تكشف عن هذا الأمر ؛ ففى وثيقة دونت فى الخامس من فبراير ١١٣٨م/ الحادى والعشرين جمادى الأولى ٥٣٢هـ. قام الملك فولك بمنح بلدة تقوع وما اشتملت عليه من سكان ، فلاحين وبدوا لرهبان كنيسة القيامة، وقد ظل المرسوم يتجدد باستمرار طوال الفترة التى كانت بلاد الخليل خاضعة فيها للحكم الصليبي^(١). وبموجب عقد دون فى القدس فى التاسع والعشرين من نوفمبر سنة ١١٦١م./ السابع والعشرين من ذى القعدة ٥٥٥ هـ قام الملك بلدوين الثالث بمنح مقدم طائفة الإيستارية خمسين خيمة من البدو^(٢). كما ورد فى وثيقة لعام ١١٧٧م/ ٥٧٣هـ أن قام عمورى فيكونت نابلس ببيع كل خيام البدو الرحل التى يمتلكها إلى روجر دى مولا Roger de Moulirs مقدم الإيستارية، وكان هؤلاء البدو من بنى قراجا Bene - Karkos، الذين تتألف قبيلتهم من عدد من العشائر تنقسم بدورها إلى مائة وثلاث من الخيام. وفى نفس العام باع عمورى لطائفة الإيستارية أيضا ثلاثمائة من خيام البدو. والجدير بالذكر أنه فى تاريخ السابع والعشرين من نوفمبر ١١٧٨م/ الثالث من رجب ٥٧٤ هـ صدق الملك بلدوين الرابع على صفقة بيع عمورى لخيام البدو^(٣). ثم منح فى الثامن والعشرين من أبريل ١١٨١م. العاشر من ذى الحجة ٥٧٦ هـ. طائفة الإيستارية مائة خيمة من البدو فى منطقة كوكب Bell - Voire^(٤). (جنوب شرقى إمارة الجليل الصليبية).

ويرى الباحث أنه فى غالب الظن أن مواطن قبيلة قراجا التى أشارت إليها الوثائق كانت تقع حول نابلس بعيداً عن الخليل، ومع ذلك فهى وعشائر كوكب يمثلون البدو بصفة عامة داخل حدود مملكة بيت المقدس الصليبية بما فيهم بدو بلاد الخليل ، على أساس أن معاملة الفرنج للبدو الرحل كانت واحدة فى جميع الجهات . وجدير بالذكر أن آراء المؤرخين الحديثين قد تفاوتت حول تفسير لفظة «عبيد» Slaves التى وردت بالوثائق ، فمنهم من اعتقد أنهم ملك مكتسب للملك الصليبي، وله مطلق الحرية فى أن يتعامل معهم بيعاً وشراء بصفتهم عبيداً^(٥)، ومنهم من رأى أنهم كانوا من رعايا الملك

1- Bresc . Bautier , G., Jecart. du Chap., Doc. No . 34, pp. 98 - 101 , Roehricht . R., Regesta , Doc . No, 174 , 309 , 323 , 582 .

2 - Paoli , S., Cods . Dipl ., Tome I, p. 65 , Delaville le Roulx , C. G. O. H., Vol . I, Doc. No. 296 , p. 216 .

3 - Ibid ., Vol I, Doc. No. 296 , 532 , 550 , 550 , pp . 216 , 364 , 372 .

4 - Ibid , Doc No . 592 , p. 395 , Roehricht, R., Ragesta , Doc No . 593 .

٥ - عارف العارف : قبائل بئر سيع وعشائرها ، ص ٨٠ - ٨١ .

الصليبي . وكان على من يعمل بالرعى أن يدفع الضريبة إليه مقابل استغلال المراعى وفقاً لقانون قام بسنه الصليبيون لهذا الشأن، وكان البدو بموجب هذا القانون يدفعون الضريبة فى شكل خيول أو جمال أو خراف، وهم بذلك يخضعون فقط لسلطة الملك الصليبي مباشرة^(١). وتطالعنا إحدى الدراسات المنشورة مؤخراً برأى ثالث وهو أن الفرنج كانوا يصنفون الأهالى من المسلمين الخاضعين لسلطتهم بأنصاف الأحرار (Villeins)^(٢).

وبنظرة خاصة للأراء السابقة يرى الباحث أنه من الصعب قبول تصنيف البدو كعبيد، ففى ذلك مبالغة تتأى عن الواقع، إذ كان بالأحرى لهم أن يختاروا الرحيل إلى بلاد إسلامية أخرى مجاورة كى ينعموا فيها بما يفتقدون من حرية، إذ لا ينبغى أخذ وصف الوثائق لهم بالعبيد على أنه أمر مسلم به، وعلى هذا يمكن تفسير ما كان يقوم به الملك الصليبي بنقل ملكيتهم بالبيع والشراء أو كهدية أو منحة بأنه بمثابة نقل للعقار الذى كان يشغله هؤلاء البدو من مراعى وخيام فحسب وليس ملكية مطلقة للملك الصليبي للعقار وما حوى. أما وصف البدو بالرعايا أو الأجراء الخاضعين فهو أقرب إلى الصحة ولكنه تصنيف غير دقيق لأنه ينطبق على المسيحيين الشرقيين من أهل البلاد الأصليين. أما أكثر التصنيفات مطابقة للواقع فهو ما أشار اليه الرأى القائل بأنهم كانوا أنصاف أحرار حيث إنهم لم يحظوا بحقوق المواطنة كاملة، وإنما ارتبط القسط الذى حظوا به من حرية بمدى خضوعهم للملك الصليبي.

أما فيما يختص بقانون البدو فقد تم تكييفه كى يوائم وضعهم كمستغلين للأرض، فمن الناحية النظرية على الأقل كان التاج هو المصدر الوحيد لتأمين حمايتهم فى أى مكان ينزلون به داخل حدود المملكة. وقد ورد فى الوثائق ما يثبت أن هناك توصية ملكية تقضى بعدم تحويل أى قبيلة أو أى فرع من فروعها إلى ملكية خاصة لأى إقطاعى^(٣). ومن ثم فما حدث من بيع وهبات من قبل بارونات نابلس - على سبيل المثال - كان يتم لحساب الملك بصفة شخصية. ويتضح فى ضوء ذلك أن البدو الذين يشكلون قطاعاً رئيسياً من سكان بلاد الخليل خاصة فى الجنوب والشرق كانوا يدينون بالولاء للملك الصليبي. ولعل فى خضوع بدو بلاد الخليل المباشر للملك ما يفسر قوة السيطرة الملكية على الإقطاعية وتغلغلها بالقدر الذى أضعف كثيراً من نفوذ الفصل الإقطاعى الصليبي داخل إقطاعيته فى معظم فترة السيطرة الصليبية. ولنا أن نوه هنا إلى

1 - Rey, C., Les Coloneis Frânces, pp. 94 - 95, Cf. als., Prâwer, J., Crusader Institutions, p. 214.

2 - Kedar, B. Z., Op. Cit., p. 167.

3 - Mayer, H. E., ed. Tabulae Ordinis Theutonicus, Doc. No. 3, pp. 3 - 4.

أن طبيعة التركيب السكاني القائم على القبلية كان لها آثارها الخاصة، فمن الثابت تاريخياً أن القبائل العربية في الخليل لها امتداداتها، فعشائر جرم مثلاً يمتد وجودها في كل من الخليل وشرقي الأردن^(١). ومن ثم كان من الصعب أن تجرى الأحداث في هاتين الإقطاعيتين الصليبيتين إلا وتترك صدًى على كل القبائل العربية الضاربة في المنطقة بأثرها .

وعقب التعرف على التغيرات التي طرأت على التركيب السكاني في بلاد الخليل في عصرها الصليبي وأوضاع أهل البلاد تحت سيطرة الغزاة ، تنتقل لإلقاء بعض الضوء على جوانب حضارية أخرى في إطار التشكيل العام لشخصية مجتمع الخليل في ذات العصر ، فلا شك أن الغزو الفرنجي للمنطقة قد أدى إلى ظهور بعض العادات المختلفة عما ألفه الأهالي ، ومن أهم مظاهر المجتمع الجديد في هذا المضمار ما يشير إليه فيتلس بأن الصليبيين أحيوا ذكرى استضافة إبراهيم (عليه السلام) للملائكة الثلاثة عند خيمته في ممرى حيث كان يقام احتفال سنوي مهيب في نفس المكان الذي أقيم فيه المذبح ، وعرفت هذه المناسبة باسم عيد الثالوث المقدس Feast of the Holy Trinity^(٢) كما تجتمع حول كنيسة سانت أبراهام حشود من الصليبيين المحليين والزوار الوافدين من غربي أوربا للاحتفال بذكرى النبي إبراهيم (عليه السلام) كل عام ، وذلك في الأيام الثلاثة الممتدة من السادس إلى الثامن من أكتوبر، وتشتمل الاحتفالات على إقامة القداس والصلوات طيلة هذه الأيام طلباً لشفاعته أبي الأنبياء^(٣). ويمكن القول بأن هذا العيد جاء وليد حدث اكتشاف رفات هذا النبي الكريم الذي وقع الاحتفال به لأول مرة في مثل هذه الأيام عام ١١١٩م/ ٥١٣ هـ وقت أن استغل رهبان دير سانت أبراهام قدوم حشد من الحجاج الصليبيين إلى الخليل وقاموا برفع الرفات على رؤوس الأشهاد^(٤).

كذلك كانت الخليل تجتذب أعداداً كبيرة من الحجاج الصليبيين في يوم السادس والعشرين من ديسمبر لإحياء ذكرى النبين يعقوب وداود (عليهما السلام) حيث كانوا يقدون إلى بيت لحم في يوم عيد الميلاد ثم يزحفون إلى الخليل لاستكمال الاحتفالات في اليوم التالي حيث يتم حرق البخور وإضاءة المكان طوال الليل وتقديم الأضحيان. والجدير بالذكر أن اليهود الذين يتصافد وجودهم في الأراضي المقدسة كانوا يحرصون

١ - القلقشندی : نهاية الأرب ، ص ١٠١ ، ١٠٧ .

2 - Fetellus , Op . Cit . , p. 9 .

3 - Gestero , J., Acta Sanctorum , Octobris Tome IV , p. 690 .

4 - Canonici Hebronensis , Op . Cit . , p. 312 .

على مشاركة الصليبيين هذه الاحتفالات وأيضاً على زيارة قبور الأنبياء^(١) (عليهم السلام) الذين أُلّفوا الاحتفال بذكرهم. وهكذا كان للوجود الصليبي في الخليل إفرازاته الاجتماعية التي واكبت الإفرازات السياسية والعسكرية والسكانية والاقتصادية، حيث أخذت الخليل تشهد كل عام عيدين ارتبطا بالكنيسة اللاتينية الكاثوليكية بما لم تعرف عنهم المدينة شيئاً من قبل وهما عيد النبي إبراهيم (عليه السلام) وعيد النبيين يعقوب وداود (عليهم السلام) ذلك فضلاً عن عيد الثالوث المقدس الذي يمتد بأصله إلى العصر البيزنطي - وهكذا - يتجلى أمامنا حقيقة مفادها أن الخليل تمكنت في عصرها الصليبي من تدعيم مكانتها بين كثير من الطوائف في عديد من الأرجاء .

أما أعياد المسلمين فلم تهتم المصادر الصليبية بإلقاء الضوء عليها مما يرجح أن السيطرة السياسية للفرنج ألقت بظلالها على النواحي الاجتماعية بحيث تغلبت احتفالاتهم على ما عداها من احتفالات، ولا يعنى ذلك اختفاء الاحتفالات الإسلامية بالأعياد، فمن الطبيعي أن يمارس المسلمون في بلاد الخليل أثناء الوجود الصليبي ما اعتادوا عليه من احتفالات دينية خاصة بهم. وكانت عادة الاحتفالات ببعض الموالد والمواسم قد انتشرت على عهد الفاطميين، وامتد العمل بها في عهد الأيوبيين، وترسخت في بلاد الخليل على عهد المماليك، ومن هذه المناسبات: الاحتفال بالمولد النبوي الشريف وزيارة قبور أولياء الله الصالحين وإحياء ذكرى مولدهم، ومن ذلك الاحتفال بمولد النبي صالح (عليه السلام)^(٢). ومن التقاليد الفاطمية التي تأصلت على عهد المماليك، تشييد قباب فوق القبور وإقامة المساجد فوق قبور الأولياء والصالحين ومشاهير الرجال.

أما عن اللغات المتداولة في بلاد الخليل فقد تنوعت بتنوع سكانها، فالمعروف أن اللغة العربية هي لغة السكان الأصليين في المنطقة بالإضافة إلى السريانية، ورغم ما كان للأتراك السلاجقة من وجود سياسي قبيل الصليبيين إلا أن اللغة التركية لم تكن معروفة^(٣)، أما لغة الصليبيين فكانت اللغة الفرنسية الشائعة في شمال فرنسا، بينما كانت اللغة اللاتينية هي اللغة المتداولة في الكنائس والأديرة^(٤). وبصفة عامة فقد ضمت

1 - Ibid, p. 305, Cf. Als., Vincent, Mackay, Abel, pp. 181, 195.

٢ - في حديث لأحد الباحثين الفلسطينيين عن الأعياد المتأصلة بين شعبه، يذكر أن هناك ضريحاً للنبي صالح (عليه السلام) كان الأهالي ولا يزالون يترددون عليه في بلدة عرفت باسمه قرية من بيت جبرين.

راجع : مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين، ج ٥، ق ٢، ص ٦٦ - ١٦٧

3 - Conder, C. R., The Latin Kingdom of Jerusalem, p. 166.

4 - Runciman, S., Op. Cit., Vol. II, pp. 304 - 305.

الأراضي المقدسة العديد من كنائس المسيحيين الشرقيين وأديرتهم كان يعمل بها رجال من أجناس شتى يتحدثون بلغات مختلفة على رأسهم اليونانيون^(١). ولما كان الصليبيون يقطنون المدن والقرى الرئيسية في المنطقة تاركين كثيراً من البقاع الأخرى للأهالي من العرب والسريان، فمن المفترض أن تكون اللغة العربية قد ظلت تمثل أوسع اللغات المستخدمة انتشاراً في حين اقتصر استخدام اللغة الفرنسية على مدينة الخليل وربما في قرى تقوق والسموع والكرمل وبيت زكريا؛ نظراً لوجود جاليات فرنجية بها. وشاهدنا على ذلك ضمها لقلاع وكنائس صليبية. أما اللغة السريانية فمن الثابت أنها ظلت تمثل ثالث اللغات المستخدمة شيوعاً في بلاد الخليل حيث كانت تستخدم في المناطق التي سكنوها جنوبي الإقطاعية الصليبية وشرقها^(٢). والخلاصة أنه مع وجود مجتمع يضم خليطاً من الطوائف السكانية فيصبح من الطبيعي أن تتمثل به عدة لغات كانت اللغة العربية أكثرها انتشاراً، بينما كانت لغة أصحاب السيادة الفرنج هي التي تحظى بالاهتمام.

وقبل الانتقال للتعرف على الحياة الثقافية في بلاد الخليل في عصرها الصليبي لنا أن نعرف بدايةً أن الحرم الإبراهيمي كان يمثل مركز الإشعاع الثقافي الأول، حيث كان يتم تعيين خطيب ذي منزلة رفيعة لإقامة الخطبة فيه، وفضلاً عن ذلك يمكننا تقييم الحياة الثقافية المبنية على الإسلام من خلال وجود عشرين منبراً في جنوب فلسطين قبل قرن واحد تقريباً من الغزو الصليبي^(٣)، ولعل كلمة «منبر» هنا لاتشير فقط إلى ما يقام من شعائر للصلاه وخطب أيام الجمعة من فوقها فحسب، ولكن ما كانت ترمز إليه من حلقات ودروس علمية تلقن. أما خلال العصر الصليبي في الخليل، فقد وضع الفرنج أيديهم منذ اليوم الأول على الحرم الإبراهيمي، وأسسوا فيه كنيسة لهم عرفت باسم سانت أبراهام، كما أثبتت الفحوص الأثرية أن الصليبيين أقاموا في الساحة الأمامية من الحرم ديراً، وقد سادت كل من الكنيسة والدير الطقوس الدينية المتمشية مع الفكر الديني الكاثوليكي، وبذلك اصطبغت الثقافة الفرنجية بالصبغة الدينية، مشتملة على أنشطة لاهوتية وراهبانية، ارتكزت على القواعد الأوغسطينية التي عرفت في الغرب الأوربي^(٤). ولم تكشف المصادر الفرنجية عن وجود أي طقوس دينية أخرى بداخل الحرم، وتفاوت المؤرخون الحديثون الذين تعرضوا لهذا الأمر حيث يذكر أحدهم أنه بصفه عامه ففيما عدا الراهبانية المقامة على القواعد الأوغسطينية في كنيسة ودير سانت

1 - John of Wurzburg, Op. Cit., p. 69, Johanns Phocas, Op. Cit., pp. 30, 34.

2 - Fulcher of Chartres, Op. Cit., p. 143, Fetellus, Op. Cit., pp. 11 - 12.

٣ - ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٥٩ ؛ العلمي : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٧٩ .

4 - Bresc - Bautier, G., le Cart du Chap., Doc. No. 9, p. 32.

أبراهام فلم تلعب الطرق الرهبانية الأخرى دوراً كبيراً فى الحياه الدينية فى إقطاعية الخليل^(١)، بينما يذكر آخر أن الكنيسة ظلت فى يد أنصار المذهب الأرثوذكسى - التى كانت عليه إبان العصر البيزنطى - أثناء الوجود الصليبي فى الخليل^(٢). أما الباحث فيذكر أنه لما كانت السلطة فى يد اللاتين فيصبح من الطبيعي أن تغلب الثقافة الدينية الكاثوليكية على مادونها من الثقافات الأخرى، كما لا يمكن إغفال تأثير المذهب الأرثوذكسى فى مدينة الخليل نظرا لوجود عدد كبير من السريان بين الأهالى .

من ناحية أخرى تغلبت الثقافة الدينية كذلك على باقى إقطاعية الخليل الصليبية حيث الريف، فقد اشتهرت بلدة تقوع بنشاط الحياة الديرية بها إبان الوجود الصليبي لأنها كانت تضم ديرين أحدهما يتبع كنيسة القيامة والآخر ينتمى إلى كنيسة آل عازر فى بيت المقدس . كما برز فى الريف الخليلي أديرة عين جدى وشاريتون وبيت فجر وبيت أوامر وبيت جبرين^(٣) والملاحظ أنه ليست كل هذه الأديرة خاضعة للفرنجة، فبعضها كان ما يزال بيد المسيحيين من الأهالى - المسيحيين الشرقيين - وعليه فقد تعددت انتماءات الأديرة المذهبية التى لاشك أنها تراوحت بين الكاثوليكية والطوائف المسيحية الشرقية .

وهل هذا يعنى أن المجتمع العربى الإسلامى الخاضع للصليبيين قد ظل بلا ثقافة تميزه وبالتالي بدون أى إفراز حضارى؟. ففى الحقيقة صممت المصادر المختلفة عن ذكر وجود حركة ثقافية إسلامية ما فى بلاد الخليل، وعليه فمن الواضح أن التيار الثقافى الإسلامى قد طُعن فى الصميم طيلة هذا العصر، وهذا يعد أمرا طبيعيا إذ تحول المسجد الجامع بالحرم الإبراهيمي إلى كنيسة، وهاجر من الخليل من ذرية الصحابى تميم الدارى والعلماء إلى بلاد الشام والعراق ومصر واليمن^(٤). ومن برز منهم فى بلاد المهجر آثروا أن يحملوا لقب المقدسى تمسكاً بانتمائهم إلى أرض بيت المقدس^(٥). ونظرا لاستمرار حلقات الصراع العسكرى بين المسلمين والصليبيين فقد أثر بعض رجال الخليل من المسلمين الرحيل عنها إلى بلاد إسلامية أخرى ومن هناك انطلقوا للجهاد ضد الفرنج ،

1 - Boase , T. S. R., The Ecclesiastical Art in cruader States in Palestine and Syria , ed ., in Setton , Vol . IV , p . 110 .

2 - Prawer , J., Social , Classes in the crusader States : the " Minorities " , in Setton, K. L., Vol . V, 1985 , p. 85 .

3 - Mayer , H. E., B. K. S., pp. 372 - 376 .

٤ - المقرئى : ضوء السارى فى معرفه خير تميم الدارى ، ص ١٢٣

٥ - ابن أبى الفلاح : شذرات الذهب ، صفحات متفرقة .

ولعل أشهر من ذكرته المصادر من هؤلاء المجاهدين الشيخ الزاهد: عبد الرحمن الخلحولي، الذى ينتسب إلى بلدة حلحول ونزح منها إلى دمشق، وظل الخلحولي يشارك فى أعمال الجهاد ضد الصليبيين إلى أن استشهد دفاعاً عن دمشق أثناء تعرضها لهجوم جيوش الحملة الصليبية الثانية ١١٤٨م / ٥٤٣ هـ^(١).

وفيما يختص بالمسلمين الذين آثروا البقاء بعد الغزو الفرنجى، فمن الطريف أن إحدى الدراسات الميدانية المتخصصة عن بدو جنوب فلسطين تفيد أنهم ما زال البعض منهم يستخدمون فى حياتهم اليومية إشارة الصليب^(٢). وذلك حتى النصف الأول من القرن الحالى. وفى حديث للعماد الأصفهاني عن عرب منطقة مؤواب فى شرقى الأردن يقول فيه: «وتربى أولادهم فى حكم الإفرنج فالفوا ما ألفوه وخافوا منهم على ظهور حبهام لنا فأخفوه»^(٣) وهذا يعنى أن السكان العرب فى بلاد الخليل تأثروا ثقافياً واجتماعياً بالصليبيين وأن مظاهر هذا التأثير أخذت تتوارث من جيل الى آخر وقد أكد المؤرخ المذكور على مدى تأثير الصليبيين الثقافى على البدو فما يسرى على عرب شرقى الأردن يسرى أيضاً على عرب الخليل نظراً للامتداد العرقى والسكانى فى المنطقتين. وصفوة القول: أن الحروب الصليبية حالت دون قيام حياة ثقافية مميزة فرنجية كانت أم إسلامية اللهم تلك التى اقترنت بالدين المسيحى.

وبعد إجلاء الصليبيين عن الخليل أخذت الحياة الثقافية فى النهوض بالتدريج؛ إذ ارتبطت بالحياة الثقافية فى بيت المقدس ذاتها التى عنى صلاح الدين منذ الشهر الأول باستردادها بإحياء الدور الحضارى الثقافى والعلمى للمسجد الأقصى «فعاد الإسلام هناك غصاً طرياً» حيث حرص على إقامة المؤسسات العلمية والمدارس، وحول دار الإستهبارية إلى مدرسة الشافعية^(٤)، وهناك اختلاف بين يميز الحياة الثقافية الإسلامية بعد الفتح الإسلامى عن الفترة السابقة للغزو الصليبي للخليل، إذ لم نر للدراسات القائمة على المذهب الشيعى مكاناً، وغدت الحياة الثقافية تعتمد أساساً على المذهب الشافعى السنى^(٥). وواصلت الحياة الثقافية والعلمية نهضتها فى بلاد الخليل باطراد خلال العصرين الأيوبي والمملوكى حيث امتدت ظاهرة وقف أهل الخير من ذوى اليسار للأراضى والعقارات والبساتين لتقوم بنفقة الفقهاء والأساتذة وطلاب العلم وما يحتاجونه من رواتب، ولينفق منها على أعمال صيانة المباني العامة وبخاصة الحرم الإبراهيمى. وكان مستوى العلماء الذين تولوا خدمة ملحقاته التعليمية على أعلى المستويات العلمية،

١ - أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٢ ؛ القاضى محمود العدوى : الزيارات ، ص ١٤٥ .

٢ - عارف العارف : قبائل بئر سبع وعشائرها ، ص ١٦٤ .

٣ - العماد الأصفهاني : البرق الشامى ، ج ٥ ، ص ١٥٣ .

٤ - ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥٥٢ - ٥٥٣ .

٥ - ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٦٣ .

حيث إن كثيراً منهم قد شغلوا وظائف مماثلة في المسجد الأقصى ومعاهده الدينية ، وقد حملت أسماؤهم ما يدل على أنهم ينحدرون أصلاً من الخليل^(١) وتؤكد مخطوطة الشيخ المغربي/ البلوى أن مدينة الخليل قد أصبحت مع بداية القرن الرابع عشر الميلادي/ الثامن الهجري تشكل مركزاً للعلوم الدينية المختلفة، حيث غطت الدراسات الفقهية فيها المذاهب الأربعة الشافعية والمالكية والحنفية والحنبلية، ومع نهاية العصر المملوكي يقدم لنا العليسي قائمة طويلة تضم أسماء اثنتين وثلاثين زاوية ومسجداً ومدرسة داخل الخليل^(٢)، هي حصيلة النشاط العلمي الذي شهدته البلاد منذ أن بارحها الصليبيون ، ومن ذلك يتضح عمق الهوية بين حركة الفرنج الثقافية المضمحلة والنهضة الثقافية العلمية الواسعة التي شهدتها الخليل في العصر الإسلامي التالي .

وقبل الخوض في موضوع الإنتاج الاقتصادي في بلاد الخليل ينبغي التعرف على الظروف الخاصة التي ميزت نظام ملكية الأرض في المنطقة . ولما كانت الدراسة تتناول الأوضاع السائدة في البلاد على عهد الصليبيين فينبغي التعرف على الأساليب العامة للملكية الأرض عندهم؛ ومن الطبيعي التعرف على النظم الخاصة ببلاد الخليل قبيل الغزو الصليبي؛ نظراً لأهمية ذلك تمهيداً لما يلي من نظم؛ فعلى الرغم من أن طبيعة التركيبات الاجتماعية في بلاد الشام وفلسطين قد سهلت على الصليبيين تطبيق النظام الإقطاعي بحكم أن هذه البلاد قد شهدت تطبيق نظام الإقطاع الحربي على يد الأتراك السلاجقة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري بأن حل الفارس الصليبي محل الفارس التركي دون إحداث اضطراب أساسي^(٣)، إلا أن الأمر اختلف إلى حد كبير بالنسبة لبلاد الخليل؛ فبعد الفتح الإسلامي أصبحت جميع الأراضي حول الخليل أوقافاً أي تحولت من الملكية الخاصة إلى المنفعة العامة منحاً وهبة، وخصص دخلها لمصاريف وصيانة الحرم الخليلي وما يضمنه من أنشطة دينية واجتماعية وتعليمية، وتجبرنا المصادر الإسلامية أن إقطاع تميم الداري الذي أوقف للإنفاق على الحرم كان يشتمل على قرى «عبرون [أي حبرون] والمرطوم [قرية رامة الخليل] وبيت عينون وبيت إبراهيم وما فيهن»^(٤) وقد أثبت ناصر خسرو استمرار وجود هذه الأوقاف بل ربما أشار إلى اتساعها قبيل الغزو الصليبي بذكره أن الوقف كان يضم إضافة لقرية المرطوم قرى كثيرة^(٥). وتفيد إحدى الدراسات الحديثة المعتمدة على هذه المعلومات أن مساحة وقف

١ - العليسي : المصدر السابق جـ ٢ ، ص ٤٢٧ ، ٤٣٤ ، راجع أيضاً عبد القادر الريحاوي المدرسة الحفمقية، مجلة الحوليات الأثرية السورية ، دمشق سنة ١٩٦٠ ، ج ١ ، ص ١٣٠

٢ - البلوى : تاج المشرق ، ورقه ٦٣ ، ويمكن التعرف على مواقع وأسماء مراكز الخليل العلمية في : العليسي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٨٤ ، ٣٨٧ ، ٤٢٦ ، ٤٩٢ ، ٥٠٤ .

3 - Chalamdon , F., Op . Cit ., pp. 299 - 300 , Smail , R. C., The Crusaders in Syria and the Holy land , London . 1973 , p. 80 .

٤ - ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٧ ، ص ٤٠٨ ؛ العمري : مسالك الأبصار ، ج ١ ، ص ١٧٢ ؛ القريزي : ضوء الساري في معرفة خبر تميم الداري ، ص ٣٥ - ٣٧ ، ٥٣ - ٧ ، عن تعريف المرطوم بأنها قرية رامة الخليل الواقعة إلى الشمال من مدينة الخليل ، راجع : مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ٥٥ .

٥ - ناصر خسرو : المصدر السابق ، ص ٣٣ .

تقيم الدارى هي أكبر مساحة وقف فى أراضى الخليل حيث تشكل حوالى ستين فى المائة من مجمل الأراضى الزراعية^(١).

وحينما وقعت بلاد الخليل تحت طائلة النظام الإقطاعي الصليبي انهار العمل كليةً بنظام الملكية الإسلامي السابق ، إذ لم تُحترم الأوقاف على الأراضى، وتعامل الصليبيون مع أراضى الخليل بنفس الشكل الذى عُوملت به سائر الأراضى التى وضعوا أيديهم عليها، بأن تأسست فى بلاد الخليل إقطاعية صليبية دخلت منذ البداية ضمن حدود دولة الصليبيين فى بيت المقدس، فخضعت لنفس النظم التى سادتها . وقد اعتاد المؤرخون الحديثون أن يصفوا النظام الذى طبقه جودفرى دى بوايون - بأنه نظام إقطاعي صليبي يطابق النظام الإقطاعي الأوربي^(٢)، وفى حقيقة الأمر قد يكون ذلك صحيحاً تمييزاً للإقطاع الصليبي فى القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى، أما خلال القرن السابق عليه الذى ساد فيه الإقطاع الصليبي بلاد الخليل فكان الملك يتمتع بقدر أكبر من السلطة تسهل عليه عملية الدفاع عن الأراضى التى سيطر عليها ، وكذلك تنظيم الوجود الصليبي فيها^(٣). وبموجب هذا النظام أصبح جودفرى حائزاً لجميع الأراضى التى استولى عليها الصليبيون فى الأراضى المقدسة ، وأصبح له التصرف فى الأرض فقام بتقسيمها فيما بينه وبين طبقة النبلاء وقادة الجيش الصليبي فى شكل إقطاعيات^(٤) فحاز الخليل وكثيراً من الأرض المجاورة لها سلسلة من الإقطاعيين بداية من جرار دى أفسس وانتهاءً بهمفرى الرابع ورينو دى شاتيو . وهذا يعنى أن ملكية الأرض فى بلاد الخليل تحولت فى عصرها الصليبي من الملكية العامة القائمة على الأوقاف إلى الملكية الخاصة المرتكزة إلى نظام الإقطاع الصليبي.

أما عن ملكية الأرض فى بلاد الخليل بعد استردادها من أيدي الصليبيين عام ١١٨٧م/ ٥٨٣ هـ فلحسن الحظ ورد قول على لسان المؤرخ المقرئ يتساءل فيه عن هذا الأمر يذكر أنه: «فلما أعاد الله تعالى البلاد إلى الإسلام بعد إقامتها بأيدي الفرنج نحو مائة سنة لم يتبين لى إلى الآن^(٥): كيف وضع الداريون أيديهم على القريتين [المقصود بهما إقطاع تميم الدارى فى بيت عينون ورامه الخليل] فإنه لم يتأخر بتلك البلاد - ممن كانوا قبل أخذ النصارى - أحد من الدرايين إلى أن استردها المسلمون فنحتاج إلى [معرفة] كيف وضع من عاد منهم إلى البلاد يده بطريق

1 - Karmon , Y., Op. Cit ., p. 76 .

2 - Chalandon , F., Op. Cit ., p. 300 , Fink , H., The Foundation of the Latin States , p. 376 .

3 - Prawer, J., Les Premiers Temps de La Feodalite dans Le Royaume Latin . d. Jerusalem , Tijdschrift voor Rechtsgeschiedenis , XX11 1954 , pp. 403 - 406 .

4 - Chalandon , F., Op . Cit ., pp . 298 - 299 .

٥ - أى حين تدوين هذا النص فى النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى / التاسع الهجرى .

شرعى أم لا؟^(١). كما تشير المصادر إلى بروز اسم الشيخ الإمام، « محيى الدين أبو محمد العزيز الخليلى الدارى » المتوفى فى أول أغسطس ١٢٨١م / الثالث عشر ربيع الثانى ٦٨٠ هـ كأحد الشخصيات التى لها باع طويل فى أعمال الخير^(٢)، كما أشارت إلى «عمر بن عبد العزيز الخليلى التميمى الدارى» تولى الوزارة فى عهد المماليك البحرية غير مرة عاش من (١٢٤٢ - ١٣١١م. / ٦٤٠ - ٧١١ هـ)^(٣). ويفهم من هذه الإشارات أن الدارين تمكنوا من استعادة إقطاعهم المعروف فى بلاد الخليل بعد جلاء الصليبيين عنها وفقاً للنظام الإقطاعى العام الذى ساد الدولتين الأيوبية والمملوكية .

ونتقل إلى موضوع آخر يعد من أهم الجوانب الحضارية فى إقطاعية الخليل الصليبية ألا وهو **اقتصادها** ؛ فقد اعتمدت إقطاعية الخليل على خمسة موارد رئيسية جعلتها مجتمعاً اقتصادياً متكاملاً ألا وهى : الزراعة والرعى والصناعة والتجارة، فضلاً عما يمكن تسميته بالسياحة الدينية ، ولدراسة أحوال منطقة الخليل الاقتصادية لا بد من التعرف على جوانب هذه الموارد المختلفة .

فيما يختص **بالزراعة** ؛ فاقتصاد بلاد الخليل يعتمد أساساً على هذه الحرفة . وكانت مدينة الخليل مضطرة للاعتماد على مواردها الذاتية للحصول على الغذاء مثل القرى الريفية المجاورة، وذلك من نتاج الأراضى الزراعية القريبة منها ، حيث توافر فى بلاد الخليل عناصر قيامها بشكل ناجح إذ اشتهرت المنطقة بها فترة الحروب الصليبية . وفى مقدمة هذه العناصر خصوبة التربة ، ولعل التراث الدينى يشهد بتلك الحقيقة ؛ فكثيراً ماقرأ فى كتب الرحالة الصليبيين عن حقل دمشق^(٤) وفيما يروون فإنه يفيض بخيرات عميمة من الثمار، وكلما أخذ منه امتلأ من جديد، ورغم تغلب الجانب الأسطورى على هذا الاعتقاد إلا أنه يؤكد على خصوبة أرض بلاد الخليل . والجدير بالذكر أن هذه الخصوبة ارتبطت فى الفكر الصليبي واليهودى والإسلامى على حد سواء بمباركة الله عز وجل لهذه الأرض، وكانت هذه الفكرة محور كتابات الذين عنوا بالكتابة التاريخية وغير التاريخية فترة الحروب الصليبية لدى جميع الطوائف^(٥).

١ - المقرئى : ضوء السارى فى معرفة خبر تميم الدارى ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

٢ - أنشأ الدارى المدرسة المحمدية الخليلية بالقاهرة عام ١٢٦٥م. / ٦٦٣ هـ . وقرر بها مدرساً للشافعية ومعيدين وعدداً من الموظفين، لخدمتها ، وقام بتزيينها . وأوقف عليها أوقافاً كثيرة ، وكانت وفاته فى دمشق . انظر : المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٥٠ .

٣ - أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٢٢٠ .

٤ - Peter, Le Déacon , Op. Cit., p. 135 , Fetellus, Op. Cit., p. 30, John of Wursburg , Op. Cit. , p. 59 .

٥ - المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٧٣ ، ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٥٩ .
Theoderich, Op. Cit, pp. 54 - 55, John of Wurzburg, Op. Cit., p. 59, Anselme Adorno, Itineraire , p. 249 , Felix , Fabri, Op. Cit , Vol . X, pp. 113 - 114 , Meshullam Ben R., Menahem of Volterra, Op. Cit. , p. 185 .

وبالإضافة إلى عنصر خصوبة التربة هناك اعتدال المناخ ؛ فمعظم المنطقة تتمتع بمناخ ممتاز شتاء وصيفاً فيما عدا الأراضي المنخفضة في الشرق والصحارى في الجنوب؛ إذ أكدت المصادر المعاصرة على إقفار الأرض حول البحر الميت وبرة الخليل والنقب^(١). وما ذكرته المصادر ماورد على لسان أبي الفداء: «وعلى القرب من البحيرة المنتنة ديار قوم لوط وهى ديار تسمى الأرض المقلوبة وليس بها زرع ولا ضرع ولا حشيش، وهى بقعة سوداء قد فرش بها حجارة كلها متقاربة فى الكبر»^(٢). وفضلاً عن ذلك فهناك عنصر المياه فهى بصفة عامة تعد كافية للزراعة فى كثير من الجهات إما اعتماداً على مياه المطر وإما على مياه الينابيع والأودية الشتوية ، الأمر الذى أدى إلى ظهور عدة قرى على حواف هضبة القيسيين ، وقد استخدم الفلاحون أساليب خاصة لتجميع المياه فى صهاريج وذلك بشق قنوات متعددة فوق المنحدر كى تجرى المياه فيها إلى خزانات، حيث عرفها الأهالى باسم الهرابات، ولا يزال هذا الأسلوب يستخدم فى المنطقة حتى وقتنا الحاضر^(٣)، وهكذا اجتمعت عناصر خصوبة التربة ووفرة المطر، علاوة على مهارات السكان التى اكتسبوها من حفاظهم على المياه والاعتناء بالتربة مما جعل من منطقة الخليل واحده من أكثر الإقطاعات الصليبية ازدهاراً .

ولحسن الحظ أمدتنا المصادر المختلفة بقوائم لأهم الثمار والمحاصيل الزراعية التى تنتجها بلاد الخليل ، ورغم أن معظمها يرجع إلى الفترة السابقة على الغزو الصليبي إلا أن إنتاجها استمر أثناء وجودهم ، فقد ذكر الأضطخري أنها تمثلت فى: «زيتون وتين وجميز وعنب وسائر الفواكه أقل من ذلك»^(٤). ويضيف المقدسى قائلاً: « إلى نصف مرحلة من كل جانب [حول الخليل] قرى وكروم وأعنان وتفاح » وفواكه أخرى « تحمل إلى مصر وتنشر»^(٥). ويذكر ابن حوقل: «وأشجار هذه الجبال [يقصد جبال الخليل]... زيتون وتين وجميز إلى سائر الفواكه»، ويصدر منها إلى مصر^(٦). ويذكر ناصر خسرو الحداثق والأشجار البرية، أما الثمار فتتمثل فى « عنب وتين وزيتون وسماق». وخلال الوجود الصليبي فى بلاد الخليل كانت أهم المزروعات حسب رواية دانيال الروسى تتمثل فى القمح والكروم وأصناف الخضراوات المختلفة، ويضيف من أنواع الأشجار الزيتون

1 - Daniel the Russian , Op. Cit ., p. 48 , Theoderich , Op. Cit , pp. 53 - 54 .

الإدريسى : نزهة المشتاق ، ص ١٢٤ .

٢ - أبو الفدا : تقويم البلدان ، ص ٢٢٨ .

٣ - عارف العارف : قبائل بئر سبع وعشائرها ، ص ٣٤ .

٤ - الأضطخري : مسالك الممالك ، ص ٤٤ . وما يجدر ذكره أن المؤلف كان قد كتب قبل عام ٩٥١ م . / ٣٤٠ هـ .

٥ - المقدسى : المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

٦ - ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

والتين والخروب والتفاح^(١). وأكد رحالة صليبيون آخرون على أن أشجار الكروم كانت تحيط بالحرم الإبراهيمي كما أن أشجار الزيتون والشعير تنتشر في كل اتجاه^(٢). كما أورد الإدريسي المعاصر للوجود الصليبي في الخليل «أن المدينة في وهدة بين جبال كثيفة الأشجار وأشجار هذه الجبال وسائر جبال فلسطين وسهلها زيتون وتين وخرنوب». ومن الثابت أنه بعد الفتح الإسلامي للمنطقة دأب الأهالي على الاستمرار في إنتاج معظم المحاصيل التي كان ينتجها الصليبيون^(٣). وهكذا فرضت البيئة والظروف الجغرافية نفسها على النشاط الزراعي للأهالي بحيث ظلت الأنواع المنتجة من المحاصيل قاسماً مشتركاً بين الأجيال المتوالية، قبل وأثناء وعقب العصر الصليبي في الخليل.

ونتناول كل محصول من محاصيل بلاد الخليل الرئيسية فترة الحروب الصليبية بالعرض على حدة؛ وتأتي الكروم على رأس قائمة الأشجار المثمرة فقد اشتهرت المنطقة منذ عهد بعيد بإنتاج الكروم من حيث النوعية والحجم^(٤). وفي أواخر القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري كان هناك نوعان من الكروم دأب الأهالي على زراعتهم وهما ينتسبان إلى قريتي بيت عينون ودورا، فيقال الكروم العينوني والكروم الدوري، وقد اكتسبا شهرة فائقة حتى أن التجار أقدموا على تصدير كميات منه إلى البلاد المجاورة^(٥) وحافظ الكروم على مكانته تلك خلال فترة الحروب الصليبية، إذ تشير المصادر إلى جودة زراعته تماماً فوق مرتفعات الخليل الزراعية وما حولها من قرى، أي في بيت عينون ودورا وغيرهما. وتضيف المصادر عين جدى وماجاورها إلى مناطق إنتاج الكروم الرئيسية في بلاد الخليل في هذا العصر^(٦). ويرجح أحد الباحثين الحديثين أن المؤسسات الدينية الصليبية التي كانت امتلكت الأراضي قد أولت زراعة الكروم اهتماماً كبيراً، حتى أصبح إقبال الفلاحين على زراعته يفوق إقبالهم على أي محصول آخر حتى ولو كان القمح، نظراً للأرباح الطائلة التي تعود على زارعيه^(٧). وحتى بعد إجلاء الصليبيين عن بلاد الخليل ظل كروم المنطقة يحتفظ بسمعة طيبة بين عشرات الأنواع منه في الأسواق المجاورة^(٨).

1 - Daniel the Russian , Op. Cit., pp. 46 - 47 .

2 - Peter Le Déacon , Op. Cit, p. 185, John of Wurzburg, Op. Cit, p. 32 .

٣ - الإدريسي المصدر السابق ، ص ١٨٧ ، أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٣٤٠ .

4 - Josephus , Jewish War , p. 23 .

٥ - المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٨٠ .

6 - Fctellus., Op. Cit, p. 12 , Peter Le Déacon, Op. Cit, p. 185 .

7 - Prawer , J., Colonisation Activities in the Latin Kingdom of Jerusalem , ed . in Revue Belge de philologie et d'Histoire, XXIX 1951, pp 1063 - 1068 .

٨ - البدوي : نزعة الأنام في محاسن الشام ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٨١ م / ١٤ هـ ، ص ١٣٣

والشابت أن أهالي بلاد الخليل استفادوا من ظروف البيئة المحيطة بهم وقت الحروب الصليبية أما إفادة، حيث أمدتنا المصادر الإسلامية بمادة علمية تفيد في معرفة الأساليب التي اتبعها الأهالي في زراعة الكروم وغيره من الفواكه والمحاصيل الزراعية ، وقد غطت المصادر هذا الأمر زمنيا كل الفترة الممتدة منذ قبل الغزو الصليبي وأثناءه وكذلك بعد إجلاء الصليبيين عن بلاد الخليل . فيذكر ناصر خسرو الذي جاب المنطقة «إن بحر لوط به شيء كالحجارة السوداء غير صلب يخرج من قاعه فيأخذه السكان . . . ويقال إنه إذا وضعت قطعة منه تحت شجرة يمتنع الدود عنها من غير أن يمس جذعها أذى منه فلا يتلف الشجرة مما تحت الأرض من دود وحشرات . . . وقيل كذلك إن العطارين يستخدمونه لإبعاد دودة تصيب البذور اسمها النقرة» . وردد الإدريسي أيضاً نفس المعنى^(١)، أما أبو الفدا فيضيف بعض المعلومات الهامة فيذكر أن اسم هذه المادة هي الحُمُر، وأن البحر كان يقذف بها إلى الشاطئ وكان الأهالي يجمعونها ويستخدمونها في تليخ كرومهم ويزعمون أنه للشجر كالتلقيح للنخل^(٢) . وهكذا نجح الأهالي في إحداث تطوير فني خاص للاحتفاظ برطوبة التربة بعدم تعريضها للجفاف ودون الإضرار بها ، فضلاً عن حرارة الأرض وتنقيتها من الحشائش الضارة بصفة دائمة^(٣) . وأيا كان الأمر فلكل عصر وسائله ، وهذا الأمر يشهد بما لا ريب فيه على اكتساب أهل الخليل خبرات خاصة في زراعة الكروم .

كذلك أصبح أهالي الخليل خبراء في الاستفادة من الاختلافات الطبيعية لسطح الأرض لإطالة موسم إنضاج الكروم؛ فكانت محاصيل المرتفعات الجنوبية يتم نضجها أولاً بسبب حرارة الشمس المرتفعة، ولذلك يتم حصادها ما بين شهري يوليو وأغسطس، أما مرتفعات بلاد الخليل الشمالية فيتأخر حصادها حتى شهر سبتمبر أو أوائل أكتوبر، أما حصاد الجزء الأخير من الكروم فهو المزروع في الوديان وينضج ما بين شهري أكتوبر وديسمبر . وبعد الفتح الإسلامي للخليل على يد صلاح الدين كان من الطبيعي أن يهتم الأهالي من المسلمين بأمر إطالة مدة حصاد الكروم بغرض استهلاكه كفاكهة طازجة نظراً لتحريم إنتاج الخمر واستهلاكها ، وهذا يعني أنه ينبغي على الفلاحين مد فترة الحصاد حتى وصلت إلى ستة أشهر^(٤)، مما أدى إلى الحفاظ على المحصول كي يصبح في متناول

١ - ناصر خسرو : المصدر السابق ، ص ١٧ ، راجع ما أورده ابن حوقل أيضاً بهذا الخصوص في : صورة الأرض ، ص ١٦٩ : الإدريسي : المصدر السابق ، ص ١٥٨

٢ - أبو الفدا : تقويم البلدان ، ص ٢٢٨ .

٣ - ترجع بعض هذه الأساليب بأصولها إلى عصر سابق للحروب الصليبية . راجع المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

٤ - وقد أفاد الباحث من معالجة إحدى الدراسات لهذه الأساليب ورغم أنها انصبت على عصر لاحق إلا أنها أثبتت معرفة أهالي الخليل لنفس الأساليب بداية من القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري ، مروراً بعصر الحروب الصليبية . انظر :

اليد أطول مدة ممكنة ، وبذلك تم التغلب على مشكلة تكدسه فى الأسواق وفساده ، ومن ثم غدا محصول العنب يمثل غذاء رئيسياً بالنسبة للمقيمين فى المنطقة كما شجعهم على القيام بتعبثته .

ومع توسع الخليل فترة العصور الوسطى فى زراعة الكروم قام الفلاحون ببناء دور محصنة فى وسط المزارع ، وتتكون كل بناية من طابقين ، وأقاموا فيها طوال فترة الصيف للإشراف على زراعتهم وحمايتها^(١) . ولم يكن الكروم هو المحصول الوحيد فى هذه المزارع بل كان هناك أنواع أخرى من شجر الفواكه ، غير أنها كانت تزرع عند أطراف مزارع الكروم . وكان هذا الحزام الأخضر من الأشجار يحيط بالخليل ويتشر فى الأودية المجاورة حيث جذب أنظار الرحالة الذين زاروا المنطقة ، أو تعرضوا بالحديث عنها قبيل الوجود الصليبي وأثناءه ، وعبروا عن ذلك بقولهم : إن «المدينة فى وهدة بين جبال كثيرة كثيفة الأشجار»^(٢) .

ولعل ثانى الأشجار المثمرة فى بلاد الخليل هى أشجار الزيتون ، وبصفة عامة فإن زراعته لا تصلح فوق هضبة القيسيين لأن المناخ الذى تحمله هذه الأشجار يقتصر على ارتفاعات أقصاها سبعمائة متر فوق سطح البحر ، ولذا كان أفضل مناطق زراعته على المنحدرات المرتفعة على جوانب الهضبة . هذا ، وقد اتبعت فى زراعته أساليب مشابهة لتلك التى اتبعت فى زراعة الكروم خاصة فيما يتعلق باستخدام مائه الحمر لوقاية المحصول من الآفات^(٣) ، وهكذا كان الريف الخليلي يعد من المناطق الرئيسية فى زراعة الزيتون ، إذ أكدت المصادر على انتشار أشجاره فى كل أرجاء فلسطين قبل وأثناء الوجود الصليبي بها وذكرته فى مقدمة الثمار المنتجة^(٤) . ويبدو أن محصول الزيتون الجيد كان يكفى السكان ويفيض حتى أنهم كانوا يصدرونه إلى مصر وغيرها من بلاد المسلمين^(٥) . وقد استمر الأهالى يبدون اهتماماً ملحوظاً بزراعة أشجار الزيتون حتى بعد رحيل الصليبيين عن الشرق الإسلامى^(٦) .

1 - Arculfus , Op. Cit ., p. 15 .

ويضيف يهودا كارمون أن هذا التقليد سارى حتى وقتنا الحاضر مع استبدال هذه البنايات المحصنة بمساكن عادية . انظر :

Karmon, Y., Op. Cit ., pp. 71 - 72 .

٢ - ابن الفقيه : المصدر السابق ص ١٠١ ؛ الأصطخرى : المصدر السابق ، ص ٤٤ ، المقدسى : المصدر السابق ، ص ١٧٢ ؛ البكرى : معجم ما استعجم ، ج ٢ ، ص ٤١٩ ، الإدريسي : المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

٣ - الإدريسي : المصدر السابق ، ص ١٥٨ ، راجع أيضاً .

Karmon , Y., OP. Cit., pp . 71 - 77 .

٤ - الأصطخرى : مسالك الممالك ، ص ٤٤ ؛ ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ٣٣ ، Daniel the Rnssian , Op. Cit., pp. 46 - 47 .

٥ - المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٧٣ .

٦ - أبو الفدا : تقويم البلدان ، ص ٣٤٠ .

وهناك عدد آخر من الأشجار المثمرة نجد الحكام الصليبيين قد أبقوا على زراعتها إبان وجودهم ، ومن هذه الأشجار النخيل ، فتشير المسميات التي أطلقت على واحة صغر على أن النخيل كان قد غرس بأعداد كبيرة حتى التصق اسم السهل بها فعرفت بأرض النخيل^(١)، ويؤكد الرحالة الإدريسي على وجود النخيل بكثرة في المنطقة ، فيذكر أن جذور النخيل كانت تلتطخ بمادة الحمر حماية له^(٢)، وفي العادة كان إنتاج التمور يفيض عن حاجة سكان هذه المنطقة بحيث قام العرب بتصديره إلى البلاد المجاورة^(٣)، ويستشف من ذلك أن هذا الأمر قد ظل ماثلاً إبان العصر الصليبي نظراً لعدم معرفة الصليبيين الكبيرة بهذا الصنف من الطعام لعدم انتشاره في أوروبا .

ومن الأشجار المثمرة الرئيسية التي انتشرت زراعتها في إقطاعية الخليل الصليبية أشجار الحمضيات باختلاف أنواعها من ليمون ولارنج وبرتقال وغيرها . . . وقد ساعدت الظروف الطبيعية المختلفة من تربة ومناخ ببلاد الخليل في العمل على ازدهار زراعة تلك الأشجار . وكان التفاح من الفواكه التي انتشرت زراعتها أيضاً في بلاد الخليل ، وبعد وادي الصافي حول صغر من أهم مناطق إنتاجه كما عرف وادي الخليل ذاته باسم وادي التفاح^(٤) . كما انتشرت أشجار التين في أرجاء إقطاعية الخليل الأمر الذي لفت أنظار عدد من الرحالة والجغرافيين ، إذ كان ذكر هذا النوع من الفاكهة يرد على لسان كثير من زاروا منطقة الخليل وقت الحروب الصليبية^(٥) . وكان التين يؤكل طازجاً أو مجففاً^(٦) . كما عرفت الخليل قبل الغزو الصليبي زراعة أشجار الجميز وكذلك استخدمت أخشابها في أعمال البناء^(٧)، غير أنها لم تجذب انتباه الصليبيين، بيد أنهم أعجبوا بشمار الخروب^(٨) . وأخيراً فقد كان نبات قصب السكر من الزراعات التي عرفها الصليبيون في بلاد الخليل ، ويؤكد ذلك ماورد في وثائقهم^(٩) المنشورة .

1 - Fetellus , Op . Cit , p. 12 .

٢ - الإدريسي : نزهة المشتاق ، ص ١٢٤ .

٣ - ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٥٨ .

Volney, M., Volney's Travels , Vol . II , p. 322 .

4 - Daniel the Pussian , Op. Cit., pp. 44 , 47 .

تشير إحدى الدراسات الحديثة إلى أن ٧٠٪ من حمضيات فلسطين تزرع حول الخليل ، وتشير إلى أن ذلك يرجع بجذوره إلى عهود سابقة ، راجع : خليل أبو رجيلي : الحمضيات في فلسطين المحتلة ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ١٥ - ١٧ .

5 - Daniel The Russian , Op. Cit., p. 46, Fetellus, Op. Cit, p. 30 .

6 - Prawer , J., The Latin Kingdom , p. 364 .

٧ - ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ٣٣ .

8 - Daniel the Russian , Loc . Cit .

9 - Riant, P, Etudes sur L'Histoire de L'Eglise de Bethlehem , Vol. I, Doc . No. 10, p. 150 , Mayer , H. E., Tabulae Ordinis Theutonicici , Doc , No .7, p. 9 .

ويعد إنتاج الغلال أمراً بالغ الأهمية بالنسبة لأهالي الخليل ، وخاصة في وقت سادت فيه روح الحرب ، فمن الطبيعي أن يبرز محصولا الشعير والقمح كمحاصيل إستراتيجية تلعب دورها في مجال السياسة بنفس القدر الذي تلعبه في مجال الاقتصاد وربما يزيد . وكتب الرحالة تؤكد على أن الصليبيين أبقوا على ما كان سائداً بخصوص زراعة الشعير بحيث جاء في مقدمة المحاصيل الزراعية التي تنتجها بلاد الخليل من الحبوب . وهذا يفهم من نص دون في وقت قريب من استيلاء الصليبيين على بلاد الخليل ، حيث يقول ناصر خسرو : «وأغلب الزراعة هناك الشعير والقمح قليل»^(١) . ويرجع ذلك إلى أن طبيعة التربة الزراعية والمناخ في بلاد الخليل تصلح لزراعة الشعير بشكل أفضل^(٢) ، وهكذا تركزت زراعة الشعير في القرى المحيطة بالخليل وحول الكرمل والسموع عند حافة صحراء النقب في الجنوب وعند أطراف الإقطاعية شمالاً حيث قرى بيت أومر وسعير وتقوع امتداداً إلى بيت لحم^(٣) .

أما عن القمح فتشير الشواهد إلى أن الصليبيين نشطوا في إنتاجه في بدء عهدهم ببلاد الخليل ، حيث أثنى دانيال الروسي على إنتاج القمح في ريف المنطقة^(٤) ، وتمثل مناطق زراعته في المنحدرات الغربية والجنوبية وكذلك في مناطق السهول والوديان التي تقع على هضبة بلاد الخليل ذاتها ، وبالطبع كان ينبغى حين اختيار الأرض لزراعة القمح ألا تكون صالحة لإنتاج الكروم^(٥) . ويشير الإدريسي إلى أن حركة نقل الغلال قد شهدت نشاطاً في البحر الميت ، ويوضح العماد الأصفهاني أن صلاح الدين أمر بجلب الغلال من موءاب في شرقي الأردن إلى ميدان المعارك مع الصليبيين عند الساحل^(٦) . ويفهم من هاتين الإشارتين أن بلاد الخليل كانت تستورد القمح من شرقي الأردن إبان الوجود الصليبي بها . ويرجح أن صليبي الخليل كانوا لا يقدمون على استجلاب الحبوب من الخارج إلا إذا تعرض المحصول قبل حصاده في شهرى مارس وأبريل للتدمير من جراء إحدى الغارات ، والجدير بالذكر أن فقد الصليبيين للأراضي الزراعية المحيطة بالخليل إضافة إلى فقد الأراضي الأخرى في عام ١١٨٧م/ ٥٨٣ هـ كان له أثره البالغ في زعزعة موقفهم الاقتصادي والسياسي .

1 - Danial the Russian , Op . Cit . , p. 45 , Theoderich , Op . Cit . , p. 53 .

ناصر خسرو : المصدر السابق ، ص ١٧ .

2 - Richard , J., Agricultural Conditions in The Crusader states, in Setton , K. L., Vol . V , p. 258 .

3 - Theoderich , Op. Cit . , p. 53 .

4 - Danial The Russian , Op . Cit . , p. 45 .

5 - Prawer , J., The Latin Kingdam , p. 359 . Karman , Y., Op. Cit . , p. 71 , 77.

٦ - الإدريسي : نزهة المشتاق ؛ ص ١٥٩ ، العماد الأصفهاني الفتح القسى ، ص ٦١١

وفى نهاية العرض للمحاصيل الزراعية والأشجار التى أنتجتها الخليل عصر الحروب الصليبية ينبغى إلقاء الضوء على أصحاب الفضل الحقيقيين فى هذا النشاط . فقد عمل العرب وكأنهم أقنان فى ضياع النبيل الصليبي ، وهؤلاء شكلوا غالبية الطبقة العاملة^(١) فى الزراعة ، وكى يضمن الفرنج الإبقاء عليهم للعمل تركوا لهم حرية إدارة شئونهم اليومية بأنفسهم . وأشار ابن جببر إلى ذلك بقوله : « مساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم ، وكل ما بأيدي الفرنج من المدن بساحل الشام على هذا السبيل ، رساتيقهم كلها للمسلمين وهى القرى والضياع » . وتمثل إشراف الفرنج وسيطرتهم فى تعيين رئيس من المسلمين فى القرى والضياع المستولى عليها ، وكان هذا الرئيس يتولى أمور تلك الضيعة ويهتم بأحوال المسلمين فيها^(٢) كما يشير أسامة بن منقذ إلى أنه قام بدور الوسيط فى فض المنازعات بين الفلاحين المسلمين والسيد الإقطاعى الصليبي^(٣) ، وكان على الرئيس القيام بجمع الضرائب والمحاصيل وتسليمها للنبيل^(٤) . وعليه يتضح لنا أن أهالى الخليل ظلوا يحملون أعباء القيام بالنشاط الزراعى فى ظل السيادة الصليبية .

وأخيراً وفى مجال الثروة النباتية نذكر الغابات ؛ وتكاد تجمع المصادر على تغطيتها لمساحات ليست بالقليلة من أراضى الخليل^(٥) ، غير أن هناك أحد شهود العيان وهو رحالة صليبي زار الخليل حوالى عام ١١٣٧م / ٥٣١ هـ يخبرنا بوجود أشجار الصنوبر على التلال التى تقع شمال المدينة ، وذلك على الجهة اليسرى من الطريق المؤدى إلى بيت المقدس ، وهذه الأشجار كان يتم تقطيعها وحملها على الجمال إلى المدينة المقدسة^(٦) . ولا شك فإن لهذه الشهادة أهمية خاصة وأن عامل الصدق فيها واضح ، فإن أشجار الصنوبر تجود زراعتها فى المناطق الجبلية كما أنها تحتاج إلى كميات معينة من المطر ، وكلا العنصرين يتوافران على الجبال الواقعة شمال الخليل ، وقد روى رحالة أوربى آخر ما يؤكد ذلك حيث إنه تخفى مراراً هو ورفاقه من قطاع الطرق أثناء رحلته من الخليل إلى القدس ما بين عامى ١٤٧٠ - ١٤٧١م / ٨٧٥ - ٨٧٦ هـ بين أشجار الغابات الممتدة على الطريق^(٧) . وهكذا يتضح أن غابات بلاد الخليل كانت تشكل مخزوناً طبيعياً من الأخشاب ليس فقط للاستهلاك المحلى وإنما لاستغلالها فى جهات أخرى مثل بيت المقدس .

1 - Cahen ., C., La Syria du Nord, pp., 555 - 558 .

٢ - ابن جببر : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ ، راجع أيضاً .

Keder, B. Z., Op. Cit., p. 167 .

٣ - أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٣٨ .

4 - Benvenisti, M., Op. Cit, p. 20 .

5 - Arselme Adorno , Itineraise p. 249 .

6 - Peter, Le . Déacon , Op. Cit , p. 185

7 - Anselme Adorno , Loc . Cit

ومن الثابت أيضاً أنه لم تقتصر إفادة صليبي إقطاعية الخليل على أخشاب أشجار الصنوبر فقد كست أشجار البلوط^(١) أجزاء متفرقة من المنطقة وقد أولوه اهتماماً خاصاً لمباركتهم له حتى أنهم اعتقدوا في أهمية أن يحمل الفارس قطعة منه حتى يتمكن من مساية فرسه. ومن المعروف أن أشجار البلوط قد يصل عمرها إلى ألف عام ، ومن جذوره تنمو أشجار جديدة^(٢)، وقد استخدم الأهالي أنواعاً أخرى من أخشاب الأشجار التي كانت تنمو عند ساحل البحر الميت وهي أشجار ذات ثمار تعرف بتفاح البحر الميت، وعندما يتساقط تمحذه أمواج البحر فيظهر على سطحه في شكل التفاح الأخضر اللامع^(٣)، ولعلها تلك الثمار التي يستخرج منها مادة الأنثيجو اللازمة للصباغة^(٤). وبصفة عامة فمنطقة البحر الميت تحتوى على كميات من الأخشاب تنقل للمدن المجاورة للاستهلاك المحلي^(٥). وتبرز أهمية الغابات بالنسبة لللاتين في مملكة بيت المقدس في أن أخشابها تدخل في الصناعات الحربية من أبراج ومجانيق وغيرها ، وما أكثر احتياج مملكة تعيش على الحرب إلى هذه الموارد! . أما أخشاب الأشجار الصغيرة والتي توجد بخاصة حول البحر الميت وتستهلك محلياً فيرجع أنها كانت تستخدم في إشعال الأفران وغيرها كوقود، أو في أعمال البناء .

وأثناء استيلاء الصليبيين على بلاد الخليل والفترة التالية لها برزت بها **حرفة الرعى** ؛ وتشير المصادر الصليبية المبكرة إلى ذلك فنذكر أن أغنام المنطقة تلقح مرتين في العام^(٦) وفي الحقيقة فإن هذه الإشارة لا تخلو من مبالغة ولكنها تعبر عن إنتاج بلاد الخليل الوفير من حيوانات الرعى، وخاصة أن الظروف الطبيعية^(٧) مهيأة لذلك، فالقليل من أراضيها استغلّت للزراعة بينما غالبية الأراضي صخرية لا تصلح إلا للرعى^(٨)، كما

١ - البلوط والبُطم نوعان من أشجار السديان ، يسقط ورق البلوط في الشتاء ، ويبلغ ارتفاع شجره نحو خمسة عشر متراً ، يؤكل ثمره ، وتستخدم قشوره في الدباغة ، وخشبه أقل قوة من غيره ، إنما حطبه جيد شائع الاستخدام . راجع مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ٥ ق ٢ ، ص ٤٩ .

2 - Fetellus , Op - Cit , p. 12 - John of Werzbwg , Op . Cit , p. 58 .

3 - Theoderieh , Op. Cit , p. 53 .

4 - Deschamps , P., Les Chateaux des Croises , p. 49 .

٥ - مصطفى الدباغ : المرجع السابق ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ٢٨ .

6 - Daniel the Russian , Op. Cit ., p. 47 .

٧ - لمعرفة المزيد عن الظروف الطبيعية المحيطة بحرفة الرعى في بلاد الخليل . راجع : خليل أبو رجيلي : الثروة الحيوانية في فلسطين المحتلة ، بيروت ١٩٧١ ، ص ٣ - ٧ .

8 - Karmon , Y., Israel Regional Geography , PP. 329 - 330 .

وقد أمدتنا بعض المراجع بالأسس التي يقوم عليها النشاط الرعى في فلسطين من حيث التكوين والاقتصاد . راجع : نعم شقير : تاريخ سيناء ، صفحات متفرقة ؛ عارف العارف : القضاء بين البدو ، ص ٢٣٢ - ٢٣٩ .

أن كميات المطر في الجنوب حيث النقب الشمالي وفي الشرق حيث برية الخليل لم تكن كافية إلا لظهور الأعشاب والحشائش الملائمة لقيام النشاط الرعوي^(١). وترتب على وجود المسطحات الخضراء من أشجار وأعشاب أن ظهرت تربية النحل التي تعد أحد جوانب حرفة تربية الحيوان^(٢)، أما عن صيد الأسماك ؛ فلم يكن متاحاً بالنسبة لأهالي الخليل، فالبحر الميت لم يسمح بقيام هذه الحرفة فيه نظراً للملوحة مياهه الشديدة .

وبطبيعة الحال فإن غالبية حيوانات المراعى التي تربي على الأعشاب هي إبل وخيل وماعر . وكان البدو يستخدمون الإبل في نقل الحبوب بصفة خاصة من مناطق إنتاجه في الجنوب حيث بيت جبرين إلى الخليل نظراً لتخصص أراضيها في إنتاج الفاكهة . كما كان للخليل - ولا سيما الأصائل منها - شأن يذكر بين البدو حيث كانوا (وما يزالون) يعتقدون أن ظهور الخيل عزّ، وهم يتفاخرون باقتنائها ويتسابقون إلى تدريبها والإكثار منها^(٣)، ومصادقاً لذلك أشارت المصادر الإسلامية إلى أن قبيلة ثعلبة كان لها باع طويل في إعداد الخيل اللازم للعمل في المهام الرسمية في الدولة المملوكية على عهد الظاهر بيبرس^(٤). ولا شك أن منطقة سادتها روح الحرب مثل الخليل فترة الحروب الصليبية كانت تنظر إلى الخيل كثروة إستراتيجية .

والجدير بالذكر أن الغابات وحشائش المراعى في إقطاعية الخليل كانت تخضع لسيادة الحاكم الصليبي، وكان دخل تلك الغطاءات النباتية ينقسم الى نوعين : حق الاستحواذ على ماتنتجه الغابة من ثمار أو أى موارد أخرى كالأخشاب، أما النوع الآخر فيتعلق بالمراعى، فمن حق الحاكم الصليبي جباية الضرائب من الرعاة مقابل السماح لهم باستغلالها^(٥). وكان معظم هؤلاء بطبيعة الحال من البدو سواء الرحل أو المستقرين الذين سكنوا الجهات المتاخمة لصحارى الخليل شرقاً وجنوباً. وهكذا يمكن القول إن حرفة الرعى وتربية الحيوان تلى الزراعة في نشاط السكان بل إنها تعد منافسة لها، وذلك سواء في عدد العاملين بها أو من حيث الدخل العام. ومن ثم فإن طبيعة النشاط البشرى في بلاد الخليل تتميز بسمات خاصة تختلف بعض الشيء عن باقى أرجاء مملكة بيت المقدس اللاتينية إذ كانت حرفة الزراعة تعد الحرفة السائدة في مجمل الدولة، أما في الخليل فقد تأرجحت اقتصاديات الإقطاعية بين النشاطين الزراعى والرعوى .

1 - Anselme Adorno , Itineraire , pp . 249 , 252 .

2 - Daniel the Russian , Op . Cit., p. 47 .

عن تصنيف تربية النحل ضمن حرفة تربية الحيوان . راجع : خليل أبو رجلى : الثروة الحيوانية في فلسطين المحتلة ، ص ٧٠ - ٩١ .

٣ - أبو الفضل الدمشقي : الإشارة إلى محاسن التجارة ، مطبعة المؤيد ١٣١٨هـ ، ص ٣ ، راجع أيضاً : عارف العارف : قبائل بئر سيع وعشاثرها ، ص ١٣٤ - ١٤١ ، القضاء بين البدو ، ص ٢٢٧ .

٤ - المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨١ ، ٧١٢ .

5 - Chalandon , F., Op . Cit , p. 356 .

وينبغي في هذا الموضوع ألا تغفل الأهمية الاقتصادية لبعض حشائش الخليل فمنها ما يعد من النباتات العطرية بينما يعد البعض الآخر من الأغذية والأعشاب الطبية^(١). وعلى سبيل المثال ؛ فأعشاب البلسم يستخرج منها زيت البلسم ذو الرائحة الزكية ويوجد بكثرة بالقرب من شواطئ البحر الميت الغربية خاصة عند بلدة عين جدي ، ويكتسب زيت البلسم أهمية خاصة تبلغ حد القدسية عند الصليبيين في الخليل ؛ إذ كان يستخدم في تعطير كنيسة سانت أبراهام^(٢) «وكانت ملوك الفرنج تتغالى في شراء هذا البلسم بثقله ذهباً لأنه لا يتم عندهم التنصير إلا بعد وضع شيء من دهن البلسم في ماء المعمودية وينغمسون فيه»^(٣). ونظراً لاشتهار عين جدي والأراضي القريبة منها بإنتاج عُشب البلسم فقد أصبحت مركزاً لإنتاج وتصدير زيتة إلى جهات مختلفة من بلاد الشام، وربما قامت أيضاً بتصديره إلى أوروبا. وظلت البلدة تحتفظ بهذه الشهرة حتى فيما بعد هذا العصر^(٤). أما عن الزعتر فإنه يضاف إلى الأطعمة، كما أن له فوائده الطبية العديدة^(٥).

وتمثل النشاط التالي لسكان بلاد الخليل في العمل بالصناعة ، والمعروف أنه لم تقم بأى من مدن مملكة بيت المقدس صناعات كبيرة^(٦)، أما بالنسبة للخليل فمن الطبيعي أن تقوم الصناعات فيها وقت الحروب الصليبية على ما توافر بها من مواد خام زراعية وطبيعية ، إذ تفيد المصادر بأن صناعة الخمر قد نشطت في الخليل^(٧)، كما استمرت الأقليات غير المسلمة بعد رحيل الصليبيين في إنتاجها مخالفين قواعد الإسلام في تحريمها^(٨). غير أن أهل الخليل بصفة خاصة لفظوا هذه الصناعة تماماً بل رفضوا إقامة هذه الأقليات بين ظهرانيهم اتقاء لقيام تلك الصناعة من جديد رغم النوعية الممتازة لكروم المنطقة^(٩).

١ - لمعرفة المزيد عن أنواع النباتات العطرية والأعشاب الطبية وتوزيعها والأهمية الاقتصادية لها في بلاد الشام. راجع: نعيم زكى فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، القاهرة ١٩٧٣، ص ١٨٩ - ٢٢٨.

2 - Saewulf . Op . Cit . , p. 24 , Fetellus , Op. Cit . , p. 12 .

٣ - ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج ٤ ، ص ١٤٩ .

4 - John of Wurzburg , Op . Cit . , p. 70 , Anselme Adorno , Op . Cit . , p. 252 .

٥ - الزعتر نوعان : بستاني وبري ، يستخدم في تسكين آلام الضرس إذا مضغ وأوجاع القدمين ويفيد الكبد والمعدة ويخرج الديدان ويدير البول ويشهى الطعام ، ودهنه ينفع الصدر والرئة وينفع من لسع الحيات ، راجع البدرى : المصدر السابق : ص ١٧٣ - ١٧٤ .

6 - Runciman , S., Op. Cit . , Vol . V, p. 19 , Prawer, J., The Latin Kingdom, p. 362 .

7 - Fetellus , Op . Cit . , p. 12 .

8 - Prweer , J., Loc . Cit .

كانت المنطقة قد اشتهرت قبل الإسلام بصناعة النبيذ ، وتدل تكرار لفظه «قط» - التى تعنى معصرة بالعبرية - فى مسميات البلاد عن ذلك ، راجع : التدمري : مشير الغرام ، ص ١٦٠ ، ص ١٦٤ . راجع أيضاً .

Guérin, V., Op. Cit., Part II, p. 317

9 - Volney, M., Volney's Travels , Vol ., II , p. 325 .

وقد قامت على محصول الكروم صناعات أخرى بسيطة بغرض تعبئة المحصول الوفير سواء قبل الوجود الصليبي أو أثناءه أو بعده ، فكان للأهالي عدة طرق لصنع ألوان من الغذاء الخاص أساسها الكروم، وكذلك عدة طرق لحفظه ، وهى طرق عرفها أهل الخليل فقط^(١)، ومن أهم هذه الصناعات صناعة الزبيب ؛ حيث كان يقدم كأحد ألوان الأطعمة فى ضيافة الخليل قبيل الغزو الصليبي^(٢). وتؤكد الوثائق على استمرار وجود صناعة تجفيف العنب إبان العصر الصليبي وقيام إقطاعية الخليل الصليبية، إذ كان همفرى الثانى الذى امتلك أراضى فيها قد منح رهبان دير القديس عازر المجذومين فى بيت المقدس عام ١١٤٨م/ ٥٤٣ هـ منحة عبارة عن عشرة قناطير زبيب يتم الحصول عليها سنوياً إضافة إلى عشرة بيزنطات من ريع الأراضى المحيطة بالخليل ، وقد استمر العمل بالمنحة بعد وفاته^(٣). كما اهتم رهبان أديرة تقوع بصناعة الزبيب وغدت من أهم أنشطتهم إبان العصر الصليبي^(٤). ويعتقد أن هذه الصناعة قد شهدت تطوراً كبيراً بعد تحريم صناعة الخمر حين تم القضاء على الوجود الصليبي فى المنطقة^(٥). ولم تقتصر استفادة أهل الخليل من الكروم على هذا النحو ، إنما استخرجوا منه أطعمة أخرى كالديس والملين، إضافة إلى أدوية تضمد بها الجروح وتسكن الصداع وتعالج كثير من الأمراض الباطنية^(٦).

وكانت صناعة استخراج عسل النحل (الترياق) من أشهر الصناعات الغذائية فى بلاد الخليل وقت الحروب الصليبية فيخبرنا دانيال الروسى أن الصليبيين قد عرفوا استخلاص عسل النحل بتربية النحل الذى كان يبنى خلاياه فى صخور جبال الخليل رائعة المنظر المكسوة بالأشجار المثمرة من الفواكه والثمار الأخرى^(٧). وكانت قرية تقوع قد ذاع صيتها بإنتاجها للعسل ، وفى ذلك يقول ياقوت الحموى : «يضرب بجودة عسلها المثل»^(٨). كما قامت على فاكهة البلح صناعات بسيطة مثل تجفيفه وعصره ، وهناك نوع آخر من العسل كان يستخرج من هذا العصير ذاع استخدامه بين الصليبيين^(٩).

ومن الصناعات الرئيسية فى الخليل وقت الحروب الصليبية صناعة استخراج زيت الزيتون، التى كانت من أهم الأنشطة الصناعية فى الأراضى المقدسة، وكذلك من قبل

1 - Karmon , Y., Op. Cit ., p. 72 .

٢ - المقدسى: أحسن التقاسيم ، ص ١٨٠ ؛ ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ٣٤ .

3 - De Marsy , A., Fragment d'un Cartulaire d'Order de Saint - Lazare , A. O. L, Vol . II , B, p. 127 .

4 - Mayer, H. E., B. K. S., p. 329 .

5 - Karmon, Y., Israel Regional Geography , p. 49 .

٦ - البدرى : المصدر السابق ، ص ١٣٤ ، ١٤٠ .

7 - Daniel the Russian , Op . Cit ., p. 47 .

٨ - ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٧ .

9 - Prawer , J, The Latin Kingdom , p. 363 .

مجيء الصليبيين. واستمرت هذه الصناعة قائمة طيلة فترة الاستيلاء عليها^(١)، وقد انتشرت المعاصر في جميع قرى الأراضى المقدسة تقريباً، وشجع على قيام تلك الصناعة، الطلب المتزايد محلياً على زيت الزيتون، فقد كانت ضيافة الحرم الإبراهيمي تستهلكه بكثرة في إعداد الوجبات التي كانت تقوم بتوزيعه^(٢). ويبدو أن صناعة استخراج زيت الزيتون كانت احتكاراً ملكياً في القرى التابعة لسلطة ملك بيت المقدس، وهذا يعني أن الملك الصليبي كان مسئولاً عنها، كما يحذر على أصحاب المعاصر ممارسة هذه الصناعة إلا بعد أن يمنحهم الملك تصريحاً خاصاً، على أن يقوم أصحاب المعاصر بدفع مبلغ من المال نظير الموافقة لهم على ذلك^(٣). وهذا يوضح أن صناعة استخراج زيت الزيتون في إقطاعية الخليل الصليبية خضعت لفترات طويلة لهذا النظام القائم على الاحتكار لوقوعها تحت النفوذ القوي للتاج الملكي.

وهناك مصدر آخر للزيوت النباتية عرفته أيضاً بلاد الخليل وهو السمس، الذي كان يزرع صيفاً مكملاً للدورة الزراعية، وكانت تبعث من زيتة رائحة نفاذة زكية، ولذا حظى بتقدير كبير من أهالي منطقة الشرق الأدنى^(٤). ويبدو أن استخراج زيت السمس قد خضع هو أيضاً للقواعد الملكية ذاتها المطبقة على استخراج زيت الزيتون، وهذا بدوره يشير إلى أن صناعة استخراج الزيوت كانت تعود بدخل له أهميته يضاف إلى خزانة ملك بيت المقدس اللاتيني.

أخيراً، وفيما يتعلق بصناعة السكر إبان الوجود الصليبي في بلاد الخليل فأغلب الظن كانت محدودة، ومع ذلك نجد إشارات لها في المصادر الصليبية^(٥)، ومن الطبيعي أن تقوم صناعته في مناطق زراعة قصب السكر حيث صغر في غور الصافي، وعند الجداول المنحدرة إلى البحر الميت. ومن الثابت أن المنطقة عرفت هذه الصناعة منذ بضعة قرون قبل الحروب الصليبية، واستمرت تلك الصناعة قائمة بخبرة بعض الأهالي من جزيرة قبرص ذوى البشرة السمراء حتى عصر الحروب الصليبية^(٦). ويؤكد الأثريون قيام صناعة السكر في جنوب شرقي الخليل وشرقي الأردن، ويدللون على ذلك بالعثور على طواحين للسكر في هذه الجهات ترجع إلى عصر الحروب الصليبية^(٧).

١ - المقدسى : المصدر السابق ؛ ص ١٨٠ ، ناصر خسرو : المصدر السابق ، ص ٣٣ .
Burchard of Mount Sion , Op. Cit., pp. 64 , 102 , Cf. Als . Prawer , J., the Latin Kingdom , p. 361 .

٢ - ناصر خسرو : المصدر السابق ، ص ٣٤ ؛ العمرى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢١٠ - ٢١١ .

٣ - سعيد البشاوي : نابلس ، ص ٢١٧ .

٤ - ناصر خسرو : المصدر السابق ، ص ٣٣ : انظر أيضاً :

Volney , M., Volney's Travels , Vol. II , p. 326 .

5 - Jacques de Vitry , The History of Jerusalem, trans By Aubrey Stewart , in P.P. T. S., Vol. XI, London 1896 , pp. 115 , 116 .

6 - De Mas tatrie , Histoire de L'ille Chypre sous Le Regne de La Maison de Lusignan , Paris 1852 , Vol. II, No. 1, p. 95, Paris 1855, Vol. III , No. 2, p. 88 .

7 - Rey , E. G., Les Colonies Franques , p. 396 .

وإذ نحن بصدد التعرف على نشاط الصناعة فى إقطاعية الخليل الصليبية فهناك جانب آخر على قدر كبير من الأهمية ، ألا وهو صناعة استخراج المعادن والمواد الخام ، والثابت أن أهم مصدر لتلك الموارد يتمثل فى البحر الميت^(١)، الذى لعب الدور الأول فى النهوض بالصناعات المختلفة فى المنطقة. ومن أهم الصناعات التى تأكد قيامها فى إقطاعية الخليل صناعة استخراج الأملاح فى تقوع ، وربما قرى أخرى غيرها. ويشهد على ذلك مرسوم الملك فولك عام ١١٣٨م/ ٥٣٣ هـ لأهالى القرية يمنحهم أحقية استخراج القطران والملح ، وذلك ضمن عقد المبادلة الذى تم بموجبه منح القرية لكنيسة القيامة مقابل التنازل عن قرية بيشانى^(٢). وعلى الرغم من أن تقوع لا تطل على البحر مباشرة إلا أنها قامت بهذا الدور ، وهذا يعنى أن الأهالى كانوا يخرجون إلى الشاطئ لممارسة عملهم أو أنهم كانوا مضطرين إلى حمل مياه البحر على ظهور الدواب إلى القرية للتعامل معها نشرًا وتجفيفًا وتطهيرًا بغرض استخراج الملح ثم تسويقه.

أما عن الكيفية التى تعامل بها أهالى الخليل مع ثروات البحر الميت المختلفة فلم تكشف المصادر عن الطرق المستخدمة فى إنتاجها وتسويقها، اللهم إلا الإشارة إلى جمع بعض عناصر البحر عند الشاطئ بعد انحسار المياه^(٣) بفعل ظاهرة المد والجزر، أو استخدام أحواض صناعية يسعى السكان إلى حفرها لحجز كميات من المياه فيها. والمراجع الحديثة توضح بعض الأساليب التى ربما تسر فهم ذلك؛ فمن حيث الإنتاج كان أهل الخليل يستخدمون وسيلة بدائية لاستخلاص الأملاح من مياه البحر وذلك بوضعها فى ثلاثة أحواض متفاوتة الحجم ، بحيث يتم انتزاع كلوريد الصوديوم من أكبرها بعد التبخير ، ثم ينتزع الماغنسيوم من الحوض الأوسط، ويتبقى فى الحوض الأصغر مادة البوتاس، وفى مراحل تالية أخرى من التبخير يمكن استخلاص عناصر ملحجية أخرى^(٤). أما من حيث التسويق فكان البدو قد احتكروا منذ عهد بعيد الاتجار فى الأملاح بنقلها على ظهور الجمال مما كان يعود عليهم بثروات طائلة. وظل الملح يشكل دعامة أساسية فى اقتصاد المجتمع البدوى القائم فى المنطقة^(٥).

1 - Chalandon , F., Op. Cit ., p. 36 .

قام أحد الباحثين بدراسة جغرافية تاريخية أثرية حول البحر الميت ، تعرض فى جانب منها إلى اقتصادياته وأهم ما يحتويه من مواد خام مع تحديد دقيق لمدى إمكانيات البحر المختلفة وخاصة فى مجال إنتاج الأملاح ، وأهم ما خلص إليه أن البحر يحتوى على حوالى ألفى مليون طن بوتاسيوم وتسعمائة وستين مليون طن ماغنسيوم وأحد عشر ألفاً وتسعمائة مليون طن من كلوريد الصوديوم (ملح الطعام) علاوة على كميات ضخمة من الأملاح الأخرى . انظر .

Abal, F. M., La Mer Morte, en Revue Biblique , Paris 1929 , pp. 237 - 240 .

2 - Bresc - Bantier , J , Le Cart. de chap., Doc. No. 34 , pp. 98 - 101 .

3 - Fetellus , Op. Cit., p. 11 .

4 - Abel , F. M ., Op. Cit , pp. 240 - 242 .

٥ - عارف العارف : القضاء بين البدو ، ص ٢٢٦ . ويوضح هذا الباحث أن تجارة الملح كانت تقوم على المقايضة ، حيث يستبدل جمل من الملح بجمل من الحبوب .

أما عن نشاط أهالي تَقْوَع وبلاد الخليل الأخرى فيما يتعلق بتجميع القطران، فلحسن الحظ أمدتنا المصادر بتفاصيل أخرى عن تلك الأنشطة وقت الحروب الصليبية بل قدمت ألواناً إضافية من الأنشطة تستهدف الاستفادة من الموارد الطبيعية للبحر الميت؛ فذكرت أنهم قاموا بتجميع مادة القطران الطافية على سطح ماء البحر والتي ترسب على شاطئيه، وكان العرب قد عرفوها باسم الحُمْر، كما سمعهم الرحالة الصليبيون يطلقون عليها اسم القطران Katranum^(١). بينما عرفها الصليبيون باسم القار اليهودي Jewish Pitch، وتسرب هذا الاسم إلى العرب. فذكره البعض «قفر اليهود»^(٢). والواضح أن استخراج القطران قد شهد نشاطاً كبيراً وقت الحروب الصليبية حتى أن البحر الميت عرف لدى الفرنج باسم بحر الأسفلت Asphalteet^(٣)، ويعد القطران الذي يستخرج أنقى الأنواع^(٤).

وتكمن أهمية القطران الاقتصادية بالنسبة لإقطاعية الخليل الصليبية في عدة نواحي؛ فهو يستخدم في تلطix جذوع الأشجار والتخليل لحمايتها من بعض الديدان الضارة^(٥)، فضلاً عن أنه ذو أهمية قصوى لاستخراج الأدوية اللازمة لمعالجة الجرب الذي يصيب الإبل^(٦)، ويستعمله الصيادلة من أجل صيانة العقاقير من الحشرات. كما أن مادة القطران كانت تمثل أهمية كبيرة بالنسبة لعمال البناء والبحارة^(٧). وبتتبع ما ورد بالمصادر المعاصرة يتبين أن القطران استخدم بالفعل في صناعة السفن حيث يذكر أبو الفضل الدمشقي عن تلك الصناعة «فإذا أريد المبالغة في الاحتياط التام عُشيت [السفن من الداخل] بالخيوش الكتانية وزفت». وهذا يشير إلى إدخال الصليبيين القطران في صناعة السفن. ولعل ما شهدته الخليل من نشاط بحري على يد الأمير رينو دي شاتيو ما يؤكد مشاركتها في هذا النشاط. ووفقاً لما ورد في الوثائق كانت تقوَع تمثل أهم مراكز استخلاص تلك المادة^(٨)، وساعدها على ذلك وقوعها على الطريق المؤدى من البحر الميت إلى بيت لحم والقدس^(٩).

١ - الإدريسي: المصدر السابق، ص ١٢٤؛ الأنصاري الدمشقي: المصدر السابق، ص ١٢١.
Fetellus, Op. Cit., p. 12, John of Wurzburg, Op. Cit., p. 60, Theoderich, Op. Cit., p. 51.

2 - Theoderich, Loc. Cit.

- الأنصاري الدمشقي: نفسه.

3 - Fulcher of Chartres, Op. Cit., pp. 133, 145 - 147, Willian of Tyre, Op. Cit., Vol. I, pp. 336, Vol. II, p. 390.

4 - Mayer, H. E., B. K. S., p. 379.

٥ - ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١٦٩؛ ناصر خسرو: المصدر السابق، ص ١٥؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص ١٢٤. Fetellus, Op. Cit., p. 12.

6 - Ibid, Loc. Cit.

٧ - ناصر خسرو: نفسه. Theoderich, Loc. Cit., Cf. Als, Mayer, H. E., B. K. S., p. 379.

٨ - أبو الفضل الدمشقي: الإشارة إلى معرفة محاسن التجارة، ص ٩ - ١٠.
Bresc. Bautier J., Le Cort. du Chap., Doc. No. 34, pp. 98 - 101.

9 - Mayer, H. E., B. K. S., p. 379.

ومن الموارد الطبيعية التى استخرجها الأهالى من ضفتى البحر الميت إبان الوجود الصليبي فى بلاد الخليل مادة الشبة^(١). والشبة محلول ملهى يفرش الأرض وحينما يسقط المطر تتحول إلى خليط من المادة اللدنة وماء البحر، ومع حلول فصل الصيف بحرارته الشديدة يتم تبخرها ويستخلص منها المادة التى تعرف بالشبة، وهى تعكس ضوءاً متألئاً متعدد الألوان^(٢). وللمادة أهمية خاصة إذ إنها تستخدم فى تنقية ماء الشرب، كما أنها تدخل فى صناعة الأدوية. والمعتقد أن الصليبيين سيطروا على السوق التجارية لهذه المواد بصفقتهم أصحاب السيادة فى المنطقة، الأمر الذى لا بد أنه قد عاد عليهم بدخل كبير، وخاصة أن المواد المنتجة من البحر الميت تعد من العناصر النادرة التى تحتاجها الأسواق العربية المجاورة سواء فى مصر أو الشام علاوة على أسواق الفرنج فى الشرق بل وأوروبا أيضاً.

هكذا برزت تقوع كمركز لحرفة استخراج المواد الأولية من البحر الميت واكتسب أهلها شهرة ذائعة فى هذا المضمار، ولكن تتوقف هنا للإلقاء بعض الضوء على المعلومات التى قدمتها لنا الوثائق بداية من عام ١١٣٨م/ ٥٣٣ هـ وقام بموجيها ملوك بيت المقدس بمنح أهالى القرية حق استخراج القطران والملح من البحر، كما أسندوا القرية بما حوت من سكان إلى كنيسة القيامة عوضاً منهم عن التنازل عن قرية ييشانى. وأشارت نفس الوثائق إلى أن هؤلاء السكان كانوا من العرب والبدو تأكيداً لما كانت المصادر قد أوردته فى هذا الصدد، وعلى ذلك يمكن أن نجزم بأن العرب هم أصحاب تلك الحرف وأنهم كانوا يعملون فيها لصالح الفرنج بصفقتهم أهل السلطة. وعليه فلدى الباحث الأسباب التى تدفعه إلى تقييم الدور الذى لعبه الحكام الصليبيون فى مجال الصناعات بأنه دور محدود رغم حركتها النشيطة فى هذا العصر، ويرجع الفضل فى ذلك إلى ما اضطلع به الأهالى من دور ولكن عادة ما ينسب النجاح إلى الحكام. غير أنه من المهم معرفة من هم هؤلاء الحكام؟ وفى الواقع كانوا هم ملوك بيت المقدس بالدرجة الأولى، الذين احتفظوا بأهم المراكز الصناعية فى الخليل بحوزتهم حيث تقوع، حتى تنازلوا عنها فى التاريخ المذكور إلى كنيسة القيامة، ويبدو أنه حتى ذلك الوقت اقتصرت مهمة حكام الخليل الصليبيين على الإشراف على الصناعات فى المنطقة بتوجيه من الملك.

1 - Fetellus , Op. Cit , p. 12, John of Wurzburg, Op. Cit , p. 60 .

وقد أشار الرحالة ثيودريك أيضاً إلى استخراج مادة الشبة غير أنه التبس عليه الأمر حينما ظن خطأ أن المسلمين أطلقوا على الشبة اسم القطران . راجع :

Theoderich , Op. Cit., p. 54 .

2 - Fetellus , Op. Cit , p. 12 .

لم تكن الموارد الطبيعية قاصرة على ما يجلب من منطقة البحر الميت فحسب، فهناك جهات أخرى فى إقطاعية الخليل تشتمل على موارد طبيعية إضافية حرص الصليبيون على استغلالها، إذ تشير المصادر الإسلامية السابقة على الغزو الصليبي إلى أن بيت جبرين تعد مركزاً لإنتاج مادة الرخام^(١). ويؤكد وليم الصورى على أن الفرنج استمروا فى استغلال مواد البناء من أحجار ورخام التى تجلب من بيت جبرين للحركة العمرانية، ليس فقط لقلعة المدينة وإنما لكثير من الإنشاءات الصليبية الأخرى^(٢). وبالنظر إلى بقاء بيت جبرين فترة غير قصيرة تحت ظل الحكم الصليبي فى إقطاعية الخليل وفى وقت تضاعفت فيه عمليات البناء والتشييد فى شتى المجالات العسكرية والمدينة يصبح واضحاً أن المواد الأولية التى قدمتها بيت جبرين كانت لها أهمية خاصة فى هذا العصر ليس فقط بالنسبة لبلاد الخليل بل أفادت منها جهات صليبية أخرى.

لم يقتصر نشاط أهالى بلاد الخليل الصناعى على الصناعات الغذائية واستخلاص الزيوت واستخراج الأملاح وغيرها، بل أصبح من الثابت أنهم استغلوا مواردهم الطبيعية فى تصنيع سلع أساسية أخرى مثل الصابون الذى كان يباع للبدو^(٣)، وهذه الصناعة تؤكد على أن الأهالى استغلوا منتجاتهم من الزيت ومادة الصودا الكاوية المستخرجة من البحر الميت فى إنتاجه، وكذلك فمن أشهر صناعات بلاد الخليل على عهد الصليبيين صناعة دبغ الجلود؛ فقد عُرِفَت الخليل على مر العصور بأنها المركز الوحيد فى فلسطين الذى يقوم بتصنيع قرب المياه المصنوعة من جلود الماعز^(٤)، وكذلك الأبسطة والملابس المصنوعة من جلود الخراف^(٥)، ولما كانت هذه الصناعة تحتاج إلى الماء فى إتمام عملية الدباغة فيعتقد أن تكون قد قامت بالقرب من الصحاريح الواقعة فى وسط الخليل.

وفى إطار الحديث عن الصناعة فى الخليل فترة الوجود الصليبي بها يطالعنا أحد الباحثين الحديثين بأن المدينة تميزت بتصنيع منتجات زجاجية متطورة فى ذلك العصر^(٦). وبمراجعة المصادر المختلفة المتاحة لدى الباحث لم يستدل على أية إشارة إلى قيام صناعة الزجاج فى بلاد الخليل إبان الوجود الصليبي بها. بيد أنه فى أوائل القرن الرابع عشر

١ المقدسى : المصدر السابق، ص ١٧٤.

2 - William of Tyre , Op. Cit ., Vol II , pp. 81 - 82 .

٣ - المقدسى : نفسه . راجع أيضاً .

Isaac Ben Joseph Ibn Chedo , The Roads from Jerusalem 1334 A. D., in : J. T. , P. 136 , Volney, M., Op. Cit ., Vol . II, p. 325 .

4 - John of Wurzburg , Op. Cit., p. 32 , Cf . Als., Vigouroux , F., Hebron, Col. 561 .

٥ - عارف العارف : القضاء بين البدو ، ص ١٧٤ ، راجع أيضاً .

Karmon , Y., Op. Cit ., p. 77 .

6 - Chalandon , F ., Op . Cit ., p. 360 .

الميلادى/ أوائل الثامن الهجرى عرفت الخليل صناعة الزجاج وأنها احتكرتها لفترة، كما كانت تقوم بتصدير منتجاتها إلى كل من الشام ومصر . وظلت المدينة تحتفظ بمكانة خاصة فى صناعة الزجاج لعدة قرون تلت^(١). وهكذا فمن الصعب تخيل قيام تلك الصناعة فى الخليل أثناء الوجود الصليبي بها، رغم ما توافر فيها من عناصر نجاح هذه الصناعة، حيث توافرت مادة الصودا الكاوية والرمال وكذلك الوقود اللازم لإدارة أفران الصهر .

ومن الصناعات الخفيفة التى انتشرت فى إقطاعية الخليل الصليبية صناعة الصبغة التى كادت أن يحتكرها اليهود فى هذا العصر . وفى هذا الصدد برزت شخصية إبراهيم ابن سعدية، الصَّبَّاغ الكبير الذى أشارت إليه رحالة اليهود لجيل كامل^(٢) . ويلاحظ أن هذه الصناعة اعتمدت أيضاً على مواد طبيعية كانت تستخرج من نباتات حول البحر الميت . وهناك صناعات شاعت بين البدو وتعلقت بحياتهم اليومية كصناعة الجبن وصناعة الخيام من شعر الماعز وطحن الغلال وغزل الصوف والقطن والحريز على أنوال يدوية . وقد نشطت المرأة البدوية بصفة خاصة فى هذه الأنواع من الصناعات^(٣) .

وبعد التعرف على أهم أوجه النشاط الزراعى والرعى والصناعى فى إقطاعية الخليل الصليبية فمن الطبيعى حتى تكتمل لنا صورة الحياة الاقتصادية أن نتعرف أيضاً على النشاط التجارى فترة الحروب الصليبية بها، وينقسم النشاط التجارى بدوره إلى قسمين ، تجارة داخلية وأخرى خارجية ؛ فبشأن التجارة الداخلية ؛ فقد شهدت الخليل نشاطاً تجارياً محلياً ملموساً؛ إذ يشير ياقوت الحموى - الذى دَوَّن كتاباته فى وقت لايزال الصليبيون فيه يقيمون ببلاد فلسطينية أخرى - إلى وجود سوق بالخليل^(٤)، ويعتقد أن هذه كانت السوق الرئيسية فى منطقة جنوب فلسطين الداخلية نظراً لقيامها فى أهم المدن بها وهى الخليل ، وقد كان لدى الأهالى أثناء الوجود الصليبي وبعده ما يصدرونه من موارد زراعية وصناعية تتمثل فى الكروم الطازج ومنتجاته المعبأة المختلفة . وكذلك المنتجات التى كانوا يستخلصونها من مياه البحر الميت وعلى رأسها القطران والبتاس والأملاح والشبة، علاوة على الزيوت والصابون ومنتجات أخرى، ولذا فعلى الأرجح

1 - Isaac Ben Joseph Ibn chelo, The Roads from Jerusalem , p. 136 , Anselam Adorno , Iteneraire , p. 25.

نوه فولنى إلى المصنع القديم فى أثناء زيارته للخليل فى القرن الثامن عشر الميلادى وذكر أنه مصنع الزجاج الوحيد فى بلاد الشام قاطبة . مما يترك انطباعاً بأن صناعة الزجاج ظلت قائمة بشكل متقدم طيلة هذه القرون . راجع .

Volney, M., Volney's Travels , Vol . II , p. 325 .

2 - Petachia of Ratisbon , Op. Cit., p. 90 , Samuel Ben Samson, Op. Cit ., p. 105 .

3 - Volney, M., Op. Cit., Vol . II, pp. 325 - 326 .

٤ - ياقوت الحموى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٨٧ .

أن السوق التي أشار ياقوت الحموي إليها كانت مقامة إبان الوجود الصليبي بها لتقوم بنفس النشاط التجارى وذلك بإتاحة الفرصة أمام التجار لتسويق السلع المنتجة أو لشراء السلع غير المتوفرة لديهم، وفى المقابل كان التجار الصليبيون يأتون إلى تلك السوق من شتى أرجاء المملكة لبيع سلعهم وشراء ما يلزمهم من منتجات الخليل غير المتوفرة فى بلادهم .

ويلاحظ أحد الباحثين الحديثين أن الخليل شأنها شأن المدن الداخلية الأخرى فى المملكة الصليبية لم تكن تجذب أنظار التجار الإيطاليين لأنهم فى معظمهم تجار جملة، ولذا لم نشهد لهم مراكز تجارية فى المدن الداخلية^(١)، وهذا بالفعل ما لاحظته الباحث أيضاً . إلا أنه يجب أن يؤخذ فى الاعتبار أن النشاط التجارى للتجار الإيطاليين كان يقوم أساساً على التجارة الدولية بدليل ظهوره بكثافة فى الموانئ الساحلية ، أما سوق الخليل فقد احتلت مركزها المرموق من خلال وقوعها فى ملتقى طرق التبادل التجارى أو الربط بين المناطق التى تختلف مواردها الاقتصادية فى الداخل، والمعروف أنه فى وسط تلك الظروف تنشط التجارة القائمة على المقايضة . وكان بروز الخليل كمركز رئيسى للتسويق فى صالح القبائل البدوية ، سواء فى تسويق سلعهم أو انخراطهم فى العمل بالتجارة حتى أصبحوا من أمهر التجار، وقد انصبت سلعهم التجارية على المنتجات الحيوانية مثل: (الصوف والجن) ومن الطبيعى أن المشترين لم يكونوا من المستهلكين فقط، بل من تجار الجملة أيضاً .

أما عن التجارة الخارجية لبلاد الخليل فقد نشطت بين المسلمين والصليبيين منذ البداية، فأخذ عرب عسقلان يذهبون فى أمان إلى مناطق الفرنجة للمتاجرة فى حين كان الصليبيون يقصدون عسقلان لقضاء مطالبهم دون خوف^(٢) . وأشار الرحالة الصليبي يوحنا أف فرز برج إلى أن الفرنج كانوا يصدرون الثمار التى تطرحها تربة الخليل الخصب إلى مصر بأعلى الأثمان^(٣) . كما كانت القوافل التجارية الإسلامية تحتاز البلاد الواقعة تحت السيطرة الصليبية؛ وفى ذلك يقول ابن جبير الذى زار بلاد الشام سنة ١١٨٤م/ ٥٨٠ هـ «واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع»^(٤) . كما أقدم التجار المسلمون على دفع الضرائب للصليبيين أثناء عبورهم للبلاد الخاضعة للسيطرة الصليبية، وكذلك الحال بالنسبة للتجار المسيحيين الذين يجتازون البلاد الإسلامية فإنهم كانوا يؤدون الضرائب على تجارتهم، وكان الاتفاق بينهم يقوم على هذا

1 - Praver, J., The Latin Kingdon , p. 87 .

2 - Albert d'Aix , Op . Cit . , p . 516 .

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ، ص ٢٦٥ .

3 - John of Wurzburg , Op . Cit . , p. 59 .

٤ - ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٠٠ .

الأساس في جميع الأحوال^(١) ولما كان هناك سوق متخصص في تجارة الحيوانات يتعقد مرتين سنوياً عند سهل الميدان في إقليم حوران حيث اعتاد الفلاحون والبدو بيع الجمال والخيل والبغال والمواشي^(٢)، فيصبح من الأرجح أن بدو بلاد الخليل وتجارها يعتبرون من الرواد الأوائل لهذا السوق، إذ كانت حرفة الرعى تعد من أنشطتهم الرئيسية .

على أن الدور الأساسي الذي لعبته بلاد الخليل في مجال التجارة يتمثل في اختراق بعض القوافل التجارية أراضيها بشكل مكثف عصر الحروب الصليبية ، ومن الضروري التعرف على طرق التجارة الدولية في بلاد الشام أولاً كي تتضح لنا أهمية الطرق المارة بالخليل في ذلك العصر، ففي ظل السيادة الإسلامية « اتصل وصول القوافل إلى مصر من المشرق والمغرب وكل البلاد »^(٣) وهذا بدوره يبرز أهمية المراكز التي دأبت القوافل على المرور بها ومنها الخليل، وكان الطريق الرئيسي للتجارة هو الطريق الساحلي Via Maris ويصل بينها وبين الشام وهو يمتد على طول السهل الساحلي من سيناء حتى سفح جبل كرميل Mount Carmel (الواقع جنوب غرب إقليم الجليل)، من هناك يتحول الطريق تجاه وادي الأردن ويعبره إلى دمشق ، ومنها يستمر الطريق الرئيسي إلى شمالي الشام أو العراق . أما الطريق المقابل فيخترق بلاد الخليل حيث يأتي من العراق والشام إلى شرقي الأردن فيصل إلى بيسان ومنها إلى ميناء عكا على البحر المتوسط^(٤)، وهناك فرع آخر من الطريق يبدأ من بيسان ماراً ببيت المقدس ثم الخليل ثم بيت جبرين، والأخيرة كانت تعد البوابة الرئيسية لجميع طرق النقب وبالذات مصر^(٥) ويعرف بالطريق الجبلي ، أما الطريق الأخير فهو داخلي ، يمتد من بلاد الشام مروراً بالسهول الغربية من نهر الأردن ثم شرقي البحر الميت ، وصولاً إلى أيلة على رأس خليج العقبة ، ويتفرع الطريق منها إما إلى الحجاز أو إلى مصر ، وهو يعد طريقاً تجارياً عسكرياً^(٦) علاوة على أنه طريق الحج الإسلامي الرئيسي حتى عرف الجزء المار في بلاد الشام منه باسم درب الحجاج^(٧) .

١ - ابن جبير : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ ؛ سعيد البشاوي : نابلس ، ص ٢٢١ .

٢ - ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٤٣٠ ، راجع أيضاً .

Prawer, J., Crusader Institutions , p. 475 .

٣ - ابن مفرج الإسكندراني : سير البيعة المقدسة . مخطوط بدار الكتب المصرية ، ج ٣ ، لوحة ٨٦ - ٨٧ ، انظروا أيضاً : ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٣٠ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٤٤٩ . وعن شبكة الطرق المارة ببلاد الخليل ، راجع : خريطة رقم (٣) .

٤ - ابن حجر العسقلاني : رفع الإصر عن قضاة مصر ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢١١٥ تاريخ ، ورقة ٥٦ (ج) .

Encyclopedie d'Es-lam, Art. Al - Khalil .

٥ - المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٨٤ راجع أيضاً

Rily - Smith , J., The Knights of St. John, p. 463 , Karmaon , Y., Op. Cit ., p. 74 .

6 - Benvenisti , M., Op. Cit ., p. 319 .

7 - Richard , J., The Latin Kingdom , p. 87

وبعد أن جاء الصليبيون حدث تغيير رئيسى فى شبكة الطرق المذكورة، حيث أصبح الطريق الداخلى الذى يربط الشام بشرقى الأردن ثم إلى الحجاز ومصر هو الطريق الوحيد الصالح للاستخدام بالنسبة للمسلمين، حتى حين توقف مؤقتاً الطريقان الآخران الساحلى والداخلى عبر الخليل، وفقاً للتغيرات السياسية التى طرأت بقيام إقطاعية الخليل الصليبية علاوة على الكيانات الصليبية الأخرى. وفى عام ١١٠٠م/٤٩٣ هـ هدد الصليبيون طريق شرقى الأردن غير أنه لم يتم لهم السيطرة عليه^(١). وفى عام ١١٠٧م/٥٠١ هـ تعرض نفس الطريق لخطر جديد بغارة صليبية ولكنها ما لبثت أن انتهت دون نتائج مؤثرة، وفى عام ١١١٥م/٥٠٩ هـ تمكن الصليبيون من الوصول إلى أطراف الصحراء، وتم تشييد قلعة الشوبك بحيث تشرف على الطريق، ثم أعقبوا ذلك بالاستيلاء على أيلة بعد عام واحد تقريباً^(٢)، وتم تحصين جزيرة فرعون التى تقع فى مواجهتها. وبذلك تمكن الصليبيون بالفعل من قطع الاتصال بين الشام ومصر وفرضوا الضرائب على الحجيج وعلى القوافل التجارية، واهتموا بتدعيم الإشراف على الطريق التجارى بإقامة المزيد من التحصينات القوية بحيث أصبحت تضم الكرك وطفيلة والشوبك، والبطراء وأيلة، وبعد هذه الترتيبات أجبر المسلمون على أن يخضعوا تجارتهم لإشراف الفرنج^(٣) عبر إقطاعية الخليل. وتعد بيت جبرين أقرب المراكز الصليبية التى يتم فيها فرض الضرائب على الأفراد والسلع التى تمر تحت حمايتها^(٤)، فمن الطبيعى أن تختار القوافل القادمة من مصر أقصر الطرق وأنسبها فكان الطريق الجبلى غزة - الخليل هو أفضل الطرق المؤدية إلى الشام؛ فلا حاجة إذن لاختراق الطريق الصحراوى الذى يلتف حول قلاع الصليبيين فى شرقى الأردن. غير أن صلاح الدين وضع خطة للتخلص من تلك القيود، فتمكن فى عام ١١٧٠م/٥٦٥ هـ من استرجاع أيلة وقلعة جزيرة فرعون ففتح بذلك طريق مصر - الحجاز، أما طريق درب الحجاج فلم يتم تأمينه إلا بسقوط التحصينات المشار إليها فى يد المسلمين بعد موقعة حطين، وحينئذ عاد طريق الشام - الحجاز ليفتح من جديد.

إن تتبع حركة التجارة على طريق شرقى الأردن يعد أمراً له أهميته؛ نظراً لأنه يترك صداه على الحركة التجارية بالطرق المارة ببلاد الخليل، حيث تحكمم الإقطاعية فى طريقين مهمين للغاية طوال فترة هذه الدراسة، وكلاهما يعد امتداداً للطرق الدولية التى ربطت العراق وبلاد الشام بمصر والعكس، وفى الحقيقة لم يكن ذلك النجاح وليد

1 - Fulcher of Chartres , Op. Cit . , pp . 144 - 145 .

2 - Albert d'Aix , Op. Cit. , pp . 548 , 636 , 703 , 708 , Fulcher of Chartres , Op. Cit . , p. 218 .

3 - Grousset, R., Op. Cit . , Vol. II, p. 160 .

4 - Delaville le Raulx., C. G. O. H., Vol . I, Doc. No, 116, [[. 97 - 98 .

ولمعرفة المزيد عن الأساليب المتبعة من قبل الصليبيين لنقل التجارة وفرض الرسوم وقضية أمن الطرق راجع : Benvenisti , M., Op. Cit. , pp . 314 - 315, 312 .

الظروف السياسية والحاجة الاقتصادية الملحة فحسب، بل يُعزى أيضاً إلى اهتمام أولى الأمر فى إقطاعية الخليل الصليبية إذ اهتموا بتأمين الجزء الخاص بهم من هذين الطريقين؛ وفيما يختص بالطريق الأول وهو الطريق الجبلى الذى يأتى من بيت لحم عبر وادى الخليل فالكرمل إلى بيت جبرين أو العكس من ذلك ، فكانت الحاجة إليه تزداد إلحاحاً حينما تمنع العوامل المختلفة استخدامه وحينئذ يستخدم طريق شرقى الأردن بديلاً له ، وتمثل المعوقات التى يتسبب عنها تعطيل الطريق الجبلى فى عوامل طبيعية وأخرى دون ذلك مثل: السيول والمستنقعات ، أو تردى الأحوال الأمنية بقطاع الطرق والبدو ، أو اعتداءات الصليبيين المفاجئة نتيجة لانتهاك الهدنة .

تمثل اهتمام الصليبيين بالطريق الجبلى الدولى الداخلى الذى يربط القدس ببيت جبرين بتوفير أسباب الأمن والحماية فيه ، وذلك بإقامة قلاع بيت زكريا^(١) وبيت صور^(٢) وبيت جبرين^(٣)، إضافة لقلعة الخليل ذاتها . أما عن البحر الميت فتؤكد الكشف الأثرية أن الصليبيين شيّدوا قلعة فوق تل مسادة^(٤)، وتم شحن هذه القلاع بحاميات كافية، بدت وكأنها نقاط أمن لضبط الطرق^(٥).

أما عن الطريق الثانى الذى تحكمت فيه الخليل أيضاً فقد نوه إليه المؤرخ الصليبي ألبرت ديكس وهو جزء من الطريق الدولى الداخلى الذى يأتى من مصر إلى عسقلان وغزة ثم يمر من خلال وادى الحسى جنوب إقطاعية الخليل الصليبية حيث قريتا الكرمل والسموع حتى بيرة الخليل^(٦). والواضح أن الصليبيين أبدوا حرصهم الشديد على تأمين هذا الطريق الحيوى، فقاموا بتشيد قلعتين فى القريتين المذكورتين علاوة على بعض القلاع الأخرى المغمورة، ولا شك أن مجموعة هذه القلاع قد لعبت دوراً أساسياً فى التحكم فى التجارة المارة عبر هذا الطريق حتى البرية، وتفيد أحد الأبحاث الحديثة التى عالجت الأوضاع فى الخليل فى مرحلة تاريخية لاحقة أن الطريق ينقسم عند بيرة الخليل إلى فرعين: الأول يمر من جنوب البحر الميت حيث قرية صغر نحو شرقى الأردن وباقى الشام ، والفرع الثانى يبدأ من البرية إلى هضبة شرقى الأردن والشرارة عبوراً بالبحر الميت

1 - Johannes Phocas , Op. Cit ., p. 30 .

2 - Benvenisti , M., Op. Cit ., pp. 316 - 317 .

3 - William of Tyre, Op. Cit ., Vol II, p. 82 .

4 - Abel , F. M., La Mer Morte , pp. 253 - 255 .

تقع مسادة على بعد ثلاثة كيلو مترات من البحر الميت بينما تبعد عن عين جدى بسبعة عشر كيلو متراً ،
وثمانين كيلو متراً عن بيت جبرين مروراً بتل عراض . انظر أيضاً : مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ٥ ،
ق ٢ ، ص ٣٢٠ .

5 - Prawer , J., The Latin Kingdom , p. 291 .

6 - Albert d'Aix , Op. Cit., p. 638 , Cf. Als. Beyer , G., Z. D. P. V., IXV , p. 188 .

نفسه^(١)، والدلائل تشير إلى أن التجارة استخدمت الطريق بفرعيه إبان الوجود الصليبي، وعليه يتوقف استخدام هذا الطريق الفرعى على منسوب البحر الميت بتأثير ظاهرة المد والجزر، علاوة على الأمن ومدى التحكم فيه .

ومما يُثبت تحكم إقطاعية الخليل فى هذا الطريق وثيقة دونت فى عام ١١٥٢م/٥٤٧ هـ قام بموجبها سيد بارونية شرقى الأردن الواقعة على الجانب الشرقى من البحر الميت بمنح طائفة الفرسان الإسماعيلية حق المرور عبر البحر^(٢)، وحينما تولى رينودى شاتيو الحكم فى الخليل وشرقى الأردن أكد على حق الطائفة فى هذا الامتياز عام ١١٧٧م/٥٧٣ هـ^(٣). ولا شك أن خضوع الإقطاعيتين (الخليل وشرقى الأردن) لحاكم واحد قد يسر الأمر عن ذى قبل . وعلى أية حال فهذا الامتياز يؤكد قيام حركة تجارية نشطة ومرور القوافل بين الأراضى الواقعة على البحر الميت بشقيها، ومما يدعم هذا الأمر ويؤكدده تلك الإشارة التى وردت على لسان الرحالة الإدريسي أثناء الوجود الفرنجى فى المنطقة - ويلاحظ أنه لم ينقلها عن المصادر الإسلامية السابقة عليه التى أتيج للباحث الرجوع إليها - حيث يقول عن البحر الميت: «وفيه سفن صغار يسافر بها فى تلك الناحية وتحمل عليها الغلات»^(٤). ويفهم من ذلك أنه فى حالة عدم التمكن من اجتياز القوافل للبحر بفعل ارتفاع منسوب الماء فكان البحارة والتجار يستخدمون السفن الصغيرة فى نقل محتويات القوافل كى تستأنف طريقها بعد نقلها الى الشاطئ المقابل من البحر . أما إذا كانت الظروف البحرية مواتية فمن الممكن فى أوقات يتم تحديدها عبور البرازخ التى تكاد تقسم البحر الميت لتصل بين ساحل برية الخليل عند مسادة وشبه جزيرة اللسان على الشاطئ الشرقى . إذ تعد هذه المنطقة أضيق مسافة تربط بين الشاطئين .

وإضافة إلى الطريقين الدوليين اللذين عرضنا لهما فهناك طرق محلية تمر بأودية إقطاعية الخليل ذاتها ، ولعل أولها وأهمها ذلك الطريق الذى يخرج من بيت المقدس إلى الخليل ماراً بقرى حلحول، بيت صور، تقوع، ثم يستمر إلى سفوح التل المقام عليه قلعة الكرمل إلى وادى الحسى ، فبلدة صغر ، وهذا هو الطريق الرئيسى الذى يصل بيت المقدس بشرقى الأردن^(٥). وإبرازاً لأهمية هذا الطريق ينبغى أن نؤكد على أنه يتألف من جزءين من الطريقين الدوليين اللذين يخترقان أرض الخليل رغم استغلاله فى خدمة

1 - Karmon , Y., Op. Cit., p. 74 .

2 - Paoli , S., Cods . Dipl., Tome I, Doc . No. 29 , p. 60 , Delaville le Roulx , C. G. O. H., Vol . I, Doc. No. 207, p. 160 .

3 - Paoli , S., Cods . Dipl., Tome I, Doc. No. 61 , pp . 62 - 63 .

٤ - الإدريسي : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

5- Prawer, J., Loc. Cit., Benvenisti , M., Op. Cit., pp . 311 - 312 .

التجارة المحلية ، ولم تقتصر أهميته على خدمة بلاد الخليل بل مجمل مملكة بيت المقدس الصليبية ، وذلك فى الجانب التجارى بل تخطته إلى النواحي الحربية . وكما رأينا - فى الفصل الثالث من هذه الدراسة - أن الملك بلدوين الأول قد سلك هذا الطريق عدة مرات أثناء توجيه حملاته إلى شرقى الأردن ، وكذلك الملك عمورى الأول للدفاع عن الأطراف الجنوبية لمملكته من غارات صلاح الدين ، وعليه اهتم الصليبيون بتحسين الكرمل وتشييد قلعتها مستغلين وقوعها بجوار حوض المياه ، كذلك عنوا بتحسين السموع الواقعة على نفس الطريق^(١). ومن ناحية أخرى فقد دعم الطريق الاتصالات التجارية بين بلاد الخليل وشرقى الأردن ، وذلك بعد تأمين السير عليه ، وساعد على ذلك وجود الروابط القبلية بين البدو^(٢).

ومن الطرق الداخلية التى استخدمها الصليبيون فى إقطاعية الخليل ذلك الطريق القادم من بيت المقدس إلى بيت لحم وهو ينحرف مع وادى تقوع إلى البلدة ويخترق بركة الخليل إلى عين جدى ويلتف حول البحر الميت من جهة الجنوب الغربى حتى بلدة صغر ، ويعد هذا الطريق أحد الطرق المستفركة من طريق القدس - الخليل^(٣) ، وهو نفس الطريق الذى اعتاد الزوار استخدامه حينما يقصدون المعالم الدينية الشرقية فى الإقطاعية ، وقد يتوقف التجار أو غيرهم من سالكى هذا الطريق عند مسادة لعبور البحر الميت إلى الساحل الشرقى باستخدام السفن الصغيرة كما تمت الإشارة من قبل ، ويبدو أن هذا الطريق قام بخدمة نقل الموارد المختلفة التى تنتج من البحر الميت للتجار فيها .

أما عن آخر الطرق المحلية فى إقطاعية الخليل فهو يمر بأطرافها الغربية حيث يبدأ من بيت جبرين مروراً بتل الصافية وانتهاء بقرية النظرون ثم بيت المقدس^(٤) ، ونظراً لوقوعه فى منطقة التخوم الإسلامية الصليبية طوال الفترة التى تلت فقد الصليبيين للخليل عام ١١٨٧م/ ٥٨٣ هـ فقد ظل هذا الطريق يعج بالنشاط الحربى الإسلامى والصليبي على حد سواء ، حيث استخدمه كل من صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد أثناء تحركاتهما الحربية بين عامى ١١٩٠ - ١١٩٢م/ ٥٨٦ - ٥٨٨ هـ^(٥) . وهكذا فكثيراً ما نجد أن التجارة اختلطت بأمور الحرب ، وخاصة فى مجال استخدام الطرق ، وكانت طرق بلاد الخليل من أمثلة ذلك .

1 - Willian of Tyre , Op. Cit ., Vol. II, pp. 388 - 389 .

٢ - يذكر الانصارى الدمشقى الذى توفي بعد وقت ليس بطويل من انتهاء الحروب الصليبية فى الشرق ، أن زيت نابلس كان يحمل إلى الديار المصرية والشامية وإلى بلاد الحجاز والبرارى ومع العربان . راجع : نخبة الدهر ، ص ٢٠٠ .

3 - Benvenisti, M., Op. Cit ., pp. 305 , 307 .

4 - Ibid ., p. 311 .

٥ - ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٠٩ - ٢١١ ، ص ٢٢٤ - ٢٣٠ .

Burchard of Mount Sion , Op. Cit., pp. 18 , 24 .

والثابت لدى الباحث أنه بسقوط الحكم الصليبي في الخليل نشطت حركة المرور على الطريق الدولي الجبلى الذى يخترقها ، وبطبيعة الحال واستجابة للظروف السياسية عصر الدولة الأيوبية بخاصة ، كان الطريق يعد طريقاً تجارياً حرياً ويشهد على ذلك تلك القافلة العظيمة التى كانت تضم عسكرياً وسلعاً تجارية فى طريقها من مصر إلى القدس عبر الخليل، بيد أن ريتشارد قلب الأسد تصدى لها فى عام ١١٩٢م/٥٨٨ هـ^(١). كذلك تكررت هجمات المسلمين على القوافل الصليبية بعد استيلائهم الثانى على بيت المقدس عام ١٢٢٩م/٦٢٦ هـ^(٢). وخلاصة القول أن أمن طريق الخليل ونشاط الحركة عليه ارتبطا بحالة الموقف العسكرى بين المسلمين والصليبيين، ولما انحسرت موجة الحروب بينهما بعد ظهور دولة المماليك نشطت حركة التجارة بشكل أوضح استجابة لفترات الاستقرار والهدوء النسبى فى المنطقة. وقد سعى سلاطين المماليك الأوائل إلى دفع حركة التجارة، ومن أعمالهم تطوير الظاهر ببيرس لطريق البريد الإسلامى وإسناد خدمته لقبيلة بنى ثعلبة، وشكلت الكرمل والخليل مركزين من مراكزه. كما أقام السلطان قلاوون فى عام ١٢٨٣م/٦٨٢ هـ خانا كبيراً فى الخليل لتخزين السلع^(٣)، وأدت هذه الجهود وغيرها إلى ازدهار طريق الخليل الجبلى حتى أضحت المسافرون يفضلونه عن الطريق الساحلى طيلة ما بقى من فترة العصور الوسطى^(٤). والخلاصة: يتضح أن الصليبيين فى الخليل ساهموا بشكل مباشر فى جعل الطريق الجبلى أهم الطرق الواصلة بين مصر والشام.

وعقب هذا العرض الذى تناول ظروفًا عديدة أحاطت بحركة التجارة فى بلاد الخليل عصر الصليبيين ينبغى التنويه إلى عنصر مهم من عناصرها وهو الدور الذى نشط به البدو فى هذا المضمار؛ فقد أفسحت الطرق الدولية والمحلية المارة بالخليل المجال للبدو المنتشرين بجوارها فى برارى الخليل وريفها، وكذلك بدو الجهات القريبة كى يلتقوا ويحتكوا وينظموا العمل فيما بينهم، الأمر الذى انعكس بالضرورة على دفع الحركة التجارية التى جعلت من بلاد الخليل مركزاً مرموقاً لشحن ونقل السلع المختلفة، وكان ذلك كله يحسب لصالح الصليبيين أصحاب السيادة. والملاحظ أن حركة التجارة لم تسر على وتيرة ثابتة حيث كانت تعثرها حالات ضعف وحالات قوة من حين لآخر وفقاً

١ - ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٢١٤ - ٢١٦ . راجع أيضاً :

Ambroise , Op. Cit., No. 10376 - 10508 .

2 - Eracles , Op . Cit . , pp . 383 - 384 .

٣ - ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، بيروت ١٩٣٩ ، ج ٧ ، ص ٢٥٩ ؛ المقرئى : السلوك : ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨١ ، ٧١٢ ، ولم يكن البريد مجرد خدمة بريدية لنقل الرسائل ، ولكنه كان نظاماً لتنظيم حركة الأشخاص المناط إليهم أعمال رسمية ، ولمعرفة المزيد عن البريد المملوكى راجع :

Richards , D. S, The Mamlok Bareed (Some evidence from The Hram documents), in : S. H. A. J, Vol. III, Amman 1987 , p. 206 .

4 - Encyclopaedie d'Islam , Art . Al Khalil .

للظروف الطبيعية والسياسية والعسكرية ، فعندما تقل الأمطار فى الصحراء يلجأ البدو إلى الإغارة على القوافل التجارية المارة ، وربما ينضمون إلى جيش مصر أو دمشق مقابل الرواتب^(١). وكذلك تعتمد الحركة التجارية على مدى استتباب الأمن وطبيعة العلاقات السياسية بين الصليبيين فى الخليل ومملكة بيت المقدس من ناحية، والجيران المسلمين من ناحية أخرى. وكان الحكام المسلمون يضطرون الى دفع الإتاوات التى يفرضها البدو اتقاء للاعتداء^(٢) على قوافلهم التجارية حتى بلغ الأمر بنور الدين محمود وصلاح الدين إلى إنفاذ القوافل مصحوبة بجيش لحمايتها من خطر الصليبيين والبدو على حد سواء .

ومن خلال هذا العرض يمكن تقسيم النشاط التجارى لإقطاعية الخليل الصليبية، وما يلفت الانتباه أنه ارتبط بشكل وثيق بالأوضاع السياسية فى البلاد المجاورة حيث مر بمرحلتين : الأولى تلك التى تزامنت مع العقود الزمنية الأخيرة من عمر الدولة الفاطمية حيث تأثرت حركة التجارة على طرق الخليل بالضعف العام الذى عانت منه الدولة الفاطمية وسوء علاقتها بجيرانها من القوى الإسلامية السنية، فضلاً عن تهديد كل من الصليبيين والبدو للقوافل، ولم ينعكس ذلك على التجارة فحسب، بل وعلى حجم الحملات الحربية الصليبية التى كانت تستخدم الطرق التجارية أيضاً، فتميزت هذه المرحلة بصفة عامة بالضعف وربما كانت تقوى أحياناً قليلة وفقاً لاختلاف الظروف المشار إليها. أما عن النشاط التجارى فى المرحلة الثانية وهى التى تزامنت مع الفترة الأولى من عمر الدولة الأيوبية فعلى الرغم من تحسن وضع المسلمين السياسى والعسكرى باتحاد مصر بالشام إلا أن معوقات أخرى على الطرق التجارية ظلت قائمة، وحاول صلاح الدين وضع الحلول لها بتوجيه سلسلة من الهجمات على كل من الصليبيين والبدو، وكان لابد أن تترك آثارها الإيجابية على التجارة لكنها كانت مصحوبة بالتوتر العسكرى. وعلى الرغم من مجموعة الهدن التى عُقدت مع الصليبيين إلا أن الفرنج ظلوا يمثلون تهديداً متجدداً على التجارة الإسلامية، حتى إنه يمكن وصفها بأنها كانت متذبذبة غير مستقرة. وعلى هذا فلم تنتعش التجارة على طرق الخليل إلا فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى .

وهكذا يمكن أن نخلص إلى أنه فى فترة الوجود الصليبي فى الخليل أصبحت المدينة تمثل مركزاً هاماً للطرق الدولية والمحلية رغم حلقات الصراع المستمر مع المسلمين، وربما برز هذا الدور للخليل بصفة خاصة بعد اتحادها مع إقطاعية شرقى الأردن على عهد

١ - أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٦ ، ص ٨١ . انظر أيضاً :

Maispero, G ., The Struggle of Nations , London 1925 , p. 282 .

٢ - ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٣٥١ .

حاكميها همفري الثالث، ورينو دي شاتيو، ويبرهن على ذلك تلك الحركة العمرانية الواسعة التي شهدتها الخليل وصاحبت نهضتها في مجال التجارة، وكذلك إحياء طرق تجارية لم نسمع عنها في العصر الإسلامي قبل الغزو الصليبي ربما ترجع الى عصور أقدم، ومنها طريق القدس - تقوع - عين جدى - صفر .

وبعد استعراض الجوانب الاقتصادية المختلفة لبلاد الخليل ننتقل إلى التعرض لأهم مصادر الدخل المباشر الأخرى فهناك ما يمكن تسميته بالموارد الدينية، فنظراً لوجود الحرم الخليلي علاوة على القبور والأضرحة المنتشرة في بلادها ظهر ما يمكن تسميته بالسياحة الدينية . فكثيراً ما كان الحجاج الأوربيون يضعون في خطة رحلتهم إلى الأراضي المقدسة الخليل وقراها كهدف رئيسي للزيارة. ووفقاً لما أشارت إليه المصادر - وتم ذكره في الفصل السابق من هذه الدراسة - فائناء زيارة كنيسة سانت أبراهام كان الزوار يدفعون بعملات ذهبية كرسوم لزيارة مقابر الأنبياء (عليهم السلام). أما أولئك الذين لم يستطيعوا الحج فقد كانوا يبعثون بحليهم الذهبية مع أصدقائهم أو مع أشخاص يستأجرونهم لهذا الغرض كهبة أو للمسح على الأماكن المقدسة بهدف التقرب. وفي هذا الصدد نذكر أن لويس السابع Loyes VII ملك فرنسا قد أرسل بخائمه مع أحد خدامه إلى الأراضي المقدسة ، كما برزت ظاهرة منح الأموال مقابل الحصول على قطعة ما من الآثار المقدسة في الخليل، ومن ذلك تلك المنحة التي تقدر بعشرة ماركات ذهبية قدمها أولريك الرابع رئيس دير سان جالى لرهبان الكنيسة في عام ١١٨٠م / ٥٧٦ هـ (١) .

أما مصدر الدخل التالى المتعلق بالنواحي الدينية فمن الطريف أن تذكر لنا المصادر قصة حقل دمشق ، التى زعمت أن الله عزّ وجل قد خلق آدم (عليه السلام) من ترابه ، وتؤكد المصادر على أن السكان المحيطين بهذا الحقل كانوا يجلبون من تربته الحمراء كميات قاموا بتصديرها وبيعها فى مصر وبلاد العرب بأعلى الأثمان بغرض استخدامها فى أعمال البناء. وعلى حد ما ورد فى المصادر ذاتها، فعلى الرغم مما كان يؤخذ من التربة من كميات ضخمة فإن الحقل كان يمتلئ من جديد مع نهاية كل عام. ويضيف بعض الرحالة الصليبيين بعداً أسطورياً آخرًا، وهو أن الأهالى كانوا يأكلون من تراب هذا الحقل (٢). ومهما يكن الأمر فلا بد أن تكون هناك ظلال من الحقيقة وراء الدخل العائد من هذا الحقل على أولى الأمر فى إقطاعية الخليل.

1- Casus San Cti Galli, in : M. G. H. SS., Vol II, pp . 70 - 71, Cf. Als., Conder, C., The Latin Kingdom, p. 201 .

2 - Fetellus , Op. Cit., pp . 9 - 10, John of Wurzburg, Op. Cit., p. 59, Theoderich , Op. Cit., p . 53 .

ومن أهم مصادر الدخل الأخرى بالنسبة لإقطاعية الخليل ما يتم تحصيله من السلب والنهب عن طريق الإغارة على القرى والضياع والقوافل الإسلامية^(١). ولعل ما اشتهر به رينو دى شاتيو حاكم الخليل فى هذا المضمار ما يبرز أهمية ذلك الدخل ، فمن ناحية كانت القوافل التى تمكن من الإيقاع بها على جانب كبير من الثراء وتدل على ذلك أعداد البعير وحيوانات الحمل الضخمة التى يتم للأمير الاستيلاء عليها فى كل غارة للنهب ، ومن ناحية أخرى فقد شمل نشاطه هذا الأراضى الزراعية والمحاصيل التى يمتلكها المسلمون فى البلاد المتاخمة لمناطق سيادته فى الخليل وشرقى الأردن . وعلى الرغم من عدم شرعية ذلك الدخل إلا أنه قد درّ قسطاً وفيراً من الثروة يُحتفظ بها فى خزانة رينو، وهذا يفسر ما حازه الأمير من ثقل سياسى داخل مملكة بيت المقدس الأمر الذى لا بد أنه ترك أثره على ما يحكمه من بلاده، حيث عاد على الخليل بأن بدت فيها مظاهر الثراء والتوسع العمرانى على عهده.

أما فيما يتعلق بأمر الضرائب والدخل العائد منها فقد اهتم الحكام الصليبيون بها بشكل ملحوظ إذ كانت من أوليات القضايا التى ناقشها قادة الفرنج فى أول اجتماع لهم لإقرار الأمور فى البلاد التى تم غزوها^(٢)، وتفيد إحدى الدراسات الحديثة أن المدن الصغرى فى مملكة بيت المقدس كانت هى التى تتحمل العبء الأكبر فى دفع الضرائب للتاج . إذ كان قرار ضريبة الممتلكات يشمل كلا من المدن الصغرى والقلاع^(٣). وفى الواقع ظلت الخليل على الأقل لعدة عقود من الزمن فى بداية عهدها الصليبي تعد من المدن الصليبية الصغرى؛ ولذا فينطبق عليها هذا القرار ، وفى المقابل كان دخل الضرائب بالنسبة لحاكم الخليل يتمثل فيما فرض على البدو فى المراعى الواقعة داخل إقطاعيته^(٤) ومن ناحيه أخرى فإن وقوع بلاد الخليل على طريق المواصلات بين الشام ومصر وكذلك بين مناطق شرقي الأردن وساحل البحر المتوسط جعل حكامها ينشطون فى مجال فرض الضرائب والمكوس على القوافل ، وفى ذلك يشير الرحالة المسلم الإدريسي إلى أن بيت جبرين كانت تعد مركزاً لنقل السلع التجارية وعندها كانت تجبى المكوس^(٥)، ورغم أن بيت جبرين كانت خاضعة آنذاك لطائفة فرسان الإسبتارية إلا أن جبايتها للضرائب لا بد وأن تعود إلى وقت خضوعها لحاكم الخليل الصليبي سلفاً. كذلك نلاحظ أن رينو دى شاتيو قام بفرض الضرائب على القوافل التجارية الإسلامية ، ولم يكتف هذا الفارس

1 - Chalandon, F., Op. Cit, pp . 357 - 358 .

2 - Raimond d'Agiles , Op. Cit., p. 299 .

3 - Mayer , H. E., Latins , Muslemes and Greeks , p . 177 .

4 - Chalandon , F., Op. Cit., p. 356 .

٥ - الإدريسي : المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

الصلب بذلك فأخذ يبرهن على أنه لا يستطيع العيش دون أن ينهب ويسرق مستعيناً في ذلك بعنصر البدو^(١). ومن ثم أضحى واضحاً أن فرسان بيت جبرين والخليل الصليبيين هددوا التجارة الإسلامية حتى يمكن وصف الضرائب التي كانت تجبى بواسطتهم بأنها نوع من فرض الإتاوات .

وإذا ما انتقلنا للتعرف على مصادر الدخل لكنيسة سانت أبراهام فنجدها تتمثل فيما تملكه من أراضٍ وعقارات . وبداية فحينما دخل الغزاة الصليبيون بلاد الخليل وجدوا أن جزءاً كبيراً من الأراضي الزراعية موقوفة للصرف على الحرم الإبراهيمي وخدماته المختلفة، وليس أدل على الشراء الذي حظى به الحرم من أثائه الفاخر وتجهيزاته البديعة أضيفت إليه كثرة للبدور والأوقاف الإسلامية^(٢) ومع انهيار العمل بنظام الأوقاف الإسلامية في ظل الحكم الصليبي انخفضت قيمة الدخول العائدة على الحرم إلى حد بعيد، وهذا يتضح من خلال كتابات الرحالة الصليبيين أنفسهم حيث صوروا الحرم بشكل أقل^(٣) بهاء مما كان عليه سلفاً ، ولذا كان من الطبيعي أن يسعى المسئولون الصليبيون عن الحرم إلى جلب الأموال للارتقاء بمستوى الأثاث والخدمات في كنيسة سانت أبراهام مستغلين حدث اكتشاف رفات الأنبياء (عليهم السلام) وهذا يتطلب بدوره نظاماً لحيازة الممتلكات بديلاً لنظام الأوقاف الإسلامي .

لم يوجد في الوثائق الصليبية المدونة في القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري المتاحة لدى الباحث ما يلقي الضوء على الممتلكات التي حازتها كنيسة سانت أبراهام للصرف عليها، وإنما تم التثبت من حيازتها لبعض الممتلكات من خلال وثائق تم تدوينها في القرن التالي حيثما كان يتم تجديد المنح والهبات الموثقة سلفاً ، فبعد أن قام بابا روما أنوسنت الرابع (Innocent IV) (١٢٤٣ - ١٢٥٤م) / (٦٤١ - ٦٥٢ هـ) بإحياء أسقفية حبرون اسماً بتعيين أسقف للخليل يدعى بارثيليمو دي فوسا (Barthilimio de Fosa) يتبع الكنيسة السترشيانية في يناير ١٢٥٢م / شوال ٦٤٩ هـ^(٤)، وفي تعليق لأحد الباحثين الحديثين يذكر أن البابا اتخذ تلك الخطوة بغرض ربط أسقفية الخليل بالحركة الصليبية وتكريساً لها^(٥). وكان أكثر ما حرص عليه أسقف الخليل الاسمى هو استعادة أربعة عقارات كانت أسقفية قد حازتها إبان قيامها الأول، وتتمثل معظم هذه العقارات في بساتين وضياع غنية تقع في ضواحي مدينة عكا، وهذا أدى إلى دخول

1 - Grousset , R., Op. Cit ., Vol., II, p. 776 .

٢ - ناصر خسرو : المصدر السابق ، ص ٢٣ - ٢٤ .

3 - Saewulf , Op. Cit., p. 24, Daniel the Russian , Op. Cit., pp . 44 - 45 .

4 - Innocent IV, Pop, Les Registres d'Innocent IV, ed. E. Bergr, B. E. F. A. R., Paris 1901, Ser. 2, Vol. II , 4422 .

5 - Riley - Smith , J., Latin Titular Bvslops in Palastine and syria , p. 6 .

أسقف الخليل فى منازعات مع طائفة فرسان التوتون التى وضعت يدها بدورها على هذه الأراضى ، إضافة إلى أراض أخرى مجاورة^(١)، وتولى أحد الرهبان ويدعى ماثيو (Matthieu) التحكيم فى هذا النزاع، ومثل بارثليميو أسقفية الخليل فى المناقشات بينما مثل والتر (Walter) طائفة التوتون، حيث طالب بارثليميو الطائفة بثلاثة آلاف بيزنط كإيجار للمنازل والممتلكات التى وضع فرسان التوتون يدهم عليها من ممتلكات كنيسة سانت أبراهام ، ولكن والتر رفض الإذعان محتجاً بأن جماعته لا تخضع لاية قوانين أسقفية وإنما تتبع البابا مباشرة . وبعد توسط ماثيو تقرر أن تعترف الطائفة بحق الأسقفية فى هذه الممتلكات وأن تقوم بدفع إيجار سنوى لها قدره سبعة بيزنطات وتم فرض خمسمائة مارك من الفضة فى حالة مخالفة الاتفاق^(٢)، والواضح مما دار من مناقشات أن أسقف الخليل كان يطالب فى البداية بمبلغ كبير هو قيمة إيجار ممتلكات أسقفية لطائفة التوتون منذ أن استولوا عليها قبل عدة عقود خلت، ولكن المبلغ الزهيد الذى اتفق على تقديمه سنوياً ما كان إلا مجرد إثبات أحقية الأسقفية فى الأراضى، ولا بد وأن اتخذ حكم النزاع فى الاعتبار عدم أهمية دور أسقفية الخليل فى وضعها الراهن إذ إنها مجرد أسقفية اسمية ولا حاجة لها للمال، فى حين كان للطائفة نشاطها العسكرى البارز فى هذه الآونة .

ومن الموارد التى كانت تعود على كنيسة سانت أبراهام تلك الأموال التى أتت من امتلاكها لقرية نهاريا الواقعة فى زمام إمارة أنطاكية الصليبية (وقد تم الإشارة إلى القرية فى الفصل الثانى من هذه الدراسة) وتم التأكد من حيابة كنيسة سانت أبراهام للقرية من تلك التسوية التى تم التوصل إليها عام ١٢٦٥م/٦٦٣ هـ مع طائفة فرسان الإيستارية بشأن أحقية الأسقفية فيها وتقضى التسوية بدفع الطائفة إيجاراً قدره سبعون بيزنطاً فى العام^(٣). وما لبثت أن فقدت أسقفية الخليل الاسمىة هذا الدخل بسقوط أنطاكية بيد المسلمين بعد عام واحد من التسوية . وهكذا يتبين أن كنيسة سانت أبراهام والأسقفية من بعد قد حازتا ممتلكات بالقرب من عكا فضلاً عن قرية نهاريا إبان الوجود الصليبي فى الخليل^(٤)، وبالتالي فهذه الممتلكات كانت تدر دخولاً على هذه المؤسسة الدينية تم الاستعانة بها للصرف على الأنشطة المختلفة فيها .

١ - Mayer . H. E. Tabulae Ordinis Theutanicici , Doc. No: 101 , 102, 104, pp. 81, 82 - 84 . Burchard of Mountsion , Op. Cit., p. 24 .

٢ - Mayer, H. E., Tabalae Ordinis Theutonicici , Doc. No. 104, 331, 336 .

٣ - Delaville le Roulx , C. G. O. H., Vol . III, No. 3120 .

٤ - الجدير بالذكر أنه بعد استرداد المسلمين بلاد الخليل تم إحياء أوقاف الأهالى والحكام على ضيافة الخليل بخاصة والحرم الإبراهيمى بعامه ، فضلاً عن وقف غيم الدارى الذى تم تجديده فى قرى مجاورة للخليل . ولم تلبث أن تامت هذه الأوقاف حتى شملت قرى قريبة من نابلس . وتوجد نقوش كتابية على المدخل الرئيسى للحرم الإبراهيمى مؤرخة بعام ٦١٢ هـ الموافق ١٢١٥م تشير إلى وقف الملك المعظم عيسى على الحرم الإبراهيمى . انظر . العليمى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٤٠ ، المقربرى : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٠ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٩٤ .

لم تقتصر موارد الدخل لكنيسة سانت أبراهام على ما حازته من أراضٍ زراعية هنا وهناك ، بل كان هناك مصدر آخر للدخل المباشر ويتمثل في ضريبة الكنيسة المعروفة بالعشر ، وهي قيمة عشر ما تغله الأراضي الزراعية التي كانت تتفاوت من منطقة إلى أخرى وفقاً لمدى خصوبة الأرض ، وكذلك مدى سيطرة الصليبيين على الأمن فيها . وكانت معظم أراضي الخليل أقل خصوبة من غيرها^(١) ، كما أن أطرافها لم تنعم بأمن دائم نتيجة لهجمات المسلمين النشطة من ناحية ، وغارات البدو من ناحية أخرى . غير أن سقوط عسقلان عام ١١٥٣م/ ٥٤٨ هـ في يد الصليبيين حقق قدراً من الأمن بالنسبة لهم ، وكان موظفو كنيسة سانت أبراهام اللاتينية يحصلون ضريبة العشر من جميع الرعايا المسلمين داخل الإقطاعية شأنهم في ذلك شأن باقي موظفي الكنائس اللاتينية في مملكة بيت المقدس^(٢) ، وحاول الموظفون جمع العشور أيضاً من المسيحيين الممتنين إلى الكنائس الشرقية المخالفة لمذهبهم الكاثوليكي ، ولكنهم لم يوفقوا في ذلك^(٣) .

وبصفة عامة يمكن إجمال موارد الدخل المختلفة التي عاشت عليها المؤسسات العلمانية الحاكمة والدينية الكنيسة في إقطاعية الخليل بأنها شملت : الأراضي الزراعية والموارد الاقتصادية العديدة الأخرى من غابات ومراعي وأملح وصناعات وتجارة . علاوة على ما يتحصل من السلب والنهب عن طريق الإغارة على القرى والضياع والقوافل الإسلامية ، ومنها ما يتحصل من الحقول والمزارع التابعة للسلطة الصليبية في الخليل والمناطق المحيطة بها وأهمها الضرائب العديدة التي فرضت على الصادرات والواردات والمبيعات والمشتريات فضلاً عن موارد حركة الحج والزبارة .

وننتقل بالحديث في الصفحات التالية إلى جانب آخر من المظاهر الحضارية المميزة لإقطاعية الخليل الصليبية ألا وهو **المظاهر العمرانية** ، وتسهيلاً للدراسة تقسم الأنشطة العمرانية بين مدنية ودينية وعسكرية ، مع تقسيم الإقطاعية إلى قطاعات ثلاثة : مدينة الخليل ، مدينة بيت جبرين ، ونماذج مختلفة من قرى الإقطاعية . وفيما يختص بمدينة **الخليل** ، نجد أن المعلومات التي قدمتها لنا المصادر عن النشاط العمراني بها شحيحة غير أنها كافية لوضع تصور عام لعمران المدينة في هذا العصر إذ يصفها الإدريسي بأنها « قرية متمدينة »^(٤) . بينما يذكر أحد الرحالة اليهود أن مدينة الخليل فترة الحروب الصليبية كانت تتألف من جزئين : أحدهما قديم قد عمته الخراب ، وآخر جديد مشيد في قلب وادي الخليل وأعلى التل حول مبنى الحرم الإبراهيمي^(٥) . ويذكر

1 - Hamilton , B., The Latin Church, p . 153 .

2 - Benvenisti, M., Op. Cit., p . 28 .

3 - Runciman , S., Op. Cit., Vol . II, p . 310 .

٤ - الإدريسي : نزعة المشتاق ، ص ١٨٧ .

٥ - بنيامين التيطلي : الرحلة ، ص ١٠٥ .

آخر متبعا ما حدث من تطور فى مرحلة تالية أن وادى الخليل الذى يمتد من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى كان يقسم مدينة الخليل إلى قسمين الأكبر منهما ناحية الشرق والجنوب الشرقى وقد امتد العمران فى المدينة حتى أصبح الحرم الإبراهيمى يتوسطها^(١). وإذا ما تعرفنا على ما ذكره ناصر خسرو قبل نصف قرن تقريباً من الغزو الصليبي نلمس ما أحدثه الصليبيون من إضافات فى المدينة، حيث يشير إلى أن قبر إبراهيم (عليه السلام) كان يقع على حافة البلدة^(٢). وهذه الإشارات مجتمعة تبين أن الحى الذى يمتد إلى جنوب الحرم وما حوله من مبان كانت قد تمت إضافتها فى وقت لاحق على القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى ، وعلى ذلك فمن الواضح أن تلك التوسعات قد أضيفت إلى المدينة بالتدريج بداية من عصر الوجود الصليبي بالخليل خاصة بعد المكانة التى حظيت بها عقب اكتشاف رفات الأنبياء (عليهم السلام) وذيق هذا الأمر بين عامة الصليبيين الأوربيين الوافدين، فكانت تلك التوسعات شاهداً على تنامي عمران المدينة خلال القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى .

وتمثلت أهم المعالم العمرانية لمدينة الخليل فى واديهما الذى كان يضم أنواعاً عديدة من أشجار الفواكه المختلفة والزيتون وغيرها^(٣)، وكثيراً من الأعين التى يستخدم ماؤها فى الزراعة^(٤). أما شوارعها فكانت ضيقة ومتعرجة كما أنه ليس لها أسوار^(٥) حيث استعاضت عنها بحصانها الطبيعية بوقوع معظمها فى واد بين الجبال . وللمدينة مدخلان شمالي وجنوبى عند بداية الوادى ونهايته^(٦)، كما أنها كانت تضم سوقاً^(٧) يقع فى الجهة الشمالية. وأخيراً يصور أحد الرحالة المسيحيين لنا عمران الخليل فيذكر أنها تعد ذات مساحة كبيرة إلى حد ما، وقد زخرت بالعديد من المباني التى دخل فيها الرخام الأبيض كعنصر أساسى فى البناء ، والمدينة تقع وسط جبال خصبة وينابيع صغيرة ، كما أن جوها معتدل للغاية وهى من أجمل الأماكن^(٨). ونظراً إلى أنه فى العادة ما تضرب المظاهر الحضارية بجذورها إلى عهود خلت فيمكننا الاعتماد على هذا الوصف إلى حد كبير بصفته أقرب وصف للمدينة فى عصرها الصليبي على أن نضع فى الحسبان ما شهدته المدينة من تطور فى الفترة الفاصلة .

1 - Meshullam Ben R. Menaham of Volterra , Op. Cit., p. 185 . Cf. Als. , Obadiah Da Bertinora, Op. Cit., p. 233 .

٢ - ناصر خسرو : المصدر السابق ، ص ٣٣ .

3 - Saewulf, Op. Cit., p. 12, Daniel the Russian, Op. Cit, P. 44, Fetellus, Op. Cit., p. 11 .

4 - Canonici, Hebronensis, Op. Cit., p. 307 .

5 - Saewulf , Loc. Cit .

6 - Cananici , Hebronansis , Loc . Cit .

٧ - ياقوت الحموى : معجم البلدان . ج ٢ ، ص ٣٨٧ .

8 - Anselme Adorno, Itinevaire , p. 251 .

وهكذا فالشواهد تشير إلى أن العمران قد واصل ازدهاره في الخليل بعد القضاء على الوجود الصليبي بها رغم الطبيعة العسكرية للعصر الأيوبي التالي، ويرى الباحث أن هناك عاملين قد جُداً ساعداً على ذلك: ويرتبط الأول بالتركيب السكاني في بلاد الخليل، فبعد انتزاع المدينة من أيدي الصليبيين عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ وبعد عام واحد تقريباً قام صلاح الدين باستدعاء الجند والمتطوعين إلى فلسطين للاشتراك في جولة جديدة من الجهاد، إضافة إلى أن أعداداً من عامة المسلمين انتقلوا إليها للإقامة والزياره^(١)، وهذه الحقائق بالدرجة الأولى تشير إلى أن العنصر الفرنجي في الخليل قد قضى عليه بأن تم استبدالهم بالمسلمين. أما القرى والبلاد المجاورة فكان أغلب سكانها فلاحين من البدو منذ الوجود الصليبي. وبالدرجة الثانية فقد عمل الموقف العسكري المتوتر على بقاء أعداد متزايدة من الجند المسلمين في مواضع قريبة من جبهات القتال مع الفرنج الأمر الذي صحبه تقديم الدعم البشري والمادى المستمرين، فضلاً عن الخدمات العامة لهذه البلاد التي كانت الخليل واحدة منها مما أدى إلى ازدياد حجمها بالمقيمين الجدد.

أما العامل الآخر، فقد اقتضت الخطط الحربية في الجانبين الإسلامي والصليبي أحياناً ضرورة تخريب بعض المدن، بالأحرى قلاع هذه المدن وتحصيناتها المختلفة خاصة الأسوار بغرض منع الطرف الآخر من استخدامها ضده في حال سقوطها في أيديهم، وفي هذا الإطار نجد أن صلاح الدين قام بتخريب مدن عسقلان وبينى واللد والرملة والنظرون في عام ١١٩١م/ ٥٨٧هـ أثناء تصديه لجيوش الحملة الصليبية الثالثة^(٢). كما قام ريتشارد قلب الأسد بتهديم قلعة الداروم لنفس السبب^(٣). والملاحظ أن هذه المراكز جميعاً تعد قرية جغرافياً إلى حد كبير من الخليل، ومع ذلك لم يتعرض صلاح الدين للمدينة ربما لإدراكه أنها محمية طبيعية لوقوعها فوق الجبال، ومن ثم جاء تخريب البلاد المجاورة لصالح العمران في الخليل حيث بدت وكأنها المركز العمراني الرئيسى في جنوب فلسطين الذى يلجأ إليه المسلمون، فأخذت في التنامي والتطور السريع.

عليه، تمثل أماننا مجموعة من العوامل تضافرت في دفع الحركة العمرانية في الخليل خلال عصرها الصليبي وأعقابها تلخص في: الأهمية الدينية التي دفعت بحركة

١ - المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٩٧ - ١٠٠ .

٢ - ابن شداد : النوادر السلطانية : ص ١٨٧ - ١٩١ ، الحموى : التاريخ المنصورى ، ص ١٠٠

3 - Ambroise , Op. Cit. , No . 10571 - 10579 .

الزيارة ، كذلك برزت الخليل كمركز تجارى هام بصفقتها محطة أساسية على طرق التجارة الدولية والمحلية ، فضلاً عن العاملين اللذين تمت الإشارة إليهما للتو . وأمام تعدد أوجه المظاهر الحضارية والأدوار المختلفة التى ميزت الخليل فهل يمكن إبراز عامل ما يكون له الأولوية عن غيره ؟ وللإجابة على ذلك نجد عاملى الدين والتجارة صنوين ، فكثيراً ما اقترنت التجارة بالزيارة ، وهذا ما أكدته الأحداث على مدى هذه الدراسة . غير أن وجود الحرم الخليلي كعلامة بارزة مع وقوع التجارة تحت ظروف متغيرة لارتباطها بالسياسة قد جعل العامل الدينى هو الغالب فى النهوض بالحركة العمرانية فى المدينة .

وإذا ما حاولنا التعرف على التفاصيل المعمارية ومعالم مدينة الخليل تحديداً فى العصر الصليبي ، نلاحظ أن المصادر المعاصرة قد شغلت عن مظاهر المدينة المختلفة بحرمة الإبراهيمي الذى حاز احترام كل من يتناولها بالوصف . أما الأثريون فلم يتطرقوا إلى العمارة الصليبية فى المدينة عدا ما يخص الحرم والقلعة ، وربما كان لهم العذر فى ذلك فقد تغلبت فنون العمارة الإسلامية المتأخرة على سابقتها من الفنون الصليبية ، ولذا حظيت العمارة الإسلامية منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى على جل اهتمام أولى الأمر من المسلمين ، ويعد هذا أمراً طبعياً إما استجابة للتطور المستمر للعمارة فى المدينة ، أو رغبة منهم فى طمس معالم العصر الصليبي ، مع ذلك يمكننا أن نفترض بقوة أن بعض أجزاء مدينة الخليل قد شهدت إضافات عمرانية صليبية مثل حارات : الحرم - القلعة - الطواشى - الفستقة (التى عرفت فيما بعد بحارة الجبارية) - اليهود - الزجاجين - الدارية (وهى أحسن الحارات وكانت تقع غربى الحرم وفيها أسواق البلد ومنافعها) التى أشار إليها العليمي - المتأخر حوالى ثلاثة قرون عن انتهاء الوجود الصليبي فى الخليل - ضمن عشرات من المعالم العمرانية داخل المدينة^(١) . وما يجدر ذكره أن معظم الأسماء المذكورة كانت معروفة أثناء الوجود الصليبي .

ويعد بناء الكنائس الملمح الرئيسى فى العمارة الصليبية بصفة عامة ، وكان الصليبيون شغوفين بتشيد هذا النوع من المباني الذى يقوم بشكل أساسى على أنقاض كنائس بيزنطية قديمة^(٢) ، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك بالنسبة للخليل كنيسة سانت أبراهام فى الحرم الإبراهيمي التى تعد آثارها الصليبية أوضح ما تركه هذا العصر من فنون فى الإقطاعية ، ونظراً لاعتماد كنيسة سانت أبراهام فى شكلها العام على أصول رومانية فيجدر بنا التعرف على التطورات التى مر بها المبنى فى هذا العصر وما يليه وصولاً إلى العصر الصليبي .

١ - العليمي : الأتس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٢٥ .

2 - Guthe , M. H., Die Urtexsuchung , pp. 243 - 245 , Cf. Als , Boase, T. S. R., Castles and Churches of The Crusading Kingdom, pp. 86 - 87 .

من الثابت علمياً أن مبنى الحرم الإبراهيمي أسس على النظام الهيرودى نسبة للملك الرومانى هيرودوس الكبير^(١)، وكان يتألف فى هذا الوقت من مغارة المكفيلة والأسوار الأربعة العلوية وهى التى تمت تقويتها بشمان وأربعين دعامة من كتل صخرية ضخمة، وقد وضعت دعامات بكثافة عند الأطراف لتقويتها^(٢)، ورغم أن الأسوار فى غاية من البهاء والجمال إلا أنها كانت دون سقف. وقد أبقي كل من وضع يده على مدينة الخليل على وضع المبنى دون أى ترميم أو إضافة حتى عهد الإمبراطور البيزنطى ثيودوس، أما الكنيسة الأولى التى أقيمت داخل الأسوار فيرجع تاريخ بنائها إلى عهد الإمبراطور جستينيان فى القرن السادس الميلادى^(٣)، حيث اتبع الطراز البيزنطى فى معظم البناء، وتمثلت أهم التعديلات فى إضافة أربعة أعمدة كى تحمل إيوانات^(٤)، فضلاً عن إدخال بعض التعديلات الطفيفة على الأسوار من الداخل بحيث تتلاءم مع الطقوس الدينية المسيحية، فى حين يبدو أنه قد تم تخصيص مكان لليهود لإقامة طقوسهم الدينية^(٥)، وبداية من هذا العهد أخذت ملامح الحرم فى التبلور .

وعندما هاجم الفرس الخليل فى عام ٦١٤م. لم يفلت الحرم من عبثهم ومن مؤامرات اليهود الذين تحالفوا معهم ، وقبل أن ينسحب البيزنطيون من المدينة قاموا بسد باب الدخول إلى الحرم، ولكن قام الأهالى من اليهود بإرشاد المسلمين الفاسخين إلى الجزء المسدود فاهتموا بترميم ما تم إتلافه على يد الفرس^(٦). ومنذ القرن السابع الميلادى/ الأول الهجرى نال الحرم قدسية بالغة من قبل المسلمين، فعنى الأمويون بإقامة رموز للقبور الحقيقية بإقامة مشاهد فوق المغارة تطابق أمكنتها مواقع القبور السفلية حماية لها، وقد عنيت المصادر الإسلامية بالإشارة إلى تلك الإضافات الهامة التى تعكس العمارة الإسلامية وفنها الراقى ، وجميعها تؤكد على أنه قد تم تعديل المكان بجعله مسجداً جامعاً^(٧). ولم يكن الدخول إلى الحرم إلا من الفتحة المذكورة غير المتقنة البناء،

١ - حتى وقت قريب لم يكن من المتيقن أن بناء الحرم قد تم على عهد هيرودوس الكبير (القرن الأول ق م) إلا أن الدراسات الحديثة أثبتت صحة ذلك وأكدته بناء على قياسات دقيقة قائمة على الفحص والتحليل، وقد قام بهذه الدراسة زيف يارين رئيس قسم الآثار بالقدس وكان يقود فريق عمل لهذا الصدد. راجع :

Yarin, Z., The Under ground Cave of Machpela, Israil Anvures 20 - 21 , Jerusalem 1986, pp. 52 - 63.

2- Grimaldi , A. B., Cenotaphs of the Hebrew Patriarchs , p. 146 .

3 - Canonici Hebronensis, Op. Cit ., p. 308 .

4 - Boase, T. S. R., The Ecclesiastical Art in Crusader States in , Palestine and Syria, ed . in Séttou, Vol . IV, p. 99 .

5 - Vincent , Mackay, Abel, pp. 156 - 157 .

6 - Canonici Hebronensis, Op. Cit., p. 309 .

٧ - الأصطخرى : مسالك الممالك ، ص ٥٧ ؛ المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٧٢ ، انظر أيضا : Lunz Le Carerue, Macfelah , Col. 527 .

ولذا قام الخليفة المهدي العباسي (٧٧٤ - ٧٨٥م/١٥٨ - ١٦٩ هـ) بإحداث مدخل عند السور الشمالي الشرقي بارتفاع ثلاثة أمتار ونصف فاحتاج الأمر إلى بناء السلم ، كما تم تركيب باب حديدي صغير ^(١). وثابت أن المدخل القديم قد تم تحريره على الجمهور ^(٢). وفي أواخر هذا القرن تم تشييد ما يعرف بالمغطى ، وهو سقف ساحة الحرم الرئيسية إضافة إلى بعض الغرف لإسكان الزوار الوافدين على الخليل ^(٣). وفي النصف الأول من القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري أقيم فوق مشهد النبي يوسف (عليه السلام) قبة عند طرف الحرم ^(٤). فتطلب ذلك توسعة الحرم جهة الجنوب الغربي ، حتى بدا كأنه مسجد مستقل .

ولا يسمح لنا هذا الموضع بالاستفاضة فيما أحدثه المسلمون في معمار الحرم خشية الجنوح عن فترة الدراسة ، ولذا يجب الاكتفاء بما أورده ناصر خسرو عنه بوصفه آخر من وصف المبنى قبل قدوم الصليبيين ، حيث ذكر أن به مقصورة - وهي التي ذكرها المقدسي بالمغطى - ومحراب في عرض البناء ، وبالمقصورة محاريب جميلة بها مشهدان رأسهما للقبلة وكلاهما من الحجر المصقول بارتفاع قامة الرجل ، الأيمن مشهد إسحاق (عليه السلام) والآخر مشهد زوجته ريكا ، وأرض هذا المشهد وجدرانه مزينة بالسجاجيد القيمة والحصر المغربية التي تفوق الديباج حسناً ، وحصير للصلاة من أفخم الأنواع وأغلاها ثمنًا . وحين خروج السائر من المقصورة إلى وسط الساحة يجد ناحية اليمين مشهد إبراهيم الخليل (عليه السلام) وهو مشهد كبير وقد كسيت أرضه وجدرانه ببسط من الديباج . وقد بنى من حجر علق به كثير من القناديل والمصابيح الفضية . أما على اليسار فيوجد مشهد زوجته سارة وبين المشهدين ممر به كثير من القناديل والمسارج ويليهما مشهدا يعقوب (عليه السلام) وزوجته ليثة . أما مشهد يوسف (عليه السلام) فقد بنى كذلك من الحجر لكنه يقع خارج الحرم ^(٥).

ومع بداية العصر الصليبي وصف عدد من الرحالة الصليبيين الحرم وكان من

١ - ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ٣٣ .

٢ - العبدري : المدخل ، ج ٤ ، ص ٢٥٨ ، راجع أيضاً :

Vincint, Mackay, Abel , P. 162 .

٣ - المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٧٣ . راجع أيضاً :

Vincent, Mackay, Abel , P. 166 .

٤ - التدمري : مثير الغرام ، ص ١٨٦ - ١٩١ .

٥ - ناصر خسرو : سفرنامه ص ٣٣ - ٣٤ .

وعادة ما يستعيز الباحث بكلمة قبر التي طالما كان الرحالة المسلم يستخدمها بكلمه مشهد . إذ إنه من الأوقع أن يطلق عليه مشهد حيث إن القبر كما هو معروف هو مكان دفن أو قبر الميت ، وهذا لم يكن هو حقيقة تلك الأبنية . وللتعرف على أجزاء الحرم الإبراهيمي الداخلية ومواقع المشاهد ، راجع : شكل رقم (٢) .

أبرزهم سايولف ودانيال الروسى غير أن وصفهما^(١) جاء متشابهاً إلى حد كبير مع آخر وصف إسلامى الذى أورده ناصر خسرو . وعلى هذا فيمكن القول بأنه لمدة تقترب من النصف قرن وهى الفترة التى تفصل بين الوصفين لم يطرأ على الحرم تغيير يذكر فى الجانب المعمارى .

وبحلول عام ١١١٩م/٥١٣ هـ بدأت أول عملية تنقيب تحدث فى المغارة بغية اكتشاف القبور الحقيقية^(٢)، وكان ذلك بمثابة إعلان لبدء مرحلة جديدة فى التاريخ المعمارى للحرم الإبراهيمى، إذ تمت أعمال الترميم والبناء التى شهدتها المبنى كرد فعل للأصداء التى أحدثتها عملية الاكتشاف، وذلك فى عهد بلدوين دى سانت أبراهام حاكم الخليل الذى عاصر فترة حكم الملك بلدوين الثانى . ومن الطريف أن يكون الرحالة المسلم على الهروى الذى زار الحرم ورأى المشاهد هو مصدر المعلومات المهمة فى هذا الصدد ، إذ يخبرنا أن الملك الفرنجى كلف أحد الفرسان الصليبيين ويدعى جوفرى ابن جورج بالقيام بمهمة إعادة تكفين رفات الأنبياء (عليهم السلام) وإدخال بعض التعديلات فى أبنية الحرم الإبراهيمى^(٣) ولكن يبدو أن فريق العمل الذى شكله الملك لهذه المهمة كان له سلطات أوسع ودور أعظم مما أشار إليه الهروى ، إذ كانت الإضافات الصليبية تعد أساسية وهامة .

كانت أول مشكلة واجهت فريق العمل الصليبي هى اتجاهات أسوار الحرم ذاتها إذ إنها لم تكن تتمشى مع الاتجاه الذى دأب عليه الصليبيون فى بناء الكنائس، إذ إن الطقوس المسيحية تقتضى بأن يكون اتجاه هذا النوع من الأبنية نحو الشرق، ولذا اقتضت جهود أعضاء الفريق على إحداث تغييرات داخلية فقط بغرض إضفاء معالم الكنيسة على مبنى الحرم^(٤). ولعل أهم التعديلات التى تمت فى الداخل هو استبدال السقف الإسلامى المستوى الذى عرف باسم المغطى بقبة شكلت صحن الكنيسة، وصاحب ذلك بالضرورة تهديم الغرف التى بنيت أثناء بناء المغطى^(٥). وتتميز القبة الصليبية بحدة تقوسها، حيث يقع فى حافتها السفلية أربع شرفات مقوسة ترتكز كل منها على مجموعة من الأعمدة المنحنية يبلغ عددها ثلاثة ، وهذه المجموعات الأربع ترتكز الواحدة منها على أحد أعمدة الكنيسة الرئيسية، وهى بذلك تشابه الطراز الإنجليزى الأول فى بناء القباب^(٦). وكذلك أضاف الفريق الصليبي مقصورتين صغيرتين

1 - Saewulf, Op, Cit ., p. 24, Daniel the Russian, Op. Cit., pp. 44 - 45 .

2 - Boase , T. S. R., Castels and Churches of the Crusading Kingdom, Oxford 1967, p. 86 - 87 .

٣ - الهروى : الإشارات لمعرفة الزيارات ، ص ٣٠ .

4 - Enlart, C ., Op. Cit., Vol II, p. 319 .

5 - Boase, T. S. R, Castles and Churches . pp . 86 - 87 .

6 - Grimaldi, A. B., Op. Cit., pp. 146 - 147, Enlart , C., Op. Cit., Vol. I, p. 52, Vol . II, p. 132 .

عند البوابة مستخدمين فى ذلك الرخام والجص مستهدفين التخلص من مظاهر الفنون الإسلامية السابقة خاصة فيما يتعلق بالاعمدة^(١). كما نلمس اهتمام الصليبيين من خلال الفن القوطى الذى أصبح يغلب على نصف الأسوار ودعاماتها المحيطة بالكنيسة^(٢). وتبين الكشف الأثرية أن الساحة الامامية من المبنى كانت قد خصصت كدير للرهبان^(٣)، وهو الذى حمل اسم سانت أبراهام كالكنيسة .

وفى ذات الوقت يبدو أن الفريق الصليبي واصل جهوده فى إحداث ما يمكن إحداثه من تجديدات حيث تم إدخال بعض التغييرات على الأعمدة الأساسية التى كان البيزنطيون قد أقاموها إبان قيام الكنيسة الأولى ، حيث تم صقلها وتقويتها كى تحمل إبنات ، بحيث احتوت الأعمدة القديمة بداخلها ، وقد بلغ عرض العمود منها مترًا وعشرة سنتيمترات ، أما الارتفاع فيبلغ ثمانية أمتار^(٤). وأضاف الصليبيون أعمدة ثانوية ملاصقة للحائط الرئيسى مع الاحتفاظ بالملامح الرئيسية للسور البيزنطى من الداخل^(٥). ولم يثبت وجود أية نقوش هندسية معقدة على الجدران، ولكن يفترض أن يكون قد رسم عليها رسوم تعكس الصفة الدينية للمكان بالنسبة للصليبيين. أما أرضية المبنى فتتألف من أحجار مربعة كبيرة الحجم تم تغطية معظمها قبل الغزو الصليبي بأفخر السجاد الدمشقى كما كانت الأجزاء المحيطة بقواعد الأعمدة المحاذية للأسوار من أنقى أنواع الرخام^(٦). هذا، وقد أبدى الصليبيون اهتمامًا كبيرًا بتزيين الأعمدة الرئيسية بتيجان عنقودية مكثفة أعطتها رونقًا وبهاء^(٧). وقد أثبت الأثريون أن الصليبيين نحتوا فى التيجان نقوشًا غائرة تشتمل على أشكال لأوراق الأشجار حرصوا على قطعها بشكل رأسى حتى تصبح مدبية^(٨). ويرى الباحث أنه من المعتقد أن هذا التقليد جاء محاكاة للطقوس المسيحية والاعتقاد فى أن السيد المسيح قد لبس تاجًا من الشوك عند صلبه، ولذا عمد الصليبيون أن يجعلوا من أوراق الشجر شوكًا يعلو تيجان هذه الأعمدة . وبهذه الإضافات أصبح ظاهر نصف المبنى العلوى الكاتدرائى ينتمى إلى العصر الصليبي بحيث اصطبغ البناء الحديد بصفة عامة بالنظام الاوغسطينى^(٩). وكان أهم ما يميز الكنيسة من الداخل ذلك المذبح الذى أقيم عند طرف الساحة التى حوت المشاهد^(١٠).

1 - Enlart, C., Op. Cit, Vol . II, p. 128 .

2 - Cander, C., The Latin Kingdom , p. 187 .

3 - Vincent, Mackay, Abel, p. 166 .

4 - Vigauroux , F., Hebron , Col . 559 .

5 - Vincent , Mackay, Abel, pp . 166, 186 .

6 - Grimaldi, A.B., Op. Cit., pp. 146 - 147 .

7 - Joraslap, Folda, Painting and Sculpture in Latin Kingdom of Jerusalem, in : Setton, K. L., Vol, IV, p. 268, Crusader Art and Architecture (Aplatographe Survey), in : Setton, K. L., Vol. IV, p. 303 .

8 - Enlart, C., Op. Cit., Vol . I , pp. 96, 204 . (٣) راجع شكل

9 - Boase, T. S. R. , Op. Cit., pp. 86 - 87 .

10 - Canonici Hebronensis, Op. Cit., p. 312 .

وفيما يختص ببوابة الكنيسة فهناك مساهمات معمارية صليبية ولكن من الصعب التعرف على ملامحها ، حيث تعرض الجزء السفلى للواجهة القديمة للانهار كما تداخلت ألوان عديدة من الفنون على معمار البوابة حتى انزوى معها معمار هذا العصر . ومن ثم بقي العمودان اللذان يرجعان لاصلهما البيزنطى بشكلهما الخلزوني بعد أن سقطت عنهما الجدران التي كان الصليبيون قد وضعوها بغرض تزيينها^(١) ، وهكذا احتفظت الواجهة ببساطة البناء الذي كانت عليه .

أما عن جهود الصليبيين فيما يختص بمغارة المكفيلة فقد قيدت بينائها القديم حيث كانت المغارة جزءاً مكملًا للمبنى العلوى من الحرم ، فالزمت الفريق على الاكتفاء بما أحدثه من إضافات^(٢) التي تمثلت في إقامة سور يفصل بين الغرفة الخارجية والممر الذي يؤدي إلى داخل المغارة ، ولم يكمل البناء الصليبيون السور بحيث لم يصل بارتفاعه إلى السقف . هذا ، وقد رأى الرحالة اليهودى يعقوب بن تنائيل هاكوهين آثار المونة المستخدمة في البناء^(٣) . وعقب ذلك تم بناء سلم من خمس عشرة درجة لا يسمح إلا بهبوط رجل واحد داخل الغرفة الامامية من المغارة ، وذلك بغرض التغلب على مشكلة الهبوط التي واجهت المكتشفين والتي تغلبوا عليها وقتئذ باستخدام الحبال ، وقد استخدم فتاحية الراتبوني هذا السلم وقت زيارته للحرم وهبوطه إلى المغارة^(٤) . وأتبع الفريق الصليبي ذلك كما هو واضح بسد الفتحة التي كان الرهبان المكتشفون قد أحدثوها للهبوط إلى المغارة ، حيث تم استبدال البلاطة الضخمة التي كانت تسد المدخل بوضع حاجز من القضبان الحديدية^(٥) . وهكذا لم نلمس في هذه الإضافات الصليبية الخاصة بالمغارة ما يعبر عن الأساليب المعمارية الصليبية فيما يختص ببناء الكنائس إلا في حدود ضيقة .

وماذا عن مصير الإضافات المعمارية الصليبية الكنسية في الحرم الإبراهيمى بعد الفتح الإسلامى للخليل . . . ؟ من الطبيعى أن يحرص المسلمون على القضاء على المظاهر الصليبية التي أضيفت على الحرم بعد استعادته ، ومن أهمها المذبح والصور التي كانت تميز وجود كنيسة داخل المبنى ، وفى المقابل كان من اللازم استبدال هذه المظاهر بإجراءات مماثلة تميز النقلة الجديدة بتحويل المبنى إلى جامع ، ولا بد أن يكون هذا قد تم خلال فترة قصيرة بعد فتوح صلاح الدين . غير أن أهم التغييرات المبكرة تتمثل فى نقل

1 - Enlart , C., Op. Cit., Vol. I, pp . 85, 88, 98 .

2 - Enlart , C., Op. Cit., Vol. I, pp. 58, 59 , Vol . II, p. 128

عن موقع المداخل إلى الحرم راجع : شكل (٢ ، ٤) .

3 - Jacob Ben, Nathaniel Hacoheh, Op. Cit., p. 98 .

4 - Petachia of Ratisbon, Op. Cit., p. 89 .

راجع أيضاً ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٧٧ .

٥ - الهروى : المصدر السابق ، ص ٣١ . انظر موقع الفتحة فى الرسم التخطيطى للحرم : شكل رقم (٢) .

منبر المسجد الحسينى من القاهرة لينصب فى الحرم الخليلى فى عام ١١٩١م/ ٥٨٧ هـ^(١). وهذا المنبر البديع يعد نمطاً مستقلاً بين العناصر المختلفة التى يضمها الحرم ، وهو يمثل جزءاً فى غاية الأهمية من تكويناته ، كما أنه من أجمل ما أضافه المسلمون إلى المبنى^(٢). وكذلك هناك نقوش على باب الحرم، وعلى قطعة من الرخام إلى جواره ترجع إلى عام ١٢١٥م/ ٦١٢ هـ. تشهد على مدى اهتمام المعظم عيسى بشئون الحرم^(٣). ومما يذكر للظاهر بيبرس أنه قام فى عام ١٢٦٨م / ٦٦٦ هـ بتجديد القبة الرئيسية فى المسجد، كذلك رتب «الأخشاب والمقاصير والأبواب، ودهن ما يحتاج منها إلى الدهان، وعملت المقاصير... وجدت المشاهد المقدسة...» كما «أصلح ميضاته وأماكن الوضوء»^(٤). وفى عام ١٢٨٧م/ ٦٨٦ هـ أمر السلطان قلاوون بتغطية أجزاء واسعة من الحرم بالرخام. ويبدو أن هذه الأعمال كانت من الكبر إلى حد عده المؤرخون بمثابة تجديد للحرم الخليلى^(٥). وانتهى الأمر بالمسجد الإبراهيمى فى العصر المملوكى إلى أن أصبح يحتل نصف مساحة الحرم، كما ضم أربع مآذن ، كذلك أصبح له بابان يصلان إلى داخل المسجد بسلمين صاعدين^(٦). والذى يهمن أن المسلمين تمكنوا خلال قرن واحد تقريباً من طمس معظم المعالم الصليبية واستبدلوها بالفنون الإسلامية المختلفة .

أما فيما يتعلق بالمنشآت الحربية التى أقامها الصليبيون فى مدينة الخليل فتتمثل فى **القلعة** إذ حرصوا دائماً فى توطيد سيطرتهم على البلاد المغزوة بتأسيس قلعة رئيسية فى كل منطقة يضعون يدهم عليها، فكانت قلعة الخليل التى أطلقوا عليها اسم سانت أبراهام وقام بتشييدها جودفرى دى بوايون، أول حكام بيت المقدس. وتم اختيار موقع البناء أعلى المتحدر الجبلى غرب الحرم الخليلى^(٧). وقد شكل الحرم الإبراهيمى دعامة

١ - العلمى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٨٧ .

2 - Vincent, Mackay, Abel, p. 310, Enlart, C., Op. Cit., Vol. II, p. 132 .

قام فنسنت وشريكا فى الدراسة برفع الكتابات العربية الفاطمية والأيوبية والمملوكية المكتوبة بفتح ربيع بالذهب وقاموا بنشرها بعد التعليق على بعض جوانبها . راجع :

Vincent Mackay, Abel, pp. 204 - 250 .

٣ - العلمى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٤٦ ، ٦٠٥ .

٤ - ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٢٨٧؛ الصفدى: الوافى بالوفيات، ص ٣٩، ١٦٨؛ أبو المحاسن: المصدر السابق، ج ٧، ص ١٩٤ .

٥ - العلمى : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٣٤ .

6 - Vincent, Mackay, Abel, pp. 166, 194 - 196, Boase, T. S. R., The Ecclesiastical Art, p. 99 .

يضم المسجد حالياً مثذنين فقط : الأولى فى الركن الشمالى الغربى والأخرى فى الجنوب الشرقى . انظر : شكل رقم (١) راجع أيضا :

Vigouraux, F., Hebron, Cols. 560 - 561, Grimaldi, A. B., Op. Cit., p. 146 .

7 - Albert d'Aix, Op. Cit., pp. 523 - 524 .

إضافة إلى قلعة الخليل ضمت الإقطاعية عدداً من القلاع والأبراج، للتعرف على مواقعها راجع : خريطة رقم (٢) .

قوية ترتكن القلعة إليها. والواضح أن الحكام الصليبيين الأوائل فى الخليل قد سعوا إلى إقامة بعض التحصينات داخلها وخارجها. إذ لم يأت عام ١١٣٠م/ ٥٣٤هـ حتى وصف فيتلس الخليل بأنها شملت تحصينات صناعية فضلاً عن الحماية الطبيعية التى حظيت بها^(١). والجدير بالذكر أن الرحالة اكتفى بهذه الإشارة دون أن يتعرض للتفاصيل الخاصة بذلك، الأمر الذى يجعل من الصعب وضع تخيل ما لتلك التحصينات. ومن المهام التى ألقى عبئها على قلعة الخليل إضافة إلى حماية المنطقة هو أن تقوم أيضاً بحماية مخازن الغلال والمحاصيل فى المزارع المجاورة^(٢).

ونخرج من المادة التاريخية المتوافرة بين أيدينا بوصف معمارى لقلعة الخليل الصليبية فبناؤها شديد من أحجار تم تقطيعها من كتل حجرية محدبة الشكل. ومن الواضح أن هذه الأحجار كانت قد أخذت من أنقاض قلعة قديمة كانت فى نفس الموقع، وضمت القلعة عدداً من الغرف المتجاورة تم تخصيصها لسكن الحامية الفرعية، وقد ارتكزت هذه الغرف على السور الغربى للقلعة وارتفعت فوقها مداخن ترجع إلى نفس العصر^(٣). وفى الوقت الذى أقام فيه الصليبيون هذه التحصينات كانوا يزدون من ارتفاع الأسوار الخاصة بالحرم نحو الشرق - أى فى مواجهة القلعة - والشمال والجنوب حماية لقيادة القلعة، ويتوج تلك الإضافات درابزين مسنن وكوات رمية لإطلاق القذائف مشقوقة طولياً وهى تقع بين الشرفات والمتاريس، وهذه الطرز المعمارية لا تدع مجالاً للشك فى أصلها الصليبي. كذلك فهناك سلمان كبيران يرتقيان من جانبى الحرم ويؤديان إلى باب سرى داخل القلعة، كان يحكم إغلاقه بقطعة ضخمة من الرخام^(٤)، وقد ينطبق على قلعة الخليل من الناحية المعمارية نفس الأساليب التى اتبعت فى باقى القلاع الصليبية الأخرى حيث كانت مربعة الشكل وتتكون من طابقين، بينما يبلغ الارتفاع حوالى عشرة أمتار والسلك ثلاثة أمتار^(٥). ومن الواضح أن تقدير السلك بهذا القدر فيه مبالغة إلا أنها تؤكد الانطباع بمدى ما كانت عليه القلعة من حصانة وقوة. ولعل ملاصقه أبنية القلعة للحرم الإبراهيمى هو الذى جعل الكثير من المؤرخين والرحالة المعاصرين يخلطون بينهما ويصفون مبنى الحرم بشدة التحصين.

والثابت تاريخياً أن قلعة الخليل ظلت تقوم بدورها الدفاعى والهجومى على خير وجه حتى تسلمها صلاح الدين أثناء الفتح بالأمان^(٦). وظلت القلعة بغير سوء

1 - Fetellus, Op. Cit., p. 8.

2 - Benvenisti, M., Op. Cit., pp. 215 - 276.

3 - Guerin, V., Op. Cit., Part III, pp. 217 - 219, Cf. Also., Vigauroux, F., Hebron en Dictionnaire de la Bible, Tome III, Col. 555.

4 - Rey, E. G., les Colonies Franques, pp. 389 - 390.

5 - Benvenisti, M., Op. Cit., p. 276.

٦ - العماد الأصفهاني: الفتح القسى، ص ١١٤.

حتى وصفها ياقوت الحموى . التوفى ١٢٣١م/٦٢٨ هـ بالحصانة والمناعة^(١). غير أن بيبس المنصوري يذكر أن قلعة الخليل «قد تهدمت ودرست آثارها ودثرت» مما اضطر السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى إعادة تشييدها فى عام ١٣١١م/٧١٠ هـ^(٢)، والواضح أن المؤرخ قد بالغ حين وصف القلعة بأنها قد هدمت ودثرت وبالتالي فقد يكون الناصر قلاوون قد قام ببعض الترميمات وأدخل بعض الإضافات عليها فحسب، ذلك أن المهتمين بالآثار يؤكدون أن ملامح القلعة الصليبية كانت ما تزال ماثلة حتى أخريات القرن التاسع عشر الميلادى^(٣). وعليه فيمكن القول أن قلعة الخليل التى شيدها الصليبيون ظلت تمثل أحد المعالم العمرانية المهمة التى ظل المسلمون يستخدمونها لعدة قرون تالية .

أما عن المظاهر العمرانية فى بيت جبرين فقد قضت المدينة نصف عمرها الصليبي تقريبا تحت سيادة حاكم الخليل قبل أن تفصل عنها، وظل العمران المدنى يعانى من جراء المعارك المستمرة التى ابتليت بها المدينة، حتى بالغ وليم الصورى فى شهادته على المدينة التى ذكر فيها أنه قد قل عدد سكانها بشكل مطرد حتى غدت خالية من الأهالى^(٤). وعلى الرغم من قيام بيت جبرين بدور عسكرى واضح ضد حامية عسقلان اشتمل على الجانبين الدفاعى والهجومى حتى سقوطها، إلا أن بيت جبرين حاولت الحفاظ على مكانتها التجارية الخاصة التى كانت قد اكتسبتها قبل الغزو الصليبي حينما كانت مركزاً لجمع المكوس، والنقل التجارى^(٥). وبناء على الإشارات الوثائقية والدراسات المتخصصة بوجود طوائف مختلفة سكنت المدينة فى هذه الفترة^(٦)، يصبح من الطبيعى أن يحرص حكام الخليل وملوك بيت المقدس من ورائهم على تمييز الوجود الصليبي فى المدينة بتوفير المنشآت المدنية والدينية خدمة للسكان .

جاء المعمار الكنسى الصليبي فى بيت جبرين يحاكي الأوضاع السكانية المميزة للمدينة؛ فمن الثابت أن العصر الصليبي شهد بروز ثلاث مؤسسات دينية بين كنيستين ودير يبدو أنها مثلت طوائف المسيحيين المختلفة فى المدينة، والثابت تاريخياً وأثرياً أيضاً

١ - ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٨٧ .

٢ - بيبس المنصوري : التحفة المملوكية ، ص ٢٢٥ .

3 - Guerin, V., Op. Cit., Part III, p. 219, Rey, E. G., les colonies Franques, p. 390 .

٤ - أسامه بن منقذ : المصدر السابق ، ص ١٥ - ١٨ ، ٨٠ - ٨١ .

William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, pp . 81 - 82 .

٥ - المقدسي : المصدر السابق ، ص ١٧٤ ، أبو الفدا : تقويم البلدان ، ص ١٣٢ .

Delaville le Roulx, C. G. O. H, Vol . I, Doc No. 116, pp. 97, 98, Willaim of tyre, Loc., Cit, Cf. Also., Rily - Smith, J., The Knighto of 1 St. John in Jerusalem and Cyprus, pp. 436 - 437 .

6 - Delaville le Roulx, C. G. O. H ., Vol . I, p. 443, Prawer, J., Colonisation - ation Activities, p. 1089 .

أن الصليبيين استعانوا في بناء وترميم هذه الأبنية ببقايا الكنائس البيزنطية القديمة من أعمدة وحجارة ورخام^(١). كما ثبت أن الصليبيين بكرّوا بإيجاد كنيسة لهم في بيت جبرين، حيث ظهر في الوثائق عام ١١١٥م/٥٠٩ هـ شخص تولى منصب رئيس كنيسة بيت جبرين ويدعى روجر rogerus ويرجح أنها كنيسة القديس جورج st. gorig حيث يذكر الآثريون أنها كانت تحتاج فقط لبعض أعمال الترميم إذ إنها ترجع بأصلها إلى العصر البيزنطي^(٢)، وتفيد الدراسات الأثرية بأن الكنيسة قد أقيمت أصلاً فوق قبر القديس ميخائيل، ويدل على ذلك وجود المغارة المدفون بها في جزئها الشمالي. وقد اقتصر الترميمات والتعديلات التي أدخلها الصليبيون على الجزء الرئيسي في الكنيسة البيزنطية الواقع في وسطها حيث القباب التي تحملها الأعمدة الرخامية^(٣). وربما يفسر إقدام الفرنج على تغيير مسمى الكنيسة من القديس ميخائيل إلى القديس جورج بأنه رغبة في كثلثة المنشآت الدينية الرئيسية التي تحت أيديهم .

ولعل أهم كنائس بيت جبرين كنيسة قلعتها التي حملت اسمها، ويبدو أنها أقيمت مع القلعة أي في عام ١١٣٤م/٥٢٨ هـ تقريباً. وقد تم للآثريين التعرف عليها من خلال الأعمدة ذات التيجان دقيقة البناء التي تتخذ شكل ورقة نبات الأكتوس Acanthus (شوك اليهود) ومن ثم يصبح واضحاً أن الكثير من هذه التيجان للأعمدة التي تشبه النمط البيزنطي قد أخذت من المباني القديمة^(٤). وإضافة إلى ذلك فهناك مؤسسة دينية ثالثة في بيت جبرين تمثلت في دير القديسة حنا st. Anna التي عرفها العرب باسم «صند حنة» وهي تقع في الضواحي الجنوبية لبيت جبرين^(٥)، ولن نجد في المادة المتاحة أي تفاصيل خاصة بهذا الدير، مما يعطى انطباعاً بأن معاله قد قضى عليها بشكل لم يسمح للمنشغلين بالآثار دراسته.

1 - William of Tyre, Op. Cit, Vol . II, p. 81, Rey, E., Les Colonies Franques, p. 384, Enlart, Op. Cit., Vol. I, pp. 35 - 44 , Bervenisti , M., Op. Cit., pp. 186 - 187 .

2 - Rohericht, R. S. S., p. 36, Enart, C., Op. Cit. Vol . I, p. 44 .

3 - Clermot - Gamnean, C., Archeological Researches in Palestine during the years 1873 - 1874, trans. by Aubrey Stewart and John Mar Farlane , London, 1899, Vol . II, pp. 447 - 451 .

4 - Jaroslav, Folda, Painting and Sctptnre in Latin Kingdon of Jerusalem, in : setton, K . L ., Vol . II , p. 271.

5 - Delaville le Rolx, C. G. O. H., Vol . I, p. 443 . Rey, E. G., les colonies Franques, p. 384 .

أما عن العمارة الحربية فى بيت جبرين فقد تم تشييد قلعة مهمة بها حوالى عام ١١٣٤م / ٥٢٨ هـ أى قبيل انفصال المدينة عن إقطاعية الخليل الصليبية، وقد اختير موقع القلعة وفقاً للقاعدة التى لاحظها وليم الصورى التى تقوم على أن كل قلعة قديمة بالية يأتى من يعمرها من جديد متفَعاً بالمواد الخام من أحجار وغيرها ولو بعد حين، وبخصوص بيت جبرين فقد شيدت فوق تلال بثر سبع التى يكثر بها الأطلال^(١)، وفى منتصف الطريق الواصل بين غزة وجنوب البحر الميت. وتوجد أهمية خاصة لهذا الموقع إذ إن القلعة أقيمت عند الينابيع التى اشتهرت بها منطقة بثر سبع على الطريق المؤدى إلى الخليل فى منطقة حفية وغنية بأشجار الزيتون، وما تزال أطلالها ماثلة حتى العصر الحالى^(٢). وهكذا وفر وجود الماء، والبيئة المحيطة المناخ اللازم للقوافل التجارية المارة التى كانت تشرف عليها القلعة .

وجاء وصف قلعه بيت جبرين ممن شاهدوا بقاياها بأن بنيانها قوى ، ومحاطة بأربعة أسوار على شكل مربع يبلغ طول كل ضلع حوالى أربعين متراً، ويقف فى كل ركن من أركانها الأربعة برج، فضلاً عن برجين إضافيين عند السور الشرقى، ويمكن تمييز بوابتين فى نفس السور اللتين تؤديان إلى بئر القلعة المبنى من صخور بشكل جيد. ونظراً لأن القلعة ترتكن إلى تل فقد تم نحت غرف متسعة بشكل مخروطى على صف واحد^(٣)، ويفسر البعض أسلوب نحت الغرف على هذا النحو بأن أجزاءها العليا كانت تنتهى بفتحة ضيقة إلى الخارج لتوفير الإضاءة اللازمة داخلها^(٤). وعادة ما يكون لهذا النوع من القلاع بوابة واحدة ضيقة تؤدى إلى فناء القلعة وذلك تسهيلاً للدفاع عنه^(٥). والثابت تاريخياً أنه قد الحق بالقلعة سجن أشار إليه أسامة بن منقذ فى روايته لقصة البدوى الذى نحت سرداباً حتى وصل إلى أمير مسلم كان محبوساً بسجن القلعة فتمكن أخيراً من إطلاق سراحه^(٦). وقد استخدم الصليبيون الأساليب الشرقية فى تزيين القلعة مثل السجاجيد وغيرها لإظهار الأبهة، فى حين استخدموا النمط القوطى فى البناء. وبصفة عامة فالعمارة العسكرية الصليبية قد استوعبت قدراً كبيراً من العمارة الإسلامية وذلك بفعل الاستجابة للتحدى الحضارى الإسلامى إذ كانت بعض الأبنية الخارجية قد اعتمدت الأسلوب الإسلامى فى البناء^(٧). ولا شك فى أن الطبيعة الصخرية الطباشيرية

1 - Willian of Tyre, Op. Cit ., Vol . II , pp. 81 - 82, Cf., Als., Boase, T. S. R., Military Architecture in the Crusader States in Palastine and Syria, in : Setton , p. 142 .

2 - Conder, C., The Latin Kingdom, p. 98, Cf. Als., Gronsset, R., Op. Cit., Vol. II, pp. 157 - 158

3 - Cuerin, V., Judee, Part 2, pp. 307 - 309, Cf. Als., Deschant, P., les Chateaux des Croises, Vol. 2, pp. 11, 236 .

4 - Conder, C. R., Swrvey of Western Palastine, Memoirs, Vol III, pp. 268 - 269 . .

5 - Benvrenisti, M., Op. Cit, p. 276 .

٦ - أسامة بن منقذ : المصدر السابق ، ص ٨٠ - ٨١ .

7 - Prawer, J, The latin Kingdom, p. 516 .

المكونة لتلال بيت جبرين أتاحت الفرص أمام الأعمال النحتية الضخمة المذكورة. هذا وقد قامت القلعة بوظيفتها إلى أن قام صلاح الدين الأيوبي بتخريب أجزاء منها حتى لا تستخدم ضده إذا ما وقعت في أيدي الصليبيين^(١).

وإذ نحن بصدد الحديث عن المظاهر العمرانية الأساسية في بلاد الخليل ، وبعد التعرف على جانب من الحركة العمرانية في مدينتي الخليل وبيت جبرين ، ننتقل للتعرض إلى بعض مظاهر هذه الحركة التي واكبتها في جهات أخرى داخل الإقطاعية الصليبية ، وبإحدى ذى بدء تتميز جهات خارج المدينتين بكونها **قرى وضياعاً** أخذ بعضها في التنامي حيث قصدها الفرنج ليؤسسوا وحدات عمرانية اهتمت بالإنتاج الزراعي بشكل اساسي ، وكانت تضم ما يعرف بقصر النبيل أو الفارس الفرنجي Manor Hause الذي كان يتوسط المزارع ، وقد ذكرتها الوثائق باسم Curtile^(٢) ، كما ظل الاسم العربي «مزرعة» مستخدماً في العصر الصليبي ، وقد أحاط بالخليل عدد كبير منها^(٣) . وإذا كان ذلك يمثل جانباً من العمارة الريفية على عهد الصليبيين نجد أنه حينما استرد المسلمون ديار الخليل ظهرت قرى جديدة بالكامل مثل قرية الشيوخ التي اقترنت نشأتها بوجود ضريح لأحد الأولياء المشهورين في بلاد الخليل^(٤) . كما قام الظاهر بيبرس بتحويل قرية جوش الصغيرة - إحدى قرى بيت جبرين إلى الشمال الشرقي منها - إلى قرية انتسبت إليه باسم «الظاهرية»^(٥) . وما من شك أن موقع جوش الإستراتيجي بوقوعها على حافة هضبة بلاد الخليل الجنوبية واحتدام المعارك مع الفرنج في جهات قريبة منها قد أبرز أهميتها ، فلفتت نظر هذا السلطان . ومن ثم يمكن القول أن الصليبيين بدأوا بالتهوض بالريف الخليلي بالشكل الذي يخدم مصالحهم ، وحينما استرده المسلمون واصلوا التهوض به بصورة أفضل ، فبدأت الحروب الصليبية وكأنها عملت على ربط المسلمين بشكل أوثق بأراضيهم المقدسة في فلسطين فأظهروا المزيد من الاهتمام بها بعد رجوعها إليهم .

١ - ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤١٢ ، راجع أيضاً .

Benvenisti, M., Op. Cit., P. 281 .

2 - Delaville le Ranx, C. G. O. H., Vol I, Doc. No. 312 , 315 . Cf. Als, Benvonisti, M., Op. Cit., P.P. 218 , 235 .

٣ - العماد الأصفهاني : الفتح القسي ، ص ٢١٢ - ٢١٣ .

٤ - هو الشيخ : إبراهيم الهدمة - الهدمي الكردي ، ولد في بلاد الكرد في عام ١٢٤٢م / ٦٤٠ هـ ، قدم في شبابه إلى ريف بلاد الخليل وأقام في بقعة تبعد ستة كيلو مترات شمال شرقي الخليل بالقرب من قرية سعبير حتى اشتهر بكراماته وورعه الشديد ، وعمل بفلاحة الأرض حتى عمرت بالناس ، وتوفي في ١٣٣٠م / ٧٣٠ هـ ، واجتذب ضريحه أعداداً من الأهالي سكنت حوله فنشأت البلدة التي عرفت باسم «الشيوخ» ويرجع البعض هذا المسمى إلى أن معظم أهلها يرتدون زى الشيوخ . راجع : أبو المحاسن ، المنهل الصافي ، والمستوفى بعد الوافي ، القاهرة ١٩٨٥ م . ، ج ١ ، ص ١٣١ ، ١٣٥ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٢٦٠ .

٥ - العليمي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ ، راجع أيضاً : مصطفى الدباغ : المرجع السابق ، ج ٥ . ٢ ، ص ١٧٨ - ١٨٠ .

ومثلت كل من الأديرة والكنائس المعالم العمرانية الصليبية الرئيسية فى القرى الهامة داخل إقطاعية الخليل ، وفى الواقع لم يكن الصليبيون وراء الكثير من المنشآت الدينية فى الريف الخليلي ، إذ إنها ترجع بأصولها إلى أبنية بيزنطية قديمة أعيد بناؤها أو مساجد تم تحويلها، وأمكن التثبت من ذلك من خلال ما أورده الرحالة الصليبيون عن نماذج منها، ومن ذلك أطلال لعدد من الأديرة والكنائس تقع فى الريف الممتد بين الخليل وتقوع، لم يتبق منها سوى دير شاريتون^(١). وكذلك فهناك كنيسة قرية بيت زكريا العريقة التى أعدت لمزاولة نشاطها الدينى إبان الوجود الصليبي فى الإقطاعية^(٢). ويعتقد أحد الباحثين الحديثين فى أنه نظراً لوقوع مثل هذه الأبنية تحت إدارة رجال الدين من الأرثوذكس إبان الحكم الإسلامى وصولاً إلى العصر البيزنطى فقد احتفظت الطائفة لنفسها بهذا الحق^(٣)، وبالأحرى يمكن القول بأن الإدارة أسندت لرجال الدين من الكنيسة الشرقية وفقاً للأغلبية الطائفية من المسيحيين التى تقطن فى القرى التى بها هذه المنشآت الدينية .

أما المنشآت الدينية الفرنجية فى ريف الخليل التى خُصصت للصليبيين فكل ما تم للباحث حصره تلك الكنيسة الواقعة فى رامة الخليل ، التى أشار إليها أحد الرحالة الصليبيين المجهولين بأنها كنيسة جميلة مشيدة فوق التل الذى تعلوه شجرة ممرى^(٤)، علاوة على أديرة القديس حبقوق وبيت وأمر وتقوع وبيت فجار^(٥)، ورغم أن الباحث يعتقد فى إغفال المؤرخين والرحالة الصليبيين ذكر عدد آخر من الأديرة والكنائس الصليبية ، إلا أن الانطباع العام المسيطر هو أن الريف فى إقطاعية الخليل الصليبية كان يفتقر بصفة عامة إلى المنشآت الدينية الصليبية ، ربما استجابة للتوزيع السكانى من الفلاحين وهم السكان التقليديون فى القرى إذ كانت أغليبيتهم الساحقة من المسلمين والسرمان وباقى الطوائف غير الفرنجية. وأخيراً لم تشر أى من المصادر المتاحة إلى أى تطور فى المباني بالنسبة لما يفترض بقاؤه من مساجد إبان الوجود الصليبي ، وهذا الأمر يشير إلى عدم الاهتمام بعمارة أماكن العبادة بالنسبة للمسلمين فى ريف الخليل .

أما فيما يتعلق بالقلاع التى شيدت إبان العصر الصليبي فى قرى بلاد الخليل المختلفة . فالثابت أنها عديدة ، وكان أهمها تلك التحصينات التى أقيمت بغرض حماية المصالح الصليبية المختلفة مثل حماية المستوطنات والطرق الداخلية التى تربط مدينة القدس ببلاد الخليل والبحر الميت، وما تزال آثارها شاهدة عليها حتى اليوم، فقد عثر

1 - Daniel the Russian , Op. Cit., p. 45 .

2 - Johannes Phocas, Op. Cit, p. 30 .

3 - Prawer, J., Social Classes in the Crusader States , P. 85 .

4 - Anonymus pilgrimus, P. 41 .

5 - Rohricht, R., S. S., P. 36 . Cf. Als, Mayer, H. E., P. K. S., pp. 76, 362 - 379 .

الآثريون فى قرية الطبيقة على آثار قلعة بيت صور فى موقع بلدة بيت صور التى برز اسمها فى الوثائق الصليبية على أنها كانت جزءاً من إقطاعية الخليل، ثم قام هيوذى سانت أبراهام الثانى بمنحها إلى طائفة فرسان الإيستارية عام ١١٣٦م / ٥٣٠ هـ (١). وقد أقيمت القلعة كى تكون مركزاً أمنياً لحماية طريق الخليل - بيت لحم (٢)، وحينما تم تخصيص إقطاعية بيت جبرين للطائفة أصبحت بيت صور تمثل حدودها الشمالية. وقد بنيت القلعة بشكل مربع على الطراز النورمانى المألوف فى العماره الصليبية بحيث بلغ طول ضلعه عشرة أمتار . كما تأسست على أرضية من صخور مربعة ، وما يزال السور الغربى قائماً لارتفاع ثمانية أمتار تقريبا وبسمك ثلاثة أمتار ، كما توجد بقايا سلم داخلى يؤدى إلى دور ثان ، والمبنى بشكل عام يوحى بأنه كان يعلوه قوسان ، كما كان ذا واجهة مزينة (٣). وحينما زار الرحالة الصليبي بركارد موقع القلعة عام ١٢٨٣م / ٦٨٢ هـ رأى بقاياها (٤)، مما يشير إلى أنها قد تعرضت لبعض التخریب أثناء المعارك المتتابعة بين قوات صلاح الدين الأيوبي وصليبي الحملة الثالثة حيث شهدت هذه الفترة سلسلة واسعة من تخریب القلاع والتحصينات فى المنطقة بين طرفى الصراع. ومن ناحية أخرى أسس الصليبيون على الطريق الفرعى الواصل إلى البحر الميت برجاً فى بلدة تقوع مربع الشكل فوق التل، وذلك فى شمال البلدة بغرض حمايتها ، ووضع الطريق تحت السيطرة المشددة، وآثار البرج ما تزال شاهدة عليه (٥). وبالإضافة إلى الأهمية الإستراتيجية للبرج فى حمايه الطريق وثروات تقوع المختلفة ، نجده قد وفر قسماً من الأمن للرهبان المتشرين فى المنطقة.

أما قلاع القرى التى حرص الصليبيون على تشييدها فى جنوب إقطاعية الخليل فقد كانت لها أهميتها الخاصة ؛ نظراً لأنها قامت بحماية الحدود الجنوبية لإقطاعية الخليل ومملكة بيت المقدس، وكانت غارة المسلمين عام ١١٣٩م / ٥٣٤ هـ أهم ما دفع الصليبيين إلى إظهار هذا الاهتمام . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى قامت القلاع الجنوبية بتوفير قسط كاف من الأمن للقوافل التجارية المارة على الطريق المتجه إلى صفر، ولعل من أهم قلاع تلك المجموعة قلعة تل المجدل (حوالى سبعة كيلو مترات جنوب بيت جبرين) التى ذكرها الصليبيون باسم Lefeire ولم نسمع عنها إلا حينما أقدم صلاح الدين على تخریبها فى عام ١١٩١م / ٥٨٧ هـ (٦). وبالتالي لم يتح أمامنا

1 - Delaville le Roulx , J. C. G. O. H., Vol I , Doc. No. 116, pp. 97 - 98, Rohricht, R., Regesta, Doc. No. 164 .

2 - Deschamps, P., les chateau des Croises, Vol. II, P. 21 .

3 - Benvisti, M., Op. Cit., pp. 226, 325 - 326 .

4 - Burchard of Mount Sion, Op. Cit., P. 23 .

5 - Guerin, V., Judee, Part 3 , P. 141 Cf. Als., Benvisti, M., Op. Cit., P. 306 .

6 - Ambroise, Op. Cit., No. 6835 - 6841 . Cf. Als ., Deschamps , P., Les Chateaux des Croises , Vol. II, p. 21

فرصة التعرف على معمارها. غير أن السموع والكرمل تعدان أهم قلاع الجنوب^(١) وهما مربعتا الشكل، ذلك الطراز الصليبي المعتاد، «وقد أقيمت السموع محل أبنية بيزنطية مندثرة» أما الكرمل فما تزال أجزاء هامة منها باقية مكنت المهتمين بالآثار من الكشف عن ملامحها العمرانية الأساسية فذكروا أنها شيدت فوق قمة التل الذى يطل على البلدة على أنقاض الكنيسة البيزنطية القديمة، وذلك من طابقين طولها عشرون متراً تقريباً وعرضها خمسة عشر متراً بينما يبلغ ارتفاعها عشرة أمتار، ويعلو الطابق السفلى أقواس ضيقة. أما الطابق العلوى فيعلوه سقف من عقود متقاطعة. ويتخلل الجدار الشرقى ثلاثة شبابيك. كما شيدت القلعة على قاعدة مستطيلة الشكل يبلغ طولها ستين متراً من الشرق إلى الغرب وعرضها خمسة وعشرون متراً من الشمال إلى الجنوب، أما مدخلها فكان فى الجانب المواجه للشمال، وفى هذا الجانب بالدخول يوجد سلم صاعد إلى الدور العلوى. هذا وقد بنيت القلعة من حجارة ملساء من الحجم المتوسط، وتم أخذ الكثير من أحجار الدور الثانى للاستخدام فى أعمال عمرانية أخرى. وتطل قلعة الكرمل على الجهة الشمالية الشرقية من الحوض الذى يحمل اسم القرية^(٢). وحين استرد المسلمون القلعة استخدموها كمركز للبريد المتجه إلى الخليل^(٣).

وأخيراً كان لابد أن يواكب الحركة العمرانية فى بلاد الخليل نشاط صليبي لإقامة مشاريع تمكنهم من التغلب على المشكلة التى عانت منها على مر العصور وهى نقص المياه حيث لم تكن كمياته تغطى احتياجات السكان، ولذا فقد احتفظوا بالتقليد الذى اتبعه المسلمون بتزويد كل منزل بصهريج لتخزين مياه الأمطار^(٤) والصهاريج عبارة عن آبار يحفرها نفر من الناس لاستعمالهم الخاص، ويأتى الماء إليها عن طريق المسيلات وتعرف باسم الهرايات^(٥)، هذا على المستوى الفردى، أما على مستوى الخزانات العامة فكان يأتىها الماء إما عن طريق الجداول أو الأمطار أو العيون، ذكر الرحالة الصليبي ثيودريك أن الصهاريج انتشرت فى داخل أديرة مملكة بيت المقدس المختلفة^(٦)، مما يؤكد أن الصليبيين أفادوا من نظام حفظ الماء ونقله الذى كان المسلمون قد اتبعوه. والجدير

1 - Deschamps, P., Loc, Cit.

2 - Guerin, V., Judee, Part 3, P. 144, Cf. Als., Benvenisti, M., Op. Cit., pp. 306 - 307.

٣ - ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ٧ ، ص ٢٥٩ .

٤ - ناصر خسرو : المصدر السابق ، ص ١٩٩ ؛ ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٧ ، راجع أيضاً :

Theoderich . Op. Cit., P. 34 .

٥ - عارف العارف : قبائل بنى سبع وعشايرها ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

6 - Theodrich , Op. Cit., p. 37 .

بالذكر أن هذه الصهاريج كانت عبارة عن أحواض رخامية أو حجرية ضخمة، مستديرة، يبلغ ارتفاع بعضها قامة رجل، ومحيط دائرتها ذراعان، وأحياناً يوضع بوسط الحوض أنبوب من النحاس لتفجر منه المياه بانتظام^(١). ولعل أهم أحواض مدينة الخليل العامة ما يعرف بحوض الطواشي الذي كان يتخذ مأواه من عين قريبة خارج المدينة وإضافة لذلك فهناك بعض صهاريج أقل أهمية كان يأتيها الماء من عين في وادي الخليل الذي عرفه الصليبيون باسم إشكول (Escoli)^(٢)، غير أن أحواض الخليل الأخرى المنتشرة خارج المدينة كانت أكثر أهمية ومنها أحواض عروب التي تغذى القدس بالماء، وكذلك حوضا الكرمل وعين جدى اللذان يقعان على طرق التجارة والزيارة والحرب، وكان استخدام الصليبيين لهذه الأحواض يعنى أنهم حافظوا وربما طوروا نظام السدود والقناطر الذي عرفه المسلمون من قبل في بلاد الخليل.

وعقب هذه الدراسة التي تناولت المظاهر الحضارية في إقطاعية الخليل الصليبية فلنا وقفة أخيرة لخصر أبرز ما تم التوصل إليه، وأول ما يلفت النظر أن الإقطاعية كانت لها مظاهرها الحضارية الخاصة التي تضافرت لتمييزها عن باقي إقطاعيات مملكة بيت المقدس الصليبية، حيث شكل التركيب السكاني أحد العناصر الأساسية المميزة للإقطاعية إذ ضمت طوائف وأقليات عديدة لم يمثل الفرنج الأكثرية بينهم رغم تسيدهم للمكان، وشكل المسيحيون الشرقيون قطاعاً عريضاً من تلك التركية، ومع ذلك كانوا مواطنين من الدرجة الثانية، أما المسلمون فكانت لهم الصدارة العددية وظهروا في جميع المجالات الإنتاجية غير أنهم جاءوا في درجة متأخرة في السلم الاجتماعي الصليبي القائم على الطبقة في إقطاعية الخليل. وهذا في مجمله أدى إلى تشكيل مجتمع غير متجانس عرفياً وطائفيًا وسياسيًا مما جعله عرضة للانحياز أمام أى من الضربات القوية التي توجه إليه، كما كانت له انعكاساته المختلفة؛ حيث تنوعت الثقافة وتشعبت الاتجاهات في الأساليب المعمارية استجابة لتعدد العناصر المكونة للمجتمع.

شكلت أيضاً الجوانب الاقتصادية، عنصراً مميزاً آخر بين مظاهر إقطاعية الخليل الحضارية؛ فعلى الرغم من كونها من الإقطاعيات الداخلية في مملكة بيت المقدس الصليبية إلا أنه توافرت بها عدة مقومات جعلتها تنافس الإقطاعيات الساحلية الغنية،

١ - ابن رسته : الأعلام النفيسة ، ص ١٢٨ ؛ ناصر خسرو : المصدر السابق ، ص ٩ ؛ ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ٦٦ .

٢ - ناصر خسرو : المصدر السابق ، ص ٣٣ ، وعن الأعين التي تم للصليبيين استغلالها في الوادي يراجع : Ca-nonici Hebronensis, Op. Cit., P. 306 Cf. Als., Vigawraux, F., Hebron, Col . 555 .

وربما تفوقت على بعضها اقتصادياً. ومن هذه المقومات إنتاجها الزراعى المتنوع، وساعدت على تنوعه اختلاف مظاهر السطح وتوافر ما يكفى من مياه خاصة فوق الهضبة التى تمثل أواسط الإقطاعية وعلى المنحدرات، وكذلك حول الآبار وأحواض المياه، ولم يتميز الإنتاج الزراعى بالتنوع فحسب بل الجودة أيضاً، ويشهد على ذلك على سبيل المثال احتلال الكروم مكانة ذائعة الصيت. أما المقوم الثانى فيتمثل فى تلك الغطاءات النباتية التى تنوعت أيضاً بين أشجار استغل الصليبيون أخشابها وحشائش شكلت مراعى ممتدة أدت إلى توفير ثروة حيوانية، عمل بها قطاع عريض من السكان فى الخليل، إضافة إلى الأعشاب العطرية والزيتية. وعلى هذين المقومين ظهر مقوم ثالث ألا وهو الصناعة مثل صناعات تجفيف الفواكه واستخراج الزيوت ودبغ الجلود، غير أن أهم الموارد الصناعية اقترنت بما يفيض به البحر الميت من ثروات ملحية ومعدينية مختلفة كانت بحق إحدى السمات المميزة للاقتصاد الخليلي . وكثيرة لعوامل الإنتاج المذكورة فضلاً عن تحكم إقطاعية الخليل فى طريقين دوليين برز المقوم الرابع وهو دورها فى مجال التجارة، حيث نشطت حركة تبادل الخامات والسلع، وكذلك حركة مرور القوافل عبر طرق الإقطاعية. ولا شك أن هذه المقومات مجتمعة ساهمت فى توفير الموارد اللازمة للحكام الصليبيين للإنفاق على حملاتهم الحربية التى لاتكاد تنقطع فى ظل دوله قامت أساساً على الحرب، وكذلك للصرف على الجوانب العمرانية مدنية وعسكرية التى تشهد انقاضها على اهتمام واضح من قبل الصليبيين مما أدى إلى ترك بصمات ميزت عصرهم فى الخليل.

الخاتمة

إذا أردنا أن نعرض لأهم النتائج والآراء التي توصل إليها الباحث في دراسته فيمكن إجمالها على النحو الآتي، فبداية، عملت الظروف الجغرافية على تشكيل الشخصية السياسية والحضارية المميزة لمنطقة الخليل، فهي داخلية غير ساحلية، ومن ثم أشرفت على الصحراء وحركة الجيوش والقوافل التجارية، كما كان سطحها الذي يغلب عليه الشكل الهضبي قد أهل قلعتها للقيام بدور دفاعي وهجومى مؤثر، ومراقبة رقعة شاسعة من الأراضي المحيطة. كذلك أدت قلة الأمطار عند أطراف المنطقة إلى تكوين مجتمع رعوى كان أداة طيعة بعد إخضاعه في إيجاد خط دفاع أول لتأمين الإقطاعية وباقي مملكة بيت المقدس الصليبية، وفي المقابل توافرت الأمطار بشكل كاف فوق الهضبة ذاتها مما أدى لقيام مجتمع زراعى مستقر فوقها ساهم بفاعلية في تدعيم الجوانب الاقتصادية في الإقطاعية حين قيامها. ومن ناحية أخرى أوضح الباحث ارتباط أراضي الخليل بشخص النبيين إبراهيم ومحمد (صلى الله عليهما وسلم) وإلى أى حد أدى ذلك إلى تمييز الخليل وإعطائها مكانتها الروحانية فجاءت مكمله لعناصر شخصيتها الأخرى. هذا، وقد أبرز الباحث الشخصية السياسية المتميزة لمنطقة الخليل قبيل الغزو الصليبي حيث تمكنت قبيلة بنى طيئ وحليفاتها من القبائل البدوية الأخرى من إثبات هويتها المستقلة عن الدول الإسلامية المجاورة غير مرة، وذلك تمهيداً للدراسة.

ومن القضايا الهامة التي حرص الباحث على إيضاحها ومناقشتها تتبعه للظروف المحيطة بقيام إقطاعية الخليل الصليبية منذ بدء استقرار اللاتين في الشرق، وشمل ذلك جوانب عدة، ففي مرحلة الغزو تم دحض الادعاءات الصليبية الخاصة بقيام المسلمين بتخريب مدينة الخليل قبل إخلائها. وناقش الباحث الملابس المتعلقة بعملية مهاجمة المدينة، وأسباب الدفاع فيها المتمثلة في، حصانتها الطبيعية، الأمر الذي أكد على أهمية تشييد قلعة الصليبيين في المدينة لتقوم بدورها الحربي، تلك القلعة التي ميزت العصر الصليبي حينما شكلت مركزاً لحاكم الإقطاعية وحاميتها، ومنطلقاً للتوسع في جنوب مملكة بيت المقدس. وفي الجانب التالى حرص الباحث على تقييم الكيان الإدارى الصليبي المائل فوق أراضي الخليل، وإذا ما كان يمثل إقطاعية قائمة بذاتها أم كان حاكمها مجرد رئيس الفرسان المقيمين داخل قلعتها سانت أبراهام، وبتتبع الأمر على مدى فترات حكم ثمانية من حكامها تم التوصل إلى أن الخليل شكلت إقطاعية صليبية توافر لحاكمها ما توافر لكثير من حكام الإقطاعيات الصليبية الأخرى داخل مملكة بيت المقدس حيث ارتكنت الإقطاعية على جهاز إدارى يشتمل على: الحاكم الإقطاعى

الكنيسة - جهاز قضائي ممثل فى المحكمة البرجوازية - كيان عسكرى يتمثل فى عشرين فارساً وخمسين جندياً ، كل هذا تحت مسمى صليبي لم تعرفه المنطقة من قبل وهو سانت أبراهام . وهذه الشواهد تقلل من أهمية الآراء السابقة التى نفت قيام الإقطاعية إلا خلال الفترة الأخيرة من عمرها ظناً من أصحابها فى أن الخليل ظلت ستة عقود تقريباً من الزمن على الأقل تابعة بشكل مباشر للملك الصليبي . وقد شكلت فترة حكم هؤلاء الحكام المرحلة الأولى من ثلاث مراحل ميزت الحكم الصليبي للخليل .

اشتمل استعراض مسلسل حكام الخليل فى المرحلة الأولى إلقاء الضوء ما أمكن على كلّ منهم ، فبرز ثلاثة هم : جوتيه الحمدي ، بلدوين دى سانت أبراهام ، وهيو دى سانت أبراهام نظراً لطول فترة حكم كل منهم لإقطاعية الخليل ، ولأنهم ميزوا وجودها كأمر واقع . وقد شملت دراسة فترات حكمهم أهم أعمالهم الداخلية ، فكان القاسم المشترك بينهم ما وثقوه من عقود منح وهبات المؤسسات الدينية . وكان أبرز الأحداث الداخلية خلال فترة حكم بلدوين هو ما شاع حينها عن اكتشاف رفات الأنبياء (عليهم السلام) فى مغارة المكفيلة ، واستلزم ذلك توضيح الدور الذى قام به هذا الحاكم إنجازاً للمهمة . أما خلفه هيو فقد شهدت فترة حكمه نقلة أساسية اشتملت على ما حدث من تغيير فى الخريطة الإقطاعية للخليل ، تنفيذاً لسياسة وضعها فولك دى أنجو ملك بيت المقدس تمكن الباحث من تتبعها والتعرف على أبعادها ، وتوصل إلى أنها استهدفت تشتيت الإقطاعيات وإضعاف قوة الحكام تحت يده ، والآثار المترتبة على ذلك بالنسبة للخليل ، وبانتهاء فترة حكم هيو وضعت نهاية هذه المرحلة .

وفى مرحلة تالية من دراسة فترات ولاية حكام الخليل قدم الباحث إضافات تبرهن وتؤكد على عدم تولى فيليب دى ميلى حكم إقطاعية الخليل وفق ما كان شائعاً فى دراسات سابقة ، ويتمثل هذا البرهان فى إثبات زيف ما ورد فى المصادر عن ذلك ، وكذلك فى عدم إشارة أى من الوثائق الصليبية المتاحة إلى حكمه للخليل ، وبطبيعة الحال فهذا الأمر يتطلب مزيداً من الجهد لتتبعه فى الكتب الوثائقية . ومن ناحية أخرى تمكن الباحث من إمساك طرف الخيط الذى قدمته إليه إحدى الدراسات الحديثة بشأن ثبوت ملكية أفراد من أسرة همفري دى تورون لأراضٍ فى الخليل وحكمهم للإقطاعية ، ومن هذا الإطار دفع الباحث ببراهين إضافية تؤكد على وجود تلك العلاقة ، ومن ذلك تلك الوثيقة التى دونت فى عام ١٢٣٤م / ٦٣٢هـ التى أشارت إلى استحواذ أليس دى تورون على الخليل اسمياً ضمن ممتلكاتها . كذلك لم تخلُ المرحلة الثالثة من مراحل الحكم الصليبي للخليل وهى التى تخص فترة حكم رينو دى شاتيو من مساهمات للباحث تناولت عرض الركائز التى تؤكد اكتمال أركان إقطاعية الخليل الصليبية على

عهده . هذا ، وقد تم تتبع أوضاع الحدود الإقطاعية للخليل وحصر التغيرات التي طرأت عليها . وانتهى الباحث فى هذه النقطة إلى أن الصليبيين هم الذين وضعوا المعالم الدقيقة لبعض حدود إقليم الخليل ، وظلت الحدود على وضعها كعرف على مدى الأجيال التالية .

وفى طور آخر من الدراسة تم تتبع دور الخليل العسكرى بداية من مقاومة أهلها المسلمين للغزو الصليبي . وكان من اللازم إبراز الإمكانيات العسكرية للإقطاعية الصليبية ، حيث تمثلت بشكل أساسى فيما كانت تقدمه من فرسان وجند للخدمة العسكرية ، وكذلك قلعتها ، وتم توضيح دورها المهم فى الأحداث الحربية التى جرت فى جنوب المملكة توطيداً لها . وفى هذا الصدد تم التوصل إلى أن قلعة الخليل شكلت قاعدة قوية لم يقتصر دورها على الدفاع عن الكيان الصليبي فى الأراضى المقدسة ، بل تعدت ذلك إلى بروزها كقاعدة هجومية استخدمت فى تنفيذ المشاريع التوسعية الصليبية فى الجهات المجاورة ، وفرض السياسة التى يبغيها الملك الصليبي فى علاقته مع المسلمين . ومن هنا تبلور الدور العسكرى لحكام الخليل بوصفهم رؤساء أيضاً لحامية القلعة وأعوان الملك الصليبي . وفى هذا الإطار برز خلال المرحلة الأولى دور كل من هيو دى سانت أبراهام الأول وجوتيه المحمدى على أنهما من القادة الكبار الذين يمكن الاعتماد عليهم داخل المملكة .

عنى البحث كذلك بتسليط الأضواء على قضية دور البدو ووضعها الشائك المهم بين قضايا منطقة الشرق الأدنى الإسلامى عصر الحروب الصليبية ، وعلى الرغم من الصعوبة الواضحة فى تتبع دور هؤلاء إلا أنه أمكن استشفاف الملامح الرئيسية له ، وتمثل صعوبة هذه القضية فى غموضها بسبب فقر المادة التاريخية عن البدو . أما أهميتها فترجع إلى أن جانباً كبيراً من سكان إقطاعية الخليل تألف منهم . ومن الأمور التى تم استخلاصها فى هذا الشأن أن البدو مثلوا محوراً مهماً فى قضية الصراع الإسلامى الصليبي تم إغفاله فى معظم الدراسات الحديثة التى تخصصت فى موضوع الحروب الصليبية . وظهر هذا العنصر طرفاً له ملامحه المميزة بين أطراف هذا الصراع ، وتمثل تلك الملامح فى تغيير مواقفهم بشكل سريع بين إعلان الولاء والخضوع للصليبيين ، والانضمام إلى إخوانهم المسلمين فى مصر والشام ، وبينما تأرجحت هويتهم السياسية بين هؤلاء وأولئك إلا أن المصلحة الذاتية والعمل بالتجارة كانتا وراء تلك التوجهات . والواضح أن القوى الصليبية والإسلامية بذلت جهداً متفاوتاً فى إخضاع واستقطاب القبائل البدوية حيث كان جهد الصليبيين أشد ، الأمر الذى أدى إلى ظهور البدو كقوة منقسمة على نفسها متضادة فى مصالحها بسبب التباين فى الانتماء . ولما كان المد السياسى والعسكرى لصالح السفرنج فى المرحلة الأولى من الغزو فقد كانت

سطوتهم أقوى على البدو، أما عندما أصبح ميزان القوى فى صالح صلاح الدين فى مرحلة تالية فقد تمكن من إرضاء بعضهم وتوجيه ضربات للبعض الآخر فجعل الموقف لصالحه فيما بينهم ، وكان ذلك لا يعنى القضاء على تبعيتهم تماماً للفرنج ، إذ ما زالت قبائلهم التى تقطن داخل حدود مملكة الصليبيين تدين بالولاء لهم ، ومن ثم فلم تحسم قضية موقف بدو الخليل من الصراع الإسلامى الصليبي إلا بسقوط الخليل وما جاورها فى يد صلاح الدين .

ويتبع الموقف العسكرى لإقطاعية الخليل الصليبية ، تم التوصل إلى أن مركزها المتمثل فى مدينة الخليل وقلعتها قد تعرض للهجوم المباشر من قبل المسلمين أربع مرات فى أعوام : ١١٠٧م / ٥٠١هـ ، ١١٣٩م / ٥٣٤هـ ، ١١٥٨م / ٥٥٣هـ ، أما الهجوم الرابع فقد أفضى إلى سقوط الإقطاعية الصليبية بوصفها نتيجة من نتائج موقعة حطين الظافرة . ويستنتج من حلقات الصدام العسكرى تلك ، أن الخليل لم تعرض للهجوم مباشر وحقيقى إلا حينما يحدث نوع من التضامن والتنسيق بين أكثر من قوة إسلامية مع مصر والشام . وإضافة إلى الأخطار المباشرة التى شهدتها الخليل اتضح أيضاً أن أطراف الإقطاعية تعرضت عدة مرات لتهديدات المسلمين ، كان أكثرها من جهة بيت جبرين ، الأمر الذى أدى إلى حرص الحكام الصليبيين على وضع الخطط لحماية الكيان الصليبي فى مجمل المنطقة الجنوبية للمملكة ، وتبعت الدراسة الملامح الأساسية لهذه الخطط . وتم التوصل إلى الخطوط العريضة التى سارت عليها سياسة الصليبيين لدرء الخطر الإسلامى من جهة مصر ، وتأثرت الخليل بهذه السياسة بالحرص على إيجاد إدارة عسكرية قوية فى بيت جبرين ارتكزت على فرسان الإستبارية وقلعة المدينة ، بالإضافة إلى إقامة عدد من القلاع الأخرى من أهمها قلعتا السموع والكرمل فى جنوب إقطاعية الخليل ، أما التهديدات الإسلامية من جهة الشرق فقد تم التغلب عليها بفرض رقابة صارمة على مداخلها الشرقية حيث شمالي البحر الميت وجنوبه ، وذلك بإقامة قلعتى الشوبك والكرك وتأسيس بارونية صليبية فى هذه الجهات . ومن الأمور التى تم التوصل إليها أن الأهمية العسكرية لإقطاعية الخليل ارتبطت بمدى صحوة مصر ورفعها راية الجهاد ، حيث نشط دور الإقطاعية ضد محاولات مصر المبكرة لاستعادة الأراضى المقدسة ، ثم استقرت الأوضاع وهذأت فى الخليل مع فتور نشاط مصر العسكرى ، وما لبث أن برز دور الخليل العسكرى ضد مصر خلال فترات صحوتها المؤقتة ، ووصل المد العسكرى ذروته على الجانبين فى الفترة الأخيرة من عمر الإقطاعية الصليبية .

ومن الجوانب الهامة التى حرص الباحث على إيضاها خلال الدراسة دور الخليل فى التصدى لهجمات صلاح الدين على أطرافها حيث شرقى الأردن بوصفها امتداداً

إستراتيجياً وإقطاعياً لها . ومن أوضح تلك المواقف استخدام جيش المملكة الصليبية لأراضيها فى مراقبة ورصد تحركات جيش المسلمين خلال عام ١١٧٣م / ٥٦٩ هـ ، وكذلك قيام الإقطاعية بتقديم كل ما يلزم الجيش الصليبي من موارد . كما تتبع الباحث دور الإقطاعية وحاكمها رينو دى شاتيو فى الانتصار على جيش صلاح الدين الضخم عند أطرافها فى معركة تل الصافية عام ١١٧٧م / ٥٧٣ هـ ولعل من أهم النقاط التى تمكن الباحث من الكشف عن بعض جوانبها ، مدى ما قدمته الإقطاعية من عون فى تشييد أسطول رينو الذى حاول بواسطته مهاجمة بلاد الحجاز . كذلك قام الباحث بإلقاء الضوء على دور فرسان الخليل فى صد الهجوم عن إمارة الجليل والكارثة التى تعرض لها فرسان الإقطاعية فى المعارك . إضافة إلى ذلك فقد حاول الباحث إبراز دور هؤلاء الفرسان فى الدفاع عن شرقى الأردن التى كانت تشترك مع الخليل فى خضوعهما لسيادة رينو دى شاتيو عليهما ، وكانت وحدة السلطة على هذا النحو قد جعلت من الصعب فصل وتمييز الدور العسكرى الذى قامت به الخليل فى هذه المرحلة . أما فيما يختص بحدث القضاء على إقطاعية الخليل الصليبية ، فقد تم التوصل إلى أن الخليل سقطت فى يد صلاح الدين طواعية وذلك قبيل إسقاط المعقل الصليبية المجاورة بما فيها مدينتي عسقلان وبيت المقدس . وخلصَ الباحث إلى أن الخليل استخدمت كقاعدة للانطلاق ضد هذه المعقل نظراً لموقعها الإستراتيجى .

وتعرض الباحث فى الشق التالى من الدراسة إلى جانب آخر له أهميته هو مكانة الخليل الدينية والمزارات، حيث تم إيضاح مدى ارتباط أصحاب الديانات السماوية الثلاث عقائدياً بالخليل . كما استعرض الباحث كتابات الصليبيين واليهود والمسلمين عن الحرم الإبراهيمى ، وكان أهمها رواية راهب الخليل عن قصة اكتشاف رفات الأنبياء، وتناول جميعها بالفحص والتحليل وخلصَ منها إلى حقائق على جانب كبير من الأهمية . وأثبت الباحث أن عملية الاكتشاف تركت آثاراً غائرة فى مجال الزيارة وتنمية الموارد الاقتصادية ، بل وما حظيت به الإقطاعية من ثقل سياسى ودينى بين اللاتين فى الشرق والغرب . وخلصنا فى نهاية هذا السرد الخاص بالحرم الإبراهيمى إلى وضع تصور عام له خلال عصر الحروب الصليبية . ثم تتبع الباحث ما يخص المزارات والأضرحة الأخرى فى بلاد الخليل وقسمها إلى ثلاث مجموعات وفقاً لتوزيعها الجغرافى ، وعليه تم حصر البقاع المقدسة والطوائف التى أولت كلاً منها بالاهتمام، وبناء على ما ورد فى هذا القسم من الدراسة توصل الباحث إلى تحديد الظروف المحيطة بحركة الزيارة داخل بلاد الخليل بالنسبة للطوائف المختلفة . كما خلصَ الباحث إلى أن اللاتين كانت لهم الخطوة فى الزيارة والتنقل بين البقاع المقدسة، فى حين فرضت رسوم على زيارة كل من اليهود والمسلمين وأثبت الباحث أن حركة زيارة الأروبيين واليهود قد تواصلت بعد الفتح الإسلامى للخليل ولم يوضع حد لزيارتهم الحرم إلا بعد فترة طويلة .

أما فيما يختص بالمظاهر الحضارية فى إقطاعية الخليل، فقد قام الباحث بسبر أغوار المجتمع فى الخليل، وصنف سكانها وحدد عناصرهم المختلفة وطوائفهم العديدة، وحاول التوصل إلى أعداد السكان الفرنج والمسلمين ما أمكن على أساس أن الباحث توصل إلى أن هاتين الطائفتين كانتا تشكلان أهم الطوائف فى الإقطاعية، فضلاً عن طائفة السريان. كما تم التأكيد على أن أهمية الفرنج تكمن فى كونهم السادة وأنهم أصحاب السلطة، أما المسلمون فقد تم التوصل إلى أنهم شكلوا اليد العاملة فى مجالات الزراعة والرعى واستخراج الأملاح والصناعة. ولذا كان لابد من تركيز الأضواء على عنصر البدو بصفتهم يمثلون غالبية الأهالى، فتتبع الباحث علاقاتهم بالسلطة الحاكمة وفند الآراء المختلفة حول أوضاعهم الاجتماعية والسياسية، وخلص إلى أنهم كانوا أنصاف أحرار قاموا بدفع الضرائب للملك الصليبي وخضعوا له بشكل مباشر على أن يتولى حمايتهم. وفى هذا الصدد انتهى الباحث إلى أن السمة العامة للبناء السكانى فى إقطاعية الخليل الصليبية هى التمزق والتشتت بشكل أعمق مما كانت عليه قبل الغزو الصليبي، إذ لم يصف هذا الغزو إلا عنصراً إضافياً هم الصليبيون، كما تزايدت أعداد السريان بفعل سياسة تشجيع هجرتهم إلى الأراضى المقدسة مما أدى إلى الإخلال بالتوازن السكانى بين طوائف الخليل. وهذا التمزق كان له دلالاته الخاصة، حيث ترك آثاره على الجوانب السياسية والعسكرية والاجتماعية بل والعمرانية التى شهدتها الإقطاعية طيلة عصرها الصليبي.

تناولت الدراسة قضية مجتمع إقطاعية الخليل فى جوانب أخرى، منها: الأوضاع الاجتماعية، وكان أبرز ما تم التوصل إليه أن الخليل احتلت وضعاً متميزاً خلال عصرها الصليبي فى مجال الاحتفالات الدينية والأعياد، حيث اعتاد كثير من الحجاج الصليبيين أن يقدوا إليها فى عيدين خاصين بها هما عيد القديس إبراهيم وعيد يعقوب وداود (عليهم السلام). وأثبت الباحث فى هذا المضمار أن اكتشاف رفات الأنبياء كان وراء ما حظيت به هاتان المناسبتان من اهتمام، كما أطلق رأياً مفاده أن مناسبة الاحتفال بذكرى القديس إبراهيم تُعد من أهم السمات الاجتماعية، وأبرز الأحداث الدينية التى شهدتها الخليل عصر الحروب الصليبية، بل ليس هناك من مبالغة فى القول بأنها من أهم الأحداث التى شهدها عالم الصليبيين طوال فترة القرنين التى أقاموا خلالها فى الشرق الإسلامى. وفى الجانب الثقافى خلص الباحث إلى أن الحياة الثقافية للصليبيين فى الخليل تُعد امتداداً لما كان يغلب على ثقافات الأوروبيين حيث اصطبغت بالدين، وعليه انتهى الباحث إلى أن كنيسة سانت أبراهام اللاتينية والدير الملحق بها كانت تمثل مركز الثقافة الدينية فى الإقطاعية. كذلك حاول الباحث حصر الأديرة الواقعة فوق أراضى

الخليل ، وقدم الأسباب التى بموجبها انتشرت فى أرجائها حيث البرارى المهيثة لقيام تلك الحياة ، أما فيما يتعلق بالطوائف الأخرى فقد تبين أنها لم تحظ إلا بقدر ضئيل من الثقافة حددت بآماكن العبادة وبشكل ضيق .

إضافة إلى ذلك أبرز الباحث الأهمية الاقتصادية للبحر الميت ، وأوضح حقيقة أن البحر يعد دعامة أساسية فى تشكيل اقتصاد المناطق المحيطة به . وفى العصر الصليبي تم إثبات ذلك فى إقطاعية الخليل ، حيث واصل الأهالى ممارسة كثير من الأنشطة التى كانوا قد عهدوها من قبل ، وأثناء خضوعهم للسلطة الصليبية حدثت طفرة فى مجال إنتاج الأملاح المختلفة لم نجد إشارة لها فى المصادر الإسلامية قبيل الغزو الصليبي إلا فيما يختص بمادة الحُمر ، وهذا لا يعنى أن الأهالى قد جهلوا بإمكانيات البحر الاقتصادية وثرواته المختلفة ، وتم التدليل على ذلك بأن الفرنج اعتمدوا عليهم بشكل أساسى فى استغلال هذه الإمكانيات ، كذلك أثبت الباحث أن الاقتصاد الصليبي قد أفاد من مادة القطران التى جلبها الأهالى أيضاً من البحر ، وحاول الباحث أن يدلل على أن الصليبيين أدخلوها فى صناعة السفن ، ولعل الحيوية التى شهدتها عملية استخراج موارد البحر الميت تجعل الباحث يحسبها لصالح الحكام الصليبيين ، وإن كان ذلك بدافع من احتياجاتهم الحربية التى اقتضتها ظروف العصر .

اهتم الباحث أثناء دراسة المظاهر الحضارية أيضاً بالقاء الأضواء على النشاط التجارى فى إقطاعية الخليل ، وبعد الكشف عن الجوانب المختلفة لهذا النشاط تم التوصل إلى أن التجارة فى العصر الصليبي قامت على دعامتين : أولاهما ؛ تجارة محلية تعتمد على عناصر الإنتاج المختلفة من زراعية ورعوية وغطاءات نباتية وموارد ملحية ، إضافة إلى مواد مصنعة ، وثانيتهما : تحكم الإقطاعية فى طريقين دوليين من طرق التجارة اللذين أستخدما أيضاً فى النواحي العسكرية ، وثبت للباحث أن الطريقين يتمثلان فى طريق رأسى يأتى من غزة إلى بيت جبرين ومنها إلى مدينة الخليل ثم بيت صور وحلحول إلى بيت المقدس ومنها إلى نابلس وباقي الشام ، أما الطريق الثانى فيأتى من غزة مروراً ببيت جبرين والكرمل والسموع من بلاد الخليل ثم بلدة صُغر ويصعد نحو الشمال إلى دمشق وما يليها . ولعل أهم النقاط التى تمكن الباحث من الكشف عنها هو أن الطريق الأخير كان يمر خلال وادى الحسى جنوبى الخليل ، وأن فرعاً منه كان يتجه شمالاً ليقف عند مسادة ثم يتم نقل السلع على سفن صغيرة تعبر البحر الميت عند أضيق مناطقه إلى شبه جزيرة اللسان شرقى البحر ، وتحملها قوافل أخرى لتصل إلى الطريق الأساسى الصاعد نحو الشمال . وبذلك صحح الباحث الاعتقاد بأن هذا الطريق لم يستخدم إلا فى عصور لاحقة للعصر الصليبي . وفضلاً عن ذلك ضمت الخليل عدداً من الطرق التجارية المحلية التى استخدمت أيضاً فى نواح عديدة . ومن هنا

تم إبراز أهمية الموقع الجغرافى لإقطاعية الخليل الصليبية ، فقد استغلت إستراتيجية موقعها كإقطاعية هضبية داخلية فى فرض سيطرتها على الطرق المارة سواء من خلالها أو عند أطرافها . ومن أبرز الآثار المترتبة على نهوض الحركة التجارية عبر طرق الخليل هو إضفاء أهمية خاصة على بلدة بيت جبرين حتى بدت من أهم المراكز التجارية فى العصر الصليبي ، كذلك دفعت الأهمية التجارية والعسكرية للطرق لحكامها الصليبيين ومن ورائهم ملوك بيت المقدس إلى إقامة التحصينات وتشييد القلاع حماية لها ودعمًا للسيطرة عليها .

خلص هذا القسم من الدراسة أيضا إلى توافر نوعين رئيسيين من الموارد المالية للمؤسسات الصليبية فى الخليل : أولهما ؛ الدخل العائد من أدوات الإنتاج المختلفة لصالح السلطة العلمانية فى الخليل ، وثانيهما ؛ ذلك الدخل العائد من القرى والضيايع التى تم منحها إلى كنيسة سانت أبراهام . وإضافة إلى هذا وذاك حاول الباحث حصر الدخول الإضافية الأخرى من ضرائب ورسوم فرضت على السلع وزوار كنيسة الخليل من اليهود والمسلمين . كما تم إبراز ما ترتب عن توافر هذه الدخول من الارتقاء بالمظاهر العمرانية المختلفة فى الإقطاعية ، بحيث شملت العمران المدنى والعسكرى والدينى ، وتم الاستشهاد على ذلك بإقامة قلاع الخليل وبيت جبرين وبيت صور والسموع والكرمل وتقوع وربما غيرها ، وكذلك تلك الإضافات المعمارية المهمة فيما يدعى بكاتدرائية سانت أبراهام التى أقيمت داخل الحرم الإبراهيمى ، فضلاً عن المرافق الأخرى .

وفى نهاية الحديث عن أهم النتائج التى تم التوصل إليها خلال دراسة الخليل فى عصر الحروب الصليبية ، ينبغى التأكيد على أن الكيان الصليبي الذى أقيم فى هذه البلاد الطيبة لمدة أوشكت على التسعة عقود من الزمن قد انهيار أمام إرادة الأمة العربية الإسلامية، حيث أثبتت تربة الخليل أن ترعى جذوره ، فاقتلعت بفضل الوحدة والعمل المنظم . والآمال معقّدة على أن يعود ثالث ورابع مقدسات المسلمين إلى حوزتهم من جديد ممثلة فى المسجد الأقصى فى القدس والحرم الإبراهيمى فى الخليل .

أسماء الحكام ورجال الدين الصليبيين في الخليل وسنوات ولايتهم

أولاً: الحكام

- جزار دى أفنس (١٠٩٩ - ١١٠٠ م / ٤٩٣هـ)
- جلدمار كاربتل (١١٠٠ - ١١٠١ م / ٤٩٣ - ٤٩٤هـ)
- جودفرى سيد برج داود (١١٠١ - ١١٠٣ م / ٤٩٤ - ٤٩٧هـ)
- هيودى سانت أبراهام الأول (١١٠٣ - ١١٠٥ م / ٤٩٧ - ٤٩٩هـ)
- روجر دى حيفا (١١٠٥ - ١١٠٧ م / ٤٩٩ - ٥٠١هـ)
- جوتيه المحمدى (١١٠٧ - ١١١٥ م / ٥٠١ - ٥٠٩هـ)
- بلدوين دى سانت أبراهام (١١١٥ - ١١٣٦ م / ٥٠٩ - ٥٣١هـ)
- هيودى سانت أبراهام الثانى (١١٣٦ - ١١٤٩ م / ٥٣١ - ٥٤٤هـ)
- همفرى دى تورون الثانى (١١٤٩ - ؟ م / ٥٤٤ - ؟هـ)
- همفرى دى تورون الثالث (؟ - ١١٧٠ م / ؟ - ٥٦٥هـ)
- همفرى دى تورون الرابع (قاصر) تحت وصاية أمه ستيفانى دى ميلى .
- (١١٧٠ - ١١٧٧ م / ٥٦٥ - ٥٧٣هـ)
- رينو دى شاتيو + همفرى دى تورون الرابع (١١٧٧ - ١١٨٧ م . / ٥٧٣ - ٥٨٣هـ)
- سيادة اسمية لأسرة دى تورون .

ثانيا: رجال الدين

أ- مظارنة :

- رينيه (أول ذكر له ١١١٢ - ١١١٩ م / ٥٠٦ - ٥١٣ هـ)
- ويدو (١١٣٦ م / ٥٣١ هـ)
- روجر (١١٥٥ م / ٥٥٠ هـ)
- آدم (١١٦٣ م / ٥٥٨ هـ)

ب- أساقفة :

- رينو (فبراير - مارس ١١٦٨ م / ربيع ثاني ٥٦٣ هـ)
- مجهول (ت ما بين أغسطس ١١٨٩ - يوليو ١١٩١ م / رجب ٥٨٦ هـ - شعبان ٥٨٧ هـ)

ج- أساقفة اسميون :

- مجهول (ت مارس ١٢٤٩ م / محرم ٦٤٧ هـ)
- بارثليميو دي فوسا (مارس ١٢٤٩ م / محرم ٦٤٧ هـ)
- بطرس (١٢٦٠ م / ٦٥٨ هـ)
- جودفري (١٢٦٨ م / ٦٦٦ هـ)
- كاربلييه (١٢٨٠ م / ٦٧٩ هـ)
- إيليا (يوليو ١٢٨٦ م / جمادى ثاني ٦٨٥ هـ)

قائمة المصادر والمراجع

- بيان بأهم المختصرات الواردة ذكرها في هوامش البحث

- أولاً : مجموعات الحروب الصليبية .

- ثانياً : المصادر الأصلية الأجنبية .

أ - الوثائق .

ب- المصادر التاريخية وكتب الرحلات .

- ثالثاً : المصادر الأصلية العربية

أ - مخطوطات .

ب- المصادر العربية المطبوعة .

- رابعاً : كتب الآثار .

- خامساً : المراجع الثانوية الأجنبية .

- سادساً : المراجع الثانوية العربية والمعربة .

- سابعاً : الدوريات ودوائر المعارف .

بيان بأهم المختصرات الوارد ذكرها في هوامش البحث

AA. SS

Acta Sanctorum Bollandiana

Arch. Ven.

Archivio Veneto

Amer. H. R.

American Historical Review

Anon. 1234, ' HC '

Anonymi Auctoris Chronicon ad Annum Christi 1234 , ' Historia Civilis '

A. O. L.

Les Archives de l'Orient Latin

Ass. Jer.

Les Assises de Jerusalem

A. T. S.

Annales de Terre Sainte

B. E. Char

Bibliothèque de l'Ecole des Chartes

B. E. F. A. R.

Bibliothèque des Ecoles Françaises d'Athènes et de Rome

B. E. O.

Bulletin de l'Ecole Orientale

B. H. C. T. H.

Bulletin Historique et Philologique du Comité des Travaux
Historiques et Scientifiques

B. I. H. R.

Bulletin of the Institute of Historical Research

B. K. S. K.

Bistuemer , Kloester und Stifte in Koenigreich Jerusalem

le Cart. de Chap.,
 le Cartulaire du Chapitre de Saint - Sepulcre de Jerusalem. Ed. Bresc -
 Bautier , J.
 Cath. H. R.
 Catholic Historical Review
 C. G. O. H.
 Catulaire General de l'Ordre des Hospitaliers de St Jean de Jerusalem
 C. M. H.
 Cambridge Medieval History
 C. M. V.
 Croises , Missionnaires et Voyageurs .
 Delaborde , Chartes ,
 Delaborde , H. F., Chartes de Notre-dame de Josaphat
 D. H. G. E.
 Dictionnaire d'Histoire et de Geographie Ecclesiastiques
 D. O. P.
 Dumbarton Oaks Papers
 E. H. R.
 English Historical Review
 Eracles
 L'Estoire d'Hracles Empereur et de Conquest de la Terre d'Outre - Mer
 Ernoul
 La Chronique d'Ernoul
 Isr. Expl. J.
 Israel Exploration Journal
 J. A.
 Journal Asiatique
 J. R. A. S.
 Journal of the Royal Asiatique Society

J. T.

Jewish Travellers

M. A. I. B. L.

Memoires de l'Institut (national) de France , Academie des Inscriptions
et Belles - Lettres .

M. G. H. SS

Monumenta Germaniae Historica , Scriptorum

M. S. A. F.

Memoires de la Societe Nationale des Antiquaires de France

M. S. A. L.

Memoires de la Societe Academique de l'Aube

N. B. I. R.

Northern British - Israel Review

O. O. M.

Orient et Occident au Moyen Age .

Paoli. S., Cod. Dipl.,

Paoli, S., ed., Codice Diplomatico del ... Ordine Gerosolimitano ...

P. E. F.

Palastine Exploration Fund.

P. L. K. J.

Probleme des lateinischen Koenigreichs Jerusalem .

P. P. T. S.

Palestine Pilgrim's Text Society

R. B.

Revue Biblique

Rev. Hist.

Revue Historique

R. H. C. - H. Occ.

Recueil des Historiens des Croisades , Historiens Occidentaux

R. H. G. F.

Recueil des Historiens des Gaules et de la France

R. H. S. E. E.

Revue Historique de Sud - Est - Europeen

R. O. Cret.

Revue de l'Orient Cretien

R. O. L.

Revue de l'Orient Latin

R.S.

Rolls Series

Setton

Setton, K. M. , A History of the Crusades

S. H. A. J.

Studies in the History and Archeology of Jordan

S. S.

Syria Sacra

Vincent , Mackay , Abel ,

Vincent , L. H., and Mackay , E. J. H. , with Abel , F. M., Hebron : Le Haram el-Khalil , Sepulture des patriarches .

Z. D. P. V.

Zeitschrift des Deutschen Palastina Vereins

أولاً: مجموعات الحروب الصليبية

Les Archives de L'Orient Latin

Vols., Paris 1881 - 1884 .Publices par Societe de L'Orient Latin ,
Delaville Le Roulx , J. (ed.)

Cartilaire General de L'Ordre des Hospitaliers

Itinera Hierosolumitana Crucesignatorum 1085 - 1291 A. D. , 4 vols.,
Jerusalem 1978 - 1984

Jewish Travellers , ed. by Elkan Nathan Adler , London 1930 .

Les Assisses de Jerusalem

L. Beugnot , ed., z Vols., Paris 1841 - 1843 , repr. in Dumond 1983 .

Monumenta Germaniae , Historia Scriptores

Palestine Pilgrims' Text Society

palestine Pilgrim's Text Society , 13 Vols., London 1887 - 1897 .

Recueil de Historiens des Croisades

Publiee par Les soins des L'Academie des Inscriptions et Belles - letters ,
Historiens Occidentaux , 2 tomes Paris 1844 - 1895 . 2. Document
Armenies , z tomes paris 1869 - 1881 , Assisses , 2 tomes Paris 1841 -
1843 .

Recueil des Historiens des Gaule et de la France , 24 Vols. paris 1738 -
1784 .

Revue de L'Orient Latin

Rolls Society , London 1866 - 1869 , including Matthew Paris , 7 Vols.

Rolls Series , London 1868 - 1871 , including Roger of Hoveden , 4 Vols.

Setton , K. M. (gen. ed.)

A History of the Crusades , 1- The First Hundred Years , ed. M. Baldwin
, Philadelphia 1955 , 2- The Later Crusades , 1189 - 1311 , ed. R. L.
Wolff and H. W. Hazard , Philadelphia 1962 , 3- The Fourteenth and
Fifteenth Centuries , ed. Hazard , Madison 1975 , 4- The Art and
Architecture of the Crusader States , ed. Hazard , Madison 1977 , 5- The
Impact of the Crusades on the Near East , ed. N. P. Zacour and H. W.
Hazard , Madison 1985 , 6- The Impact of the Crusades on Europe , ed.
Hazard and Zacour , Madison 1989 .

ثانيا : المصادر الاصلية الاجنبية

(١) الوثائق

d'Albon , Marquis

Cartulaire General de l'Ordre du Temple , 2 vols. & index 1119 - 1150 , Paris 1913 .

Alexander IV , Pope ,

Les Registres d'Alexandre IV , ed. C. Bourel de la Roncière , J. de loye , P. de Cenival , A. Coulon , B. E. F. A. R. , ser 2 , 2 vols. , Paris 1902 - 1931 .

Anonymus

Descriptiones Terrae Sanctae , ed. Tobler , T., (Document No. 4 1145 A. D.) , Leipzig 1874 , PP. 100 - 107 .

d'Arbois , H., (ed.)

Qualre Petits Hopitaux de .. Trayes , in M. S. A. L. XXI , 1857 , Part. J. PP. 1 - 56 .

Beugnot , Lois

Chartes dans les Assisses de Jerusalem , tome II , Paris 1843 , PP. 477 - 537 .

Bresc - Bautier , J. (ed.)

Le Cartulaire du Chapitre du Saint - Sepulcre de Jerusalem , en: D. R. H. cr. 15 , Paris 1984.

Chalandon , F. (ed.)

Un Diplome Inedit d'Amaury I , Roi de Jerusalem , en Faveur de l'Abbay du Temple - NotreSeigneur 1166 , R. O. L. VIII , 1900 - 1901 , PP. 311 - 317 .

Delaborde , H. F. (ed.)

Chartes de Terre - Sainte Provenant de l'Abbaye de Notre - Dame de Josaphat , Paris 1880 .

Delaville le Roulx , (ed.)

Cartulaire General de l'Ordre des Hospitaliers de St Jean de Jerusalem (1100 - 1310) , 4 Vols., Paris 1894 - 1906 .

Chartes de la Terre - Sainte , en: R. O. L., tome XI , Paris 1905 - 1908 , PP. 181 - 191 .

Les Archives , la Bibliotheque et le Tresor de l'Ordre de St Jean de Jerusalem a Malte , en : B. E. F. A. R. , 32 Paris 1883 .

Hagenmeyer , H., (ed.)

Die Kreuzugsbriefe aus den Jahren 1088 - 1100 , Innsbruck 1901 .

Hiestand , R. (ed.)

Papsturkunden fuer Kirchen im Heiligen Lande , Vol. III , Duesseldorf 1985 .

Papsturkunden fuer Templer und Johanniter , Vol. I , Goettingen 1972 .

Innocent IV , Pope ,

Les Registres d'Innocent IV , ed. E. Berger , B. E. F. A. R. , ser 2 , 4 Vols., Paris 1884 - 1921 .

Kohler, Ch. (ed.)

Chartes de l'Abbaye de Notre - Dame de la vallee de Josaphat en Terre - Sainte (1108 - 1291) , Analyses et Extraits , en: R. O. L. 7 , 1899 .

de Marsy Arthur, (ed.)

Fragment d'un Cartulaire de l'Ordre de Saint - Lazare en Terre - Sainte , en : A. O. L., tome II., B. Paris 1884 , PP. 121 - 158 .

de Mas Latrie , (ed.)

Histoire de l'tle de Chypre sous le Regne de la Maison de Lusignan , 3 vols. , Paris 1852 - 61 .

Mayer Hans, E., (ed.)

Tabulae Ordinis Theutonici , Berlin , 1975 .

Paoli , Sebastiano (ed.)

Codice Diplomatico del sacro Militare Ordine Gerosolimitano , Oggi di Malto , 2 vols. Lucca 1733 - 37 .

Riant , P., (ed.)

Etudes sur L'Histoire de l'Eglise de Bethlehem , Vol. 1 , Genoe 1889.

Ricoldo de Monte - Croce,

Lettres de Ricoldo de Monte - Croce , 1280 - 1300 A. D., ed. Rohricht R. in A. O. L. , Vol. II - B., paris 1884 , PP. 264 - 296 .

Roehricht , R.,

Regesta Regni Hierosolimitani , 2 Vols. Innsbruck 1893 .

ب- المصادر التاريخية وكتب الرحلات

Adler , Elkan Nathan (ed.)

Jewish Travellers , London 1930 .

Albert d'Aix

Historia Hierosolymitana , en : R. H. C. H. Occ. , tome IV, Paris 1879 , PP. 265 - 713 , repr. by Edington S. B., engl. trans. Forthcoming Publication .

Amadi, F., Diomedes , S.

Chroniques d'Amadi et de Strambaldi , ed. Mas Latrie , R. Histoire politique , 2 Vols., Paris 1891 - 1893 .

Ambroise

The Crusade of Richard Lion-Heart , trans. from the old French by M. J. Hubert , New York 1941 .

Anonymi Auctoris Chronicon ad Annum Christi 1234 pertinens

Chabot J. B., ed., Corpus Scriptorum Christianorum Orientalum , Scriptorum Syri , ser III , 14 , 15 , Paris 1926 , trans. by A. Abouna , introduction , notes and index J. M. Fiey , ibid., Louvain 1974 .

Anonymus ,

Continuation de Guillaume de Tyre dite du Conuscut de Rothelin , en : R. H. C. H. - Occ., Paris 1859 , PP. 489 - 639 .

كان صاحب هذا المصدر معروفاً بأنه روتلان Rothlein

Anonymus ,

Gesta Francorum Iherusalem , ed. R. H. C. , PP. 121 - 163 .

وقد تم الرجوع أيضاً إلى الترجمة العربية لهذا الكتاب تحت اسم أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة د. حسن حبشي .

Anonymus ,

Itinera Hierosolymitana Crucesignatorum, Vol. I , Jerusalem 1978 , pp. 329 - 345 .

Anonymus ,

Itinera Hierosolymitana Crucesignatorum, A. D. 1130 , Vol. III , Jerusalem 1981 , pp. 63 - 92 .

Anonymus ,

Pilgrims trans. from the Original Latin by Aubrey Stewart , in P. P. T. S. vol. VI, London 1897 .

Anonymus ,

Second Guide , ed. in Jerusalem Pilgrimage 1099 - 1185 A. D. by Wilkinson , J., Hill , J., Ryan , W. F., London 1988 . PP. 220 - 227 .

Anonymus Syriac Chronicle

The First and Second Crusade from an Anonymous Syriac Chronicle trans. Arthur S. Tritton and Hamilton A. R. Gibb, in : J.R.A.S. 1933 , PP. 69 - 101 , 273 - 305 .

Anselme Adorno,

Iteneraire d'Anselme Adorno en Terre - Sainte 1470 - 1471 A. D., trans. Heers J. et Groer J., Paris 1978 .

Arculfus,

The Pilgrimage of Arculfus . 670 A. D., trans. from the Original Latin by Mecpherson J. R. - in , P.P.T.S. Vol. III , London 1893 , PP. 1 - 64 .

Baudré de Doll,

Histoire de Peregrinatione Hierosolumitana , in : R. H. C. H. Occ., tome IV, Paris 1879 , PP. 4 - 111 .

Bar Hebraeus

The Chronography , ed. and trans. by E. A. Wallis Budge, 2 vols., Oxford 1932 .

Bartolf de Nangis,

Gesta Francorum Iherusalem Expugnantium , en: R. H. C. - H. Occ. III Paris 1866 , PP. 487 - 543 .

Benodicti of petroburgensis,

Vita Henerici II , Anglicie Rogis , Cf. R. H. G. F., Vol. XVII , Paris 1818 , PP. 406 - 546 .

Bepa ,

Itinera Hierosolumitano, 1148 A.D., Vol. IV, Jerusalem 1985, PP. 41 - 52.

Burchard of Mount Sion

A Description of the Holy Land 1232 A. D. trans. by Aubrey Stewart , in : P. P. T. S., vol. XII London 1896 , PP. 1 - 111 .

Canonici Hebronensis ,

Tractatus de Inventionem Sanctorum Patriarchum (Abraham , Yasaac et Jacob.) , R. H. C. H. Occ., Tome V, Paris , 1869 .

Casus Santi Galli ,

in : M. G. H. S., Vol. II

Choniates , Nicetas

Historia , ed. Van Dieten J. A., Corpus Fontium Historiae Byzantinae , 11 (I , II) , Berlin 1975 .

Daniel the Russian ,

The Pilgrimage of Daniel the Russian in the Holy Land 1106 - 1107 A. D. , trans. by C.W. Wilson, in: P.P.T.S., Vol. IV, London 1888. PP. 1-108

David Reubeni,

The Itinerary of David Reubeni 1523 - 27 , in : Jewish Travellers , PP. 251 - 328 .

Eblard ,

The Pilgrimage of Eblard , ed. in Jerusalem Pilgrimage 1099 - 1185 A. O. by Wilkinson, J. Hill , J., Ryan , W. F., London 1988 , PP. 238 - 251 .

Eracles,

l'Estoire d'Eracles Empereur et de Conquest de la Terre d'Outre - Mer , en : R. H. C. - H. Occ., tome II , Paris 1859 , PP. 1 - 481 .

Ernoul,

La Chronique d'Ernoul et de Bernard le Tresorier , ed. Mas Latrie , Paris 1871 .

Felix , Fabri,

The Book of Wanderings 1484 A. D. , 2 vols., trans. by Aubry Stewart , London 1897 .

Fetellus

Description of Jerusalem and the Holy Land 1130 A. D., in : P. P. T. S., vol. V, London 1892 . PP 1-58

Fulcher of Chartres,

A History of the Expedition to Jerusalem trans. by Frances Rita Ryan , Sisters of St. Joseph, ed. with an introduction by Harold's Fink, Konuville U. S. A. 1969 .

Gelardus de Escolo ,

in : Itinera Hierosolomitana Crucesignatorum , Geografiarum Tera san - Ketī , 1112 - 1120 A. D., vol. III , Jerusalem 1984 , PP. 177 - 194 .

Geofrey de Vinsauf

Chronicles of the Crusades , Itinerary of Richard and Others to the Holy Land , London 1848 .

Gestero , Josepho,

Acta Sanctorum , Octobris Tomus Quartus , Paris et Rome 1866 . PP. 688 - 691 .

Godfridi ,

Anonumi Rhenani Historia et Gestaducis Godfridi, ed. R. H. C. H. Occ., t. v., Paris , 1880 , PP. 439 - 525 .

Goitein, S.D., (Ed.)

(Summarised and trans.) Geniza Sources for the Crusader Period : " A Survey " , in Outre - Mer. Studies in the History of the Crusading KingDom of Jerusalem, ed. Kedar, B.Z., Mayer, H.E., and Smaile, R.C., Jerusalem 1982 , PP. 307 - 323.

Cuibert de Nogen

Historia quae dicitur Gesta Dei Per Francos , en: R. H. C. H. Occ., tome IV, Paris 1879 , PP. 113 - 263 .

Guillelmi de Hangico ,

Chronicon , Cf., R. H. G. F., Vol XX , Paris 1840 .

Histoire des Patriarches d'Alexandrie , ed. par Blochet , R. O. L. 1903 - 1904 .

Isaac Ben Joseph Ibn Chelo,

The Roads from Jerusalem 1334 A. D. , in : Jewish Travellers , PP. 130 - 150 .

Itinerarium Peregrinorum,

Eine zeitgenoessische englische Chronik zum dritten Kreuzzug in urspruenglicher Gestalt , ed. Mayer , Stuttgart 1962 .

Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi

W. Stubbs , ed., R. S. 38 (I) , London 1864 .

Jacob

The Itinerary of Rabbi Jacob 1238-44 A. D., en J. T. , PP. 115 - 129 .

Jacob Ben R. Nathaniel Ha Cohen,

The Itinerary of Rabbi Jacob Ben R. Nathaniel Ha Cohen . Twelfth Century , in J. T. , PP. 92 - 100 .

Jacques d'Ibelin,

Le Livre de Jacques d'Ibelin , en: Ass. Jer. , tome I , Paris 1881 , PP. 541 - 468 .

Jacques de Verone ,

Liber peregrin , 1335 A. D., in R. O. L., vol. III , paris 1895 , PP. 156 - 302 .

Jacques de Vitry

The History of Jerusalem , trans. by Aubrey Stewart , in : P. P. T. S., vol. XI , London 1896 .

Jean d'Ibelin,

Le Livre de Jean d'Ibelin , en : Ass. Jer. , tome I , paris 1881 , PP. 7 - 432. repr. in: Dumond 1983 .

Johannes Phocas,

The Pilgrimage of Johannes Phocas to the Holy Land in the year 1185 A. D., trans. by Aubrey Stewart , in : P. P. T. S., Vol. VI, London 1889 , PP. 1 - 55 .

Johannes Poloner,

Description of the Holy Land 1422 A. D. , trans. by Aubrey Stewart , in : P. P. T. S., vol. VI , London 1894 .

John of Wurzburg,

Description of the Holy Land by John of Wurzburg 1160 - 1170 A. D., trans. by C. W. Wilson , in: P. P. T. S., vol. V, London 1890 . PP. 1 - 72 .

Johnston , R. C., (ed.)

The Crusade and Death of Richard I, Oxford 1961 .

Joinville , Jean de

Histoire de Saint Louis - Teste original du XIVe . Siecle , Paris 1874 .

Josephus ,

Jewish War, Tr. by H. St. J. Thackeray , 3 Vols., London 1928 .

Jupp, A. Margaret, (ed.)

Estoires d'Outr Mer et de la Raissance Salahadin , , London 1990 .

Kinnamos John ,

Deed of John and Manuel Comnenus Tr. by Charles M. Brand , New York 1976 .

Kohler , CH., (ed.)

Histoire Anonymed du Royaume de Jerusalem , Compose , utelise à la fin de Douzième Siècles , dans R. O. L. , vol. V , Paris 1903 PP. 211 - 292 .

Les Lignages d, Outre - Mer.,

In Ass. Jer. , tome II, Diamond 1983 .

Ludolph Von Suchem's,

Description of the Holy Land (1350 A. D.) trans. by Aubrey Stewart , in : P. P. T. S. , vol. XII, London 1895 - 96 . PP. 1 - 142 .

Martin Abbe,

Les Premiers Princes Croises et les Syriens Jacobites de Jerusalem , J. A. XII 1888 , PP. 471 - 490 , XIII 1889 , PP. 33 - 80 .

Matthew Paris,

Chronica Maiora , ed. H. R. Luard , in : R. S. 57 (I - VII) , London 1872 - 83 .

Matthieu d'Edesse,

Extraits de la Chronique , en : R. H. C. Arm., Vol. I , Paris 1869 , PP. 4 - 149 .

Menestât Albertus,

in : *Itinera Hierosolymitana Crucesignatorum* , 1251 - 1252 A. D. , Vol. II , Jerusalem 1980 , PP. 1 - 43 .

Meshullam Ben R. Menhem of Volterra,

Itinerary of Rabbi Meshullam Ben R. Menahem of Volterra 1481 , in : J. T. , PP. 156 - 208 .

Michel le Syrien,

Chronique de Michel Lesyriem , ed. with French trans. by J. B. Chabot , 4 Vols., paris 1899 - 1924 .

Michelant H. et Raynaud , G.,

Itunéraires a Jerusalem , en : Publications de la Societe de l'Orient Latin , Serie Geographique 3 , Paris 1882 .

Obadiah Da Bertinoro,

Itinerary of Obadiah 1487 - 90 , in : J. T. , PP. 209 - 250 .

Orderic Vitalis,

The Ecclesiastical History, ed. and trans. by M. Chibnall, Vol. II - IV , Oxford 1969 - 80 .

Petachia of Ratisbon,

The Itinerary of Rabbi Petachia 1174 - 1187 A. D., in : J. T., PP. 64 - 90 .

Peter le Déacon,

in : *Itinera Hierosolymitana Crucesignatorum* , 1137 A. D., Vol. III , Jerusalem 1984 , PP. 177- 191 .

Philippe De Navarre,

Chronique de Philippe de Navarre , en Gestes des Chiprois , ed. par Raynaud G., Geneve 1887 , PP. 25 - 138 .

Poseres , Philip,

in *Itinera Hierosolymitana Crucesignatorum* 1085 - 1291 A. D., Vol. II , Jerusalem 1980, PP. 235 - 252 .

Radulphi de Coggeshall ,
Chronicon Anglicanum De Expugnatione Terra Santa Libellus , ed.
Stevenson, J., in : R. S. 66 , Vol. II , London 1875 , PP. 208 - 262 .

Raimond d'Agiles,
Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem , en : R. H. C. H. Occ. ,
tome III , paris 1866 , PP. 231 - 304 .

Raoul de Caen,
Gesta Tancredi in Expeditione Hierosolymitana , en : R. H. C. H. Occ.
tome III , Paris 1866 , PP. 587 - 716 .

Riant , P., (ed.)
Invention de la Sepulture des Patriarches (Abraham , Isaac et Jacob) a
Hebron le 25 Jun 1119 , en : A. O. L. , tome II, A., Paris 1884 , PP. 411 -
421 .

Roger de Hoveden,
Chronica , ed. W. Stubbs , in : R. S. , 51 (I - IV) , London 1868 .

Roger of Wendover,
Flowers of History , 2 Vols., trans, by J. A. Giles , London 1848 .

Roehricht , R., Raynaud , G., (eds.)
Annales de Terre Sainte , en : A. O. L. II - 2 1884 , PP. 427 - 461 .

Saewulf's,
Pilgrimage to Jerusalem and the Holy Land , trans. by W. R. Brownlow ,
in: P. P. T. S., Vol. IV , London 1892 . PP. 1 - 55 .

Samuel Ben Samson,
Itinerary of Rabbi Samuel Ben Samson in : 1210 A. D. , in : J. T. , PP.
103 - 110 .

Sandoli , (Sabino de)
Itinera Hierosolymitana cruce signatorum (saec. XII - XIII) , studium BF
, Collectio major 24 , 4 vols. Jerusalem 1978 - 1984 .

Theoderich,
Description of the Holy Land , trans. by Aubrey Stewart , in : P. P. T. S.,
vol. V, London 1894 . PP. 1- 86 .

Tobler , T. , Molinier , A., (eds.)

Itinera Hierosolymitana , 2 vols., Publications de la Societe de l'Orient Latin , Serie Geographique 1 , 2 , Geneva 1879 - 80 .

Tudebodus , P.,

Historia de Hierosolymitano Itinere , en : R. H. C. H. Occ., tome III , Paris 1866 , PP. 3 - 117 .

Wellemar Malmesberyror ,

Itinera Heirosalunitana , 1127 A.D. Vol. III , Jerusalem 1984 , P. 69 .

William of tyre,

A History of Deeds Done Beyond the Sea , 2 vols., trans. by Babcock and Krey , New York 1943 .

ثالثا: المصادر الاصلية العربية

١- مخطوطات

الباكوى : أتم مؤلفه فى (٨١٦هـ / ١٤١٣ - ١٤١٤ م) عبد الرشيد صالح ابن نورى :

- تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار ، ترجمه وعلق عليه الدكتور ضياء الدين بن موسى بونياتوف ، موسكو ١٩٧١ م.

البلوى : (ت ٧٣٧هـ / ١٣٣٧ م). خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبى خالد البلوى أبو البقاء :

- تاج المفرق فى تحلية علماء أهل المشرق ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تاريخ تيمور رقم ٨٤٤ ، جغرافيا ٣٢٦٢ .

ابن الجزرى : (ت ٨٣٣هـ / ١٤٢٩ م). محمد شمس الدين أبو الخير :

- ملخص تاريخ الإسلام ، مكتبة محافظة الإسكندرية ، رقم ٢٠٧٢ - د .

ابن حجر العسقلانى : (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩ م). شهاب الدين أحمد بن على :

- رفع الإصر عن قضاة مصر ، دار الكتب المصرية ، رقم ١٠٥ ، ٢١١٥ تاريخ .

الحموى : (ت ٦٤٢هـ / ١٢٤٤ م) شهاب الدين أبو إسحاق إبراهيم عبد الله ابن أبى الدم الحموى :

- التاريخ المظفرى ، مكتبة جامعة الإسكندرية ، رقم ١٢٩٢ ب .

الخالدى : (ت ٩٢٧هـ / ١٥٣١ م) بهاء الدين محمد بن لطف الله العمرى :

- المقصد الرفيع المنشأ الحاوى لصناعة الإنشا ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٤٥ .

الذهبي : (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قايماز
شمس الدين الدمشقي :

- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، مجلد ١٦ ، ٢٦ ، دار
الكتب المصرية ، رقم ١٤٥٢ تاريخ .

السلامي : (تاريخ الوفاة غير معروف) شهاب الدين أحمد :

- مختصر التواريخ ، دار الكتب المصرية ، رقم ١٤٣٥ ، تاريخ ،
٩٠٥١ ح .

الصفدي : (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) صلاح الدين بن أليك الصفدي :

- التذكرة الجزء ٢٨ ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٨٢١ تاريخ .

العيني : (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن
موسى :

- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، ٢٣ جزء في ٦٩ مجلد ، دار
الكتب المصرية ، رقم ١٥٨٤ تاريخ ، ٨٢٠٣٢ تصوير شمسي .

ابن الفازاني : (تاريخ الوفاة غير معروف) :

- تاريخ الفازاني ، ٤ ج ، دار الكتب المصرية ، رقم ٥٤٢٦ .

الفزاري : (ت ٧٢٩هـ / ١٣٢٩م) برهان الدين إبراهيم عبد الرحمن بن إسحق
ابن تاج الدين الشافعي الفزاري :

- باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس ، مكتبة محافظة الإسكندرية
رقم ٤٩٨١ ج .

مرعى المقدسي : (ت ١٠٣٣هـ / ١٦٢٤م) مرعى بن يوسف بن أبي بكر بن
أحمد المرعى الحنبلي :

- نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين ، دار
الكتب المصرية ، رقم ٢٠٧٦ تاريخ ، مكتبة محافظة الإسكندرية رقم
١٤١٦ .

ابن مفرج الإسكندراني : (القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي)
ابن صاعد القلزمي :

- تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة ، ٣ جـ
مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٤٦٣٤ ح ، تصوير شمسي .

المقريزي : (ت ٨٤٥هـ . / ١٤٤٢م .) تقي الدين أحمد بن علي :

- قطع تاريخية ، مكتبة محافظة الإسكندرية ، رقم ٢١٢٥ د . تاريخ .

مؤرخ مجهول :

- كتاب في التاريخ ، مخطوط بدار الكتب ، رقم ٢٤٠٣ .

ابن هشام : (ت ٧٩٥هـ . / ١٣٩٣م .) عبد الرحمن بن أحمد بن رجب :

- فضائل الشام ، مخطوط بمحاضرة الإسكندرية ، رقم ١٣٥١ د .

ب- المصادر العربية المطبوعة

القرآن الكريم

العهدان القديم والجديد

ابن الأثير : (ت ٦٣٠هـ / ١١٢٤م) عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم
ابن عبد الواحد الشيباني الجزري :

- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ، تحقيق : عبد القادر
طليمات ، القاهرة ١٩٦٣م .

- الكامل في التاريخ ، ١٢ ج ، بيروت ١٩٧٩م .

أبو بكر الحموي : (ت ٨٣٧هـ / ١٤٤١م) تقي الدين أبو بكر بن حجة
الحموي :

- ثمرات الأوراق ، صححه وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم ،
القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٧١م .

أبو شامة : (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م) شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن
ابن إسماعيل :

- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جزآن ، بيروت
(ب - ت) .

- تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين المعروف باسم الذيل
على الروضتين ، نشر : السيد عزت العطار ، بيروت ، الطبعة الأولى
١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م .

أبو الفدا : (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) إسماعيل بن علي محمود ، الملك المؤيد
صاحب حماه :

- المختصر في أخبار البشر ، أربعة أجزاء في مجلدين ، بيروت (ب - ت) .

- تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠م .

أبو الفضل الدمشقي : (دون كتابه في ٥٧٠هـ / ١١٧٤م) أبو الفضل جعفر
ابن علي الدمشقي :

- الإشارة إلى محاسن التجارة ومعرفة جيد الأعراض ورديها وغشوش المدلسين فيها ، مطبعة المؤيد ١٣١٨ هـ .

أبو المحاسن : (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م .) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى :

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ١٦ جزء ، القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٤٣ م .

- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، ج ١ تحقيق : د. محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٥ م . ، ج ٤ ، تحقيق : د. محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٦ م .

الإدريسى : (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م .) أبو عبد الله محمد :

- نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق ، نشر : راشن موللر ، ليدن ١٨٩١ م .

أسامة بن منقذ : (ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م) مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد الكنانى الشيزرى :

- كتاب الاعتبار أو حياة أسامة بن منقذ ، تحقيق ونشر : د. فيليب حتى ، جامعة برنستون (الولايات المتحدة الأمريكية) ١٩٣٠ م .

- المنازل والديار ، تحقيق مصطفى حجازى ، كتاب رقم ١٥ ، القاهرة ١٩٦٨ م .

الأصطخرى : (ت القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) أبو إسحاق إبراهيم ابن محمد الفارسى :

- المسالك والممالك ، تحقيق : محمد جابر عبد العال الحسينى ، القاهرة ١٩٦١ م .

الأنصارى الدمشقى : (ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى طالب المعروف بشيخ الربوة :

- نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، بطرسبرج ١٨٦٥ م .

ابن أبيك الدوادارى : (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م .) أبو بكر عبد الله بن أبيك :

- كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٦ (الدرة المضيئة فى أخبار الدولة

الفاطمية) ، تحقيق : د. صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م.

ج٧ (الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب) تحقيق : د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٣٩١ هـ. / ١٩٧٢ م.

ج٨ (الدر الزكية فى أخبار الدولة التركية) تحقيق : أوليرخ هارمان ، القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م.

البدرى : (من علماء القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى)
أبو البقاء عبد الله البدرى :

- نزهة الأنام فى محاسن الشام ، دار الرائد العربى ، بيروت - لبنان ،
الطبعة الأولى ، ١٩٨٠ م. / ١٤٠٠ هـ.

ابن بطوطة : (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله :

- رحلة ابن بطوطة المسماه تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب
الأسفار ، كتب هوامشه وعلق عليه : طلال حرب ، الطبعة الأولى ،
بيروت ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.

البكرى : (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى
الأندلسى :

- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ،
٤ مجلدات ، القاهرة ١٩٤٥ - ١٩٥١ م.

البلاذرى : (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر
البلاذرى :

- فتوح البلدان ، تحقيق : عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ،
القاهرة ١٩٥٦ م. ، طبعة أخرى ، ٥ ج ، بيروت ١٩٥٧ م.

البندارى الأصفهاني : (ت ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م) الفتح بن على بن محمد
البندارى الأصفهاني :

- تاريخ دولة آل سلجوق ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٤٠٠ هـ. / ١٩٨٠ م.

بيبرس المنصورى : (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) الأمير ركن الدين بيبرس
المنصورى الدوادارى :

- التحفة المملوكية فى الدولة التركية ، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨٧ م .

التدمرى : (ت ٨٣٣ هـ / ١٤٢٨ م) إسحق بن ابراهيم بن أحمد بن محمد ابن كامل التدمرى الشافعى :

- مثير الغرام وخلاصة الكلام فى فضل زيارة سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام

ed. Matthews , in J. P. O. S. , Vol. XVIII , 1937 . PP. 116 - 198 .

ابن جبير : (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسى :

- رحلة ابن جبير ، طبعة ليدن (بريل) ١٣٢٦ هـ . / ١٩٠٨ م .

ابن الجوزى : (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م) أبو الفرج عبد الرحمن بن على :

- المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك ، ١٠ أجزاء ، طبعة حيدر آباد ، الدكن (ب - ت) .

ابن حبيب : (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) الحسن بن عمر بن الحسن :

- تذكرة النبىه فى أيام المنصور وبنه ، ج ١ ، تحقيق : د. محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٧٦ م .

ابن حجر العسقلانى : (ت ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م) الحافظ شهاب الدين أحمد ابن على العسقلانى :

- أبناء الغمر بأبناء العمر ، تحقيق : محمد أحمد دهان ، المجلد الأول ، دمشق ١٣٩٩ هـ . ، الجزء الثالث ، تحقيق د. حسن حبشى ، القاهرة ١٣٩٢ هـ . / ١٩٧٢ م .

الحموى : (ت بعد ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م) أبو الفضائل محمد بن على الحموى :

- تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان المعروف باسم التاريخ المنصورى ، نشره بطرس غريازينويج ، موسكو ١٩٦٠ م .

ابن حوقل : (ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) أبو القاسم محمد بن على النصيبى :

- كتاب صورة الأرض ، قسمان فى مجلد واحد ، الطبعة الثانية ، ليدن
(مطبعة بريل) ١٩٣٨ م .

ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) أبو زيد عبد الرحمن محمد :

- العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم
من ذوى السلطان الأكبر ، ٧ أجزاء القاهرة ، طبعة بولاق ١٢٩٩
هـ . / ١٨٦٧ م .

ابن خلكان : (ت ٦٨٨ هـ / ١٢٨٢ م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن
إبراهيم :

- وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، ٦ أجزاء ، تحقيق إحسان عباس ، طبعة
بيروت ١٩٦٧ - ١٩٦٨ م .

الذهبي : (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن
قايمار شمس الدين الدمشقى :

- دول الإسلام فى التاريخ ، ٢ جـ فى مجلد ، تحقيق : د. فهيم محمد
شلتوت ود. محمد مصطفى إبراهيم ، القاهرة ١٩٧٤ م .

ابن رسته : (ت فى أوائل القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) أحمد بن
على بن أحمد بن عمر :

- الأعلام النفيسة ، ليدن ، مطبعة بريل ١٨٩١ م .

رشيد الدين الهمزاني : (ت ٧١٨ هـ / ١٣١٩ م) رشيد الدين بن عماد الدولة
أبى الخير الملقب بالهمزاني :

- جامع التواريخ ، الجزء الأول ، المجلد الثانى ، ترجمة محمد صادق
نشأت وآخرون ، القاهرة ١٩٦٠ م .

السبكي : (ت ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م) تاج الدين عبد الوهاب بن على :

- طبقات الشافعية الكبرى ، ٦ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٤ هـ . / ١٩٠٧ م .

سبط ابن الجوزى : (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م) أبو المظفر شمس الدين يوسف
ابن قزاوغلى :

- مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، المجلد الثامن ، ق ١ - ٢ ، حيدر أباد
١٣٧٠ هـ . / ١٩٥١ م .

- السخاوى : (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م) محمد بن عبد الرحمن بن محمد :
- الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، ١٢ جزء ، القاهرة ١٣٥٢ - ١٣٥٥ هـ .
- ابن سعد : (ت ٢٣٠هـ / ٨٤١م) محمد بن سعد بن منيع البصيرى الزهرى المكنى بأبى عبد الله :
- الطبقات الكبرى (السيرة النبوية الشريفة) تحقيق : إحسان عباس ، ٨ مجلدات ، بيروت (ب - ت)
- السيوطى : (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر :
- تاريخ الخلفاء ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ . / ١٩٨٨م .
- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزءان ، القاهرة ١٣٢١هـ .
- ابن الشابشتى : (ت ٣٨٨هـ / ٩٩٨م) أبو الحسن على بن محمد :
- الديارات ، تحقيق : كوركيس عواد ، بغداد ١٩٥١م .
- شافع بن على : (ت ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م) شافع بن على بن عباس الكاتب :
- كتاب حسن المنقلب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ، تحقيق : د. عبد العزيز الخويطر ، الرياض ١٩٧٦م .
- ابن شاهين الظاهرى : (ت ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م) غرس الدين بن شاهين :
- زبدة كشف الممالك ، تحقيق : بول راويس ، باريس ١٨٩٤م .
- ابن الشحنة : (ت ما بعد ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م) أبو الفضل محمد أبو الوليد ابن الشحنة :
- روضة المناظر فى أخبار الأوائل والأواخر ، الطبعة الأولى بالمطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠٣هـ . (محلى هوامش كتاب المسعودى)
- ابن شداد : (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) عز الدين أبو عبد الله محمد الحلبي :
- الأعلام الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق : د. سامى الدهان ، جزآن ، دمشق ١٩٦١م .

ابن شداد : (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م) القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن تميم بن عتبة :

- النوارد السلطانية والمحاسن اليوسفية ، أو سيرة صلاح الدين ، تحقيق : د. جمال الدين الشيال ، طبعة أولى القاهرة ١٩٦٤م ..

الصفدى : (ت ٧٦٤هـ / ١٢٦٣م) صلاح الدين بن أيك الصفدى :

- الوافى بالوفيات ، نشر جمعية المستشرقين الألمانية ، فيزيان ، ١٩٢٢ - ١٩٢٥م . وباقي الكتاب مخطوط بدار الكتب ٧٧١ تاريخ تيمور .

ابن طولون : (ت ٩٥٢هـ / ١٥٤٦م) محمد بن على الصالحى الدمشقى :

- أعلام الورى ، ٢٠ جزءاً ، القاهرة ١٩٤٥ - ١٩٤٨م .

ابن عبد الظاهر : (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م) القاضى محيى الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين السعدى المصرى :

- الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق ونشر : عبد العزيز الخويطر ، الرياض ١٩٧٦م .

- تشرىف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، تحقيق : د.مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١م .

عبد الغنى النابلسى : (ت ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م) عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى :

- الحقيقة والمجاز فى الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز ، إعداد : أحمد عبد المجيد هريدى ، القاهرة ١٩٨٦م .

- الحضرة الأنيسية فى الرحلة القدسية ، القاهرة ١٩٠٢م .

العبدرى : (ت ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م) ، موسى بن أحمد بن منصورى العبدرى المغربى المالكى :

- كتاب المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات ، ٤ ج ، دار البيضاء ، ١٩٦٣م .

ابن العبرى : (ت ٦٨٥هـ . / ١٢٨٦م) . أغريغوريوس الملطى بن أهرون :

- تاريخ مختصر الدول ، طبعة بيروت (المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، ١٨٩١م) .

ابن العديم : (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م) كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد
ابن هبة الله الحلبي :

- زبدة الحلب في تاريخ حلب ، نشر : د. سامي الدهان ، جزءان ،
دمشق ١٩٥١م .

العظيمي : (ت ٥٥٦هـ / ١١٦١م) محمد بن علي بن نزار أبو عبد الله
التنوخى :

- تاريخ العظيمي ، نشر : كلود كاهن في المجلة الآسيوية J. A. باريس
١٩٣٨م .

ابن عساكر : (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م) الحافظ ، أبو القاسم علي بن الحسن بن
هبة الله بن عبد الله الشافعي :

- التاريخ الكبير المعروف بتاريخ مدينة دمشق ، تحقيق : د. صلاح الدين
المنجد ، ٥ مجلدات ، دمشق ١٣٢٩ - ١٣٣٢م .

العلمي : (ت ٩٢٧هـ / ١٥٢٢م) أبو اليمن عبد الرحمن بن مجير الدين :

- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ٢ جـ في مجلد ، بيروت
١٩٧٣م .

العماد الأصفهاني : (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) عماد الدين محمد بن محمد
ابن حامد :

- البرق الشامي ، ج ٣ ، تحقيق : د. مصطفى العيادي ، الطبعة الأولى ،
عمان - الأردن ١٩٨٧م . ج ٥ ، تحقيق : د. فالح صالح حسين ،
الطبعة الأولى ، الأردن ١٩٨٧م .

- الفتح لقسى في الفتح القدسي . تحقيق : محمد محمود صبيح ،
القاهرة : ١٩٦٥ .

ابن العماد الحنبلي : (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٩م) أبو الفلاح عبد الحى علي
ابن محمد :

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ٨ أجزاء ، بيروت (ب - ت)

العمرى : (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) شهاب الدين أبو العباس بن فضل الله :

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، دولة المماليك الأولى ، تحقيق :
دوروثيا كرافولسكى ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .

قبائل العرب فى القرنين السابع والثامن الهجريين ، تحقيق :
دوروثيا كرافولسكى ، الطبعة الأولى ب ، بيروت ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م .
ابن العميد : (ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٤ م) جرجس أبو عبد الله بن أبى العميد
الملقب بالمكينى :

- تاريخ ابن العميد المعروف بتاريخ المسلمين ، جزءان ، ليدن ١٩٢٥ م .
العينى : (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن
موسى الشهير بالبدر العينى :

- عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان عصر سلاطين المماليك ، صدر منه
ثلاثة مجلدات تحقيق : د. محمد محمد أمين ، حوادث وتراجم
(٦٤٨ - ٦٦٤ هـ / ١٢٥٠ - ١٢٦٥ م) ، القاهرة ١٤٠٧ هـ /
١٩٨٧ م ، حوادث وتراجم (٦٦٥ - ٦٨٨ هـ / ١٢٦٦ -
١٢٨٩ م) ، القاهرة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م .

الغزى : (ت ١٠١٤ هـ / ١٦٢٢ م) نجم الدين :

- الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة ، ٣ ج ، بيروت ١٩٤٩ م .

ابن الفرات : (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم :

- تاريخ ابن الفرات المعروف باسم : تاريخ الدول والملوك ، المجلد الثانى
(٥٢٢ - ٥٤٣ هـ) ، تحقيق : د. محمد فريد الشيال ، بريطانيا
(١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م) الجزء الرابع والخامس ، تحقيق د. حسن
الشماع ، البصرة (١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م) (١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م)
الجزء السابع تحت اسم : الطريق الواضح السلوك إلى معرفة تراجم
الخلفاء والملوك ، تحقيق : د. قسطنطين رزىق ، د. نجلاء عز الدين ،
بيروت ١٩٤٢ م .

- الأيوبيون والمماليك والصليبيون ، مقتطفات من : تاريخ الدول والملوك ،
فى جزءين ، نشر :

Lyonsm M. C. and Lyons, U., Cambridge - 1971.

ابن الفقيه : (ت ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م) أبو بكر أحمد بن إبراهيم الهمزانى :

- مختصر كتاب البلدان ، طبعة ليدن ، ١٣٠٢ هـ .

- صفة جزيرة العرب ، ليدن ١٨٨٤ م .

ابن القاضي شهبة : (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) ثغر الدين بن أبيب كـر بن
قاضي شهبة الدمشقي :

- تاريخ ابن قاضي شهبة ، مجلد أول ، تحقيق : عدنان درويش ،
دمشق ١٩٧٧م .

القزويني : (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محرز :

- آثار البلاد وأخبار العباد ، نشره وقدم له : جوتنجن ١٨٤٨م .

ابن القلانسي : (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن
محمد التميمي :

- تاريخ دمشق ، نشر د. سهيل ذكار ، الطبعة الأولى ، دمشق ١٤٠٣
هـ / ١٩٨٣م .

القلقشندي : (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد
عبد الله :

- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ١٤ جزء ، القاهرة ١٩١٣ -
١٩١٤م .

- نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، الطبعة الأولى ، بيروت
١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م .

ابن كثير : (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م) عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر
القرشى :

- البداية والنهاية فى التاريخ ، المعروف بتاريخ ابن كثير ، ١٤ جزء ، طبعة
القاهرة ١٣٥١ - ١٣٥٨ هـ .

المسبحي : (ت ٤٢٦هـ / ١٠٣٥م) عز الملك أبو عبيد الله بن إسماعيل بن
عبد العزيز الكاتب :

- أخبار مصر فى سنتين (٤١٤ - ٤١٥ هـ .) ، ج ٤٠ ، تحقيق :
وليم ج. ميلورد ، القاهرة ١٩٨٠م .

المسعودى : (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) أبو الحسن على بن الحسين المسعودى :

- التاريخ اليانع الأزاهر والثمر ، المرسوم بمروج الذهب ومعادن الجوهر ،
الطبعة الأولى بالمطبعة الأزهرية المصرية ، المجلد الأول ١٣٠٣هـ .

المقدسى : (عاش فى القرن الرابع الهجرى / القرن العاشر الميلادى) شمس
الدين أبو عبد الله المعروف بالبشارى :

- أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، الطبعة الثانية ، ليدن ، مطبعة بريل
١٩٠٣م .

المقريزى : (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) تقى الدين أحمد بن على المقريزى :

- اتعاض الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، ج ١-٢ نشر :
د. جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨م . ج ٣ - نشره : د. محمد
حلمى أحمد ، القاهرة ١٩٧٣م .

- البيان والإعراب عما نزل بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق :
د. عبد المجيد عابدين ، القاهرة ١٩٦١م .

- السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر وتحقيق : د. مصطفى زيادة ، الجزء
الأول والثانى ١٩٣٦م ، الجزء الثالث والرابع ، د. سعيد عاشور ،
١٩٧٠ - ١٩٧٤م ، القاهرة .

- ضوء السارى فى معرفة خبر نعيم الدارى ، تحقيق وتعليق : سيد
أحمد عاشور ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة القاهرة فى ٤ مجلدات
١٣٢٤هـ .

ابن معاتى : (ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) أبو المكارم مسعد بن الخطير أبى مسعد :

- قوانين الدواوين ، جمعه ونشره وعلق عليه : د. عزيز سوريال عطية ،
القاهرة ١٩٤٣م .

مؤرخ شامى مجهول : (عاش فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر
الميلادى) :

- البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ،

ed. Clued Cahen, M., in Bulletin D, Etudes Orientales. Tomes
- VII - VIII , Paris 1937 - 1938 , PP. 115 - 158 .

مؤرخ مجهول : (ت ٧٤١هـ / ١٣٤٠م) :

- تاريخ سلاطين المماليك ، نشر زرتشتين مع مقدمة ألمانية ، ليدن
١٩١٩م .

ابن ميسر : (ت ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م) محمد بن علي بن يوسف بن حلب :

- أخبار مصر ، نشر هنري ماسيه ، جزءان ، القاهرة ١٩١٩م .

ناصر خسرو : (ت ٤٥٣هـ / ١٠٦١م) أبو معين الدين العلوى :

- سفر نامه ، نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه : د. يحيى الخشاب ،
الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٤٣م . ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٩٣م .

النويرى : (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب
الكندى :

- نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ٣١ جزء ، مطبوع بالقاهرة ١٩٢٣ -
١٩٨٨م ، وباقى الكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩
معارف عامة .

الهروى : (ت ٦١١هـ / ١٢١٤م) أبو الحسن علي بن أبى بكر الهروى :

- الإشارات إلى معرفة الزيارات ، نشر سوردبل ، دمشق ١٩٥٣م .

ابن واصل : (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) محمد بن سالم ، جمال الدين :

- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ج ١ - ٣ ، تحقيق :
د. جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٦٠ ، ج ٤ تحقيق :
د. حسنين محمد ربيع ، القاهرة .

ابن الوردى : (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن
عمر :

- تيمة المختصر فى أخبار البشر (تاريخ ابن الوردى) ، ٢ ج ، القاهرة
١٨٦٨م .

اليافعى : (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليم :

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ،
٤ ج ، بيروت ١٩٧٤ م.

ياقوت الحموى : (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى
الرومى البغدادى :

- المشترك صقعا و المفقوق وضعا - القاهرة (ب - ت)

- معجم البلدان ٥ ج ، بيروت ١٩٧٥ م.

اليقوى : (ت ٢٨٤هـ / ٨٦٧م) أحمد بن أبى يعقوب بن واضح :

- كتاب البلدان ، طبع على هامش الأعلام النفيسة لابن رسته ، طبعة
ليدن ، بريل ١٨٩١ م.

اليونىنى : (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م) الشيخ قطب الدين موسى بن محمد :

- كتاب ذيل مرآة الزمان ، ٤ ج ، الطبعة الأولى ، حيدرآباد الدكن
(١٩٥٤ - ١٩٦٠م / ١٣٧٥ - ١٣٨١هـ)

Boase , T. S. R.,

Castles and Churches of the Crusading Kingdom , London and New York 1967 . Ecclesiastical Art in the Crusader States in Palestine and Syria : A. Architecture and Sculpture , B. Mosaic , painting , and Minor Arts , in : Setton , IV 1977 , PP. 69 - 139 .

Military Architecture in the Crusader States , in : Setton , Vol. IV , 1977 , PP. 140 - 164 .

Chen, D.,

Measuring the Cave of Abraham in Hebron , in : Liber Anvus Studii Bidlici Franciscani, Vol. 15 , 1987 , PP. 291 - 294 .

Clermond - Ganneau , C.,

Archeological Researches in Palestine during the years 1873 - 1874 , trans. by Aubrey Stewart and John Mac Farlave , 2 vols., London 1896 - 1899 .

Conder , C. R.,

Cenotaphs of the Hebrew Patriarchs at the Cave of Machpella , in : Palestine Exploration Fund Quarterly Statement , October 1882 , PP. 197 - 206 .

Dussand , R.,

Topographie Historique de la Syrie Antique et Medievale , Bidl. AH 4 , Paris 1927 .

Enlart, C.,

Les Monuments des Croises dans le Royaume de Jerusalem : Architecture Religieuse et civile , Bidl AH , 7 - 8 , 2 Vols. and 2 albums of plates , Paris 1925 - 1928 .

Fedden , R. , and J. Thomson , J.,

Crusader Castles , London 1957 .

Grimaldi , A. B.,

Cenotaphs of the Hebrew Patriarchs at the Cave of Mackpelah , in : N. B. I. R. , Glasgow , January , 1911 , PP. 145 - 150 , with 6 plates .

Guerin , V.,

Description Geographique , Historique et Archeologique de la Palestine , accompagnee de cartes detaillies , I. Judee , 3 Vols., Paris 1868 , II . Samarie , 2 Vols., 1874 , III , Galilee , 2 Vols., 1880 .

Jaraslap Folda ,

Crusader Art and Architecture (A Photographic Survey , in : setton K , Vol. IV , PP. 281 - 354 .

Painting and Sculpture in Latin KingDom of Jerusalem , 1099 - 1291, in : Setton , PP. 251 - 280.

Kohler, C.,

L'Invention des Patriarches Abraham , Isaac et Jacob , en : R. O. L., tome IV , Paris 1896 , PP. 477 - 502 .

Lawrence , T. E.,

Crusader Castles , London 1930 .

Metcalf , D. M.,

Coinage of the Crusades and the Latin East in the Ashmolean Museum , Oxford 1983 .

Mueller - Wiener , W.,

Castles of the Crusaders , London 1966 .

Rey , E. G.,

Les Colonies Franques de Syrie aux XII^{me} et XIII^{me} siesdes , Paris 1883 . 1883 .

Saulcy,

Numismatique des Croisades , Paris 1890 .

Smail , R. C.,

Crusaders' Castles of the Twelfth Century , in : Cambridge Historical Journal X , 1950 - 1952 , PP. 133 - 149 .

Vincent , L. H. et Abel, F. M.,
Amous sa Basilique et son Histoire , Paris 1932 .

Vincent , L. H. and Mackay E. J. H. with F. M. Abel,
Hebron : Le Haram el-Khalil , Sepulture des Patriarches , 2 vols., text and
Album of plates , Paris 1923 .

Yarim , Z.,
The Underground Cave of Machpela , Israel - Anvearez 20 - 21 .

خامسا: المراجع الثانوية الاجنبية

Abel , F. M.,

Geographie de la Palestine , Etudes bibliques , 2 vols., Paris 1933 , 1938 .

La Mer Morte , en R. B. , Paris 1929 , PP. 237 - 260 .

Arch Duke Ludwig,

The Caravan Route between Egypt and Syria , trans. from German , London 1881 .

Archer , T. H. and Kingsford , C. L.,

The Crusades : The Story of the Latin Kingdom of Jerusalem , London 1919 .

Atiya , Aziz S.,

The Crusade : Historiography and Bibliography , Bloomington Ind. 1962 .

Aubert , R.,

Dictionnaire d'Histoire et de Geographie Ecclesiastiques Fascules , Paris 1990 , PP. 133 - 134 , 711 - 726 .

Baldwin W. Marshall ,

The Latin States under Baldwin III and Amalric I , 1143 - 1174 , in setton ; Vol. I , 1st ed. 1985 , PP. 523 - 563 .

Barder , E.,

The Crusades , London 1949 .

Benvenisti , M.,

The Crusaders in the Holy Land, Jerusalem 1976 .

The West Bank Pata Project : A Survey of Israel's Policies , American Enterprise Institute for Pacific Research , Washington 1984 .

Beyer , G.,

Die Kreuzfahrergebiete von Jerusalem und St. Abraham (Hebron) , in : Z. D. P. V. LXV 1942 , PP. 165 - 211 .

Die Kreuzfahrergebiete Akko und Galilaea' , in : Z. D. P. V. LXVII 1944 - 1945 , PP. 183 - 260 .

Boase , T. S. R.,

Kingdoms and Strongholds of the Crusaders , London 1971 . .

Cahen , C.,

La Syrie du Nord a l'Epoque de Croisades et la principaute franque d'Antioce, Paris 1940 .

Chalandon , F.,

Histoire de la Premiere Croisade jusqu'a l'election de Godefroi de Bouillon , Paris 1925.

Chen , D.,

Measuring the Cave of Abraham in Hebron , in : Liber Anvus Studii Biblici Franciscani, Vol. 15 , 1987 , PP. 291 - 294 .

Clermond - Ganneau , C.,

Archeological Researches in Palestine during the years 1873 - 1874 , trans. by Aubrey Steward and John Hac Farlane , 2 vols., London 1896 - 1899 .

Conder , C. R.,

Survey of Western Palastine , Memoirs , III Vols.

The Latin Kingdom of Jerusalem 1099 - 1291 A. D., London 1897 , repr. New York 1973 .

Conder , C. R. and Kitchener , H. H.,

The Survey of Western Palestine : Memoirs of the Topography , Orography , Hydrography and Archeology , I. Galilee , London 1881 , II . Samaria , London 1882 .

Delaville Le Roulx , J.,

Les Hospitaliers en Terre Sainte et a Chypre 1100 - 1310 , Paris 1904 .

Deschamps, P.,

La Crac des Chevaliers , Paris 1934 .

Les Chateaux des Croises en Terre - Sainte / " La Defense du Royaume de Jerusalem " , 2 vols., Paris 1939 .

Dodu , G.,

Histoire des Institutions Monarchiques dans le Royaume Latin Jerusalem , Paris 1894 .

Donzel V. E. , Lewis , B. et Pellatch.,

Encyclopedia de l'Islam , tome IV , Paris 1978 .

Duggan , A.,

The Story of the Crusades , London 1963 .

Edbury , P. W.,

Crusade and Settlement : Papers Read at the First Conference of the Society for the Study of the Crusades and the Latin East and Presented to R. C. Smail, Cardiff 1985 .

William of Tyre : A Historian of the Crusades and the Latin Kingdom of Jerusalem 1130 - 1184, in: The Bulletin of the Faculty of Arts in Alexandria University , 1988 .

Fedden , R., and Thomson J.,

Crusader Castles , London 1957 .

Fink Harold's,

The Foundation of the Latin States , 1099 - 1118 , in : Setton I , PP. 368 - 409 .

The Role of Damascus in the History of the Crusades , in: Muslim World XLIX 1959 , PP. 41 - 53 .

Gibb , H. A. R.,

The Aiyubids , in : Setton II 1962 , PP. 693 - 714 .

The Career of Nur - Eddin , in Setton I , 1st ed. 1958 , PP. 513 - 588 .

The Caliphate and Arabi States , in Setton , Vol. I , PP. 81 - 99 .

Zengi amd the Fall of Edessa , in Setton , K. L., Vol. I , ed. 1958 , PP. 449 - 462 .

Glubb , J. B.t,

Soldiers of Fortune , The Story of the Mamlukes , London , 1984.

Goldziher , Ignar Dr.,

Das Patriarchengrab in Hebron nach al-Abdari , in : Z. D. P. V., Bd. XVII , PP. 115 - 122

Gottschalk , H. L.,

Al-Malik Al-Kamil von Agypten und seine Zeit , Eine Studie zur Geschichte Vorderasiens und Agyptens in der ersten Haelfte des 7./13. Jahrhunderts , Wiesbaden , 1958 .

Grousset , R.,

Histoire des Croisades et du Royaume France de Jerusalem , 3 Vols., Paris 1948 .

L'Empire du Levant , Paris 1946 .

L'Epopée des Croisade , Paris 1939 .

Guthe, M. H.,

Die Untersuchung des Patriarchengrabes in Hebron , im Jahre 1119 , in : Z. D. P. V., Bd. XVII , 1894 , PP. 238 - 250.

Hagenmeyer , H.,

Chronologie de la Première Croisade 1094 - 1100 , en : R. O. L., tome VI 1898 . PP. 214 - 293 , 490 - 549 .

Chronologie du Royaume de Jerusalem , in R. O. L., Vol. XI , Paris 1904 - 1907 , PP. 145 - 181 .

Hamilton , B.,

Rebuilding Zion : The Holy Places of Jerusalem in the Twelfth Century , in Monastic Reform , Catharism and the Crusades 900 - 1300 , Varior. repr. London 1979 , PP. 105 - 116 .

The Elephant of Christ , Reynald of Chatillon , in Monastic Reform Catharism and the Crusades - 900 - 1300 , varior. repr. London 1979 , PP. 97 - 108 .

The Latin Church in the Crusader States , London 1980 .

Heyed , W.,

Histoire de Commerce du Levant , 2 vols., Paris 1936 .

Hiestand , R.,

Kardinalbisch of Matthaeus von Albano , das Konzil von Troyes und die Entstehung des Templerordens , in : Zeitschrift fuer Kirchengeschichte , 1988 , PP. 295 - 323 .

Hoade , O. F. U. Eugene,

Guide to the Holy Land , nineth edition , Jerusalem 1978 .

Holmes , U. T.,

Urban life Mind in Palastine and Syria in twelfth thirteenth centuries , in : Setton , Vol. IV , PP. 3 - 35 .

Holt, P. M., Lambton., A. K. S. , and Lewis, B, eds,

The Cambridge History of Islam , Vol. I, The Central Islamic Lands , Cambridge , England 1970 .

Humphreys , R. S.,

From Saladin to the Mongols : the Ayyubids of Damaskus 1193 - 1260 , Albany , New York 1977 .

Jacoby, D.,

Recherches sur la Mediterranee Orientale du XIIe au XVe siecle : Peuples , societes , economies , varior , repr., Cs 105, London 1979 .

Jaussen , J. A.,

Inscription Couiques de la Chaire du Martur al-Husayn a Hebron , en : Revue Biblique , Paris 1923 , PP. 576 - 596 .

Johns , C.N.,

Palestine of the Crusades : a Map of the Country with Historical Introduction and Gazetteer , Survey of Palestine , 3 rd ed., Jaffa 1946 .

Karmon , Yahuda.,

Changes in the Urban Geography of Hebron during the 19th Century , in : Studies on Palestine during the Ottoman Period , Maoz Moshe ed., Jerusalem 1975 , PP. 70 - 86 .

Israel , a Regional Geography , London 1971 .

Kedar , B. Z.,

Crusade and Mission : European Approaches toward the Muslims , Princeton 1984 .

Gerard of Nazareth , Neglected Twelfth Century Writer in the Latin East : Contribution to the Intellectual and Monastic History of the Crusader States , in : D Oaks P, XXXVII 1983 , PP. 55 - 77 .

The General Fax of 1183 in the Crusading Kingdom of Jerusalem : Innovation or Adaption in : E. H. R. LXXXIX 1974 , PP. 339 - 345 .

The Subjected Muslims of the Frankish Levant , in : Muslims under Latin Rule 1100 - 1300 , J. M. Powell ed., Princeton 1990 , PP. 135 - 174 .

Kedar , B. Z., H. E. Mayer and R. C. Smail, (eds.),

Outremer - Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem Presented to Joshua Prawer 1982 .

King, E.,

The Knights Hospitallers in the Holy Land , London 1931 .

Krenkow , F.,

The Grante of Land by Mohammad to Tamim ad-Dari , in : Islamica , vol. Primum , London 1925 , PP. 529 - 532 .

La Monte , J. L.,

Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem 1100 - 1291 , New York 1970 .

The Viscounts of Naplouse in the Twelfth Century , Syria XIX 1938 , PP. 272 - 278 .

Lane Poole , S.,

Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem , Heroes of the Nations 24 , New York and London 1926 , repr. New York 1978 .

Le Strange , G.,

Palestine under the Moslems : a Description of Syria and the Holy Land from 650 to 1500 A. D., London 1890 .

Le Viere Leiser , G.,

The Crusader Raids in the Red Sea in 578 / 1182 - 1183 , in : Journal of the American Research Center in Egypt , XIV 1977 , PP. 87 - 100 .

Lewis , B.,

Egypt and Syria in the Cambridge History of Islam , Vol. I , Cambridge 1970 .

Saladin and the Assassins , in : Bulletin of the School of Oriental and African Studies , XV 1953 , PP. 239 - 245 .

The Ismailities and the Assassins , in : Setton I 1955 , 2nd ed. 1969 , PP. 99 - 132 .

Lanez La Carerue , A. M.,

Macpela , en : Dictionaire de la Bible , Tome VI , Paris 1905 , Cols. 519-532 .

Lyonr (M. C.) and Jakson , P. E. P. ,

Saladin : The Politics of the Holy War , Cambridge 1982 .

Mann, J.,

The Jews in Egypt and in Palastine under the Fatimid , First Publication , 2 Vols., Oxford 1922 .

Mas Latrie , L. de.,

Histoire de l'Ile de Chypre sous le Regne des Princes de la Maison de Lusignan , 3 vols., Paris 1852 - 1861 , repr. 4 vols., Famagusta 1970 .

La Terre de l'autre Jourdain et ses Premiers seigneurs , en: B. E. Char. XXXIX 1878 , PP. 416 - 420 , and Errata on P. 588 .

Les Seigneurs du Crac de Montreal appeles d'abord seigners dela terre au dela du Jourdain , Arch. Ven. XXV, PP. 475 - 494 .

Maspero , G.,

The Struggle of Nations , London 1925 .

Mayer , H. E.,

Bibliographie zur Geschichte der Kreuzzuege , 2nd. unrevised ed., Hanover 1965 .

Bistuermer , Kloester und Stifte im Koenigreich Jerusalem Schriften der M. G. H. 26 , Stuttgart 1977 .

Die Herrschaftsbildung in Hebron , in : Z. D. P. V. CI 1985 , PP. 64 - 81 .

Die Seigneurie de Joscelyn und der Deutsche Orden , in ; Die Geistlichen Ritterorden Europas , ed. J. Fleckenstein und M. Hellmann , Vortraege und Forschungen 26 , Sigmaringen 1980 , PP. 171 - 216 .

Ibelin versus Ibelin : the Struggle for the Regency of Jerusalem 1253 - 1258 , Proceedings of the American Philosophical Society 122 ,

Philadelphia 1978 , repr. in : P. L. K. J., V., PP. 25 - 57 .

Kreuzzuege und lateinischer Osten , Varior . Reper. 171 , London 1983 .

Latins , Muslims and Greeks in the Latin Kingdom of Jerusalem , History 63 , London 1978 , repr . in : P. L. K. J. VI, PP. 175 - 192 .

Studies in the History of Queen Melisende of Jerusalem , D. O. P. , XXVI 1972 .

The Crusades , London 1978 .

The Crusader Lordship of Kerak and Shaubak , some preliminary , remarks , in : s. H. A. J, Vol. III , Aman 1987 , PP. 197 - 203 .

Michaud , J. F.,

History of the Crusades , trans. from the original by W. Robson , 3 Vols., London 1852 .

Michelant , H. V. and Raynaud, G. , (eds.)

Itinéraires a Jerusalem et Descriptions de la Terre Sainte Rediges en francais aux XIe , XIIe et XIIIe siecles , Geneva 1882 .

Moeller , Ch.,

Les Flamansh du Ternois au Royaume latin de Jerusalem , ed. Melanges paul Fredericq, Bruessel 1904 , PP. 192 .

Morgan , M. R.,

The Chronicle of Ernoul and the Continuations of William of Tyre , Oxford 1973 .

Munk, S.,

Palestine : Description , Geographique , Historique et Archeologique , Paris 1863 .

Nicholson , R. L.,

The Growth of the Latin States 1118 - 1144 , in : Setton , vol. I.

Oman , C.,

History of the Art of War in the Middle Ages , 2nd ed., 2 vols., New York 1924 .

Ostrogorsky, G.,

History of the Byzantine State , trans. by J. Hussey , Oxford 1956 .

Paine Lauran ,

Saladen : A Man for Ages , London 1974 .

Pernoud , R.,

The Crusades , trans. from the French by Enid Grant , London 1963 .

Prawer, J.,

Colonisation Activities in the Latin Kingdom of Jerusalem , *Revue belge de philologie et d'histoire* 29 , 1951 , PP. 1063 - 1098 .

Crusader Institutions , Oxford 1980 .

Histoire du Royaume latin de Jerusalem , trans. by G. Nahon and rev. by the author , 2vols., Paris 1969 - 1970 , 2nd ed. 1975 .

Les Premiers Temps de la féodalité dans le Royaume latin de Jerusalem , in : *Tijdschrift voor Rechtsgeschiedenis* XXII 1954 , PP. 401 - 424 , rev. trans. in : *Crusader Institutions*, PP. 3 - 19 .

The Latin Kingdom of Jerusalem : European Colonialism in the Middle Ages , London 1972 .

Social Classes in the Crusader States : the ' Minorities ' , in *Setton* , Vol. V, 1985, PP. 59 - 116 .

The World of the Crusaders , London 1972 .

Prawer , J., and Benvenisti Meron,

Palestine under the Crusaders , map with commentary and bibliography , in : *Atlas of Israel* , Jerusalem and Amsterdam 1970 .

Raikes , T.,

The Character of the Wadi Arba , in : *S. H. A. J.*, Vol. II, Amman 1985 , PP. 95 - 102 .

Repertoire Alphabetique,

Des Monasteres de Palestine , in : *R. O. Cret.*, Vol. IV Part I et Vol. V , Paris 1899 - 1900 , PP. 19 - 48 et PP. 272 - 292 .

Rey, E. G.,

Chartes de l'Abbaye du Mont - Sion , en: *M. S. A. F.*, ser 5 , 8 , 1887.

Les Familles d'Outre - mer de du Cange , Paris 1896 .

Les Seigneurs de Barut , in : *R. O. L.*, tome IV , Paris 1896 , PP. 12 - 18 .

Les Seigneurs de Montreal , in : *R. O. L.* , tome IV , Paris 1896 .

Recherches Geographiques et Historiques sur la Domination des Latins en Orient , Paris 1877 .

Richard , J.,

About an account of the battle of Hattin referring to the Frankish mercenaries in oriental Moslem states , in : *Speculum* XXVII ,

Cambridge 1952 , repr. in : O. O. M. , XIII , PP. 168 - 177 .

Agricultural Conditions in the Crusader States , in : Setton , Vol. V , PP. 251 - 294 .

Hospitals and Hospital Congregations in the Latin Kingdom during the first period of the Frankish Conquest , in : C. M. V. , London 1983 , PP. 89 - 100 .

The Latin Kingdom of Jerusalem , 2 Vols., trans. from the original by Jenat Shirly , Amsterdam 1979 .

Les Navigations des Occidentaux sur l'Océan Indien et la Mer Caspienne (XIIe - XVe siècles) ed. O. O. M., XXXI , London 1976 , PP. 353 - 363 .

Richards , D. S.,

The Mamlok Bareed (some evidence from the Haram documents) in S. H. A., vol. III , Amman 1987 , PP. 205 - 213 .

Riley - Smith , J.,

Latin Titular Bishops in Palestine and Syria , 1137 - 1291 , in : Catholic Historical Review LXIV , 1978 .

Some Lesser Officials in Latin Syria , in : E. H. R. 87 , 1972 , PP. 1 - 27 .

The Atlas of the Crusades , London 1991 .

The Crusades : A Short History , London 1987 .

The feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem 1174 - 1277 , London 1973.

The First Crusade and the Idea of Crusading , Philadelphia and London 1986 .

The Knights of St John in Jerusalem and Cyprus , 1050 - 1310 , London and New York 1967 .

The Motives of the Earliest Crusaders and the Settlement of Latin Palestine , in : H. R. XCVIII 1983 , PP. 721 - 736 .

The Title of Godfrey of Bouillon , in : B. I. H. R. 52 , 1979 .

What were the Crusades ? , London 1977 .

Roehricht , R.,

Geschichte des Ersten Kreuzzuges , Innsbruck 1901 .

Geschichte des Konigreichs Jerusalem , Innsbruck 1898 .

Studies zur mittelalterlichen Geographie und Topographis Syriens , ed. Z. D. P. V. , X , Berlin 1887 , PP. 194 - 345 .

Syria Sacra , in : Zeitschrift des deutschen Palaestinavereins 10 , 1887 .

Romann, M.,

Jewish Kiriya Araba Versus Hebron , ed. Marcia Kretzmer, Israel 1986 .

Runciman, S.,

A History of the Crusades , 3 Vols., Cambridge , 1951 - 1954 .

The Crusader States 1243 - 1291 , in : Setton , Vol. II 1962 , 2nd ed. 1969 , PP. 557 - 598 .

The Families of Outremer : The Feudal Nobility of the Crusader Kingdom of Jerusalem , 1099 - 1291 , The Creighton Lecture in History , 1959 , London 1960 .

The First Crusade : Constantinople to Antioch , in : Setton, Vol. I 1955 , 2nd ed. 1969 , PP. 280 - 304 , and ... : Antioch to Ascalon , ibid., PP. 308 - 341 .

Russell, J. C.,

Medieval Regions and their Cities , Newton Abbott 1972 .

The Population of the Crusader States , in : Setton , Vol. V 1985 , PP. 295 - 314 .

Schlumberger, G.,

Campagnes du Roi Amaury I de Jerusalem , Paris 1906 .

Numismatique de l'Orient latin , Paris 1878 , repr. Graz 1954 , Supplement Paris 1882 .

Renaud de Chatillon , Paris 1898 .

Sharon, M.,

The political role of the Bedouins , in : Studies on Palestine during the Ottoman Period , ed. Maoz Moshe , Jerusalem 1975 , PP. 11 - 30 .

Siberry, E.,

Criticism of Crusading 1095 - 1274 , Oxford 1985 .

Smail, R. C.,

Crusaders' Castles of the Twelfth Century , in : Cambridge Historical Journal X , 1950 - 1952 , PP. 133 - 149 .

Crusading Warfare , Cambridge 1987 .

The Crusaders in Syria and the Holy Land , London 1973 .

The International Status of the Latin Kingdom of Jerusalem 1150 - 1192 , in : The Eastern Mediterranean Lands in the Period of the Crusades , Holt P. M. ed. , Warminster 1977 , PP. 23 - 43 .

Smith , G. A.,

The Historical Geography of the Holy Land , especially\ in relation to the history of Israel and of the Early Church , 20th ed. , London .

Stevenson , W.,

The Crusaders in the East , Beirut 1968 .

Syrie - Palestine - Iraq - Transjordanie , les Guides Bleus , Paris 1932 .

Tibbe , Steven,

Monarchy and Lordships in the Latin Kingdom of Jerusalem , Oxford 1989 .

Tobler , T., (ed).,

Descriptions Terrae Sanctae ex saeculo VIII., IX., XII., et XV., Leipzig 1874 .

Treece Henry,

The Crusades , London 1962 .

Vigouroux , F.,

Hebron , en : Dictionnaire de la Bible , tome III , Paris 1903 , Cols. 553 - 562 .

Mambre , en : Dictionnaire de la Bible , Tome IV , PP. 625 - 636 .

Volney , M.,

Volney's Travel , 2 vols., London 1787 .

Wuestenfeld , Heinrich F., and Eduard Mahler ,

Vergleichungstabellen zur muslimischen und iranischen Zeitrechnung mit Tafeln zur Umrechnung orient - christlicher Aeren , 3rd rev. ed. of Vergleichungstabellen der mohammedanischen und christlichen Zeitrechnung unter Mitarbeit von Joachin Mayr , Mainz and Wiesbaden 1961 .

Zayadine , Fawzi,

Caravan Routes Between Egypt and Nabataea and the Voyage of Sultan Baibars to Petra in 1276 , in : S. H. A. J., Vol. II , Amman 1985 , PP. 159 - 173 .

سادسا: المراجع الثانوية العربية والمعرّبة

إبراهيم خميس إبراهيم : (دكتور)

- جماعة الفرسان الداوية وعلاقاتهم السياسية بالمسلمين في الشرق الأدنى حتى نهاية حكم صلاح الدين الأيوبي (١١١٨ - ١١٩٣ م)
(٥١٢ - ٥٨٩ هـ) .

إبراهيم زكى خورشيد :

- دائرة المعارف الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٦ م .

أحمد رمضان أحمد : (دكتور)

- (الخليل) بحث مستخرج من أعمال ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط ،
المجلد الأول ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٨٢ م . ، ص ٦١ - ٧٤ .

- تاريخ سيناء فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٦ .

أسامة زكى زيد : (دكتور)

- حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين فى عهد الوزير الفاطمى
الأفضل (١١٠١ - ١١٠٥ م / ٤٩٥ - ٤٩٩ هـ) مجلة كلية
الآداب - عدد ٢٩ لعام ١٩٨١ م . مطبعة جامعة الإسكندرية ١٩٨١
- ص ٢٥ - ٦٩ .

جمال الدين الشيال : (دكتور)

- مجموعة الوثائق الفاطمية ، الجزء الأول (وثائق الخلافة والوزارة)
طبعة ثانية ، الإسكندرية ١٩٦٥ م .

جوزيف نسيم يوسف : (دكتور)

- العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى ، طبعة ثانية ،
الإسكندرية ١٩٦٧ م .

- العدوان الصليبي على بلاد الشام ، هزيمة لويس التاسع فى الأراضى
المقدسة ، الإسكندرية ١٩٧١ م .

حسن حبشى : (دكتور)

- الحرب الصليبية الأولى ، القاهرة ١٩٥٨ م .

حسن عبد الوهاب حسين : (دكتور)

- تاريخ جماعة الفرسان التيوتون فى الأراضى المقدسة ، الإسكندرية ١٩٨٩ م .

- تاريخ قيسارية الشام فى العصر الإسلامى ، الإسكندرية ١٩٩٠ م .

حسين محمد عطية : (دكتور)

- إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون (١١٧١ - ١٢٦٨ م / ٥٦٧ - ٦٦٦ هـ) ، الإسكندرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٩ م .

خليل أبو رجلى :

- الثروة الحيوانية فى فلسطين المحتلة ، بيروت ، ١٩٧١ م .

السيد الباز العرينى : (دكتور)

- مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .

السيد عبد العزيز سالم : (دكتور)

- التاريخ والمؤرخون العرب ، الإسكندرية ١٩٨١ م .

- طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى ، الإسكندرية ١٩٦٧ م .

سليم عادل عبد الحق :

- إسهام فى دراسة الزواج الإسلامى بين القرنين الثامن والخامس عشر الميلاديين ، مجلة الحوليات الأثرية السورية ، تصدرها المديرية العامة للآثار والمتاحف فى الجمهورية العربية السورية ، دمشق ، المجلد الثامن من ١٩٥٨ - ١٩٥٩ م .

سعيد عبد الفتاح عاشور : (دكتور)

- الحركة الصليبية ، صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى ، جزآن ، القاهرة ١٩٦٣ م .

سعيد عبد الله جبريل البشاوى : (دكتور)

- الممتلكات الكنسية فى مملكة بيت المقدس الصليبية ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٠ م .

- نابلس فى عصر الحروب الصليبية ، ٤٩٢ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٩ - ١٢٩١ م . الطبعة الأولى ، عمان ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .

صلاح الدين محمد عبد القادر نوار : (دكتور)

- تاريخ الشام السياسى خلال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، رسالة دكتوراه لم تطبع بعد ، الإسكندرية ١٩٨٩ .
- سياسة الخلافة الفاطمية فى الشام فى عهد الوزير بدر الجمالى وابنه الأفضل (٤٦٦ - ٥١٥ هـ / ١٠٧٥ - ١١٢١ م) رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، جامعة إسكندرية ١٩٨٤ م.

طه ثلجى الطراونة : (دكتور)

- مملكة صفد فى عهد المماليك ، بيروت ١٩٨١ م.

عارف العارف :

- تاريخ القدس ، القاهرة ١٩٥١ م.
- قبائل بئر سبع وعشائرها ، القدس ١٩٣٤ م.
- القضاء بين البدو ، القدس ١٩٣٣ م.

عبد القادر الريحاوى : (دكتور)

- المدرسة الجقمقية ، مجلة الحوليات الأثرية السورية ، تصدرها المديرية العامة للآثار والمتاحف فى الجمهورية العربية السورية ، المجلد العاشر ١٩٦٠ م.

على أحمد السيد :

- إمارة الجليل تحت حكم اللاتين ودورها السياسى فى الصراع الصليبي الإسلامى فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى (١٠٩٩-١١٥٤ م / ٤٩٢-٥٤٩ هـ) ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، جامعة الإسكندرية ١٩٨٨ م.

على السيد على : (دكتور)

- القدس فى العصر المملوكى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨٦ م.

عمر الصالح البرغوتى : (دكتور)

- تاريخ فلسطين ، القدس ١٩٢٣ م.

عمر كمال توفيق : (دكتور)

- المؤرخ وليام الصوري ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية العدد ٢١ ، ١٩٦٧م ، ص ١٨١ - ٢٠٠ .

- مملكة بيت المقدس الصليبية ، الإسكندرية ، ١٩٥٨ م .

- مقدمات العدوان الصليبي على بلاد الشام ، الإسكندرية ، ١٩٦٦ م .

فيليب حتى :

- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق ، جزءان ، بيروت ١٩٥٨ م .

محمد جمال الدين سرور : (دكتور)

- سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة ١٩٦٧ م .

- مصر في عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٦٠ م .

- النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، القاهرة ١٩٦٤ م .

محمد كرد على :

- خطط الشام ، ٦ أجزاء ، دمشق ١٩٢٥ - ١٩٢٨ م .

محمد محمد مرسى الشيخ : (دكتور)

- الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين ، الطبعة الأولى ، إسكندرية ١٩٨٠ م .

- الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها ، الإسكندرية ١٩٧٤ م .

محمود سعيد عمران : (دكتور)

- الحملة الصليبية الخامسة - حملة جان دى برين على مصر (١٢١٨ - ١٢٢١ م / ٦١٥ - ٦١٨ هـ) ، الإسكندرية ١٩٧٨ .

- السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل الأول كومنين ، الإسكندرية ١٩٨٥ .

- القادة الصليبيون الأسرى فى أيدى الحكام المسلمين ٤٩٣ - ٥٣١ هـ / ١١٠٠ - ١١٣٧ م ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

محمود محمد الحويرى : (دكتور)

- بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها فى التصدى للصليبيين ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٩٢ م .

مصطفى محمد الحناوى : (دكتور)

- جماعة الفرسان الإستبارية ودورها فى الصراع الصليبي الإسلامى فى عصر الحروب الصليبية (١٠٩٩ - ١٢٩١ م / ٤٩٣ - ٦٩٠ هـ) ، رسالة ماجستير لم تطبع بعد ، جامعة المنيا ١٩٨٠ م / ١٤٠٠ هـ .

مصطفى مراد الدباغ :

- بلادنا فلسطين ، الجزء الخامس ، القسم الثانى « فى ديار الخليل » ، خليل الرحمن ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

- بلادنا فلسطين ، ج ١ ، ق ١ ، الطبعة الأولى ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

- القبائل العربية فى فلسطين وشمائلها ، بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

نظير حسان سعداوى :

- التاريخ الحربى المصرى ، القاهرة ١٩٥٧ م .

- جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، القاهرة ١٩٥٦ م .

نعوم شقير :

- تاريخ سينا القديم والحديث وجغرافيتها ، مطبعة المعارف ، القاهرة ١٩١٦ م .

نعيم زكى فهمى : (دكتور)

- طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، الهيئة المصرية للكتاب عام ١٩٧٣ م.

يوسف الدبس :

- تاريخ سوريا ، بيروت ١٩٠٠ م.

يوشع براور :

- عالم الصليبيين ، ترجمة د. قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨١ م.

سابعاً : الدوريات ودوائر المعارف

Bibliothèque de L'Ecole des Chartes .

Bibliothèque des Ecoles Françaises d'Athènes et de Rome .

Bulletin Historique et Philologique du Comité des Travaux Historiques et Scientifiques.

Bulletin of the Institute of Historical Research .

Byzantion

Cambridge History of Islam , 3 Vols., Cambridge 1970 - 1971 .

Cambridge Medieval History , 8 Vols., Cambridge 1911 - 1936 .

Catholic Historical Review

Dictionnaire d'Histoire et de Géographie Ecclesiastique .

Dictionnaire de la Bible

Dumbarton Oaks Papers

Encyclopedia Americana , International Edition , 30 Vols., New York , 1829 - 1976 .

Encyclopedia d'Islam , X Vols., Paris 1990 .

English Historical Review

Israel Exploration Journal .

Journal Asiatique .

Journal of the Royal Asiatic Society

Mémoires de L'Institut National de France , Académie des Inscriptions et Belles - Lettres .

Mémoires de la Société Nationale des Antiquaires de France .

The New Encyclopedia Britannica , 29 Vols. + 4 Vols. Index , Chicago , 1968 - 1990 .

Palastine Exploration Fund Quarterly Survey .

Revue Biblique

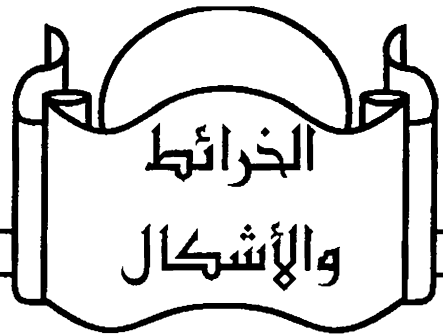
Revue Historique

Revue Historique de Sud - Est Européen

La Rouse Elementaire

Speculum

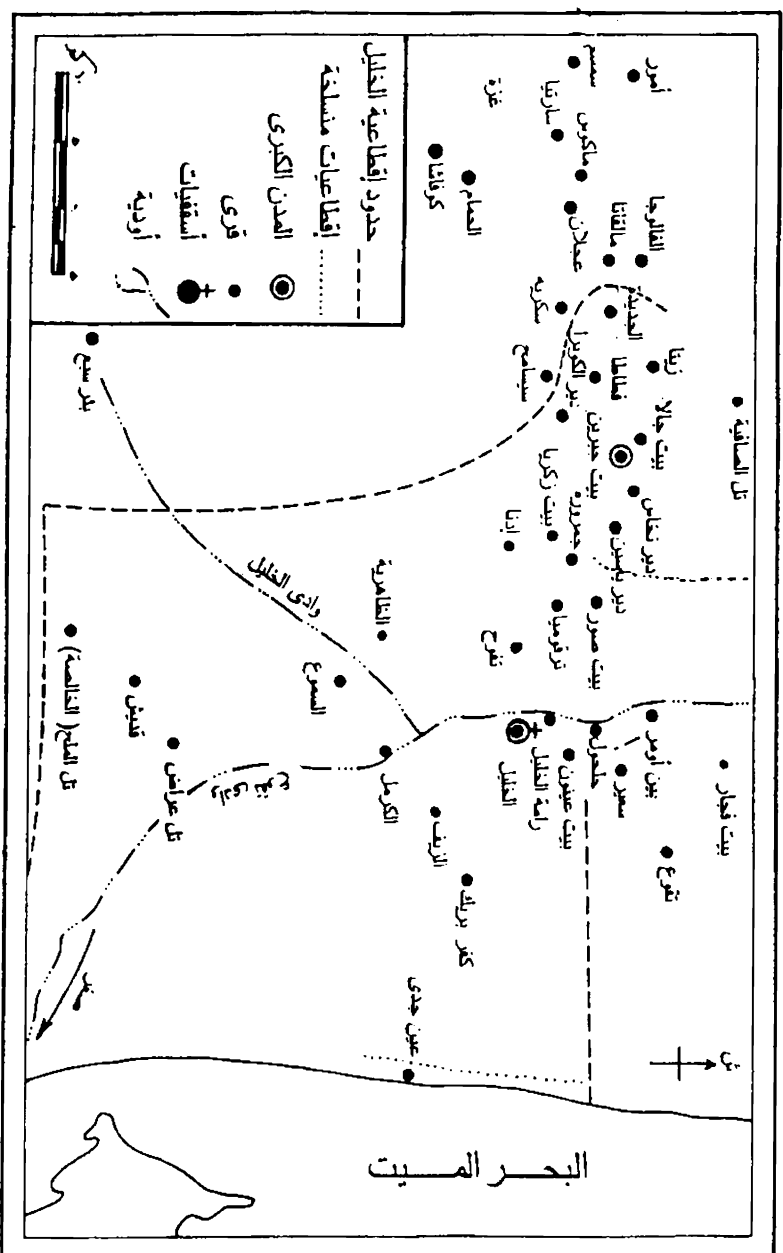
Zeitschrift des deutschen Palaestinaverains .

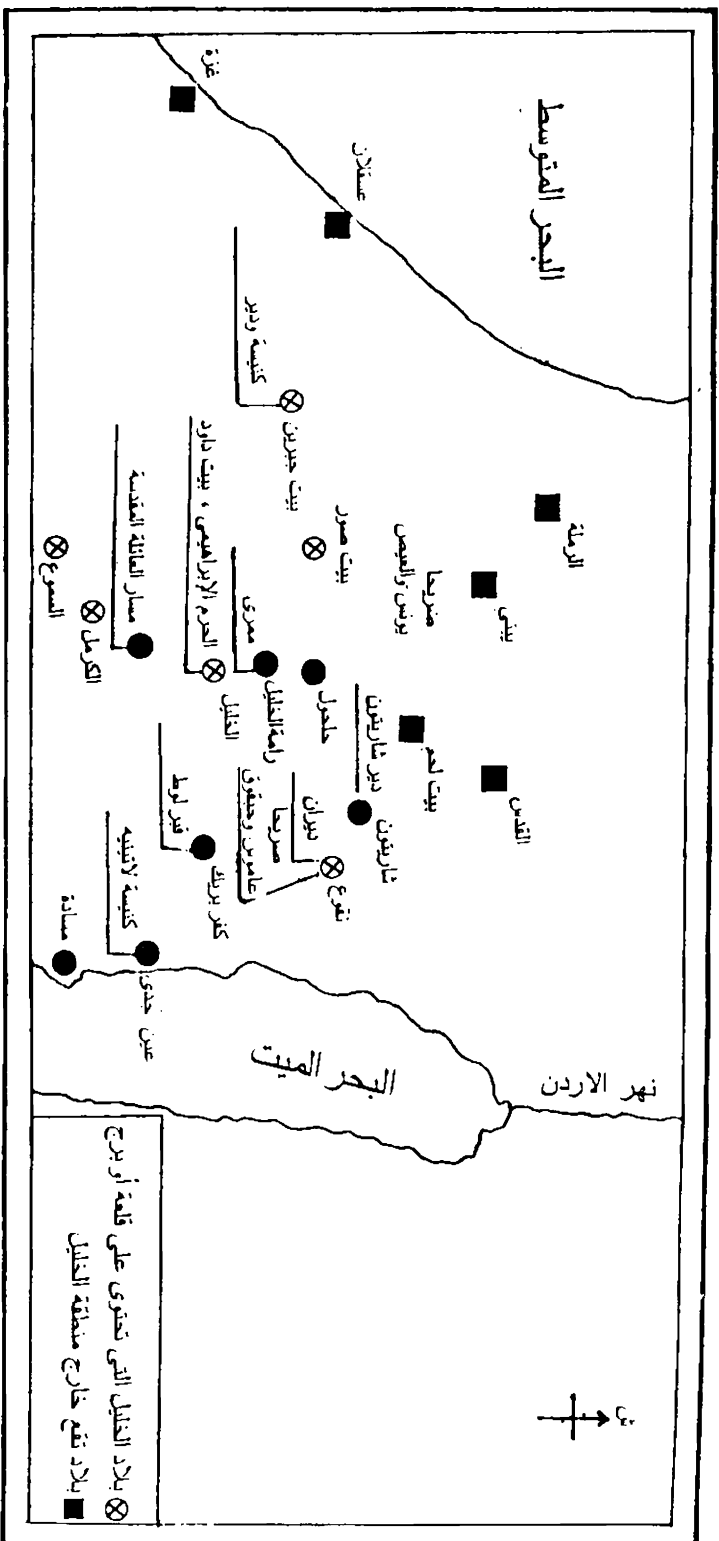


■ الخرائط.

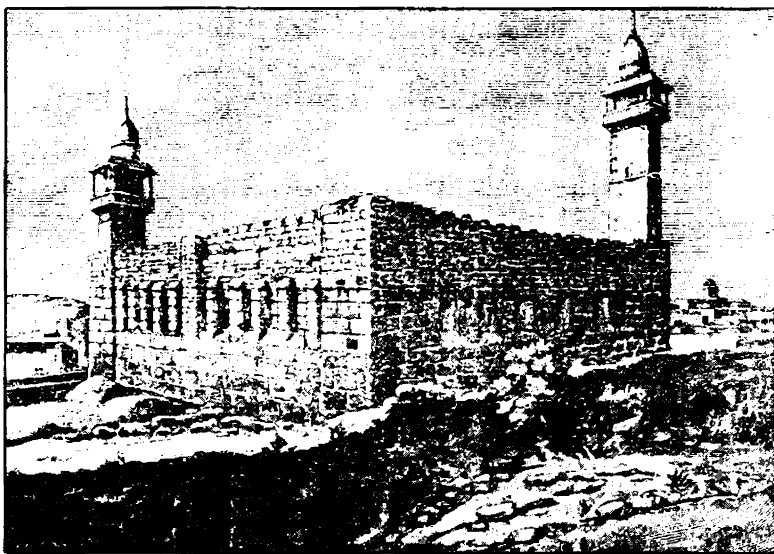
■ الأشكال.

الغرائط والأشكال التي تخدم بعض جوانب البحث

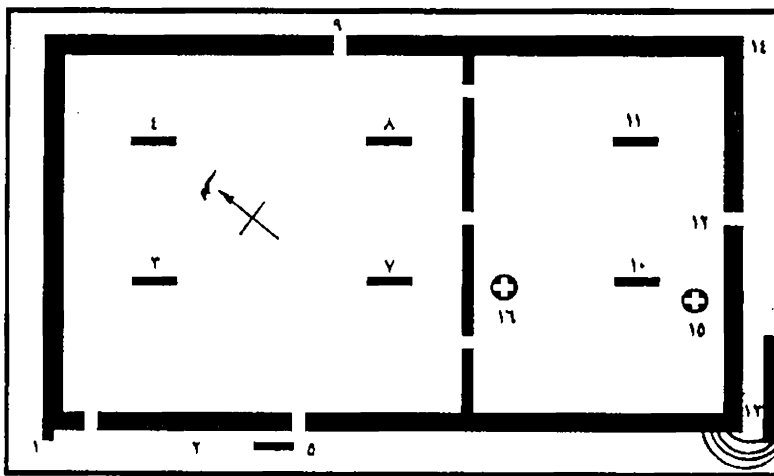




خريطة (٢) أمكن الزبارة والقلاع والأبراج الصليبية في الخليل
مقياس رسم ١:٤٥٠٠٠٠



شكل (١) الحرم الابراهيمي من الخارج . نقلاً عن :
Vigouraux F. Hebrons cols. 559 , 560



شكل (٢) رسم تخطيطي لأجزاء الحرم الداخلية

١- مدخل	٩- مدخل
٢- مسجد يوسف	١٠- مشهد إسحاق
٣- مشهد يعقوب	١١- مشهد ربيعة
٤- مشهد ليا	١٢- محراب
٥- مشهد يوسف	١٣- المدخل الرئيسي
٦- الساحة الداخلية	١٤- مدخل
٧- مشهد إبراهيم	١٥- فتحة مغلقة
٨- مشهد سارة	١٦- فتحة بالأرضية

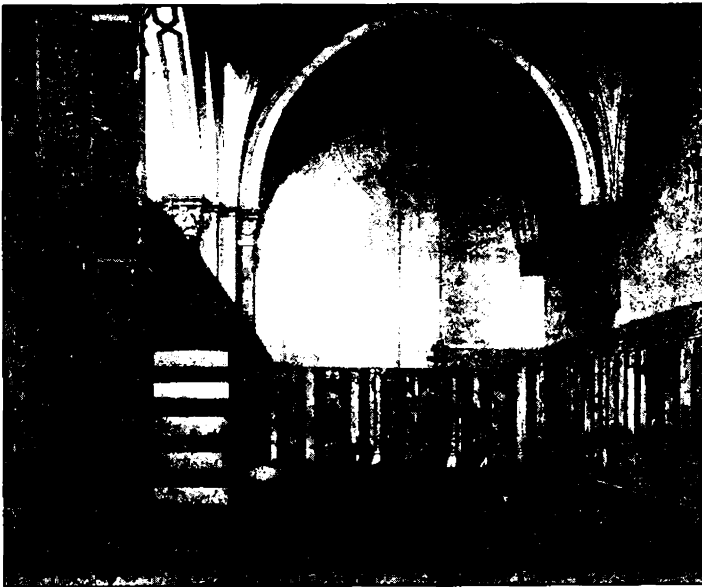
كادرانية سانت أبراهام



شكل (٤) السور القديم



شكل (٣) صحن الكاندرائية



شكل (٥) المقطع الجانبي من جهة الشمال الشرقي